# المسيحيّة عَبرَ العُصُور

## تاريخ الكنيسة المسيحية

ايرل كيرنز

نسخة منقحة ومزيدة

# المسيحية
# عبر العصور

## تاريخ الكنيسة المسيحية

ايرل كيرنز

نسخة منقحة ومزيدة

ترجمة

عاطف سامي برنابا

Originally published in the U.S.A.
under the title
CHRISTIANITY THROUGH THE CENTURIES


الناشر

ICI

ص.ب. ٥٧٤٩ نيقوسيا – قبرص

مطبوع لصالح
كوكب الصبح



# إهـداء

إلى هيلــين وبــروس

رقـم الإيـداع : ٧٧٥٣ / ١٩٩٢

طبـع بـدار نوبــار للطباعـة

# المحتويات

## فهرس الرسوم التخطيطية

## فهرس الخرائط



## فهرس الصور والوثائق

# تمهيد

لو رجعنا إلى وثائق تاريخ الكنيسة المتاحة، لوجدنا أن معظمها يعكس تحيزاً طائفياً أو لاهوتياً معيناً. أما هذا الكتاب فقد كُتب من منظور لا طائفي محافظ. ويتخلل مادة الكتاب الفلسفة المسيحية للتاريخ.

ولأننا لن نستطيع فهم تاريخ المسيحية بعمق دون التعرف على المفاهيم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والفنية في كل حقبة من هذا التاريخ، فأحداث تاريخ الكنيسة ترتبط بالبيئة الدنيوية. فوضع الأشخاص والأماكن والتواريخ والأحداث والأفكار والنزعات والحركات في مواضعها الزمنية والجغرافية الأصلية يساعد الإنسان على الإلمام بمسار تاريخ الكنيسة. وقد أعطيت اهتماماً لتأثير المسيحية على الأزمنة وتأثر المسيحية بها وقد حاولت أن أربط المعلومات والاستنتاجات والتفسيرات في إطار مناسب لحاضرنا.

وإنني لأشعر بالإمتنان إذ أنه بعد خمسة وعشرين عاماً من استخدام المعلمين والطلبة وعامة المسيحيين لهذا الكتاب فمازال الإقبال عليه شديدا مما مكنني من مراجعته وتطويره. وأنا أعزو تطويره إلى كثير من الاقتراحات البناءة، من العديد من القراء، التي ساعدتني على جعله أكثر دقة ووضوحاً.

وقمت بإضافة عدة خرائط ورسومات توضيحية للمساعدة على فهم العلاقات والحركات التاريخية. كما أضفت أيضا عدة صور مع بيان بالمؤلفات المتعلقة بتاريخ الكنيسة تضمنته المقدمة وبدايات كل من الحقب الثلاث الرئيسية في تاريخ الكنيسة. كما تم الاستفاضة في خاتمة كل فصل حتى يتاح للقارئ اختيار ما يراه من الكتب المتاحة. وقد أعدت كتابة بعض الأجزاء وزدت عليها وتوسعت في أخرى مثل تلك التي تناولت الفلسفة المدرسية Scholasticism ، والإصلاح الثوري Radical Reformation ، والكاثوليكية الرومانية Roman Catholicism والكنائس الشرقية. وقد راجعت ونقحت الحقبة التالية للحرب العالمية الأولى واضعاً في اعتباري التغييرات الجديدة للحركة المسكونية عند الكاثوليك والإنجيليين بصفة خاصة.

وأتمنى أن يدرك الكثيرون من خلال قراءة هذا الكتاب، تراثهم الروحي وأن يتعرفوا على أسلافهم في خدمة الله ومعاصريهم في الكلمة والعمل في عصر سادت فيه الفلسفة الوجودية. أنني أدرك الدور الذي لعبه الكثير من زملائي من الأساتذة والطلبة وكُتّاب آخرين ممن ساهموا معي في تطوير الكتاب وأنا أثق في إعلاء اسم المسيح وبنيان الكنيسة من خلال هذا الكتاب.

ايرل كيرنز

ويتون ، إلينوي

# المقدمة

تميز الإنسان بفضوله نحو الماضي وذلك منذ أيام نابونيدس Nabonidus الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد وحتى عصر علماء الآثار والمؤرخين في عصرنا الحاضر. وللمسيحيين اهتمام خاص بالتاريخ لأن أساسات إيمانهم متأصلة في التاريخ. وقد صار الله إنساناً متجسداً في المسيح وعاش في الوقت والمكان المحددين. وقد صارت المسيحية أوسع الأديان انتشاراً في العالم من بين كل الأديان التي ظهرت في الماضي في كلٍ من الشرق الأقصى والأدنى، بالإضافة إلى تزايد تأثيرها المستمر في تاريخ الجنس البشري. ولهذا أضحى تاريخ History الكنيسة يمثل نقطة اهتمام أساسية لكل مسيحي يرغب في التعرف على نسبه الروحي ليحاكي الأمثلة الصالحة في الماضي ويتفادى الأخطاء المتكررة التي وقعت فيها الكنيسة.

## ١- ما المقصود بتاريخ الكنيسة؟

تشير صيغة الاسم الألماني Geschichte وهي مشتقة من فعل يعني حدوث الشئ، تشير إلى التاريخ كحدث وليس كمراحل متتابعة أو نتائج أفرزتها الأحداث. وبهذا يتم تعريف التاريخ مبدئياً على أنه حدث حقيقي وقع في زمان ومكان محددين كنتيجة لعمل بشري. حدث كهذا مطلق وموضوعي ولا يتوافر لشخص الوقوف عليه مباشرة ومن كل جوانبه إلا الله. ومثل هذا التاريخ لا يمكن بحال أن يتكرر في مكان آخر بنفس التفاصيل. لكن عين المؤرخ قد تلحظ أحداثاً مشابهة وأنماطاً مماثلة لحدث ما. لأن الناس تتخذ مسالك متشابهة في أوقات وأماكن مختلفة، إذ أنهم يتأثرون بالخير والشر.

وتمثل المعلومات عن حدث ما معنى آخر لكلمة تاريخ. وهذه المعلومات غير المباشرة عادة عن الماضي تم الحصول عليها من وثائق أو أشياء لها علاقة بالحدث. وبعكس العالم الذي يتناول المادة التي يدرسها بموضوعية ومباشرة فإن المؤرخ يكون محدوداً بتحيزه وإحساسه الشخصي لأن ذاته تمثل جزءاً مما يدرسه، ولابد له أن يضع في اعتباره تدخل الله في الزمان والمكان، معتبراً دور الإنسان في التاريخ كوسيط حر الإرادة ومعترفاً بأن معرفته غير مباشرة. وما تمثال القديس بطرس في روما، والمقابر وفسيفساء رافنا إلا أمثلة للتاريخ في صورة معلومات. أما الكلمة الانجليزية للتاريخ فهي من أصل يوناني Historia وتعني استقاء المعرفة عن طريق البحث وقد استخدمها بولس في (غلا

١٨:١) في وصف مقابلته مع بطرس في أورشليم.

وهذا يقود لمعنى ثالث للتاريخ كموضوع بحث وتمحيص للحصول على معلومات عن الماضي. فالتاريخ هو نظام مميز تحكمه قواعد لمراحل البحث. فالمؤرخ يفحص مصداقيته وأصالة وتكامل معطياته بالدراسة المدققة للخلفية والمصادر الوثائقية. ويمكن للدارس أن يطور استقراءاته بأمان عندما يجد أنماطًا موضوعية في مادته.

وينبغي على المؤلف الذي يسعى للحصول على إجابات لأسئلة مثل من؟ أو ماذا؟ ومتى؟ وأين؟ أن يسأل نفسه ما سبب أو ما معنى معطياتي؟ وقد استخدم اليونانيون كلمة أخرى للتاريخ هي Histoikos والتي تصف ما أسفر عنه البحث وبهذا نرى تعريفًا آخر للتاريخ هو التفسير. وهو البناء الموضوعي للماضي في ضوء المعطيات مع تحيزات المؤرخ. بالإضافة إلى مناخ الرأي السائد في وقته، وعنصر الحرية في الإرادة الإنسانية. وبالطبع لا يمكن لبناء كهذا أن يدلنا على الماضي مثلما كان تمامًا، بل لابد من وجود شئ من التحيز والأخطاء الناتجة عن العنصر البشري في الموضوع. ويمكن أن يجمع المؤرخون حول الماضي بالرغم من الانحياز، وذلك عندما يفحصون أعمال بعضهم البعض. والدارس للتاريخ يتناول هذا النوع الأخير من الدراسات. وبرغم عدم توافر معرفة الحقيقة المجردة عن الماضي نظرًا لأن ذلك يفوق إدراك المؤرخ إلا أنه يحاول جاهدًا بقدر ما تسمح به معرفته تقديم الماضي بصدق وموضوعية وبلا تحيز.

مما سبقنا من مناقشة يتضح للدارس أنه يمكن للتاريخ أن يكون واقعة أو حدثًا أو معلومات أو بحثًا أو عملية ونواتجها أو تفسيرًا. والتاريخ كواقعة هو أمر مجرد يحدث مرة واحدة في الزمان والمكان، أما التاريخ كمعلومات أو بحث تفسير فهو نسبي وخاضع للتغيير.

قد يُعرَّف التاريخ على أنه تفسير مُدَوَّن لأمم ما في ماضي البشر، مؤسس على معطيات منظمة تم جمعها بواسطة طرق علمية من مصادر أثرية أو أدبية أو حية. ولابد للمؤرخ الكنسي ألا ينحاز في جمعه لمعلومات التاريخ على عكس المؤرخ الدنيوي، برغم إدراك المؤرخ الكنسي لحقيقة استحالة أن يكون هو أو المؤرخ الدنيوي محايدين بل أن كلا منهما سيتعامل مع المادة التاريخية في إطار معين من التفسير.

إن تاريخ الكنيسة هو سجل تفسيري للأصول والتقدم وتأثير المسيحية على المجتمع البشري، مبني على معطيات منظمة تم جمعها بطرق علمية من المصادر الأثرية والوثائق والمصادر الحية. إن تاريخ الكنيسة هو القصة المنظمة المفسرة لفداء الإنسان والأرض وسيحصل الدارس للتاريخ المسيحي على تسجيل دقيق لقصة الإيمان التي يؤمن بها لو وفينا متطلبات هذا التعريف الأخير. ولن يتخلف أبناء النور في هذه الحالة عن أبناء الظلمة. إن الله متسام في الخلق ولكنه متأصل وحالٌ في كل مراحل التاريخ والفداء.

## ٢- تدوين تاريخ الكنيسة

### أ- العنصر العلمي

يدخل العنصر العلمي كعنصر أساسي في كتابة تاريخ الكنيسة Church History ، فالمؤرخ





الكنسي يتبع الطرق العلمية، فهو يستخدم العمل (الطريقة) العلمي لعالم الآثار الذي يكشف عن حقائق الماضي بدراسة مصادرها ثم يتيحها للمؤرخ. فدراسة فن بناء سراديب الموتى في روما مثلاً، كشفت الكثير عن ماضي الكنيسة الأولى. وبالتأكيد سيتعرض المؤرخ الكنسي لأسلوب استخدام النقد الحرفي لتقييم وثائق التاريخ الكنسي. وسيقرر تباعًا أي المصادر يعتمد كأساس هل يعتمد على المصادر الأثرية؟ أم الوثائق؟ أم المصدر الحي الذي عايش الحدث؟ ومن ثم سيقوده تقييم كل مصدر من هذه المصادر إلى إجابات لأسئلته التاريخية المعتادة والهامة - من وماذا ومتى وأين. وهو يهتم بصفة خاصة بالسؤالين الأخيرين حيث أن الأحداث تُقاس دائمًا بالعنصرين الزمني والمكاني.

بهذا نرى أن عمل المؤرخ يعتمد على الأسلوب العلمي، ولكنه لن ينتج معرفة مطلقة لأن معلوماته عن أحداث الماضي قد لا تكون كاملة، أو قد تكون خاطئة أو منحازة إلى نظرته الشمولية والسائدة في زمانه والمتأثرة بعظماء عصره. ولا نستطيع تجاهل حرية إرادته وتأثيرها على معطياته. والله المؤثر والفعال في التاريخ سَيَحُولُ دون تحول التاريخ إلى علم بحت.

### ب- العنصر الفلسفي

ينقسم المؤرخون، إذ يحاولون دراسة معنى التاريخ، إلى مدرستين: مدرسة التاريخ ومدرسة فلسفة التاريخ. والأولى تحاول الوصول إلى سببية موضوعية علمية في الإنسان والطبيعة أو في التقدم الزمني بينما تحاول الثانية بطريقة عقلانية الربط بين المادة التاريخية وبين المطلق اللازمني.

وهناك ثلاث مدارس أخرى أكثر أهمية هم الذين يفسرون التاريخ، من ناحية تأثيره بالجغرافيا، أو الحتمية التاريخية أو تاريخ حياة الأفراد. فوليم سويت William Sweet من المدرسة الأولى (الجغرافية) في تفسير تاريخ الكنيسة الامريكية جعل الجغرافيا هي العامل الحتمي المؤثر في هذا التاريخ.

وفي دراسة كارليل Carlyle عن كرومويل Cromwell نرى تأثره بتاريخ حياة هذا القائد الذي سماه الرجل العظيم وذلك عند دراسة تاريخ الحرب الأهلية الإنجليزية في منتصف القرن السادس عشر وفي كتاب ماكس ڤيبر Max Weber "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية"[١] The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism ينادي بأن البروتستانتية أدت إلى الرأسمالية وهو نموذج للتفسير الاقتصادي للتاريخ. مثل هؤلاء المؤرخين يبحثون عن الأسباب لمسار التاريخ من خلال الإنسان والطبيعة والتطور.

أما فلسفات التاريخ فأفضل تناول لها هو بتقسيمها إلى ثلاث فئات:

١- الفئة الأولى يمكن تسميتها بالمتشائمين الذين ينظرون للتاريخ على أنه "ما يجري تحت الشمس" وعادة ما يتبنون نظرة مادية للواقع. وتستبد بفكرهم فكرة فشل الإنسان في التاريخ. يتجلى ذلك في كتاب "أفول الغرب"[٢] The Decline of the West للكاتب أوزوالد شبنجلر Oswald Spengler الذي يركز اهتمامه على الحضارات وليس الأمم. وهو يرى أن كل حضارة تمر بدورة تبدأ بالميلاد، فالمراهقة، فالنضوج ثم الشيخوخة ثم الموت. وعندما تعرض للحضارة الغربية - أحدث

الحضارات – أكد أنها تمر بمرحلة الشيخوخة وسرعان ما تموت كما ستموت معها المسيحية. وهكذا نرى أن تسلط فكرة فشل الإنسان على أناس من عينة شبنجلر يجعلهم لا يرون أي تقدم في التاريخ. ومثل هذه الآراء تشبه مجموعة من الحلقات المتشابهة تتطابق فوق بعضها ولا تتعدى حركة الزمن فيها الشكل الدائري.

٢- الفئة الثانية يمكن تسميتها بالمتفائلين. ويمكننا أن نرمز إلى نظرتهم للتاريخ برسم بياني يرتفع باضطراد أو بلولبية حلزونية في تصاعد مستمر. ويدين معظم المفسرين المتفائلين بالمذهب الإنساني الذي يرى في الإنسان العامل الأساسي والحاسم في التاريخ. وعادة ما يقبلون نظريات التطور الحيوية والاجتماعية ويرون أن الزمن يتحرك في خط مستقيم. ويمكن الاستعانة بأعمال الفيلسوف الكبير أرنولد توينبي Arnold Toynbee كمؤرخ حديث للتدليل على هذه الفلسفة. واتفق توينبي مع شبنجلر في ضرورة دراسة تاريخ الحضارات ولكن توينبي يرى أن كل حضارة تخطو متقدمة نحو هدفها أي الأرض كلها كمقاطعة في ملكوت الله. وبالرغم من تبنيه نهجاً أكثر روحانية في تناوله التاريخ إلا أنه قبِلَ النقد الحديث للكتاب المقدس وسلم بنظرية النشوء والارتقاء.

وهناك متفائل آخر هو جورج و. ف. هيجل Georg W. F. Hegel فيلسوف القرن التاسع عشر الألماني الشهير. وقد رأى أن التاريخ هو كشف متواصل عن الروح المطلق Absolute Spirit المحرك لعملية التحرر الإنساني. والتقدم هنا هو عملية مستمرة من تصالح المتناقضات حتى يتجلى المطلق بالكامل في التاريخ.

انتمى كارل ماركس Karl Marx، أحد مفكري القرن التاسع عشر أيضاً لمدرسة المتفائلين. وقد استعار منطق هيجل، ولكنه تنصل من نظرة هيجل للواقع. وقد نادى ماركس بأن التحول المادي هو الواقع الوحيد وأن كل أنماط السلوك الإنساني بما فيها الدين تتحدد باقتصاديات الإنتاج. وقد أكد ماركس منبئاً بنشوب سلسلة من الصراعات الطبقية تنتهي بانتصار طبقة العاملين الكادحين واستتباب مجتمع لا طبقي. لاحظ تشديد ماركس على مقدرة الإنسان في افتداء نفسه وعاله متفقاً في ذلك مع توينبي وهيجل.

٣- أما الفئة الثالثة من المفسرين والتي يصنف كاتب الكتاب نفسه ضمنها، فيمكن وصفها بالمتفائلين المتشائمين ويتفق هؤلاء المؤرخون مع المتشائمين في التنبير على فشل الإنسان غير المجدد روحيا ولكن في ضوء الإعلان الإلهي والنعمة فهم متفائلون بمستقبل الإنسان. وهم كتابيون في طريقة فهمهم للتاريخ ويعنون باستقصاء مجد الله المستعلن في التاريخ. وبذلك يصير التاريخ عملية صراع بين الخير والشر، بين الله والشيطان يقف فيها الإنسان مغلوباً على أمره لولا نعمة الله. وهنا يبرز عمل المسيح على الصليب كالضمان النهائي للانتصار الحتمي لخطة الله للإنسان والأرض عندما يعود المسيح.

وأعظم مثال يوضح هذا الرأي هو كتاب "مدينة الله" The City of God وهو عبارة عن دفاع وتوضيح للمسيحية كتبه أوغسطينوس Augustine، أحد آباء الكنيسة. ذلك على الرغم من اختلاف كثير من المسيحيين مع أغسطينوس في معادلته الملك الألفي بالفترة الحالية للكنيسة. وقد انبثقت عظمة





هذا المفهوم عند أوغسطينوس Augustine من نسبة الخليقة إلى السيادة الإلهية المطلقة. فاتساع مدى رؤية أوغسطينوس للتاريخ يشمل الجنس البشري كله يعكس أمة هيجل الألمانية الأثيرة أو طبقة ماركس الكادحة، المنتخبة. ومع ذلك فهناك ازدواج مؤقت في التاريخ لأن الخطية فصلت بين الناس في "مدينة الله" و "مدينة الأرض". ويطرح أوغسطينوس فكرة أن مجرى التاريخ الإنساني يخرج من الصليب ويعود إليه وأن النعمة التي تفيض منه تعمل بفعالية داخل الكنيسة المسيحية جسد المسيح (غير المنظور). وبفضل النعمة الإلهية التي تقوي المؤمنين، يأخذون جانب الله في الصراع الدائر مع الشرير حتى يحين وقت الفناء الجائح للتاريخ بمجيء المسيح ثانية. هذا، ويعد كتاب "الله والإنسان داخل نطاق الزمن"[٣] God and Man in Time محاولة عصرية من مؤلف هذا الكتاب لتبني ونشر رؤية مسيحية للتاريخ.

### ج- العنصر الفني

وأخيراً ينبغي لمن يأخذ على عاتقه مهمة تسجيل التاريخ أن يعرض الحقائق في ثوب فني لائق قدر الإمكان. ومن أسف أن المؤرخين المعاصرين لم يهتموا بالشكل الأدبي في تقديمهم للتاريخ كما كان ينبغي.

## ٣- قيمة تاريخ الكنيسة

تصبح دراسة تاريخ الكنيسة مجرد تدريب نظري قاس في تذكر الحقائق ما لم تصاحبها فكرة عن قيمتها بالنسبة للمؤمن المسيحي. كان المؤرخون القدامى يقدرون القيم التعليمية الأخلاقية المشجعة المستمدة من التاريخ أكثر مما يفعل مؤرخو هذه الأيام. حتى إن الطالب المدرك للقيم الواجب استخلاصها من دراسة تاريخ الكنيسة يجد نفسه مدفوعاً لدراسة هذه الجزئية من التاريخ البشري بحماس وشوق.

### أ- تاريخ الكنيسة كارتباط بين الماضي والحاضر

واحدة من أهم القيم في تاريخ الكنيسة هي ربط حقائق ومعطيات الماضي التي تتعلق بالبشارة المسيحية باستعلان وتتميم هذه البشارة في المستقبل، كل ذلك في توليفة من الحاضر تتيح لنا فهماً وإدراكاً لميراثنا العظيم وكذا إرشاداً لمزيد من الاستعلان والتطبيق. يظهر تاريخ الكنيسة عمل وفعالية روح الله في الكنيسة عبر كل أزمنة وجودها ويرتبط اللاهوت التفسيري باللاهوت العملي عندما يلاحظ الدارس تأثير اللاهوت النظامي على أفكار وسلوك البشر في الماضي.

### ب- تاريخ الكنيسة كمعين لفهم الحاضر

تاريخ الكنيسة له قيمة ومدلول عظيمان في تفسير الحاضر. نستطيع أن نفهم الحاضر على نحو أفضل جداً إذا كانت لنا معرفة بجذوره في الماضي. إن إجابة السؤال المحير بخصوص وجود ما يفوق المئتين وخمسين مجموعة وطائفة دينية في الولايات المتحدة اليوم، نجده في صفحات تاريخ الكنيسة. فقد وجد مبدأ الانقسام تجاوباً منذ الأيام الأولى للكنيسة وقد أبرزته في صورة حادة حركة الإصلاح الديني البروتستانتي في القرن السادس عشر. ومن المثير للاهتمام أن نعرف أن تاريخ الكنيسة البروتستانتية الأسقفية Protestant Episcopal Church في الولايات المتحدة يرجع إلى مهدها الأول في انجلترا ونصل لأصل الكنيسة

الأنجليكانية إبان صراع القوى بين الملكية والبابوية. ويهم كل ميثوديست (أتباع الحركة الدينية الإصلاحية التي قادها في أكسفورد عام ١٧٢٩ تشارلز وجون ويسلي في محاولة لإحياء كنيسة انجلترا) أن يرجع إلى بدايات كنيسته في النهضة التي قادها آل ويسلي Wesleyan Revival التي أثمرت انقساماً وآلت إلى تكوين مجموعة الميثوديست الذين انفصلوا عن الكنيسة الأنجليكانية. وبالمثل سيُسعِد تابعي الإيمان المُصلح أو المشيخي (المشيخي هو عضو كنيسة بروتستانتية يدبر شئونها شيوخ مُنتخبون يتمتعون كلهم بمنزلة متساوية). أن يقتفوا آثار أصول كنيستهم في سويسرا. وهكذا نصبح واعين بنسبنا الروحي.

وتكتسب كثيرٌ من المعتقدات والطقوس التي نمارسها وضوحاً وفهماً أكثر في ضوء الالمام بالتاريخ القديم. يتقدم الميثوديست للأمام ليسجدوا عند السياج الأمامي لتناول فريضة العشاء الرباني وذلك لأنهم ولعدة سنوات كانوا يشكلون كنيسة داخل الكنيسة الأنجليكانية ولم يرغب ويسلي في الإنشقاق عن الكنيسة الأنجليكانية ولذا تابع طقس العشاء الرباني بدون تغيير. وعلى النقيض فإن المشيخيين يتناولون فريضتهم جالسين. وتصبح الفروق اللاهوتية بين الميثوديست والمشيخيين أوضح كثيراً عندما ندرس آراء كالفن Calvin وأرمينيوس Arminius.

كما أن المشاكل المعاصرة للكنيسة تجليها دراسة الماضي وتلقي عليها الضوء، وذلك بسبب ظهور الأنماط المتكررة وكثرة التوازي في التاريخ. نستطيع أن ندرك سبب رفض معظم حكام العصر الحديث المستبدين السماح لرعاياهم بمزاولة اهتماماتهم الشخصية المنفصلة عن حياتهم العامة في الدولة إذا تذكرنا أن الأباطرة الرومان لم يكونوا يتصورون إمكانية ممارسة الأفراد لمعتقداتهم الخاصة دون تعريض وجود الأمة للخطر. وتدنت العلاقة بين الكنيسة والدولة وتطورت إلى مشكلة كما في روسيا والجمهوريات التابعة لها، وبالطبع نستطيع أن نتوقع اضطهاد المسيحيين كما فعل كل من ديسيوس Decius ودقلديانوس Diocletian. كما اتضح الخطر المتضمن في وحدة الكنيسة والدولة من خلال تعضيد المدارس الابرشية وإرسال الوفود إلى الفاتيكان بسبب انهيار الكنيسة روحياً والتدخل في أمور الكنيسة بالصلاحيات المؤقتة بدءاً من مجمع نيقية Council of Nicaea على نحو ما فعل Constantine قسطنطين عام ٣٢٥. وليس بغريب أن يذكرنا تينيسون Tennyson كما قال في قصيدته يوليسس Ulysses "بأننا جزء من كل ما قابلناه".

## ج- تاريخ الكنيسة كمرشد

يعتبر إصلاح الشرور الموجودة داخل الكنيسة أو تفادي الأخطاء والممارسات المزيفة فائدة أخرى لدراسة ماضي الكنيسة. فالحاضر عادة هو نتاج الماضي وهو بذرة المستقبل. وقد ذكرنا بولس الرسول Paul the Apostle في رومية ٤:١٥ وفي كورنثوس الأولى ١٠:٦، ١١ أنه علينا أن نتخذ من أحداث الماضي عبرة تساعدنا على تجنب الشر والتحلي بالصلاح. إن دراسة تسلسل مراتب الكهنوت الهرمية في فترة القرون الوسطى للكنيسة الرومانية الكاثوليكية ستشير إلى الخطر المحدق بالكنيسة البروتستانتية الذي يتسلل إليها بسبب المغالاة في التعلق بممارسات بعينها وطقوس كنسية كما سيتم فضح الشيع الجديدة فهي في حقيقتها





بدع قديمة متنكرة في ملابس حديثة. نستطيع أن نُلم بالعلوم المسيحية Christian Science بطريقة أفضل بعدما ندرس عن الغنوسية Gnosticism (وهو مذهب بعض المسيحيين الذين اعتقدوا بأن المادة شر وبأن الخلاص يأتي عن طريق المعرفة الروحية). وتأثيرها على الكنيسة الأولى وأفكار كاثاري Cathari (تنقية العواطف عن طريق وسيط كالموسيقى أو المسرحيات) التي انتشرت في القرون الوسطى. فالجهل بالكتاب المقدس وتاريخ الكنيسة هو السبب الأساسي الذي يدفع بكثيرين لتأييد لاهوت مزيف أو ممارسات سيئة.

## د- تاريخ الكنيسة كقوة دافعة

يمنح تاريخ الكنيسة دارسيه تنويراً وإلهاماً وحماساً ليحيوا حياة روحية عالية. أمن الرسول بولس Paul the Apostle بأن معرفة الماضي تهب الحياة المسيحية رجاء (رومية ٤:١٥). لا يسع كل من يدرس الموقف الشجاع لأمبروز Ambrose من مدينة ميلان، عندما أبى مناولة الإمبراطور ثيودوسيوس Theodosius فريضة العشاء الرباني حتى يتوب عن المذبحة التي اقترفها ضد التسالونيكيين، إلا أن يتشجع للثبات في وجه الشر ومقاومته حتى في دوائر السلطة السياسية أو الكنسية من أجل المسيح. إن الدافع والحماس الذي مكن ويسلي من إلقاء ما يزيد على عشرة آلاف موعظة أثناء حياته والسفر آلاف الأميال على ظهر حصان هما بمثابة تحدٍّ للمسيحيين الذين يمتلكون وسائل انتقال أفضل وإمكانيات دراسية أشمل مما كان لديه وبالرغم من ذلك لا يستثمرونها كما يجب. ربما لا يتفق كل شخص مع أفكار روشينبوش Rauschenbusch اللاهوتية، إلا أننا لا نملك إلا الإعجاب والشعور بالإلهام لولعه بتطبيق البشارة المسيحية في الحياة الاجتماعية. أما قصة حياة كاري Carey فكانت لاتزال مصدر إلهام للخدمة المُرسلية فدراسة السير الذاتية في تاريخ الكنيسة كفيلة ببعث روح التحدي والاستلهام في دارسيها.

وهناك أيضاً استثارة في عملية إدراك المؤمن لنسبه الروحي. هناك احتياج ماس للمسيحي ليدرك شجرة عائلته ونسبه الروحي كما يحتاج المواطن إلى التعرف على تاريخ أرضه حتى ما يصبح مواطناً واعياً. عندما نلقي الضوء على التطورات التاريخية للمسيحية سنجد أن تاريخ الكنيسة يعني للعهد الجديد ما يعنيه العهد الجديد إلى العهد القديم حيث أنه يفسره ويوضحه. ينبغي على المسيحي أن يكون واعياً بمراحل النمو الأساسية للمسيحية تماماً كما يدرك حقائق الكتاب المقدس. حينئذ سيشعر أنه جزء ينتمي إلى جسد المسيح، الذي يحتوي أيضاً بولس وبرنارد كليرڤو Bernard of Clairvaux وأغسطينوس ولوثر وويسلي وبوث Booth. وسيقود هذا الاحساس بالاتحاد الذي ينتج عن إدراك الاستمرارية والتواصل في التاريخ، إلى حياة روحية غنية.

أما المتخوف على مصير الكنيسة في الدول التي تعاني فيها الكنيسة من الاضطهاد فسيفعم قلبه بالأمل عندما يدرك السمة التي ميزت الكنيسة في العصور السابقة أنه لا يمكن هدمها أو إزالتها. لا اضطهاد من خارج الكنيسة ولا عدم إخلاص العاملين بها ولا اللاهوت الخاطئ أو المزيف يمكنه الوقوف أمام قوة التجديد الخالدة التي تجلت في تاريخ النهضات في الكنيسة. حتى إن المؤرخين غير الدينيين يعزون الفضل في إنقاذ انجلترا من براثن ثورة مشابهة للثورة الفرنسية إلى نهضة ويسلي.

كما أن لدراسة تاريخ الكنيسة تأثيراً مثبتاً في عصر ساد فيه الفكر اللاديني، لأن الدارس يستطيع تمييز قوة الله العاملة في حياة أناس تغيروا بالبشارة وبالرغم من ذلك فلابد أن نتذكر أنه يمكن للكنيسة أن تهلك وتختفي من بقعة معينة إما عن طريق التحلل الداخلي أو بالضغط الخارجي الغير محتمل. فالكنيسة الحية في قرطاجة القديمة Old Carthage ، وكذلك كنيسة النسطوريين Nestorians في الصين في القرن السابع، وكذلك كنيسة الكاثوليك في القرن السادس عشر في اليابان، قد اختفت جميعها.

### هـ- تاريخ الكنيسة كأداة عملية

هناك عدة فوائد عملية لقراءة تاريخ الكنيسة يجنيها الخادم المسيحي، سواء أكان مبشراً أم راعياً أم معلماً. كم كانت سعادة الكاتب عظيمة لرؤية الدارسين يصلون إلى مستوى نابه في فهم علم اللاهوت النظامي عن طريق دراستهم لتاريخ تطوره. فمعتقدات مثل الثالوث والمسيح والخطية ولاهوت الخلاص سيتعذر فهمها بدون إدراك تاريخ الفترة ما بين مجمع نيقية Council of Nicaea ومجمع قسطنطينية Council of Constantinople عام ٦٨٠م.

ولاشك أن جهد الطالب المجد في دراسة تاريخ الكنيسة سيفتح له أفاقاً من المعلومات الغزيرة تصلح كأمثلة توضيحية تغني وعظه لمن يهتم بهذا النوع من الخدمة. فلو كان يطلب التحذير من مخاطر الخرافات العمياء التي تضع إعلانات الله للبشر وإنارة أذهانهم في نفس المستوى مع إلهام كلمة الله، إذن فلابد له من دراسة البدع التي ظهرت في العصور الوسطى أو حركات الكويكرز Quakers الأولى. أما لو كان يطلب التحذير من مخاطر التمسك بالأصولية والسلفية الغير مصحوبة بتطبيقات تعاليم الكتاب المقدس، إذن فدعه يعير انتباهه لفترة الأصولية الباردة في اللوثرية ما بعد عام ١٦٤٨، التي تسببت في رد فعل يُعرَف بالتقوية Pietism التي نشأت في ألمانيا في القرن السابع عشر وأكدت على دراسة الكتاب المقدس والخبرة الدينية الشخصية العملية في حياتنا اليومية.

### و- تاريخ الكنيسة كقوة محررة

أخيراً فإن لتاريخ الكنيسة فائدة ثقافية حضارية. يعتبر تاريخ الحضارة الغربية منقوصاً وغير منطقي بدون فهم دور الدين المسيحي في نمو هذه الحضارة. فلا يمكن فصل تاريخ الإنسان عن تاريخه الديني. نتج عن محاولات الطغاة المستمرة لمحو الدين المسيحي حصولهم على دين مزيف بديل. نادى هتلر Hitler وستالين Stalin باعتبار الدولة نوعاً من الدين. وحاولا إضفاء العنصر الديني بالتشديد على الجنس والطبقة.

لا يمكن لدارس تاريخ الكنيسة أن يظل ضيق الأفق محصوراً في فكر طائفي شخصي لأنه سيستشف الوحدة الحقيقية في جسد المسيح على مر العصور. سيشعر أيضاً بالتواضع عندما يواجه عمالقة الإيمان في ماضيه الروحي ويدرك مدى مديونيته لهم. سيصير أيضاً متسامحاً ومتقبلاً لهؤلاء المختلفين عنه في الأمور الثانوية ولكنهم يتشاركون معه في قبول عقائد الإيمان الأساسية مثل موت المسيح النيابي عن البشر وقيامته التي نبّر الرسول بولس Paul the Apostle عليها في سفر أعمال الرسل ١٧:٢-٣ والرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس ١٥:٣-٤.





## ٤- تقسيم تاريخ الكنيسة

### أ- فروع تاريخ الكنيسة

يمكن تقسيم تاريخ الكنيسة لغرض التبسيط إلى الأقسام التالية :

١- العنصر السياسي الخاص بالعلاقة بين الكنيسة والدولة والبيئة الدنيوية المحيطة بالكنيسة. لن يتمكن أحد من فهم تغير السياسة الذي تم في فرنسا بالانتقال من الدستور المدني الذي وضعه رجال الدين عام ١٧٩٠ إلى الوضع الذي خلقه ميثاق نابليون Concordat of Napoleon عام ١٨٠١ ما لم يكن على معرفة بكيفية تدمير نابليون لعنصر الديمقراطية في الثورة الفرنسية واستبدالها بنظام مستبد جديد تلعب فيه الكنيسة الكاثوليكية الدور الأوحد نظراً لأنها تمثل دين "أغلبية الفرنسيين". إن فهم القوى السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفنية وتأثيرها في التاريخ لهو ضرورة إن أراد الدارس أن يقرأ تاريخ الكنيسة على نحو صحيح. وسنلقي الضوء على هذه الخلفيات أثناء دراستنا في حينه.

٢- لا يمكننا تجاهل عنصر انتشار الإيمان المسيحي، وهذا يتطلّب دراسة الإرساليات العالمية والإرساليات المحلية، وكذا إرساليات العمل داخل المدن ودراسة أي أسلوب خاص استُخدم في توصيل البشارة للآخرين. ولقصة الإرساليات أبطالها وشهداؤها وهي جزء مُتمِم لقصة الكنيسة. وتوضح الدراسة عن انتشار الإيمان، الطبيعة الشخصية لانتشار المسيحية من فرد لفرد وكذا الإمكانات غير المحدودة التي يمكن أن تتمتع بها كنيسة بها مثل هذا الولاء العظيم لسيدها.

٣- جلب انتشار المسيحية كثيراً من الاضطهاد على الكنيسة. بدأ هذا الاضطهاد من جانب الجهاز السياسي - الديني لليهود، ثم ساد في عهد الأباطرة على يد دسيوس Decius ودقلديانوس Diocletian. وأخيراً قامت بإحيائه نظم الحكم الشمولي الحديثة. وتؤكد دراسة الاضطهاد صحة قول ترتليان Tertullian المأثور "دم المسيحيين هو بذرة الكنيسة". إن هذا القسم من تاريخ الكنيسة لا يؤدي إلى تثبيط عزائمنا، بل على العكس يبين أن أعظم الإنجازات التي أحرزتها الكنيسة كانت في فترات الاضطهاد أو بعدها مباشرة.

٤- نظام الإدارة في الكنيسة هو قسم آخر من أقسام تاريخ الكنيسة يختص بدراسة نظام حكم الكنيسة وإدارتها. وهو يقتضي النظر إلى الأساقفة (في الإبراشيات) والشيوخ (في الكنيسة المشيخية)، والجماعة المستقلة في نظام مستقل مباشر بدلاً من نظام التمثيل الديمقراطي Congregationalism أو تحويرات لهذه النظم الثلاثة وتعد دراسة وظيفة الخادم وكذا تنامي التمييز بين رجال الدين وباقي المؤمنين جزءاً من هذا الموضوع. وترتبط نظم وطقوس العبادة ارتباطاً وثيقاً بنظام إدارة الكنيسة.

٥- يختص اللاهوت الجدلي بصراع الكنيسة في محاربة البدع وإعلان الموقف الدفاعي للكنيسة. وهو يمثل ناحية هامة في تطور الكنيسة. ويتضمن دراسة البدع المتعارضة وتكوين العقائد وأصول الإيمان وكتابات دحض البدع. وتمثل كتابات الآباء حقلاً غنياً لدراسة اللاهوت الجدلي ومنها كتابات جستين مارتر Justin Martyr التي يرد فيها على

قضية أحقية الدولة بالمكانة الأولى في الحياة أو كتابات إيريناوس Irenaeus التي توضح بدع الغنوسية بأنواعها. ولدت معظم النظم اللاهوتية في فترات المعاناة لمواجهة الاحتياجات المُلحة في حينه. شهدت الفترة ما بين ٣٢٥ م و ٤٥١م والفترة ما بين ١٥١٧م و ١٦٤٨م مشاكل جدلية عديدة. هذا، وقد طوّر كالفن Calvin نظامه اللاهوتي في محاولة لتقديم لاهوت كتابي بحت يتفادى أخطاء الكثلكة.

٦- قسم آخر تشمله دراستنا هو الممارسة والعمل ويشمل تطبيق الإيمان المسيحي على الحياة في المنزل والأعمال الخيرية وتأثير المسيحية كأسلوب حياة على مجريات الحياة اليومية.

٧- لم تكن المسيحية لتنمو لولا اهتمامها بمسألة تقديم الحق. ويتضمن هذا الموضوع دراسة النظام التعلمي للكنيسة، والترانيم، والطقوس الدينية، والمعمار، والفن، والوعظ. وسنناقش هذه الفروع حسب دور أي منها في حقب تاريخ الكنيسة في مكانه المناسب ولكن لن تناقش كلها في كل مرحلة من المراحل. هذا برغم أن كل قسم منها يمكن أن يشكل دراسة ممتعة لمن يرغب أن يتابع بنفسه ولديه خلفية عامة للموضوع.

ب- حقب تاريخ الكنيسة

لابد أن يتذكر الطالب أن التاريخ هو "رداء من نسيج واحد غير موصول بخياطة". وقد أراد ميتلاند Maitland قائل هذه العبارة أن يبين أنه مجرى مستمر من الأحداث داخل إطار الزمان والمكان. ولهذا السبب فإن تقسيم تاريخ الكنيسة إلى فترات هو بمثابة أداة مُصطنعة لقص معلومات التاريخ إلى حقَب يَسهُل التعامل معها ولمعاونة الطالب على تذكر الحقائق الضرورية. فشعوب الإمبراطورية الرومانية لم يذهبوا للنوم ذات ليلة في العصور القديمة ثم استيقظوا في اليوم التالي على العصور الوسطى. بل حدث تحول تدريجي من نظرة للحياة والنشاط البشري تميز عصراً بعينه إلى نظرة أخرى تميز عصراً آخر. وعلى كل حال فمن المفيد تقسيم التاريخ حسب الترتيب الزمني لأن ذلك يساعد على التذكر. ويتيح للدارس التعامل مع أجزاء صغيرة والتركيز عليها. كما يقدم النظرة للحياة في فترة معينة.

### *تاريخ كنيسة العصر القديم ٥ق.م- ٥٩٠م*

تبين الفترة الأولى لتاريخ الكنيسة نمو الكنيسة الرسولية وتحولها إلى الكنيسة الإمبراطورية الكاثوليكية القديمة وبداية تأسيس النظام الكاثوليكي الروماني. كان حوض البحر المتوسط آنذاك هو مركز النشاط والاشعاع الحضاري ويشمل أجزاء من قارة أسيا وافريقيا وأوربا. عملت الكنيسة في البيئة الثقافية التي هي مزيج من اليونانية والرومانية والبيئة السياسية للإمبراطورية الرومانية.

### *فترة انتشار المسيحية في الإمبراطورية حتى عام ١٠٠م.*

تركز الاهتمام في هذا القسم في التعرف على البيئة التي ظهرت فيها المسيحية. وعلى تأسيس الكنيسة في حياة المسيح وموته وقيامته وتأسيسها بين اليهود الذي يُعد أمراً هاماً في فهم تكون الكنيسة. وقد سبق نمو الكنيسة المتدرج بين القيود المحكمة لليهودية ثم انحلال هذه الأغلال في مجمع أورشليم، سبق حمل البشارة إلى الأمم بواسطة بولس الرسول وآخرين وتصاعد نجم المسيحية كمذهب منفصل عن اليهودية. كما تم التركيز أيضاً على الدور القيادي للرسل في تلك الفترة.





### *صراع الكنيسة الإمبراطورية القديمة لأجل البقاء ١٠٠-٣١٣*

صارعت الكنيسة في تلك الفترة لمجرد الاستمرار في البقاء في وجه مقاومة من خارجها تتمثل في اضطهاد الدولة الرومانية. قدمت الكنيسة رداً على هذا الخطر الخارجي عدداً من الشهداء والمدافعين. كان على الكنيسة أن تواجه في نفس الوقت المشاكل الداخلية من بدع وهرطقات. وقد قدم كُتّاب اللاهوت الجدلي أجوبة على هذه البدع.

### *فترة تفوق الكنيسة الكاثوليكية الإمبراطورية القديمة ٣١٣م- ٥٩٠م*

واجهت الكنيسة مشاكل نتجت عن تصالحها مع الدولة تحت قيادة قسطنطين Constantine واتحادها مع الدولة في زمن ثيودوسيوس Theodosius. ثم ما لبثت أن وقعت تحت سيطرة الدولة. طلب الأباطرة من الكنيسة أن تزودهم بعقيدة موحدة تؤدي إلى دولة موحدة وينقذوا الثقافة اليونانية الرومانية. لكنَّ الحقيقة أن المسيحيين لم يكن لديهم الوقت الكافي لبناء هيكل عقائدي أثناء فترة الاضطهاد. وتبع ذلك فترة طويلة من النزاع العقائدي. فكانت كتابات آباء الكنيسة اليونانيين واللاتين العقلانيين نتاجاً طبيعياً لهذه النزاعات اللاهوتية. وبرزت الرهبنة كرد فعل وكاحتجاج على العالمية المتزايدة للكنيسة المنظمة. خلال هذه الفترة من النمو الإداري تعزز مركز الأسقف وتعاظمت قوته وسطوته. وبانتهائها تحولت الكنيسة الكاثوليكية الإمبراطورية القديمة إلى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية.

### *تاريخ كنيسة العصور الوسطى ٥٩٠-١٥١٧م*

تحرك مسرح الأحداث من جنوب أوربا إلى شمالها وغربها على جانب من المحيط الأطلنطي. وجهت كنيسة العصور الوسطى جهودها لربح قبائل المهاجرين التيوتونيين الجرمانيين إلى المسيحية وإلى دمج الثقافة اليونانية - الرومانية والمسيحية مع المؤسسة الجرمانية. وإذ فعلت ذلك ظلت كنيسة العصور الوسطى تقبع تحت السيطرة المركزية للبابوات في كل نظمها وطوّرت النظام الكهنوتي المقدس المميز للكنيسة الكاثوليكية الرومانية.

### *قيام الإمبراطورية والمسيحية اللاتينية الجرمانية ٥٩٠م-٨٠٠م*

عمل جريجوري الأول Gregory 1st بجد من أجل تبشير قبائل الجرمان الغزاة داخل الإمبراطورية الرومانية. وقد واجهت الكنيسة الشرقية في هذه الفترة الغزو الإسلامي الذي استولى على جزء كبير من أراضيها في أسيا وافريقيا. حدث تحالف تدريجي بين البابا والتيوتون الجرمان ظهر في التنظيم التيوتوني المنحدر من سلالة كارولينج Caroling (عائلة حكمت فرنسا ٧٥١-٩٨٧م - ألمانيا من ٧٥١م-٩١١م - وإيطاليا من ٧٥١م-٨٨٧م ووصلت لأوج مجدها في عهد شارلمان Charlemagne) هذا التنظيم الذي خلف وورث الإمبراطورية الرومانية القديمة وسُمّي فيما بعد بامبراطورية شارلمان Charlemagne. وقد تميزت هذه الفترة بأضرار وخسائر فادحة.

### *فترة العلاقات الغير مستقرة بين الكنيسة والدولة Church and State ٨٠٠م-١٠٥٤م*

ظهر أول شقاق خطير في الكنيسة في هذه الفترة. انفصلت كنيسة الروم الأرثوذكس Greek Orthodox Church ومضت في طريقها بفكر لاهوتي غير متطور وضعه يوحنا الدمشقي John of Damascus في القرن الثامن. تحولت الكنيسة

الغربية في هذه الفترة إلى كنيسة إقطاعية وحاولت - بالرغم من عدم نجاحها - سن مبادئ لعلاقة الكنيسة الرومانية بالدولة بشكل يُرضي كلاً من البابا والإمبراطور. وفي ذات الوقت جاهد المصلحون المتدينون لإصلاح الشرور داخل الكنيسة الرومانية.

### فترة *ازدهار البابوية* ١٠٥٤-١٣٠٥م

وصلت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية في العصور الوسطى إلى ذروة سطوتها بقيادة جريجوري السابع Gregory 7th هيلدبراند Hildebrand وإينوسنت الثالث Innocent 3rd ودعمت بنجاح دعواها بأنها فوق الدولة وذلك باخضاع بل وإذلال أقوى حكام أوربا. وجلبت الحملات الصليبية هيبة ونفوذاً للبابا وقام الرهبان والإخوة - الفرير - بنشر الإيمان الروماني الكاثوليكي واستطاعوا رد كل المنشقين. استطاع توما الأكويني Thomas Aquinas أن يدمج في المسيحية تعاليم أرسطو Aristotle اليوناني الذي وصل إلى أوربا بواسطة عرب أسبانيا حتى صار تعليمه جامعة ثقافية عقلانية تمثل سلطة التعليم اللاهوتي لكنيسة روما الكاثوليكية. أما الكاتدرائيات القوطية فقد كانت تعبر عن المظهر الخارجي العظيم لذلك العصر وقدمت للمؤمنين مظهراً بنائياً يدل على قوة الكتاب المقدس. ثم انحدرت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية من أوج مجدها وقوتها في الفترة التالية.

### غروب *العصور الوسطى* وبزوغ *العصور الحديثة* ١٣٠٥-١٥١٧م

جرت محاولات داخلية لإصلاح البابوية الفاسدة. فقد حاول المتصوفون أن يعودوا بالدين من شكل المؤسسات الزائدة عن الحد إلى صورة شخصية وجرت محاولات أخرى من المصلحين القدامى كالناسك چون ويكليف John Wycliffe وچون هس John Hus ومن المجامع الإصلاحية ومحاولات من الكاتبيين المؤمنين بالمبدأ الإنساني. ثم ظهرت عوامل مثل توسع العالم جغرافياً وبروز فكر دنيوي جديد مصاحب لعصر النهضة الأوربية وقيام ولايات كثيرة وظهور الطبقة المتوسطة. وقد كانت كلها تمثل قوى خارجية لم تتحمل أو تُطِق كنيسة متحللة فاسدة. وتسبب رفض الكنيسة الرومانية الكاثوليكية في قبول الإصلاح الداخلي في جعل حركة الإصلاح أمراً محتملاً.

### فترة *تاريخ الكنيسة الحديث* ١٥١٧م وما بعد

واكب هذه الفترة انشقاقات عديدة شكلت أصل الكنيسة البروتستانتية الرسمية للدولة وانتشار للإيمان المسيحي في كل أنحاء العالم بواسطة المد المرسلي في القرن التاسع عشر. وتبدل مسرح الأحداث هنا من حوض البحر المتوسط أو المحيط الأطلنطي إلى أن أصبح العالم كله. وأصبحت المسيحية ديناً عالمياً شاملاً.

### فترة *الإصلاح والإصلاح المضاد* ١٥١٧-١٦٤٨م

انتفضت قوى الثورة والتمرد التي قمعتها الكنيسة الرومانية في المراحل السابقة وخرجت للوجود كنائس بروتستانتية وطنية لوثرية وأنجليكانية وكالڤنية وتقوية. كان من نتيجة هذا أن اضطرت البابوية للنظر في الإصلاح. ثم برزت الحركات المضادة للإصلاح Counter Reformation في مجمع "ترنت" Council of Trent بقيادة اليسوعيين وبواسطة محاكم التفتيش



## جدول الترتيب الزمني لأحداث التاريخ

يوم الخمسين - تأسيس الكنيسة
نحو عام ٣٠
مجمع أورشليم
٤٩ أو ٥٠
اضطهاد نيرون
٦٤
بداية الكنيسة الكاثوليكية
نحو عام ٢٠٠
مرسوم ميلان
٣١٣
مجمع نيقية (اقرار الإيمان النيقوي)
٣٢٥
المسيحية تصبح دين الإمبراطورية الرسمي
٣٨١
مرسوم فالنتين
٤٤٥
مجمع خلقدونية
٤٥١
دور الرهبنة البندكتية - تأسيس مونت كازينو
نحو عام ٥٢٩م
جريجوري الأول
٥٩٠
أغسطينوس يتغير للإنجليزية
٥٩٧
ظهور الإسلام
٦٢٢
سنودس ويتباي - انجلترا تحت سلطة البابوات
٦٦٣
رسامة قسطنطين
نحو عام ٧٥٠
بداية حكم البابوات للدولة برسامة بابين
٧٥٤
إمبراطورية شارلمان الرومانية
٨٠٠
الإمبراطورية الرومانية المقدسة (حتى عام ١٨٠٦)
٩٦٢
روسيا تقبل المسيحية الأرثوذكسية
نحو عام ٩٨٨
إنشقاق - الكنيسة الأرثوذكسية
١٠٥٤
مجمع الكرادلة - لإنتخاب البابا
١٠٥٩
الحملات الصليبية وبداية الفلسفة المدرسية
نحو عام ١٠٩٥
عقيدة الإستحالة
١٢١٥
الفرنسيسكان والدومينكان
١٢١٠-١٢١٦
الأسر البابلي في أفينيون
١٣٠٩-١٣٧٧
الإنشقاق الكبير حتي عام ١٤١٧
١٣٧٨
مجامع الإصلاح
١٤٠٩
١٤٤٩
سقوط القسطنطينية
١٤٥٣
(أراسموس) طباعة العهد الجديد اليوناني
١٥١٦
نقاط مارتن لوثر الإصلاحية الخمسة وتسعون
١٥١٧
لجان ميلانكثون ومجلس ورمز
١٥٢١

المجامع المسكونية والتنازع علي اللاهوت

Inquisition الكاثوليكية ونجحت البابوية في إيقاف المد البروتستانتي في أوربا وحققت مكاسب في أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية والفلبين وفيتنام وبدأت تختبر حركة التجديد. ولم يُحسَم الأمر إلا بعد إتمام معاهدة وستفاليا Peace of Westphalia ١٦٤٨م التي أنهت حرب الثلاثين من الحرب المدمرة وبدأ بعدها كل طرف يعزز غنائمه.

### فترة العقلانية، والنهضة Revivals، الطائفية ١٦٤٨-١٧٨٩

خلال هذه الفترة جلب البيوريتان التطهيريون Puritans (جماعة بروتستانتية في انجلترا طالبت بتبسيط طقوس العبادة والتمسك بالفضيلة) آراء كالفن Calvin الإصلاحية إلى أمريكا الشمالية. ونقلت انجلترا للقارة الأوربية كلها آراء المذهب العقلي المعبر عنه دينيًا في الألوهية Deism (الإيمان بالله بدون اعتبار الأديان المُنزلة، الإيمان بدين طبيعي مبني على العقل لا الوحي وينكر تدخل الخالق في نواميس الكون) ومن ناحية أخرى فقد أثبتت حركة التقوية (أكدت على دراسة الكتاب المقدس) أنها الحل الوحيد للعقيدة الجامدة على امتداد القارة. وقد عبرت عنها في انجلترا حركة الكويكر Quaker والوسليين Wesleyan.

### فترة الانتعاش الروحي والإرساليات والتحديث ١٧٨٩-١٩١٤م

في بداية القرن التاسع عشر حدثت نهضة في الكاثوليكية وقابلها في البروتستانتية انتعاش روحي أثمر عن تدفق العمل المُرسلي خارج الحدود وسبب إصلاحات اجتماعية داخل البلاد الأوربية. في نهاية هذه الفترة أدت قوى النحر التي ظهرت مثل مذهب العقلانية والتطور إلى الابتعاد عن الكتاب المقدس وعبرت عن نفسها بحركات التحرر الديني.

### فترة التوتر بين الكنيسة والمجتمع منذ ١٩١٤م

تواجه الكنيسة في عدة مناطق من العالم مشكلة دنيوية الدولة والنظم السياسية الشمولية المبنية على إخضاع الفرد للدولة. كما أن التحديث البراق لأوائل القرن العشرين تنازل عن مكانه للأصولية الجديدة وملحقاتها. ولاتزال حركة توحيد الكنائس مستمرة وموجة المد التبشيري بادية في الأفق. سيكون من المفيد أن ندرس ونراجع هذه الأقسام الأساسية لتاريخ الكنيسة دوريًا. وسوف يساعدنا جدول الترتيب الزمني المصاحب على ربط الأحداث والأشخاص والحركات بعضها ببعض.

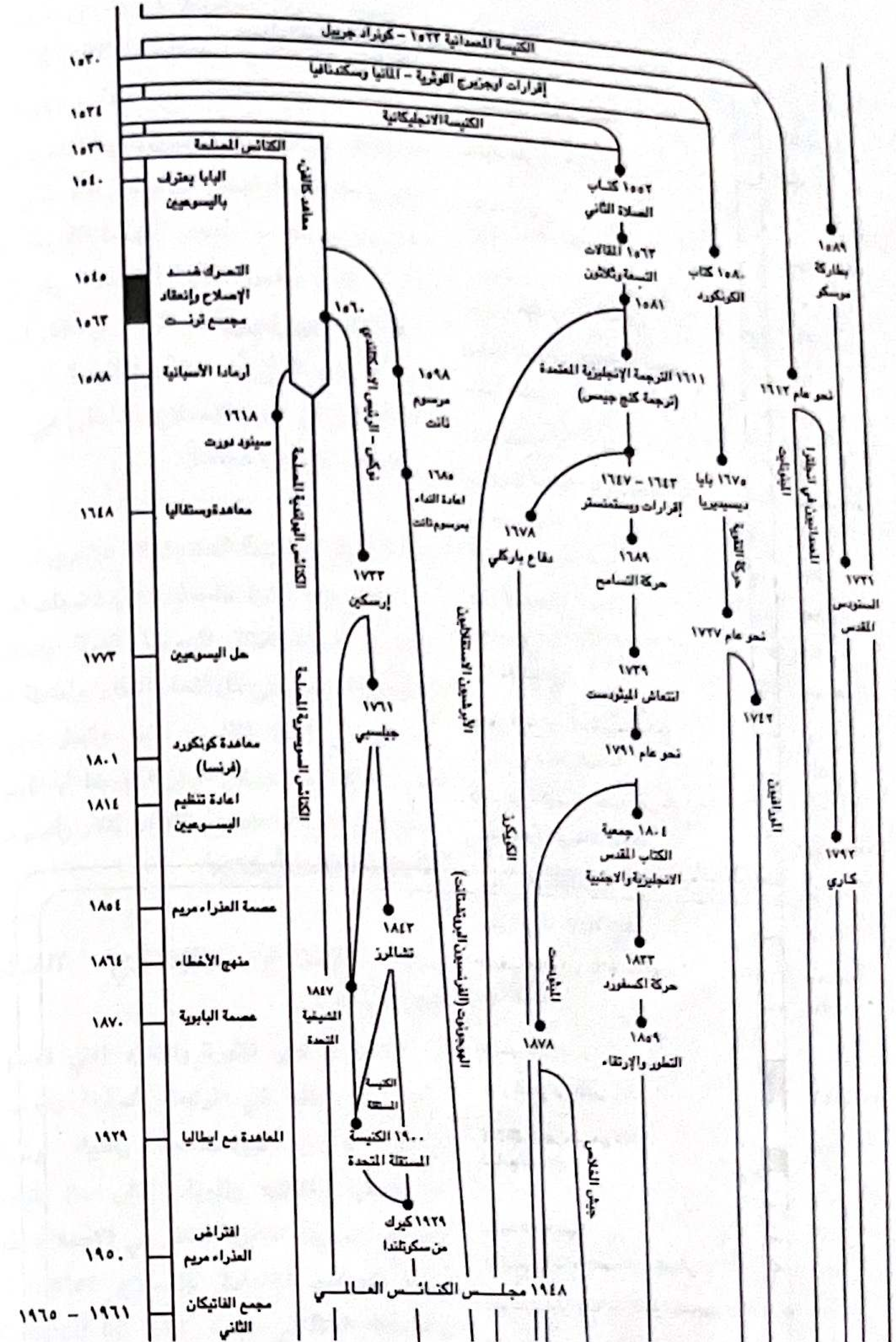
## اقتراحات للقراءة

تأخذ هذه القراءات اتجاهًا عامًا حول تاريخ الكنيسة، ويجب على أي مدرس أو دارس لتاريخ الكنيسة أن يطالعها.

### ١- بيان بمراجع تاريخ الكنيسة

*American Historical Association.* Guide to Historical Literature. *New York: Macmillan, 1961. This is a selected, classified, and critical bibliography which has a useful section that deals with church history.*





**تاريخ الكنيسة القديم ٥ ق.م - ٥٩٠**

انتشار المسيحية في الإمبراطورية حتى سنة مائة

صراع الكنيسة الأولى من أجل البقاء في
الإمبراطورية الرومانية ١٠٠-٣١٣

سيادة نفوذ الكنيسة الكاثوليكية القديمة
في الإمبراطورية ٣١٣-٥٩٠

انتشار المسيحية في الإمبراطورية
حتى سنة مائة

## الفصل الأول

# ملء الزمان

في غلاطية ٤:٤ يلفت الرسول بولس النظر إلى الحقبة التاريخية التي مهدت فيها العناية الإلهية الأرض لمجئ المسيح في صورة بشرية: "ولكن لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه ...". وقد نبَّر مرقس في مر ١٥:١[١] على أن المسيح جاء بعد أن تهيأ كل شئ على الأرض لهذا الحدث. ودراسة الأحداث التي سبقت مجئ المسيح إلى الأرض، تقود من يدرس التاريخ بوعي إلى الاعتراف بصدق أقوال بولس ومرقس.

إلا أن معظم المناقشات حول هذا الموضوع تناست أن الرومانيين والإغريق قد أسهموا إلى جانب اليهود في الإعداد الديني لمجئ المسيح. وقد أدت إسهامات الرومان والإغريق إلى وصول التاريخ إلى النقطة التي أتاحت للمسيح أن يترك أعظم الأثر في التاريخ بطريقة لم تكن ممكنة قبله ولم تتحقق بعد ميلاده. والآن دعونا نتأمل هذه الإسهامات المختلفة.

## ١- الجو العام

### أ- الإسهامات السياسية للرومان

اضطلع الرومان بالدور الرئيسي في تشكيل التاريخ سياسياً قبل مجئ المسيح. فهؤلاء القوم الذين ساروا وراء الأوثان وديانات الأساطير وعبادة الإمبراطور، استخدمهم الله برغم جهلهم به في إتمام إرادته.

١- لقد نمى الرومان - كما لم يفعل أي شعب آخر حتى عصرهم - الإحساس بوحدة الجنس البشري تحت لواء قانون Law عالمي موحد. هذا الشعور بوحدة الإنسانية داخل الإمبراطورية قد خلق بيئة مناسبة لاستقبال إنجيل ينادي بوحدة الجنس البشري في إطار حقيقة واضحة تجمعه هي أن الكل واقعون تحت عقاب الخطية وأنهم جميعاً ممنوحون خلاصاً يصيرهم جزءاً من نظام عضوي شامل هو جسد المسيح أي الكنيسة المسيحية.

لم تنجح أي إمبراطورية من إمبراطوريات الشرق القديم ولا حتى إمبراطورية الإسكندر في إشعار الناس بوحدتهم في ظل تنظيم سياسي. بيد أن ذلك كان الدور الخاص الذي لعبته روما. كان تطبيق القانون الروماني يتم يومياً بصرامة على كل فرد في أنحاء الإمبراطورية سواء من الرومان أو من المستعمرات بواسطة المحاكم الرومانية التي تميزت بالعدالة النزيهة والتجرد. وقد استمد هذا القانون الروماني جذوره من القواعد الأولى التي

جرى العرف على تطبيقها منذ الأيام الأولى للمملكة. أما في أيام الجمهورية الباكرة، في القرن الخامس قبل الميلاد، فقد تم تنسيق هذا القانون وتصنيفه في اثنى عشر جدولاً وأصبح مادة أساسية يدرسها كل صبي روماني. ثم إن الرومان قد جعلوا المبادئ الأساسية للقانون الروماني جزءاً من قوانين الأمم الأخرى، حيث أن القاضي الروماني المتجول الذي كان يفصل في النزاعات بين الأجانب قد أصبح ملماً بالأنظمة الشرعية الوطنية لهؤلاء الأجانب. وهكذا تم إمداد القانون الروماني المبني على العرف الروماني والتقليد بمواد من قوانين الأمم الأخرى. وقد فسر الرومان الميالون للتفسير الفلسفي هذه التشابهات باستعارة المفهوم الإغريقي عن القانون العالمي باعتبار أن مبادءه منقوشة في طبيعة الإنسان ويمكن الكشف عنها بالعقل.

وقد خطا الرومان خطوة أبعد نحو تعزيز فكرة الوحدة الإنسانية بمنحهم حق المواطنة الرومانية Roman Citizenship لغير الرومان. وقد بدأ هذا العمل في الفترة التي سبقت مجئ المسيح حتى منح كاراكالا Caracalla في سنة ٢١٢ حق المواطنة الرومانية لكل الأحرار من مواطني الإمبراطورية. ولأن الإمبراطورية الرومانية كانت تشمل ما عرف بعالم البحر المتوسط في ذلك التاريخ، فقد خضع كل الناس لنظام قانوني وصاروا مواطنين لمملكة واحدة.

والقانون الروماني Roman Law الذي ركَّز على كرامة الفرد وحقه في العدل وفي المواطنة الرومانية، وميله لوضع الناس من مختلف الأجناس في منظمة سياسية واحدة، هيأ جواً مناسباً للإنجيل الذي نادى بوحدة الجنس البشري في الوقوع تحت عقاب الخطية وفي التمتع بالخلاص منها. وقد ذكَّر بولس أعضاء كنيسة فيلبي بأنهم أعضاء في "كومنولث" سماوي (في ٣: ٢٠).

٢- هناك ملاحظة جديرة بالإشارة أنه قبل ولاية أغسطس قيصر Augustus Caesar (٢٧ ق.م - ١٤م) ما كان ممكناً لحَمَلة البشارة المسيحية التحرك بحرية في منطقة حوض المتوسط وذلك بسبب انقسام العالم القديم إلى وحدات متنافسة ووجود مدن مستقلة أو قبائل مما كان يعوق السفر وانتشار الأفكار والمبادئ. وبتوسع رقعة الإمبراطورية الرومانية في فترة بناء الإمبراطورية، سادت فترة من السلام المتنامي في مختلف البلاد المحيطة بالبحر المتوسط. كان بومبي قد سحق قراصنة البحر المتوسط، وتولى الجنود الرومان تحقيق الأمن في شوارع أسيا وأفريقيا وأوربا. وقد سمح هذا الجو السلمي النسبي للمسيحيين الأوائل بالتحرك من مكان لآخر لتوصيل بشارة الإنجيل للناس في كل مكان.

٣- أنشأ الرومانيون شبكة ممتازة من الطرق كانت تتفرع من مركز الساحة العامة في روما متجهة إلى جميع أنحاء الإمبراطورية. وكانت هذه الطرق الخرسانية تدوم أجيالاً. وكانت تقطع الجبال والوديان وتشق طريقها إلى أبعد مراكز الإمبراطورية. وبدراسة رحلات بولس نجد أنه استغل هذه الطرق أفضل استغلال للانتقال من مركز استراتيجي إلى آخر في الإمبراطورية. وقد كانت الطرق الرومانية Roman Roads والمدن الاستراتيجية الواقعة حولها معيناً لا غنى عنه في تحقيق إرسالية بولس.





٤- ولا يمكن إنكار دور الجيش الروماني Roman Army في تنمية فكرة النظام العالمي الشامل وفي انتشار الإنجيل. فقد اعتاد الرومانيون استخدام القرويين وسكان المقاطعات في تكوين الجيش. وقلَّ الاعتماد على سكان روما بسبب الحروب واعتيادهم على الحياة السهلة. فحدث تفاعل بين هؤلاء القرويين والحضارة الرومانية مما مهد لنشر أفكارها في أنحاء العالم القديم. بالإضافة إلى ذلك فإن بعض هؤلاء قد تحولوا للمسيحية ونشروا بشارة الإنجيل في الأماكن التي عينوا للخدمة العسكرية فيها. ومن المحتمل أن يكون أول نور للمسيحية وصل إلى بريطانيا نتيجة جهود الجنود المسيحيين الذين خدموا هناك.

٥- أدت الفتوحات الرومانية إلى كفر شعوب كثيرة بالآلهة التي كانت تعبدها لعجزها عن حمايتهم من الغزو الروماني. فتُرِك هؤلاء الناس في فراغ روحي لم تستطع ديانات تلك الأيام أن تملأه. ثم إن البدائل التي قدمتها روما بدلاً من هذه الديانات لم تزد سوى إلى مزيد من إدراك هؤلاء الناس لحاجتهم إلى دين أكثر روحانية. وما كان الاتجاه إلى تأليه الإمبراطور الروماني، الذي ظهر مع بداية العصر المسيحي، سوى وسيلة لجعل الناس يتفهمون معنى الإمبراطورية الرومانية بشكل ملموس.

أما ديانات الأساطير السرية ، فقد بدا أنها تمنح عوناً روحياً ونفسياً للناس أكثر من عبادة الإمبراطور، وبالفعل فقد شكلت منافساً ونداً قوياً للمسيحية. فقد غزت عبادة "سيبيل" Cybele إله الطبيعة وأم الأرض روما عن طريق "فريجية". وقد احتوت عبادة إله الخصوبة هذه ضمن ما احتوت من طقوس على دراما موت وقيامة "أتيس" قرين "سيبيل" مما أوجد ارتياحاً في نفوس الناس إذ كان يسد احتياجاً نفسياً لديهم. و كانت عبادة "إيزيس" المنقولة عن مصر، تركز على الموت والقيامة مثل عبادة "سيبيل" . أما عبادة "ميثرا" Mithraism من آلهة فارس، فقد شكلت عامل جذب خاص لجنود الإمبراطورية الرومانية. و كانت تحوي احتفالاً سنويا في شهر ديسمبر بالمولد المعجزي للمخلص "ميثرا"، يشتمل على طقوس عبادات خاصة.

وقد ركَّزت كل هذه الديانات على الإله المخلص. كانت عبادة "سيبيل" تستدعي التضحية بثور وتعميد العابدين بدم الثور. كذلك اشتملت عبادة "ميثرا" على مآدب ذبائحية. وبسبب تأثير هذه الديانات، فقد بدا الاختلاف قليلاً في متطلبات المسيحية من الفرد. ولما اكتشف كثيرون أن الذبائح الدموية لتلك الديانات لم تصنع شيئاً من أجلهم، قادهم الروح القدس لقبول الحق الذي تقدمه لهم المسيحية.(٢)

يقودنا كل ما سبق من عوامل إلى الاعتقاد بأن الإمبراطورية الرومانية قد خلقت بيئة سياسية مناسبة لانتشار المسيحية في مهدها. وحتى كنيسة العصور الوسطى لم تستطع أن تتخلص أبداً من الشعور بالمجد الإمبراطوري الروماني وسعت إلى الاحتفاظ برموزه في نظام كنسي دائم.

### ب- الإسهامات الفكرية للإغريق

وعلى نفس درجة عظمة روما في الإعداد للمسيحية، كان التحضير الفكري والبيئة الثقافية التي صنعها الإغريق. فإذا كانت روما مرتبطة



*امتدت عبادة "ميثرا" من بلاد فارس إلى روما، وهنا يرى ميثرا إله النور والنار يقدم ثورًا كذبيحة. ويرمز العقرب الذي يتعلق بخصيتي الثور، وكذلك الثعبان والكلب اللذين يتأهبان لالتهام الدم النازل من رقبة الثور، إلى الخصب والتجديد وقد انتشرت هذه الخرافة بصفة خاصة بين الجنود الرومان.*

بالبيئة السياسية التي جاءت فيها المسيحية، فإن أثينا هي التي كونت البيئة الفكرية التي ساعدت على انتشار بشارة الإنجيل. ربما يكون الرومان قد غزوا الإغريق سياسيًا، لكن الإغريق – كما يقول "هوراس" في قصيدته – كانوا قد غزوا روما ثقافيًا. شق الرومان الطرق الجيدة وأقاموا الجسور العظيمة والمباني الجميلة، لكن الإغريق أنشأوا في العقول الصروح الفكرية الشامخة. وتحت تأثير الإغريق، أفسحت الثقافة الريفية البسيطة للجمهورية البدائية المجال واسعًا أمام الثقافة الفكرية للإمبراطورية.

١- احتاجت بشارة الإنجيل للعالم كله إلى لغة عالمية موحدة تؤدي إلى إحداث أكبر أثر. فكانت اللغة اليونانية هي اللغة السائدة في العالم القديم، مثل الانجليزية في العصر الحديث واللاتينية في





القرون الوسطى. وفي الوقت الذي بزغت فيه شمس الإمبراطورية الرومانية، كان معظم المثقفين الرومان يجيدون اليونانية بجانب اللاتينية.

أما كيف نجحت اليونانية في أن تكون اللغة العامية الدارجة المستخدمة عالميًا في ذلك الوقت فتلك قصة مثيرة للاهتمام. فبنمو الإمبراطورية الأثينية في القرن الخامس قبل الميلاد، أصبحت اللهجة "الأتيكية"، وهي اليونانية الفصحى، هي اللغة الأكثر استعمالاً. وحتى بعد تدمير الإمبراطورية نحو نهاية القرن الخامس ق.م، استخدم الإسكندر Alexander وجنوده وكل تجار العالم الهليني ما بين ٣٣٨-١٤٦ ق.م. هذه اللغة الأدبية الفصحى وحوروها وطوروها وأضافوا إليها ونشروها في أنحاء عالم البحر المتوسط. فأصبحت هذه اللهجة الجديدة التي اختلفت عن الأتيكية هي اللغة العامة التي عرفت ب. "الكوينا" Koine وهي التي استخدمها المسيحيون في المخاطبة والاحتكاك بشعوب العالم القديم، وكتبوا بها العهد الجديد وكذلك كتب بها يهود الاسكندرية العهد القديم في ترجمته السبعينية. وحتى وقت قريب، لم يكن معروفًا أن يونانية العهد الجديد هي بعينها يونانية رجل الشارع في أيام المسيحية الأولى بسبب الفارق الكبير بينها وبين اليونانية الفصحى، إلى حد أن ذهب أحد اللاهوتيين الألمان إلى القول بأن لغة العهد الجديد هي لهجة يونانية خاصة موحى بها من الروح القدس خصيصًا لكتابة العهد الجديد.

وقرب نهاية القرن الماضي اكتشف أدولف ديسمان Deissman أن يونانية العهد الجديد هي نفس اللغة التي استخدمها الرجل العادي في القرن الأول في تدوين الوثائق المتعلقة بحياته اليومية وتجارته من خلال سجلات البردي، إذ كانت هي لغة الكلام والكتابة. ومنذ ذلك الحين تبنى العالمان مولتون وميليجان إكتشاف ديسمان في دراسة مقارنة على أسس علمية بين لغة البرديات ولغة العهد الجديد. وقد شجع هذا الاكتشاف على نشأة ترجمات عديدة حديثة للغات التخاطب. ويعتقد المترجمون أنه كما كتب الإنجيل بلغة ذلك الزمان الدارجة التي كان يستخدمها رجل الشارع، فيجب أن تصاغ كلمات الإنجيل بنفس اللغة التي يتحدث بها الرجل العادي في هذه الأيام.

٢- مهدت الفلسفة الإغريقية Greek Philosophy لقدوم المسيحية بالقضاء على الديانات القديمة. فكان كل من يتفهم معتقداتها – سواء أكان رومانيًا أم إغريقيًا – سرعان ما يكتشف أن نظام المسيحية الفكري يجعل الديانات التي تؤمن بتعدد الآلهة غير منطقية، فيهجرها إلى الفلسفة. لكن الفلسفة فشلت في إشباع حاجاته الروحية، فيواجه أمرًا من اثنين، إما أن يتشكك في كل شئ أو يتلمس راحته في ديانات الأساطير الرومانية. وتزامن مقدم المسيحية مع تهاوي الفلسفة من فوق القمة التي تربعت عليها بواسطة أفلاطون Plato إلى مجرد نظام من التمركز الفردي حول الذات، مثل الرواقية Stoicism أو الأبيقورية. بل أكثر من ذلك، فإن أقصى ما تصل إليه الفلسفة هو أن تطلب الله وأن تفترضه كفكرة تجريدية محضة. فهي قاصرة عن إعلان الله كشخص إلهي محب. هذا الإفلاس الفلسفي الذي واكبه مجئ المسيح، وجَّه أفكار الناس إلى الاقتراب من الحياة بصورة أكثر روحانية. فتمكنت المسيحية بمفردها من ملء الفراغ الروحي في تلك الأيام.

وقد خدم الفلاسفة الإغريق العظام المسيحية بجذب انتباه اليونانيين إلى ضرورة وجود حقيقة تتجاوز وتسمو على العالم المؤقت الزائل الذي كانوا يعيشون فيه. فكان تعليم سقراط Socrates في القرن الخامس قبل الميلاد وأفلاطون بأن عالم الحواس الزائل ما هو إلا ظل العالم الحقيقي الذي تسود فيه المثل العليا الحق والخير والجمال. وقد أصرا أن الحقيقة ليست وقتية أو مادية إنما روحية أبدية. ولم يقدهما بحثهما عن الحق إلى شخص الله، بل أظهر أفضل ما يمكن أن يقوم به الإنسان البحث عن الله بالعقل.

وجاءت المسيحية، فقدمت لهؤلاء الذين قبلوا فلسفة سقراط Socrates وأفلاطون Plato، الإعلان التاريخي الحق والخير والجمال متجسداً في شخص الله المتأنس، الرب يسوع. وقد تمسك الإغريق أيضاً بخلود الروح، لكنهم لم يفكروا في قيامة الجسد. ويترك الأدب والتاريخ اليونانيان انطباعاً لدى القارئ أن الإغريق أولوا اهتماماً كبيراً لمسائل الخطأ والصواب وكذلك المستقبل الأبدي للإنسان. واقترب إسخيلوس Aeschylus في مسرحيته "أجاممنون" Agamemnon من تلك الحقيقة الكتابية الموجودة في سفر العدد ٣٢:٢٣ "... وتعلمون خطيتكم التي تصيبكم" إذ كان يصر أن متاعب أجاممنون هي نتيجة تصرفه الخاطئ. ومع ذلك فلم ينظر الإغريق إلى الخطية أكثر من مجرد أمر يمارس آلياً. ولم يدركوا أبداً أنها فشل شخصي يهين الله ويجرح الآخرين.

وعندما جاء المسيح، أدرك الناس كما لم يدركوا من قبل قصور العقل البشري والتعددية الإلهية. فإن فلسفات أبيقور Epicurus و زينو Zeno وكذلك ديانات الأساطير تشهد كلها عن رغبة الإنسان في علاقة شخصية عميقة بالله. حملت المسيحية هذا العرض بالعلاقة الشخصية ووجدت أن الثقافة اليونانية القاصرة قد خلّفت في القلوب جوعاً كبيراً.

٣- وقد ساهم الشعب الإغريقي أيضاً وبصورة دينية في إعداد العالم لقبول الديانة المسيحية الجديدة عند ظهورها. فقد حطمت الفلسفات اليونانية المادية التي سادت في القرن السادس ق.م. إيمان اليونانيين بالعبادات الوثنية التعددية كما هو موصوف في الإلياذة والأوديسا لهوميروس. وبرغم استمرار هذه العناصر في العبادة الرسمية الآلية إلا أنها سرعان ما فقدت حيويتها. بعد ذلك اتجه الناس إلى الفلسفة، لكن هذه الأخيرة أيضا سرعان ما فقدت حيويتها. أصبحت الفلسفة بفضل أتباع السفسطائيين Sophists، عبارة عن نظام نفعي فردي كما نرى في تعاليم "زينو" الرواقية Stoicism وتعاليم أبيقور Epicurus. ثم ها هو الشاعر لقريطس Lucretuis المعبر عن الفلسفة الأبيقورية، يؤسس تعليمه الذي ينبذ ما فوق الطبيعة على أسس ميتافيزيقية مادية تعتبر حتى روح الإنسان مجرد نوع من الذرّة. أما الرواقية فقد اعترفت بما فوق الطبيعة، لكن إلهها كان متوحدا بالطبيعة إلى درجة الاقتراب من فكرة "وحدة الوجود" التي تنادي بأن الله والطبيعة شئ واحد. وفي الوقت الذي علّمت فيه الرواقية عن أبوة الله والأخوة الإنسانية وتمسكت بنوع من الأخلاقيات السامية المطلوبة، فإنها تركت الإنسان يصنع وحده ولاءه للقوانين الطبيعية التي كان عليه أن يكتشفها وحده بعقله دون مساعدة.





وهكذا أسهمت أنظمة الإغريق والرومان الفلسفية والدينية في الإعداد لمقدم المسيحية بالقضاء على الأديان التعددية الوثنية القديمة وبإظهار عجز الفكر الإنساني عن الوصول إلى حقيقة الله. وخلقت ديانات الأساطير في الناس عادة التفكير بلغة الخطية والفداء. وبذلك كان الناس عند ظهور المسيحية أكثر تقبلاً لديانة جاءت تمنحهم الحل الروحي في معالجة أمور الحياة.

## ٢- الإسهامات الدينية لليهود

تشمل الإسهامات الدينية لتحقيق "ملء الزمان" كلاً من الرومان والإغريق وكذلك اليهود. لكن مع عظمة ما أسهمت به كل من أثينا وروما في صنع الجو العام الممهد للمسيحية، فإن اليهودية تحتل موقعاً هاماً باعتبارها المورث للمسيحية. ربما ترعرعت المسيحية في الوسط السياسي لروما أو تكون قد جابهت الجو الفكري الذي خلقه العقل الإغريقي، إلا أن علاقتها باليهودية أوثق. فيمكننا اعتبار اليهودية الساق التي تفتحت عليها زهرة المسيحية.

لم يبحث الشعب اليهودي عن الله بأعمال عقله البشري كما كان يفعل الإغريق. فقد اعتبروا وجوده أمراً واقعاً ومجدوه باعتباره الإله الذي شعروا باستحقاقه لكل عبادة. وذلك لأنهم تأثروا في مسلكهم هذا بحقيقة بسيطة هي أن الله هو الذي بحث عنهم وأعلن لهم ذاته في التاريخ بظهوراته لإبراهيم وآخرين من قادة الشعب العظماء. وأصبحت أورشليم رمزاً للإعداد الإيجابي الديني لمقدم المسيحية. والخلاص هو من عند اليهود كما قال المسيح بحق للمرأة عند البئر (يوحنا ٤:٢٢).

ومن هذه الأمة الصغيرة المغلوبة على أمرها الواقعة عند التقاء آسيا وأفريقيا وأوربا، خرج المخلص. وبذلك كانت اليهودية هي المورث للمسيحية، ولمرحلة معينة قامت بدور الحماية للديانة الوليدة.

### أ- التوحيد الإلهي Monotheism

وقفت اليهودية في مواجهة كل الأديان الوثنية في ذلك الوقت بإصرارها على التوحيد الإلهي الروحي السليم. ولم يسقط اليهود مرة أخرى في خطية الوثنية بعد السبي البابلي، وكانت رسالة الله لهم من خلال موسى هي الولاء والإخلاص للإله الواحد إله كل الأرض. وكانت آلهة الوثنيين مجرد تماثيل أدانها أنبياء اليهود بكل صرامة ووضوح. وقد انتشر هذا التوحيد العظيم في حوض البحر المتوسط خلال القرون الثلاثة التي سبقت مجئ المسيح عن طريق المجامع العديدة المتناثرة في هذه المنطقة.

### ب- انتظار المسيا

حمل اليهود إلى العالم أملاً غالياً هو انتظار المسيا الذي يثبت البر في الأرض. ويمكننا أن نلاحظ هذا الرجاء المسياني بالمقابلة مع الطموح الوطني الصارخ الذي وصفه "فيرجيل" Virgil في قصيدته التي تصور حاكماً رومانياً مثالياً منتظراً – هو الابن الذي يولد "لأغسطس". وقد أضحى هذا الأمل المسياني شائعاً في أرجاء العالم الروماني بفضل إعلان اليهود عنه بإصرار وثبات. حتى أن التلاميذ بعد موت وقيامة الرب يسوع كانوا لا يزالون ينتظرون مملكة مسيانية على الأرض (أع ١:٦). وبالتأكيد فإن الرجال الحكماء الذين ظهروا في أورشليم بعد ولادة يسوع بوقت قصير قد اكتسبوا معرفة عن هذا الرجاء. ويمكننا تصور

الجو الذي عاش فيه اليهود منتظرين المسيا، لو تأملنا حالة التوقع لدى المؤمنين في وقتنا الحاضر في انتظار المجيء الثاني للرب يسوع.

ج- نظام أخلاقي

حبت اليهودية العالم – من خلال الجزء الأخلاقي من الشريعة – أنقى نظام أخلاقي في الوجود. فالوصايا العشر بمستواها الأخلاقي الرائع تقف في تباين واضح مع النظم الأخلاقية السائدة في تلك الأيام، والتطبيق الفاسد للتعاليم الأخلاقية بواسطة من اعتنقوها. لم تكن الخطية بالنسبة لليهود شيئاً خارجياً آلياً كما كان يراها الرومان والإغريق، بل هي انتهاك لإرادة الله الواضحة، انتهاك عبر عن نفسه أولاً في قلب غير نقي ثم في أفعال خارجية واضحة للخطية. هذه النظرة الأخلاقية والروحية التي تبناها العهد القديم خلقت تعليماً عن الخطية والفداء واجه بحق مشكلة الخطية. فالخلاص يأتي من الله ولا يمكن الاهتداء إليه من خلال الأنظمة العقلية الأخلاقية أو ديانات الأساطير الوهمية.

د- كتابات العهد القديم

واصل الشعب اليهودي إعداد الطريق للمسيحية القادمة بإمداد الكنيسة الوليدة برسالتها أي إمدادها بالعهد القديم. وأي دراسة عابرة للعهد الجديد ستلاحظ بجلاء كيف كان الرب يسوع والتلاميذ ملتزمين بالولاء للعهد القديم ويوقرونه باعتباره كلمة الله إلى الإنسان. وقد قرأه كثير من الأمميين وتعرفوا على عقائد الإيمان اليهودي. ومعظم المهتدين إلى المسيحية من اليهودية يرجعون الفضل إلى العهد القديم الذي كان الكتاب المقدس للكنيسة الأولى. وكثير من الديانات عندهم كتب مقدسة تركها أنبياؤهم، أما المسيح فلم يترك كتاباً مقدساً للكنيسة. لكن كتب العهدين القديم والجديد كتبها أناس الله مسوقين من الروح القدس وهي الكتب التي تستخدمها الكنيسة.

هـ- فلسفة التاريخ

لليهود فضل التنظير لفلسفة التاريخ لأنهم تمسكوا بحتمية أن يكون للتاريخ معنى. وقد تصدوا معارضين أي فكرة تقول بأن التاريخ مجرد حلقات من القرون المتلاحقة لا معنى لها أو مجرد عملية ارتقاء للزمن في خط مستقيم. لكنهم يتبنون رؤية ديناميكية مفاجئة للتاريخ يتدخل بمقتضاها الله صانع التاريخ ليقهر فشل الإنسان في التاريخ وليصنع عصراً ذهبياً.

و- المجمع

أسس اليهود أيضاً بناء كان له أكبر الفضل في شروق نمو المسيحية في أيامها الأولى ألا وهو "المجمع اليهودي". برز المجمع كبديل للهيكل في أورشليم أثناء سبي اليهود في بابل، وأصبح جزءاً مكملاً للحياة اليهودية. ومن خلاله اقترب اليهود وكثير من الأمميين من رؤية الحياة بصورة أفضل. وكان أيضاً أول مكان يذهب إليه بولس ليعظ في كل المدن التي مر بها أثناء رحلاته التبشيرية، وأصبح مركز التبشير في أيام المسيحية Christianity الأولى. فكانت اليهودية– بحق– المعلم Paidagogos الذي قاد الناس إلى المسيحية (غلاطية ٣:٢٣-٢٥).

الموضوعات التي ناقشناها في هذا الفصل تبين كيف ظهرت المسيحية مستندة إلى عوامل مهيئة جغرافياً وزمنياً. فعلى مدار التاريخ، قبل مجيء المسيح، لم يكن العالم أبداً موحداً هكذا تحت





قانون واحد وحكومة واحدة. وكان لعالم البحر المتوسط ثقافة واحدة مركزها روما. ووصلت بشارة الإنجيل إلى معظم الناس في الإمبراطورية بفضل لغة عالمية واحدة جمعت بين البشر والسامع.

وكان لفلسطين – مهد الدين الجديد – وضع إستراتيجي في هذا العالم. وكان بولس على حق في تأكيده أن المسيحية "لم تحدث في ركنٍ منزوٍ" (أعمال ٢٦:٢٦)، لأن فلسطين كانت ملتقى طرق هام بين أسيا وأفريقيا وأوربا. وقد قامت كثير من الحروب في التاريخ القديم للاستيلاء على هذه البقعة الاستراتيجية. وكانت الظروف مواتية في الفترة الأولى للمسيحية وحتى القرن الثالث لانتشار المسيحية في عالم البحر المتوسط أكثر من أي وقت في القرون القديمة أو الوسطى. وهذا أيضاً رأي قادة الحركات الكرازية في العالم.[٣]

وهكذا تهيأ العالم "لملء الزمان" بواسطة اشتراك الإغريق والرومان في صنع الجو العام وبفضل الميراث اليهودي. فأرسل الله ابنه الحبيب ليصنع فداءً للبشرية التي أنهكتها الخطية وهدتها الحروب. وليس صدفة أن تظل المسيحية واليهودية، من بين جميع الأديان الموجودة في أيام المسيح، قادرة على مواكبة المسار المتغير للتاريخ الإنساني بنجاح متصل.

## اقتراحات للقراءة

إن أي نسخة معتمدة من العهد القديم وكتب الأبوكريفا، تعطي نوعًا من الشرعية للمرجع الأساسي وهو اليهودية، والعناوين الموضوع أمامها علامة (*) تشمل عصر الكنيسة القديمة.


* *Ayer, Joseph C., Jr.* A Source Book for Ancient Church History. *New York: Scribner, 1913. This work, which has an explanatory preface to each document, is particularly useful for the period between 100 and 590.*

*Boak, Arthur E.R., and Sinnigen, William G.* A History of Rome to A.D. 565. *5th ed. New York: Macmillan, 1965.*

*Botsford, George W., and Robinson, Charles A.* Hellenic History. *4th ed. New York: Macmillan, 1956. This has authoritative information on most phases of Greek history.*

*Breed, David.* A History of the Preparation of the World for Christianity. *2nd ed. New York: Revell, 1893.*

* *Bright, William.* The Age of the Fathers. *2 vols. New York: Longmans, 1903. This has detailed, scholarly accounts of the era from 300 to 500.*

* *Bruce, F.F.* The Spreading Flame. *Grand Rapids, Eerdmans, 1958. This surveys church history to 590.*

* *Chadwick, Henry.* The Early Church. *Grand Rapids: Eerdmans, 1968. This is another*

انتشار المسيحية في الإمبراطورية
حتى سنة مائة

## الفصل الثاني

# على هذه الصخرة

المسيح هو الصخرة التى تأسست عليها الكنيسة. فبالمسيح نصل الى الايمان بالله لأجل الخلاص من الخطية. ومن المسيح يندفع الحب إلى قلب الإنسان فينظر البشر إلى الشخصية الإنسانية نظرة مقدسة لأن خالق الكيان الجسدي والروحي للإنسان هو الله وهو أساس كل رجاء في المستقبل. أعلن كل من لوقا (١:١-٤) ويوحنا (٢٠:٣٠-٣١) في إنجيليهما أن المسيحية ديانة غزت التاريخ ولا يمكن أن توجد بعيداً عن مسيح التاريخ. فتقويمنا الميلادي والكنيسة ذاتها واتخاذ يوم الأحد يوماً للراحة، والتغييرات الملحوظة في حياة تابعي المسيح كلها عناصر تاريخية تشهد للمسيح في التاريخ.

## ١- تاريخية المسيح

إن بداية المسيحية ترى من وجهة نظر ذاتية بشرية مرتبطة بالتاريخ. ولأن كلاً من حياة المسيح وموته متعلقة تماماً بتاريخية المسيح ولا سبيل للتنصل منها لذا ينبغي أن نعير حقيقة وجود المسيح تاريخياً إهتماماً كافياً. أنكر كثيرون حقيقة حلول المسيح وظهوره في التاريخ البشري (يوحنا ١٤:١)[١] ومن حسن الحظ أنه توجد إثباتات تاريخية من خارج الكتاب المقدس تبرهن على وجود المسيح كشخص تاريخياً.

### أ- شهادة الوثنيين

قام تاسيتوس Tacitus (٥٥م-١١٧م) عميد المؤرخين الرومان بربط اسم وأصل المسيحيين باسم "كريستوس" أي "المسيح" وقال عنه إنه عانى الموت في عهد طيباريوس محكوماً عليه من الوالي الروماني بيلاطس البنطي.[٢]

كتب بيليني Pliny القاضي الروماني الذي أُسندِ إليه حكم مقاطعة بيثينيه وبُنطس في آسيا الصغرى، كتب إلى الإمبراطور تراجان Trajan في حوالي عام ١١٢م يسأله إسداء النصح في كيفية التعامل مع المسيحيين. وتعطي رسالته ذخراً قيماً إضافياً من المعلومات بخصوص المسيح. أثنى بيليني بشدة على استقامة المسيحيين الأخلاقية بذكره عدم رغبتهم في السرقة أو ارتكاب الموبقات وعدم نقض وعودهم وإنهم لا يخونون الثقة الممنوحة لهم. وتابع قائلاً إنهم "يغنون أغنية للمسيح وكأنه إله".[٣]

كتب سوتونيوس Suetonius عن حياة القياصرة الاثنى عشر Lives of the Twelve Caesars في كتابه فيتاكلوديوس (٤.٢٥) ذكر حادثة طرد اليهود من روما بسبب اضطرابات بخصوص كريستوس (المسيح). وهناك هجاء - وهو




*بحسب لوقا، بدأ يوحنا المعمدان خدمته بإعداد وتهيئة الطريق ليسوع في العام الخامس عشر من حكم القيصر طيباريوس. عيَّن تاكيتوس Tacitus المؤرخ الروماني فترة موت المسيح بأنها حدثت في حكم طيباريوس. وتمثل العملة المعروضة صورة بها سمات طيباريوس ذاته.*

من هذه الناحية شهادة قيمة – كتبه الشاعر لوسيان (نحو عام ١٢٥ – ١٩٠) حوالي عام ١٧٠م يهجو به المسيحين وإيمانهم

وصف لوسيان Lucian المسيح بأنه الشخص الذي "صُلب في فلسطين" بسبب بدئه "ذلك المذهب الجديد". كتب أن المسيح علّم تابعيه أن يؤمنوا أنهم إخوة وأن يراعوا قوانينه. وسخر من المسيحيين أيضًا بسبب "عبادتهم لذلك الفيلسوف المصلوب".(٤)

تعتبر هذه الشهادات ذات قيمة دلالية تاريخية هامة، لأنها أتت من رومان مثقفين، احتقروا المسيحيين وعادوهم. وعلى أساس هذه الشهادات –

بالإضافة إلى الكتاب المقدس الذي يعد أيضا عملاً تاريخيًا – يستطيع الباحث استنتاج وجود دلائل فعّالة على حقيقة تواجد المسيح تاريخيًا.

### ب- شهادة اليهود

أما يوسيفوس Josephus (نحو عام ٣٧م نحو ١٠٠م) اليهودي الثري الذي حاول بكتاباته أن يدافع عن اليهودية لدى المثقفين الرومان فتحدث هو أيضا عن المسيح إذ كتب عن يعقوب James أخي يسوع الذي يدعونه المسيح.(٥)

وفي مقطع آخر يعتبره البعض أن المسيحيين دسوه وهناك مقطع آخر، وإن اعتبره البعض مدسوسًا من المسيحيين على كتابات يوسيفوس، في هذا المقطع يصف فيه يوسيفوس المسيح بقوله: "الرجل الحكيم الذي حكم عليه بيلاطس(٦) بالموت على الصليب." ولو سلمنا بأن المسيحيين قاموا بدس ما، فإن معظم العلماء يتفقون على أن هذه المعلومات الأساسية التي ذكرناها جزء من النص بالطبع. لم يكن يوسيفوس Josephus صديقًا أو مولعًا بالمسيحية مما يؤكد القيمة التاريخية لأقواله.

### ج- الشهادات المسيحية من خارج الكتاب المقدس

تؤكد الأسفار الرؤوية وأعمال الرسل والرسائل وأناجيل الأبوكريفا (غير القانونية)، تؤكد جميعًا على تاريخية يسوع المسيح وتم تجميع هذه الأدلة في كتاب العهد الجديد الأبوكريفي The Apocryphal New Testament للكاتب م.ر.جيمس Montague R. James. كما ترى صور ونقوش الحمامة والسمكة والهلب ورموز مسيحية أخرى في سراديب الموت الرومانية، تشهد





بالإيمان في مسيح متواجد تاريخيًا، كما يشهد على ذلك أيضًا وجود تقويم مسيحي وتقليد يوم الأحد ووجود الكنيسة. وللأسف، ما حدث عند اختيار تاريخ لبداية التقويم المسيحي، أن قام رئيس الرهبان السكيثي ديونسيوس اكسيا Dionysius Exiguus في حسابه البسكالي Cyclus Paschalis في نحو عام ٥٥٠م باختيار عام ٧٥٤ت.ر.

ذكر متى في إنجيله (٢:١) أن ولادة يسوع تمت في أيام هيرودس الملك. وذكر يوسيفوس في كتابه "العصور القديمة" Antiquities (١٨، ٦، ٤) تاريخًا آخرًا يقع قبل موت هيرودس هو ٧٥٠ ت. ر. ذلك لأن مذبحة الأطفال اليهود والهروب إلى مصر سبقا موت هيرودس وبذلك نأتي إلى تاريخ أدق لولادة المسيح، هو ٧٤٩ ت. ر. أي ما يقابل العام الخامس قبل الميلاد في التقويم الميلادي.

أجاب اليهود المسيح بحسب انجيل يوحنا ٢٠:٢ بأن عمر الهيكل آنذاك هو ستة وأربعون عامًا. كما اتفق يوسيفوس Josephus والمؤرخ الروماني ديو كاسيوس Dio Cassisus على أن تاريخ بداية البناء كان ٧٧٩ ت. ر. عمر المسيح حينئذ كان يناهز الثلاثين عامًا تبعًا لإنجيل لوقا ٢٣:٣. فلو طرحنا ٣٠ من ٧٧٩ يكون الفارق هو ٧٤٩ ت. ر. التي تقابل ٥ ق. م. يعتبر هذا التاريخ هو الأكثر إحتمالاً لولادته وهو يسبق تقويمنا المسيحي بخمس سنوات.

## ٢- شخصية المسيح

يشير الكتاب المقدس إلى شخصية المسيح وصفاته حتى عندما نقرأ الأسفار قراءة عابرة فإنها تترك لدينا انطباعًا بأصالة المسيح. يقتبس اليهود، مثلهم مثل السلطات الحاضرة، كلمات آخرين ذوي سلطة ليؤسسوا عليها قراراتهم. أما المسيح فكان يقول ببساطة "أنا أقول لكم". كانت كلماته التي تتبع هذه العبارة مثلها مثل كل كلماته في الأناجيل تشير إلى إبداعه وأصالة أفكاره وأدهشت الناس في أيامه (مرقس ٢٢:١ ، لوقا ٣٢:٤).





*نقوش من فن سراديب الموت المسيحية تشهد للإيمان بالمسيح الذي كان في التاريخ. يمثل تصويرًا رمزيًا لمعجزة الخبزات والسمك مأخوذًا من سرداب كاليستوس. أما مركز النقش الثاني المأخوذ من سرداب بريسكيلا فيصور المسيح الراعي الصالح.*

تبرز السجلات الكتابية صدق وإخلاص المسيح. فهو الكائن البشري الوحيد الذي لم يكن لديه ما يخفيه وبذا استطاع أن يكون على حقيقته تماماً (يوحنا ٨:٤٦) تصور الأناجيل شخصية المسيح المتزنة. ارتبطت صفة الجرأة ببطرس وارتبطت المحبة بيوحنا. وارتبطت الوداعة باندراوس أما المسيح فلم يطغ جانب من صفاته على الآخر بل تظهر السجلات تناسق وتوازن في الشخصية والصفات. يمكن تفسير وإرجاع شفافية واتزان وأصالة المسيح إلى سبب واحد هو ولادة المسيح تاريخياً من عذراء.(٧)

## ٣- عمل المسيح

ينبغي ألاّ نفصل بين أهمية شخصية المسيح المتسامية وأعماله. هذه الأعمال التي كانت تتخذ أحياناً شقاً إيجابياً وأحياناً شقاً سلبياً. أظهر المسيح خلال سنوات خدمته الثلاث براً وصلاحاً مستوفياً بذلك جميع متطلبات الناموس، بالإضافة إلى بره الداخلي الجوهري لأنه ابن الله. وهذا البر الخارجي للمسيح أهلّه لأن يموت من أجل البشر الذين فشلوا على الدوام في تحقيق أي برّ واحتاجوا لبديل بار ينوب عنهم ليغفر الله خطاياهم. كان لهذا العمل الإيجابي عمل متمم بطريقة سلبية هو قبوله الموت على الصليب طوعاً. (فيلبي ٢ : ٥-٨). لخّص المسيح هاتين المرحلتين التاريخيتين من عمله في جملة واحدة تعبر عن مهمة خدمته وآلامه (مرقس ١٠-٤٥).

### أ- خدمة المسيح

نعرف القليل عن سني إقامة المسيح في الناصرة، فيما عدا الوصف الموجز لزيارة المسيح إلى أورشليم مع والديه في سن الثانية عشر (لوقا ٢: ٤١- ٥٠) ، وبعض الإشارات المتفرقة إلى أمه وإخوته. درس المسيح التوراة في البيت كما يغلب الظن وفي فصل الأطفال في المجمع. ولأن العادة كانت تقتضي تعلم كل طفل يهودي حرفة ما، تعلم المسيح صنعة يوسف. استطاع المسيح التعرف على العالم الخارجي بملاحظته لقوافل التجارة التي تمر بالناصرة التي تقع على طريق تجاري كبير. وتكشف أمثاله وعظاته عن أنه ملاحظ مدقق للطبيعة. وكإنسان، رأى يسوع الله في مصدرين أساسين أولهما إعلان الله عن نفسه في الطبيعة والثاني هو العهد القديم. وتقدم يسوع خلال هذه السنوات الأولى جسدياً واجتماعياً وذهنياً وروحياً (لوقا ٢:٥٢) لإعداده للعمل العظيم المزمع أن يقوم به.

مهّد يوحنا المعمدان في فترة خدمته القصيرة لإرسالية المسيح وارتبطت خدمة المسيح العلنية في بدايتها مع معموديته على يد يوحنا. سيلاحظ الدارس المدقق في خدمة المسيح أنه ركّز خدمته بعد هذه الحادثة في الأوساط اليهودية. كان ذلك متمشياً مع المبدأ الذي أكّده مراراً أنه جاء لمساعدة "خراف بيت إسرائيل الضالة" متى (١٥ :٢٤).

وبعد تجربته في البرية اختار المسيح بعض التلاميذ ليكملوا عمله بقيادة الروح القدس بعد قيامته وصعوده. بدأ معجزاته بزيارة إلى قانا الجليل حيث حوّل الماء إلى خمر. أتبع هذا بزيارة إلى أورشليم وقام بتطهير الهيكل. وتقابل في لقاء خاطف مع نيقوديموس. أظهر خلاله الطبيعة الروحية لخدمته (يوحنا ٣:٣، ٥، ٧) ثم عاد إلى الجليل متخذاً طريق السامرة حيث أبرزت مقابلته





مع المرأة السامرية (يوحنا ٤)، أن خدمته لن تقتصر على قومية بعينها أو تعوقها حواجز الجنس أو اللون برغم أنها موجهة أساساً إلى اليهود.

اتخذ المسيح من كفرناحوم مركزاً لخدمة منطقة الجليل بعد أن رفضه أهل الناصرة، وشكلت خدمة الجليل القسم الأكبر من خدمته على الأرض. انطلق من كفرناحوم في ثلاث رحلات إلى الجليل، الأولى إلى الجليل الشرقي، وتميزت بشفاء المشلول والرجل الكسيح وآخرين، وكذلك إقامة ابن أرملة نايين وإكمال مهمة اختيار تلاميذه. ولعلنا نلاحظ انسجام المعجزات مع تعليمه الرائع عن المبادئ التي أكّد أنها تحكم السلوك البشري، وهي المبادئ التي تضمنتها الموعظة على الجبل. وكان عصب هذه الموعظة أن الدين الحقيقي هو دين الروح وليس الأعمال الخارجية التي يتطلبها الناموس.

أما رحلة المسيح الثانية فكانت إلى جنوب الجليل، وكان الجزء المشرق فيها هو تعليمه بالأمثال عن ملكوته (متى ١٣) وهنا أيضاً صنع المسيح بعض المعجزات التي برهنت على قدرته على تدعيم أقواله بالأعمال مثل شفاء المتسلط عليهم إبليس كما في كورة الجدريين وشفاء إبنة يايرس. كانت الرحلة الثالثة استمراراً لعمله في التعليم والوعظ والشفاء.

أعقب كل رحلة من رحلات المسيح الثلاث إلى الجليل فترة اعتزال وضع فيها المسيح نصب عينيه أولوية واحدة هي تبصير وتعليم تلاميذه. ومع ذلك كان لديه الوقت للوفاء باحتياجات المتقدمين إليه. فقد أطعم الخمسة آلاف خلال أول اعتزال. كما أظهر المسيح سيادته على الطبيعة بسيره على بحر الجليل، مما أكّد لتلاميذه حقيقة دعواه أنه ابن الله.

أما في خلوته الثانية فقد شفى إبنة "المرأة الكنعانية"، تلك المرأة التي أظهرت إيماناً ملحوظاً بالمسيح (مرقس ٧:٢٦). وتابعت الخلوة الثالثة إظهار إعلانات قدرته على الشفاء والبركة.

أتبع المسيح خدمته المطولة في الجليل بأخرى قصيرة في أورشليم في مناسبة عيد المظال. وهناك واجه المسيح بجسارة المعارضة المتصاعدة من قادة الدين الفريسيين والصدوقيين. تسببت هذه المعارضة في انسحاب المسيح إلى شرق نهر الأردن، وبالتحديد إلى بيرية. (وهو الإسم اليوناني الذي أطلقه المؤرخون مثل يوسيفوس على عبر الأردن أو شرق الأردن ويستخدمونه في الإشارة إلى المنطقة الممتدة من وادي اليرموك في الشمال إلى وادي أرنون في الجنوب عند قلعة مكاروس كما تمتد من نهر الأردن في الغرب إلى البرية في الشرق - المُعرب). وفي بيرية علّم وشفى ثم أتبع هذه الخدمة بأخرى قصيرة في أورشليم هي خدمة الأسبوع الأخير. وهناك أيضاً واجه المسيح علانية العداء المتزايد من قادة اليهود الوطنيين والدينيين. وانتهر من خلال تعليمه بالأمثال تناولهم الآلي والسطحي للدين. ثم أنهى المسيح الجزء الإيجابي من خدمته.

في نهاية الأسبوع الحزين عندما أسلم حياته على الصليب، ظهر المسيح لتابعيه ثم جاءت الحقيقة التاريخية المؤكدة في وثائق العهد الجديد، وقام المسيح قيامته المجيدة من الأموات وظهر لتابعيه فقط (أعمال ١:٣ ، ١كو ١٥:٤-٨). أما ذروة خدمته فواكبت لحظة صعوده إلى السماء في حضور تلاميذه. وقد سبقها المسيح بالموعد بإرسال الروح القدس ليحل مكانه وبالرجوع شخصياً مرة أخرى إلى أرضنا.

حظيت الكنيسة المسيحية بأربعة مصادر عن خدمة المسيح على الأرض. قدم كل كاتب منهم رؤيته من منظور مختلف. أكَّد متى على أعمال يسوع الملك المسيا المنتظر المتمم لنبوات العهد القديم. نبَّر عليها متى باستخدامه المتكرر لجملة "ليتم ما قيل بالأنبياء". أما مرقس الذي كانت كتاباته تخاطب العقلية الرومانية، فشدد على الجانب الواقعي في خدمة المسيح كابن الإنسان. غلب الإحساس بإيقاع الحركة والقوة باستخدامه المتكرر للكلمة اليونانية التي ترجمتها "للحالي" أو "حالاً". أما لوقا المؤرخ (لو ١:١-٤) فزودنا بالجانب الإنساني في خدمة المسيح وقدم الرسول يوحنا كابن الله الذي له قوة منح البركات لكل من يقبلونه بالإيمان (يوحنا ١:١٢، ٢٠ : ٣٠-٣١).

ب- مهمة المسيح

تعتبر المرحلة النشطة في خدمة المسيح التي امتدت ثلاث سنوات وبعض السنة إعداد لمرحلة الإيمان من خدمته وهى آلامه وموته على الصليب. وهذه المرحلة الأخيرة هى بحق أعظم الأحداث التي سبق فأنبأ عنها الأنبياء (إشعياء ٥٣) تلك التي أدَّت إلى هزيمة نهائية لكل قوات الشر ولتحرير كل من يقبله من سلطة الخطية (غلا ٣:١٠، ١٣) عندما يخصص لنفسه على القوة الروحية لعمل المسيح على الصليب (أفسس ١:١٩-٢٣، ٣:٢٠). كان هذا هو الهدف المحدد والأبدي الهام الذي جاء المسيح لأجله إلى أرضنا وتشدد الأناجيل على هذه الحقيقة في ذروتها في متى ٢١:١٦ ومرقس ٣١:٨ ولوقا ٤٤:٩.

ج- رسالة المسيح

برغم كون الصليب المهمة الأولى للمسيح على الأرض إلا أنه لم يكن مهمته الأساسية، ولم يعتبر الصليب هدفًا في حد ذاته. تكشف الدراسة المتأنية للأناجيل أن رسالة المسيح الأساسية وتعاليمه تدور حول الدعوة إلى الملكوت. استخدم المسيح تعبيري "ملكوت الله" و "ملكوت السموات" وأكثر متى من استخدام تعبير "ملكوت السموات". أجمعت معظم التفسيرات للتعبيرين على أنهما يشيران إلى حكم الله على جميع مخلوقات الكون التي تدين له طواعية بالولاء. هذا الملكوت روحي ويشمل الزمن والأبدية ويدخله البشر بعد ولادة ثانية روحية (متى ٣٣:٦، يوحنا ٣:٣، ٥، ٧).

لا نلمح أي إشارة إلى وجود الشر في هذا المجال الذي يخضع فيه المسيح في النهاية للآب (كورنثوس الأولى ١٥:٢٤-٢٨). يؤمن الجميع أن هذا الملكوت في الوقت الحاضر روحي وأخلاقي وأن الكنيسة جزء منه وأن تحقيق معالمه الأخروية بالكامل سيتم في المستقبل. ويُحدث تعبير "ملكوت السموات" انقسامًا في الآراء. يرى البعض أن "ملكوت السموات" و "ملكوت الله" مملكتان منفصلتان بالرغم من بعض التداخل.

ويرجع السبب الأساسي في التفريق بينهما إلى استخدام المسيح وشرحه لمثلي القمح والزوان والشبكة في وصفه لملكوت الله. وحيث أن هذين المثالين يفترضان خليطًا من الخير والشر في ملكوت السموات، وحيث أن كل الإشارات إلى ملكوت الله تشير فقط إلى الخاضعين لإرادة الله طواعية، فلذا يرى الكثيرون ضرورة وجود اختلاف بين التعبيرين وأنه لا يمكن اعتبارهما مترادفين. ويلحظ هذا الفريق أن "ملكوت الله" ينتسب إلى الله كما يتميز بالصلاح، أما من حيث الاتساع فهو كوني، ومن





حيث الزمن فهو مرتبط بالزمن ولكنه أبدي أيضًا. أما "ملكوت السموات" فينتسب إلى زمان حكم المسيح على الأرض، ويحتوي هذا الملكوت على الصالح والطالح معًا (متى ٨:١١-١٣).

يدفع القبل ألفيين Premillennialists – المتمسكون بمجيء المسيح العتيد على الأرض قبل الألف عام السعيدة وكذلك باختلاف "ملكوت الله" عن "ملكوت السموات" – يدفعون بارتباط ملكوت السموات وحكم المسيح على أرضنا الحاضرة كما يطابقون بين ملكوت الله وبين حكم الله الآب الأبدي. وأنه في هذه الفترة الحاضرة من عمر الكنيسة يتساوى ملكوت السموات مع العالم المسيحي الذي يتكون من خليط من المسيحيين، مؤمنين أعلنوا إيمانهم وآخرين غير مؤمنين ويهود.

عند رجوع المسيح سيظهر ملكوت السموات من اليهود غير المؤمنين والأمميين ثم يشترك في حكم هذا الملكوت لمدة ألف سنة المسيح وكنيسته وسيكون هذا الملكوت هو ما تنبأ عنه الأنبياء والذي سيتبارك فيه إسرائيل في فلسطين. وبعد تمرد الشيطان فترة وجيزة بعد إطلاقه من السجن لمدة ألف عام أثناء الملك الألفي، يقوم المسيح بتسليم سلطانه إلى الله ويندمج الجزء الطاهر من ملكوت السموات أخيرًا مع ملكوت الله بعد الدينونة الأخيرة.

أما الكثيرون ممن يعتقدون في ترادف التعبيرين وتساويهما مع الكنيسة فيقولون إن تحقيق الملكوت سيتم بواسطة مراحل تطور تاريخية حيث تضطلع الكنيسة بدور إعداد الطريق للملكوت يتسلمه المسيح عند عودته. ويعد العمل الاجتماعي الذي يهدف إلى تحسين ظروف الناس، عملاً هامًا وجزءًا أساسيًا في تخطيطهم. وكثيرًا ما تفهم المسيحية كقيم أخلاقية وذلك على حساب العمل الكفاري على الصليب. هذه هى عقيدة البعد ألفيين المتحررة Post millennialism (البعد ألفيين هم المؤمنون بمجيء المسيح في نهاية الألف عام السعيدة)

تمسك بعض مفكري القرن التاسع عشر من أمثال تشارلز فيني Charles Finney وهودج Hodges وورفيلد B.B. Warfield وسترونج A. H. Strong بعقيدة البعد ألفين Postmillennial ولكن على نحو متحفظ وتقليدي. لقد آمنوا أنه لابد للكنيسة بأعضائها المجددين تحت قيادة وقوة الروح القدس أن تؤثر بقوة على مجتمعها، بحيث تعد في الناس نظامًا ألفيًا. وعندما يأتي المسيح في نهاية العصر الألفي سيجد مجتمعًا تقيًا. ولقد منحت مساواة أوغسطينوس بين العصر الألفي والكنيسة دعمًا قويًا لهذا الرأي.

أما بعض الذين لا يحبذون هذه الفكرة، لكنهم يعتقدون بترادف التعبيرين، فيؤمنون بأن التحقق والظهور النهائي للملكوت هو حدث مستقبلي سيتم بطريقة معجزية مفاجئة وعنيفة عند رجوع المسيح. ويرفضون نظرية تطور المجتمع وإعداده خلال العصر الألفي ليأتي المسيح في نهايته. عادة يميزهم الناس بلفظة اللاألفيين Amillennialists لأنهم يرفضون فكرة ملكوت المسيح الألفي، كما يرفضون ربط اليهود بملكوت المسيح.

وسواء اتفقنا على ترادف "ملكوت الله" و"ملكوت السموات" أو لم نتفق فالمهم هو اتفاق شراح الإنجيل على بعض النقاط التي لن نختلف

عليها لو فصلنا الكتاب المقدس بالإستقامة والقول بأن الخطية شخصية وموروثة وليست بسبب تأثير البيئة والجماعة، تحول دون تبني الفكرة البعد ألفية لملكوت الله. فلابد للإنسان أن يصفي حساباته مع الخطية الأصلية. ولهذا نجد أن الهدف الأول للكنيسة ليس تغيير العالم بالوعظ والأعمال الأجتماعية بل تبشير العالم بإعلان البشارة حتى ما يستطيع من سيصبحون نسيج الكنيسة وكيانها أن يجدوا الفرصة للتجاوب مع هذه الرسالة عندما يبكت الروح القدس قلوبهم.

هذا هو هدف الكنيسة المحدد في هذه الفترة من التاريخ البشري ولكن هذا لا يمنع من جعل المسيحية شيئاً عملياً في حياة المجتمع بواسطة المسيحي الذي هو مواطن أيضاً. علم المسيح أن الملكوت لن يأتي عن طريق عملية تطورات تاريخية تلعب فيها الكنيسة دور إعداد العالم لمجيئه بالأنشطة الاجتماعية. يعلمنا الكتاب المقدس بوضوح أن المرحلة المستقبلية والآخرة للملكوت – المختلفة عن الحاضر الأخلاقي والروحي – ستتحقق كمعجزة جامحة عند مجئ المسيح وليس كنتيجة لعمل الكنيسة.

### د- معجزات المسيح

تعددت معجزات المسيح Christ's Miracles وشكلت جزءاً هاماً من خدمته وكان هدف هذا الجزء إظهار مجد الله وبيان أن المسيح هو ابن الله (يوحنا ٢٢:٢-٢٣، ٢:٣، ٣:٩) فيتبعها الإيمان ويتمجد الله من خلال هذا الإيمان. وقد أطلق عليها الوحي كلمات متنوعة مثل أعمال خارقة، أعمال، عجائب وعلامات. أنكر كل من العقلانين والتجريبيين صحة هذه المعجزات وحاولوا تفسيرها بالقوانين الطبيعية أو عزوها إلى الدجل والخرافات، وبالطبع استلزم رفضهم أفكار التاريخ المدون.

يمكن تعريف المعجزات بأنها ظواهر لا يمكن تفسيرها بالقوانين الطبيعية بل أن الله تدخل بطريقة خاصة وصنعها لأجل أهداف إلهية وأخلاقية. نستطيع أن نتثبت من صدق حدوث هذه المعجزات بسبب القدرة الخارقة للمسيح وإبداءه والتحقق من السجلات التاريخية المتداولة التي تسرد هذه المعجزات كحقائق تاريخية موثوقة. وقد نال المسيح ثقة الكثيرين في زمانه بسبب أعمال معجزاته.

### هـ- من هو المسيح

تعددت الآراء حول المسيح الذي صورته لنا الأناجيل. ففي أوقات احتدام الخلافات اللاهوتية بين عامي ٣٢٥م-٤٥١م وبين عامي ١٥١٧م-١٦٤٨م، سعى الناس لتفسير من هو المسيح في ضوء العقائد. رأى فيه الصوفيين مسيح الاختبار الشخصي اللحظي. تكلم آخرون عنه في نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر كمسيح التاريخ. وسعوا للتقليل من شأن قدرته الفائقة حتى أنهم يصورونه كمجرد رجل متميز. أما المسيحي الحقيقي فيراه دائماً كمسيح الله.

ظهر المدلول التاريخي للمسيحي من خلال إرساء وتطوير قيمة جديدة في الشخصية الإنسانية. أكد اليونانيون على كرامة الشخصية الإنسانية وعزوا ذلك ليكون الإنسان كائناً عاقلاً، أما الكنيسة فاكدت دائماً على أن للشخصية كرامتها لأن الإنسان يحمل إمكانية البنوية أو أنه بالفعل ابن لله بالإيمان بالمسيح. أعطى هذا المفهوم





المسيحي معنى إنسانياً للحياة. فقد تم في الكنيسة تنمية حواجز الطبقة الاجتماعية والجنس والانتماء العرقي جانباً جلب الإصلاح الاجتماعي أحوالاً أفضل لجميع الناس وكان الإنجيليون هم قادة الإصلاح الاجتماعي في انجلترا في القرن التاسع عشر وفوق الكل، اتصال الكيان الإنساني بمسيح الجلجثة فأثمر تشديداً على وجوب وجود قانون أخلاقي داخلي من الحب يحدد السلوك، بدلا من التمسك الخارجي بالقوانين المفروضة ومحاولة إطاعتها، كما أن تأثير المسيح على نواحي الفنون والآداب لا يمكن قياسه لإتساع هذا التأثير.

إن شخصية المسيح وأعماله وتعاليمه وفوق الكل موته وقيامته، كلها ميزت بداية المسيحية. يمكن لاديان كثيرة أن تستمر في الوجود حتى بدون مؤسسيها، أما تنحية المسيح من المسيحية فلن يسفر إلاّ عن قوقعة فارغة بلا حياة. أعطى المسيح كنيسته فريضتها والرسل ورسالتها الأساسية التي هى ملكوت الله ونظامها الأساسي (متى ١٦:١٦-١٩، ١٨:١٥-٢٠)، والروح القدس الذي يعمل من خلال الكنيسة في الكرازة للعالم. لم يخلف المسيح وراءه منظمة ولا نظاماً لاهوتياً محدداً ولا كتباً مقدسة بل أطلع الرسل وبولس بهذه المهام بقيادة الروح القدس الذي أرسله المسيح إلى الأرض ليخدم في غيابه. وكان على الكنيسة الحقيقية المؤسسة على المسيح والروح القدس، أن تتقدم للأمام بانتصار معلية سيدها المصلوب الذي قام من الموت وصعد إلى السموات، من يوم الخمسين وإلى يومنا هذا.

## اقتراحات للقراءة

تعتبر الأناجيل الأربعة المصدر الرئيسي لدراسة "المسيح في التاريخ" أما التوافق بين الأناجيل الأربعة، فلا يعد ذا قيمة من حيث كونه عاملاً مساعداً في الدراسة النظامية والتاريخية لحياة المسيح.


*Aland, Kurt.* Synopsis of the Four Gospels: Greek-English Edition. *2nd ed. New York: UBS, 1976.*

*Case, Shirley J.* The Historicity of Jesus. *2nd ed. Chicago: University of Chicago Press, 1928. The author has ably criticized the evidence of those who deny the historicity of Christ and has presented positive evidence to demonstrate His historical existence.*

*Edersheim, Alfred.* The Life and Times of Jesus the Messiah. *3rd ed. New York: Longmans, 1900. This is still an excellent work on the life of Christ. It throws much light on the historical background of Christ's day.*

*Guthrie, Donald.* A Shorter Life of Christ. *Grand Rapids: Zondervan, 1970.*

____. Jesus the Messiah. *Grand Rapids: Zondervan, 1972.*

*Hoehner, Harold W.* Chronological Aspects of the Life of Christ. *Grand Rapids: Zondervan, 1977.*

## الفصل الثالث

# لليهود أولاً

يتضح لنا من استخدام المسيح لصيغة المستقبل في متى ١٨:١٦ "على هذه الصخرة أبني كنيستي". أن المسيح نفسه أساس الكنيسة وليس مؤسس الكنيسة.

قال لوقا إنه يخبرنا في إنجيله بخصوص "كل ما فعله وعلمه يسوع" (أعمال الرسل ١:١) بينما سجل في أعمال الرسل ما يخص تأسيس الكنيسة المسيحية الأولى وانتشارها بواسطة الرسل وقيادة الروح القدس. وحتى التلاميذ أساءوا فهم طبيعة مهمة المسيح لأنهم أرادوا أن يعرفوا إن كان سيرد بعد قيامته مملكة المسيا (أعمال الرسل ٦:١) فبدلا من ذلك، أجابهم المسيح إنهم عندما يلبسون قوة من الروح القدس ستكون مهمتهم هى الشهادة عنه "في أورشليم واليهودية والسامرة وإلى أقصى الأرض" (أعمال الرسل ٨:١).

من الملاحظ أن المسيح أعطى أولوية الإعلان لليهود. وهذا هو الترتيب الذي اتبعته الكنيسة الأولى. نادى بطرس Peter بالبشارة في أورشليم أولا في يوم الخمسين ثم حمل اليهود المسيحيون لواءها للمدن الأخرى كاليهودية والسامرة. نتيجة لهذا تكونت الكنيسة الأولى من اليهود أساساً وامتدت في رحاب الديانة اليهودية. وهكذا وصف لوقا في الاصحاحات الإثنى عشر الأولى من أعمال الرسل نمو المسيحية في عصرها الأول داخل إطار اليهودية حتى وصولها إلى أنطاكية.

## ١- تأسيس الكنيسة في أورشليم

من أعجب المفارقات أن يتحول مركز العداوة المرة للمسيح إلى المدينة الأولى التي بزغت فيها المسيحية إلا أن هذا ما حدث بالفعل. فمنذ سنة ٣٠م إلى ٤٤م تقريباً اضطلعت الكنيسة في أورشليم بدور ريادي في المجتمع المسيحي الأول.

أدى الروح القدس دوراً في تأسيس الكنيسة المسيحية متماشياً بذلك مع وعود المسيح في الأسابيع الأخيرة من حياته بأن يرسل "معزياً آخر" يعين الكنيسة ويقودها بعد صعوده. إذا تعمقنا في دراسة يوحنا ١٤:١٦-١٨، ٢٦:١٥-٢٧، ٧:١٦-١٥ سيتضح لنا عمل الروح القدس في الكنيسة الأولى. بل إننا نجد أيضاً أن نقط الارتكاز في كتاب أعمال الرسل هي قيامة المسيح وهو موضوع عظات الرسل، والروح القدس المعضد والمرشد للجماعة المسيحية من يوم الخمسين فصاعداً.

أصبح دور الروح القدس الأقنوم الثالث في الثالوث تفهيم البشر عمل الفداء وحدث أن قدم اليهود من كل صوب في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى أورشليم لمشاهدة عيد الحصاد (يوم الخمسين) وقت تأسيس الكنيسة (أعمال الرسل ٢:٥-١١).

تجلت أمام أعين اليهود إعلانات الله وأعماله العظيمة وذلك عندما بدت لهم مظاهر القوة الإلهية المعجزية في التكلم بالألسنة مرتبطة ببداية الكنيسة وحلول الروح القدس (أعمال الرسل ٢:١١). استغل بطرس Peter تلك المناسبة لتكون أول عظة بل ربما لأكثر العظات إثماراً، أعلن فيها أن يسوع هو المسيح كما تكلم عن النعمة المخلصة. وقد قبل الكلمة ما لا يقل عن ثلاثة آلاف شخص واعتمدوا (أعمال الرسل ٢:٤١). وبهذه الطريقة خرج إلى الوجود هذا الكيان العضوي، الكنيسة غير المنظورة، جسد المسيح المقام.

كان النمو سريعاً، وقارب عدد المتعمدين الخمسة آلاف (أعمال الرسل ٤:٤). ثم جاء ذكر الكثيرين بعد ذلك عند انضمامهم للكنيسة (أعمال الرسل ٥:١٤). ومن اللافت للنظر أن أكثرية هؤلاء من يهود الشتات اليونانيين الذين حضروا إلى أورشليم ليحتفلوا بالأعياد الكبيرة المرتبطة بعيد الفصح وعيد الخمسين (أعمال الرسل ٦:١). لم يكن الكهنة محصنين ضد عدوى الإيمان الجديد. "وجمهور كثير من الكهنة يطيعون الإيمان" (أعمال الرسل ٦:٧)، فنذكرهم هذه الآية ضمن أعضاء الكنيسة الأولى في أورشليم. ربما شهد بعضهم انشقاق الحجاب العظيم للهيكل عند موت المسيح، بالإضافة لمواعظ الرسل مما جعلهم يمنحون ولاءهم للمسيح.

لم يسلم هذا النمو السريع من مقاومة اليهود الشديدة. أدركت السلطات الدينية سريعاً أن المسيحية خطر يهدد امتيازاتهم ككهنة ومفسرين للناموس، ولذا نظموا صفوفهم وقوتهم ليحاربوها. جاء الاضطهاد أولاً من مجلس السنهدريم وهو الجهاز الديني - السياسي الذي كان يشرف على الحياة المدنية والدينية للدولة بموافقة من السلطات الرومانية.

أحضر هذا المجلس بطرس ويوحنا للمحاكمة مرتين على الأقل وتم منعهما من الوعظ بالبشارة ولكنهما رفضا الامتثال للأمر. لكن في مرحلة لاحقة أصبح الاضطهاد سياسياً صرفاً. فقتل هيرودس يعقوب James وسجن بطرس في تلك الفترة من الاضطهاد (أعمال الرسل ١٢). ومنذ ذلك الحين والاضطهاد يتخذ الشكل الديني أو السياسي. وسجلت المسيحية - بسبب هذا الاضطهاد المبكر- اسم اسطفانوس كأول شهيد.

كان اسطفانوس Stephen من أبرز الرجال السبعة المختارين لإدارة المصادر الخيرية لكنيسة أورشليم. ساق الشهود المزيفون اسطفانوس إلى مواجهة مجلس السنهدريم عندما لم يفلحوا في تنفيذ أقواله المنطقية أو مقاومة الروح الذي كان يتكلم به. وبعد حديثه الذي انتقد فيه القادة اليهود بسبب رفضهم للمسيح، أخذوه للخارج ورجموه حتى الموت. كان موت اسطفانوس الشهيد الأول للإيمان المسيحي عاملاً فعالاً في انتشار ونمو المسيحية. وكان شاول الذي أصبح بولس Paul فيما بعد يحرس ثياب من رجموه. لا يوجد أدنى شك في أن شجاعة اسطفانوس وروحه الغافرة في مواجهة الموت الوحشي الواقع عليه ، قد تركا أثراً واضحاً





في قلب شاول. كما يبدو أن كلمات المسيح في أعمال ٥:٩ كانت تشير إلى هذا "من الصعب عليك أن ترفس مناخس". كان الاضطهاد التالي قاسياً جداً وكان وسيلة لتنقية وبعثرة الكنيسة وهي بعد في صباها مما أدى إلى حمل البشارة إلى أجزاء أخرى من البلاد (أعمال الرسل ٨:٤).

برغم هذا لم يخلُ تاريخ المهتدين من سيرة ذوي القلوب المنقسمة، خذ مثلاً حنانيا Ananias وسفيرة Sapphira اللذين أصبحا أول من شمله التأديب في كنيسة أورشليم بسبب خطيئتهما في الخداع. نفذ الرسل قادة هذا التنظيم الجديد ذلك التأديب السريع والرهيب بكل حزم.

أدّى تأديب الزوجين المذنبين إلى إثارة التساؤل حول مدى اعتناق الكنيسة الأولى في أورشليم لمبدأ الاشتراكية من عدمه. لقد حاول أحد الشيوعيين الشبان إقناعي جاهداً في إحدى المناسبات مدللاً على أقواله بأن الكنيسة مارست الشيوعية في مراحلها الأولى. كما يبدو للوهلة الأولى أن أجزاء مثل أعمال الرسل ٢:٤٤-٤٥ ، ٤:٣٢ تقترح ممارسة نوع مثالي من الاشتراكية مؤسسة على قاعدة السلوك الاشتراكي الشهيرة "من كل شخص تبعًا لقدراته وإلى كل شخص تبعًا لاحتياجه". ولكن نلاحظ أن إتباع هذا الاجراء كان مؤقتاً، وربما تم اللجوء إليه لمواجهة احتياج كثيرين من خارج أورشليم كانوا تواقين لتعليم الإيمان الجديد قبلما يعودون إلى بلادهم. أهم حقيقة متعلقة بهذا الأمر هي أنه كان تطوعياً، وكان يتم بتعاون الجماعة وليس بفرض من الدولة. قال بطرس Peter بكل وضوح إن حنانيا وسفيرة كان لهما مطلق الحرية في الاحتفاظ بحقهما أو بيعه (أعمال الرسل ٥:٣-٤). كان الاشتراك بينهم في توزيع مواردهم يتم طواعية. لا ينبغي أن نستخدم الكتاب المقدس كرخصة لتقنين النظام.

عجلت المسيحية في أيامها الأولى بتغييرات اجتماعية في عدة نواحي. أصرت الكنيسة الأولى في أورشليم على مبدأ المساواة الروحية بين الجنسين وأولت اهتماماً كبيراً بنساء الكنيسة. لاحظ لوقا قيام طابيثا Dorcas بدور قيادي في الأعمال الخيرية (أعمال الرسل ٩:٣٦). ونشأت ظاهرة اجتماعية فريدة في أيام الكنيسة الأولى، هي تكوين مجموعة رجال تهتم باحتياجات المعوزين؛ مجموعة منظمة من الشمامسة يهتم بشئون الأعمال الخيرية. وبهذه الطريقة تفرغ الرسل للقيادة الروحية. اقتضت الضرورة بسبب النمو السريع، وربما تقليداً لممارسات المجمع اليهودي، مضاعفة الوظائف والمسئولين في مرحلة مبكرة من تاريخ الكنيسة. انضم الشيوخ Elders في مرحلة لاحقة إلى إعداد المسئولين إلى أن تقاسم الرسل والشيوخ والأساقفة مسئولية قيادة كنيسة أورشليم.

برزت مواعظ قادة كنيسة أورشليم الأولى مع تألق نجم المسيحية. كانت عظة بطرس هي الأولى بين الرسل (أعمال الرسل ٢:١٤-٣٦). سنلاحظ استخدام بطرس لرموز العهد القديم وهم الأنبياء الذين سبقوا وأخبروا عن المسيا المتألم. ثم تابع الفكرة ليثبت أن المسيح هو هذا المسيا الذي أقامه الله من الأموات، وكنتيجة لهذا فقد تمكن من منح الخلاص لكل من يقبله بالإيمان. أوجزت أعمال الرسل (٢:١٧-٣) أهم مناقشات المواعظ المبكرة للرسل. تنبأ أنبياء العهد القديم بضرورة موت المسيح لأجل الخطايا، وكانت القيامة هي البرهان

على أنه المسيح القادر أن يخلص البشر. ثم استخدم بولس Paul نفس الأسلوب (كورنثوس الأولى ١٥:٣-٤). كان مضمون مواعظ الرسل واحداً، المسيح المصلوب والمقام وقد وجهوه إلى اليهود ثم إلى الأمميين بعد ذلك (يوحنا ٥:٢٢، ٢٧، أعمال الرسل ١٠:٤٢، ١٧:٣١).

وما لبثت الكنيسة اليهودية في أورشليم أن سلمت مكانها في قيادة المسيحية والريادة التي ذكرناها سالفًا، إلى كنائس أخرى. أدى قرار عدم إخضاع الأمميين، لإطاعة ناموس اليهود الذي اتخذه الرسل في مجمع أورشليم إلى فتح طريق تحرير كنائس الأمميين من وصاية اليهود. وعندما قام تيطس Titus بمحاصرة أورشليم عام ٦٩م اضطر أعضاء الكنيسة إلى الهروب من أورشليم إلى بيلا عبر نهر الأردن.[1] لم يتطلع الناس إلى أورشليم كمركز للمسيحية بعد خراب هيكلها وبعد أن هجرها يهود الكنيسة. وبدأت قيادة المسيحية الروحية في التمركز في مدن أخرى مثل أنطاكية. وقد أدى ذلك إلى زوال خطر كان محتملاً بعدم تمكن الكنيسة من النمو خارج القماط اليهودي.

## ٢- الكنيسة في فلسطين

تسترعي نشاطات كنيسة أورشليم اهتمام قراء سجلات لوقا الخاصة بالكنيسة الأولى التي نجدها في الأصحاحات السبعة الأولى من أعمال الرسل. ثم تتسع بؤرة الاهتمام لتشمل يهوذا والسامرة في أصحاحات ٨-١٢. وقد تم توصيل الرسالة لأجناس مختلفة من البشر وذلك لأن المسيحية الحقيقية كانت دائمًا تركز على العمل المرسلي.

حملت زيارة فيلبس Philip إلى السامرة البشارة إلى أناس من غير الدم اليهودي النقي (أعمال الرسل ٨:٥-٢٥). كان السامريون من نسل العشرة أسباط الذين لم يأخذهم الأشوريون معهم بعد سقوط السامرة واختلطوا بالمستوطنين الذين جلبهم الأشوريون من أجزاء أخرى من امبراطوريتهم المترامية في عام ٧٢١ قبل الميلاد. فصار اليهود والسامريون أعداء ألداء منذ ذلك الحين. طلب فيلبس من بطرس Peter ويوحنا أن ينزلا للسامرة لمعاونته عندما صار حجم العمل أكبر من طاقته. كانت هذه النهضة هي أول خرق لحاجز التعصب العرقي لصالح انتشار الرسالة. قاد الروح القدس فيلبس بعد ما أكمل عمله في السامرة ليقدم البشارة إلى خصي حبشي رفيع المستوى في حكومة أثيوبيا، أما بطرس، السباق في تقديم البشارة إلى اليهود، ذهب فوراً إلى بيت كرنيليوس القائد الروماني وكانت دهشته كبيرة عندما رأى نفس مظاهر حلول الروح القدس تحدث في بيت كرنيليوس كما حدثت في يوم الخمسين.(أعمال الرسل ١٠-١١). صار بطرس مستعداً منذ ذلك اليوم لتقديم البشارة للأمم. وبذلك كان كرنيليوس والخصي الحبشي أول من قبل رسالة نعمة المسيح المخلصة من الأمميين.

وبرغم أن الذين تشتتوا من أورشليم بشروا يهوداً فقط في البداءة (أعمال الرسل ١١:٢٠)، إلا أنه لم يمض وقت طويل حتى تأسست كنيسة أممية ذات عضوية كبيرة في أنطاكية بسوريا. نلاحظ هنا أن أول من أطلق اسم "مسيحيين" على التلاميذ كان الأنطاكيون الساخرون وهكذا نشأ اللقب الذي صار تكريمًا وتمييزًا لتابعي المسيح. كانت أنطاكية مسرحًا لبداية عمل خدمة بولس العلنية بين الأمم





وكانت نقطة بداية رحلاته التبشيرية التي انتهت به إلى مقصده، مدينة روما.

اتسعت وكبرت كنيسة أنطاكية لدرجة مكنتها من مساعدة الكنائس اليهودية عندما واجهت المجاعة. وصارت كنيسة أنطاكية هي مركز المسيحية من عام ٤٤-٦٨م. أما مهمة حمل البشارة إلى "أقصى الأرض" فكانت تنتظر من يضطلع بها، وقد بدأها بولس ولاتزال هي إرسالية كنيسة المسيح التي لم تتم بعد.

## اقتراحات للقراءة

الفصول من ١-١٢ من سفر أعمال الرسل تعطي قيمة للمواد الأولية لهذا العصر.

*Bruce, F.F.* Commentary on the Book of Acts: The English Text. *Grand Rapids: Eerdmans, 1954.*

*Guthrie, Donald.* The Apostles. *Grand Rapids: Zondervan, 1974.*

*Kidd, Beresford J.* A History of the Christian Church to A.D. 461. *3 vols. Oxford: Clarendon University Press, 1922. The work with its full reference to sources is a useful and authoritative guide to information concerning this early period.*

*Lenski, Richard C.* The Interpretation of the Acts of the Apostles. *Columbus, Ohio: Wartburg, 1954. This includes useful historical and exegetical material for chapters 3 and 4.*

*Longenecker, Richard N., "The Acts of the Apostles,"* The Expositor's Bible Commentary. *vol. 9. ed. Frank E. Gaebelein. Grand Rapids: Zondervan, 1980.*

*Purves, George T.* Christianity in the Apostolic Age. *New York: Scribner, 1902. This is a brief but useful manual.*

*Schaff, Philip.* History of the Apostolic Church. *New York: Scribner, 1869. This is still an excellent volume for this period.*

انتشار المسيحية في الإمبراطورية
حتى سنة مائة

## الفصل الرابع

# إلى اليونانيين أيضاً

يبدو أن كنيسة المسيحيين من أصل يهودي، لم تستطع استيعاب كون المسيحية ديناً للعالم أجمع على اختلاف أجناسه بالسرعة الكافية، بالرغم من أن بطرس كان أحد عوامل تحقيق تلك العالمية حين قدم البشارة لأول من قبل المسيحية من الأمم. بل إن بولس Paul هو الذي حباه الإعلان الإلهي الرؤية الشاملة التي اتسعت لتدرك احتياج الأمم فأنفق حياته في حمل البشارة إلى هذا العالم.

أدرك بولس، كما لم يدرك أحد في الكنيسة الأولى، عمومية بشارة المسيح وكرَّس نفسه لنشرها إلى أقصى أرجاء الإمبراطورية الرومانية (رومية ١١:١٣، ١٥:١٦). ربما يتعجب المرء هل جعل بولس شعاره: "الإمبراطورية الرومانية للمسيح"، ذلك لأنه اتجه نحو الغرب حاملاً رسالة المسيح (رومية ١٥:١٥-١٦، ١٨-٢٨، أعمال الرسل ٩:١٥، ٢١:٢٢).

ولم يبخل بولس بجهد من أجل تحقيق مهمته، وفي نفس الوقت لم يهمل اليهود من بني جنسه. وقد برهن على ذلك بتوجهه إلى مجامع اليهود أولاً في كل بلدة نزل بها، وبإعلانه البشارة لليهود والأمم المهتدين طالما أنهم يستمعون إليه.

## ١- خلفية بولس

أدرك بولس أن حياته قد تميزت بثلاثة أمور خاصة. فقد تلقى في شبابه التدريب المخصص للشباب الواعد فقط وجلس يتتلمذ عند قدمي المعلم اليهودي اللامع غمالائيل وقليلون هم الذين يمكنهم التفاخر بمستوى تعليم ديني أرقى مما وصل إليه بولس، وقليلون هم الذين انتفعوا بما تعلموه كما انتفع بولس (فيلبي ٣:٤-٦). كان بولس من مدينة طرسوس المدينة الرائدة في قطاع كيليكية أو كما لقبها هو: المدينة المشهورة (أعمال الرسل ٢١:٣٩). وكان أيضاً مواطناً رومانياً حراً (أعمال الرسل ٢٢:٢٨) ولم يتردد في استخدام امتيازات المواطن الروماني عندما ساعدت تلك الامتيازات في امتداد البشارة (أعمال الرسل ١٦:٣٧ ؛ ٢٥:١١).

كانت اليهودية هى خلفيته الدينية قبل اهتدائه للمسيحية. كانت طرسوس بجامعتها العظيمة وجوها العقلاني مسرحاً لشبابه وكانت الإمبراطورية الرومانية هى الوسط السياسي الذي ترعرع فيه وعمل، وهكذا نشأ بولس في جو من الثقافة الحضرية المنفتحة على العالمية. لم تكن بيئة بولس مشجعة على نشر البشارة. تسبب أوغسطس

قيصر Caesar Augustus في سقوط الجمهورية فلم يبق منها إلا هيكل سياسي، وذلك عندما أقام حكومة ثنائية عام ٢٧ ق.م تتزعمها سلطتان، كان يحكم فيها بالاسم فقط مع مجلس الشيوخ. لكن مع الأسف لم يحظ خلفاؤه لا بقدراته ولا بقوة شخصيته، فأساءوا الحكم.

كان الإمبراطور كاليجولا Caligula ٣٧-٤١م مخبولاً في فترة من حكمه، وكان نيرون Nero ٥٤-٦٨م، الذي استشهد بولس في عهده وتحملت الكنيسة أهوال أول اضطهاد تحت قيادته، كان وحشياً ودموياً حتى إنه لم يكن يتردد في قتل أعضاء عائلته. أما كلوديوس Claudius ٤١-٥٤م فكان إدارياً ممتازاً وكانت الإمبراطورية تنعم بالاستقرار خلال فترة حكمه وقام بولس خلال تلك الفترة بمعظم رحلاته التبشيرية.

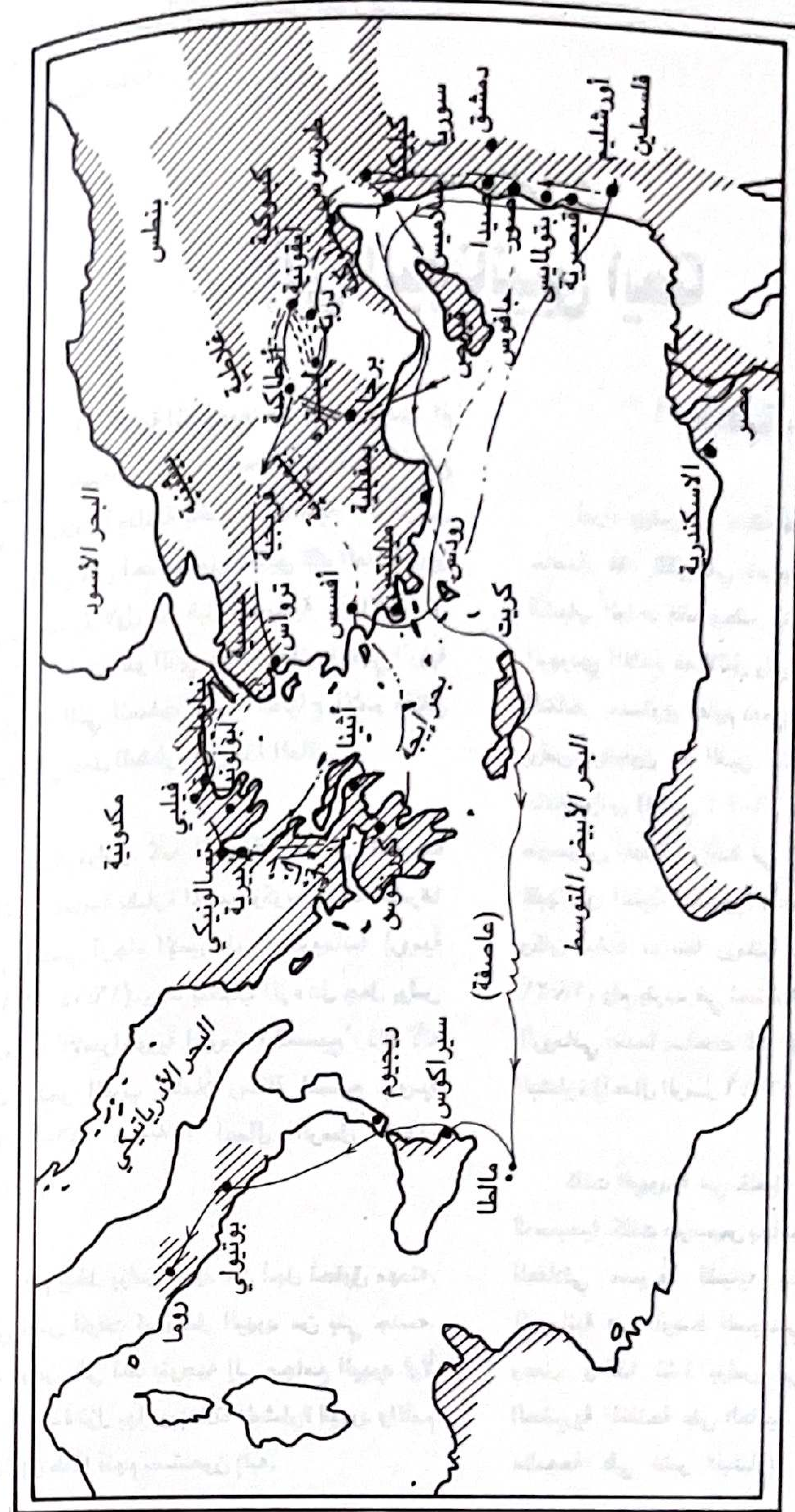
أما الوضع الاجتماعي والأخلاقي فكان أسوأ بكثير من الوضع السياسي. خلقت غنائم الإمبراطورية طبقة عالية من الأغنياء الأرستقراطيين الذين امتلكوا العبيد ولفرط غناهم ارتكبوا الفواحش والفجور لسد رغباتهم الشرعية والغير شرعية. كانت هذه الطبقة تزدري هذا الدين الجديد ورأت في جاذبيته للطبقات الفقيرة تهديداً لمكانتهم العليا في المجتمع. برغم ذلك فقد ربحت المسيحية بعضاً من تلك الطبقة العالية عن طريق تقديم البشارة عندما كان بولس مسجوناً في روما (فيلبي ١:١٣).

واجه بولس أيضاً هياج الأديان المنافسة فقد كان للرومانيين نظرة انتقائية للدين وكانوا مستعدين للتسامح مع أي إيمان لا يمنع معتنقيه من الاشتراك في نظام عبادة الدولة التي جمعت بين عبادة الامبراطور وعبادة الدولة الجمهورية، وطالبوا بولاء كل شعوب الإمبراطورية فيما عدا اليهود الذين تم اعفاؤهم بالقانون من ممارسة الطقوس. لم يخضع المسيحيون بالطبع لهذا الأمر ولذا واجهوا مقاومة من الدولة. كلما تمكنت ديانات الأساطير Mystery religions مثل ميثرا Mithra وسيبيل Cybele وايزيس من إخضاع ولاء كثيرين في الإمبراطورية، كلما أظهرت اليهودية والمسيحية كديانة متميزة عنها – مقاومة أكبر.

كان المثقفون الرومان يتبعون بعض المدارس الفلسفية مثل الرواقية Stoicism والابيقورية Epicureanism والفيثاغوريانية الجديدة. وكانت هذه المدارس ترى أن التأمل الفلسفي هو الطريق للخلاص. الرواقية بنظريتها عن وحدة الوجود، واعتقادها بإمكانية الوصول إلى الناموس الأدبي الطبيعي من خلال العقل وعقيدتها بأبوة الله وأخوّة الإنسان، بدت وكأنها تمد الإمبراطورية الرومانية بالأساس الفلسفي. وجد بعض الأباطرة مثل ماركوس اوريلياس Marcus Aurellius (١٦١ق.م-٨٠م) في هذه المقاييس الأدبية أمراً جذاباً. كان هذا هو الواقع الديني المضطرب الذي واجهه ببساطة بشارة الفداء بموت المسيح.

ساعدتنا الحفريات في الرجوع لتواريخ نقاط أساسية في حياة بولس Paul وعمله. كان لبولس ثمانية عشر شهراً في كورنثوس عندما أصبح غاليون Gallio الحاكم الإداري (أعمال ١٨:١٢-١٣) ويذكر نقش على حجر اكتشف في دلفي أن غاليون باشر مسئولياته في أخائية، في السنة السادسة والعشرين من حكم كلوديوس





Claudius التي توافق ٥١-٥٢ بعد الميلاد. وبذلك تكون قد تحددت بداية زيارة بولس قبلها بثمانية عشر شهراً، في ٥٠ م وبناء على ذلك يمكن تحديد التواريخ الأخرى في حياته على الوجه الدقيق نسبياً.[(١)] كان اهتداء بولس حدثاً تاريخياً واقعياً تحدث عنه في كورنثوس الأولى ٩:١، ١٥:٨ وغلاطية ١:١١-١٨. حدث هذا في لقائه بالمسيح على طريق دمشق (أعمال الرسل ٩، ٢٢، ٢٦) وكان اختباراً فعالاً في إرساليته بعد ذلك، وتعليمه وكتاباته وفكره اللاهوتي.

## ٢- عمل بولس

كان لبولس نبوغ متعدد الجوانب حتى إنه بات من الضروري النظر إلى أعماله من خلال تصنيفات مختلفة وسيبرز في كل قسم ثقل كل مهمة أعطاها له الله وتفانيه في إنجاز المهام التي أوكلت إليه.

### أ- ناشر البشارة

كان بولس مرسلاً حكيماً ومكرساً، أعطى بحياته مثلاً عملياً لمبادئ مازالت مناراً اهتدى به كثيرون في حمل مشعل الإرسالية العظمى المكلفة بها الكنيسة. لو نظرنا إلى خط سير رحلاته لاكتشفنا تقدم البشارة بوعظه في محيط نصف دائرة عظمى امتدت شرقاً من أنطاكية ووصلت غرباً إلى روما. تبنى بولس Paul كمبدأ أساسي فكرة التوسع في تقديم البشارة باتجاه الغرب، ولابد أنه طفر فرحاً عندما لمح مشارف روما هدفه الأساسي، حتى لو كان ذاهباً إليها كسجين لدى الحكومة الرومانية.

كان بولس يُقسم مجال إرساليته إلى مناطق كبرى يصل إلى كل منها عن طريق بعض المدن والمراكز الاستراتيجية بها. يبدأ عملاً في أي منطقة جديدة انطلاقاً من أهم مدينة في تلك المنطقة ثم يستخدم المهتدين في حمل الرسالة للمدن المجاورة والقرى. ولهذا السبب لا نظن أنه زار كولوسي (كولوسي ٢:١)، بل إن تأسيس كنيسة كولوسي القوية قام به من أرسلهم بولس من أفسس.

بدأ بولس عمله في مراكز رومانية هامة بالذهاب أولاً إلى المجمع حيث يبشر أولا بالرسالة طالما أنهم يقبلونه. وإذا وجد مقاومة فإنه كان يتوجه مباشرة لإعلان البشارة إلى الأمميين في أي مكان يجده مناسباً. كان مبدأه أن يبشر الأمم بعدما يكون قد قدم البشارة لليهود. نستطيع أن نعثر على هذا المبدأ واضحاً بدراسة رحلاته المسجلة في سفر أعمال الرسل (رومية ١٦:١). بعد تأسيس أي كنيسة، كان بولس يعهد بقيادتها إلى شيوخ وشمامسة لتدار أمورها ذاتياً بعد سفره، كان بولس يهتم ببناء أساسات متينة.

كان بولس يرغب في عدم إرهاق الكنائس الناشئة فتحمل مسئولية إعالة نفسه بالاشتغال بعمل يدر عليه دخلاً أثناء تبشيره بالكلمة في المناطق الجديدة. فكان أثناء تبشيره كورنثوس يعمل في مهنته كصانع خيام. (أعمال الرسل ١:١٨-٤ قارنها بتسالونيكي الأولى ٢:٩). لم يجعل بولس من هذا المبدأ قانوناً لشركائه في الخدمة ولكنه شعر بضرورة هذا الأمر بالنسبة له شخصياً. كان على الكنيسة أن تمارس الاكتفاء الذاتي معضدة نفسها أيضاً.

اعتمد بولس في عمله على الروح القدس





بشكل ملحوظ كما يتضح في أعمال الرسل وفي رسائله ( أعمال الرسل ٢:١٣، ٤ ؛ ١٦: ٦-٧) لم يكن بولس يرغب في الذهاب لأي مكان بدون برهان واضح على أنه مجال يريده الله أن يعمل به. كان بولس يبحث عن المناطق التي لم يصلها أحد بالبشارة قبله حتى ما يكون الرائد في توصيلها لها (رومية١٥:٢٠).

أدّت تلك الروح الريادية السباقة إلى حمل البشارة من أنطاكية إلى روما، وربما وصلت غرباً حتى أسبانيا في حياته. حققت هذه المبادئ لبولس Paul أهدافه في تطوير الكنائس لتكون مراكز منظمة للتقديم المستمر للبشارة. لم يتركهم بولس بدون إشراف بل أخذ على عاتقه المداومة على زيارتهم وكتابة الخطابات للكنائس التي أسسها ليشجع المؤمنين ويقويهم (أعمال الرسل ١٥:٣٦) ولا عجب أن تنمو المسيحية سريعاً بفضل هذه القيادة الواعية والمُرشدة، فالكنيسة كانت تنمو وتتسع بتلقائية شديدة.

### ب- كتابات بولس

اعتاد بولس أن يتلامس مع الأوضاع المحلية لكل كنيسة وذلك خلال الزائرين القادمين من تلك الكنائس كما في (كورنثوس الأولى ١:١١)، أو من خلال تقارير مبعوثة إلى تلك الكنائس كما في (تسالونيكي الأولى ٣:٦). قام بولس بكتابة خطابات للكنائس بإرشاد الروح القدس يواجه فيها مشاكل محددة كلما تطلب الموقف المحلي ذلك. كتب مرتين إلى كنيسة تسالونيكي لينير سؤالهم الخاص بعقيدة المجئ الثاني للمسيح. واجهت الكنيسة في كورنثوس مشاكل المدن الكبرى الوثنية، فوجه بولس خطابه الأول لحل مشاكلهم.

كانت هناك بعض المواضيع التي احتاجت أن يتعامل بولس معها بالمراسلة مثل الأسئلة المتعلقة بالحكمة الإنسانية والحكمة السماوية في مواجهة الكنيسة لمدينة ذات ثقافة يونانية (كورنثوس الأولى ١-٤)، ومشكلة انهيار أخلاقيات البيئة الوثنية (أصحاح ٥)، ومشكلة القضايا المرفوعة من الأخوة أمام المحاكم الوثنية (أصحاح ٦)، ومشاكل الزواج (أصحاح ٧)، وكذلك مشكلة العلاقات الاجتماعية مع عبدة الأصنام (أصحاحات ٨-١٠) أما رسالته الثانية إلى الكورنثيين فقد نبعت من حاجته إلى تأكيد رسوليته ودحض مزاعم المدعين بغير ذلك ليؤكد سلطته في التعليم والعمل كما جاء في الرسالة الأولى.

كان من الضروري كتابة خطاب للغلاطيين بسبب مشكلة علاقة الناموس اليهودي بالمسيحية لتأكيد أن الإيمان وليس أعمال الناموس، هو المبدأ الفعَّال في المسيحية. أما الرسالة إلى رومية فعبارة عن عرض مصنف وتفسير للبشارة. أما الرسائل الأربع المكتوبة خلال فترة سجنه في روما فكانت مرتبطة بظروف خاصة بكنائس أفسس وكولوسي وفيلبي والرسالة الشخصية إلى فليمون التي تتعلق بمشكلة بين السيد المسيحي والعبد الذي صار مسيحياً. هناك أيضاً ثلاثة رسائل رعائية موجهة إلى تيموثاوس وتيطس Titus وتتعلق بالمشاكل التي تواجه راعياً شاباً.

سنلاحظ أن كل رسالة برزت نتيجة لأزمة تاريخية محددة تمر بها كنيسة من كنائس بولس المحببة لقلبه. تتجلى عظمة تلك "النبذ الوقتية"، فمع أن بولس كتبها ليواجه بها طارئاً في القرن الأول إلا أنها مازالت فعالة للكنيسة حتى الآن. فالجنس

البشري مازال يواجه مشاكل مماثلة وسينتفع بتطبيق نفس المبادئ بالرغم من تغير البيئة والزمان، والخط الذي رسمه بولس Paul في رسائله مازال هو الأهم لمعالجة مشاكل أي كنيسة. وقد كان بولس دائمًا يوازن بين الصيغ اللاهوتية وبين التطبيق العملي.

ج- مبادئ فكر بولس

لا يمكن لأي بحث تاريخي عن بولس أن يتجاهل العقائد الأساسية المتضمنة وبصفة خاصة في رسالته إلى الكنيسة الرومانية فالمسيح لم يترك تركيبة محددة المعالم من التعارف والعقائد. وكان على بولس وبقيادة الروح القدس أن يصيغ أساسات هذا العمل.

لم يكن هذا الجسد المترابط من العقائد اللاهوتية مضاداً لتعاليم المسيح. بل على العكس فإنه نما من تعاليم وموت المسيح،[٢] إضافة إلى نشأة بولس في صغره وتعلمه في المجمع عند قدمي غمالائيل المعلم وملاحظته للطبيعة من حوله (رومية ١:١٩-٢٠)، واختبار تغييره، وعقله المبدع وفوق الجميع، الإعلانات الإلهية.

يمكننا إيجاز معتقد بولس بالتالي: أدرك بولس أن السعادة والنفع في الحياة الحاضرة والمستقبلة يعتمدان على نوال رضى الله والله لا يرضى إلا بمن يصنعون مشيئته. لقد ظن بولس وزملاؤه أن مراعاة ناموس موسى الذي يعبر عن قداسة الله، لابد وأن يضمن حياة هانئة ونافعة.

ثم اكتشف بولس للأسف أن أعمال الناموس تنتج معرفة للخطية وتترك الإنسان بلا عون في محاولته نيل رضا الله كما عبَّر عن ذلك في (رومية ٧) كشف اختبار بولس على طريق دمشق أن نقطة بداية الحياة الروحية ليست هى الناموس بل صليب المسيح. استطاع المسيح الإنسان الإله الكامل الذي تمم الناموس كاملاً، أن يقدم نفسه على الصليب نيابة عن البشر الخطاة ويتحمل عقاب خطية الانسان (غلاطية ٣:١٠، ١٣). ولا يحتاج الإنسان إلا أن يقبل بالإيمان العمل الذي قام به المسيح لأجله (رومية ٥:١).

استمد بولس نظامه الأخلاقي من الاتحاد الشخصي بين المؤمن والمسيح بالإيمان. لابد أن تتوازن هذه العلاقة الرأسية بأخرى أفقية يتحد فيها المؤمن مع إخوته المؤمنين بالحب المسيحي الذي يعبر عن نفسه بالحياة الأخلاقية (أفسس ١:١٥، يوحنا الأولى ٣:٢٣). فلا الشرعية اليهودية ولا الرواقية، بل المحبة المسيحية وحدها تصلح أساساً ومصدراً للسلوك المسيحي. العلاقة الخفية بين المؤمن والرب هى مصدر الحب. ولكي تتواصل علاقة الحب هذه فلابد للمؤمن أن يفصل نفسه عن أي نجاسة شخصية ناتجة عن عبادة الأصنام أو العربدة والمجون أو السكر – الخطايا الرئيسية للأمم. هذا الابتعاد ينتج إيجابياً خدمة حية للآخرين وثباتاً في السلوك باستقامة.

لا يعني هذا النظام الأخلاقي التبرؤ من الناموس الأخلاقي اليهودي بل بالحري تتميمه على أعلى مستوى، في العائلة والمنزل والدولة. لقد بهرت المقاييس الاخلاقية العالية للمسيحيين جيرانهم الأمميين وتأثروا بعظمة الإيمان المسيحي. لقد كانت حياة بولس بخدمته المضحية وإنكاره لذاته من أجل الآخرين بمثابة إعلان لليهود والأمم عما يستطيع





الله فعله في تنمية شخصية المسيحي المكرس لخدمة مجد الله وخير الإنسان.[٣]

ارتبطت فلسفة بولس في التاريخ بنظرته الأخلاقية واللاهوتية. رفض نظرية دوران التاريخ التي ميزت العالم القديم كما رفض النظرية الحديثة التطور والتقدم اللانهائي في مقابل نظرة فوق طبيعية للتاريخ تأخذ في اعتبارها فشل الإنسان المستمر وقوة الله في تحقيق خططه الإلهية.

لا تقتصر هذه النظرية على أمم بعينها بل تحيط بالجنس البشري كله. وتبعًا لهذا لا يأتي التقدم إلا من خلال الصراع الروحي الذي يحصل فيه الإنسان على القوة من خلال نعمة الله. وفي النهاية سينتصر الله على كل قوات الشر التي هزمها أولاً على صليب الجلجثة في المسيح (رومية ١١:٣٦، أفسس ١:١٠).

د- بولس المحاور الصلد Polemicist

لم يقنع بولس Paul بمجرد تقديم المسيحية، فالتهديدات التي كانت تواجه العقيدة المسيحية النقية جرته لحلبة منازلة العدو. حارب بولس في أيامه لأجل نقاء العقيدة بكل امكانيات فمه وقلمه. لم تفلت من تأنيبه نظرة انتقاص لشخص أو عمل المسيح، كما لم تفتر همته في محاولة كسب المخطئ للإيمان الصحيح مرة أخرى.

أول قضية واجهها بولس كانت تتعلق بمدى شمولية الخلاص والطريق للحصول عليه وكان ذلك في مجمع أورشليم Jerusalem Council في نهاية رحلته التبشيرية الأولى. ظهرت في الكنيسة التي ولدت في أحضان اليهودية مجموعتان المجموعة الأولى هم اليهود المسيحيون من مذهب الفريسيين الذين آمنوا بأن على الأمم، شأنهم شأن اليهود، التمسك بناموس موسى من أجل الخلاص. وبذلك أرادوا للمسيحية أن تكون إحدى الشيع اليهودية الخاصة. أما المجموعة الأخرى فقد أدركت بأن الخلاص يأتي بالإيمان بالمسيح وحده وليس بالأعمال، وأن عطية الخلاص هي للجميع وليست قاصرة على اليهود دون سواهم.

كانت زيارة التهوديين إلى كنيسة أنطاكية، زاعمين سلطاناً من يعقوب للوعظ بالتقاليد القديمة (أعمال ١٥:٢٤)، هي سبب انعقاد مجمع أورشليم عام ٤٩ أو ٥٠ لحل هذه المشكلة. توجه بولس مكلفاً من كنيسة أنطاكية (أعمال ١٥:٢) وبتأكيد من إعلانات الله (غلاطية ٢:٢) مع برنابا إلى أورشليم لحضور أول وربما أهم مجمع على الإطلاق في تاريخ الكنيسة.

قاما بإبلاغ الكنيسة في اجتماع علني بنشاطهما وتعليمهما (أعمال ١٥:٤-٥)، ثم تقابلا مع الشيوخ والرسل في اجتماع خاص لمناقشة المشكلة بتفاصيلها ومحاولة إيجاد حل لها (أعمال ١٥:٦، غلاطية ٢:٢-١٠).[٤] ثم أعقب هذا الاجتماع اجتماع آخر للكنيسة مجتمعة كما يبدو للوصول إلى قرار يتفق عليه كل الحاضرين (أعمال ١٥:٧-٢٩).

من النتائج الفورية لهذا الاجتماع خروج بولس بتزكية وتعضيد لعمله كرسول للأمم (أعمال ١٥:٢٥-٢٦، غلاطية ٢:٩)، وتحرير الأمميين من نير الناموس اليهودي (أعمال ١٥:١٩)، فيما عدا بعض المطالب الثانوية التي وضعت لاسترضاء اليهود

المؤمنين مثل الامتناع عن أكل الدم أو المخنوق. طلبوا من المهتدين الأمميين تجنب عبادة الأوثان والخطايا اللاأخلاقية- وهي الخطايا التي يمكن أن يجرب بها المهتدون الجدد القادمين من وسط وثني (أعمال ١٥: ٢٠-٢١). نرى من هذه المطالب بوضوح أنه لا دخل لها بالمبادئ الأساسية لتبرير الإنسان. سنت هذه المطالب ببساطة لتسهيل إقامة علاقات طيبة بين المهتدين من اليهود والمهتدين الأمميين إلى المسيحية.

وقد أظهرت أحداث مجمع أورشليم Jerusalem Council عناد بولس Paul عندما يتعلق الأمر بمبدأ من المبادئ الأساسية. لم يعتبر ختان تيطس مطلبًا ولو للحظة خلال مجمع أورشليم (غلاطية ٢:٣)، لكن عند بداية رحلته التبشيرية الثانية، وعندما أصبح تيموثاوس مساعده في الخدمة، طلب منه أن يختتن (أعمال ١٦:١-٣)، حتى لا يصير عدم تتميم هذا الطقس عائقًا أمام تقديم البشارة. كان بولس مستعدًا لتقديم تنازلات غير مكلفة من هذه العينة لتسهيل عمله، لكنه كان غير مستعد للسماح بختان تيطس في أورشليم لأن تحرير الأمميين من مراعاة الطقس اليهودي كان المبدأ الأساسي الذي حارب لأجله.

نتج عن مجمع أورشليم، على المدى الطويل، تحرر المسيحية من مراعاة تقاليد الناموس اليهودي. بهذا، يصبح الإيمان هو الطريق الوحيد لحصول الإنسان على الخلاص. ولأن هذا الإيمان متاح لجميع الناس، فبذا تحررت المسيحية من خطر التحول إلى طائفة يهودية. أصبح ناموس المحبة الجديد، الذي يقود إلى مراعاة الناموس اليهودي الأخلاقي بوازع من حب الله وليس بسبب الإحساس بالواجب، هو المقياس المسيحي الأخلاقي الجديد. من الطريف أننا سنلاحظ الأسلوب الديموقراطي الذي اتبعته الكنيسة في مواجهة مشاكلها. قامت الكنيسة وقادتها بصنع القرار بقيادة الروح القدس. تركت الحرية لليهود المسيحيين المخلصين بالإيمان، لمراعاة ناموس موسى طواعية إذا رغبوا في ذلك.

ينبغي على المسيحية ألا تنسى أبدًا مجمع أورشليم. واجه الإصلاحيون ذات المشكلة عندما وجدوا الكنيسة الرومانية تطالب بأعمال بشرية تضاف إلى الإيمان كشرط للخلاص. كما يقع ذوو العقيدة المتحررة العصرية في نفس الخطأ عندما يشددون على استرضاء الله بأعمال حميدة. فالمشكلة التي واجهها مجمع أورشليم هي مشكلة خالدة ومتكررة، والمبادئ التي نجحت في مواجهتها أنذاك تستطيع أن تساعدنا عبر كل عصور الكنيسة.

وواجه بولس أيضًا تحدي العقلانية اليونانية، عندما حارب الغنوسية Gnosticism المتواجدة في الكنيسة. حاول بعض الرجال جعل الحصول على الخلاص شيئًا عقلانيًا، تمامًا كما أراد المسيحيون اليهود جعله تشريعًا. ونمت الغنوسية بصورة مخيفة في كنيسة كولوسي.

تمسك الغنوسيون بفلسفة ازدواجية وضعت فاصلاً بين الروح كشئ صالح والمادة كشر. وتبعًا لما يقولون فإن الارتباط بين الروح النقي والمادة الشريرة هو مرتبة متسلسلة من الكائنات السماوية. يدخل المسيح كإحدى حلقات هذا الترتيب. تستحق الملائكة الحصول على عبادتنا لأنهم جزء من هذه





المراتب المتسلسلة (كولوسي ٢:٨، ١٨-١٩). للحصول على الخلاص ينبغي أن نعمل أعمال تقشف وزهد لإنكار رغبات الجسد المادي الشرير (كولوسي ٢:١٤-١٧، ٢٠-٢٣)، ومن طريق معرفة خاصة متاحة لأرفع الناس بين المسيحيين. بهذا تدنت مرتبة الإيمان وأخضع لمستوى نظام يستخدمه مطية للكبرياء البشرية.(٥) أجاب بولس على هذه الهرطقة Heresy بتأكيد غير مشروط بكفاية المسيح الخالق والفادي (كولوسي ١:١٣-٢٠). المسيح هو إعلان الله الكامل، وهو لا ينقص في شئ عن الله (كولوسي ١:١٩، ٢:٩). رأى بولس أن هذه هي العقيدة الوحيدة التي تستطيع أن تمنح الانسان تأكيدًا مناسبًا للخلاص قادرًا على مواجهة مشكلة الخطية.

كانت الغنوسية أول هرطقة واجهتها الكنيسة، ولكنها لم تكن الأخيرة. يتكرر الخطأ وينبع عادة من نفس الأسباب في جميع العصور. يدفع ميل الإنسان لكبرياء المنطق والعقلانية إلى الهرطقة، كما حدث في كنيسة كولوسي. قد يقود الشد والجذب، بين العقائد الدينية والموروثة من فترة ما قبل الايمان في حياة الفرد، إلى خليط من الصواب والخطأ ونتائج وخيمة على خلاصه. هذا هو الخطأ الذي وقع فيه التهوديون. قد يقودنا سوء استخدام بعض الآيات الكتابية أو التشديد على آيات محددة إلى الخطأ. أحيانًا ينساق قائد متحمس في محاولة لحماية الحق إلى تحريف الحق نفسه. كانت هذه حالة مونتانوس في القرن الثاني الميلادي.

فلا عجب أن يتمكن بولس Paul بهذا الكم من الإيمان والشجاعة من نشر رسالة الخلاص بين الأمم في الإمبراطورية الرومانية، ويؤسس ثقافة مسيحية توسع تخومها غربًا مع انتصارات الإمبراطورية عبر كل أوروبا. كان مفسرًا فريدًا لمعنى حياة المسيح وموته وخلاص الانسان الخاطئ، حفظ الإيمان خاليًا من الخلط بالتقيد الحرفي للشرائع أو بالعقلانية. وضع تفاصيل تنظيم الكنائس المسيحية، وظل يراسلها لمعاونتها على حل مشاكلها مستعينة بالمبادئ المسيحية. أدرك بولس، كما لم يدرك أي شخص سواه، أهمية المسيح الكونية، زمنيًا وأبديًا. وكرسول للأمم حمل المسيح إلى عالم الأمم (رومية ١١:١٣، ١٥:١٦).

## اقتراحات للقراءة

*Burton, Ernest D.* The Records and Letters of the Apostolic Age. *New York: Scribner, 1895. The primary biblical sources for Paul's life and work are intergrated in an interesting way in this work.*

*onybeare, William J., and Howson, John S.* The Life and Epistles of St. Paul. *2 vols. New York: Scribner, 1854. This work is still a standard classic of Paul's life and work, though in some areas it must be supplemented by more recent works.*

*issmann, Gustav.* The Religion of Jesus and the Faith of Paul. *New York: Doran, n.d.*

*Paul's theology is presented as an outgrowth of his experience of God's revelation and his consciousness of the indwelling Christ.*

*Goodman, Frank J.* A Harmony of the Life of Paul. *Grand Rapids: Baker, 1951. This work integrates the Acts and Paul's Epistles in an account of his life in the words of Scripture.*

*Greenslade, S.L.* Schism in the Early Church. *London: SCM, 1953. This is a helpful little book.*

*Guthrie, Donald.* The Apostles. *Grand Rapids: Zondervan, 1974.*

*Longenecker, Richard N.* The Ministry and Message of Paul. *Grand Rapids: Zondervan, 1971.*

*Machen, J. Gresham.* The Origin of Paul's Religion. *New York: Macmillan, 1923. The author has ably presented proof that Paul's message was not derived from the pagan mystery religions.*

*Moe, Olaf.* The Apostle Paul, His Life and His Work. *Translated by L.A. Vigness. Minneapolis: Augsburg, 1950.*

____. The Apostle Paul, His Message and Doctrine. *Translated by L.A. Vigness. Minneapolis: Augsburg, 1954.*

*Smith, David.* The Life and Letters of Saint Paul. *London: Hodder & Stoughton, 1919.*

*Stevens, George B.* The Pauline Theology. *New York: Scribner, 1892. The author has produced a useful outline of the biblical theology of Paul, but care should be exercised in its use because of the deficiencies in the author's theology at some points.*

*Stewart, James S.* A Man in Christ. *London: Hodder & Stoughton, 1935.*



# انتشار المسيحية في الإمبراطورية حتى سنة مائة

## الفصل الخامس

# الأسفار والمخطوطات

لا يمكن النظر إلى العهد الجديد باعتباره قمة جبل منعزل من الكتابات الدينية، لكنه بالحري يعتبر أعلى قمة من سلسلة جبال متصلة من الكتابات الدينية التي أفرزتها الكنيسة الأولى. وقد صار الشكل الأدبي الأساسي للعهد الجديد والذي شمل الأناجيل وسفر أعمال الرسل والرسائل والكتابات الرؤيوية هي الأنماط القياسية التي بنى آباء الكنيسة الأولون كتاباتهم عليها. ولا يستغرب الإنسان من كثرة عدد أسفار العهد الجديد بقدر استغرابه لقلة عددها إذا قورنت بالكم الهائل من الكتابات الدينية في الكنيسة الأولى وقد ألمح لوقا إلى هذا الكم الوافر من الأناجيل الذي كان منتشراً في الفترة التي عكف هو بإرشاد الروح القدس على تدوين إنجيله عن حياة المسيح (لوقا ١:١).

وتساهم كتابات الآباء Fathers بدور كبير في ملء الفراغ في المعلومات التاريخية Historical في الفترة التي تقع ما بين وقت كتابة العهد الجديد والجزء الأخير من القرن الرابع. وقد ساهمت الشخصيات الرئيسية في الكنيسة سواء بالكلمة المكتوبة أو المسموعة في إنتاج وصياغة الكتابات الدفاعية والجولية في مواجهة الاضطهاد الخارجي والهرطقات الداخلية. تمت صياغة قوانين الإيمان بحيث توفر الصياغة الدقيقة لحقائق الإيمان المسيحي. لذلك فإن آباء الكنيسة لهم قيمة هائلة في دراسة تطور الحياة المسيحية والفكر المسيحي في تلك الفترة. والإطلاع على مثل هذه الكتابات لا يمكن أن يصيب الدارس بالملل، بل إن في قراءتها الكثير من الفائدة الروحية والفكرية. ويلاحظ أن معظم الآباء يستخدمون نفس لغة الكتاب المقدس ويقتبسون منه كثيراً.

ويرجع أصل تعبير أو لقب "آباء الكنيسة" Fathers of the Church إلى استخدام لقب "أب" للإشارة إلى الأساقفة ولا سيما في الغرب على سبيل التعبير عن الولاء والتقدير. وقد زاد وانتشر استخدام هذا التعبير منذ القرن الثالث للإشارة إلى أبطال الكنيسة الذين جاهدوا لحفظ الإيمان القويم دون تحريف. وكان مثل هؤلاء الرجال عادة من بين أساقفة الكنيسة. وهناك علم خاص ويدعى علم الآباء تخصص في دراسة حياة وأعمال مثل هؤلاء الرجال، الذين عاش معظمهم في الفترة ما بين نهاية العصر الرسولي وانعقاد مجمع خلقيدونية Council of Chalcedon (٤٥١). ويبين الشكل التوضيحي معلومات عن بعض آباء الكنيسة وأعمالهم الرئيسية والفترة التي عاشوا فيها، وأهم ما يميز كتاباتهم.

| الشرق | الغرب |
|---|---|

**القرن الأول (٩٥ – ١٥٠ تقريباً)**
**الآباء الرسولين – للبنيان – التفسير الرمزي**

البنيان

| الشرق | الغرب |
|---|---|
| أغناطيوس<br>بوليكاربوس<br>برنابا المزيف<br>الرسالة إلى ديوجين<br>رسالة كليمندس الثانية<br>بابياس<br>راعي هرماس (رؤية)<br>الديداخ (دليل تعليمي) | كليمندس الروماني |

**القرن الثاني (١٢٠ – ٢٢٠) الدفاعات – للدفاع عن المسيحية**

الشرح

| الشرق | الغرب |
|---|---|
| أرستيدس<br>جاستن الشهيد<br>تاتيان<br>أثينا نجوراس<br>ثاوفيلوس | ترتليان |

**القرن الثالث (١٨٠ – ٢٥٠) الجدليات – لمقاومة التعاليم الخاطئة**

دحض وتفنيد

| الشرق | الغرب |
|---|---|
| مدرسة أنطاكية (الدراسات التاريخية النحوية) / مدرسة الاسكندرية (التفسير الرمزي)<br>بانتانيوس<br>كليمندس<br>أوريجانوس – هيكسبلا (نص العهد القديم في أعمدة)<br>المبادئ (أول مرجع للاهوت النظامي)<br>استخدم الأسلوب الرمزي في التفسير | الاتجاه الجدلي العملي<br>ايريناوس في مواجهة الغنوسية<br>ترتليان – مؤسس اللاهوت الغربي، "الثالوث" ضد براكسياس<br>كبريانوس عن مكانة الأسقف في الكنيسة الرومانية |

**القرن الرابع (٣٢٥ – ٤٦٠) العصر الذهبي للدراسة العلمية للكتاب المقدس**

التفسير

| الشرق | الغرب |
|---|---|
| فم الذهب – واعظ (السلوك المسيحي)<br>ثيودور (استخدام سياق النص في التفسير) / الاسكندرية<br>أثناسيوس<br>بازل (باسيليوس) من قيصرية | چيروم – مترجم الكتاب المقدس<br>أمبروز – واعظ<br>أغسطينوس – فلسفة التاريخ "في مدينة الله"، لاهوتي |



توفرت لدينا الآن براهين مقنعة تؤكد على أن كتابات العهد الجديد تمت قبل نهاية القرن الأول الميلادي مباشرة. وقد استمر الأشخاص الذين عرفوا الرسل شخصياً وتمكنوا من التعليم الرسولي في القيام بمهمة تزويد الكنيسة بما تحتاجه من كتابات مسيحية. وقد عُرف هؤلاء باسم الآباء الرسوليين Apostolic fathers. وقد تم إنتاج معظم كتاباتهم في الفترة ما بين عام ٩٥ وعام ١٥٠م.

ويمكن تحديد بعض الخصائص المعينة التي ظهرت في معظم كتاباتهم. فقد استخدموا أسلوب بسيط، تتخلله تعبيراتهم البسيطة الصريحة عن الإيمان والتقوى التي تظهر عدم حصولهم على ثقافة فلسفية واسعة في مجال الفلسفة الوثنية، وذلك إذا قارناهم بما كتبه أوريجانوس Origen أو كليمندس السكندري Clement of Alexandria في وقت لاحق.

كان الآباء الرسوليون يكنون احتراماً كبيراً للعهد القديم، وكانوا يستندون إليه بقوة لتدعيم أفكارهم. ولهذا السبب بالذات يمكن أن يلاحظ الدارس أنه في بعض الحالات لجأ البعض منهم إلى المغالاة في استخدام التفسير الرمزي. فقد رأى الآباء الرسوليون أن المسيحية تحقق لنبوات العهد القديم ورموزه. وكان جميع هؤلاء الآباء على دراية تامة بالأسلوب الأدبي والأشكال الأدبية التي وردت في العهد الجديد واستخدموها كنمط لكتاباتهم. وكان الهدف الأول لكل كتاباتهم هو تقديم ما يحقق بنيان الكنيسة وسد حاجاتها الرعوية المتنوعة.

## أولا: أدب الرسائل

### (أ) كليمندس الروماني Clement of Rome (تقريباً ٣٠-١٠٠م)

حدثت في عام ٩٥ مشكلة خطيرة في الكنيسة في كورنثوس، فكتب بعد ذلك بقليل كليمندس الذي كان الشيخ المتقدم في الكنيسة في روما رسالته الأولى إلى كنيسة كورنثوس ليحث المؤمنين الذين كانوا قد تمردوا على الشيوخ هناك على إنهاء هذه المشكلة وأن يخضعوا لشيوخهم (١:١، ١:١٤-٢، ٤٦، ٤٧:٣-٦). وقد شغلت هذه الرسالة مكاناً بارزاً بين كتابات الآباء الرسوليين في الفترة الأخيرة وذلك لأنها أقدم الكتابات المسيحية الموجودة لدينا بعد أسفار العهد الجديد.

فبعد أن كتب كليمندس مقدمة يذكرهم بالروح الطيبة التي كانت في كنيستهم فيما مضى (أصحاحات ١-٣)، إنبرى كليمندس Clement يقدم سلسلة من المواعظ حول بعض الفضائل المسيحية مثل المحبة والتوبة والتواضع وذلك لكي يمهد ويشجع على إطاعة المطالب التي سوف يطالبهم بها في النهاية (٤-٣٨). وهذه المواعظ التشجيعية، التي يبنيها على ترديد أمثلة عديدة من العهد القديم، نجدها مقسومة بفقرة اعتراضية (٢٤-٢٦) يؤكد فيها يقين القيامة في المستقبل. ومن الغريب أن نلاحظ أن كليمندس قد استخدم القصة الوثنية عن الصقر في أصحاح ٢٥ لتوضيح فكرة القيامة. ثم يعود للإشارة الواضحة المباشرة للمشكلات الموجودة في كورنثوس في الأصحاحات ٣٩-٥٩:٢. وتظهر فكرة الخلافة الرسولية Apostolic Succession في أصحاحات ٤٢-٤٤ وترتكز حول حقيقة أن الشيوخ والشمامسة قد تم

تعينهم بمعرفة الرسل، الذين أقامهم المسيح نفسه، والمسيح نفسه أرسله الآب.

ثم حثّ كليمندس المؤمنين في كورنثوس على طاعة هؤلاء الشيوخ الذين اختارهم الشعب ديمقراطيًا ليكونوا قادته (٤٤:٣)، ثم تأتي صلاة طويلة بعد هذا القسم (٥٩:٣- أصحاح ٦١) وفيها يظهر بوضوح رغبته الشديدة في استعادة الوحدة لهذه الكنيسة. ويختم هذه الرسالة بتشجيع أخير على التمسك بالوحدة في اصحاحات ٦٢-٦٥.

وأهمية هذه الرسالة ترجع إلى المعلومات التي تقدمها عن المكانة العالية التي أعطيت للأساقفة Bishops والشيوخ Elders في الكنيسة في نهاية القرن الأول. كانت الطاعة للأسقف هي ضمان الحفاظ على الوحدة. انفصل الإكليروس عن الشعب (٤٠:٥). ورسالة كليمندس لها أهميتها في كثرة اقتباساتها (حوالي ١٥٠) من العهد القديم بالاضافة إلى ذلك فهي تتضمن إشارة شاع استخدامها عن خدمة بولس Paul (٥:٥-٧) ومصيره. وتبنى نظرية سجن بولس في روما مرتين بينهما فترة أطلق فيها سراحه أساسًا على هذه الإشارة في رسالة كليمندس. وأيضًا تشير الرسالة إلى أن دم المسيح هو وسيلة الخلاص (١٤:٧)

### ب- إغناطيوس Ignatius
(القرن الأول والثاني)

كان إغناطيوس واحدًا من الآباء الرسوليين Apostolic fathers، وكان أسقفًا لأنطاكية في سورية، حيث ألقت السلطات القبض عليه بسبب شهادته المسيحية، وأرسلته تلك السلطات إلى روما لكي يلقى للوحوش في المهرجانات التي كان الإمبراطور يقيمها لهذا الغرض. وسُمح له باستقبال زوار من الكنائس التي في المدن التي مر بها أثناء رحلته إلى روما، فكتب قبل استشهاده مجموعة من رسائل الشكر أرسلها إلى تلك الكنائس تقديرًا لما أظهروه نحوه من المشاعر الطيبة.

كانت رسالته إلى أهل روما ليست إلا رجاء منه بألا يبذلوا محاولات لإنقاذه من الاستشهاد في روما. رحب إغناطيوس بالاستشهاد الذي كان سيواجهه عن قريب، وسعى لمنع أي محاولة تبذل لتعطل نواله شرف أن يصير "طعامًا نقيًا للمسيح" في أفواه وبين أسنان تلك الوحوش (٢، ٤). ولا بد أن تكون هذه الرسائل السبع قد كتبت حوالي سنة ١١٠م. وبالرغم من بعض الشك حول صحة انتساب بعض هذه الرسائل إلى إغناطيوس إلا أن الرسائل التي تأكدت نسبتها إليه تقدم صورة واضحة عن تعاليمه. ففي رسائله سعى إغناطيوس لتحذير الكنائس التي زارها في طريقه إلى روما من أخطار الهرطقات التي كانت تهدد سلام ووحدة تلك الكنائس.

وقد قاوم الميول الغنوسية Gnostic والدوسيتية Docetic، حيث سعى الدوسيتيون أن يحافظوا على مكانة المسيح ككائن روحي طاهر يترفع تمامًا عن التلوث بأي جسد مادي. وأدى ذلك بهم إلى إنكار أن جسد المسيح المادي كان حقيقيًا وإلى قولهم إن الذي تألم على الصليب ليس إلا شبحًا أو خيالاً. (الرسالة إلى سميرنا أصحاح ١). أصرّ إغناطيوس على أن استعلان المسيح في الجسد هو دحض لهذا التعليم الخاطئ (الرسالة إلى سميرنا أصحاح ١، وإلى تراليانز ٩-١٠).





ونلاحظ أيضًا أن إغناطيوس باعتباره من آباء الكنيسة الأولى ينبر بشدة على كون الخضوع للأسقف وسيلة أكيدة لتحقيق الوحدة وتجنب نمو وانتشار الهرطقة. وتوجد أدلة كثيرة في رسائله تبين أنه في الوقت الذي كتب فيه تلك الرسائل كان واحد من الشيوخ في كل كنيسة قد صار أسقفًا أعلى يدين له زملاؤه الباقين من الشيوخ بالطاعة.(١) قارن إغناطيوس Ignatius طاعة الشيوخ للأسقف بانسجام أوتار القيثارة بعضها مع بعض (أف ٤:١) وحث كل المؤمنين على طاعة الأسقف والشيوخ (٢:٢٠). وكان هو أول من يشير إلى وظيفة الأسقف في مقابلة مع وظيفة الشيخ ويقرر لزوم خضوع الشيوخ للأسقف الأعلى وخضوع أعضاء الكنيسة لكليهما. ورأى إغناطيوس أن تدرج السلطة في الكنيسة يجعل الأسقف أولاً ثم الشيخ ثم الشماس. إلا أن إغناطيوس لم يعط أبدًا لأسقف روما مكانة مرموقة تتيح له أن يكون فوق باقي الأساقفة، وذلك بالرغم من كونه أول من استخدم كلمة "كاثوليك" أو جامعة (سميرنا ٨). السيادة الوحيدة التي أقرها إغناطيوس كانت سيادة الأسقف على الشيوخ في كل كنيسة. وكان يعتقد أنه بدون توافر هذا النظام الثلاثي لا توجد كنيسة (تراليانز ٣).

### (ج) بوليكاربوس Polycarp
(تقريبًا ٧٠-١٥٥م):

كتب بوليكاربوس رسالة إلى أهل فيلبي يذكرهم برسالة بولس Paul إليهم. وكان لبوليكاربوس فرص خاصة أتاحت له التعرف عن كثب على فكر التلاميذ وذلك لأنه كان تلميذًا ليوحنا John الرسول. كان بوليكاربوس أسقفًا لمدينة سميرنا لسنين عديدة، ثم استشهد حرقًا في عام ١٥٥م. حيث قال أثناء محاكمته أمام الوالي الروماني إنه لا يستطيع التحدث بالشر على المسيح الذي قضى ثمانين عامًا في خدمته ولم ير منه إلا كل نعمة وإحسان.(٢)

كتب بوليكاربوس رسالته في عام ١١٠م ردًا على شخص من فيلبي. ولم يستحدث بوليكاربوس كثيرًا في رسالته بل اكتفى بالاقتباس المباشر وغير المباشر من العهد القديم والجديد مقدمًا الكثير من المعلومات التي استقاها من الرسل. وبالأخص من يوحنا John. على أي حال، يعتبر بوليكاربوس من رجال القرن الثاني الذين لهم قيمة كبيرة بصنعته شاهدًا على حياة وإيمان الكنيسة الأولى. حض بوليكاربوس Polycarp أهل فيلبي على حياة الفضيلة، والأعمال الصالحة والثبات إلى الموت لو لزم الأمر، وذلك لأنهم نالوا الخلاص بالإيمان بالمسيح. وتظهر معرفة بوليكاربوس برسالة إلى أهل فيلبي وغيرها من الرسائل وكتابات العهد الجديد، من اقتباساته: فهناك ستون اقتباسًا من العهد الجديد منها أربع وثلاثون من رسائل بولس Paul. لم يكن بوليكاربوس مهتمًا أكثر بتدعيم الحياة اليومية العملية للمؤمنين.

### د- رسالة برنابا Barnabas

تُعرف هذه الرسالة باسم "برنابا المزيف" Pseudo Barnabas إذ قام بكتابتها بكل تأكيد شخص غير برنابا المذكور في العهد الجديد. وتوجد دلائل في الرسالة نفسها تؤكد هذا الرأي، بالرغم من أن الكثيرين من آباء الكنيسة يربطون الرسالة ببرنابا المذكور في العهد الجديد. ويُعتقد أن هذه الرسالة كتبها أحد المؤمنين من الاسكندرية في نحو عام ١٣٠م.

وهذه الرسالة قصد بها أن تساعد المتجددين من الوثنية الذين حاول بعض المسيحيين من اليهود إقناعهم بحفظ ناموس موسى وذلك لاعتقادهم بأنه مازال ملزماً لهم. ويظهر الكاتب عدم صلاحية هذا الإدعاء في الأصحاحات السبعة عشر الأولى وذلك بتوضيح أن حياة المسيح وموته كافيان جداً لتحقيق الخلاص وأن المسيحي لم يعد ملزماً بحفظ الناموس. انتهى العهد الموسوي بموت المسيح. وتقدم الأصحاحات الأربعة الأخيرة مقابلة ما بين أسلوبين للحياة: "طريق النور" و "طريق الظلمة" حيث تشجع القارئ على أتباع الأسلوب الأول للحياة. وهذان الطريقان يذكروننا بالطريقين اللذين يصفهما كتاب الديداخي Didache (تعليم الرسل)، بحيث يستنتج المرء وجود علاقة وثيقة بينهما.

وقد استخدم كاتب هذه الرسالة رموز العهد القديم (١١٩ اقتباساً) إلى الدرجة التي جعلت من هذه الرسالة استعارة أو تشبيهاً في جملتها.(٣) فهو يشبه غلمان إبراهيم الـ ٣١٨ (٩:٩) كإشارة لموت المسيح على الصليب على أساس أن الحرف الأبجدي اليوناني للعدد ٣٠٠ له شكل الصليب وأن الأعداد اليونانية للرقم ١٨ هي الحرفين الأولين من اسم يسوع. كان الكاتب فخوراً جداً بهذا التفسير الفريد (٩:٩) لتكوين ١٤:١٤. وكان يتخطى باستمرار حدود التفسير الرمزي المقبول ويتجه نحو التشبيه والاستعارة Allegory بهدف استنباط المعاني التي أرادها من نصوص العهد القديم. وهذا الأسلوب تم استعارته من فيلو Philo الاسكندري الذي سعى لمصالحة الفلسفة اليونانية على العهد القديم باستخدام هذا الأسلوب ، وفيما بعد نظم أوريجانوس هذا المنهج في التفسير . وكان لهذا المنهج دوراً سلبياً على سلامة التفسير لنصوص الكتاب المقدس.

### هـ-الرسالة إلى ديوجين Diognetus

ربما كان مُعلم ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius الذي كان اسمه ديوجين هو الشخص الذي كُتبت له هذه الرسالة، والتي كتبها كاتب غير معروف أواخر القرن الثاني أو أوائل القرن الثالث. وقد صُنفت هذه الرسالة ضمن كتابات الآباء الرسوليين Apostolic fathers على أساس ما درج عليه التقليد، وذلك مع أن مضمون هذه الرسالة يضعها تحت الكتابات الدفاعية. ويقدم كاتبها دفاعاً منطقياً عن المسيحية وذلك بإظهاره جهالة الوثنية (أصحاحات ١-٢)، وعدم كفاية اليهودية (٣-٤)، وتميز المسيحية في معتقداتها، وفي تأثيرها على شخصيات تابعيها، والبركات التي تتضمنها لمعتنقيها (٥-١٢). وأيضاً يربط الكاتب دور المسيحي في العالم بالدور الذي يقوم به الروح في الجسد وذلك من خلال سلسلة من المقارنات الشيقة (٦).

### و- رسالة كليمندس Clement الثانية لأهل كورنثوس

تُعتبر هذه الرسالة من ضمن كتابات الآباء الرسوليين، بالرغم من أنها ليست رسالة بالمعنى المفهوم بل عظة أو محاضرة (١:١٩) ولم يكتبها كليمندس نفسه لأنها كُتبت حوالى عام ١٥٠ م. وقد اهتم الكاتب بالتنبير على الموقف السليم من المسيح، والإيمان بقيامة الأجساد، وطهارة الحياة بالنسبة للمؤمن. فبعد تأكيده التمهيدي على أهمية الخلاص (أصحاحات ١-٤)؛ يحث المؤمنين على الدخول في الصراع ضد العالم (٥-٧) وذلك بممارسة الفضائل المسيحية (٨-١٧) وبالتطبيق





العملي للخلاص الذي ينالونه بواسطة المسيح (١٨-٢٠). وتعتبر هذه الرسالة نموذجاً شيقاً لمضمون الوعظ في القرن الثاني.

### ز- بابياس Papias ( تقريباً ٦٠- ١٣٠)

كتب بابياس العمل المعروف باسم "تفسير أقوال الرب" Interpretations of the Sayings of the Lord حول منتصف القرن الثاني، وكان بابياس أسقف مدينة هيرابوليس في فريجية، وقد كتبه بغرض تسجيل المعلومات التي تسلمها من المسيحيين الأكبر منه سناً الذين عرفوا الرسل وعاصروهم شخصياً. ويحتمل أن بابياس نفسه كان تلميذاً ليوحنا John الرسول. وتقدم هذه الوثيقة سرداً لأحداث حياة الرب يسوع وتعاليمه وبالرغم من اختفاء هذه الوثيقة أى أنه يمكن الحصول على أجزاء منها في كتابات يوسابيوس Eusebius وإيريناوس Irenaeus. وتبين المقاطع التي تتضمنها كتابات إريناوس(٤) أن بابياس كانت لديه أراء قوية تحبذ الاعتقاد بالملك الألفي. أما المقاطع التي تضمنتها كتابات يوسابيوس(٥) فإنها تلقي ضوءاً على أصول رواية الأناجيل. ففيها يخبرنا أن مرقس كان المترجم الذي يساعد بطرس، وأن متى كتب إنجيله باللغة العبرية. ولعل هذه المقاطع الصغيرة وما تخبرنا به من معلومات قيمة تعطي للدارس فكرة عن التأثير الكبير لما كتبه بابياس على فهمنا للمعتقدات والعادات والكتابات التي سادت في زمن العهد الجديد.

## ثانياً: الكتابات الرؤوية

صيغت رسالة "الراعي" The Shepherd التي كتبها هرماس Hermas على نفس نمط سفر الرؤيا وغالباً تمت كتابتها نحو عام ١٥٠م، وقد اعتبر كاتب القانون الموراتوري Muratorian Canon أن هرماس هذا كان أخاً لبيوس أسقف روما ما بين عام ١٤٠-١٥٥.(٦)

ويذكرنا استخدام الكاتب للرؤى والاستعارات بما كتبه جون بنيان John Bunyan لكن للأسف لم يكن لهرماس نفس القدرة على التعبير التي كانت لجون بنيان. ومع أن هذا السفر مكتوب على شكل إعلان أو رؤيا تفيض بالرموز والرؤى، إلا أن الغرض من كتابتها كان أخلاقياً وعملياً في نفس الوقت. كان الكاتب عبداً لسيدة مسيحية من روما اسمها رودا، وقد اعتقته فأصبح رجل أعمال ثري. ولكنه أيضاً أهمل أسرته، فانزلقت أسرته في مهاوي الرذيلة والخطية. فما كان منه هو وزوجته إلا أنهما تابا معترفين بخطيتهما، لكن أولادهما تمردوا على الإيمان. ثم حدث أن فقد هرماس كل مقتنياته وأملاكه. ومن هذه الظروف مجتمعة خرج السفر الذي كتبه، الذي أراد به أن يقدم دعوة للخطاة للتوبة. وتعتبر الدعوة للتوبة ولحياة القداسة هي الفكرة الأساسية لهذا السفر. ورسالة هذا السفر أعطيت إلى هرماس Hermas بواسطة ملاك وامرأة. ويتألف القسم الأول من خمسة رؤى تنبر على الحاجة إلى التوبة باستخدام الرمز. ثم يتبع هذه الرؤى اثنى عشر وصية تمثل الدستور الأخلاقي الذي يجب أن يلتزم به الشخص التائب لكي يقدر أن يرضي الله. أما القسم الأخير فيتكون من عشرة أمثال تدور فكرتها الرئيسية حول أهمية التوبة في الحياة. وقد اهتم كاتب "الراعي" The Shepherd كثيراً بعلاقة المؤمن الفرد بالمجتمع المسيحي الذي هو الكنيسة.

## ثالثاً: الكتابات التعليمية

### (سؤال وجواب)

ظهر الكتاب الصغير الذي عرف باسم الديداخي Didache (تعليم الرسل) "Teaching of the Apostles" إلى النور في عام ١٨٧٣م، وذلك عندما اكتشفه مصادفة شخص اسمه برايينيوس فيلوثيوس Bryennios Philotheus في مكتبة كنيسة في القسطنطينية ونشره في عام ١٨٨٣ ويرجح أن يكون هذا الدليل الذي يحوي إرشادات كنسية، قد كتب وجُمع قبل منتصف القرن الثاني في الصورة التي وصل بها إلينا. إلا أن الكثيرين يتمسكون بأن تاريخ كتابته هو أواخر القرن الأول وذلك بسبب تشابه الكثير مما ورد فيه مع ممارسات كنيسة العهد الجديد. ويمكن لأي قارئ، حتى وإن كان غير متخصص، أن يكتشف تقسيم هذا العمل إلى أربعة أجزاء محددة جداً.

الجزء الأول، والذي يشبه كثيراً عرض طريقي الحياة اللذان تضمنتهما رسالة "برنابا المزيف" Pseudo Barnabas، عبارة عن مناقشة حول طريقي الحياة والموت (الأصحاحات ١-٦) وفيها يتم تقديم التصرف الأخلاقي الذي يتفق مع الحياة المسيحية في مقابلة مع أعمال أولئك الذين يسلكون طريق الموت. ثم يتناول الكاتب بعض المشكلات الإجرائية بخصوص الطقوس مثل المعمودية والأصوام والعشاء الرباني (٧-١٠). ثم نجد إرشادات عن كيفية التمييز ما بين الأنبياء الكذبة والأنبياء الحقيقيين، وكيفية اختيار الأشخاص المناسبين للوظائف الكنسية، وبعض الأمور التأديبية وتمثل هذه جميعها مضمون الجزء الثالث (١١-١٥). وتشير هذه الوثيقة بكل صراحة إلى أن الأنبياء الكذبة هم أولئك الأشخاص الذين يطالبون بالمأوى والمأكل دون تقديم أي مقابل للكنيسة في صورة التوجيه الروحي.

أما الجزء الأخير فيتناول الاحتياج إلى السهر والأمانة في الحياة في ضوء حقيقة مجئ المسيح ثانية ولعل ما سبق يساعد على كشف أهمية الديداخي باعتباره صورة للحياة في الكنيسة الأولى في الفترة ما بين ٩٥م-١٥٠م. والقارئ المجتهد الذي يعكف على كل الكتابات التي أشرنا إليها في هذا الفصل، سيجد في دراسته فائدة جزيلة من المعرفة والتشجيع ومما يؤسف له أن هذه الكتابات التي قُصد بها بنيان الكنيسة لاقت إهمالاً جسيماً من الكنيسة عبر العصور.

## اقتراحات للقراءة

*Goodspeed, Edgar.* A History of Early Christian Literature. *Revised and enlarged by Robert Grant. Chicago: University of Chicago Press, 1946 This work has illuminating introductions to and discussions of the nature and value of the writings of the Fathers.*

*Lake, Kirsopp.* The Apostolic Fathers. *Loeb Classical Library. New York: Putnam, 1930. These two volumes of this series contain a good translation of the Father's writings on





*the right-hand page and the original text on the left-hand page. This is one of the best translations of these primary sources.*

*Newman, albert.* A Manual of Church History. *Rev. and enlarged ed. Philadelphia: American Baptist Publication Society, 1933. The student will find pages 211 to 290 of volume 1 helpful for its presentation of the theology of these writers as well as for introductions to their writings.*

*Quasten, Johannes.* Patrology. *3 vols. Westminster, Md.: Newman, 1950-63. This series has scholarly accounts of the lives, works, and theologies of the Fathers.*

*Swete, Henry B.* Patristic Study. *3rd ed. New York: Longmans, 1904. Many will find this little manual useful in providing a historical background.*

*Tixeront, J.* A Handbook of Patrology. *Translated by S. A. Raemers. St. Louis: Herder, 1947. There are many excellent introductions to, and analyses of, the writings and the lives of the Fathers in this Roman Catholic work.*

*Williams, Robert R.* A Guide to the Teachings of the Early Church Fathers. *Grand Rapids: Eerdmans, 1960. The author quotes copiously from the sources on the major ideas of the church fathers in the context of their times and lives.*

## الفصل السادس

# مع الأساقفة والشمامسة

يتحقق وجود الكنيسة على مستويين. فعلى المستوى الأول تمثل الكنيسة كيانًا غير منظور ذا طبيعة أبدية ، مبنية على الكتاب المقدس وقد صاغها الروح القدس في جسد واحد. ومن الناحية الأخرى ترى الكنيسة على المستوى الثاني مؤسسة زمنية تاريخية منظورة ولها تنظيم بشري محدود. فان كان وجود الكنيسة على المستوى الأول هو الهدف من وجودها فإن وجودها على المستوى الثاني هو السبيل إلى تحقيق ذلك الهدف.

كانت مهمة تطوير الكنيسة كمؤسسة متروكة للرسل لكي يجتهدوا في تحقيقها تحت ارشاد وتوجيه الروح القدس. فكل كيان جماعي كبير لابد له من القيادات التي تقوم على إدارته، ومع نمو هذا الكيان، لابد أن ينتج عنه تنوع في الوظائف وهذا يؤدي حتمًا إلى تخصص القيادات، حتى يتمكن هذا الجهاز التنظيمي من العمل بكفاءة وقدرة. ولابد أن يظهر الاحتياج إلى صياغة نصوص ليتورجية تساعد على أن تكون العبادة في الكنيسة بكل ترتيب (١كو ١٤:٤٠) وهذه نتيجة منطقية لنمو الكنيسة كمؤسسة لها نظامها. والهدف الواضح للكنيسة باعتبارها كيان حي يقوم على العبادة هو نوع الحياة المتميزة، لذلك فالمؤمن المسيحي يرى نفسه جزءاً أصيلاً من كيان حي وفي نفس الوقت هو عضو في مؤسسة منظمة.

## أولاً : نظام إدارة الكنيسة

يرجع الفضل في تأسيس نظام إدارة الكنيسة إلى المسيح نفسه، وذلك لانه سبق فاختار الاثنى عشر رسولاً ليصبحوا قيادات الكنيسة الفتية. ولقد أخذ الرسل المبادأة في استحداث الوظائف الأخرى في الكنيسة عندما وجههم الروح القدس لذلك. ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن نفترض أن ذلك يشير إلى وجود تدرج أو تسلسل هرمي للقيادة، مثل الذي أفرزته الكنيسة الكاثوليكية التابعة لروما، وذلك لأن كل المسئولين الجدد كان يتم اختيارهم من قبل الشعب، ثم يقوم الرسل برسامتهم وتعينهم للخدمة، وكان يتمتع هؤلاء جميعاً بمؤهلات روحية خاصة من ضمنها قيادة الروح القدس المباشرة لهم.

فعلى ذلك كان هناك نوع من الدعوة الداخلية التي يوجهها الروح القدس لشغل الوظيفة، ثم تتبعها دعوة خارجية بواسطة التصويت الديمقراطي لأعضاء الكنيسة، ثم أخيراً تعيين

ورسامة الرسل للمرشحين لهذه المناصب. فلم يكن هناك مجال لوجود طبقة خاصة من الكهنة مخصصة للخدمة أو نظام كهنوتي للخلاص وذلك لأن كل الموظفين والقيادات وأعضاء الكنيسة مما كانوا يُعتبرون كهنة روحيين لهم حق التقدم مباشرة لله بالمسيح (أف ٢:١٨).

ويمكن تقسيم هؤلاء القادة الرسميين إلى فئتين، القيادات الكارزماتية (حيث تعني كلمة كاريزما اليونانية الموهبة) وهؤلاء يختارهم المسيح ويعطي لهم مواهب روحية خاصة (١كو ١٢-١٤، أف ٤:١١-١٢). وكان دورهم الهام الجماعة وتوجيهها. أما الفئة الأخرى فهم القادة والموظفون الإداريون، وكانت أدوارهم أساساً إدارية تنظيمية، وإن كان هؤلاء الشيوخ قد تصدوا بعد موت الرسل للعديد من المسئوليات الروحية، وكان هؤلاء المسئولين يتم اختيارهم بمعرفة شعب الكنيسة كله بعد الصلاة لطلب إرشاد الروح القدس، ثم يقوم الرسل بتعيينهم.

### (أ) القيادات الكاريزماتية

كان هؤلاء الأشخاص، وكانت مسئوليتهم الأولى هي الحفاظ على نقاوة رسالة الإنجيل وإعلانها للعالم في بداية خدمة الكنيسة، قد اختارهم المسيح بواسطة الروح القدس لكي يقوموا بعمل القيادة في الكنيسة. وكان عمل هؤلاء القادة الروحيين يتركز في أربع أو خمس وظائف يذكرها بولس Paul الرسول وهي رسل Apostles، أنبياء، مبشرون رعاة ومعلمون. ويرى الكثيرون أنه ربما كانت الكلمتان: رعاة ومعلمون تصنعان نفس الدور.

كان الرسل رجال عاينوا وشهدوا حياة المسيح وموته وبالأخص قيامته (أع ١:٢٢؛ قارن ١كو ١:١، ٨:١٥) وقد اختارهم المسيح ودعاهم بنفسه. وبولس نفسه أسس دفاعه عن دعوته الرسولية على أساس أنه تلقى هذه الدعوة شخصياً من المسيح المقام. فهؤلاء الرجال الذين كانوا أول قادة رسميين في الكنيسة الأولى قد جمعوا في خدمتهم كل الوظائف التي وزعت بين مسئولين متعددين في وقت لاحق عندما لم يستطع الرسل أن يباشروا بأنفسهم كل احتياجات الكنيسة الأولى بعد انتشارها ونموها السريع.

كان بطرس Peter هو الشخصية الرئيسية بين الرسل كما يبدو من الأصحاحات الاثنى عشر الأولى من سفر أعمال الرسل الذي كتبه لوقا تسجيلاً وافياً لتاريخ الكنيسة الأولى. فإلى جانب أن بطرس هو الذي قدم الإعلان الرسمي الأول للإنجيل لليهود في أورشليم في يوم الخمسين، فقد كان هو أيضاً أول من قدم الإنجيل للأمم عندما وعظ في بيت كرنيليوس. وبالرغم من هذه المكانة القيادية البارزة التي كانت لبطرس إلا أننا لا نستطيع أن نرى في العهد الجديد وما ذكره عن خدمة بطرس أي صورة عن المفهوم الذي ساد الكنيسة الكاثوليكية التابعة لروما في العصور الوسطى عن نظام التدرج القيادي والممارسة السلطوية للقيادة الروحية.

ويؤكد التقليد الذي يرجع إلى الكنيسة الأولى أن بطرس قد استشهد في مدينة روما. إلا أنه يوجد أيضاً تقليد يقول إن بطرس نجح في الهرب من سجنه في روما وشرع في الهرب من المدينة. ولكن المسيح ظهر له، فسأله بطرس إلى أين أنت





ذاهب ياسيد، فما كان من المسيح إلا أنه قال لبطرس إنه في طريقه إلى روما لكي يصلب ثانية. فندم بطرس على هربه، وأسرع عائداً إلى المدينة حيث أعدم مصلوبًا بناءًا على طلبه، وكما يقول أحد مصادر التقليد أنه طلب أن يصلب منكس الرأس لأنه لم يكن يشعر أنه مستحق أن يموت مثلما مات سيده.

كان يعقوب James بن زبدي حاضراً على جبل التجلي وكان موجوداً أيضاً في بستان جثسيماني. وكان أول من استشهد من الرسل الاثنى عشر، بعد أن قطع هيرودس أغريباس الأول رأسه في عام ٤٤م. ويعتبر الأسبان يعقوب قديسهم الخاص بهم. يظهر يعقوب أخو الرب (غل ١:٩) في المرتبة الثانية بعد بطرس في قيادة الكنيسة في أورشليم. وتظهر مكانته المرموقة في الكنيسة بكل وضوح في دوره القيادي في مجمع أورشليم الأول. وبينما يبدو موقفه أقرب إلى الشرائع اليهودية من موقف غالبية القيادات الأخرى في الكنيسة الأولى في أورشليم، إلا أنه قام بدور الوسيط ما بين المؤمنين من اليهود والمؤمنين من الأمم في المجمع الأول في أورشليم. وكان يعقوب غيوراً على حياة القداسة وكانت له حياة صلاة عميقة حتى إنه، بحسب أحد مصادر التقليد، كانت ركبتيه تشبه ركبتي الجمل من كثرة ركوعه عليهما للصلاة. وقد استشهد بأن تم ضربه بالعصي حتى الموت بعد إلقائه من على جناح الهيكل. وكان خلال ذلك كله ينطق بكلمات المغفرة كتلك التي استخدمها اسطفانوس عند استشهاده[1]. ولم يكن يعقوب أخو الرب واحداً من الاثنى عشر رسولاً.

أما يوحنا John فله مكانته إلى جانب بطرس Peter في قيادة الكنيسة الاولى. ويربط التقليد خدمة يوحنا في أواخر حياته بمدينة أفسس. وقد نفاه دوميتيان Domitian إلى جزيرة بطمس، وهي جزيرة صخرية منعزلة تقع في مقابل الساحل الغربي لآسيا الصغرى. وهناك كتب سفر الرؤيا. وبعد موت دوميتيان، سُمح له بالعودة مرة أخرى إلى أفسس، حيث بقي يخدم كنائس أسيا حتى وفاته في سن متقدمة.[2] ويمثل إنجيله مع الرسائل الثلاث وسفر الرؤيا جزءاً ثرياً من التراث الأدبي لكنيسة العهد الجديد. أما أندراوس Andrew أخو بطرس فقد خدم في أجزاء من الشرق الأدنى وسيكيثيا. وبحسب تقليد متأخر تم صلبه على شكل X وهو الصليب الذي عُرف من وقتها باسم أندراوس.

ولا نعرف كثيراً عن حياة فيلبس في نهاية أيامه ، ولكننا نعرف أنه مات ميتة طبيعية في هيرابوليس بعد خراب أورشليم. ولا نعرف شيئًا عن خدمة وموت يعقوب بن حلفي أو يعقوب الصغير James the Less. أما ما يقوله التقليد عن تداوس Thaddaeus فهو أنه خدم في فارس (إيران) واستشهد هناك. أما متياس Matthias الذي أخذ مكان يهوذا، فقد خدم في أثيوبيا حيث استشهد أيضاً بحسب رواية معينة. استشهد سمعان الغيور Simon Zelotes أيضاً.

ولم يوضح التقليد الأسلوب الذي استشهد به برتلماوس Bartholomew ولكن اقترن اسمه بتوصيل الإنجيل إلى الهند بحسب إحدى روايات التقليد. ويقال أيضاً إن متى Matthew ذهب إلى أثيوبيا هو الآخر. أما اسم توما أكثر التلاميذ تشككًا فقد ارتبط بجهود تبشير بارثيا، ولكن بعض

مصادر التقليد الأخرى تربط خدمته واستشهاده بالهند. الا أن صمت العهد الجديد وإغفاله ذكر مصير أولئك الرجال[٣] بل ما أقل ما نقله التقليد عنهم مما يعتبر مذهلاً إذا ما قورن بميل الكنيسة في القرون الوسطى إلى تمجيد وتعظيم الذين يموتون من قادتها.

يظهر الأنبياء Prophets في كنيسة العهد الجديد بين أكثر القادة نفوذًا وتأثيرًا فيها. وكانت مهمتهم هي المناداة أو الكرازة بالإنجيل (أع ١:١٣، ٣٢:١٥) إلى جانب التنبؤ بما سيحدث في المستقبل. تنبأ أغابوس Agabus عن المجاعة المزمع حدوثها وعن سجن بولس Paul على يد اليهود وتم ما تكلم به (أع ٢٨:١١، ٢١:١٠-١٤). ويستدل على أن الكنيسة الأولى عانت كثيراً من العديد من الذين ادَّعوا النبوة، ويظهر ذلك في كتاب الديداكي Didache (تعليم الرسل) الذي يقدم إرشادات واضحة عن كيفية التمييز بين الأنبياء الكذبة والأنبياء المرسلين من الله (٧:١٠ ، ٧:١١-١٢).

مارس فيلبس موهبة التبشير أو الكرازة (أع ٨:٢١) ولكننا لا نعرف الكثير عن هذه الوظيفة ولا عن مهامها المحددة. ويحتمل أنها تشير بشكل خاص إلى المبشرين المتجولين الذين كانت مهمتهم الأولى هي المناداة بالإنجيل في مناطق جديدة لم يصل إليها نور الإنجيل بعد. وتظهر أيضاً المشكلة التي تدور حول ما إذا كان يقوم بوظيفة الراعي والمعلم شخص واحد وبذا يعتبر كل منها وصفاً لأحد أدوار هذا الشخص أم أنها تشير إلى وظيفتين يقوم بكل منهما شخص مختلف. والعهد الجديد واضح جداً في شرح كيف يمكن أن نميز المعلم الأصيل عن غيره. فلا يمكن أن يكون معلماً حقيقياً من ينكر مجئ المسيح شخصياً إلى العالم وظهوره كإنسان كامل في الجسد وذلك بحسب ما كتبه يوحنا الرسول في (٢يو ١-١١) ونجد أيضاً وصفًا لصفات المعلم الحقيقي في الديداكي (تعليم الرسل١١:١-٢).

## ب) الوظائف الإدارية (التدبيرية)

كل الوظائف التي تم شرحها كان التعيين فيها من قبل الله بشكل خاص وليس من قبل البشر. إلا أن هناك فئة أخرى من الوظائف الكنسية كان يتم انتخاب شاغليها بالأسلوب الديمقراطي أي "بإجماع الكنيسة كلها".[٤] وكانت مهمتهم هي التصدي لكل المهام التدبيرية في نطاق كنيسة معينة. كان الرسل هم الذين يحددون المؤهلات اللازم توافرها فيمن يشغلون تلك المناصب وكانوا يعينونهم في وظائفهم بعد أن يختارهم شعب تلك الكنائس. وعلى عكس الرسل وغيرهم من القيادات الكاريزماتية؛ كان هؤلاء الرجال، وأحياناً بعض النساء، يعملون ويمارسون سلطانهم في نطاق الكنائس المحلية وليس في نطاق كنيسة المسيح ككل.

وقد نمت هذه الوظائف مع مرور الوقت نتيجة تعدد الأدوار والاختصاصات التي أملتها الحاجة لتقديم المعونة للرسل الذين زادت عليهم الأعباء والمشكلات بعد تزايد نمو الكنيسة، وربما كان نمط المجمع اليهودي الذي يقوم على القيادة فيه مجموعة من الشيوخ Elders يديرون الشئون المحلية. من العوامل التي أدت إلى استحداث مثل هذه الوظائف.





كانت وظيفة الشيخ أو المدبر هي الأعلى في الكنيسة المحلية. ويتمسك الذين يعتقدون بوجود تنظيم ثلاثي في الكنيسة بأن وظيفة الشيخ Presbyteros ووظيفة الأسقف Episkopos ليستا متطابقتين أو مترادفتين بل تمثلان وظيفتين مختلفتين يقوم بهما شخصان مختلفان. إلا أن العهد الجديد واضح جداً في ربطه هذين الإسمين بنفس الوظيفة (أع ٢٠:١٧، ٢٨، في ١:١، تيط ١:٥، ٧). ولم تتطور وظيفة الأسقف لتأخذ النمط الهرمي لممارسة السلطة إلا بعد نهاية العصر الرسولي في القرن الثاني الميلادي.

ونجد أن العهد الجديد يقدم تحديداً واضحاً لمؤهلات الشيخ في موضعين على الأقل (١تيمو ٣:١-٧، تيط ١:٥-٩). فقد كان المطلوب من الشيوخ أن يكونوا ذوو سمعة طيبة بين أعضاء الكنيسة ولدى الذين هم من خارج أيضاً. ويبدو أن قيادة خدمات العبادة العامة كانت من أهم مهامهم (١تيمو ٥:١٧، تي ١:٩) إلى جانب التدبير الحسن لشئون الكنيسة وحفظ النظام بين أعضائها.

أما الشمامسة Deacons فقد كان لهم موقع أقل من الشيوخ، ولكن المرشحين لهذه الوظائف كانوا يخضعون لنفس النظام الدقيق الذي يستلزم وجود مؤهلات معينة في حياتهم كما هو الحال مع الشيوخ. (أع ٦:٣، ١تيمو ٣:٨-١٣). وقد أمر الرسل في أورشليم بإجراء الاختيار الديمقراطي للشمامسة (أع ٦:٣، ٥). وكانت المهمة الأساسية التي أوكلت إلى هؤلاء الشمامسة هي الإشراف على أعمال الخير في الكنيسة، ولكن في أوقات لاحقة صاروا يعاونون الشيوخ في تقديم فريضة العشاء الرباني للشعب. ويبدو أن النساء أيضاً كان مسموحاً لهن بشغل هذه الوظيفة في عصر الرسل، لأن بولس Paul يذكر فيبي Phoebe الخادمة ويشهد عنها خيراً (رو ١:١٦). وكان لفيلبس Philip المبشر أربعة بنات وكن جميعهن يتنبأن (أع ٢١:٩)، ولكن بولس كان محدداً في توجيهه بألا تكون المرأة من ضمن المعلمين في الكنيسة (١كو ١٤:٣٤، ١تيمو ٢:١٢).

انتهى تحديد الوظائف المطلوبة للكنائس المحلية وتحديد واجبات ومؤهلات كل منها مع نهاية القرن الأول. وقد نمت المسيحية بسرعة في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني. بعد أن تحددت رسالتها في المناداة بالخلاص بالإيمان في المسيح، وتزايد تراثها المكتوب بما دونه الرسل، وترسخ شكلها ونظامها الإداري بما يتلاءم مع احتياجاتها المختلفة.

## ثانيا: العبادة في الكنيسة الأولى

يبدو أن ممارسة العبادة كانت من ضمن اهتمامات الكنيسة منذ عصر الرسل. فقد كان على بولس أن يناشد أهل كورنثوس أن يمارسوا عبادتهم بكل لياقة وترتيب.(١كو١٤:٤٠). بل إن المسيح نفسه حدد جوهر العبادة الحقيقية وذلك عندما أعلن أن الله روح لذا فالعبادة الحقيقية ينبغي أن تكون بالروح أيضاً (يو ٤:٢٤). والعبادة فعلياً هي تطلع الإنسان إلى أعلى بروحه وذلك من خلال الممارسات الدينية التي تدخل النفس إلى حضرة الله.

ولم يكن المسيحيون الأوائل يفكرون في الكنيسة كمبنى أو مكان للعبادة بحسب الاستخدام

المعتاد للكلمة اليوم. بل كانت الكنيسة بالنسبة لهم تشير إلى جسد أو كيان من الأفراد الذين تربطهم علاقة شخصية مع المسيح. وكانت هذه الجماعة تجتمع في البيوت (أع ١٢:١٢، رو ١٦:٥، ٢٣ كو ١٥:٤، فليمون ١-٤) أو في الهيكل (أع ٥:١٢)، أو في أماكن اجتماع عامة أو في مدرسة (أع ١٩:٩) وأيضاً في المجامع طالما كان يسمح لهم بذلك (أع ١:١٤، ٣، ١:١٧، ٤:١٨). لم يكن المكان مهماً لهم بقدر ما كان الهدف من الاجتماع هو المهم وذلك للشركة بعضهم مع بعض وتقديم العبادة لله.

وخلال القرن الأول، كانت تعقد خدمتان في اليوم الأول من كل أسبوع، وكانت الكنيسة قد تبنت اليوم الأول من الأسبوع باعتباره يوم العبادة باعتبار أنه هو اليوم الذي قام فيه المسيح من الأموات (أع ٢٠:٧، ١كو ١٦:٢، رؤ ١:١٠). وكانت الخدمة الصباحية تتضمن قراءة الكلمة (كو٣:١٦)، كلمة وعظ وتشجيع من الشيخ المتقدم مع صلوات وترانيم (أف ٥:١٩). وكانوا يقيمون ولائم محبة (١كو ١١:٢٠-٢٢) أو ولائم الأغابيه قبل ممارسة فريضة العشاء الرباني في الخدمة المسائية. ومع نهاية القرن الأول جرى العرف على عدم إقامة ولائم المحبة وأن يتم ممارسة العشاء الرباني والتناول في الخدمة الصباحية للعبادة ويصف بليني المسيحيين للإمبراطور تراجان بأنهم أولئك الناس الذين يجتمعون قبل طلوع النهار، ليرنموا ترنيمات ويقطعوا عهوداً على أنفسهم بأن يعيشوا حياة أخلاقية متميزة.[5] وتتوفر لدينا معلومات أكثر تحديداً وتكاملاً عن ترتيب العبادة في الكنيسة في أواسط القرن الثاني، ويمكن الرجوع إليها في الرسالة الدفاعية الأولى First apology لجاستن الشهيد Justin Martyr وفي كتاب تعليم الرسل (الديداكي) Didache.[6]

فقد كانت الخدمة التي تعقد في "يوم الشمس (الأحد) تبدأ بقراءة من "ذكريات الرسل" أو "كتابات الأنبياء" وذلك لفترة ما بحسب ما يسمح الوقت. ثم كانت تقدم موعظة تشجيعية أو تفسيرية مبنية على الفصل الذي تمت قراءته وكان "الرئيس" هو الذي يلقي هذه الموعظة. ثم كان الشعب يقف للصلاة. أما الاحتفال بعشاء الرب فكان يتبع تبادل قبلة السلام. وكانت عناصر التناول – الخبز و"الخمر المخلوط بالماء" تكرس بتقديم الشكر والصلاة التي يرد الشعب عليها بكلمة "آمين". ثم يتقدم الشمامسة لتوزيع التناول في منازل أولئك الذين لم يتمكنوا من حضور الاجتماع. وفي النهاية كانوا يجمعون تقدمة تخصص لمساعدة الأرامل والأيتام، والمرضى والمسجونين والغرباء. ثم يُصرف الاجتماع، حيث ينطلق كل واحد إلى بيته.



*من النقوش الموجودة في سراديب كاليستوس، يصور هذا الرسم معمودية أحد المتجددين حديثًا.*





كان العشاء الرباني Lord's Supper والمعمودية هما الفريضتان اللتان مارستهما الكنيسة الأولى وذلك لأن المسيح نفسه هو الذي أسسهما. كانت المعمودية تتم بالتغطيس في أغلب الأحيان وفي معظم الأماكن خلال القرن الأول، ولكن، وبحسب ما جاء في الديداكي، كان يمكن أن تتم المعمودية بسكب الماء على رأس طالب المعمودية لو لم يكن هناك نبع ماء جارٍ أو لم يكن هناك كمية ماء كبيرة متاحة.[7] ولم يكن مسموحاً إلا للذين قبلوا المعمودية أن يشتركوا في العشاء الرباني.

## ثالثاً : حياة الكنيسة الأولى

لم تكن الكنيسة الأولى Early Church تعيش في ظل دولة غنية راغبة في فعل الخير وتحقيق رفاهية مواطنيها تساعد الفقير والمريض. لذلك كان على الكنيسة أن تأخذ على عاتقها هذه المسئولية. كان المال الذي يجمع من القادرين على العطاء في التقدمة، التي تعقب العشاء الرباني تخصص لمواجهة هذه الاحتياجات. ويذكر الرسول بولس Paul أيضاً هذه الممارسة وهي جمع التقدمات من المؤمنين كل أسبوع (١كو١٦:١-٢). وكان الشمامسة يستخدمون هذه التقدمات للعناية بأصحاب الحاجة. وكانت سيدات الكنائس تساعدن أيضاً في هذا العمل الخيري وذلك بصنع الملابس للذين يحتاجونها (أع٩:٣٦-٤١).

لم تهاجم الكنيسة نظام العبودية في المجتمع بشكل مباشر، بل ولم يُمنع اقتناء العبيد بين أعضاء الكنائس. إلا أن المسيحية سرعان ما نجحت في التأثير على نظام ملكية العبيد وذلك بحث المسيحيين سادة كانوا أم عبيداً على أن يتذكروا أن المسيح جعلهم إخوة بعضهم لبعض. والذي يقرأ الرسالة البليغة التي كتبها بولس لفليمون، الذي كان قائداً للكنيسة في كولوسي، لابد أن يتكون لديه الانطباع بأن فيليمون باعتباره مؤمناً غيوراً سوف يعطي أنسيمس حريته.

أصرت الكنيسة الأولى على انفصالها التام عن ممارسات المجتمع الروماني الوثنية، إلا أنها لم تصر على الانفصال والانعزال عن الأعضاء الآخرين في المجتمع من الوثنيين في جميع مجالات العلاقات الإنسانية الاجتماعية التي ليس لها منها ضرر. بل إننا نجد بولس يشجع المؤمنين على مثل هذا الاختلاط مع الغير طالما لا ينتج عن مثل هذا الاختلاط أي تضحية أو تفريط في المبادئ المسيحية (١كو ٥:١٠، ١٠:٢٠-٣٣). إلا أن بولس على كل حال حبذ وشجع على الانفصال التام عن أي ممارسة يمكن أن تكون متصلة بأي شكل بعبادة الأوثان أو بالفسق الذي ارتبط بها. وكان على المؤمنين أن يلتزموا بمبدأ الاقلاع عن أي شئ يمكن أن يضر جسد المسيح الذي اقتناه بدمه (١كو ٦:١٢)، وألا يعملوا شيئاً يمكن أن يعثر أحداً من غير المؤمنين ويمنعه عن قبول المسيح أو يعثر أحد المؤمنين الجدد فيرجع إلى الضلال (١كو ٨:١٣، ١٠:٢٤)، وأن يتجنبوا الاشتراك في أي شئ لا يمجد الله (١كو ٦:٢٠، ١٠:٣١). وكانت من نتائج الالتزام بهذه المبادئ أن امتنع المؤمنون عن الذهاب إلى المسارح أو الملاعب أو الهياكل التي يذهب إليها الوثنيون.

وبالرغم من هذا الاتجاه للانفصال الأخلاقي والروحي، إلا أن المؤمنين الأوائل كان لديهم الرغبة والاستعداد للقيام بالتزاماتهم المدنية بطاعة

واحترام السلطات المدنية، دفع الضرائب، ورفع الصلوات من أجل كل من هو في منصب رسمي وكان بولس Paul الرسول يشجعهم على ذلك (رو ١٣: ٧، ١تيمو ٢: ١-٢). كان المؤمنون مواطنين ممتازين طالما لم يطلب منهم ما يسئ إلى ولائهم المطلق لله، السلطان الأعلى الذي يلتزمون بطاعته.

تأثر المجتمع الوثني في الإمبراطورية الرومانية تأثيراً كبيراً بما رآه في المسيحيين الأوائل من طهارة الحياة والمحبة، والشجاعة التي واجه بها بعضهم الموت من أجل مبادئهم، حتى لم تمضي سوى ثلاثة قرون على موت المسيح وقيامته حتى اعترف قسطنطين إمبراطور روما رسمياً بأهمية المكانة التي تشغلها المسيحية في الإمبراطورية مما جعله يدعو لعقد مجمع نيقية والإشراف عليه.

## اقتراحات للقراءة

*Schaff, Philip.* History of the Apostolic Church. *New York: Scribner, 1869. Pages 433-92 and 545-86 have excellent discussions of the topics considered in this chapter.*



صراع الكنيسة الأولى من أجل البقاء في الإمبراطورية الرومانية ١٠٠-٣١٣

*الفصل السابع*

# المسيح أم قيصر

واجهت المسيحية دائمًا مشاكل داخلية وخارجية في كل فترة من تاريخها الطويل. كان على الكنيسة أن تواجه المشكلة الداخلية الخطيرة التي تمثلت في الهرطقات والتعاليم الخاطئة وأن تتعامل معها في الفترة ما بين عامي ١٠٠-٣١٣م، وفي ذات الوقت ، كان عليها أن تجد حلاً للمشكلة الخارجية التي تمثلت في الاضطهاد الواقع عليها من قبل الإمبراطورية الرومانية.

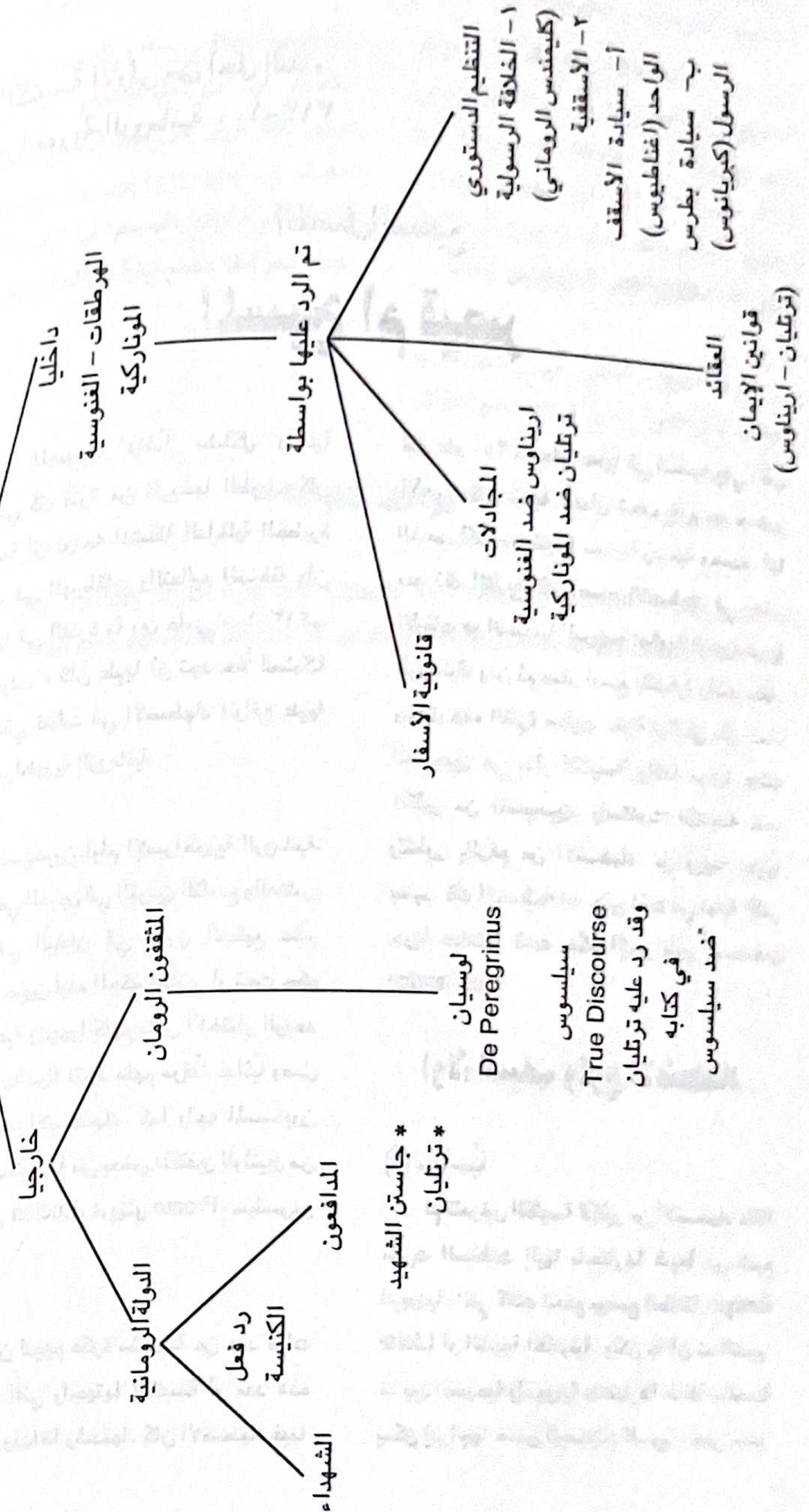
واجه المسيحيون أيام الإمبراطورية الرومانية، والنساطرة في الصين في القرنين التاسع والعاشر، والكاثوليك في اليابان في القرن السابع عشر وأيضًا المسيحيون أيام الحكم النازي أو تحت حكم الدول الشيوعية واجهوا كلهم نفس الاختبار الواحد ألا وهو مواجهة دولة تتخذ منهم موقفًا عدائيًا وصل أحيانًا إلى حد الاستشهاد. كما واجه المسيحيون أيضًا هجمات شرسة من بعض المثقفين الوثنيين من أمثال لوسيان Lucian، فرونتو Fronto، سيلسوس Celsus.

والكثيرون لديهم فكرة مشوشة عن عدد مرات الاضطهادات التي واجهتها الكنيسة أو مدد هذه الاضطهادات ومداها وشدتها. كان الاضطهاد فيما قبل عام ٢٥٠ م محليًا عفويًا في أساسه وفي أغلب الأحيان كان نتيجة لأعمال شغب يقوم بها جمهور الشعب أكثر منه نتيجة سياسة رسمية محددة. أما بعد ذلك التاريخ فقد أصبح الاضطهاد في بعض الأوقات هو السياسة المدروسة لحكومة الإمبراطورية الرومانية، ومن ثم صار أوسع انتشاراً وأشد عنفًا. وخلال هذه الفترة صارت مقولة ترتليان بأن "دماء المسيحيين هي بذار الكنيسة" واقعًا مرعبًا عاشه الكثير من المسيحيين. واستمرت الكنيسة تنمو وتتطور بالرغم من الاضطهاد، بل وربما جزئيًا بسبب تلك الاضطهادات حتى نالت في نهاية الأمر حرية عبادتها تحت حكم الإمبراطور قسطنطين Constantine.

## - أولاً: أسباب وقوع الاضطهاد

(أ) سياسيًا

لم تتعرض الكنيسة للكثير من الاضطهاد طالما نظرت السلطات إليها باعتبارها شيعة من شيع اليهودية، التي كانت تتمتع بوضع الطائفة Religio Licita أو الشيعة القانونية. ولكن ما أن تم التمييز ما بين المسيحية واليهودية واعتبارها طائفة منفصلة يمكن إدراجها ضمن الجمعيات السرية، حتى صدر






الحظر عليها من قبل الدولة الرومانية، التي لم تكن تحتمل أو تتسامح ومع وجود من ينافسها على ولاء رعاياها الكامل. فأصبحت المسيحية بذلك ديناً غير قانوني، واعتبرت تهديداً لسلامة الدولة الرومانية. كانت الدولة هي الخير الأعظم في اتحاد الدين والدولة ولم يكن هناك أي مجال لدين خاص. ويمكن التسامح مع الدين طالما أدى إلى استقرار الدولة.

ولأن المسيحية، التي كانت تنتشر بسرعة، كانت لا تسمح لمن يقبلون المسيح بأقل من الولاء الكامل للمسيح روحياً وأخلاقياً، وعندما كان يواجه المسيحي الاختيار بين المسيح وقيصر كان لابد أن يأخذ قيصر المكان الثاني بعد المسيح. وقد اعتبر قادة الدولة الرومانية، الغيورين على الحفاظ على ثقافتهم الكلاسيكية في إطار النظام الإمبراطوري، هذا الموقف من المسيحيين موقف خيانة وعدم ولاء للدولة. بل ورأوا في المسيحيين فئة تحاول إقامة دولة في داخل الدولة. فإما أن تكون الدولة الرومانية هي الدولة الجامعة أو أن تكون الكنيسة هي الكنيسة الجامعة، لذلك رأوا وجوب تنحية الكنيسة – جسد المسيح – جانباً. لقد تصادمت سيادة المسيح المطلقة مع دعاوي قيصر المتعالية بأن له وحده السلطة المطلقة.

بل إن الكثير من الممارسات المسيحية ساهمت في تأكيد شكوك السلطات الرومانية من جهتهم ومن جهة عدم ولائهم للدولة. فقد كان المسيحيون يرفضون بإصرار تقديم البخور على المذابح المخصصة لعبادة الإمبراطور، مع ارتباط تكريم الإمبراطور بتحقق الرخاء والرفاهية لكل المجتمع في ذهن العامة طوال فترة الحكم الإمبراطوري من وقت أغسطس قيصر Ceasar Augustus وحتى وقت قسطنطين Constantine. فإن قدم شخص تقدمته على هذه المذابح، صار له الحق في أن يعتنق أي دين يشاء حسب استحسانه. إلا أن المسيحيين رفضوا أن يقدموا مثل هذه التقدمات، مما استتبع إشاعة الظن بعدم ولائهم للدولة. وكان المسيحيون أيضاً يعقدون معظم اجتماعاتهم في الليل وفي الخفاء. ولم تر السلطات الرومانية في ذلك سوى أنهم يدبرون المؤامرات ضد أمن وسلامة الدولة. ولم يكن المسيحيون يقبلون الخدمة في الجيش وذلك حتى عام ٣١٣.

(ب) دينياً

كانت هناك بعض الأسباب الدينية وراء الاضطهاد إلى جانب ما سبق عرضه من أسباب سياسية أساسية. كان الدين السائد في الدولة الرومانية طقس خارجي روتيني يشتمل على الأصنام، الكهنة والمذابح، والموكب والطقوس والممارسات التي يمكن للناس مشاهدتها والاشتراك فيها. ولم يعترض الرومان على إضافة أي وثن جديد للمجموعة التي كانت لديهم في مجمع الآلهة طالما كان ذلك الإله الذي يمثله الوثن الجديد مستعداً أن يكون خاضعاً لدين الدولة الرسمي. أما المسيحيون فلم يكن لديهم أي صنم وليس لديهم سوى أقل القليل من المظاهر الخارجية كأي عبادة معروفة. كانت عبادتهم روحية وداخلية. وعندما كانوا يقفون للصلاة وهم يغمضون أعينهم، لم يكن يظهر للعيان لمن يوجهون صلاتهم. ولم يكن لدى الرومان تصنيف لمثل هذه الممارسات سوى الإلحاد ذاته، وذلك لأن الرومان كانوا معتادين على الإعلان والإظهار المادي الرمزي لآلهتهم. وكانت سرية اجتماعات المسيحيين سبباً في توجيه التهم الأخلاقية ضدهم. وكانت الشائعات المنتشرة بين

العامة تدينهم بممارسة زواج المحارم وأكل لحوم البشر والممارسات غير الطبيعية.

وكان هناك دائماً نوع من سوء الفهم حول معنى عبارة "أكل وشرب" العناصر التي تشير إلى جسد المسيح ودمه، وأدى هذا اللبس إلى انتشار إشاعة أن المسيحيين يقتلون الأطفال ويقدمونهم ذبائح لإلههم. وأيضاً أسيء فهم تعبير "قبلة السلام" وتم تفسيرها في إطار اتهامات أخلاقية موفوضة من الرومان. ولم يختلف الأمر كثيراً بكون هذه الإشاعات ليس لها أساس من الصحة.(1)

### (ج) اجتماعياً

ساهمت المشاكل الاجتماعية بنصيبها في جلب وتشجيع اضطهاد الدولة الرومانية للكنيسة. فالمسيحيين بما اشتهروا به من اهتمام وقدرة على جذب العبيد والطبقات الفقيرة من المجتمع، اكتسبوا لأنفسهم كراهية واحتقار القيادات الارستقراطية ذات النفوذ في المجتمع. كان هؤلاء القادة ينظرون إلى المسيحيين باحتقار ولكنهم في نفس الوقت كانوا يخشون تأثيرهم على الطبقات الدنيا من المجتمع. دافع المسيحيون عن حق المساواة بين كل البشر (كو ٣:١١)، في الوقت الذي أصرت فيه الوثنية على وجوب وجود نظام طبقي للمجتمع بحيث يخدم العبيد والطبقات الدنيا قلة قليلة من الأرستقراطيين.

فصل المسيحيون أنفسهم عن أماكن الوثنيين سواء في الهياكل أو المسارح وأماكن الترفيه المختلفة. وأدى هذا التمايز عن الأنماط الاجتماعية السائدة إلى تنامي مشاعر الرفض للمسيحيين في المجتمع باعتبارهم إنفصاليين إنعزاليين. كانت طهارة الحياة التي يعيشها المسيحيون تمثل نوعاً من التوبيخ الصامت للحياة المشينة التي عاشها أفراد الطبقة العليا. وقد أدى عدم رغبة المسيحيين في التشبه بالأنماط الاجتماعية السائدة إلى اعتقاد الوثنيين أنهم يمثلون تهديداً للمجتمع ووصفوا بأنهم "أعداء الإنسانية" يمكن أن يثيروا الجماهير ويدفعوهم للتمرد والثورة.

### (د) اقتصادياً

لا ينبغي أن ننسى أن الاعتبارات الاقتصادية بدورها كان لها تأثير في تشجيع اضطهاد المسيحيين. فالمقاومة التي واجهها بولس Paul من صانعي تماثيل الأوثان في أفسس، والذين كانوا يخشون خطر المسيحية على صناعتهم أكثر من اهتمامهم بتأثيرها السلبي على عبادة ديانا (أع ١٩:٢٧)، تعطي لنا فكرة عن مشاعر هؤلاء المتضررين الذين تهددت أرزاقهم بسبب انتشار المسيحية. فلا يمكن أن نتوقع من الكهنة وصناع التماثيل وقارئ الطالع والرسامين والمعماريين والنحاتين الحماس تجاه الدين الجديد الذي جاء يهدد مصدر رزقهم.

كان عام ٢٥٠م، وهو العام الذي صار فيه الاضطهاد عاماً وأكثر عنفاً بدلاً من كونه محلياً وعفوياً، كان ذلك العام بحسب التقويم الروماني يقع بعد ألف عام من تأسيس مدينة روما. وحيث أن الإمبراطورية تعرضت في ذلك الوقت لسلسلة من الأوبئة والمجاعات والقلاقل السياسية، ونسب الرأي العام وقوع تلك المشاكل إلى وجود وانتشار المسيحية في ربوع الإمبراطورية، وإلى تسبب المسيحية في ترك الكثيرين لعبادة الآلهة القديمة. والواقع أنه دائماً ما يصحب نهاية كل ألف من





السنين قدر كبير من المعتقدات الخرافية. ولم يختلف الرومان كثيراً عن الناس الذين عاشوا في العصور الوسطى قبل عام ١٠٠٠م. وبدا اضطهاد المسيحيين في ذلك الوقت حلاً مناسباً بالنسبة للرومان للتخلص من مشتكلهم.

وتضافرت كل هذه الاعتبارات لتبرير اضطهاد المسيحيين في أذهان السلطات التي قامت به. لم تتوفر كل هذه العوامل مجتمعة في كل موقف أو حالة، لكن مطالب الدين المسيحي من حياة أتباعه تعارضت بشدة في معظم الأحيان مع أسلوب التوافق مع الوثنية ومطالبة الدولة الرومانية بولاء رعاياها المطلق. وقع الاضطهاد كنتيجة طبيعية لسياسة الإمبراطورية لحفظ أمنها وسلامها. فلم تكن المسيحية من ضمن الديانات المعترف بها أو المصرح لها بالوجود. وقدمت المسيحية من شهدائها ومنطلق المدافعين عنها جواباً على ثورة الجماهير وبطش السلطات وهجوم الكتاب من الوثنيين عليها.

## ثانياً: اضطهاد الكنيسة

وقع الاضطهاد على الكنيسة من مصدرين أحدهما ديني والآخر سياسي. فقد كان اليهود هم مضطهدو الكنيسة في بداية عهدها في أورشليم. ولم يبدأ الاضطهاد السياسي المنظم للكنيسة من قبل الدولة الرومانية إلا أثناء حكم نيرون Nero (٥٤-٦٨). ولكن حتى هذه الاضطهادات ظلت ذات طبيعة محلية وعفوية حتى عام ٢٥٠م، عندما تطورت لتصبح عامة، تشمل كل أنحاء الإمبراطورية، وأكثر عنفاً وكانت بدايتها الفعلية هي الاضطهاد الذي وقع في حكم ديسيوس Decius.

### (أ) الاضطهادات حتى عام ١٠٠م

اشتهر نيرون بأنه أول شخص كرّس جهده لاضطهاد الكنيسة المسيحية. وقد سجل تاسيتوس Tacitus المؤرخ الإشاعة التي تقول إن نيرون كان وراء الأمر بإشعال الحريق الذي دمر أجزاء من مدينة روما. كانت تلك الإشاعة منتشرة جداً بين الشعب لدرجة أن نيرون فكر في كبش فداء يلقي عليه اللوم في هذا الأمر. فحول المشاعر التي كانت موجهة ضده بجملتها نحو المسيحيين الذين اتهمهم بحرق المدينة عمداً، وقد اشترك هو شخصياً في موجة عارمة من التدمير لكل ما هو مسيحي.

ويبدو أن هذا الاضطهاد تركز وانحصر في مدينة روما وما حولها.(2) وقد مات كل من بولس Paul وبطرس Peter في تلك الفترة. بدأ الاضطهاد مرة أخرى في عام ٩٥م أثناء حكم دومتيان Domitian الاستبدادي. رفض اليهود دفع ضريبة معينة تم فرضها لتمويل بناء هيكل لجوبيتر Jupiter. ولأن المسيحيين كانوا ما زالوا يحسبون من ضمن اليهود، فإنهم تعرضوا لغضب الإمبراطور وبطشه وقد تم نفي الرسول يوحنا John إلى جزيرة بطمس في أثناء هذا الاضطهاد، وهناك كتب سفر الرؤيا.

### (ب) المسيحية تحت الخطر (١٠٠-٢٥٠م)

حدث أول اضطهاد منظم للمسيحية، عندما كان المسيحيون يحضرون إلى المحاكم كمتهمين، حدث هذا أولاً في بيثينية أثناء ولاية بليني Pliny الصغير، حوالي عام ١١٢م وقد كتب بليني رسالة إلى الإمبراطور تراجان Trajan، يشرح له فيها ما جمعه من معلومات عن المسيحيين، ويحدد سياسته من جهتهم، ويطلب من الإمبراطور موافاته برأيه

وحكمه في الأمر. كتب يقول: إن عدوى هذه البدعة (المسيحية) قد انتشرت في القرى والمناطق الريفية كما انتشرت في المدن الكبيرة لدرجة أن المعابد صارت مهجورة تقريباً، وأصاب تجار الحيوانات التي تقدم ذبائح البوار والفقر". ومضى بليني يشرح لتراجان الإجراءات التي يتخذها في معاملة المسيحيين. فعندما يبلغ أحد عن شخص أنه مسيحي، يتم القبض عليه، ويحضر إلى محكمة الوالي الذي يسأله ثلاث مرات إن كان مسيحياً فعلاً فإذا استمر هذا الشخص متمسكاً بإقراره أنه مسيحي يحكم عليه بالموت.

أكد تراجان في رده على بليني أنه إنما يتبع الإجراءات الصحيحة، وأنه لا ينبغي أن يتم السعي في أثر شخص مسيحي أو القبض عليه إلا في حالة إتهام الآخرين له بكونه مسيحياً، وعندئذ ينبغي أن يعاقب المسيحي ما لم يرجع ويقدم العبادة اللائقة لآلهة الرومان.[٣] وقد استشهد إغناطيوس خلال هذه الموجة من الاضطهاد. وقع اضطهاد أخر في سميرنا في نحو منتصف القرن الثاني. وأيضاً كان هذا هو الوقت الذي استشهد فيه بوليكاربوس Polycarp بعد أن ساقت الجموع الغاضبة المسيحيين وأحضرتهم أمام السلطات.[٤]

كان يحدث الاضطهاد إما نتيجة لكارثة محلية مثل حريق روما، أو نشاط حاكم غيور، حتى زمن حكم ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius. كان ماركوس أوريليوس رواقياً غيوراً، وقد أوغر معلمه فرونتو Fronto حفيظته ضد المسيحية. ولأنه كان يميل إلى أن ينسب الكوارث الطبيعية أو التي من صنع البشر التي حدثت أثناء ولايته إلى انتشار ونمو المسيحية، فلقد أصدر أوامره باضطهاد المسيحيين. وقد واجه جاستن الشهيد Justin Martyr، والذي كان من أعظم كتاب الدفاعيات، مصيره في روما أثناء هذا الاضطهاد.

### (ج) الاضطهاد العام فيما بعد عام ٢٥٠م

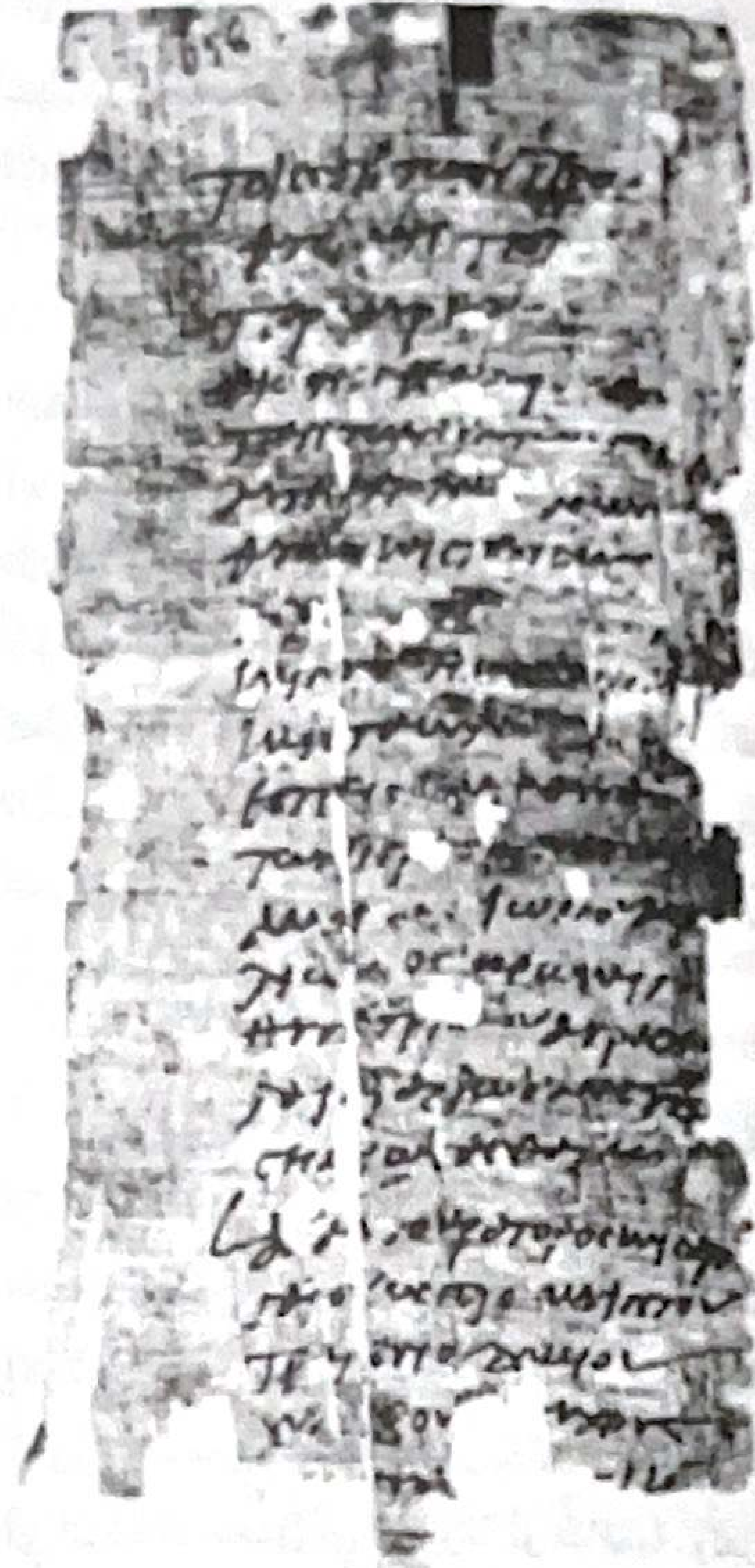
ارتقى الإمبراطور ديسيوس Decius العرش الإمبراطوري في حوالي نفس الوقت الذي بلغت فيه مدينة روما الألف الأولى من تاريخها، وفي وقت كانت الإمبراطورية تئن تحت سلسلة من الكوارث الطبيعية وهجمات داخلية وخارجية استهدفت استقرارها فقرر ذلك الإمبراطور أنه إذا كان للحضارة الكلاسيكية أن تُنفذ، فسيحتاج الأمر حتماً إلى ذراع قوية. وتم تحديد المسيحيين باعتبارهم يمثلون تهديداً للدولة بسبب سرعة ازدياد أعدادهم وإلى ما بدا أنه محاولة من قبلهم لتأسيس دولة داخل الدولة.

أصدر ديسيوس قانوناً في عام ٢٥٠م بفرض تقديم تقدمة سنوية واحدة على الأقل في صورة ذبيحة تقدم على مذابح آلهة الرومان تكريماً للإمبراطور. وكان كل من يقدم هذه الذبائح يمنح شهادة خاصة اسمها Libellus.[٥] وقد واجهت الكنيسة بعد ذلك مشكلة كبيرة حول كيفية التصرف مع المسيحيين الذين أنكروا إيمانهم المسيحي بهدف الحصول على تلك الشهادات. وكان من عناية الله بالكنيسة أن هذا الاضطهاد لم يستمر طويلاً بعد موت ديسيوس في العام التالي لإصداره هذا القرار، لكن العذابات المريرة التي واجهها أوريجانوس Origen خلال هذا الاضطهاد أدت إلى موته.[٦]

بالرغم من حدوث فترات شهدت موجات من







*هذه صورة فوتوغرافية لشهادة Libellus أصلية من زمن ولاية ديسيوس وترجمة النص اليوناني تقول: "إلى المشرفين على التقدمات والذبائح في المدينة من اوريليوس... ثيون ابن ثيونورس وبانتونيمس، من المدينة المذكورة. لقد واظبت دائماً على تقديم الذبائح والسكيب إلى الآلهة، والآن أيضاً أتممت أمامكم بحسب أمركم في سكب السكيب وتقديم الذبيحة بل وتناولت من التقدمة ومعي ابني أوريليوس ديسكورس وابنتي اوريليا لايس. فعلى ذلك أطلب منكم منحي شهادة باتمامي كل المطلوب. السنة الأولى للامبراطور القيصر جايس ميسيوس كونتوس تراجانوس ديسيوس بيوس فيليكس أغسطس، باوني ٢٠."*

اضطهاد الدولة للكنيسة بأوامر شخصية من الأباطرة، إلا أنه لم يحدث اضطهاد كبير بعد ذلك الذي حدث أيام ديسيوس Decius وفاليريان Valerian، والذي استشهد خلاله كبريانوس Cyprian الأسقف المشهور، حتى تولى دقليديان Diocletian الملك (٢٤٥-٣١٣).

وكان دقليديان قائداً عسكرياً قوياً ارتقى العرش الإمبراطوري في نهاية قرن تميز بالقلاقل السياسية في الإمبراطورية الرومانية. فقرر أن الموقف يتطلب وجود حكم ملكي قوي، وأن هذا هو السبيل الوحيد لاستعادة الاستقرار وإنقاذ الحضارة الرومانية من الزوال. فانهى في عام ٢٨٥م ازدواجية السلطة في الإمارات والولايات والذي كان أغسطس قيصر Caesar Augustus قد أنشأه في عام ٢٧ق.م، والذي كان يتشارك فيه الإمبراطور السلطة مع مجلس الشيوخ.

رأى دقليديان أن النظام الملكي القوي المنفرد بالسلطة يوفر البديل الوحيد للفوضى، ففي مثل هذه الإمبراطورية المستبدة لم يكن هناك مكان لا للعناصر الديمقراطية في الحكومة، ولا للتسامح مع الأديان التي تظهر عدم خضوعها لدين الدولة الرسمي. وخرج من هذا الموقف التاريخي أحد أشد الاضطهادات التي واجهتها الكنيسة المسيحية ضراوة عبر تاريخها الطويل. وصدرت أول القرارات التي تدعو إلى اضطهاد المسيحيين في مارس ٣٠٣م وفيها يأمر دقليديان بإيقاف اجتماعات المسيحيين، وتدمير كنائسهم، واعتقال مسئولي الكنائس، وسجن كل من يتمسك بشهادته للمسيح، وأمر أيضاً بحرق كل الكتب المقدسة. وكان هذا الأمر الأخير سبباً في خلق مشكلة كبيرة للكنيسة

في وقت لاحق، وذلك عندما بدأ الدوناتيون Donatist جدلهم العنيف في شمال أفريقيا حول الأسلوب الذي يجب على الكنيسة إتباعه في معاملة أولئك الذين – تحت الاضطهاد – سلموا للسلطات نسخ الكتب المقدسة ليتم حرقها، والذين عُرِفوا باسم Traditores، وذلك عندما عادوا يطلبون إعادة قبولهم في الكنيسة بعد انتهاء الاضطهاد.

ثم صدر قرار لاحق يُلزم المسيحيين بتقديم الذبائح للآلهة الوثنية ويعرضهم للموت في حالة رفضهم القيام بذلك.(٧) ويخبرنا يوسابيوس Eusebius المؤرخ أن السجون ازدحمت بالقيادات المسيحية وأعضاء كنائسهم حتى لم يبق فيها مكان للمجرمين العاديين.(٨) وكان المسيحيون يعاقبون بنزع ممتلكاتهم والنفي والسجن، أو الإعدام إما قتلاً بالسيف أو بإلقائهم للوحوش المفترسة. وكان البعض الآخر يرسلون إلى نوع من معسكرات العمل الشاق حيث يعملون حتى الموت في المناجم الرومانية. إلا أن شدة الاضطهاد وإيقاعه تباطأ بعد تخلي دقلديان عن العرش واعتزاله في عام ٣٠٥م.

وبعد فترات أخرى من الاضطهاد Persecution، أصدر جاليريوس Galerius أمراً وهو على فراش موته في عام ٣١١م يقضي بمنح المسيحيين حق التسامح الديني، بشرط عدم تهديدهم لأمن وسلامة الإمبراطورية. إلا أن الاضطهاد لم يتوقف بالكامل إلا بعد أن أصدر ليسينيوس Licinius وقسطنطين Constantine قرارهما المشهور في عام ٣١٣م والمعروف باسم Edict of Milan. وضمن هذا القرار حرية العبادة ليس فقط للمسيحية ولكن لكل الأديان أيضاً.(٩) ولأن قسطنطين كان يرى أن "عبادة الله" ينبغي أن تكون "الاهتمام الأول والرئيسي للحاكم"، فإنه رأى أنه لا بديل عن إقرار حق حرية العبادة ليصبح هو سياسة الإمبراطورية.

ويحتمل أن تكون رؤية الصليب، التي يخبرنا التقليد أنه رآه مما أعطى له يقين النصرة على أعدائه، هي السبب في اعتناقه سياسة التسامح الديني. وبالتأكيد كان قسطنطين سابقاً لعصره، لأن سياسة التسامح الديني وحرية العبادة لم تستقر فعلياً قبل العصور الحديثة، حتى في الدول الديمقراطية. ومن وقت قسطنطين صار للمسيحيين الحرية في العبادة وفي نشر إيمانهم بين الآخرين من الناس بهدف ربحهم للمسيح.

وفي يومنا هذا، تعود نفس قضية علاقة الكنيسة بالدولة إلى الحياة مرة أخرى، وفي كثير من البلدان يتمتع المسيحيون بالتسامح الديني لا لشئ إلا لأن القانون يعطي لهم هذا الحق. وفي بلدان أخرى يواجهون الاضطهاد من حكومات ليس لديها أي استعداد لتحمل أي خصومة أو منافسة. ولعل ما واجهته الكنيسة الأولى من اضطهادات يبين لنا أهمية مبدأ فصل الكنيسة عن الدولة. لأنه لا يمكن تحقيق الحرية الدينية إلا في حالة السماح للناس أن تكون لهم اهتماماتهم الخاصة إلى جانب الاهتمامات العامة.

## ثالثاً: نتائج الاضطهاد

أثبت الانتشار السريع للمسيحية، حتى أثناء الفترات التي شهدت أشد الاضطهادات صحة المقولة بأن دماء الشهداء كانت هي بذار الكنيسة. ففي أثناء العصر الرسولي كانت المسيحية في





مجملها حركة حضرية تركزت في المدن. فقد تم تقدير عدد المؤمنين العاملين في أورشليم بعد القيامة بأكثر من خمسمائة أخ كما كتب بولس Paul في (١كو ٦:١٥). وأثبت خطاب بليني Pliny أن المسيحية كانت قد اشتد عودها في أسيا الصغرى بعد بداية القرن الثاني بقليل.

ففي خلال القرن الأول كانت المسيحية محصورة في الجزء الشرقي من الإمبراطورية، حيث أتيح لليهود لأول مرة قبول المسيحية عندما وصل الإنجيل إلى مدن جديدة. أما خلال القرن الثاني، صار الانتشار سريعاً بين الأمم الذين يتحدثون باليونانية والذين امتلأت بهم ربوع الإمبراطورية وأصبحت الكنيسة في الاسكندرية أهم الكنائس في مصر. ومع حلول عام ٢٠٠م كان المسيحيون موجودين في كل أنحاء الإمبراطورية. أما التركيز في القرن الثالث فقد كان على نشر الإنجيل بين الشعوب اللاتينية في الجزء الغربي من الإمبراطورية. ونمت كنيسة كبيرة قوية في شمال افريقيا حيث كانت مدينة قرطاجنة مركزها الفكري. وتتراوح تقديرات حجم الكنيسة في عام ٣٠٠م ما بين ٥-١٥٪ من عدد سكان الإمبراطورية، الذي كان يتراوح ما بين ٥٠-٧٥ مليون شخص. إلا أن الاضطهاد أوجد عدد من المشاكل الداخلية التي كان ينبغي على الكنيسة إيجاد حلول لها. وقد تفجرت قضيتان جدليتان في شمال أفريقيا وروما تتعلق بأسلوب معاملة الكنيسة لأولئك الذين قدموا ذبائح على المذابح الوثنية خلال الاضطهاد الذي حدث في عهد ديسيوس Decius، وأولئك الذين سلموا الكتب المقدسة لحرقها أثناء الاضطهاد الذي قام به الإمبراطور دقلديانوس، وذلك بعد إعلانهم توبتهم ورغبتهم في العودة إلى الكنيسة. فقد رأى البعض أن مثل هؤلاء الأشخاص يجب عدم قبولهم في شركة الكنيسة، بينما رأى البعض الآخر أنه ينبغي قبولهم بعد خضوعهم لفترة من المراقبة والفحص. ولم يكن الجدل الذي عرف باسم الدونانتية Donatist، والذي نشأ من اضطهاد دقلديانوس، قد حسم بعد في وقت الإمبراطور قسطنطين Constantine. (انظر الفصل الثامن)

فرض اضطهاد دقلديانوس Diocletian على الكنيسة مشكلة قانونية أسفار العهد الجديد (انظر الفصل العاشر). فلو أن اقتناء الرسائل قد يعني الموت، فقد أراد المؤمنون أن يتأكدوا أن تلك الأسفار التي لا بد أن يدافعوا عنها حتى الموت أسفاراً قانونية حقيقية. وقد ساهمت هذه الاعتبارات في اتخاذ القرار النهائي بخصوص الأسفار التي اعتبرتها الكنيسة قانونية.

أيضاً نتج عن هذه الفترة كم كبير من الكتابات الدفاعية. وتكتسب حقبة الاضطهادات أهميتها من الضوء الذي ألقته على خطورة مشكلة علاقة الكنيسة مع الدولة. فإن المسيحية طالبت معتنقيها بالولاء المطلق في كل الأمور الروحية والأخلاقية. فكان على المؤمن المسيحي أن يطيع قوانين الدولة طالما لم تفرض عليه أن يتخلى عن ولائه الروحي والأدبي تجاه الله. والمؤمنون الذين يعيشون اليوم في ظل أنظمة تمارس ضدهم الضغوط والاضطهادات بسبب إيمانهم، يمكنهم أن يسترشدوا بتاريخ الاضطهادات التي واجهتها الكنيسة الأولى. فإن قضية التضارب بين طاعة المسيح وطاعة قيصر تظل من القضايا الملحة في تاريخ الكنيسة.

## اقتراحات للقراءة


*Ayer, Joseph, Jr.* A Source Book for Ancient Church History. *New York: Scribner, 1913. This compilation contains much primary material concerning the causes and the story of the major persecutions.*

*Frend, W. H. C.* Martyrdom and Persecution in the Early Church. *New York University Press, 1967. This work is both scholarly and detailed.*

*Grant, Robert M.* The Sword and the Cross. *New York: Macmillan, 1955. This is a helpful survey of the relationship of religion to the Roman state.*

*Norwood, Frederick.* Strangers and Exiles. *2 vols. Nashville: Abingdon, 1969. The author has given a comprehensive account of persecution and refugees from the New Testament era to the present.*

*Workman, Herbert B.* Persecutions in the Early Church. *London: Epworth, 1923. This is a useful work for the student of the history of persecution of the church.*




صراع الكنيسة الأولى من أجل البقاء
في الإمبراطورية الرومانية ١٠٠-٣١٣

*الفصل الثامن*

# بين الخرافات والعقيدة السليمة

فرضت الظروف على المسيحيين في القرنين الثاني والثالث أن يواجهوا حربًا على جبهتين، وهو الأمر الذي يتفاداه أي قائد. فبينما كانت الكنيسة تجاهد للحفاظ على وجودها في مواجهة محاولات الدولة الرومانية للقضاء عليها كانت تجاهد أيضا لتحافظ على نقاء وطهارة عقيدتها.

فالداخلون إلى الإيمان المسيحي كانوا إما من خلفية يهودية تؤمن بنوال الخلاص بواسطة الأعمال الصالحة، أو ينحدرون من البيئة الفكرية للفلسفة اليونانية. ومال كثير من هؤلاء المتجددين - قبل أن تقوم الكنيسة بتعليمهم - لأن يحملوا معهم أفكارهم القديمة إلى بيئتهم المسيحية الجديدة. وحاول آخرون أن يجعلوا المسيحية ديانة عقلية يحترمها علية القوم. وأصبح الخطر الذي تمثله الاتجاهات الناموسية أو الاتجاهات الفلسفية التي انحرفت بالمسيحية عن مسارها الأصلي، يشكل تهديدًا حقيقيًا في داخل الكنيسة في تلك الحقبة. وفي بعض الأحيان، نجد أن بعض القادة الغيورين قد بالغوا في غيرتهم وصاغوا بعض التفسيرات الخاصة لتصحيح شرور حقيقية تصوروا وجودها داخل الكنيسة، بل وتمكنوا من جذب العديدين لإتباع أفكارهم الهرطوقية حتى انتهى الأمر بهذه الهرطقات المتنوعة إلى إحداث انشقاقات داخل الكنيسة ما لبثت أن أفرزت عددًا من الشيع الجديدة داخل كل منها.

## أولا: الهرطقات الناموسية

كان للمرء أن يظن أن القرارات التي اتخذها مجمع أورشليم Jerusalem Council بإعفاء الأمم من مطاليب الناموس اليهودي الطقسية والتي كانت تعتبر شرطًا لنوال الخلاص، يمكن أن تحسم الأمر بشكل نهائي. إلا أن المتجددين من اليهود تطلعوا للوراء نحو إيمانهم بإله واحد، وعندما تفكروا في المسيح والخلاص، مالوا نحو تخفيف الإيمان المسيحي وذلك بخلطه ببعض معتقدات تراثهم اليهودي. وقد استمرت جماعات من الإبيونيين Ebionites في فلسطين، وبعض البلدان الأخرى المجاورة، لبعض الوقت بعد إخضاع السلطات الرومانية لتمرد اليهود بقيادة باركوكبا Bar Kochba ما بين عام ١٣٢-١٣٥.

وقد نبَّر هؤلاء الناس على الوحدة بين الله وخليقته وأن الناموس اليهودي هو أعلى تعبير عن إرادة الله وأن هذا الناموس مازال ملزمًا للبشر.

وكانوا يعتقدون أن يسوع هو ابن يوسف وأنه قد حظي بقدر من الطبيعة الإلهية عندما حل الروح القدس عليه عند معموديته. فتمسكوا بتعاليم إنجيل متى، ولكن لم تعجبهم كتابات بولس Paul. وكانوا يصرون على أن الأمم – مثلهم مثل المسيحيين من اليهود – مازالوا ملزمين بناموس موسى وأنه لا يوجد خلاص بعيداً عن الختان وعن حفظ ناموس موسى. إلا أن نفوذهم وتأثيرهم تضاءل جدا بعد تدمير الرومان لأورشليم عام ١٣٥م، ولكن مجرد وجودهم واستمرار معتقداتهم إنما يظهر كيف أن الكنيسة كان عليها دائماً أن تجاهد من أجل تثبيت مبدأ أن مجرد الإيمان بالمسيح هو الذي يبرر الإنسان أمام الله.

## ثانيا : الهرطقات الفلسفية

كانت الفلسفة اليونانية مصدر تهديد أعظم لنقاء عقيدة الإيمان المسيحي، فقد دخل المسيحية أعداد كبيرة من الأمم فاقت بكثير أعداد المسيحيين من اليهود وبين هؤلاء الأمم كان الكثيرون من الفلاسفة الذين أرادوا تخفيف المسيحية بخلطها بالفلسفة، أو إلباس الوثنية ثياب المسيحية.

### (أ) الغنوسية Gnosticism

بلغت الغنوسية، وهي أعظم التهديدات الفلسفية، قمة قوتها ونفوذها في حوالي عام ١٥٠م. وترجع جذورها إلى زمن العهد الجديد، بل يبدو أن بولس كان يقاوم شكلاً بدائياً من الغنوسية في رسالته إلى أهل كولوسي. ويُرجع التقليد المسيحي أصل الغنوسية لشخص اسمه سيمون ماجوس Simon Magus,[1] أو سيمون الساحر الذي وبخه بطرس بكل شدة.

نبعت الغنوسية من الرغبة الإنسانية الطبيعية في خلق تفسير، يفسر أصل الشر في العالم. وقد سعى الغنوسيون انطلاقاً من ربطهم المادة بالشر، إلى إيجاد أسلوب لخلق نظام فلسفي يحرر الله – الذي هو روح – من كل ارتباط بالعالم المادي الشرير، ويمكن للإنسان أن يرتبط بالألوهية من خلال الجانب الروحي من طبيعته. والغنوسية أيضاً عبارة عن نظام فكري أو منطقي يوضح ميل البشر للسعي لإيجاد إجابات للأسئلة العظمى حول أصل الإنسان. وقد سعت إلى تحقيق ذلك بمحاولة التوفيق أو المزج ما بين المسيحية والفلسفة اليونانية. وقد سعى الغنوسيون مثلهم مثل اليونانيين، الذين تذكرهم الأصحاحات الأولى من الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس، الذين حاولوا أن يفهموا بالحكمة الإنسانية طرق الله مع البشر محاولين تجنب الصليب الذي بدا لهم وكأنه جهالة لا لزوم لها. فلو كانت الغنوسية نجحت في مسعاها لأصبحت المسيحية لا تزيد عن كونها مذهباً فلسفياً من ضمن ما شهده العالم القديم من ديانات.

أما عن الهوة التي تفصل ما بين الله والعالم المادي فقد عبرتها الغنوسية بفكرة وجود قوة خالقة وسيطة تعرف باسم Demiurge هي عبارة عن حلقة من سلسلة من الانبثاقات من إله الغنوسية الأعلى. وكانت هذه الانبثاقات عبارة عن كيانات أو كائنات تتدرج طبيعتها يتناقص فيها الجانب الروحي ويتزايد الجانب المادي. وكان الواحد من تلك الكائنات الروحية، باعتباره انبثاقا إلهيًا، له قدر كاف من الطبيعة الروحية تتيح له أن يمتلك قدرة على الخلق، وفي الوقت نفسه لديه القدر الكافي من الطبيعة المادية التي تسمح له بخلق العالم المادي الشرير. وقد رأى الغنوسيون أن هذا الكيان الإلهي





الوسيط يتطابق مع يهوه الذي يقدمه العهد القديم، والذي لم يكن الغنوسيون يحبونه على الإطلاق.

ولكي يستطيع الغنوسيون شرح وضع المسيح، فإنهم اعتنقوا مذهباً عُرف باسم الدوسيتية. ولأن المادة كلها شر، فإن المسيح لا يمكن أن يكون قد ارتبط بجسد بشري مادي، وذلك بالرغم من تأكيد الكتاب المقدس على عكس ذلك. فالمسيح الذي يمثل الصلاح الروحي المطلق لا يمكن أن يكون قد اتحد مع المادة الشريرة. فإما أن يكون المسيح الذي ظهر في الجسد ما هو إلا خيال أو كيان أثيري اتخذ لنفسه شكل أو مظهر الجسم الإنساني المادي (الدوسيتية)، أو أن المسيح دخل في جسم يسوع البشري أو حل فيه لمدة قصيرة فقط. أي ما بين معمودية الإنسان يسوع وبداية آلامه على الصليب. ثم ما لبث المسيح أن ترك الإنسان يسوع يواجه الموت ويموت على الصليب. فقد كان مهمة المسيح الأساسية أن يقدم للعالم تعاليمه التي تحمل نوعاً معيناً من المعرفة الخاصة تستطيع أن تساعد الإنسان على أن يخلص نفسه من خلال عملية فكرية بحتة.

والخلاص، الذي هو من نصيب الروح أو الجزء الروحي من الإنسان دون غيره، يمكن أن يبدأ بالإيمان، ولكن المعرفة الخاصة التي يعطيها المسيح لبعض المختارين أو الصفوة هي التي لها الدور الأكبر بحسب رأي ومعتقدات الغنوسية Gnosticism في تحقيق عملية الخلاص في روح الإنسان. وحيث أن الجسد ما هو إلا مادة لم يُقصد لها إلا الفناء، فإن الإنسان إما أن يذله ويخضعه بممارسات نسكية صارمة، أو أن يترك له الحرية الكاملة في أسلوب حياة إباحي. ولن يصل أو يدخل السماء غير الغنوسيين الروحيين، الذين يمتلكون المعرفة الخاصة التي لا يمتلكها غيرهم، ومعهم أيضا المجموعة التي لها الحساسية الروحية التي وإن كان لديها الإيمان إلا أن ليس لها حق الحصول على المعرفة الخاصة. لأن كل ما هو مادي لا يمكن أن يستمتع بالحالة السماوية، وذلك لأن المادة قد كُتب عليها الضياع الأبدي. وليس لقيامة الأجساد أي مكان في الغنوسية.

إلا أن مثل هذا الوصف للمفاهيم الأساسية التي يشترك فيها كافة الغنوسيين لا ينبغي أن يقودنا بعيداً عن معرفة أنه كانت هناك مذاهب عديدة للغنوسية انفرد كل منها ببعض المعتقدات الخاصة به. بل إن مجرد القراءة العابرة لأول عدة كتب من التي كتبها إيريناوس Irenaeus في مجلده "ضد الهرطقات" لابد وأن تبين للقارئ مقدار تعدد هذه الجماعات ومقدار اختلاف آرائها وأفكارها.

كان ساتورنينوس Saturninus على رأس مدرسة الغنوسية في سورية. أما في مصر فقد قاد باسيلدس Basilides مدرسة أخرى. إلا أنه يبدو أن مارسيون Marcion وأتباعه كانوا أكثر تلك الجماعات نفوذاً وتأثيراً، ويربطها البعض مع الغنوسية.

ترك مارسيون موطنه الأصلي في بنط في نحو عام ١٤٠م وذهب إلى روما، حيث أصبحت له مكانة مرموقة في الكنيسة في روما. كان يرى أن اليهودية شراً، لذلك فقد أبغض الكتب اليهودية المقدسة، ورفض يهوه الذي تتحدث عنه تلك الكتب. فحدد لنفسه قائمة من الأسفار القانونية بحسب رأيه الشخصي، بحيث شملت إنجيل لوقا ومعه عشرة من

رسائل العهد الجديد التي ارتبطت باسم بولس Paul الرسول. وبالرغم من أن مارسيون أصاب نجاحاً كبيراً في تجارته وأعماله جعله من بين الأثرياء الذين ساعدوا الكنيسة في روما مساعدات كبيرة، لكن الكنيسة طردته من بين صفوفها بسبب تمسكه بتلك الأفكار فأسس كنيسة خاصة به.

وبمجرد أن يُخضع المرء الغنوسية Gnosticism للتقييم في ضوء كلمة الله، فسيتبين حكمة الكنيسة في مقاومتها لهذه العقيدة. فقد افترضت الغنوسية وجود إلهين، إله شرير يتحدث عنه العهد القديم وكان دوره هو خلق العالم المادي، ثم إله آخر خيِّر ودوره هو فداء تلك الخليقة. ومن ثم روجت مثل هذه الأفكار لبعض الاتجاهات المعادية للسامية في الكنيسة. ورفضت الغنوسية كل ما يتعلق بطبيعة المسيح البشرية وموته الكفاري وقيامته من الأموات، في الوقت الذي قال يوحنا John الرسول عنه أنه حل بيننا ورأينا مجده مجداً. فلا عجب إذا عندما نرى تأكيد بولس الرسول في رسالته إلى الكنيسة في كولوسي على أنه في المسيح يحل كل ملء اللاهوت (كو ١٩:١ ، ٩:٢).

وقد روجت الغنوسية أيضاً للكبرياء الروحي وذلك بما ادعته بوجود صفوة مختارة تتميز عن باقي المؤمنين، وتنفرد وحدها بالتمتع الأبدي بمباهج السكنى مع الله في السماء. ولم يكن لديها أي مكان للجسد البشري في الحياة المستقبلية. فتشابهت في ذلك مع الفكر الذي عبّرت عنه الأساطير والفلسفة اليونانية والتي لم يكن لديها أي مستقبل للجسد البشري فيما بعد هذه الحياة الحاضرة.

أما الجانب النسكي في الغنوسية فيمكن اعتباره عاملاً مساهماً في صياغة الحركة النسكية في العصور الوسطى والتي نعرفها باسم الرهبنة. ولكن الغنوسية دون أن تقصد، ساهمت على أي حال في تطور فكر الكنيسة. فعندما اختار مارسيون Marcion لنفسه ما اعتبره الأسفار القانونية، أجبر الكنيسة في دفاعها عن نفسها إلى أن تولي اهتمامها بقضية قانونية الأسفار وأي هذه الأسفار يجب اعتبارها قانونية ومن ثم نافعة لصياغة العقيدة وإرشاد الحياة. وأسرعت الكنيسة بصياغة قانون قصير للإيمان يمكن بواسطته الحكم على سلامة عقيدة الشخص أو الجماعة لمواجهة ذلك الاحتياج العملي الملح.

وتعاظمت مكانة الأسقف بالتركيز على وظيفته باعتبارها محوراً يلتف حوله أبناء الكنيسة في وحدتهم ضد الهرطقة. وقد أدى ذلك في وقت لاحق إلى إعطاء مكانة مرموقة لأسقف روما بين الأساقفة. وقد دخل علماء الكنيسة من أمثال ترتليان Tertullian وإريناوس Irenaeus وهيبوليتوس Hippolytus في مجادلات واسعة على صفحات الكتب لدحر تعاليم الغنوسية Gnosticism وتفنيدها. إلا أن التعاليم الغنوسية عادت للظهور مرة أخرى بدرجة ما في عقائد جماعة البولسيين Paulicians التي ظهرت في القرن السابع، وجماعات البوجوميلز Bogomils في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ومن بعدهم الألبينيون Albigenses جنوب فرنسا.

## (ب) المانية Manicheanism

تأسست المانية، والتي كانت تشبه الغنوسية إلى حد ما، عن طريق شخص اسمه ماني أو مانيكيوس (Mani or Manichaeus) (٢١٦-٧٦)





عاش في منطقة ما بين النهرين. وقد طور ماني أفكاره في منتصف القرن الثالث، حيث وضع نظاماً فلسفياً خاصاً به. وكانت أفكاره مزيجاً غريباً من الفكر المسيحي والزورادشتيه Zoroastrianism ، وبعض الأفكار الدينية من بعض أديان شرقية أخرى، صاغها جميعها في شكل فلسفة ازدواجية. فكان ماني يعتقد في وجود مبدأين أبديين متعارضين. فالإنسان البدائي جاء إلى الوجود بانبثاقه من كائن كان بدوره انبثاقا أعلى من رئيس مملكة النور. وفي مقابل رئيس مملكة النور يقف رئيس مملكة الظلمة، الذي نجح في خداع الإنسان الأول حتى جعل من الإنسان كائناً يمتزج فيه النور بالظلمة. روح الإنسان تربطه بمملكة النور، لكن جسده يجعله في عبودية لمملكة الظلمة. وكان الخلاص بالنسبة لماني يتركز في قضية إطلاق وتحرير النور في روح الإنسان من أسرها داخل المادة التي يتكون منها جسده. وهذا التحرير يمكن أن يحدث نتيجة للتعرض للنور الذي هو المسيح.

وكانت الصفوة من الأشخاص الكاملين يمثلون الفئة أو الطبقة الكهنوتية في هذه الجماعة. وكانوا يعيشون حياة نسكية ويقومون ببعض الطقوس التي كانوا يرونها لازمة لإطلاق النور في أرواحهم. وكان السامعون أو المراجعون يشتركون في قداسة أولئك المختارين بتوفير احتياجاتهم المادية. وكانت هذه هي الوسيلة التي يتاح بها للسامعين أو التابعين أن يكون لهم نصيب في الخلاص.

وقد ركزت المانية كثيراً جداً على الحياة النسكية حتى أنها نظرت إلى الغريزة الجنسية على أنها شر عظيم، ونبرت على تميز وسيادة حالة العزوبية، وربما كان للمانية دورها في تطوير فكرة وجود فئة كهنوتية في الكنيسة منفصلة عن باقي المؤمنين الذين كانوا يعتبرونهم علمانيين لا دور لهم. كان للمانية تأثير ونفوذ كبير لوقت طويل بعد موت ماني في فارس (إيران). بل إن أغسطينوس Augustine المفكر العظيم كان تلميذاً للمانية لمدة اثنتي عشرة سنة وذلك خلال رحلته في البحث عن الحق. ولكن أغسطينوس بعد تجديده كرس مجهوداً كبيراً لتفنيد ومقاومة المانية.

## (ج) الأفلاطونية الجديد Neoplatonism

في معظم الأحيان يربط الدارس العادي الحركة النسكية بالنساك الذين عاشوا في العصور الوسطى. إلا أن واقع الأمر أنه وجد في الكنيسة عبر العصور ميول نحو النسكية. ويمكن أن نفكر في وجود النسكية في ثلاثة نماذج. فهناك النموذج المعرفي للنسكية يكون التركيز فيه على كيفية نمو الإنسان في معرفته لله. ويرى أصحاب هذا النوع من النسكية أن كل معرفتنا عن الله تأتي إلينا مباشرة عن طريق الإلهام الإلهي أو الاستنارة الروحية. ويرون أن المنطق البشري، بل وأحياناً الكتاب المقدس نفسه يأتيان في مرتبة ثانية بعد النور الداخلي. وقد تمسك معظم النساك الذين عاشوا في القرون الوسطى، وأيضا جماعة الوحدة والسكينة الكاثوليك من القرن السابع عشر وجماعة الكويكرز تمسك هؤلاء جميعا بمثل هذه الآراء.

بينما ركز آخرون على نمط آخر للنسك ألا وهو الميتافيزيقي، وفيه يقولون إن الجوهر الروحي للإنسان يستوعب في الكائن الإلهي بطريقة سرية في اختبارات متفرقة من وقت لآخر، ويحدث ذلك من خلال بعض الاختبارات الروحية التي تحدث للإنسان من وقت لآخر. وما أن تنطفئ شعلة

شخصيته المتميزة بالموت، حتى يصبح روح الإنسان جزءًا من الكيان الإلهي. وقد تمسك أصحاب الأفلاطونية الجديدة، وبعض غلاة النساك في العصور الوسطى، والبوذيون بهذا النمط النسكي. ولكن الكتاب المقدس على عكس ذلك تمامًا ينبر على نمط أخلاقي روحي، إذ يرتبط الإنسان بالله بواسطة اتحاده مع المسيح وسكنى الروح القدس في حياته.(٢)

وتعتبر الأفلاطونية الجديدة Neoplatonism نموذجًا جيدا للمعرفة الفلسفية النسكية. ونشأت الأفلاطونية الجديدة في الاسكندرية نتيجة لفكر شخص يدعى أمونيوس ساكاس Ammonius Saccas (١٧٤-٢٤٢ تقريبا) الذي ولد لأبوين مسيحيين. وقد كان أوريجانوس Origen أحد آباء الكنيسة وشخص آخر اسمه بلوتينوس Plotinus من تلامذة ساكوس Saccas. وأصبح بلوتينوس (٢٠٥-٧٠) فيما بعد القائد الفعلي لهذه الحركة الفلسفية حيث كان يدرس هذه العقيدة في مدرسة في روما في الربع الثالث من القرن الثالث. أما إصدار الوثيقة الحرفية لأفكار الأفلاطونية الجديدة فقد قام به شخص اسمه بورفوري Porphory (٢٣٢-٣٠٥) الذي جمع الأفكار من كتابات بلوتينوس. وقد عرف هذا الكتاب الذي جمعه بورفوري باسم Enneads وهو الذي وصل إلينا. وهو يقدم ديانة ميتافيزيقية أحادية بدلاً من ثنائية.

كان الأفلاطونيون الجدد يعتقدون بوجود كائن مطلق ويعتبرونه المصدر الذي انبثق منه كل ما هو كائن والذي منه خلق كل شئ عن طريق عملية الفيض، أي أن كل وجود ما هو إلا فيض من وجود الإله الأسمى المطلق. وكانوا يرون أن هذا الفيض أو الانبثاق أدى في نهاية الأمر إلى خلق الإنسان ككيان عاقل له روح وجسد. وكانوا يرون أن الغرض من وجود الكون هو استعادة اندماجه مرة أخرى مع الجوهر الإلهي الذي منه أوجدت كل الأشياء. وتساهم الفلسفة مساهمة كبيرة في هذه العملية وذلك عندما يمارس المرء التأمل العقلاني ويسعى بواسطة الإلهام السري أن يعرف الله وأن يندمج وجوده مع الواحد الذي منه كل الأشياء. وكان اختبار النشوة هو أعلى وأسمى حالة يمكن للإنسان أن يختبرها في هذه الحياة. وقد تأثر أغسطينوس Augustine بهذه الأفكار.

تبنى الامبراطور جوليان Julian والذي عرف بلقب "المرتد" هذه الفلسفة باعتبارها غريمًا منافسًا للمسيحية، وحاول خلال الفترة القصيرة التي تولى فيها الحكم من ٣٦١-٣٦٣ أن يجعل الأفلاطونية الجديدة دينًا للإمبراطورية. وتبنى أغسطينوس نفس الفلسفة لزمن خلال رحلته في البحث عن الحق. وقد ساهمت هذه الحركة بدون شك في قيام الحركة النسكية في المسيحية بل وأيضا قدمت بديلاً جذابًا للمسيحية ذاتها إلى الوثنيين الذين لم يتمكنوا أو لم يريدوا أن يواجهوا المطاليب السامية للمسيحية روحيًا وأخلاقيًا لكن الأفلاطونية الجديدة ماتت في بداية القرن السادس.

## ثالثا: المغالطات اللاهوتية

يمكن اعتبار بعض الآراء تفسيرات خاطئة لمعنى المسيحية أو مغالاة في التعبير على فكرة معينة، أو حركات احتجاج إلا أن هذه الآراء المختلفة كان لها ضرر كبير على المسيحية، بل إن بعض الطاقة التي كان يمكن أن توجه إلى جهود





الكرازة، اضطرت أن توجهها لإنجاز مهمة تفنيد مثل هذه المغالطات اللاهوتية. وتعتبر كل من المونتانية والملكانية نموذجًا لمثل هذه المغالطات.

### (أ) المونتانية Montanism

ظهرت المونتانية في إقليم فريجية بعد عام ١٥٥م كمحاولة من شخص اسمه مونتانوس Montanus لمواجهة مشكلة انتشار الطقسية في الكنيسة واعتماد الكنيسة الزائد على قياداتها البشرية بدلاً من الاعتماد على إرشاد الروح القدس. كان يعارض انتشار فكرة إعطاء مكانة متميزة للأسقف في الكنيسة المحلية. وقادته محاولاته لمقاومة الطقسية والتنظيم البشري إلى التأكيد على العقائد المتعلقة بمجئ المسيح الثاني والروح القدس. ولكنه للأسف، وكما يحدث غالبًا في مثل هذه الحركات، تطرف مونتانوس في أفكاره إلى نقيض ما كان ينادي بمقاومته وأصبح لديه مجموعة من التفسيرات الخاطئة والمتطرفة لنصوص الكتاب المقدس.

وقد قدم مونتانوس تعليمًا غريبًا بشأن الوحي، فقد نادى بأن الوحي لم ينقطع بل أنه وحي مباشر ومستمر وأنه هو نفسه أي مونتانوس كان هو البراقليط أو المعزي الذي يتكلم الروح القدس من خلاله للكنيسة بنفس الطريقة التي تكلم بها الروح القدس من خلال بولس Paul وغيره من الرسل. وكان لمونتانوس موقفًا فعاليًا فيما يتعلق بعقيدة الأخرويات أي الأمور الآتية. فقد كان يؤمن أن ملكوت المسيح السماوي سرعان ما سوف يؤسس ويستعلن في بلدة بيبوزا في فريجية وأنه هو شخصيًا ستكون له مكانة مرموقة في ذلك الملكوت. ولكي يستعد هو وأتباعه لاستقبال المسيح في مجيئه، مارس هو وأتباعه نوعًا من النسك البالغ الصرامة. فلم يكن مسموحًا لمن يموت شريك حياته أن يتزوج مرة ثانية، وكان يجب عليهم ممارسة أصوام كثيرة، وألا يأكلوا إلا الأطعمة الجافة.(٣)

أخذت الكنيسة موقعها ضد هذه التجاوزات بأن أدانت هذه الحركة. وأعلن مجمع القسطنطينية في عام ٣٨١ بأن أتباع المونتانية يجب اعتبارهم مثل الوثنيين. لكن ترتليان Tertullian ، وهو واحد من أعظم آباء الكنيسة، وجد في تعاليم المونتانية ما يبحث عنه فأصبح هو نفسه من أتباعها. وقد بلغت هذه الحركة أقصى قوتها في قرطاجة والأراضي الشرقية. وهي تمثل الاحتجاج الحتمي الذي يحدث في الكنيسة عندما تتعقد وتتشابك آليات الخدمة فيها وتفتقر الكنيسة إلى الاعتماد على روح الله. وقد كانت الحركة المونتانية وستظل دائمًا تحذيرًا للكنيسة حتى لا تنسى أن تنظيمها وصياغة عقيدتها ينبغي ألا ينفصل أبدًا عن إشباع الجانب الوجداني في الطبيعة البشرية والشوق الكامن في القلب البشري للتمتع بالاتصال الروحي المباشر مع الله.

### (ب) الملكانية Monarchianism

إن كان مونتانوس قد بالغ في غيرته في تقديم عقيدة الروح القدس وعقيدة الوحي، فإن الخطأ الذي وقع فيه الملكانيون هو حماسهم الزائد في تأكيد وحدانية الله في مواجهة أي محاولة لتصوير الله على أنه ثلاثة أقانيم أو شخصيات مستقلة. كان اهتمامهم منصبًا على تأكيد حقيقة أن الله واحد ليس غيره إله لكن انتهى بهم الأمر إلى التمسك بصيغة قديمة للتوحيد تنكر لاهوت المسيح. كانت مشكلتهم الكبرى هي كيف يصفون علاقة المسيح بالله.

ففي القرن الثالث كان أسقف أنطاكية[٤] شخص اسمه بولس من ساموسكا Paul of Samosata وكان إلى جانب شغله منصبه الرفيع كأسقف، يشغل منصبًا سياسيًا هامًا في حكومة زنوبيا Zenobia ملكة بالميرا. وفي أحيان كثيرة كان يستغل المنبر الكنسي في كنيسة أنطاكية لإثارة الجماهير واكتساب شعبية سياسية لديها، وذلك بأسلوب التمثيل في الوعظ وإلقائه المبالغ فيه، بل إنه كان يتوقف أثناء الوعظ منتظرًا تصفيق الناس له وتحيتهم له بتلويح مناديلهم. بل إنه في بعض المناسبات كان يكون فريقًا نسائيًا للترنيم ليترنم بأشعار مدح فيه هو شخصيًا. ولأنه لم يكن وارثًا لثروة كبيرة ولم يشتغل بالتجارة فقد ثارت بعض شكوك حول مصادر ثروته الكبيرة. كان بولس الساموسطي رجلاً قديرًا وإن لم يكن مدققًا في حياته، وكان يُعلم أن المسيح لم يكن إلهًا أبدًا بل كان مجرد رجل صالح حاز بواسطة بره وعن طريق اختراق اللوجوس الإلهي لكيانه أثناء معموديته، حاز وحقق طبيعة إلهية ودورًا فدائيًا. كانت هذه محاولة من ذلك الأسقف للتمسك بالوحدانية ولكنها سلبت من المسيحي ذلك المخلص الإلهي. وقد اشتهر التعليم الذي صاغه بولس الساموسطي باسم عقيدة التبني الملكانية Dynamic or Adoptionsit Monarchianism.

أما الشخص الذي نشر الشكل الآخر من الملكانية والذي عرف باسم الملكانية الانتحالية Modal Monarchianism فهو سابيليوس Sabellius وكان سابيليوس هذا قد قرر أن يتجنب أي خطر في الإيمان بثلاثة آلهة. فصاغ بعد عام ٢٠٠م التعليم الذي عُرف باسمه. وكان يُعلم بثالوث مبني على فكرة ثلاثة إظهارات أو أشكال له بدلاً من ثلاثة أشخاص يتميز كل منهم في جوهره. فكان يقول إن الله أظهر ذاته في العهد القديم في صورة الله الآب، ثم أظهر ذاته فيما بعد في صورة الابن لكي يفدي البشر، ثم في صورة الروح القدس بعد قيامة المسيح من الأموات. وبذلك لا يكون هناك ثلاثة أقانيم متميزة في الثالوث المقدس بل ثلاثة إظهارات إلهية. ويمكن توضيح رأي سابيليوس بواسطة العلاقات المتنوعة التي يمكن أن يرتبط بها أي إنسان. ففي إحدى هذه العلاقات يمكن للإنسان أن يكون ابنًا، وفي علاقة أخرى يصير أخًا وفي ثالثة يكون أبًا. وفي كل هذه العلاقات لا يوجد سوى شخص واحد له جوهر واحد. وينكر هذا الرأي وجود شخصية مستقلة للمسيح. ونرى اليوم إحياء لمثل هذه الأفكار في بعض الأوساط الخمسينية.

## رابعاً: الانقسامات الكنسية

### (أ) الجدل حول احتفال القيامة
### Easter Controversy

ظهرت بعض الشقاقات في صفوف الكنيسة في مهدها حول أمور تتعلق بالتأديب وبالطقوس. وقد ظهر الجدل حول احتفال القيامة نحو منتصف القرن الثاني، حيث دار الحوار حول السؤال عن التاريخ الصحيح للاحتفال بعيد القيامة. فقد تمسكت الكنيسة في الشرق بأن احتفال القيامة ينبغي أن يكون في الرابع عشر من شهر نيسان، وهو نفس تاريخ احتفال اليهود بالفصح في تقويمهم اليهودي، بغض النظر عن اليوم الذي يوافق هذا التاريخ من أيام الأسبوع المختلفة. إلا أن بوليكاربوس Polycarp من أسيا الصغرى وجد معارضة لهذا الرأي في عام ١٦٢م من قبل أنيسيتوس Anicetus أسقف روما، الذي كان يرى





أن عيد القيامة ينبغي أن يتم الاحتفال به في يوم الأحد الذي يأتي بعد الرابع عشر من نيسان. وعندما حرم فكتور Victor أسقف روما كنائس أسيا الصغرى في عام ١٩٠م وذلك في صراعه مع بوليكرتيس أسقف أفسس، وبخه إريناوس Irenaeus على مبالغته في تقدير قوته وسلطانه. ولم تستطع الكنيسة في الشرق والغرب أن تصل إلى أي اتفاق حول هذا الموضوع حتى انعقد مجمع نيقية في عام ٣٢٥م، عندما تبنى المجمع رأي الكنيسة الغربية في الموضوع.

### (ب) الدوناتية Donatism

تبلور الجدل حول الدوناتية بعد عام ٣٠٠م كنتيجة لاضطهاد دقلديانوس Diocletian للكنيسة. وقد تركزت معظم المجادلات في شمال أفريقيا. فقد أراد دوناتوس Donatus الذي كان أحد رجال الكنيسة إقصاء سيسيليان Caecilian أسقف قرطاجة من منصبه وذلك على أساس أن الذي رسم سيسيليان في منصبه هو فيليكس Felix، الذي أتهم أنه كان خائنًا للكنيسة أثناء اضطهاد دقلديانوس. وكان دوناتوس يجادل بالقول إن فشل فيليكس في أن يظل أمينًا أثناء الاضطهاد قد أبطل سلطته لرسامة الغير لأنه قد اقترف خطية لا يمكن أن تغتفر. وانتخب دوناتوس وجماعته شخص اسمه ماجورينوس Majorinus لتنصيبه أسقفًا، ثم بعد أن مات ماجورينوس في عام ٣١٣م، أصبح دوناتوس نفسه هو الأسقف. وعندما وهب قسطنطين Constantine أموالاً للكنيسة في أفريقيا، تذمر الدوناتيون لأنهم لم يحصلوا على شئ منه. وقرر سنودس عُقد في روما أن سريان أي طقس وقيمته لا تعتمد في شئ على شخصية أو حياة الشخص الذي يجريه. على ذلك لم يعد للدوناتين Donatists أي حق في تلقي أي دعم مادي. ثم انعقد مجمع آخر في مدينة آرلز في عام ٣١٤م، حيث اتخذ قراراته ضد موقف الدوناتية. وقد اهتم أغسطينوس Augustine بهذا الأمر، مما دفعه ليكتب الكثير حول قضية السلطة في الكنيسة.

ويمكننا أن نقول في الختام أن نتائج المجادلات والمغالطات والهرطقات لم تكن دائمًا هدامة. لكن الكنيسة أجبرت على إيجاد أساس رسمي للحكم على قانونية الأسفار، وعلى صياغة قوانين الإيمان، مثل قواعد الإيمان التي صاغها ترتليانوس Tertullian وإيريناوس، والتي كانت تلخص التعاليم الأساسية للكتاب المقدس. وبتأثير وإلحاح الحاجة للرد على التعاليم اللاهوتية الخاطئة قام علم اللاهوت المسيحي. وتعاظم دور ومكانة الأساقفة وذلك بالتركيز على هذا المنصب باعتباره محورًا تتجمع حوله جهود مقاومة الهرطقات والمغالطات. كانت التعاليم الخاطئة تنشأ من خلال طموح بعض الأشخاص ومحاولاتهم الاستحواذ على السلطة على المؤمنين، سواء كان ذلك بالمغالاة في التركيز على تعليم معين، أو بالانسياق وراء بعض التفسيرات الخاطئة لبعض مقاطع الكلمة المقدسة، أو كانت تلك الاتجاهات تنمو نتيجة لموقف يتسم بعدم المحبة تتخذه الكنيسة تجاه قلة انحرفت بصورة أو بأخرى لكن هذه جميعها لم تضعف الكنيسة في نهاية الأمر بقدر ما دفعتها إلى التفكير العميق في عناصر إيمانها والاجتهاد في تطور تنظيماتها نحو الأفضل.

## اقتراحات للقراءة

يمكن الاعتماد على أي مرجع جيد في تاريخ العقيدة للحصول على معلومات إضافية حول العقائد التي سبقت مناقشتها.

*Frend,* W. H. C. The Donatist Church. *Oxford: Clarendon University Press, 1952. This is a full, scholarly discussion of Donatism.*

*Neve, Juergen L., and Heick, Otto W.* A History of Christian Thought. *2 vols. Philadelphia: Fortress; 1965-66. Although its emphasis is Lutheran, the work is still widely useful.*



صراع الكنيسة الأولى من أجل البقاء في الإمبراطورية الرومانية ١٠٠-٣١٣

## الفصل التاسع

# الكنيسة تدافع عن إيمانها

عبّرت الكنيسة عن إحساسها بذاتها خلال القرنين الثاني والثالث من خلال إنتاج أدبي من نوع جديد – ألا وهو كتابات المدافعين Apologists والمجادلين Polemicists. كان جاستين الشهيد Justin Martyr هو أعظم المدافعين، بينما برز إيريناوس Irenaeus بين جماعة المجادلين. واجه المدافعون عداءً سافرًا من الحكومة، ولكنهم حاولوا من خلال كتاباتهم أن يربحوا الحكومة إلى صف المسيحية بواسطة الأسانيد التي استخدموها والبراهين التي ساقوها. حاولوا أن يقنعوا قيادات الدولة بأن المسيحيين لم يفعلوا شيئًا يجعلهم يستحقون الاضطهادات التي كانت واقعة عليهم. أما المجادلون مثل إيريناوس، فإنهم كانوا يحاولون مواجهة تحدي حركات الهرطقات. وفي الوقت الذي كانت فيه كتابات آباء الكنيسة تخاطب المسيحيين وتكتب لهم، كان الكتاب من المدافعين والمجادلين يخاطبون قيادات الدولة الرومانية وقيادات الهراطقة في محاولة منهم لاستعادتهم مرة أخرى لحق الإنجيل من خلال حواراتهم ومجادلاتهم الأدبية. واستخدم المدافعون الصيغة الأدبية التي استخدمها الوثنيون وهي الحوار واستخدموا أيضًا الأسلوب القانوني في عرض القضايا.

### أولاً: المدافعون Apologists

كان للمدافعين هدف إيجابي وآخر سلبي وراء كتاباتهم. فمن الناحية السلبية كانوا يسعون لدحض الاتهامات الباطلة التي كان الكتاب الوثنيون مثل سلسوس Celsus يوجهونها لهم ومنها أن المسيحيين كانوا ملحدين ويأكلون لحوم البشر ويمارسون زواج المحارم، وأنهم كسالى غير منتجين ويمارسون أنشطة ضد المجتمع.

ولكن المدافعين أنشأوا أيضًا مدخلاً إيجابيًا بناءً، وذلك بإظهارهم أنه بمقارنة المسيحية مع غيرها من الديانات اليهودية والوثنية ودين الدولة فإن كل ما عدا المسيحية يبدو غير منطقي ولا نفع من ورائه بل ويتضمن أيضًا الكثير من الشرور. كانت كتاباتهم والتي عُرفت بالدفاعات، تقدم مناشدة فكرية منطقية إلى القيادات الوثنية وتهدف إلى خلق فهم مستنير للمسيحية وإزالة أي شبهات قانونية من حولها.

وكانت حجتهم الأساسية هي أن كل الاتهامات الباطلة الموجهة ضد المسيحية لا يمكن إثباتها، لذلك يستحق المسيحيون التمتع بمبدأ التسامح الديني

الذي توفره قوانين الدولة الرومانية. وقد كتب هؤلاء الرجال مؤلفاتهم كفلاسفة أكثر من كونهم لاهوتيين وركزوا على أسبقية المسيحية باعتبارها أقدم الأديان والفلسفات وذلك لأن أسفار موسى الخمسة أقدم و أسبق من حروب طروادة وأيضًا لأن كل حق وُجد في الفكر اليوناني تم استعارته من المسيحية أو اليهودية. وكانوا ينبرون بشدة على طهارة حياة المسيح، وعلى معجزاته وأيضًا على أن الكثير من نبوات العهد القديم عنه قد تحققت وكانوا يرون في هذا كله برهان على حقيقة أن المسيحية كانت أسمى الفلسفات. ولأن معظم هؤلاء الكتاب نالوا تعليمهم وتدريبهم في رحاب الفلسفة اليونانية قبل قبولهم الإيمان المسيحي، فإن معظمهم وجد في الفلسفة اليونانية وسيلة يمكن توظيفها في مساعدة الناس على قبول المسيح. وقد دأب المدافعون على الاستشهاد بالعهد الجديد ربما أكثر مما فعل آباء الكنيسة الأولون.

### أ- المدافعون الشرقيون

في نحو عام ١٤٠م، وجه أريستيدس Aristides، الذي كان فيلسوفًا مسيحيًا أثينيًا رسالة دفاعية Apology إلى الإمبراطور أنطونينوس بيوس Antonins Pius. وقد اكتشف رندل هاريس Rendel Harris ترجمة كاملة لهذه الرسالة إلى اللغة السريانية في مكتبة دير سانت كاترين على جبل سيناء في عام ١٨٨٩م. وتتضمن الفصول الأربعة عشر الأولى مقابلة ومقارنة ما بين العبادة المسيحية والعبادات الكلدانية واليونانية والمصرية واليهودية وذلك لإثبات تميز وأفضلية العبادة المسيحية. وتقدم الفصول الثلاثة الأخيرة صورة واضحة عن عادات وقيم الكنيسة الأولى.

كان جاستين الشهيد Justin Martyr (١٠٠-١٦٥ تقريبًا) من أبرز المدافعين في القرن الثاني. وكان قد ولد لأبوين وثنيين بالقرب من مدينة شكيم المذكورة في الكتاب المقدس، ومن بداية حياته أصبح فيلسوفًا متجولاً يبحث عن الحق. وقد جرب الفلسفة الرواقية ثم مثالية أفلاطون، ومن بعدها أفكار أرسطو Aristotle وإن كانت قد تشوهت تعاليمه في نظره بسبب الرسوم الدراسية الباهظة التي فرضها خلفاؤه على طالبي العلم - ثم تتلمذ أيضًا على فسلفة فيثاغورس Pythagoras العددية. ولكن جاستين لم يصل إلى السلام الذي كان ينشده إلا عندما صادف رجلاً مسنًا كان يتمشى على شاطئ البحر، وقاده هذا الرجل إلى البحث عن الحق في الكتاب المقدس باعتباره منهل الفلسفة الحقيقية. (الحوار مع تريفو Dialogue with Trypho الفصول ٢-٨). ثم افتتح جاستين مدرسة مسيحية في روما.

وبعد عام ١٥٠م بقليل، وجه جاستين الشهيد أول رسائله الدفاعية First Apology إلى الإمبراطور أنطونينوس بيوس Antoninus Pius وأبنائه بالتبني. وفي هذه الرسالة ناشد جاستين الإمبراطور وأولاده فحص الاتهامات الموجهة ضد المسيحية (الفصول ١-٣)، وتحرير المسيحيين من المسئولية القانونية إذا ثبتت براءتهم. وقد أثبت في رسالته أن المسيحيين لم يكونوا لا ملحدين ولا عابدي أوثان (٤-١٣). وخصص القسم الأكبر من كتابه (١٤-٦٠) لعرض ومناقشة أخلاقيات وعقائد وحياة مؤسسي المسيحية. وسعى لإظهار أن حياة المسيح وأخلاقه الفاضلة قد تنبأ بها العهد القديم قبل مجئ المسيح. وقد أرجع جاستين الأخطاء التي تعرضت لها المسيحية والاضطهادات إلى عمل





الشيطان. أما الفصول الأخيرة (٦١-٦٧) فقد أفردها لشرح عناصر عبادة المسيحيين. وجادل في نهاية رسالته بأن ساق الحجة القائلة أنه بما أن الفحص الدقيق سوف يُظهر أن المسيحيين كانوا بلا لوم من جهة جميع التهم التي وجهت إليهم، لذلك ينبغي أن يتوقف الاضطهاد الذي كانوا يتعرضون له.

أما رسالته الدفاعية الثانية Second Apology، فلم تكن إلا ملحقًا لرسالته الأولى. وفيها يعدد جاستين نماذج للقسوة والوحشية والمظالم التي كان المسيحيون يتعرضون لها. وبعد أن عقد مقارنة بين المسيح وسقراط، أشار إلى أن كل صلاح في البشر مرجعه عمل المسيح.

وفي كتابه المعروف باسم "الحوار مع تريفو" سعى جاستين لإقناع اليهود بأن يسوع المسيح هو المسيا الذي ينتظرونه. فكان يفسر ما جاء في العهد القديم مجازيًا وينبر على مختلف النبوات في محاولته كسب اليهود. والفصول الثمانية الأولى من هذا الكتاب عبارة عن سيرة ذاتية وتقدم مصدرًا ممتازًا للمعلومات عن حياة هذا الكاتب العظيم. أما القسم الأكبر من الكتاب (الفصول ٩-١٤٢) فهو بمثابة عرض وتمحيص ثلاثة أفكار وهي: علاقة تضاؤل أهمية الناموس في العهد القديم مع تصاعد أهمية الإنجيل، والثانية هي ربط اللوجوس والمسيح بالله، والثالثة تدور حول دعوة الله للأمم ليصبحوا من ضمن شعب الله. وكان المسيح بالنسبة لجاستين Justin هو التحقيق الكامل لنبوات العهد القديم.

كان تاتيان Tatian (١١٠-٧٢ تقريبًا) تلميذًا لجاستين في روما، وأصبح من أبرز العلماء في الشرق واشتهر بأسفاره الكثيرة. وقد ألف تاتيان عملاً عُرف بعنوان "خطاب إلى اليونانيين" Address to the Greeks وذلك بعد منتصف القرن الثاني وهو عبارة عن هجوم وتفنيد لإدعاءات اليونانيين بأن لهم الريادة الثقافية والحضارية وقد صيغت الرسالة في قالب دفاعي. وأهمية هذا العمل بالنسبة لنا أنه موجه إلى شعب بأكمله: الشعب اليوناني. وقد استخدم تاتيان الحجة التي تقول: بما أن المسيحية لها أفضلية على الديانة والفكر اليوناني فإنه من حق المسيحيين أن ينالوا معاملة أكثر إنصافًا.

أما القسم الثاني (الفصول من ٥-٣٠) فقد خصصها تاتيان للمقارنة ما بين التعاليم المسيحية والأساطير والفلسفة اليونانية. وفي القسم التالي يؤكد تاتيان أن المسيحية لها جذور أقدم من الفكر والدين اليوناني لأن موسى عاش في زمن يسبق حروب تروجان (٣١-٤١). وقدم أيضًا مناقشة طريقة لفن النحت اليوناني الذي شاهده في مدينة روما (٣٣-٣٤). وإلى جانب كون تاتيان هو مؤلف الخطاب Address إلى اليونانيين فهو أيضًا الذي جمع الدياتسارون Diatessaron، وهي أقدم نسخة توفيقية بين الأناجيل الأربعة.

كان أثيناجوراس Athenagoras أستاذًا في أثينا، وقد تجدد بقراءته للكتاب المقدس. وفي نحو عام ١٧٧ ألف عملاً اسمه "طلبات من أجل المسيحيين" Supplication for the Christians. وبعد أن ذكر الاتهامات التي توجه للمسيحيين في الفصول التمهيدية، منذ تهمة الإلحاد التي وجهت للمسيحيين بأن بيّن أن الآلهة الوثنية هي من صنع البشر (الفصول من ٤-٣٠) بل وإن الآلهة الوثنية

يمكن اتهامها بنفس الشرور التي يقترفها البشر الذين يتبعونها (٣١-٣٤). وكما بيّن أن المسيحيين لا يتزوجون المحارم ولا يأكلون أطفالهم في احتفالاتهم الدينية (٣٥-٣٦)، وعلى ذلك استنتج في الفصول الختامية أن الإمبراطور ينبغي أن يمنحهم عفواً شاملاً بل وحقاً ثابتاً في الوجود.

تجدد ثيوفيلوس Theophilus من أنطاكية أيضاً بقراءته للكتاب المقدس، وكتب في وقت ما بعد عام ١٨٠م الرسالة الدفاعية لأوتوليكوس Apology to Autolycus الذي كان على ما يبدو قاضياً وثنياً واسع الثقافة، وكان ثيوفيلوس يأمل في استمالته للمسيحية عن طريق الجدل المنطقي. ففي الكتاب الأول، ناقش ثيوفيلوس طبيعة الله وتفرده. وفي الكتاب الثاني قارن ضعفات الديانات الوثنية بنقاط القوة في المسيحية. وفي الكتاب الثالث والأخير أجاب على اعتراضات أوتوليكوس على الإيمان المسيحي. وكان ثيوفيلوس أول من استخدم كلمة ثالوث للإشارة إلى الله المثلث الأقانيم.

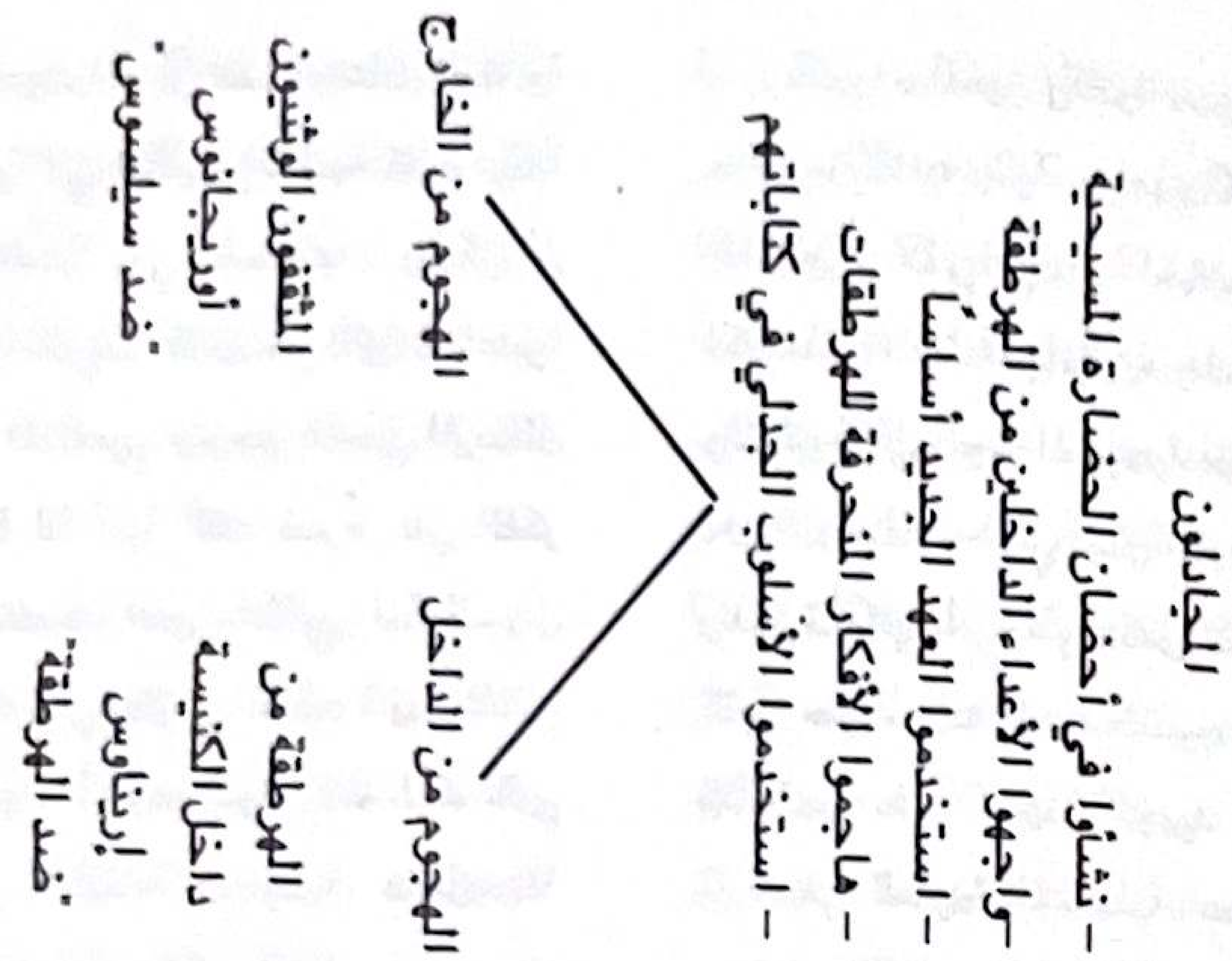
ب- المدافعون الغربيون:

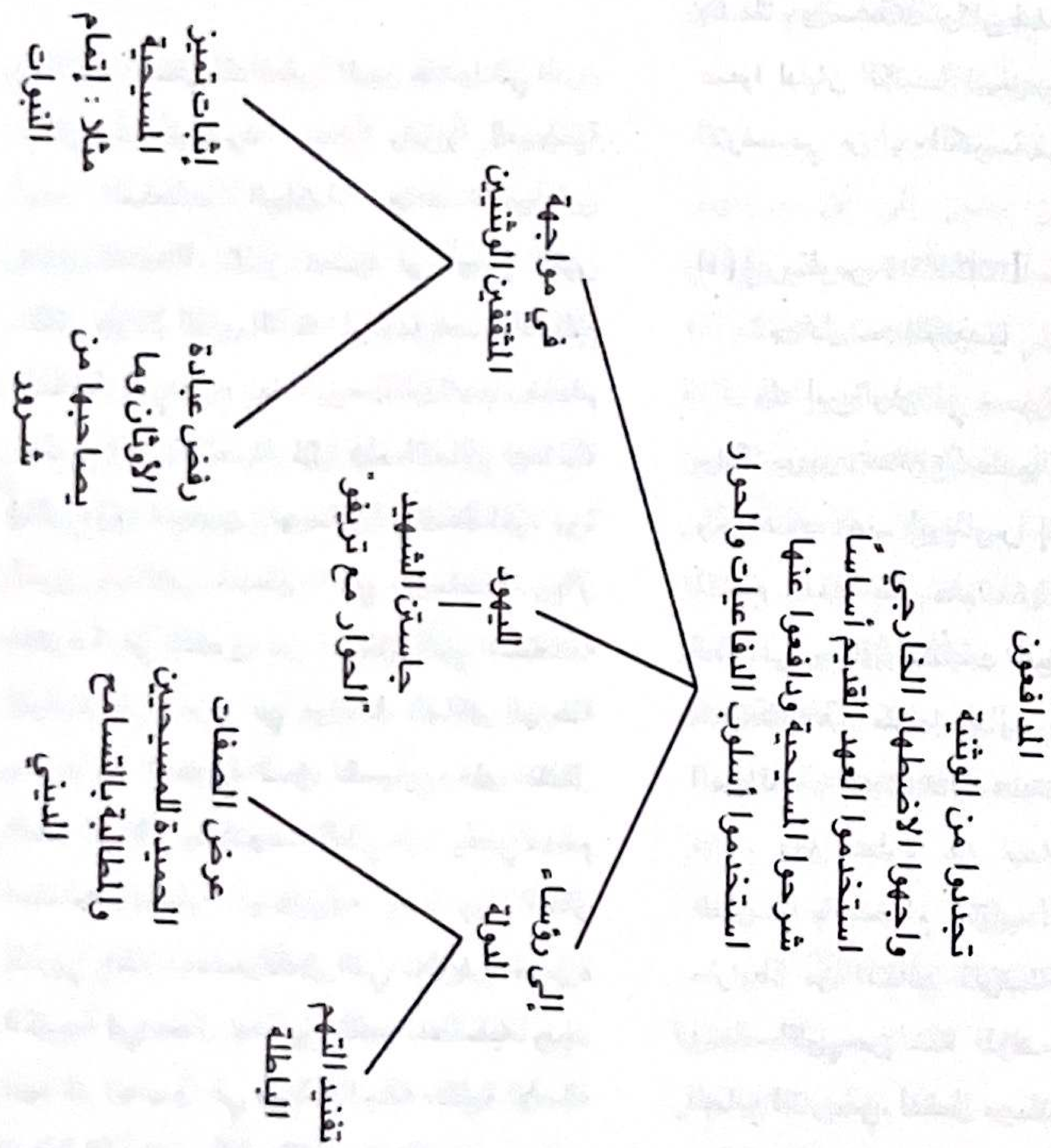
أولى الكتاب من المدافعين Apologists الغربيين اهتماماً أكبر بابراز مميزات وكمال المسيحية أكثر من عرضهم لأوجه التشابه ما بين المسيحية والديانات الوثنية.

كان ترتليان Tertullian هو أبرز المدافعين في الكنيسة الغربية. وقد ولد نحو عام ١٦٠م في بيت قائد مئة روماني يؤدي مهامه العسكرية في قرطاجة. وقد تلقى تعليمه باليونانية واللاتينية معاً مما أعطى له ميزة التمكن من دراسة الأدب الكلاسيكي. وأصبح محامياً معتمداً بل وكان يُدرس الإلقاء ويمارس المحاماة في روما، حيث تجدد وصار مسيحياً. كانت طبيعته نارية يميل إلى النزال والعراك الأمر الذي دفعه لاتخاذ النظرة التطهرية للحياة التي كانت للمونتانية Montanism في وقته، فصار من المونتانيين في حوالي عام ٢٠٢م. كان ذهنه اللاتيني المنطقي مكرساً لتطوير فكر لاهوتي غربي سليم. ولدحر وهزيمة كل الدعاوي الفلسفية والقوى الوثنية التي كانت تقاوم المسيحية.[1]

وفي رسالته الدفاعية Apology التي وجهها للحاكم الروماني للإقليم، فنَّد التهم القديمة التي كانت توجه إلى المسيحيين، وجادل بأنهم مواطنون صالحون لهم ولاؤهم الكامل للإمبراطورية. وأبرز حقيقة أن الاضطهاد الموجه ضدهم قد فشل ولم يحقق الهدف منه لأن المسيحيين كانوا يتزايدون بل ويتضاعف عددهم كلما حاولت السلطات أن تنال منهم بالاضطهاد.[2] وقد ظهر تأثير التعليم القانوني الذي ناله ترتليان Tertullian عندما جادل بأن الدولة إنما تضطهد الكنيسة على أسس قانونية مشكوك فيها، وذلك لأن ارتباطات المسيحيين وعقائدهم وأخلاقهم جميعها تثبت يوماً بعد يوم أنها على مستوى أسمى من حياة جيرانهم من الوثنيين.
كتب مينوسيوس فيلكس Minucius Felix في حوالي عام ٢٠٠م حواراً أسماه أكتافيوس Octavius. وكان هذا عبارة عن رسالة دفاعية تهدف إلى ربح صديقه سيسيليوس Caecilius من الوثنية إلى الإيمان المسيحي.

ومن المعلوم أن المحاولات التي بُذلت لنيل رضى وقبول العالم الوثني باستخدام هذا المدخل المنطقي الأخلاقي أدَّت إلى نوع من الصياغة التركيبية جعلت من المسيحية مجرد فلسفة أخرى وإن كانت



تتميز عن غيرها. والواقع أن هذه الرسائل الدفاعية وإن كانت فلسفية في شكلها، إلا أنها كانت دائماً مسيحية في أساسها وفي مضمونها. ويمكن أن يتأكد القارئ من ذلك إذا عكف على القراءة العابرة لكتابات هؤلاء المدافعين وترجع أهمية الرسائل الدفاعية بالنسبة لنا أنها ألقت ضوءاً على الفكر المسيحي في منتصف القرن الثاني. أما السؤال عما إذا كانت تلك الرسائل قد حققت الهدف الذي قصده مؤلفها منها ، ألا وهو إنهاء الاضطهاد الذي كان واقعاً على الكنيسة المسيحية، فيظل هذا السؤال مطروحاً.

## ثانياً: المجادلون

بينما سعى المدافعون، الذين عاشوا في القرن الثاني، لتقديم شرحاً منطقياً وتبريراً للمسيحية أمام السلطات الحاكمة، جاهد المجادلون Polemicists، الذين عاشوا في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث، لمواجهة تحدي التعاليم الخاطئة التي روج لها الهراطقة وذلك باستخدام أسلوب الإدانة العنيفة لمثل هذه التعاليم الخاطئة ولمثل هؤلاء المعلمين المهرطقين. ويلاحظ المرء مرة أخرى اختلاف المدخل الذي استخدمه رجال الكنيسة في الشرق عن المدخل الذي استخدمه أقرانهم في الغرب في مواجهة مشاكل الهرطقة والصياغة اللاهوتية للحق المسيحي. فقد انشغل العقل الشرقي باللاهوت التأملي حيث يعطي معظم اهتمامه للقضايا الميتافيزيقية. بينما يهتم العقل الغربي أكثر بالانحرافات التي تعترض مسيرة الكنيسة في مجال إدارتها ونظمها الداخلية، ونجد أنهم قد اجتهدوا في صياغة إجابة سليمة للأسئلة العملية التي تتضمنتها مثل هذه المشكلات.

كتب المدافعون وكانوا حديثي الإيمان إذ إنهم جاءوا من خلفية وثنية، موجهين كتاباتهم نحو الخطر الخارجي الذي يتهدد سلامة الكنيسة، وهو الاضطهاد. أما المجادلون، والذين ترجع خلفياتهم ونشأتهم إلى البيئة المسيحية فقد انصب اهتمامهم على الهرطقات، التي تمثل التهديد الداخلي لسلام وطهارة الكنيسة. وعلى عكس المدافعين الذين ركزوا كثيراً على نبوات العهد القديم، ركّز المجادلون في كتاباتهم على العهد الجديد باعتباره المصدر الرئيسي للعقيدة المسيحية. حاول المجادلون أن يدينوا التعاليم الخاطئة عامدين إلى كشف نقائصها والقضاء عليها. أما المدافعون فكانوا يحاولون شرح المسيحية لجيرانهم من الوثنيين وللحكام والسلطات. وكان آباء الكنيسة من قبل قد سعوا لبنيان الكنيسة المسيحية. ارجع إلى الشكل التوضيحي عن آباء الكنيسة في الفصل الخامس.

### (أ) إيريناوس Irenaeus

المجادل ضد الغنوسية

ولد إيريناوس في سميرنا حيث تأثر بعظات بوليكاربوس Polycarp عندما كان أسقفاً لسميرنا، ومن هناك ذهب إيريناوس إلى بلاد الغال حيث أصبح أسقفاً قبل عام ١٨٠م. وكان ناجحاً في عمله في مجال الكتابات الجدلية ضد الغنوسية Gnosticism. كتب إيريناوس كتابه المشهور "ضد الهرطقات" Adversus Haereses حوالي عام ١٨٥، وهو عبارة عن محاولة لتفنيد التعاليم الغنوسية باستخدام الكتاب المقدس وتطوير مادة مترابطة من التقاليد المرتبطة بالموضوع. ويعتبر المجلد الأول من هذا المؤلف، والذي يغلب عليه الطابع التاريخي، أفضل مصادر معرفتنا بما يتعلق بتعاليم الغنوسية وعقائدها. وهو عبارة عن نص





جدلي ضد فالنتينيان Valentinian زعيم المدرسة الرومانية للغنوسية. وفي المجلد الثاني ينبر إيريناوس على وحدانية الله معارضاً فكرة الغنوسية بوجود الكائنات الوسيطة التي تقول الغنوسية إنها منبثقة من الله. ثم ما يلبث الاتجاه السلبي الذي ساد المجلدين الأول والثاني أن يفسح المجال لعرض إيجابي قوي لموقف المسيحية في المجلدات الثلاثة الأخرى. ففي المجلد الثالث يتم تفنيد الغنوسية من خلال الكتاب المقدس وكتابات الآباء من التقليد المسيحي. وفي المجلد الرابع يدان فكر مارسيون Marcion وذلك بعرض أقوال المسيح التي تعارض ما قال به مارسيون في تعليمه. أما المجلد الأخير فهو توكيد لعقيدة القيامة والتي كان الغنوسيون يعارضونها لأنها بحسب اعتقادهم تربط ما بين الجسد المادي الشرير والروح.

ويجدر بنا أن نشير إلى أن إيريناوس Irenaeus في المجلد الثالث ينبر على الوحدة العضوية للكنيسة التي تتحقق لها من خلال الخلافة الرسولية[٣] التي يمكن من خلالها تتبع سلطان قادة الكنيسة رجوعاً به إلى المسيح نفسه، وأيضاً تتحقق من التزام الكنيسة بالإيمان القويم.[٤] كان إيريناوس مدركاً للوحدة التي يمكن أن تحققها كنيسة مترابطة ترابطاً وثيقاً، وكان يرى أن مثل هذه الكنيسة يمكن لها بسهولة مقاومة انحرافات الأفكار الهرطوقية ومواجهة الذين يروجونها.

### (ب) مدرسة الاسكندرية

The Alexandrian School

في نحو عام ١٨٥ أنشأت في الاسكندرية مدرسة لتعليم المؤمنين الجدد الذين جاءوا إلى المسيحية من خلفية وثنية. وكان أول قائد لها هو بانتيانوس Pantaenus وهو شخص مقتدر تحول إلى المسيحية، بحسب ما يقوله البعض من الفلسفة الرواقية. ثم خلفه كل من اكليمندس Clement وأوريجانوس Origen في قيادة هذه المدرسة المؤثرة في الفكر المسيحي.

وكان رجال مدرسة الاسكندرية تواقون إلى ابتكار وتطوير نظام لاهوتي يتيح لهم، باستخدام الفلسفة، تقديم عرض منظم للمسيحية. كان أولئك الرجال قد نالوا قسطاً وافراً من التعليم والتثقيف في الآداب الكلاسيكية والفلسفة القديمة وكانوا يظنون أنه يمكن الاستفادة منها في صياغة علم اللاهوت المسيحي.

لذلك فبدلاً من التركيز على التفسير اللغوي التاريخي للكتاب المقدس، طوروا لأنفسهم نظاماً مجازياً Allegorical رمزياً للتفسير سبب ضرراً كبيراً للمسيحية منذ ذلك الحين. وهذا النوع من التفسير مبني على افتراض أن كلمات الكتاب المقدس لها أكثر من معنى واحد. وباستخدام التشبيه بأن الإنسان لديه جسد ونفس وروح ، قالوا إن الكلمة المقدسة لها معنى حرفي تاريخي يقابل الجسد البشري، ولها أيضاً معنى معنوي مستتر يقابل النفس البشرية، ثم معنى أعمق كامن فيها وله طبعة روحية ولا يستطيع أن يصل إليه إلا المؤمنون المتقدمون روحياً. وقد نشأ هذا النوع من التفسير من الأساليب التي استخدمها فيلو Philo، اليهودي السكندري، الذي حاول أن يربط اليهودية بالفلسفة اليونانية وذلك عن طريق اكتشاف المعاني المستترة في اللغة المستخدمة في العهد القديم والتي يمكن ربطها بالفلسفة اليونانية. فبدلاً من الاهتمام بالمعنى الذي قصده الكاتب الأصلي وأراد توصيله

إلى من كتب إليهم، ثم محاولة تطبيق ذلك على الظروف وقتئذ، كان رجال مدرسة الاسكندرية Alexandria يبحثون دائمًا عن المعاني المستترة. ولقد سببت هذه الطريقة في التفسير ضررًا كبيرًا لمحاولات الكنيسة للوصول إلى التفسير الصحيح للكلمة المقدسة بل ونتج عنها بعض المفاهيم اللاهوتية الغريبة التي ليس لها ما يدعمها في الكتاب المقدس.

وُلد اكليمندس السكندري Clement of Alexandria - والذي يجب التمييز بينه وبين اكليمندس أسقف روما Clement of Rome الذي كان من آباء الكنيسة، وُلد في أثينا نحو عام ١٥٠م لوالدين وثنيين. وقد سافر كثيرًا وتجول في مختلف البلاد يدرس الفلسفة على يد العديد من المعلمين قبل أن يبدأ الدراسة على يد بانتيانوس Pantaenus. وقبل عام ١٩٠م كان اسمه يرد مرتبطًا ببانتيانوس كأحد قادة مدرسة الاسكندرية، ثم من عام ١٩٠م وحتى عام ٢٠٢م كان إكليمندس يرأس المدرسة حتى أجبره الاضطهاد على ترك موقعه فيها. وضع إكليمندس أمامه هدفًا ومثلاً أعلى يتمثل في أن يصبح الفيلسوف المسيحي. كان يريد أن يربط الفلسفة اليونانية بالمسيحية حتى يستطيع الإنسان أن يرى أن المسيحية هي الفلسفة الأعظم والأشمل. كانت لاكليمندس قراءاته الواسعة في الأدب اليوناني الوثني بل إنه اقتبس في كتاباته من كتابات ما يقرب من خمسمائة كاتب ومؤلف آخر.

وكتابه المشهور Protrepticus أو "خطاب إلى اليونانيين" Address to the Greeks هو عبارة عن وثيقة دفاعية كرازية كتبها حوالي سنة ١٩٠م بهدف إظهار تميز وتفوق المسيحية باعتبارها الفلسفة الحقة وذلك حتى ما يؤثر على الوثنيين ويدفعهم لقبولها. ومن مؤلفاته الأخرى عمل اسمه Paidagogos أو "المرشد" Tutor الذي كان عبارة عن بحث أخلاقي يتضمن إرشادات لحديثي الإيمان من الشباب المسيحي، وفيه يصور المسيح باعتباره المعلم الحقيقي الذي يقدم قواعد الحياة المسيحية. وأيضًا كتاب اسمه Stromata أو "متنوعات" Miscellanies، ويظهر فيه الدراية الواسعة التي كانت لاكليمندس بالكتابات الأدبية الوثنية المعاصرة له. ففي المجلد الأول يقدم المسيحية باعتبارها المعرفة الحقة ويقدم المسيحي باعتباره صاحب المعرفة الحقيقية.

كان اكليمندس يؤمن أن الفلسفة اليونانية قد استعارت الحق الذي تتضمنه من العهد القديم وكان يرى أن الفلسفة اليونانية كانت بمثابة تمهيد للإنجيل.[٥] وفي المجلد الثاني يبين أن الأخلاقيات المسيحية تفوق الأخلاقيات الوثنية. وفي المجلد الثالث يقدم شرحًا وافيًا عن الزواج المسيحي. وفي المجلدين السابع والثامن، وهما أهم مجلدين، يقدم تصويرًا واضحًا لمراحل تطور الحياة الدينية للمسيحيين.

لا يوجد أدنى شك أن أكليمندس كان يفضل الثقافة اليونانية ولكن كل من يدرس كتاباته بعناية لابد وأن يخرج بإنطباع واضح بأنه كان يعتبر أن الكتاب المقدس له المكانة الأولى في حياة كل مسيحي. وفي نفس الوقت، وبما أن كل الحق يأتي من الله، فالحق الذي تحتويه الثقافة اليونانية ينبغي أن يوظف لخدمة الله. لكن الخطر الذي يكمن في هذا الموقف هو أن المرء يمكن ودون أن يدرك يوفق





ما بين المسيحية والثقافة اليونانية حتى تصبح المسيحية مجرد صيغة توفيقية ما بين الفكر الكتابي والفلسفة اليونانية.

كان أوريجانوس Origen (١٨٥-٢٥٤) تلميذًا لاكليمندس وخليفة له في قيادة مدرسة الاسكندرية Alexandria أصبح أوريجانوس مسئولاً عن إعالة أسرته المكونة من ستة أفراد وهو مازال في السادسة عشر من عمره وذلك عندما استشهد أبوه ليونيدس. وبحسب ما جاء في إحدى الروايات، أن أوريجانوس أراد أن يستشهد هو الآخر مع أبيه، ولكن أمه خبأت ملابسه حتى تجبره على البقاء في البيت. تميز أوريجانوس بالعلم والمقدرة حتى إنه تم اختياره وهو بعد في الثامنة عشر من عمره، أي في عام ٢٠٣م، خليفة لأكليمندس في رياسة مدرسة الاسكندرية، وهو المنصب الذي استمر يشغله حتى عام ٢٣١. أصبح أمبروز Ambrose وهو ثري تجدد من الغنوسية Gnosticism، صديقًا لأوريجانوس Origen وعمل على نشر كتبه الكثيرة. وطبقًا لأحد التقديرات، كتب أوريجانوس ستة آلاف لفافة من ورق المخطوطات. وعلى الرغم من المكانة العظيمة التي وصل أوريجانوس إليها، ومن وجود صديقه الثري بالقرب منه، إلا أنه عاش حياة نسكية بسيطة وكان ينام على سرير من الألواح الخشبية الجامدة.[٦]

ويمكن أن نعقد مقارنة بين أوريجانوس وأغسطينوس Augustine من جهة المدى الذي وصلت إليه أعماله. ويمكن أن نرجع أصول علوم الدراسة النقدية لنصوص الكتاب المقدس إلى الكتاب الذي عُرف باسم السداسية Hexapla والتي جمع فيه أوريجانوس عدة ترجمات عبرية ويونانية لنصوص العهد القديم ورتبها في أعمدة متوازية.[٧] وقد حاول أوريجانوس في هذا العمل أن يوفر للمسيحيين نصًا موثوقًا به يكون أقرب ما يمكن للنص الأصلي. وقد قاد هذا الاهتمام الكبير بالنص الأصلي أوريجانوس إلى أن يقوم بجهد تفسيري أكبر من أي جهد آخر بُذل قبل عصر الإصلاح. ومن كتاباته الأخرى كان العمل الذي عُرف بعنوان "ضد سيلسوس" Against Celsus الذي كان عبارة عن بيان يجيب على التهم الذي وجهها الفيلسوف الأفلاطوني سيلسوس ضد المسيحيين في كتاب ألفه اسمه "الحوار الحقيقي" True Discourse. وقد تعامل أوريجانوس مع اتهام سيلسوس للمسيحية بأنها غير منطقية وأنها تفتقر إلى الأسس التاريخية المؤكدة، وذلك بأن ركز على التغيير الجذري في السلوك والذي تحدثه المسيحية في حياة تابعيها ومقارنة ذلك مع الوثنية، وأيضًا اتساع أفق المسيحيين في بحثهم عن الحق، وتأثير حياة المسيح الطاهرة باعتباره مؤسس المسيحية وما يظهر من هذه الطهارة في حياة المسيحيين عمومًا.

ولعل أعظم ما أسهم به أوريجانوس من الكتابات المسيحية هو عمله بعنوان De Principiis الذي ألفه عام ٢٣٠م، والذي لم يصل إلينا إلا في اللغة اللاتينية التي ترجمها روفينوس Rufinus. وهذا العمل هو أول بحث مسيحي في اللاهوت النظامي. وفي المجلد الرابع من هذا العمل، طور وعرض أوريجانوس نظام التفسير المجازي بكل إسهاب. ولكن مما يؤسف له، أنه وإن كان يرى أن المسيح موجود منذ الأزل مع الآب، إلا أنه اعتبره في مكانة أقل من الآب. وتبنى أيضًا فكرة الوجود المسبق للروح البشرية، وأيضًا فكرة الاستعادة

النهائية لكل الأرواح البشرية، وكان يرى أن موت المسيح كان مقصوداً به دفع فدية للشيطان، وأنكر أيضاً القيامة المادية للأجساد.

### (ج) مدرسة قرطاجنة
### Carthaginian School

اهتم العقل الغربي أو اللاتيني بالأمور العملية في تنظيم الكنيسة، وقواعد إدارتها، وبالعقائد المرتبطة بحياة الكنيسة وذلك بدلاً من نوع الفكر اللاهوتي التأملي الذي استهوى علماء من أمثال أوريجانوس Origen. ويمكن لنا إدراك ذلك الاختلاف البين عند مقارنتنا ما بين ما كتبه أوريجانوس وما كتبه ترتليان Tertullian أو كبريانوس Cyprian من شمال أفريقيا. برع ترتليان فيما كتب في العديد من الموضوعات المتنوعة، وإن كان ما كتبه قد شابه قدر من عدم احتمال الآراء الأخرى. وقد عرضنا وناقشنا الرسالة الدفاعية Apology التي كتبها مدافعاً عن المسيحيين في وجه ما نسب إليهم من تهم باطلة واضطهادات.

وقد كتب أيضاً عن أمور عملية إلى جانب ما كتبه عن القضايا الدفاعية. فقد نشر كتيبات صغيرة يشجع فيها النساء على الإكتفاء بالزينة والملابس البسيطة، ويوصي المؤمنين بعدم الاشتراك في اللهو والترفيه مع الوثنيين، ولا في الشرور المختلفة أو عبادة الأوثان. ويبدو أن مثل هذه الكتابات في أمور السلوك العملي كانت نتيجة لتوجهه نحو التطهرية المونتانية

إلا أن كتابات ترتليان اللاهوتية هي التي أكسبته أهميته الفريدة. فقد كان هو مؤسس اللاهوت الغربي (اللاتيني) وكان أول من عبر عن العقيدة اللاهوتية الخاصة بالثالوث، وأول من استخدم ذلك التعبير لوصف وصياغة هذه العقيدة وقد دون ذلك في كتابه المعنون "ضد براكسيس" Agaisnt Praxeas (الفصول ٢-٣) الذي كتبه حوالي عام ٢١٥م. نبر ترتليان على ضرورة التمييز بين أقنوم الآب وأقنوم الابن. وفي كتابه De Anima، وفي حديثه عن النفس البشرية، أكد على العقيدة المشكوك في صحتها القائلة بأن نفس الطفل تنقل إليه بواسطة أبويه عند إنجابه. وفي كتابه "عن المعمودية" Of Baptism وضع أهمية كبيرة على طقس المعمودية، وكان يعتقد أن كل الخطايا التي يقترفها الإنسان قبل معموديته هي من الخطايا المميتة، وكان يعارض معمودية الأطفال Infants Baptism.

ولد كبريانوس لأبوين ثريين من الوثنيين بعد عام ٢٠٠م بقليل، وذلك في نفس المدينة التي ولد فيها ترتليان Tertullian، وتلقى تعليماً جيداً في الخطابة والقانون. وأصبح معلماً ناجحاً للخطابة، ولكنه لم يجد الشبع الذي كانت تنشده روحه حتى صار مسيحياً في عام ٢٤٦ تقريباً. وأصبح أسقفاً لقرطاجنة Carthage نحو عام ٢٤٨م، وهو المنصب الذي ظل يشغله لمدة تسع سنوات حتى استشهد في عام ٢٥٨م تقريباً. كان كبريانوس شخصية إدارية تنظيمية عظيمة. وقاوم بشدة ادعاءات اسطفانوس أسقف روما بأن له السيادة على كل الأساقفة الآخرين.

ومع أن كبريانوس كان ينظر إلى ترتليان باعتباره معلمه، بحسب ما قاله جيروم Jerome، إلا أن كبريانوس كان هادئاً في الوقت الذي كان فيه





ترتليان ذا طبيعة عاطفية جياشة. وأهم ما كتبه كبريانوس هو العمل المعروف باسم De Unitate Catholicae Ecclesiae ومعناها "وحدة الكنيسة الكاثوليكية" الذي كان موجهاً ضد الانشقاقيين من أتباع نوفاتيان، الذي بدأ وكأنه مصمم على تحطيم وحدة الكنيسة. وأوضح كبريانوس أنه يوجد فرق بين وظيفة الأسقف ووظيفة الشيخ، مؤكداً على مكانة الأسقف باعتباره مركزاً لوحدة الكنيسة وضماناً ضد انقسامها. وبينما لم يوافق على فكرة سيادة الخلافة الأسقفية للرسول بطرس في روما، إلا أنه أكد على أهمية إعطاء الكرامة لبطرس الرسول باعتبار دوره في تتبع خط الخلافة الرسولية رجوعاً إلى بدايات تاريخ الكنيسة. وإن كان المرء يستطيع أن يقرر أن ترتليان ساعد على صياغة عقيدة الثالوث بل واستحدث تعبير "الثالوث" الذي عُرفت به هذه العقيدة، فإننا نستطيع أيضاً أن نقول إن كبريانوس قدم أقدم الصياغات لعقائد مثل الخلافة الرسولية، والكرامة الخاصة لأسقف روما في الكنيسة.

واتجه كبريانوس Cyprian إلى اعتبار رجال الكنيسة مثل الكهنة الذين كانوا يقدمون الذبائح على اعتبار أنهم يقدمون جسد المسيح ودمه في خدمة العشاء الرباني.[8] وقد تطورت هذه الفكرة مع الزمن حتى تحولت إلى عقيدة.

## اقتراحات للقراءة

سيجد القارئ أن معظم القراءات المذكورة في نهاية الفصل الخامس مفيد في الموضوعات التي تتعلق بها.

*Farrar, Frederick W.* Lives of the Fathers. *2 vols. New York: Macmillan, 1889 Volume 1 is a useful work on the lives and work of the leading Fathers of this period.*

*Leigh-Bennet, Ernest.* Handbook of the Early Christian Fathers. *London: Williams & Norgate, 1920. This handbook contains good biographical material and discussions of the works and theological ideas of the leading church fathers in this period.*

## الفصل العاشر

# الكنيسة تضم صفوفها

أجبرت الكنيسة في الفترة ما بين عام ١٠٠ وعام ٣١٣ على تدبر أمرها في كيفية مواجهتها للتهديد الخارجي الذي جاء عليها في صورة الاضطهاد من الدولة الرومانية، والمشاكل الداخلية التي خلقتها التعاليم الخاطئة وما نتج عنها من انشقاقات. سعت الكنيسة لضم صفوفها وتقوية جبهتها الداخلية وذلك بالاهتمام أولاً بإقرار قائمة من أسفار العهد الجديد القانونية لتكون الأساس للإيمان والأعمال. ثم اهتمت الكنيسة بإيجاد قانون للإيمان يعبر رسمياً عن إيمانها وعقيدتها. ثم الطاعة للأساقفة Bishops الذين كان يرأسهم أسقف روما الذي وحد الكنيسة بحسب دستورها.

كتب المجادلون مجلداتهم عن حواراتهم مع الهراطقة وصارت الكنيسة حوالي عام ١٧٠م تدعو نفسها بالكنيسة "الكاثوليكية" أو الكنيسة الجامعة، وهو التعبير الذي كان إغناطيوس Ignatius أول من استخدمه في رسالته إلى سميرنا Epistle to Smyrna (الفصل الثامن).

## ١-الأسقفية الرياسية

أدت مجموعة من الضرورات النظرية والعملية إلى تنظيم مكانة أحد الأساقفة في كل الكنيسة حتى أصبح الشعب يراه ويعتبره أعلى مكانة أو له السيادة على الشيوخ الآخرين الذين يعملون معه بحسب نظام العهد الجديد. كان الاحتياج لظهور قيادات واضحة لمواجهة المشكلات نتجت عن الاضطهاد والهرطقات، من الاحتياجات العملية التي أملت على الكنيسة توسيع دائرة نفوذ الأسقف Bishop وسلطانه. وقد كانت صياغة عقيدة الخلافة الرسولية وتزايد أهمية العشاء الرباني عوامل مهمة ساعدت على تزايد قوة الأسقف ولم يكن الأمر يحتاج إلا إلى خطوة قصيرة ليتم الاعتراف بأن رؤساء الأساقفة لبعض الكنائس كانوا أكثر أهمية من غيرهم. وسرعان ما أدى تعاظم مكانة رؤساء الأساقفة في منتصف القرن الثاني إلى الاعتراف بالكرامة الخاصة التي يستحقها اسقف روما دون غيره من الأساقفة.

وتضافرت عدة اعتبارات لكي تضيف إلى كرامة ومكانة أسقف روما. كان أولها وأهمها هو القول الذي شاع منذ بداية تاريخ الكنيسة وهو أن المسيح نفسه أعطى بطرس Peter، الذي يُفترض أنه كان أول أسقف لروما، مكان الصدارة بين الرسل وذلك على اساس ما يُعتقد بأن المسيح قد عيَّن بطرس ليكون الصخرة التي يبني عليها

كنيسته (مت ١٨:١٦). وبحسب ما جاء أيضاً في مت ١٩:١٦، فإن المسيح أعطى بطرس Peter مفاتيح الملكوت ثم كلفه أيضاً "ارع غنمي" (يوحنا٢١:١٥-١٩).

وينبغي أن نذكر أنفسنا أنه في الرواية التي وردت في إنجيل متى، استخدم المسيح كلمتين مختلفتين تعني كل منها "صخرة". ولا يوجد على الإطلاق ما يوضح أو يجزم بأن الصخرة التي قال المسيح إنه سيبني عليها كنيسته هي نفسها بطرس الذي يعني اسمه "الصخرة". نعم دعا المسيح بطرساً صخرة، ولكنه تحدث عن الصخرة التي ينوي أن يبني عليها كنيسته باعتبارها، أو الصخرة الحية. وكلمة صخرة التي استخدمت للإشارة إلى بطرس جاءت في صيغة المذكر، بينما جاءت "الصخرة" التي سيبني عليها المسيح كنيسته في صيغة المؤنث.

وهناك من الأسباب ما يدفعنا للاعتقاد بأن التفسير السليم هو أن المسيح كان يشير بكلمة "الصخرة" إلى اعتراف بطرس به أنه "المسيح ابن الله الحي". ولا يستطيع المرء إلا أن يتذكر أيضاً، أن المسيح أخبر بطرس أنه سوف ينكره في البستان، وأن الشيطان قد طلبه (لو٢٢:٣١-٣٢)، وأن المسيح التزم بأن يطلب منه أن يرعى قطيعه بعد القيامة وبعد غفرانه لبطرس حادثة إنكاره له. ونلاحظ أن الصلاحيات التي أعطيت لبطرس في مت ١٩:١٦ أعطى مثلها لباقي الرسل ولبطرس أيضاً على قدم المساواة (يو٢٠:١٩-٢٣) بل إن بطرس نفسه وفي رسالته الأولى أوضح بكل تأكيد أن المسيح وليس بطرس هو أساس الكنيسة الراسخ (١بط٢:٦-٨). ولم يكن لدى بولس أي مفهوم يشير إلى أن لبطرس مكانة أميز من غيره من الرسل، وذلك لأنه عاتبه ووبخه عندما رآه يداهن اليهوديين في غلاطية. وبالرغم من وجود كل هذه الحقائق، أصرت كنيسة روما منذ البداية أن المسيح أعطى لبطرس مكانة خاصة بصفته أول أسقف لروما وقائد الرسل. وقد بذل كبريانوس Cyprian وجيروم جهوداً كبيرة أدت إلى تدعيم وانتشار هذا الموقف وذلك بتأكيدهما على تميز وتقدم الكرسي الأسقفي في روما على غيره من الأساقفة في السلطة والنفوذ.[١]

وقد نال أسقف روما المزيد من الكرامة لارتباط روما نفسها بالكثير من التقليد الرسولي. فقد استشهد بطرس وبولس Paul في روما لأجل إيمانهما. ولأنهما كانا من أبرز قيادات الكنيسة الأولى فلا عجب أن كانت كنيسة روما وأسقف كنيسة روما اكتسبا مركزاً ممتازاً. وكانت الكنيسة في روما مسرحاً لأقدم الاضطهادات التي واجهتها الكنيسة من الدولة الرومانية على يد نيرون Nero في عام ٦٤م. كما أن أطول - وربما أهم - رسائل بولس وجهها إلى المؤمنين في كنيسة روما. ومع حلول عام ١٠٠م أصبحت تلك الكنيسة أكبر وأغنى الكنائس المسيحية. وكانت للمكانة التاريخية لمدينة روما باعتبارها عاصمة الإمبراطورية الرومانية دور طبيعي في إبراز مكانة كنيسة العاصمة. واكتسبت كنيسة روما لنفسها سمعة طيبة في تمسكها بالإيمان القديم في وجه كل الهرطقات والإنشقاقات التي تعرضت لها. ألم يكتب أكليمندس Clement، أحد آباء الكنيسة الأولى، إلى كنيسة كورنثوس يحضهم على التمسك بالوحدة التي يمثلها الأسقف فيما بينهم؟ والكثيرون من آباء الكنيسة الغربية مثل أكليمندس Clement وإغناطيوس Ignatius





وإيريناوس Irenaeus وكبريانوس Cyprian نبروا بشدة على أهمية وظيفة الأسقف، وكما قال كبريانوس، وأهمية أسقف روما بالذات.

ومع أن الأساقفة متساوون، ومع أنهم كلهم ضمن خط الخلافة الرسولية للأساقفة الذي يمكن تتبعه إلى المسيح نفسه، فقد استحقت روما كرامة خاصة، حسب اعتقادهم ، لأن أسقفها تنحدر خلافته من بطرس Peter الرسول. وينبغي أن نتذكر أن بعض الأساقفة الخمس المهمين فقدوا مناصبهم لأسباب متنوعة. فبعد عام ١٣٥م، وبعد تدمير الرومان لمدينة أورشليم، لم يعد أسقف Bishop أورشليم منافساً لأسقف روما في المكانة. كما فقد أسقف أفسس مكانته الخاصة بعد أن تمزقت الكنيسة في أسيا بفعل الإنشقاق المونتاني في القرن الثاني.

ومع نهاية تلك الفترة تبلورت ثلاث حقائق واقعية بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية القديمة. أولها قبول عقيدة الخلافة الرسولية، والتي ارتبط من خلالها كل أسقف في الكنيسة بخط متصل يربطه بالمسيح مباشرة من خلال الرسل. وأصبح في كل كنيسة أسقفاً واحداً برز من بين رفقائه من الشيوخ ليصبح رئيساً للأساقفة. كما أن أسقف روما أصبح معترفاً به أنه "الأول بين إخوته" بسبب أهمية وزن التقليد الذي ارتبط بكرسي الأسقفية في روما. وقد تطورت هذه المكانة الخاصة في وقت لاحق لتصبح سيادة مطلقة لأسقف روما بصفته بابا للكنيسة العامة. وقد طور إكليمندس وإغناطيوس وإيريناوس نظام تسلسل الخلافة Apostolic Succession في النظام الكنسي ليكون الضمان ضد الانشقاقات وليدعم وحدة الكنيسة. ورأى إغناطيوس Ignatius وايريناوس أن تدرج السلطة في الكنيسة كفيل بأن يكون خير دفاع ضد الهرطقة ويساعد على نشر التعليم الصحيح.

## ٢-تطور قانون الإيمان

تدعم دور الأسقف في حفظ وحدة الكنيسة بتطور قانون الإيمان. وقانون Creed الإيمان هو نص يشمل عناصر الإيمان للاستخدام العام: ويتضمن بنوداً لازمة للخلاص ولسلامة عقيدة الكنيسة لاهوتياً. وقد استخدمت قوانين الإيمان لامتحان سلامة العقيدة، وللتعارف بين المؤمنين، واستخدمت أيضاً لتوفير ملخص مناسب للعقائد الأساسية للإيمان.

وقوانين الإيمان تفترض وجود إيمان حي في حياة الكنيسة وهو التعبير الفكري عن هذا الإيمان الحي. وقد ظهرت قوانين الإيمان الطائفية إبان عصر الإصلاح. وقد ظهرت قوانين الإيمان العامة التي صدرت عن مجامع عامة ضمت ممثلين عن الكنيسة كلها في الفترة التي شهدت الجدل اللاهوتي فيما بين عامي ٣١٣م، ٤٥١م. وأقدم أشكال قانون الإيمان، هو قانون الإيمان الذي كان يتلى أثناء المعمودية ويعتبر قانون الإيمان الرسولي Apostles' Creed نموذجاً جيداً له.[٢] وينبغي دائماً أن نتذكر أن قوانين الإيمان Rule of Faith ما هي إلا تعبيرات نسبية ومحدودة للقانون الإلهي المطلق للإيمان والأعمال بحسب الكتاب المقدس. ونجد في العهد الجديد بعض الآيات التي تعتبر اشكالاً من إقرار الإيمان في رومية ١٠:٩-١٠، ١كو ٤:١٥ و ١تيموثاوس ١٦:٣. صاغ ايريناوس Irenaeus وترتليان Tertullian قوانين للإيمان

كانت تستخدم للتمييز ما بين المؤمن الحقيقي والغنوسي، وكانت تلك تلخيصاً للعقائد الكتابية الرئيسية.(٣)

يعتبر قانون الإيمان الرسولي The Apostles' Creed هو أقدم تلخيص وصل إلينا للعقائد الأساسية التي تضمنتها كلمة الله. ويرى البعض أن قانون الإيمان الرسولي هو تطوير لاعتراف بطرس Peter في قيصرية عن أن المسيح هو ابن الله والمذكور في متى ١٦:١٦ وأنه كان يستخدم أثناء المعمودية منذ وقت مبكر جداً وأقدم الأشكال، والذي يشبه ذلك الذي استخدمه روفينوس Rufinus حوالي عام ٤٠٠م، ظهر في روما في نحو عام ٣٤٠م. وهذا القانون الذي يؤكد عقيدة التثليث يهتم بكل أقنوم من أقانيم الثالوث مع بيان عمل كل منهم. وهو أيضاً يؤكد على الطبيعة الجامعة للكنيسة العامة. وبعد أن يربط الخلاص بالمسيح، يقدم تركيزاً إسخاتولوجياً صريحاً يرتكز على قيامة المؤمن ورجائه في الحياة الأبدية. ومازالت الكثير من الكنائس تجد أن قانون الإيمان الرسولي يقدم تلخيصاً مناسباً للنقاط الأساسية للإيمان المسيحي.

## ٣-قانونية أسفار العهد الجديد
## The New Testament Canon

تدعمت الانجازات التي تمت في مجال تأكيد وضمان وحدة الكنيسة في شخص الأسقف وفي الإقرار المعتمد لعناصر الإيمان القديم، بالمجهود الذي قامت به الكنيسة لتحديد قائمة بالأسفار التي اعتمدتها رسمياً لتصبح أسفار العهد الجديد. ويخطئ معظم الناس باعتقادهم بأن قانونية الأسفار أقرت بواسطة المجامع العامة للكنيسة. لكن الأمر لم يكن هكذا، لأن مجامع الكنيسة المختلفة التي كانت لها قرارات حول موضوع قانونية أسفار العهد الجديد كانت تقوم بمجرد الاعلان العلني، كما سنبين فيما بعد، لما قد ترسخ قبوله في ضمير الكنيسة لفترة من الوقت. فقد كان تطور موضوع قانونية الأسفار عملية بطيئة تم معظمها مع حلول عام ١٧٥م ما عدا بعض الأسفار القليلة التي ثار الجدل حول نسبتها إلى كاتبيها.

جعلت بعض الأسباب العملية المعينة من الضروري بالنسبة للكنيسة أن تعد قائمة بالأسفار التي ينبغي أن يتضمنها العهد الجديد. فبعض الهراطقة مثل ماركيون Marcion كانوا قد بدأوا في تحديد ما يعجبهم من الأسفار ويعلنون أنها هي الأسفار القانونية دون غيرها مما أضل الكثيرين. وحدث أيضاً أثناء الاضطهادات العنيفة أن ظهر احتياج بين المؤمنين الذين كانت حياتهم تتعرض للخطر بسبب اقتنائهم للأسفار المقدسة، للتيقن من أهمية تلك الأسفار بحيث تكون تضحيتهم بحياتهم في محلها. ولأن الرسل الأولين كانوا يختفون الواحد بعد الآخر من المشهد، ظهر الاحتياج لوجود نوع من السجلات التي يمكن الاعتراف بها على أنها معتمدة من الرسل وتصلح لاستخدامها في العبادة.

كان أهم اختبار يخضع له السفر ليكتسب شرعيته واعتباره من ضمن الأسفار القانونية هو مدى تميزه بالملامح الرسولية. هل كتبه واحد من الرسل، أو واحد من الذين كانوا قريبين جداً من الرسل، مثل مرقس الذي كتب إنجيل مرقس، والذي تمت كتابته بمعونة وإشراف الرسول بطرس Peter





وأيضاً إمكانية أن يكون هذا السفر نافعاً لبنيان الكنيسة عند قراءته في الاجتماعات العامة للكنيسة، وأيضاً مدى توافقه مع قانون الإيمان Rule of Faith ، كانت هذه كلها مقاييس يخضع لها أي سفر. وفي التحليل النهائي للسفر الذي كان يحسم الأمر هو التحقق من أن كاتب السفر هو أحد الرسل أو أنه كتب تحت تأثير وإشراف أحدهم، ذلك إلى جانب إجماع الكنيسة في كل مكان على قبول هذا السفر، وبإرشاد الروح القدس، وصلت الكنيسة إلى القرار النهائي بخصوص أي الأسفار الذي تستحق أن تعتمد على أنها أسفار قانونية ضمن العهد الجديد.

وعلى ما يبدو كان أول من جمع رسائل بولس الرسول هم قادة كنيسة أفسس ثم أعقب ذلك جمع الأناجيل الأربعة في وقت ما بعد بداية القرن الثاني. ويرجع تاريخ قائمة موراتوري Muratorian Canon للأسفار القانونية، والتي اكتشفها شخص اسمه لودوفيكو موراتوري Lodovico A. Muratori (١٦٧٢-١٧٥٠) في المكتبة الأمبروزية في مدينة ميلانو في أيطاليا، إلى عام ١٨٠م. وتتضمن هذه القائمة اثنين وعشرين سفراً من أسفار العهد الجديد تم اعتبارها قانونية. وفي نحو عام ٣٢٤م عبر يوسابيوس Eusebius عن اعتقاده بانه تم قبول عشرين سفراً على الأقل من أسفار العهد الجديد على نفس درجة قانونية أسفار العهد القديم. أما بعض الأسفار مثل رسالة يعقوب وبطرس الثانية ويوحنا الثانية والثالثة، ورسالة يهوذا والعبرانيين وسفر الرؤيا فقد كانت قيد البحث.(٤) وكان السبب الأساسي وراء تأخر الاعتراف بقانونية هذه الأسفار هو عدم التأكد من جهة بعض الأسئلة حول نسبة هذه الأسفار إلى أصحابها.

إلا أن أثناسيوس Athanasius في رسالة عيد القيامة التي أرسلها في عام ٣٦٧م إلى الكنائس الواقعة في نطاق سلطانه باعتباره أسقف الاسكندرية، ضمت قائمة بالأسفار القانونية احتوت على نفس الأسفار السبعة والعشرين التي نعرفها اليوم باعتبارها اسفار للعهد الجديد. وجاءت المجامع التي انعقدت بعد هذا التاريخ ومنها على سبيل المثال المجمع الذي انعقد في قرطاجنة سنة ٣٩٧م، فاقرت واعترفت رسمياً بما كان قد ترسخ في وجدان الكنيسة عموماً باعتباره من حقائق الأمور على مر فترة طويلة من الزمن. ولعل تباطؤ الكنيسة في قبول رسالة العبرانيين وسفر الرؤيا من ضمن الأسفار القانونية لهو دليل على عناية الكنيسة وصبرها على هذا الأمر الخطير.

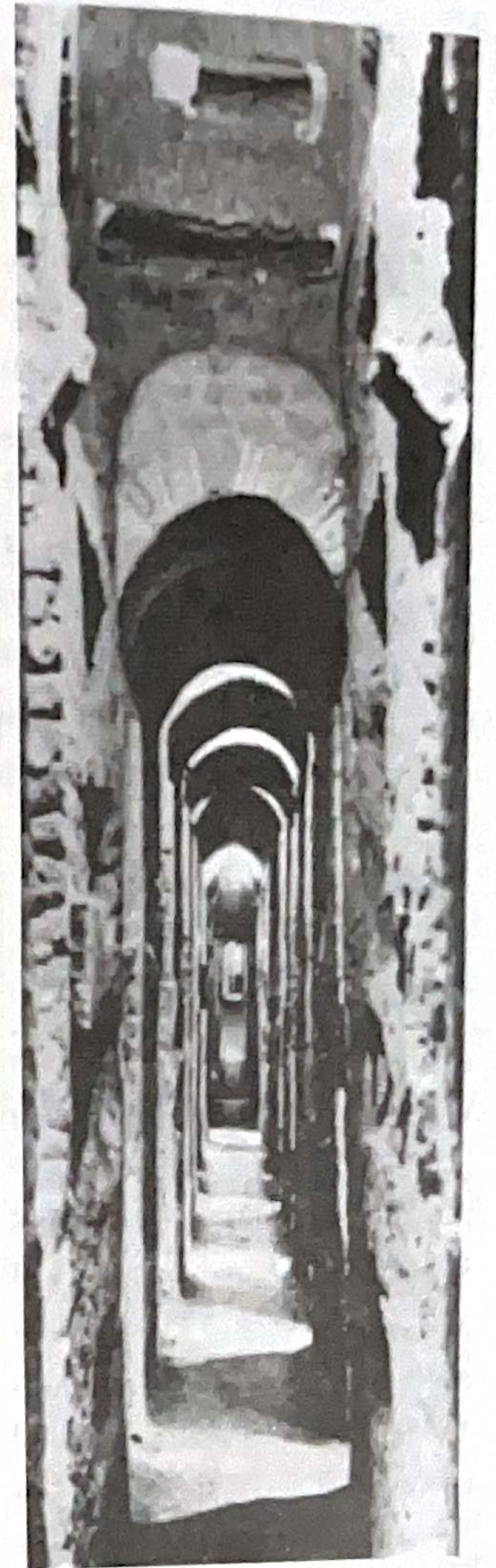
## ٤- الليتورجية - نظام العبادة

أدى التركيز على الأسقف العام الذي كان يُعتقد أنه يستمد سلطانه من خلافته للرسل، أدى بالكثيرين إلى اعتبار الأسقف مركزاً لوحدة الكنيسة، الأمين على الحق الإلهي، والقائم على تقديم وسائط الله بواسطة الأسرار المقدسة. ويمكن أيضاً أن يكون الذين تجددوا ودخلوا إلى المسيحية من خلفية الديانات السرية قد ساهموا في تطور مفهوم انفصال الاكليروس عن الشعب واصبح العشاء الرباني والمعمودية Baptism طقسين لا يمكن القيام بهما إلا على يد قسيس أو خادم معتمد. وقد ساهمت فكرة أن التناول هو بمثابة ذبيحة تقدم إلى الله، في تدعيم فكرة تميز وسيادة قداسة الأسقف بالمقارنه بالمكانة العادية لأي عضو في الكنيسة.

*المسيحيين اجتمعوا في هذه السراديب واستخدموها في دفن موتاهم إلا أنهم لم يكونوا الوحيدين الذين فعلوا ذلك.* *(انظر الصفحة التالية)*

كانت المعمودية Baptism باعتبارها طقساً لقبول المؤمنين الجدد إلى الكنيسة، تجرى عادة في عيد القيامة وعيد الخمسين. وفي أول الأمر كان مجرد الإيمان بالمسيح والرغبة في قبول المعمودية هي كل متطلبات المعمودية، ولكن مع نهاية القرن الثاني فرضت الكنيسة فترة إختبار وفحص يحضر فيها طالب المعمودية فصولاً تدرس فيها أصول الإيمان، وكانت هذه الفترة تعتبر بمثابة اختبار لمدى حقيقة وصدق اختبار المتجدد الذي يطلب المعمودية. ولم يكن يسمح للمتجدد أثناء هذه الفترة من الفحص بحضور خدمات العبادة في قاعة الكنيسة الرئيسية بل كان عليه حضورها في قاعات جانبية في مبنى الكنيسة. وكانت المعمودية تجرى في العادة بالتغطيس، ولكن في بعض المناسبات كانت تتم بالرش أو السكب وقد استحدثت معمودية الأطفال Infant Baptism التي عارضها ترتليان Tertullian وساندها كبريانوس Cyprian وأيضاً معمودية المرضى المشرفين على الموت، في تلك الفترة أيضاً. واستمرت الكنيسة تضيف الموانع والضوابط على ممارسة فريضتي المعمودية والعشاء الرباني Lord's Supper بالإضافة إلى المزيد من المتطلبات والأجراءات الطقسية التي لا يمكن لأي شخص إلا الكاهن أن يقوم بها.

ويرجع ظهور الأعياد المسيحية في السنة الكنسية إلى تلك الحقبة. يرجع أصل الاحتفال بالقيامة إلى تطبيق احتفال الفصح اليهودي على قيامة المسيح من الأموات، ويعتبر الإحتفال بذكرى



*كانت سراديب المقابر في روما تتألف من أكثر من ستين ميلاً من الأقبية التي حفرت في باطن الأرض تشبه ما يظهر في هذه الصورة، وقد تم اكتشاف ما يزيد عن نصف مليون مقبرة فيها. ومع أن*







*تكشف الاستكشافات التي تحت في ديورا-أوربا هذا المنزل الخاص الذي تم تحويله إلى كنيسة استخدمتها جماعة من المسيحيين. والغرفة الصغيرة التي تظهر في هذه الصورة تم إعادة إقامتها في متحف الفنون في جامعة ييل. وإلى اليسار يظهر حوض المعمودية. والرسم الذي يظهر خلف المعمودية يمثل يسوع الراعي الصالح مع قطيعه من الغنم. وعلى الجزء العلوي من الجدار الجانبي يظهر رسم يمثل يسوع وهو يقيم المفلوج، والسفينة على ما يبدو تحمل التلاميذ ويظهر بطرس وهو يسير فوق الأمواج نحو السفينة. أما الجزء السفلي من الجدار فهو يُظهر ثلاث سيدات يتقدمن إلى القبر الفارغ. دمرت بلدة ديورا-أوربا في عام ٢٥٨م مما يرجح أن تاريخ هذه الكنيسة إلى ما قبل ذلك.*

القيامة من أقدم الأعياد المسيحية. ولم يبدأ الاحتفال بذكرى الميلاد Christmas قبل عام ٣٥٠م حيث بدأت الكنيسة في اعتباره من ضمن أعيادها بعد تطهيره من العناصر الوثنية التي علقت به. أما فترة الصوم الكبير أو البصخة Lent، الذي هو فترة أربعين يوماً تقضى في التوبة والامتناع عن الشهوات الجسدية وتسبق عيد القيامة، فقد تم اعتمادها كجزء من دورة العبادة في الكنيسة في وقت مبكر وقبل بداية الاحتفال بذكرى الميلاد.

وقد اجتمع المسيحيون حتى قبل عام ٣١٣م في سراديب Catacombs تحت الأرض في روما "الكاتاكوم" وخصصوا مكاناً فيها لدفن موتاهم. وكانت هذه السراديب عبارة عن أميال طويلة من الممرات التي تم حفرها تحت الأرض، غالباً على مستويات مختلفة تحت سطح الأرض. وقد وجدت بعض النماذج من الفنون المسيحية مثل رمز السمكة والحمامة، وأيضاً بعض الرسومات لشخصيات ترتبط بالمسيحية في بعض هذه المقابر.[٥] وقد تم اكتشافها في عام ١٥٧٨. وأقدم مبنى معروف

استخدم ككنيسة كان كنيسة في بيت في ديورا-أوروبا، يرجع تاريخه إلى حوالي عام ٢٣٢م والذي تم التنقيب عنه واكتشافه بواسطة بعثة من جامعة ييل.

وقرب نهاية تلك الفترة بدأ المسيحيون في بناء الكنائس على النمط البازيليكي الروماني. وكانت الكنيسة البازيليكية عبارة عن مبنى له شكل مستطيل وعلى الطرف الغربي منها مدخل فسيح يؤدي إلى صحن الكنيسة وكان يخصص لعبادة طالبي المعمودية، وفي الطرف الشرقي محراب على شكل نصف دائرة فيه مذبح ويوضع كرسي الأسقف بجواره، ثم كان الصحن المتوسط للكنيسة متسع طويل وبه ممرات على جانبيه. وكانت هذه الكنائس تتميز بالبساطة في تلك الفترة، ولكن تزايد الاهتمام بتزيينها بعد عام ٣١٣م بعد أن قبلت الدولة الرومانية المسيحية دينًا رسميًا لها.

ظل الوثنيون ينظرون إلى العابدين في الكنائس أو سراديب الموتى على اعتبارهم أنهم مناهضين للمجتمع رافضين له، ويرجع ذلك إلى أن بعض الكتاب المسيحين مثل ترتليان Tertullian كانوا يحرضون المسيحيين على عدم المشاركة في احتفالات اللهو التي كانت شائعة في تلك الأيام، وكان المسيحيون أيضًا يرفضون المشاركة في الحياة السياسية. فيما عدا ذلك كان المسيحيون على أتم الاستعداد للقيام بدورهم في المجتمع عندما كان يتاح لهم القيام به دون إنكار المسيح ربهم وسيدهم. وقد ساعدت محبتهم بعضهم لبعض، والتي ظهرت في حياة أسرية سعيدة، وأنشطة خيرية متعددة لمساعدة المحتاجين، على ترك انطباع إيجابي عنهم لدى جيرانهم من الوثنيين. وبعد أن تأكد الأباطرة الرومان الذين حاولوا القضاء على المسيحية من فشلهم في ذلك، أدركوا في نهاية الأمر أنهم يمكنهم التعايش معها. وبالرغم مما واجهته الكنيسة من مشاكل وتهديدات سواء من الخارج في صورة الاضطهاد العنيف أو من الداخل في صورة الهرطقات والشقاقات إلا أن الكنيسة خرجت من كل هذه الصعوبات مرفوعة الرأس والأعلام. وقد ساهم اتفاق الكنيسة مع الدولة في الفترة ما بين ٣١٣-٥٩٠ في أن يدخل الكنيسة الكثير من الضعفات والنقائص التي لم تعاني منها الكنيسة أبدًا خلال فترات الاضطهادات التي واجهتها.

## اقتراحات للقراءة

*Hardman, Oscar.* A History of Christian Worship. *London: Hodder & Stoughton, 1937. This work has helpful chapters on the liturgy and worship of each important era of church history.*

*Schaff, Philip.* The Creeds of Christendom. *3 vols. 6th ed. New York: Scribner, 1890. This is still the best work to consult for the historical background and the text of the various creeds.*





*Souter, Alexander.* The Text and Canon of the New Testament. *New York: Scribner, 1923. This is a brief but excellent historical treatment that includes quotations from many of the relevant documents.*

*Westcott, Brooke F.* The Bible in the Church. *London: Macmillan, 1913. This work has an excellent chronological and topical discussion of the growth of the canon.*

## الفصل الحادي عشر

# الكنيسة في مواجهة الإمبراطورية وقبائل البربر

خلال الفترة ما بين عام ٣٧٥ وعام ١٠٦٦، وهي الفترة التي عُرفت باسم العصور المظلمة، والتي شهدت الهجرات الجماعية التي قامت بها قبائل البربر التيتونية في غرب أوربا، واجهت الكنيسة مشكلة مزدوجة. فقد وضع انحدار الإمبراطورية أمام الكنيسة مهمة القيام بدور "الملح" الذي يحفظ الحضارة اليونانية- العبرية، والتي كانت مهددة بالخراب. وقامت الأديرة بدور كبير في مساعدة الكنيسة على القيام بهذا الدور الخطير وذلك من خلال الجهود التي قام بها الرهبان في حفظ المخطوطات القديمة بكل عناية والاهتمام بنسخها وفهرستها. ومن ناحية أخرى واجهت الكنيسة أيضًا مهمة أن نكون "نورًا" في تقديم رسالة الإنجيل للشعوب التي تتكون منها جموع تلك القبائل المهاجرة. وقد قامت الكنيسة بهذا الدور النبيل بواسطة جهود الرهبان المبشرين، بل ونجحت في هذه المهمة الكبيرة بربح تلك القبائل للإيمان المسيحي.

إلا أن الاتجاه نحو تغليب الاهتمامات الدنيوية، وتدخل الدولة في شئون الكنيسة صارا الثمن الذي كان على الكنيسة أن تدفعه لنجاحها في حفظ الحضارة وربح القبائل. أما جوانب تطور تنظيم الكنيسة كمؤسسة وتطور صياغة العقائد الأساسية فقد أضيرت بتأثير تلك العوامل والظروف.

## ١- الكنيسة والدولة

إذا أردنا أن نفهم العلاقات ما بين الكنيسة والدولة بعد أن منح قسطنطين حق الحرية الدينية، فيجب أن نلتفت إلى المشكلات السياسية التي واجهها الامبراطور حينئذ. كانت الفوضى التي شهدها قرن الثورة، والتي حطمت الجمهورية الرومانية في الفترة ما بين ١٣٣-٣١ ق.م.، قد وصلت إلى نهايتها من خلال نظام الحكم القوي الذي أنشأه أغسطس Augustus قيصر بعد قضائه على جيوش أنطونيوس. ولكن هذا النظام الذي كان يتشارك فيه الامبراطور مع مجلس النواب في السلطة، أثبتت الأيام ضعفه في مواجهة تحديات الفساد الداخلي في الدولة وتهديد القبائل البربرية لحدود الإمبراطورية. وانقضت فترة الرخاء والسلام التي شهدها بداية فترة النظام، ليحل محلها فترة قرن آخر من الزمان شهد العديد من الثورات والقلاقل وذلك ما بين عام ١٩٢ وعام ٢٨٤م. وأعاد دقلديانوس Diocletian في عام ٢٨٥م تنظيم الحكم في الإمبراطورية بتوجه واضح

نحو نظام الحكم الفردي، وهو التوجه الذي حاول أن ينقله عن أنظمة الشرق الاستبدادية في محاولة منه لاستعادة الاستقرار للحضارة اليونانية-الرومانية. ولأن المسيحية بدت وكأنها تهدد تلك الحضارة بالخطر، حاول دقلديانوس Diocletian بتشجيع من معلمه جاليريوس Galerius أن يقضي على المسيحية تماماً ولكن دون أن ينجح وذلك في الفترة ما بين ٣٠٣-٣٠٥م. ولكن خليفته قسطنطين Constantine والذي كان أكثر منه ذكاء ودهاء، أدرك أنه إن لم يكن في مقدور الدولة القضاء الكامل على المسيحية باستخدام القوة، فإنه ربما يكون من الأفضل لها أن تتخذ من الكنيسة حليفاً تستخدمه لحفظ الحضارة الكلاسيكية من الاضمحلال.(1) وقد بدأت العملية التي أدت إلى اتفاق الكنيسة والدولة معاً، بنجاح قسطنطين Constantine في الانفراد بالسلطة وسيطرته الكاملة على مقاليد الحكم في الدولة الرومانية وبالرغم من حفاظه على الوضع الرسمي الذي كان يجعله يشرك معه في الحكم ليسينيوس Licinius في الفترة ما بين ٣١١-٣٢٤م، إلا أنه كان هو الذي يتخذ معظم القرارات الحقيقية في شئون الدولة المختلفة.

كان قسطنطين (٢٧٤-٣٣٧) ابناً غير شرعي للقائد العسكري الروماني قسطنطيوس وزوجته المسيحية الجميلة ذات الأصول الشرقية هيلينا أو هيلانة والتي كانت أمة أعتقت. وعندما اجتمع أعداؤه عليه وكادوا يهزمونه في عام ٣١٢، رأى قسطنطين رؤيا إذ رأى صليبياً في السماء وتحته كلمات لاتينية تقول "إنك سوف تنتصر تحت هذه العلامة". فاعتبر قسطنطين ذلك فالاً حسناً، فمضى وحقق انتصاره على أعدائه في معركة جسر ميلفيان على نهر التيبر. وبالرغم من احتمال حدوث هذه الرؤية فعلياً ورؤيته لها، إلا أن المرجح أن انحياز قسطنطين للكنيسة كان بمثابة حركة مدروسة. فالكنيسة يمكن أن تساعده على إيجاد مركز جديد يمكن أن يحقق حوله وحدة الدولة وينقذ الحضارة الكلاسيكية بل والإمبراطورية نفسها. ولعل في تأخره في ممارسة المعمودية حتى قبل وفاته بوقت قصير، واحتفاظه بمنصب Pontifex Maximus ، أي رئيس كهنة دين الدولة الرسمي الوثني، ما يدعم هذا الرأي ويؤكده. بل أكثر من ذلك، فإن إعلام الشبان الذين يحتمل أن يكون لهم حق في المطالبة بالعرش، يدل بالقطع على أنه لم يكن مؤمناً مسيحياً مخلصاً. ولعل سياسة الإمبراطور قسطنطين لم تكن سوى خليط من الإيمان والخرافات والتوجهات النفعية الانتهازية.

وسواء صح هذا التفسير لدوافع قسطنطين أو لم يصح، فإنه انتهج سياسة واضحة أعطت للكنيسة المسيحية المكانة الأفضل دائماً. ففي عام ٣١٣ أصدر هو وليسينيوس شريكه في الحكم المرسوم الذي يعرف باسم مرسوم ميلان Edict of Milan والذي منح فيه الحرية الدينية الكاملة. وخلال السنوات القليلة التي تلت ذلك أصدر قسطنطين عدة مراسيم أعادت للكنيسة الممتلكات التي صودرت، وتخصيص دعم حكومي للكنيسة، وإعفاء رجال الكنيسة من تأدية الخدمة العامة، تحريم العرافة، تخصيص يوم الأحد، والذي كان يعرف باسم "يوم الشمس"، ليكون هو يوم الراحة والعبادة.(2) بل إن قسطنطين اتخذ لنفسه موقع الريادة والزعامة في الأمور اللاهوتية في أرلز Arles في عام ٣١٤ وفي نيقية Nicaea في عام ٣٢٥، وذلك عندما عرض أن يناظر آراء الدوناتية Donatist والأريوسية وأن يحسم ويحكم في الجدل حول هذه القضايا





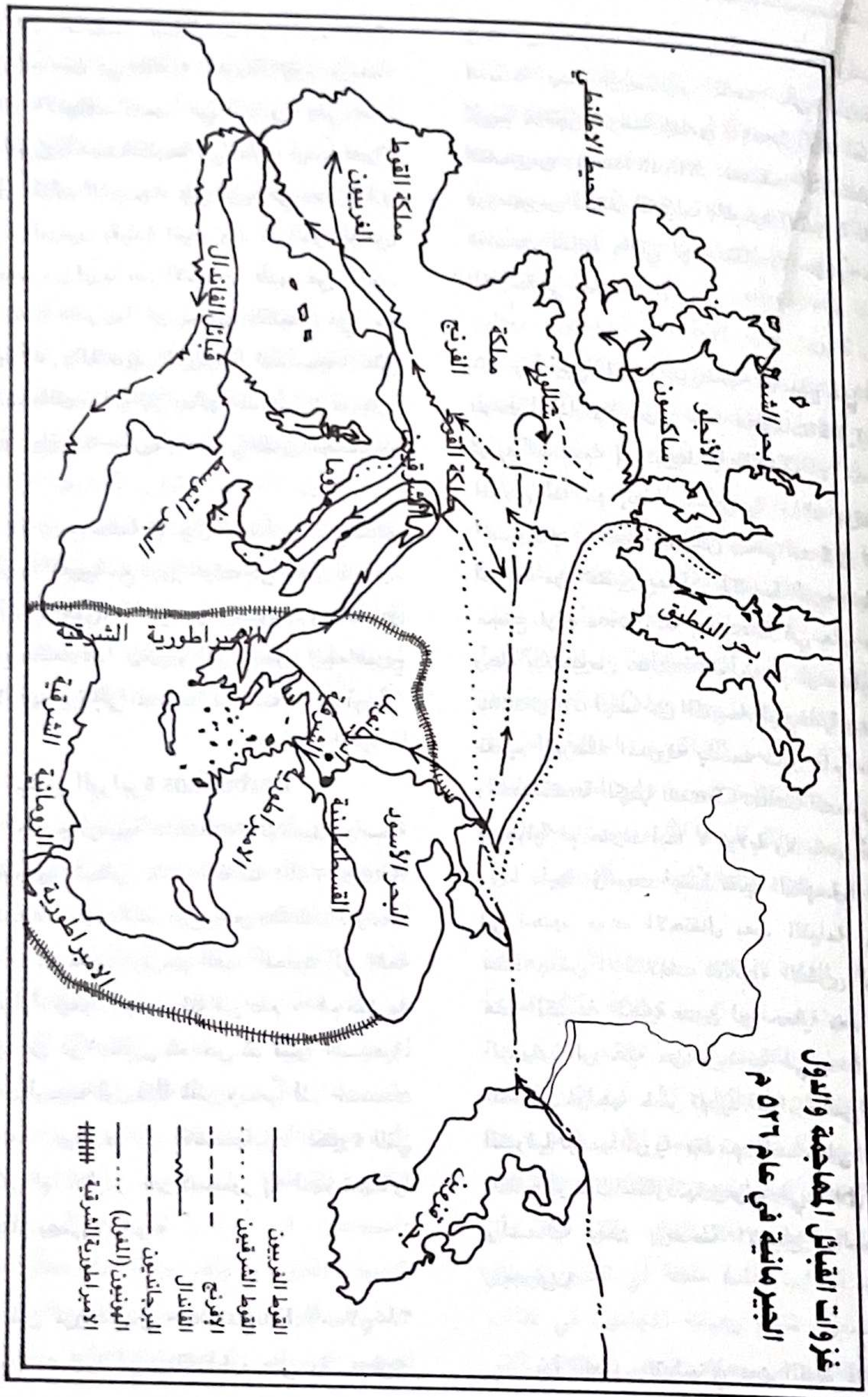
اللاهوتية. حدث كل هذا في الوقت الذي لا يمكن أن يكون عدد المسيحيين قد تخطى نسبة العشرة في المائة من إجمالي عدد السكان في الإمبراطورية، لكنهم مارسوا نفوذاً في الدولة أكبر بكثير من ثقلهم كأقلية بين السكان.

إلى جانب منحه الحريات الدينية وغيرها من الأفضال للكنيسة واستخدامها لخدمة مصالح الإمبراطورية، أسس قسطنطين Constantine مدينة القسطنطينية في عام ٣٣٠م. وقد ساعد هذا العمل على انقسام الشرق بعيداً عن الغرب الأمر الذي فتح الطريق أمام الإنشقاق الكبير الذي وقع بينهما في عام ١٠٥٤م، ولكنه في نفس الوقت أوجد من القسطنطينية ملجأ أميناً احتضن الحضارة اليونانية - الرومانية عندما سقط الغرب في أيدي القبائل الجرمانية في القرن الخامس. وأصبحت تلك المدينة مركزاً للسلطة السياسية في الشرق، مما ترك المجال كاملاً لأسقف روما فيما بعد عام ٤٧٦م ليتمتع بكامل النفوذ السياسي إلى جانب نفوذه الروحي.

استمر أبناء قسطنطين في انتهاج سياسة أبيهم في مجاملة الكنيسة بل وفاقوها إلى حد أنهم أجبروا الوثنية على اتخاذ الموقف الدفاعي وذلك بعد إصدارهم مراسيم وإجراءات تقضي بتحريم ومنع تقديم الذبائح للأصنام وتحريم الذهاب إلى الهياكل الوثنية. وفي الوقت الذي بدا أن المسيحية لم يبق أمامها سوى القليل لتصبح الدين الرسمي للدولة، تلقت المسيحية ضربة أرجعتها إلى الوراء فمثلت في ارتقاء جوليان Julian (٣٣٢-٣٦٣) عرش الإمبراطورية في عام ٣٦١م. كان جوليان هذا قد أجبر على قبول المسيحية ظاهرياً، لكن موت اقاربه على أيدي بعض الحكام المسيحيين، إلى جانب دراسته للفلسفة في أثينا جعلته يميل لأن يكون أحد أتباع مذهب الأفلاطونية الجديدة Neoplatonism. فانتزع من الكنيسة كل امتيازاتها، وأعاد الحريات الدينية الحقيقية لجميع رعايا الإمبراطورية. كما وفر كل التسهيلات الممكنة للمساعدة على نشر الفلسفة والديانة الوثنية. وكان من حسن حظ الكنيسة أن فترة حكمه كانت قصيرة، ولم تستمر هذه النكسة في تطور وضع الكنيسة إلا فترة مؤقتة قصيرة.(3)

استمر الحكام فيما بعد في سياسة منح الامتيازات للكنيسة حتى أصبحت المسيحية في نهاية الأمر الدين الرسمي للدولة وتخلى الإمبراطور جراتيان Gratian عن لقب رئيس كهنة الدولة. أصدر ثيودوسيوس الأول Theodosius 1st في عامي ٣٨٠ و٣٨١ مراسيم جعلت المسيحية الدين الوحيد للدولة. وأصبح أي شخص يجرؤ على ممارسة أي شكل آخر من العبادة يواجه العقوبات الصارمة من الدولة نفسها.(4) ثم صدر مرسوم القسطنطينية Edict of Constantinople في عام ٣٩٢م ليقضي على الوثنية ويمنعها. ووجه جاستينيان Justinian ضربة أخرى للوثنية في عام ٥٢٩م وذلك عندما أمر بإغلاق مدرسة الفلسفة في أثينا.

وإذ نتطلع للوراء وننظر إلى الخطوات التي اتخذتها المسيحية، والتي كانت مجرد شيعة محتقرة قليلة العدد، فأصبحت الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية بكل قوتها، يستطيع المرء وقد اكتسب اليوم ميزة استيعاب النظرة التاريخية، يرى أن هذه المسيرة المنتصرة كان لها ضررها على الكنيسة.






نعم ساعدت المسيحية على رفع المقاييس الأخلاقية للمجتمع، وتحققت انجازات رائعة في تطور الحياة الاجتماعية، فعلى سبيل المثال تزايد الإدراك والاعتراف بمكانة المرأة في المجتمع، وتم إيقاف عروض المصارعات الدموية، وأصبح العبيد يلقون معاملة أكثر إنسانية، وأصبحت التشريعات الرومانية تتسم بالمزيد من العدالة والإنصاف، وتسارع زخم انتشار المجهودات التبشيرية. لكن الكنيسة وجدت أيضاً أن الارتباط الوثيق بالدولة وإن كان له كل تلك الامتيازات لكنه أيضاً يحمل معه بعض المشكلات.

فالحكومة والدولة التي تقدم الاعتراف والحماية والمساعدة، تطالب في مقابل كل ذلك بمنحها الحق في التدخل في الشئون الروحية واللاهوتية. فإن قسطنطين قد منح نفسه ودون وجه حق، الحق في أن يفصل ويحكم في خلافات الكنيسة بالرغم من كونه مجرد الحاكم الدنيوي للإمبراطورية. وذلك في المجامع التي انعقدت في أرلز Arles في عام ٣١٤م وفي فينيقية Nicaea في عام ٣٢٥م. وترجع أصول المشاكل التي أقلقت الكنيسة ونغصت سلامها فيما يتعلق بعلاقتها مع الدولة، ترجع جذورها إلى تلك الحقبة. وللأسف فإن الكنيسة عندما حصلت على السلطة والنفوذ تحولت في قضائها وحكمها على الوثنية إلى نفس السلوك المتعجرف الذي سبق أن سلكته السلطات الدينية الوثنية من نحو الكنيسة في أيام ضعفها. ولعله من الإنصاف أن نقول إن التقارب ما بين الكنيسة والدولة جلب سلبيات أكثر من الإيجابيات التي حظيت بها الكنيسة المسيحية.

## ٢- الكنيسة وقبائل البربر

كان تمكن الكنيسة من توفيق أوضاعها مع الإمبراطورية في بداية القرن الرابع أمراً جيداً، إذ أن الجزء الأخير من القرن الرابع أبرز مشكلة جديدة، وهي تصفية ربح جماهير الناس التي بدأت في الهجرات الجماعية التي استمرت في أوربا حتى القرن الحادي عشر. كانت هناك هجرات جماعية من شعوب التيوتونيين والفايكنج والسلاف والمغول إلى داخل أوربا في الفترة ما بين ٣٧٥-١٠٦٦م.

### أ- انتشار قبائل البربر

ظهرت قبائل البربر Barbarians القوط أولاً على جبهة الدانوب على حدود الإمبراطورية في الجزء الأخير من القرن الرابع، حيث طالبوا السلطات الرومانية أن تسمح لهم بالانتقال إلى داخل حدود الإمبراطورية هرباً من تهديد قبائل المغول لهم. وقد أنتج عن موقعة أدريانوبل Adrianople التي وقعت بين القوط والرومان في عام ٣٧٨م موت الإمبراطور فالينز Emperor Valens وتدفق القوط الغربيين الأريون Arian Visigoths إلى الجزء الشرقي من الإمبراطورية. وعبر الكثيرون منهم نهر الدانوب بعد هذه الموقعة وبدأوا هجراتهم إلى ربوع الإمبراطورية وبعد استيلائهم على روما في عام ٤١٠م، أسسوا في نهاية الأمر مملكة في أسبانيا في حوالي عام ٤٢٦م.

ثم ما لبث أن جاء وراءهم قبائل الفاندال الأريين Arian Vandals القادمين من شرق نهر الراين، وهؤلاء استقروا في النهاية في شمال أفريقيا. ثم بعد ذلك جاء القوط الشرقيون وألت إليهم زعامة الإمبراطورية الرومانية التي كانت قد افلست، وذلك بزعامة ثيودوريك Theodoric. عبر اللومبارد الأريون ومعهم البرجانديون والفرنج

(الفرانك) الوثنيون، نهر الراين، واستقروا خلال القرن الخامس في المنطقة المعروفة اليوم بفرنسا، واستقر الانجلوساكسون في انجلترا. وفي نفس هذا القرن واجهت الكنيسة في الغرب أيضاً أهوال الخطر المؤقت الذي جاء على أوربا في صورة غزو المغول الهونيين بقيادة أتيلا. وقد تم دحر الهونين وطردهم من أوربا بعد الانتصار عليهم في شالون في عام ٤٥١م. ما أن نجحت الكنيسة في ربح الكثير من الشعوب التيوتونية للمسيحية، حتى أصبحت التهديدات التي يمثلها المسلمون واللومبارد الأريون واقعاً لا يمكن تجاهله في القرن السادس.

ولا ترجع عظمة الإنجاز الحضاري الذي تحقق في أوربا الغربية مع مرور الوقت إلى دخول البرابرة إلى الإمبراطورية حاملين معهم حيويتهم وقوتهم، بل ترجع عظمة هذا الإنجاز إلى التحول الجماهيري لهؤلاء البرابرة إلى المسيحية في شمال غرب أوربا.

ب- تبشير البرابرة Barbarians

تم ربح أرمينيا Armenia للإنجيل بواسطة جريجوري المستنير Gregory the Illuminator، وذلك عندما تجدد الملك تيريداتس Tiridates وتعمد عام ٣٠٠م تقريباً وتُرجم العهد الجديد إلى اللغة الأرمينية. ويقول البعض إنه في عام ٤١٠م كان ما يقرب من ٢٫٥ مليون شخص قد قبلوا المسيحية. وكانت أرمينيا أول دولة تعلن رسمياً أنها أصبحت مسيحية، وبالرغم من الاضطهادات الكثيرة التي تعرض لها الأرمن عبر العصور إلا أنهم تمسكوا بالإيمان بصورة مشرفة.

كان فرومنتيوس Frumentius (٣٠٠-٣٨٠ تقريباً) مسافراً في رفقة أخيه على متن سفينة، وبعد أن تحطمت هذه السفينة نتيجة تعرضها لعاصفة وجد فرومنتيوس نفسه على شواطئ أثيوبيا فانتهز الفرصة لينادي بالإنجيل. وقد نصب أثناسيوس Athanasius أسقف الاسكندرية فرومنتيوس أسقفاً للكنيسة القبطية الأثيوبية التي تأسست هناك، والتي لم تستقل إلا مؤخراً عن الكنيسة في مصر.

وتم ربح الجزر البريطانية للمسيح في ذلك الوقت أيضاً. ولا تتوفر لدينا معلومات كثيرة عن تقديم المسيحية إلى بريطانيا الكلتية، إلا أنه من المرجح أنه تم إدخال المسيحية هناك بواسطة المستوطنين والتجار الرومان ونعلم أنه كان هناك أساقفة من الكلتيين يمثلون الكنيسة البريطانية في مجمع أرلز Council of Arles في عام ٣١٤. وجاء بيلاجيوس Pelagius، خصم أوغسطينوس Augustine، أيضاً من الكنيسة البريطانية وبدأ في تقديم الهرطقة المعروفة باسمه نحو عام ٤١٠م. وهذه الكنيسة الكلتية Celtic Church الصغيرة في بريطانيا لم تعترف أبداً لا بولاية ولا بتميز أسقف روما عليها. واتبعت أيضاً تقليد الكنيسة الشرقية في تحديد موعد الاحتفال بعيد القيامة. وكانت هناك بعض الاختلافات الثانوية الأخرى. وتُركت هذه الكنيسة الكلتية بدون أي حماية بعد سحب الجيوش الرومانية من بريطانيا في بداية القرن الخامس لمواجهة خطر تهديد البرابرة على الحدود الشرقية للإمبراطورية. وقد تم القضاء على الشعوب الكلتية أو تمت مطاردتها وعزلها في التلال الغربية والشمالية وذلك بواسطة الانجليز والساكسون والجوتيين.

بدأ العمل التبشيري بين القوط قبل تدفق





القوط الغربيين عبر نهر الدانوب إلى داخل الإمبراطورية الرومانية. كان أولفيلاس Ulfilas (٣١٠-٣٨٠) مسيحياً أريوسياً وشعر بالدعوة للقيام بالعمل التبشيري بين هؤلاء الناس. وبعد رسامته أسقفاً على المسيحيين القوطيين، ذهب ليسكن بينهم، وقد نجحت خدمته بينهم إلى الدرجة أنه عندما جاء القوطيون إلى الإمبراطورية الرومانية، دخل كثيرون منهم إليها وهم مسيحيون. ويُعتبر أوليفلاس أول مرسل يقوم بعمل الترجمة، حيث أبتكر أسلوباً مستحدثاً لكتابة وتدوين لغة القوط، وبعد أن ابتكر لهم حروفاً أبجدية ترجم كلمة الله إلى لغتهم وقدمها لهم. وبما أن الشعوب القوطية كانت مولعة بالحرب والقتال، رأى أوليفاس ألا يترجم لهم أسفار صموئيل والملوك. فقبل بذلك القوط المسيحية على المذهب الأريوسي الذي قدمه لهم أوليفاس. وكان هذا الأمر هو الذي أوجد مشكلة إضافية للكنيسة في أوربا الغربية فيما بعد، وهذه المهمة الصعبة لم تكن ربح العديد من القبائل من الوثنية فقط، بل أيضاً استعادة القوط الغربيين في أسبانيا وقبائل اللومبارد من براثن البدعة الأريوسية وإدخالهم مرة أخرى إلى حظيرة الإيمان المسيحي القويم.

مثل الغزاة الوثنيون من القبائل التيوتونية الذين جاءوا عبر نهر الراين مشكلة أكثر إلحاحاً وخطورة على الكنيسة الغربية. فشعر مارتن من تورز Martin of Tours (٣٣٥-٤٠٠ تقريباً)، وهو الذي أصبح الآن قديس فرنسا الأول، شعر بدعوة لتقديم الإنجيل للبورجنديين Burgundians الذين استقروا في جنوب بلاد الغال. ولكنه اختار أن يستخدم أساليب رائدة عنيفة في تقديم الإنجيل لهذا الشعب، فنظم رهبانه المجندين في كتائب مسلحة وقادهم في حملات لتدمير البساتين التي كان الشعب يستخدمها لعبادة آلهتهم الوثنية. إلا أن هذا العمل لم يكن له تأثير إيجابي على تاريخ هذه الشعوب مثلما كان للجهود التي قام بها أغسطينوس، وذلك لأن البورجنديين تأثروا بسطوة أولاد عمومتهم من الفرنج الذين استقروا هم أيضاً في بلاد الغال.

وقد وصف جريجوري من تورز Gregory of Tours في كتابه الشيق "تاريخ الفرنج" History of the Franks استقرار الفرنج وتاريخهم وقصة تجديدهم وقبولهم الإيمان المسيحي. فقرب نهاية القرن الخامس، تزوج كلوفيس Clovis (٤٨١-٥١١) ملك الفرنج من أميرة مسيحية من برجندي اسمها كلوتيلدا Clotilda. وتضافر تأثير كلوتيلدا مع ما اعتقد كلوفيس أنه كان تدخلاً إلهياً لمعونته في الحرب، ليؤدي إلى تجديده في عام ٤٩٦.[٥] وعندما صار مسيحياً قبلت جموع شعبه المسيحية اقتداء به.

وبغض النظر عما إذا كان جميع من قبلوا المسيحية عندئذ من المخلصين، إلا أن قبول كلوفيس للمسيحية بشكل رسمي كان له أثر بعيد المدى على تاريخ الكنيسة. فكل الفرنج الذين كانوا يتحكمون في بلاد الغال، وهي المنطقة التي تشغلها فرنسا اليوم، صاروا من ضمن الكنيسة المسيحية. وأصبحت الغال قاعدة لانطلاق المبشرين ليذهبوا إلى أسبانيا التي كانت تتبع المذهب الأريوسي وذلك لإقناع القوطيين الأريوسيين الذين استقروا واستوطنوا في أسبانيا للرجوع إلى الإيمان المسيحي القويم. بل وأهم من كل ذلك صار البلاط الملكي من أقوى وأخلص مساندي البابوية في بداية العصور الوسطى. وقد عبر ملوك الفرنج جبال الألب

في مرات عديدة لإنقاذ أسقف روما من يد أعدائه في ايطاليا.

باتريك Patrick (٣٨٩-٤٦١) قديس أيرلندا الشهير، خطفه القراصنة من بريطانيا وأخذوه إلى أيرلندا وهو في سن السادسة عشر. وعاش هناك يرعى الماشية لمدة ستة أعوام. وعند عودته إلى وطنه، شعر بدعوة الله له ليخدم بين شعب أيرلندا كمبشر مرسل Missionary to Ireland. فعمل من عام ٤٣٢ إلى عام ٤٦١ بين الكلتيين في ايرلندا، وبالرغم من مقاومة كهنة الريانه السائدة هناك واسمها Druid لخدمته، نجح باتريك في أن يجعل تلك الجزيرة مركزًا قويًا من مراكز المسيحية الكلتية. وأصبحت أيرلندا خلال العصور المظلمة في أوربا، مركز إشعاع حضاري خرج منه الرهبان سواء كمبشرين أو علماء دارسين ليخدموا في القارة الأوربية. فقد أرسلت أيرلندا كولومبا إلى اسكتلندا ليربح شعبها للمسيحية.

كان كولومبا Columba (٥٢١-٩٧) هو رسول اسكتلندا Missionary to Scotland كما كان باتريك رسولاً لأيرلندا. ففي عام ٥٦٣م وعلى جزيرة أيونا، أنشأ كولومبا ديرًا أصبح مركزًا لتبشير اسكتلندا. وقد انطلق أيدان Aidan من نفس ذلك المكان في عام ٦٣٥م ليحمل الإنجيل إلى الغزاة من الأنجلو ساكسون القادمين من نورثمبريا. كانت الكنيسة الكلتية Celtic Church في كل من ايرلندا واسكتلندا كنيسة مبشرة Missionary مرسلة في المقام الأول. وفي نهاية الفترة التي نتحدث عنها، كانت المسيحية الكلتية ترفع راياتها في اسكتلندا وايرلندا. وكانت مازالت مزدهرة في انجلترا. وتنافس المسيحيون الكلتيون مع المسيحيين الرومان في جهودهم لربح الأنجلو ساكسون إلى المسيحية.

ومع حلول عام ٥٩٠م لم تكن الكنيسة قد تحررت من ضغوط اضطهاد الدولة الرومانية لها فحسب، بل كانت قد نجحت في الارتباط بالدولة ارتباطًا وثيقًا بل وكانت الكنيسة قد قامت بدورها في تحويل الغزاة التيوتونيين للإمبراطورية إلى المسيحية بل وفي نقل عناصر الحضارة اليونانية الرومانية إليهم. ولكن في أثناء إنجاز هذا كله، دخلت جموع غفيرة من الوثنيين إلى المسيحية بمعدلات أكبر بكثير من قدرة الكنيسة على تقديم التعليم الروحي الكافي والمناسب لهم أو لإرشادهم وتوجيههم لفترة اختبار معينة. فأحضر الكثيرون منهم معهم الأنماط القديمة لحياتهم وعاداتهم إلى داخل الكنيسة. فحلت عبادة القديسين مكان عبادة الأبطال القديمة. بل وظلت كثير من الممارسات والطقوس المرتبطة بالوثنية لتجد بابًا مفتوحًا في الكنيسة بوضعها الجديد. فالكنيسة وهي تحاول أن تسدد احتياجات البرابرة Barbarians وجدت نفسها قد تأثرت جزئيًا بوثنيتهم.

## اقتراحات للقراءة


*Baynes, Norman H.* Constantine the Great and the Christian Church. *New York: Gordon, 1974.*







*Edman, V. Raymond.* The Light in the Dark Ages. *Wheaton, Ill.: Van Kampen, 1949. This is a scholarly work on this and later eras.*

*King, Noel Q.* The Emperor Theodosius and the Establishment of Christianity. *Philadelphia: Westminster, 1960. This work ably describes the relation of the emperor and the church.*

*McNeill, John T.* The Celtic Churches *(200-1200). Chicago: University of Chicago Press, 1974. This has a good treatment of the rise and influence in Europe of Celtic Christianity in Britain.*

*Moorman, John R.H.* A History of the Church in England. *New York: Morehouse-Gorham, 1954.*

*Robinson, Charles G.* The Conversion of Europe. *London: Longmans, 1917. The writer has given interesting and scholarly accounts of the work of the men cited in this chapter.*

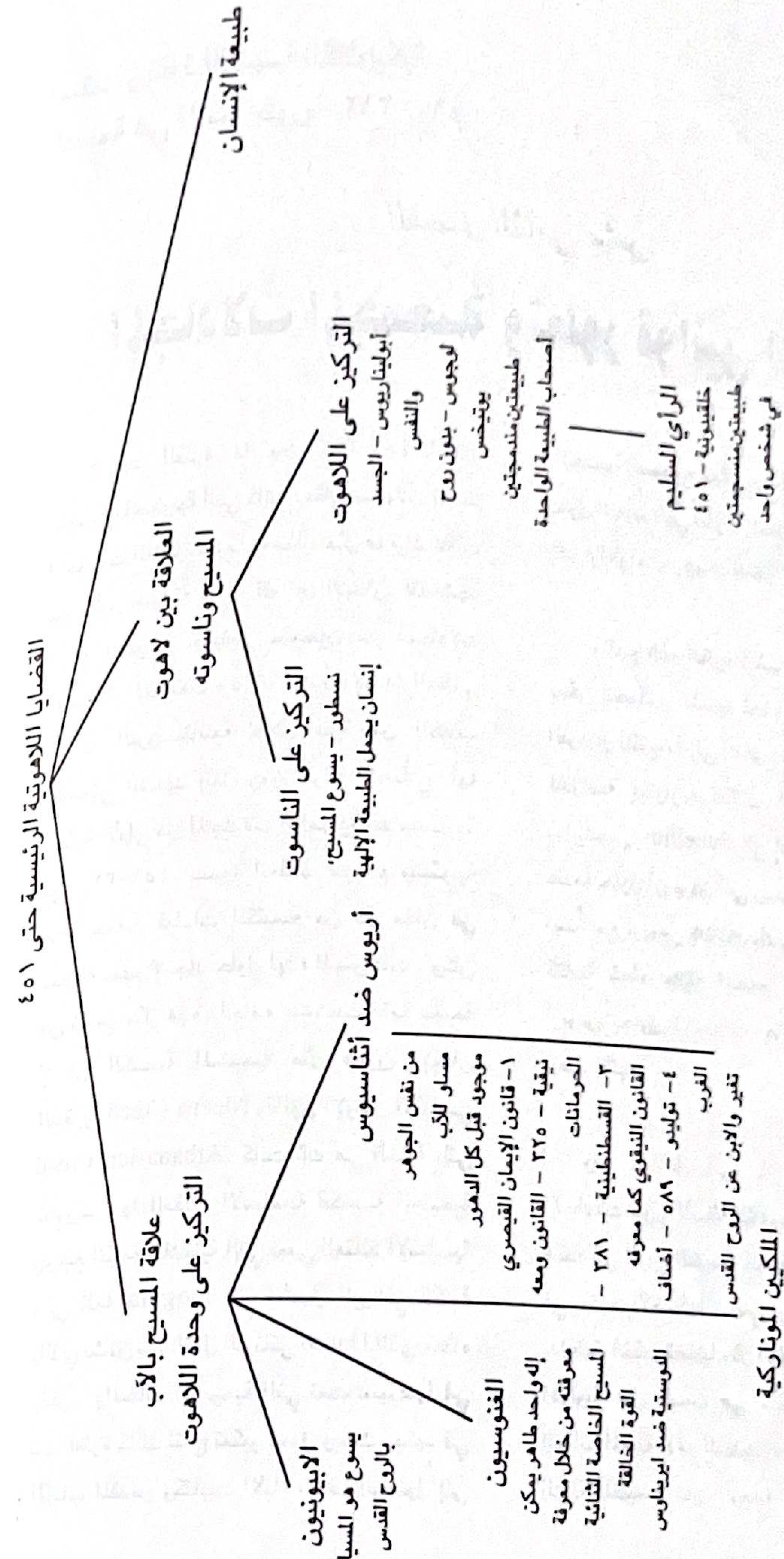
## الفصل الثاني عشر

# المجادلات المجمعية وتطور قوانين الإيمان

شهدت الفترة ما بين ٣١٣-٤٥١ انعقاد المجامع المسكونية التي كانت بمثابة محاولات لحسم المجادلات اللاهوتية وحل قضايا مثل هذه الخلافات من خلال صياغة دقيقة لقوانين الإيمان. لقد شهد تاريخ الكنيسة حقبتين عظيمتين من المجادلات اللاهوتية. فقد تمت صياغة قوانين الإيمان العظمى للحركة البروتستانتية خلال فترة من الخلاف اللاهوتي الشديد أثناء زمن حركة الإصلاح. أما الحقبة الأولى من المجادلات اللاهوتية فقد حدثت ما بين ٣٢٥-٤٥١، عندما انعقدت مجامع مسكونية عامة جمعت قيادات الكنيسة من كل مكان في محاولة منهم لإيجاد حلول لهذه الصراعات. وكان من نتيجة مثل هذه المجامع صياغات عامة عظيمة لإيمان الكنيسة المسيحية مثل قانون الإيمان النيقوي Nicene Creed وقانون الإيمان الأثناسي Athanasian Creed. كانت تلك هي الحقبة التي تطورت فيها العقائد الأساسية للكنيسة المسيحية وترجع الكلمة اللاتينية التي تعني العقائد الأساسية وهي كلمة Dogma إلى الأصل اليوناني للكلمة والذي يشتق من الفعل اليوناني Dokeo الذي معناه يفكر. والعقائد المسيحية التي تمت صياغتها في تلك الفترة كانت نتاج تفكير عميق وبحث مجتهد في الكتاب المقدس وكتابات الآباء بهدف الوصول إلى التفسير الصحيح لمعاني ما تقوله كلمة الله المقدسة حول النقاط التي أثارت الخلاف حولها وذلك لتجنب إتباع الآراء أو وجهات النظر الخاطئة.

وتقدم هذه الفترة أيضًا أفضل توضيح كيف يمكن للحماس الشديد تجاه عقيدة معينة أن يقود الفرد أو الكنيسة إلى الوقوع في الخطأ ما لم تتوفر الدراسة المتوازنة للكتاب المقدس. فكما وصل سابيليوس Sabellius إلى إنكار الإيمان بالثالوث عندما حاول أن يركز على وحدانية الله، وهكذا حدث أيضًا مع أريوس Arius عندما تورط في نظرة غير كتابية تجاه علاقة المسيح مع الآب بينما كان أريوس يحاول تجنب ما اعتقد أنه خطر الإيمان بتعدد الآلهة.

وقد يتساءل المرء لماذا جاءت مثل هذه المجادلات حول الأسئلة اللاهوتية الأساسية متأخرة هكذا في تاريخ الكنيسة القديمة؟ إلا أننا نعلم أنه في فترة الاضطهاد التي واجهت الكنيسة في بدايتها، أخذت قضايا مثل الولاء للمسيح ولكلمة الله الأولوية قبل البحث في معنى ومضمون بعض العقائد المعينة. دفع التهديد الخارجي الذي جاء من الدولة الكنيسة نحو الوحدة الداخلية وذلك حتى






تتمكن من أن تكون جبهة متحدة في وجه التحدي. ثم جاءت محاولات الإمبراطور قسطنطين Constantine لتوحيد الإمبراطورية لإنقاذ ما تبقى من الحضارة الكلاسيكية القديمة، وتطلب هذا ضرورة أن يكون للكنيسة مجموعة من العقائد الموحدة لتكون هي عنصر التوحيد الذي يحقق الوحدة السياسية للإمبراطورية مرة أخرى.

وكان الأسلوب الذي لجأت إليه الكنيسة لحل الاختلافات الجوهرية في الرأي حول بعض تعاليم كلمة الله، هو عقد المجامع المسكونية، وكان الإمبراطور في أغلب الأحيان هو الذي يوجه الدعوة لانعقاد هذه المجامع ويرأسها بنفسه. وقد انعقدت سبعة مجامع مثلت فيها الكنيسة المسيحية بأسرها.[1] كان قادة الكنيسة العظماء – ومعظمهم من المناطق الشرقية من الإمبراطورية – يمثلون الأقاليم التي جاءوا منها، وكانوا يتعاونون في البحث عن حلول للمشكلات اللاهوتية التي سادت على تفكير المسيحيين في ذلك الوقت.

## ١-البحث في طبيعة الله العلاقات ما بين الاقانيم في الثالوث

### أ- العلاقة الأزلية ما بين الابن والآب

بعد توقف الاضطهاد بوقت قصير برزت مشكلة العلاقة ما بين الله الآب وابنه يسوع المسيح وأصبحت من القضايا الساخنة في الكنيسة. ففي غرب أوربان أصر ترتليان Tertullian، على سبيل المثال، على وحدة الجوهر في ثلاث شخصيات، واعتبر أن هذا هو التفسير الصحيح للثالوث. لذلك تركز النزاع في الجزء الشرقي من الإمبراطورية. ويجب أن نتذكر أن الكنيسة كان عليها دائمًا أن تحارب فكر التوحديين من جهة المسيح. فالاتجاهات التوحيدية Unitarianism ترجع جذور أفكارها إلى الأريوسية Arianism والسوسيانية Socinianism التي ظهرت في القرن السادس عشر.

في عام ٣١٨ أو ٣١٩، ألقى ألكسندر Alexander أسقف الإسكندرية عظة على أساقفة كنيسته كان عنوانها "السر العظيم لوحدة الثالوث". وكان أحد الاساقفة الموجودين هو أريوس Arius الذي كان ناسكًا عالمًا وواعظًا محبوبًا، وقد هاجم أريوس هذه العظة التي ألقاها الأسقف لأنه اعتقد أنها فشلت في أن تبرز التميز ما بين أقانيم الثالوث. وإذ كان أريوس يحاول أن يتجنب أن يكون إدراك الناس عن الله يشوبه أي شبهة من الإيمان بتعدد الآلهة، إلا أنه اتخذ موقفًا لا ينصف المسيح بالاعتراف بلاهوته الكامل.

كانت هذه القضية في طبيعتها تتعلق بمفهوم الخلاص. هل يستطيع المسيح أن يخلص البشر لو أنه مجرد نصف إله، أقل من كونه الله ذاته، وأنه من جوهر مشابه لجوهر الآب كما قال يوسابيوس Eusebius أو من جوهر مختلف كما قال أريوس؟ ماذا كانت علاقة المسيح بالآب؟ ولقد ازدادت مرارة الخلاف حتى إن الكسندر أصدر قرارًا من السنودس بإدانة أريوس. فهرب أريوس ليختبئ عند صديقه يوسابيوس أسقف نيقوميديا الذي كان زميل دراسة له. وحيث أن مركز هذا النزاع كان في آسيا الصغرى، فإنه كان يهدد وحدة الإمبراطورية إلى جانب تهديده لوحدة الكنيسة. حاول قسطنطين أن يحسم هذا النزاع بإرساله

خطابات لكل من أسقف الاسكندرية وأريوس، لكن هذا الخلاف كان قد تعدى مرحلة أن تحسمه رسالة من الإمبراطور نفسه. فما كان من قسطنطين Constantine إلا أنه دَعَى لعقد مجمع لأساقفة الكنيسة للوصول إلى حل لهذا النزاع. واجتمع المجمع في نيقية Council of Nicaea في بداية صيف عام ٣٢٥. وقد حضره ما بين ٢٠٠-٣٠٠ أسقفًا من أساقفة الكنيسة، ولكن لم يتعد عدد ممثلي الجزء الغربي من الإمبراطورية العشرة أشخاص. ترأس الإمبراطور الجلسة الأولى للمجمع وتكفل بكل مصاريف اللقاء. ولأول مرة في تاريخها وحدت الكنيسة نفسها وقد تسلطت عليها القيادة السياسية للدولة ممثلة في الإمبراطور. وقد برزت المشكلة المتكررة حول العلاقة ما بين الكنيسة والدولة بكل وضوح في هذا الموقف، لكن الأساقفة كانوا مشغولين جدًا في مواجهة الهرطقة اللاهوتية حتى إنهم لم يلتفتوا للتفكير في هذه المشكلة المعينة.

وفي مجمع نيقية عرضت ثلاثة آراء محددة. أريوس Arius ويدعمه يوسابيوس Eusebius أسقف نيقوميديا Nicomedia (الذي ينبغي التمييز بينه وبين يوسابيوس القيصري) ومعهم أقلية من الحاضرين كانوا جميعًا يصرون على أن المسيح ليس له وجود أزلي وأن له بداية بعمل الله الخالق. اعتقد أريوس أن المسيح كان من جوهر مغاير لجوهر الآب وأنه بسبب فضائل حياته وطاعته لمشيئة الله، اعتبر إلهًا. وكان أريوس يؤمن بأن المسيح مخلوق من عدم، أقل من الآب وخاضع له، وأنه من جوهر مختلف عن جوهر الآب. وأن المسيح ليس مساوٍ للآب لا في الجوهر ولا في الوجود الأزلي ولا في السلطان. كان المسيح بالنسبة لأريوس إلهيًا ولكنه لم يكن إلهًا.(٢)

صار أثناسيوس Athanasius (تقريبًا ٢٩٥-٣٧٣) هو المدافع الأساسي عما تبلور ليصبح الرأي القويم. كان والداه الثريان قد أتاحا له تلقي تعليمه اللاهوتي في مدرسه الإسكندرية الشهيرة. ويقدم كتابه De Incarnatione أو "التجسد" فكر أثناسيوس من جهة عقيدة المسيح. وقد أصر هذا الشاب الذي كان عمره يزيد قليلاً عن الثلاثين، في مجمع نيقية، على أن المسيح موجود قبل كل الدهور مع الآب، وهو من نفس جوهر الآب، وذلك بالرغم من كونه أقنومًا له شخصيته المتميزة عن الآب. لقد أصر على هذه الأشياء لأنه كان يؤمن أنه لو كان المسيح أقل مما وصفه، لما استطاع أن يكون مخلص البشر. كانت قضية خلاص الإنسان الأبدي مرتبطة بالعلاقة ما بين الآب والابن كما رآها أثناسيوس. لقد نادى متمسكًا بأن المسيح مساوٍ للآب وأزلي ومساوٍ له في الجوهر. وقد عانى أثناسيوس بسبب هذه الآراء إذ نُفي خمس مرات.

أما الحزب الأكبر في مجمع نيقية فقد كان يقوده العالم الوديع مؤرخ الكنيسة يوسابيوس القيصري Eusabius of Caesarea، الذي دفعه بغضه للجدل والنزاع إلى تقديم رأي كان يرجو أن يكون مقبولاً من الأطراف باعتباره حلاً وسطًا. لقد عرض رأيًا معتدلاً دمج فيه أفضل الآراء من كلا المعسكرين معسكر أريوس ومعسكر أثناسيوس. وفي بداية الأمر اتبع أكثر من مائتي شخص من الحاضرين آراء يوسابيوس. كان يقول إن المسيح لم يُخلق من العدم كما كان يقول أريوس لكنه مولود من الآب قبل كل الدهور أي قبل بداية الزمن في الأزل. كان المسيح من طبيعة أو جوهر مشابه لجوهر الآب. أصبحت عقيدة يوسابيوس القيصري هي الأساس الذي تم عليه صياغة قانون الإيمان





الذي خرج عن مجمع نيقية، لكن قانون نيقية تميز بإصراره على وحدة الجوهر بين الآب والابن.(٣)

حققت العقيدة السليمة انتصارًا مؤقتًا في نيقية وذلك بتأكيد أزلية المسيح وتحديد اتحاد جوهره مع جوهر الآب. ولكن ينبغي ألا نخلط بين قانون الإيمان الذي تمت صياغته عندئذ بقانون الإيمان النيقوي الذي تستخدمه الكنيسة اليوم، مع أنه مشابه جدًا لقانون الإيمان النيقوي Nicene Creed الذي صاغه المجتمعون في نيقية. فقانون الإيمان الذي صدر في عام ٣٢٥ ينتهي بعبارة "ونؤمن بالروح القدس" ثم يأتي بعد ذلك فقرة فيها إدانة واضحة لآراء أريوس.(٤)

وفي الفترة ما بين ٣٢٥-٣٦١ وتحت حكم قسطنطين Constantine وأولاده من بعده كان على العقيدة السليمة أن تواجه رد فعل أدّى إلى هزيمتها وتحقيق نصرة وقتية للأريوسية. ثم جاءت هجمة ثانية ضد العقيدة السليمة أدت إلى نصرتها النهائية في عام ٣٨١، وقد حدثت هذه الهجمة ما بين ٣٦١-٣٨١م. أعلن ثيودوسيوس Theodosius في عام ٣٨١ أن الإيمان المسيحي الحق هو الآراء التي أقرها وصاغها حزب التعليم القويم في مجمع نيقية، لكن السنوات التي انقضت من ٣٢٥-٣٨١ كانت مليئة بالمرارة والبغضة.

أعلن مجمع القسطنطينية Council of Constantinople الذي انعقد عام ٣٨١ في البند الأول من قراراته أن الإيمان الذي عبر عنه الـ ٣١٨ أسقفًا من آباء الكنيسة في نيقية "لا ينبغي أن يطرح جانبًا بل بالحري يسود على كل ما غيره." إن قانون الإيمان النيقوي الحالي، والذي تم إقراره في مجمع خلقيدونية Chalcedon Council في عام ٤٥١، اتخذ بلا شك من قوانين الإيمان التي كانت سائدة في سورية وفلسطين أساسًا له، ومن هذه القوانين قانون الإيمان الأورشليمي Jerusalem Creed الذي كتبه كيرلس. وهو مع قانون الإيمان الرسولي Apostles' Creed وقانون الإيمان الأثناسي Athanasian Creed يمثلون أهم ثلاثة وثائق للتعبير عن الكنيسة العامة وعن إيمانها القويم.(٥) واجهت الأريوسية Arianism رفضًا من الكنيسة باعتبارها تعليمًا منحرفًا. وأصبح الاعتراف بلاهوت المسيح الكامل عنصرًا من عناصر الإيمان المسيحي. إلا أن الأريوسية انتشرت بين القوط والفاندال واللومبارد Lombards. ومع أن القرار الذي أتخذ فيما بعد من ضمن العوامل التي أدت الانشقاق الذي حدث بين الكنائس الشرقية والكنائس الغربية، إلا أن ذلك لا ينبغي أن يخفي عنا قيمة قرارات نيقية في الحفاظ على الإيمان. لقد كلف مجمع نيقية الكنيسة استقلالها، فالكنيسة أصبحت منذ ذلك الوقت واقعة تحت نفوذ الإمبراطور الذي ظل يتزايد مع مرور الأيام. ولقد استطاعت الكنيسة في الغرب أن تتخلص من سيادة هذا النفوذ، لكن الكنيسة في الشرق لم تتمكن أبدًا من تحرير نفسها من سيطرة القوى السياسية في الدولة.

### ب- علاقة الروح القدس بالآب

كان ماكدونيوس Macedonius أسقفًا للقسطنطينية في الفترة ما بين ٣٤١-٣٦٠، وكان على الأغلب يقدم تعليمًا بأن الروح القدس Holy Spirit ما هو إلا "روح خادمة" على نفس المستوى مع الملائكة وأن الروح القدس مخلوق أقل مرتبة من الآب والابن وخاضع لهما. كان ذلك بمثابة إنكار

لحقيقة لاهوت الروح القدس وله نفس الضرر على صياغة مفهومنا عن الروح القدس مثلما كانت آراء أريوس Arius على مفهومنا عن المسيح. لقد أدان المجمع المسكوني الذي انعقد في القسطنطينية هذه الآراء في عام ٣٨١م. وقانون الإيمان النيقوي Nicene Creed كما نعرفه اليوم تمت صياغته في القسطنطينية وصدر عن مجمعها. وعندما تُلي هذا القانون في المجمع في توليدو Council of Toledo في عام ٥٨٩، تمت إضافة عبارة "والابن أيضاً" Filioque على العبارة التي تقول عن الروح القدس "المنبثقة من الآب" وهي التي قصد بها توضيح العلاقة ما بين الروح القدس والآب والابن. ومنذ ذلك الحين والكنيسة الغربية تصر على الاعتراف بلاهوت الروح القدس الكامل باعتباره مساوٍ للآب والابن في الجوهر وموجود معهما قبل كل الدهور.[٦]

## ٢- البحث في طبيعة المسيح Christology

### المجادلات حول العلاقة ما بين لاهوت المسيح وناسوته

أثار حسم الأسئلة اللاهوتية المتعلقة بعلاقة الابن الأزلية بالآب في مجمع نيقية مشكلات جديدة حول العلاقة ما بين لاهوت المسيح وناسوته في إطار الزمن. وقد حدثت مشاهد كثيرة من الغيرة والعنف قبل أن تتم الصياغة السليمة لعقيدة العلاقة مابين لاهوت المسيح وناسوته بصورة نهائية. عموماً اتجه اللاهوتيون المرتبطون بالإسكندرية إلى التأكيد على لاهوت المسيح بينما اتجه المرتبطون بأنطاكية إلى التبير على ناسوته على حساب لاهوته.

ومن الآراء حول طبيعتي المسيح التي ظلمت ناسوت المسيح ولم تعطه حقه، الرأي الذي طوره أبوليناريوس Apollinarius، الذي كان مدرساً للخطابة وتجدد وأصبح أسقفاً في لاودكية. وقد قدم أبوليناريوس تعليمه الغريب عن لاهوت المسيح وناسوته عندما كان في الستين من عمره. فحتى ذلك الوقت كان صديقاً حميماً لاثناسيوس Athanasius وكان من أبرز المدافعين عن الإيمان السليم. وفي محاولة منه لتجنب ما رآه غير لازم من فصل ما بين لاهوت المسيح وناسوته، علّم أبوليناريوس أن المسيح كان له جسد ونفس حقيقيان ولكن روح الإنسان في المسيح قد استبدلت بحلول اللوجوس فيه. واللوجوس، باعتباره العنصر الإلهي الذي عمل بنشاط ليتسيد على العنصر الخامل الذي هو الجسد والنفس في شخص المسيح. لقد نبّر على لاهوت المسيح لكنه قلل من أهمية طبيعته البشرية (ناسوته) ولقد أُدينت آراؤه رسمياً في مجمع القسطنطينية المسكوني Council of Constantinople في عام ٣٨١.[٧]

وعلى النقيض من رأي أبوليناريوس نجد الرأي الذي قدمه نسطور Nestorius (٣٨١-٤٥٢ تقريباً)، الذي كان راهباً عالماً ثم أصبح بطريركاً للقسطنطينية في عام ٤٢٨. لم يحب نسطور استخدام تعبير والدة الإله كلقب لمريم العذراء أم يسوع، لأن هذا اللقب بدا وكأنه ينسب لها رفعة وسمواً أكثر من اللازم. وقدم نسطور تعبيراً آخر بدلاً منه وهو "والدة المسيح" وكان يقول إن مريم كانت أماً للجانب البشري فقط من المسيح (ناسوته). وبهذا الجدل جعل نسطور من المسيح إنساناً اجتمعت واتحدت فيه (كاتحاد التوأم السيامي المعروف) الطبيعتان معاً، اللاهوت





والناسوت، اتحاداً ميكانيكياً أو آلياً بدلاً من كونه اتحاداً عضوياً بين الطبيعتين. كان المسيح بالنسبة له مجرد إنسان كامل ارتبط أدبياً وأخلاقياً بالطبيعة الإلهية. فكان بمثابة حامل للطبيعة الإلهية أكثر من كونه الله الظاهر في الجسد. اجتمع قادة الكنيسة في أفسس Ephesus في عام ٤٣١ وهناك بقيادة كيرلس السكندري Cyril of Alexandria أدانوا هذا التعليم. ولكن أتباع نسطور Nestorius استمروا في دعوتهم وعملهم في الجزء الشرقي من الإمبراطورية وحملوا الإنجيل كما فهموه إلى بلاد فارس والهند بل وحتى إلى الصين في عام ٦٣٥ على يد شخص اسمه ألوبين Alopen.[٨] ولكن قضى على المسيحية في الصين بنهاية القرن التاسع.

وكرد فعل لآراء أشخاص مثل نسطور، عاد مرة أخرى التركيز والتأكيد على طبيعة المسيح الإلهية (لاهوته) ولكن على حساب إهمال الجانب البشري من طبيعته (ناسوته). كان أوطاخ Eutyches رئيساً لدير في القسطنطينية، وكان يصر على أنه بعد التجسد اندمج اللاهوت والناسوت في المسيح في طبيعة واحدة وهي اللاهوت. وقد نتج عن هذا الرأي ظهور نوع من الإنكار لحقيقة ناسوت المسيح. وقد تمت إدانة هذا الفكر في رسالة طويلة كتبها ليو الأول Leo 1st، أسقف روما في الفترة ما بين ٤٤٠-٤٦١، وعُرفت هذه الرسالة باسم Tome،[٩] ثم أُدين أيضاً في مجمع خلقيدونية الذي انعقد في عام ٤٥١م. وقد مضى مجمع خلقيدونية Council of Chalcedon نحو صياغة عقيدة طبيعة المسيح Christology بما يتمشى مع كلمة الله. أعلن المجمع أن المسيح "كامل في لاهوته وكامل في ناسوته، إله حقيقي وإنسان حقيقي" وله "طبيعتان بغير اختلاط ولا تغيير وبغير انقسام ولا انفصال". هاتان الطبيعتان اتحدتا معاً بكل انسجام في شخص واحد ذي جوهر واحد بالتجسد. وقد ظلت هذه الصياغة هي المقبولة من الكنيسة منذ وقت انعقاد ذلك المجمع في خلقيدونية.[١٠]

عادت آراء أوطاخ مرة أخرى للظهور عندما أثير الجدل حول المنادين بالطبيعة الواحدة الذي هدد السلام والاستقرار في الإمبراطورية الشرقية حتى أواسط القرن السادس. ولا يزال هناك ما يزيد عن ١٥ مليون ينادون ويؤمنون بالطبيعة الواحدة للمسيح Monophysites في الكنيسة القبطية في مصر وفي أثيوبيا ولبنان وتركيا وروسيا.

وما أن تم حسم الجدل حول العلاقة بين لاهوت المسيح وناسوته حتى بدأ النقاش يثور حول العلاقة ما بين المشيئة الإلهية والمشيئة البشرية للمسيح. هل كانت لديه مشيئتان إحداهما إلهية والأخرى بشرية؟ وإن كان الأمر كذلك هل كانتا متساويتين أو كانت إحداهما خاضعة للأخرى؟ وقد تم حسم هذا الخلاف في نهاية الأمر في انعقاد مجمع القسطنطينية Council of Constantinople (٦٨٠-٦٨١) وذلك بالتأكيد على أن المسيح كانت له مشيئتان في وحدة وانسجام وأن المشيئة البشرية كانت خاضعة للمشيئة الإلهية. وبحسم هذه القضايا المختلفة في الكنيسة الشرقية، توقف عطاء القسم الشرقي من المسيحية وتضاءلت إسهاماته في حركة الفكر المسيحية. ففيما عدا أعمال يوحنا الدمشقي John of Damascus في القرن الثامن، ظل علم اللاهوت راكداً في الشرق حتى الأزمنة الحديثة.

## ٣- البحث في طبيعة الإنسان (أسلوب نوال الإنسان للخلاص

كانت الهرطقات والمجادلات التي تم استعراضها حتى الآن تمثل مشكلات تركزت في الجناح الشرقي من الكنيسة. فلم تكن قضايا البحث في طبيعة الله وفي طبيعة المسيح Christology من المشكلات الكبيرة في الغرب حيث توافرت للكنيسة قيادات مثل ترتليان Tertullian قادت الكنيسة نحو الرأي القويم عن علاقة المسيح مع الآب وعن علاقة اللاهوت بالناسوت في شخص المسيح. لم تكن الكنيسة في الغرب تهتم كثيراً بالدراسات اللاهوتية المبنية على الاجتهاد والتأمل الميتافيزيقي الذي كان يستهوي المفكرين اليونانيين ذوي النزعة العقلانية الذين كانوا يقودون الكنيسة في الشرق. وبدلاً من ذلك اهتم المفكرون في الكنيسة الغربية بأمور وقضايا ترتبط أكثر بالمشكلات العملية. وأي دارس لتاريخ الكنيسة سوف يرى هذا الاختلاف بين الشرق والغرب بكل وضوح. فالعقل اليوناني قدم اسهاماته في مجال الفكر، بينما انكب العقل الروماني بميله الطبيعي للتفكير العملي على بحث الأمور المتعلقة بالممارسات العملية في حياة الكنيسة. فعلى سبيل المثال، اهتم أغسطينوس Augustine وبيلاجيوس Pelagius بمشكلة طبيعة الإنسان وكيف ينال الإنسان الخلاص. هل يخلص الإنسان بقوة الله وحدها، أم أن هناك مكان للإرادة البشرية في اتمام عملية الخلاص؟

كان بيلاجيوس (تقريباً ٣٦٠-تقريباً ٤٢٠) راهباً إنجليزياً وعالماً لاهوتياً شهد عنه جيروم Jerome، وقد جاء إلى روما نحو عام ٤٠٠ وهناك، وبمساعدة سيلستيوس Celestius استطاع أن يقدم ويعرض فكرته عن كيفية خلاص الإنسان. وسرعان ما اكتشف رفض أغسطينوس لأفكاره بالكامل. فترك روما في عام ٤٠٩. كان بيلاجيوس شخصاً هادئاً وديعاً، ولم يعرف في حياته صراع النفس الذي اجتازه أغسطينوس قبل أن ينال الخلاص. لذلك كان بيلاجيوس أكثر استعداد لإعطاء الإرادة الإنسانية دوراً في عملية الخلاص. لكن أغسطينوس على الناحية الأخرى وجد أن إرادته كانت عاجزة عن إخراجه من حمأة الخطية التي وجد نفسه فيها بسبب طبيعته الخاطئة.

آمن بيلاجيوس أن الإنسان مخلوق حر كما كان آدم وأن كل إنسان لديه القدرة على الاختيار ما بين الخير والشر. وكل نفس يخلقها الله منفصلة أي بذاتها لذلك فهي غير متصلة بخطية آدم ولم تتلوث بها. ويقدم تفسيراً لعمومية الخطية في العالم بأنها نتيجة لضعف الجسد البشري وليست نتيجة لفساد الإرادة البشرية بسبب الخطية الأصلية. فلا يرث الإنسان الخطية الأصلية من آدم، بالرغم من حقيقة أن خطايا الأفراد الذين عاشوا في أجيال سابقة تؤثر في إضعاف الطبيعة البشرية للجيل الحالي إلى درجة أن الإنسان يفعل الخطية ما لم تتعاون إرادته مع الله في عملية الخلاص. إن الإرادة الإنسانية لها حرية التعاون مع الله في الوصول إلى القداسة بل ويمكنها الاستعانة بوسائط النعمة المتاحة مثل الكتاب المقدس والقدرة على التفكير المنطقي واتباع مثال المسيح. وقال بيلاجيوس إنه بسبب عدم وجود ما يسمى بالخطية الأصلية فإن معمودية الأطفال ليست عنصراً أساسياً أو لازماً لنوال الخلاص.(١١)





عارض أغسطينوس، أسقف هيبو العظيم Augustine of Hippo، ما رآه في هذه الآراء من إنكار لنعمة الله. وظهرت معارضته في إصراره على أن الولادة الجديدة هي عمل مقصور على الروح القدس. فقد خلق الإنسان أصلاً على صورة الله وكانت لديه الحرية ليختار ما بين الخير والشر، لكن خطية آدم ورطت الجنس البشري كله لأن آدم كان رأساً لهذا الجنس ففسدت إرادة الإنسان بالكامل بالسقوط لذا يجب اعتبار الإنسان فاسداً تماماً وغير قادر على استخدام إرادته فيما يختص بأمر خلاصه. كان أغسطينوس يؤمن بأن جميع الناس يرثون الخطية من خلال آدم، وأنه لا يمكن لأي شخص أن يفلت من التأثر بالخطية الأصلية. وأن إرادة الإنسان مشلولة تماماً حتى إنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً من جهة خلاص نفسه. والخلاص يوهب للمختارين فقط الذين اختارتهم نعمة الله في المسيح. ويجب أن يحيي الله إرادة الإنسان حتى يستطيع ذلك الإنسان أن يقبل نعمة خلاص الله التي تقدم للذين اختارهم للخلاص.(١٢)

أدينت آراء بيلاجيوس Pelagius في مجمع أفسس Council of Ephesus في عام ٤٣١، لكن لا الكنيسة الشرقية ولا الكنيسة الغربية قبلت بالكامل آراء أغسطينوس Augustine. وقد حاول الراهب جون كاسيان John Cassian (٣٦٠-٤٣٥) الوصول إلى موقف وسط تتعاون فيه الإرادة الإنسانية مع الإرادة الإلهية في إتمام الخلاص. علَّم كاسيان أن كل البشر خطاة بسبب السقوط وأن إرادتهم قد ضعفت ولكنها لم تفسد بالكامل. وأن إرادة الإنسان التي تتمتع بحرية جزئية يمكن لها أن تتعاون مع النعمة الإلهية في إتمام عملية الخلاص. لقد خشي أن عقائد الاختيار والنعمة التي لا يمكن مقاومتها التي نادى بها أغسطينوس يمكن أن تؤدي إلى نوع من التحرر والتسيب الأخلاقي وعدم تقدير المسئولية. إلا أن آراء كاسيان التي حاولت إيجاد صيغة معتدلة لآراء أغسطينوس تمت إدانتها في Syond of Orange عام ٥٢٩.(١٣)

ظلت هذه المشكلة التي أثارها أغسطينوس وبيلاجيوس من المشكلات التي تكرر ظهورها في الكنيسة المسيحية. فالفكر اللاهوتي المتحرر الذي ظهر في القرن العشرين ما هو إلا إحياء لفكرة بيلاجيوس بأن الإنسان يقدر أن يصل إلى الخلاص بتعاونه مع الإرادة الإلهية من خلال مجهوداته الذاتية. والقضية تظل دائماً في السؤال هل المسيحية هي التزام أخلاقي أم أنها دين؟ هل إرادة الإنسان الحرة أم نعمة الله هي التي تخلص؟ هل تغيير الشخصية الإنسانية عن طريق الحضارة أو عن طريق التجديد الإلهي، هل المسيحية موضوع ناشئ عن قدرة الإنسان على التفكير أم إعلان الله عن ذاته. ظلت الكنيسة دائماً أقرب إلى رأي أغسطينوس منها إلى آراء بيلاجيوس أو جون كاسيان، هذا بالرغم من أن آراء الكنيسة في العصور الوسطى في هذا الموضوع كانت تشبه آراء أنصاف البيلاجيين من أتباع جون كاسيان.

انتهت معظم المجادلات الكبرى مع حلول عام ٤٥١، لكنها تركت أثراً بالغاً على الكنيسة المسيحية. نجحت الكنيسة في الحفاظ على وحدتها لكن تم ذلك على حساب حرية الروح التي كانت تميز الكنيسة الأولى. كان المسيحيون يمتلكون الآن مبادئ وإقرارات مدعومة بسلطان الكنيسة توضح الاتجاه الذي يجب أن تفسر به كلمة الله فيما يختص بالقضايا العقائدية الرئيسية. ولكن كانت هناك

أيضاً بعض السلبيات التي يجب استعراضها. أدى التركيز الشديد على الأمور اللاهوتية إلى الوقوع في خطر أن يتمسك الناس بالفكر اللاهوتي القويم من جهة إيمانهم ولكنهم لا يعيشون على المستوى الأخلاقي الذي يتمشى مع ما يؤمنون به. يجب أن يمضي إقرار الإيمان مع السلوك المدقق جنباً إلى جنب. ومن الأمور التي يؤسف لها أن الكثيرين من المسيحيين شعروا أن الكنيسة يمكن أن تلجأ إلى استخدام العنف والاضطهاد في جهودها لحفظ نقاوة الإيمان. وكان الإمبراطور الذي جلس في مكان التحكيم بين مختلف الآراء في مجامع الكنيسةيدعم سلطان الدولة على الأمور الدينية أيضاً منهياً بذلك الفصل ما بين الكنيسة والدولة. ولكننا ينبغي أن نشعر بالعرفان تجاه الأشخاص الذين خاطروا بحياتهم ومناصبهم ليجعلوا الكنيسة تلتفت وتقبل العقيدة والتعليم المتوافق مع كلمة الله. ويمكننا أن نتحد ونتوجه بالشكر والحمد إلى الله لأجل أعمال عنايته وإرشاده للكنيسة في مثل هذه الأمور.

## اقتراحات للقراءة

سيجد القارئ أن المراجع المذكورة في قراءات الفصل الثامن مفيدة في فهم مناقشات هذا الفصل.


*Arpee, Leon.* A History of Armenian Christianity. *New York: Armenian Missionary Association of America, 1946.*

*Atiya, Axix S.* A History of Eastern Christianity. *London: Methuen, 1968. This work describes the progress of Monophysite churches to the present.*

*Baker, George P.* Constantine the Great and the Christian Revolution. *London: Nash & Grayson, 1931.*

*Evans, Robert F.* Pelagius. *New York: Seabury, 1968.*

*Ferguson, John.* Pelagius. *Cambridge: Heffer, 1956. This is a sympathetic treatment.*

*Frend, W.H.C.* The Rise of the Monophysite Movement. *Cambridge: Cambridge University Press, 1972.*

*Jedin, Hubert.* Ecumenical Councils of the Catholic Church. *Translated by Ernest Graf. New York: Herder and Herder, 1960.*

*Kelly, J.N.D.* Early Christian Doctrine. *2nd ed. New York: Harper, 1960.*

*Landon, Edward H.* A Manual of Councils of the Holy Catholic Church. *2 vols. Edinburgh: Grant, 1909.*

*Newman, Albert.* A Manual of Church History. *2 vols Rev. Ed. Chicago: American Baptist Publication Society, 1931-33. See volume 1, pages 320-92, for a good discussion of the







controversies mentioned.*

*Schaff, Philip.* Creeds of Christendon. *3 vols. 6th ed. New York: Scribner, 1890. See volumes 1 and 2 for discussions of the rise of the creeds as well as the relevant documents.*

*Sellers, R.V.* The Council of Chalcedon. *London: SPCK, 1953. This is a helpful treatment of the history and doctrine of Chalcedon.*

*Wand, John W.C.* The Four Great Heresies. *London: Mowbray, 1955.*

## الفصل الثالث عشر

# العصر الذهبي لآباء الكنيسة

دأبت الكنيسة على الإشارة إلى آباء الكنيسة الذين جاءت خدمتهم قبل انعقاد مجمع نيقية باعتبارهم "آباء ما قبل نيقية" وهذا يشمل الآباء الرسوليين والمدافعين والمجادلين. أما في الفترة التي تقع ما بين انعقاد مجمع نيقية (٣٢٥) وانعقاد مجمع خلقيدونية Council of Chalcedon (٤٥١) برزت في الكنيسة خدمات مجموعة من آباء الكنيسة المقتدرين الذين قدموا أعظم اسهاماتهم في خدمة الكنيسة. اجتهد هؤلاء في دراسة الكلمة المقدسة على أسس علمية للوصول إلى معانيها اللاهوتية. ومن بينهم يعتبر القديس أغسطينوس أعظم هؤلاء الآباء وذلك بسبب عمق أعماله واتساع تأثيرها على الكنيسة حتى يومنا هذا.

## ١- آباء الكنيسة الشرقيون
## Post-Nicene Fathers
## بعد مجمع نيقية

ينتمي آباء الجناح الشرقي من الكنيسة لما درج على تسميته مدارس التفسير في كل من الإسكندرية وأنطاكية. فمنهم رجال مثل ذهبي الفم Chrysostom وتيودور من موبسيوستيا Theodore of Mopsuestia اتبعوا مدرسة أنطاكية أو المدرسة السريانية في التفسير التي تنبر على دراسة الكتاب المقدس من وجهة النظر التاريخية واللغوية وذلك بهدف اكتشاف المعنى الأصلي الذي قصده الكاتب وهو يكتب للأشخاص الذين يكتب إليهم. وقد تجنب أصحاب هذه المدرسة الميل إلى الرمزية الذي مارسه رجال مدرسة الإسكندرية الذين اتبعوا منهج ومثال أوريجانوس Origen.

### أ- يوحنا فم الذهب (تقريباً ٣٤٧-٤٠٧) الخطيب والمفسر

اكتسب يوحنا لقبه "ذهبي الفم" بعد موته بفترة قصيرة، وذلك لأن فصاحته وقدرته الخطابية كانت فعلاً فريدة فاكسبته شهرته بأن فمه ذهبي. وُلد يوحنا حوالي عام ٣٤٧ في عائلة أرستقراطية غنية في مدينة أنطاكية. كانت أمه واسمها أنثوزا تشبه والدة أغسطينوس وذلك لأنها- بالرغم من ترملها في سن العشرين- رفضت أن تتزوج مرة أخرى حتى تتفرغ لتنشئة ابنها وتعليمه. تتلمذ ذهبي الفم على يد ليبانيوس الذي كان صديقاً للإمبراطور جوليان Emperor Julian. وقد أعطاه هذا الرجل تدريباً ممتازاً في الأدب اليوناني الكلاسيكي وفي فن الخطابة أصبح أساساً متيناً

لقدراته الممتازة في الإلقاء والخطابة وعمل يوحنا لفترة من الزمن في ممارسة المحاماة، لكنه أصبح راهبًا بعد أن تعمد في عام ٣٦٨م. وبعد وفاة والدته في عام ٣٧٤ مارس يوحنا حياة نسكية شديدة التقشف حتى عام ٣٨٠م. وعاش طوال هذه الفترة في مغارة على جبل بالقرب من مدينة أنطاكية. إلا أن اعتلال صحته الشديد أجبره على التخلي عن هذا التقشف. فرسم للخدمة في ٣٨٦، وقدم بعضًا من أفضل عظاته في أنطاكية حتى عام ٣٩٨. وفي تلك السنة تم اختياره بطريركًا للقسطنطينية. وظل يخدم في هذا المنصب حتى غضبت عليه الإمبراطورة إيودوكسيا Eudoxia وأمرت بنفيه في عام ٤٠٤ لأنه انتقد تبهرج ملابسها وأنها صنعت لنفسها تمثالاً من الفضة وأقامته بالقرب من كنيسة القديسة صوفيا التي كان يعظ فيها. وتوفى يوحنا فم الذهب في منفاه في عام ٤٠٧م.

عاش فم الذهب Chrysostom حياة طاهرة بسيطة كانت في حد ذاتها توبيخًا للشعب الذي كان يخدمه في القسطنطينية والذي كان معظمهم من علية القوم الذين اعتادوا على البذخ الشديد. ولأن يوحنا فم الذهب كان متطرفًا في زهده في الحياة وتمسكه ببساطة المأكل والملبس فقد افتقر في بعض الأحيان إلى الكياسة وحسن التصرف، ولكنه عمومًا كان يتمتع بطبيعة مجاملة محبة لطيفة. ومع أنه كان عملاقًا في قامته الروحية والأخلاقية، إلا أنه كان قصير القامة نحيف الجسم، كان وجهه نحيفًا لكن مملوء بالبشاشة وله جبهة مجعدة ورأس أصلع وعينان يشع منهما بريق نافذ يترك أثرًا عظيمًا في سامعيه.

وربما كان للسنوات التي قضاها في الدراسة تحت إشراف ديودوروس Diodorus من مدينة طرسوس أثرها في صقل قدرته المميزة كمفسر للكتاب المقدس. وقد حفظت أكثر من ٦٤٠ من مواعظه، ومن يقرأها اليوم حتى وإن كانت كلمات مطبوعة على الورق إلا أنه لابد يرى قبسًا من قدرة فم الذهب المذهلة على الخطابة. ومعظم عظاته تدور حول تفسير مقاطع من رسائل بولس الرسول. وإذ لم يكن له دراية كبيرة باللغة العبرية فلم يستطع أن يقوم بالبحث النقدي لنصوص العهد القديم، ولكنه اهتم بقيمة أهمية دراسة السياق الذي كتبت فيه النصوص الكتابية وهو يسعى للوصول إلى المعنى الذي قصده الكاتب الأصلي ثم يطبق ذلك المعنى تطبيقًا عمليًا على المشاكل التي واجهها الناس في عصره. كانت مثل هذه التطبيقات العملية لمبادئ الإنجيل تقدم للشعب من خلال غيرة أدبية أخلاقية عظيمة. فقد علَّم ذهبي الفم أنه لا ينبغي أبدًا الفصل ما بين الدين والقيم الأخلاقية، فالصليب يسير جنبًا إلى جنب مع الأخلاق. ولا غرابة أن يوحنا فم الذهب مازال ينظر إليه أنه أعظم خدام الوعظ في الكنيسة الشرقية عبر تاريخها.[١]

### ب- ثيودور Theodore – المفسر (٣٥٠-٤٢٨تقريبًا)

ومن آباء الكنيسة البارزين الآخرين الذي عاش في مدينة موبسيوستيا. فهو أيضًا قد درس الكتب المقدسة لمدة ما يقرب من عشرة أعوام على يد ديودوروس الطرسوسي. وقد أتاح له كونه ابنًا لعائلة غنية الحصول على مثل هذا التعليم الجيد. وقد رسم أسقفًا في كنيسة أنطاكية في عام ٣٨٣ ثم أصبح أسقفًا للكنيسة في موبسيوستيا في إقليم كيليكية نحو عام ٣٩٢.





وقد اكتسب ثيودور Theodore عن حق لقب "أمير المفسرين القدماء". فإنه عارض وقاوم المنهج الرمزي للتفسير وأصر على الاجتهاد للوصول إلى فهم شامل للكلمة على أساس فهم التصريفات النحوية للنص ودراسة الخلفية التاريخية له بهدف اكتشاف المعنى الذي قصده الكاتب. كما أعطى عناية كبيرة لدراسة النص في سياقه المباشر وفي علاقته مع غيره من النصوص الأخرى. ولقد أتاح له هذا الأسلوب في الدراسة أن يصبح مفسرًا مقتدرًا وعالمًا لاهوتيًا عظيمًا. وكتب ثيودور تفاسير لبعض أسفار الكتاب المقدس مثل رسالة كولوسي ورسائل تسالونيكي. وقد كان له – هو وذهبي الفم – تأثير إيجابي على تفسير الكتاب المقدس في العصر الذي عاشا فيه. كانت جهودهما ومؤلفاتهما تقف على طرف النقيض مع ما شاب تفسير الكلمة المقدسة من نقائص نتيجة لاستخدام الأسلوب الرمزي للتفسير.

### ج- يوسابيوس – مؤرخ الكنيسة (٢٦٥-٣٣٩تقريبًا)

يعتبر يوسابيوس القيصري Eusebius of Caesarea من أكثر آباء الكنيسة الذين تدرس أعمالهم على نطاق واسع في أوساط الدارسين. فإنه اكتسب الحق في أن يلقب "أبو التاريخ" الكنسي مثلما اكتسب هيرودوت Herodotus لقبه "أبو التاريخ". فبعد أن تلقى تعليمًا جيدًا على يد بامفيلوس Pamphilus في قيصرية ساعد صديقه بامفيلوس على إقامة مكتبة في تلك المدينة. كان يوسابيوس دارسًا مجتهدًا مثابرًا وقرأ كل ما وقع في يده من كتب يمكن أن تنفعه في أبحاثه. وقد اقتبس على نطاق واسع من كل أنواع الكتابات سواء العالمية أو الكتابات المقدسة حتى إن الكثير مما نشر في زمانه والذي كان يمكن أن يكون مصيره الضياع حُفظ ووصل إلينا بسبب اقتباس يوسابيوس لمقاطع كبيرة منه في مؤلفاته.

وقد كانت شخصية يوسابيوس تؤهله للقيام بهذه الجهود الدراسية. كان ذا شخصية لطيفة وديعة، لا يحب الشجار والمجادلة وقد أبغض الجدل الحاد الذي أثارته هرطقة أريوس. وقد أعطى له الإمبراطور قسطنطين Constantine أن يجلس عن يمينه في مجمع نيقية تكريمًا له وقد اتفق مع الإمبراطور في رغبته للوصول إلى حل وسط ما بين الحزبين المتنازعين حزب أثناسيوس Athanasius وحزب أريوس Arius. وقد قبل المجمع قانون الإيمان القيصري الذي أعده يوسابيوس كأساس للوثيقة النهائية التي صدرت عنه.

أما أعظم أعمال يوسابيوس فهي مؤلفه "التاريخ الكنسي" Ecclesiastical History الذي هو بمثابة عرض شامل لتاريخ الكنيسة من العصر الرسولي وحتى عام ٣٢٤. وكان هدفه من كتابة هذا العمل هو تسجيل التجارب التي مرت فيها الكنيسة في نهاية مشوارها الطويل مع الصراع والاضطهادات وبداية حقبة ازدهارها. ويكتسب هذا العمل أهميته وقيمته الخاصة اليوم لأن يوسابيوس– وهو يكتب – كانت له فرصة متاحة لاستخدام المكتبة الممتازة التي كانت في قيصرية كما استعان بالأرشيف الإمبراطوري. لقد بذل يوسابيوس جهدًا كبيرًا ليلتزم بالصدق والأمانة الموضوعية في استخدامه لأفضل المصادر الأولية التي كانت متاحة له والتي يمكنه الاطمئنان إلى صحة معلوماتها.[٢] وإذا استخدم يوسابيوس منهجًا نقديًا في الاستفادة من العديد من الوثائق التي يمكن

الاعتماد عليها فإنه قدم لنا إرهاصات مبكرة جداً للمناهج العلمية التي يستخدمها المؤرخون في العصر الحديث لتقييم مصادر معلوماتهم. فلا غرابة إن قلنا إن يوسابيوس Eusebius هو أفضل مصادر المعرفة المتاحة فيما يختص بتاريخ الكنيسة خلال الثلاثة قرون الأولى لوجودها، لكن الدارسين والعلماء يأسفون أنه لم يهتم كثيراً بتسجيل الحواشي التي تبين المصادر التي استقى منها معلوماته مثلما يفعل المؤرخون في العصر الحديث. بل إنه في بعض الأحيان لا يزيد ما قام به يوسابيوس عن كونه تجميع للحقائق والاقتباسات بدون ترتيبها أو تحليلها بشكل يبرز أسبابها أو نتائجها. وبالرغم من هذه النقائص وما يشوب الأسلوب الذي كتبت به هذه المؤلفات من تكرار ممل، إلا أن هذا العمل كان ذات قيمة للكنيسة عبر العصور تفوق كل تقدير.

وكتب يوسابيوس أيضاً كتاباً آخر اسماه السجل التاريخي Chronicle وهو بمثابة عرض للتاريخ العالمي من وقت إبراهيم وحتى عام ٣٢٣. وفي جزء من هذا العمل قدم ما يعرف باسم Chronological Canons وهو الإطار الزمني المتعارف عليه لتحديد التسلسل الزمني لأحداث التاريخ الوسيط. أما كتابه "حياة قسطنطين" فقد ألفه إلحاقاً لكتب التاريخ وهو مصدر ممتاز للمعلومات الخاصة بإنجازات وأعمال قسطنطين Constantine وعلاقتها وتأثيرها على الكنيسة. وقد كتب أيضاً سيرة ذاتية لقسطنطين بهدف تخليده.

وقد تابع جهود يوسابيوس في كتابة التاريخ اثنين من خلفائه الذين لم يصلا إلى ما وصل إليه من مرتبة راقية في حرصه على التأكد من مصداقية ما يكتب. ولكننا يجب أن نقر أن هذين الشخصين من العلمانيين وهما سقراط Socrates وسوزومن Sozomen أظهرا قدراً من الإنصاف وعدم المحاباة حتى عندما كتبوا عن معارضيهما. وكان كل منهما قد تلقى تعليمه وتدريبه للعمل في مهنة المحاماة. ويكمل سقراط قصة المسيحية من عام ٣٠٥ وحتى عام ٤٣٩ في محاولة منه لإكمال ما بدأه يوسابيوس. أما سوزومن فقد كان أكثر سذاجة من سقراط يسرع إلى تصديق المعلومات وكثيراً ما كان ينتحل آراء غيره فيما يكتبه. وكان يستطرد وينحرف عن الموضوع الأساسي بغية التركيز على أهمية النسك. ويغطي مؤلفه الفترة ما بين ٣٢٣-٤٢٥. ويكون هذان الرجلان - إلى جانب يوسابيوس Eusebius - المصادر الرئيسية المعتمدة من الكنيسة للمعلومات عن تاريخ الكنيسة القديمة.

## ٢- آباء الكنيسة الغربيون
## Western Post-Nicene Fathers
## بعد مجمع نيقية

تفوق الآباء في الكنيسة الغربية في مجالات مختلفة عن تلك التي برز فيها الآباء الشرقيون. فمن أهم ما قاموا به مجهوداتهم في ترجمة الكتاب المقدس، وكتابات الفلاسفة الوثنيين، وكتابة الأبحاث اللاهوتية والاتجاه نحو الأمور العملية التي تتميز بها الشعوب اللاتينية في مواجهة اتجاه أهل الشرق نحو التأمل وحب الفلسفة، ويظهر هذا بوضوح في أعمال وكتابات جيروم Jerome وأمبروز وأغسطينوس Augustine.

### أ- جيروم - مفسراً ومترجماً (٣٤٧-٤٢٠تقريباً)

وُلد جيروم في مدينة فينيشيا، وقد قبل





المعمودية في عام ٣٦٠ وقضى عدة سنوات كدارس متجول في مدينة روما ومدن بلاد الغال (فرنسا). ثم قضى عشرة أعوام بعد ذلك في زيارة أنطاكية حيث مارس فيها الحياة النسكية وعكف على دراسة اللغة العبرية ثم أصبح سكرتيراً لداماسوس Damasus أسقف روما في عام ٣٨٢. واقترح عليه داماسوس أن يعمل على إنجاز ترجمة جديدة للكتاب المقدس.(٢) فذهب جيروم في عام ٣٨٦ إلى فلسطين حيث عاش في دير بالقرب من بيت لحم هيأته له امرأة اسمها بولا وكانت سيدة رومانية ثرية قام بتدريسها اللغة العبرية. وقد قضى جيروم ما يقرب من ٣٥ سنة رئيساً لهذا الدير.

كان أعظم ما أنجزه جيروم من أعمال هو الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس المعروفة باسم الفولجاتا Vulgate. فقبل عام ٣٩١ كان قد أتم مراجعة ترجمة العهد الجديد إلى اللغة اللاتينية. وأما بالنسبة للعهد القديم فقد تجاوز الترجمة اليونانية المعروفة بالسبعينية للعهد القديم وعكف على إنجاز ترجمة لاتينية من الأصل العبري مباشرة، حيث أتم عمله حوالي سنة ٤٠٤ أو ٤٠٥م. وقد استخدمت الترجمة التي أنجزها جيروم للكتاب المقدس على نطاق واسع في الكنيسة الغربية وظلت إلى وقت قريب هي النسخة الرسمية المعتمدة للكتاب المقدس في الكنيسة الكاثوليكية التابعة لروما منذ انعقاد مجمع ترنت Council of Trent.

كان جيروم مفسراً وكتب عدة تفاسير مازالت نافعة حتى اليوم. وكان شغفه القديم ودرايته الكبيرة بالمؤلفات الكلاسيكية ذا نفع كبير له ساعده على تفسير الكلمة المقدسة، ولكنه في سنوات عمره اللاحقة عاد وتنكر لجدوى دراسة الأدب الكلاسيكي.





*لا تتوفر لدينا أي صورة معاصرة لجيروم، إلا أن الطبعات المتأخرة من مؤلفاته كثيراً ما احتوت على رسومات تمثل جيروم. وهاتان اللوحتان مأخوذتان من ترجمة إيطالية أنجزت في عصر النهضة لحياته ورسائله. ويظهر جيروم أولاً بين كتبه الكثيرة، ثم في اللوحة الثانية يظهر جيروم مع مارسيلا التي كانت مع والدة جيروم وأخته تساعده في عمله لترجمة الكتاب المقدس. ويظهر جيروم وهو يشير إلى منتقديه الذين يبدو أنهم انتقدوا كونه يتحدث مع امرأة.*

وقد كتب كتاباً ممتازاً بعنوان De Viris Illustribus اتبع فيه نفس أسلوب كتاب السير الذاتية لكتاب السير القدماء. ويتضمن هذا المؤلف سيراً ذاتية قصيرة مع بيان بالمؤلفات والإنجازات لعدد من أبرز الكتاب المسيحيين ومؤلفاتهم من وقت عصر الرسل وحتى العصر الذي عاش فيه. وقد

دفعه حبه الشديد للحياة النسكية إلى كتابة الكثير في مدحها ويدين انتشار الرهبنة وقيم الحياة النسكية في العصور الوسطى بالكثير جداً لكتابات جيروم في هذا الموضوع.

### ب- أمبروسيوس (أمبروز)- المدبر والواعظ (تقريباً ٣٤٠-٣٩٧)

أظهر أمبروسيوس Ambrose قدراته في مجال الإدارة الكنسية، والوعظ والدراسات اللاهوتية. كان والده يشغل منصباً رفيعاً حيث كان حاكماً لإقليم الغال، وكانت أسرته ذات مكانة سامية في البلاط الإمبراطوري في روما، لذلك فقد وفرت له أن يدرس القانون تمهيداً لإعداده لمستقبل في العمل السياسي. وسرعان ما ارتقى ليشغل منصب الحاكم الإمبراطوري للمنطقة الواقعة حول مدينة ميلانو. وعندما توفى أسقف ميلانو في عام ٣٧٤، عبَّر الشعب بالإجماع عن رغبتهم في أن يتولى أمبروسيوس هذا المنصب. وإذ اقتنع أن تلك كانت دعوة الله له، تخلى عن منصبه الرفيع، ووزع كل أمواله على الفقراء، وأصبح أسقفاً وبدأ دراسة مكثفة للكتاب المقدس وللعلوم اللاهوتية.

أثبت أمبروسيوس أنه كان مدبراً جسوراً لشئون الكنيسة. فتكلم بقوة ضد الجماعة الأريوسية التي كان لها نفوذ قوي هناك ولم يتردد في مواجهة الإمبراطور ثيودوسيوس Theodosius.

ففي عام ٣٩٠ انتقم الإمبراطور ثيودوسيوس من أهل تسالونيكي بعد مقتل حاكمهم بأن جمعهم في الميدان الرئيسي للمدينة وأمر بقتلهم جميعاً. وعندما جاء للكنيسة للتناول، رفض أمبروسيوس أن يقدم له العشاء الرباني قبل أن يعلن توبته وانكساره أمام الجميع على ما فعل بأهل تسالونيكي.[٤] أراد أمبروسيوس أن يجعل الدولة وحكامها يحترمون الكنيسة حتى لا يتطاولوا على حقوق الكنيسة في مجال خدمتها الروحية. وبالرغم من أن تفسير أمبروسيوس العملي للكتاب المقدس قد شابه استخدامه للطريقة الرمزية في التفسير، إلا أنه كان واعظاً مقتدراً وكان وعظه في كاتدرائية ميلانو




*لوحة فسيفسائية لأمبروسيوس (أمبروز) - أسقف ميلانو، الواعظ القدير واللاهوتي المقتدر في الأعمال الإدارية. وترجع هذه الصورة إلى النصف الأول من القرن الخامس ويمكن أن تكون نوعاً من تخيل الفنان لشكل أمبروسيوس أكثر منها تصويراً دقيقاً لصورته.*





هو السبب المباشر في تقديم المعرفة المسيحية لأغسطينوس والتي أدَّت فيما بعد إلى تجديده. كان أمبروسيوس أول من أدخل الترنيم الجمهوري في الكنيسة الغربية واستخدام الألحان المتداخلة وترنيم المزامير في الخدمات. وأصبح أيضاً عالماً لاهوتياً ذائع الصيت بالرغم من أنه لم يدرس العلوم اللاهوتية إلا بعد رسامته أسقفاً.

### جـ- أغسطينوس - اللاهوتي والفيلسوف (تقريباً ٣٥٤-٤٣٠)

كرمت الكنيسة في العصور الوسطى كل من جيروم Jerome وأمبروسيوس (أمبروز) Ambrose وذلك بأن منحتهم لقب دكتور أو أستاذ، لكن شهرتهما بالرغم من ذلك تعتبر صغيرة إذا ما قورنت بالسمعة التي صارت لأغسطينوس Augustine. فإن إسهامات أغسطينوس في قضية المسيحية يتفق البروتستانت والكاثوليك معاً على تقديرها.

كان أغسطينوس مجادلاً قديراً، وواعظاً جيداً، لديه مهارة كبيرة في رعاية الكنيسة والإشراف عليها إدارياً كما كان أيضاً لاهوتياً فذاً وصاحب مدرسة فكرية أوجدت فلسفة مسيحية للتاريخ مازالت قائمة ونافعة بعناصرها الأساسية. وإذ عاش أغسطينوس في زمن عانت فيه الحضارة الكلاسيكية من تهديد حقيقي على يد الغزاة من القبائل البربرية، وقف أغسطينوس بين عالمين، العالم الكلاسيكي والعالم الجديد الذي تمثل في العصور الوسطى. لقد أصرَّ أن يتطلع البشر للأمام نحو "مدينة الله" City of God، حضارة أساسهاروحي، سوف تحل محل الحضارة الكلاسيكية التي كانت تستعد للرحيل والأفول.

وُلد أغسطينوس في عام ٣٥٤ في بيت موظف روماني رسمي في مدينة في شمال أفريقيا تدعى سفسطة (الجزائر الحديثة). كانت أمه مونيكا Monica تصلي كثيراً من أجل تجديده وقبوله الإيمان المسيحي. وقد تلقى تعليمه الأولي في المدرسة المحلية، وفيها تعلم اللغة اللاتينية ولكنه تعلمها مصحوبة بالكثير من الضرب والإهانة وكره اللغة اليونانية لدرجة أنه لم يستخدمها أبداً بكفاءة. ثم أرسلوه إلى مدرسة في البلدة المجاورة التي تُدعى مادورا ومن هناك إلى قرطاجة Carthage لكي يدرس فيها الخطابة. وإذ تحرر أغسطينوس بسفره من رقابة أهله عليه، اتبع مثال الكثيرين من الطلبة في ذلك الزمان وانغمس في الشهوات والملذات فاتخذ لنفسه عشيقة. وقد وُلد ابنه أديوداتوس Adeodatus نتيجة لهذه العلاقة المحرمة في عام ٣٧٢. وفي عام ٣٧٣ اعتنق أغسطينوس مذهب المانية Manichean في طريق بحثه عن الحق، ولكنه لم يجد فيها ما يشبعه فتحول نحو الفلسفة بعد قراءته لأحد كتب شيشرون Cicero واسمه Hortensius وبعض تعاليم الإفلاطونية الجديدة Neoplatonic. وكان يعمل مدرساً للخطابة موطنه في قرطاجة ثم في روما حتى ذهابه إلى ميلانو في عام ٣٨٤.

وفي عام ٣٨٦ تعرض أغسطينوس للأزمة التي انتهت بتجديده. كان يتمشى يوماً في حديقة متفكراً في أمر ما يشعر به من احتياج روحي، فسمع صوتاً يأتيه من خلف قائلاً: "اتخذ كتابك واقرأه". فتح أغسطينوس كتابه المقدس على رسالة رومية ١٣:١٣-١٤، وما أن قرأ هذه الآيات إلا واستنارت روحه بالنور الذي ظل يبحث عنه دون أن يجده في المانية أو الأفلاطونية الجديدة. طلب من

عشيقته الرحيل وتخلى عن مهنته في تدريس الخطابة وماتت أمه، التي طالما صلت كثيرًا من أجل تجديده، بعد معموديته بوقت قصير. وعند عودته إلى قرطاجة تمت رسامته للكهنوت في ٣٩١. ثم ما لبث أن تم تعيينه أسقفًا لمدينة هيبو في عام ٣٩٦. ومنذ ذلك الوقت وحتى وفاته في عام ٤٣٠ وهب أغسطينوس حياته كلها لتدبير شئون الكنيسة والدراسة والكتابة والتأليف. ويعتبر الكثيرون أن أغسطينوس Augustine هو أعظم آباء الكنيسة.[٥] فقد خلف وراءه أكثر من مائة كتاب وخمسمائة عظة مكتوبة ومائتي رسالة.

ولعل أشهر ما كتبه أغسطينوس كان كتاب "اعترافات أغسطينوس" Confessions الذي يعتبر واحدًا من أعظم السير الذاتية في كل العصور وقد أتم كتابته في عام ٤٠١. ومثل كل كتاباته الرئيسية الأخرى، جاءت نتيجة لأزمات تعرض هو شخصيًا لها أو تعرضت لها الكنيسة ككل. وقد لجأ أغسطينوس في كتابه هذا إلى تعرية نفسه بالكامل. فالأبواب من الأول إلى السابع تصف حياته قبل التجديد ويصف الباب الثامن الأحداث التي أحاطت بحادثة تجديده، ثم يحكي في البابين التاليين الأحداث التي أعقبت تجديده، بما فيها موت أمه وعودته إلى شمال أفريقيا. والأبواب ١١-١٣ تتضمن تفسيرًا للأصحاحات الأولى من سفر التكوين، يلجأ فيها أغسطينوس كثيرًا إلى التفسير الرمزي.

وقد وجد المسيحيون عبر العصور بركة روحية كبيرة في قراءة هذا المؤلف الذي كتبه أغسطينوس متوجهًا لله تعبيرًا عن شكره وحمده وعلى نعمة الله التي امتدت لتدرك خاطئ مثله. ويحتوي هذا الكتاب على العبارة المشهورة التي طالما اقتبسها الكثيرون والتي تقول: "لقد خلقتنا ياالله لذاتك، لذا فقلوبنا تظل حائرة حتى تجد راحتها في شخصك" حيث تقع في أول أسطر الكتاب. ويظهر بكل وضوح إحساس أغسطينوس بخطيته وسلطان الشر الذي ظهر في انغماسه في حياة الشر والرزيلة، كما يظهر التعبير عن حاجته الشديدة للتطهير ذلك الاحتياج الذي وجد له حلاً أخيرًا في اختباره لنعمة الله.[٦]

وقد كتب أغسطينوس كتابًا آخر عن سيرته الذاتية واسمه "مراجعات" وقد أنهاه قبل موته بوقت قصير وناقش فيه كل كتاباته بحسب تسلسلها الزمني وحدد الأمور التي غير فيها رأيه وموقفه مع مرور السنين. ولقد أبدى ندمه بالأخص عن ارتباطه المبكر بالفلسفة الوثنية، لأنه قال إنها لا يمكن أن توصل الإنسان إلى الحق كما هو في المسيحية.[٧] ويعتبر هذا الكتاب بمثابة سيرته الذاتية الفكرية. كتب أغسطينوس أيضًا بعض المؤلفات الفلسفية مستخدمًا أسلوب الحوار. ويعتبر كتاب Contra Academicos أكثر تلك المؤلفات طرافة حيث حاول فيه أن يوضح أن الإنسان يمكن أن يصل إلى احتمال الحق من خلال دراساته الفلسفية ولكن اليقين من جهة الحق لا يأتي إلا بواسطة الإعلان الذي يقدمه الكتاب المقدس.

أما كتابه "العقيدة المسيحية" فهو الأهم من بين مؤلفاته التفسيرية وهو بمثابة دليل قصير يعرض فيه آراءه في علم التفسير. وقد صاغ أغسطينوس في هذا الكتاب مبدأ عظيمًا من مبادئ علم التفسير اسمه "قياس الإيمان" والمقصود به أنه لا يجوز استخدام أي فقرة معينة في الكتاب المقدس





لصياغة أي تعليم يخالف الجو العام للكتاب المقدس كله. وقد أدت عدم مراعاة الكثيرين لهذا المبدأ بهم إلى الخطأ بل وإلى الهرطقة في كثير من الأحيان. وإذ وضع أغسطينوس Augustine هذا المبدأ نصب عينيه كتب العديد من التفاسير للعهدين القديم والجديد.

وكتب أغسطينوس أيضًا أبحاثًا لاهوتية أهمها بحثه عن اللاهوت والمعروف باسم De Trinitate والسبعة الأبواب الأولى من هذا الكتاب خصصها الكاتب لتقديم عرض كتابي لعقيدة التثليث Trinity. وكتب أيضًا دليلاً صغيرًا ضمنه آراءه اللاهوتية وهو معروف باسم Enchiridion Ad Laurentium ، ويقدم هذا الكتاب ومعه كتابه السابق الإشارة إليه باسم "مراجعات" للقارئ فكرة شاملة عن آراء أغسطينوس اللاهوتية في حيز صغير. وكتب أيضًا العديد من المؤلفات الجدلية يدافع فيها عن المسيحية في وجه التعاليم المنحرفة للمانية، والدوناتية، وبالأخص ضد البيلاجية ويعتبر كتابه De Haeresibus بمثابة تاريخ لفكر الهرطقات. وكتب أيضًا العديد من الأعمال الرعوية والعملية والكثير من الرسائل التي وصل الينا منها ما يزيد عن مائتي رسالة. وتعالج هذه الأعمال وتلك الرسائل العديد من المشكلات العملية التي يمكن أن تواجه الراعي في خدمته عبر السنوات في الكنيسة. أما أعظم أعماله الدفاعية، والتي يعتبرها كثيرون أنها أعظم أعماله التي كتبها على الإطلاق والتي بنيت عليها شهرته الذائعة، هي رسالته البحثية المعروفة باسم مدينة الله The City of God (٤١٣-٤٢٦) بل إن أغسطينوس نفسه كان يرى أن هذا المؤلف هو أعظم مؤلفاته.[٨]

أحدث استيلاء الاريك Alaric على مدينة روما في عام ٤١٠ صدمة كبيرة بين الرومان مما دفعهم إلى التفكير بأن هذه المصيبة قد حلت عليهم بسبب تركهم للديانة الرومانية القديمة واعتناقهم المسيحية. وقد انبرى أغسطينوس لتفنيد هذه التهمة وذلك عندما طلب من صديقه مارسيلينيوس Marcellinus أن يقوم بهذه المهمة. تمثل الفصول العشرة الأولى من هذا الكتاب الجزء الدفاعي منه. ففي الفصول من ١-٥ حاول أن يبين أن رخاء الدولة الرومانية لم يكن معتمدًا على اعتناقها لديانة تعدد الآلهة القديمة، وذلك لأن الرومان تعرضوا للكثير من الكوارث قبل ظهور المسيحية بوقت طويل، بل إن ما تحقق لهم من نجاح يرجع إلى عناية الله الذي كانوا يجهلونه. وفي الخمسة الفصول التالية بيَّن أغسطينوس أن عبادة آلهة الرومان لسيت ضرورية لكي يحصل الإنسان على البركة الأبدية. بل إن هذه الآلهة والمعبودات ليست لديها أي قدرة لا على النفع ولا على الضرر لمن يعبدونها سواء على الصعيد الزمني أو على الصعيد الروحي، أما المسيحية فقد قدمت لهم وتقدم لهم كل ما يتمتعون به من خيرات زمنية.

أما فلسفة أغسطينوس للتاريخ، وهي أول فلسفة حقيقية للتاريخ تمت صياغتها، فهي معروضة في الأبواب من ١١-٢٢ من هذا المؤلف العظيم. ففي الأبواب من ١١-١٤ تتم مناقشة مصدر وأصل كل من المدينتين. والفكرة الرئيسية المحورية لهذا المؤلف تتم بلورتها في الفصل ٢٨ من الباب ١٤. المدينة الأولى، مدينة الله تتألف من كل الكائنات البشرية والسماوية وقد توحدت في محبتها لله وفي سعيها لتقديم المجد له وحده. أما مدينة الأرض تتألف من الكائنات التي تسعى لتحقيق مجدها

الذاتي ومصالحها الخاصة لأنها لا تحب إلا ذواتها. والمبدأ الأساسي الذي تم على أساسه التمييز بين المدينتين هو المحبة. لم يكن أغسطينوس Augustine يفكر لا في الإمبراطورية الرومانية ولا في كنيسة روما عندما تحدث عن هاتين المدينتين. كانت نظرته أعم وأشمل وتتعارض مع النظرة التي كانت سائدة للتاريخ باعتباره دورات متتالية. وفي الأبواب من ١٥–١٨ تتبع نمو وتقدم كلتا المدينتين من خلال التاريخ الكتابي والتاريخ الدنيوي. أما الأبواب الباقية فهي تحكي عن مصير المدينتين. وبعد الدينونة يشترك مواطنو مدينة الله في السعادة الأبدية في الوقت الذي يعيش مواطنو مدينة الأرض تحت العقاب الأبدي. لم يأخذ أغسطينوس في حسبانه مكانة اليهود أو دورهم في المستقبل واعتبر أن الزمن الحاضر هو عصر الكنيسة الذي تعيش فيه ملك المسيح الألفي. وكان يؤكد أن الإزدواجية التي تجمع المدينتين الآن هي وضع مؤقت وبسماح من الله الذي سوف ينهيه بعمل إلهي. وبالرغم من أن هذا الكتاب يعتبر صعبًا في أسلوبه مملاً في تتابعه، إلا أن الدارس الذي يقرأه بعناية لابد وأن يجد فيه نظرة وفهمًا أفضل عن خطة الله وغرضه.

ينبغي أن ننظر إلى الإنجاز الذي أنجزه ذلك العالم المسيحي العظيم بأنه من أبقى إنجازاته وإسهاماته، وذلك فيما قام به من صياغة وتفسير مسيحي للتاريخ. فلا المؤرخون من الإغريق ولا زملاؤهم من الرومان، استطاعوا الوصول إلى مثل هذا التصور الشامل لتاريخ البشرية. لقد أعطى أغسطينوس مكانة للأمور الروحية أعلى من الأمور الزمنية وذلك عندما أكد على سلطان الله المطلق فهو في رأي أغسطينوس الله خالق التاريخ في إطار الزمن. فإن الله يسود فوق التاريخ وليس محدودًا بالتاريخ كما قال الفيلسوف هيجل في وقت لاحق.

فالتاريخ عملية تمتد في خط مستقيم وليس في دورات متكررة. وكل ما يحدث أو يظهر في الوجود يحدث نتيجة لمشيئة الله وعمله. فحتى قبل الخليقة، كان عند الله خطة في فكره بالنسبة لخليقته. وهذه الخطة الإلهية سوف تتحقق جزئيًا في إطار الزمن من خلال الصراع ما بين المدينتين على الأرض ثم أخيرًا تتحقق فيما وراء الزمن بعمل قوة الله الخارقة للطبيعة. كان لأغسطينوس مجال واسع لرؤيته للتاريخ أوسع من أي ممن سبقوه. فقد رأى التاريخ باعتباره يشمل الكون كله وأن كل البشر يدخلون في إطاره. فإن هيروديت Herodotus عندما كتب عن الحرب الفارسية قصر تحليله على الصراع ما بين اليونانيين والفرس. لكن أغسطينوس أكد على تضامن الجنس البشري كله، بل أكثر من ذلك كان يؤمن أن التقدم الحقيقي مرتبط في أساسه بالأخلاق والأمور الروحية وأن التقدم ما هو إلا نتيجة للصراع مع الشر، صراع يتمتع فيه الإنسان بتأييد ومساندة نعمة الله له. وأن نهاية هذا الصراع أو بلوغه لحده الأقصى لابد وأن ينتج عنه نهاية الحالة التي فرضتها الخطية بوجود الثنائية المؤقتة التي يصورها صراع المدينتين الذي سوف ينتهي حتمًا بالنصرة النهائية لمدينة الله. بهذا تجنب أغسطينوس الوقوع في الخطأ الذي وقع فيه ماركس وآخرون عندما حاولوا أن يجعلوا مشهد التاريخ الزمني النسبي يبدو وكأنه مطلق وأبدي وذلك بمحاولتهم إيجاد حلول لمشكلات الإنسان في التاريخ الزمني. إن هدف أو غاية التاريخ عند أغسطينوس يتحقق خارج حدود التاريخ نفسه، أي بين يدي الله الأبدي. إن مثل هذه الفلسفة الملهمة هي التي سندت الكنيسة





وساعدتها على الصمود خلال فترة الخمسمائة عام المظلمة التي سبقت عام ١٠٠٠م.

يعتبر البروتستانت أغسطينوس Augustine رائدًا من رواد الإصلاح الأوائل حيث أنه أبرز فكرة أن الخلاص من الخطية الأصلية ومن الخطية الفعلية هو نتيجة لعمل النعمة التي يظهرها الله كلي السلطان بأن يقدم الخلاص بصورة لا يمكن مقاومتها للذين سبق فاختارهم للخلاص. وقد نبّر أغسطينوس على أهمية الكنيسة باعتبارها المؤسسة المنظورة التي تحمل التعليم الصحيح وتقدم الاسرار والفرائض وتقوم بالخدمة وقد نبّر على هذا إلى الدرجة التي جعلت الكنيسة الكاثوليكية تعتبره أبًا لمفهومها عن طبيعة الكنيسة ودورها. ويجب أن نتذكر أن أغسطينوس قام بكل هذه التنبيرات في إطار جهوده لدحض إدعاءات أتباع بيلاجيوس Pelagius من ناحية والدوناتيون Donatists من الناحية الأخرى، وأصبح إصراره على وضع المعنى العام لكل الكتاب المقدس في الاعتبار عند تفسير أي فقرة معينة من كلمة الله من المبادئ والقيم الخالدة في الكنيسة.

ولكن إلى جانب كل هذه القيم الباقية التي ساهم أغسطينوس في صياغتها إلا أنه أدخل معها بعض الأخطاء في مجرى الفكر المسيحي. فلقد ساعد على تطور عقيدة وجود المطهر بكل ما صاحبها من شرور. ولقد اهتم جدًا بالتنبير على أهمية الفريضتين الأساسيتين في المسيحية إلى الدرجة التي جعلت عقيدة ارتباط الخليقة الجديدة بالمعمودية وعقيدة النعمة التي لا يمكن نوالها إلا بالفرائض التي يقدمها رجال الكهنوت، تجد في آرائه مقدمة منطقية مهدت للكنيسة قبولهما. وكان لتفسيره لفكرة ملك المسيح لألف سنة باعتبار أنها الفترة التي تقع ما بين التجسد ومجيء المسيح ثانية والتي سوف يتحقق فيها للكنيسة نصرتها على العالم أثرها الواضح في أن ينادي أهل روما بأن كنيسة روما هي الكنيسة العامة أو العالمية التي عينها الله لتجمع الكل تحت جناحها وأيضًا أدّى ذلك إلى انتشار فكرة الإيمان بمجيء المسيح بعد الملك الألفي.

إلا أن هذه الأفكار لا يجب أن تعمي أبصارنا عن أهمية أغسطينوس بالنسبة للكنيسة المسيحية عمومًا. فلقد وجد رجال الإصلاح في كتابات أغسطينوس حليفًا تفوق قيمته كل تقدير، وذلك في تأكيدهم على الإيمان بأن الإنسان مستعبد للخطية ويحتاج إلى الخلاص بنعمة الله بواسطة الإيمان وحده. فإنه فيما بين بولس الرسول ومارتن لوثر لم تجد الكنيسة من هو أعظم من أغسطينوس في قامته الأدبية والروحية.

## اقتراحات للقراءة

إن الكثير من المواد المدونة في هذه القراءات الخاصة بالفصل الخامس تعد مراجع مفيدة فيما يختص بآباء هذه الفترة.

*Battenhouse, W., ed.* A Companion to the Study of Saint Augustine. *New York: Oxford*

*University Press, 1955. This gives helpful background information.*

*Bourke, Vernon J.* Augustine's Quest of Wisdon. *Milwaukee: Bruce, 1945. The author has given a helpful, scholarly, and detailed account of Augustine's life and work from the Roman Catholic viewpoint.*

*Brown, Peter.* Augustine of Hippo. *Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1967.*

*Dudden, F. Homes.* The Life and Times of Saint Ambrose. *2 vols. Oxford: Clarendon University Press, 1935. This is well documented.*

*Farrar, Frederick W.* Lives of the Fathers. *2 vols. New York: Macmillan, 1889. Volume 2 has lengthy accounts of the lives and works of Jerome, Chrysostom, and Augustine.*

*Kelly, J.N.D.* Jerome. *New York: Harper and Row, 1975.*

*Leigh-Bennett, Ernest.* Handbook of the Early Christian Fathers. *London: Williams & Norgate, 1920. There are excellent chapters on most of the Fathers discussed in this chapter.*

*Oates, Whitney J., ed.* Basic Writings of St. Augustine. *2 vols. New York: Random, 1948.*

*Paredi, Angelo.* Saint Ambrose. *Notre Dame: University of Notre Dame Press, 1964. This is a scholarly work that is well documented and fairly recent.*

*Van der Meer, Frederick.* Augustine the Bishop. *Translated by Brian Battershaw and G. R. Lamb. London: Sheed and Ward, 1961. This is a literary mosaic of Augustine's life and work based on his writings and on recent research and archaelolgy.*

*Wallace-Hadrill, David S.* Eusebius of Caesarea. *London: Mowbray, 1960.*





## الفصل الرابع عشر

# المسيحية والأديرة

شهدت كل عصور التاريخ، انعزال بعض الأشخاص عن المجتمع في الفترات التي ساد فيها الإنغماس في أمور العالم أو عند تحول الدين إلى مؤسسة، واختاروا الانعزال متوحدين بهدف تحقيق القداسة الشخصية عن طريق التأمل وممارسة النسك، ابتعدوا عن المجتمع لأنهم رأوا فيه مجتمعاً فاسداً مقضي عليه. ففي أثناء الفترة التي تعرضت فيها الإمبراطورية الرومانية للإنحلال الداخلي التدريجي، أصبحت الرهبنة ذات جاذبية قوية للكثيرين، فهجروا مجتمعهم واختاروا الحياة في الأديرة.

وترجع جذور هذه الحركة إلى القرن الرابع، ومنذ ذلك الحين بدأت أعداد متزايدة من العلمانيين في الانسحاب من العالم والإعتزال. ومع نهاية القرن السادس كانت الرهبنة قد مدت جذورها في جناحي الكنيسة الشرقي والغربي على حد سواء. وشهدت الرهبنة حقبة ازدهار ثانية عند إصلاح الرهبنة في القرنين العاشر والحادي عشر ثم عادت للازدهار للمرة الثالثة في حقبة الرهبنة الأخوية في القرن الثالث عشر. ويمثل قيام حركة الرهبان اليسوعيين (الجيزويت) في الإصلاح المضاد الذي حدث في القرن السادس عشر الحقبة الأخيرة الذي أثرت فيها الرهبنة تأثيراً عميقاً على الكنيسة. ومازال لهذه الحركة، والتي يمكن اعتبارها حركة رد فعل للثقافة والحضارة السائدة، مكانة هامة في حياة الكنيسة الكاثوليكية.

## ١- الأسباب التي أدت إلى حركة الرهبنة

ساهمت عدة مؤثرات في قيام حركة الرهبنة Monasticism في الكنيسة القديمة. فالنظرة الثنائية للجسد والروح، بما تتضمنه من ميل نحو اعتبار الجسد شراً والروح خيراً- وقد ظهر ذلك بوضوح في الفكر الشرقي- كان لها تأثيراتها على المسيحية من خلال الحركات الغنوسية والأفلاطونية الجديدة. وكان المفهوم أن الإنعزال عن العالم يساعد الفرد على صلب الجسد وتطوير وتنمية الحياة الروحية عن طريق التأمل والممارسات النسكية.

ولابد أن يتذكر المرء أن بعض الأجزاء الكتابية تبدو وكأنها تؤيد وتدعم فكرة الانفصال عن العالم. وقد كان دفاع بولس الرسول عن حياة العزوبية في كورنثوس الأولى في صف هذه الفكرة. وقد شجع

آباء الكنيسة الأقدمون مثل أوريجانوس Origen وكبريانوس Cyprian وترتليان Tertullian وجيروم على العزوبية على اعتبار أنها التفسير الصحيح لمثل هذه الأجزاء من كلمة الله.

ولقد ساعدت بعض الميول النفسية المعينة على تقوية وتدعيم الرغبة في حياة الرهبنة Monasticism. ففي فترات الأزمات يتولد دائمًا الميل إلى الهروب والانسحاب من مواجهة حقائق الواقع الأليمة. فقد شهدت أواخر القرنين الثاني والثالث بدايات القلاقل المدنية التي ما لبثت أن سادت التاريخ اللاحق للإمبراطورية. وقد هجر الكثيرون مجتمعاتهم وخرجوا إلى الأديرة كوسيلة للهروب من مواجهة حقائق الحياة القاسية والفساد الأخلاقي في ذلك العصر. وباتحاد الكنيسة مع الدولة تناقصت احتمالات الاستشهاد، فكان أن وجد راغبي الاستشهاد- باعتباره شهادة لإيمانهم وأمانتهم- في الرهبنة بديلاً نفسيًا مناسبًا ولاسيما في الممارسات النسكية التي تهدف إلى إماتة الذات. وقد وفرت الرهبنة أسلوبًا فرديًا للاقتراب إلى الله والخلاص أكثر منه في العبادة الرسمية الجماعية التي كانت سائدة في ذلك الزمان.

ولقد لعب التاريخ أيضًا دورًا في القرار الذي اتخذه الكثيرون بقبول حياة الرهبنة. فإن تزايد أعداد أفراد قبائل البرابرة المهاجرة الذين دخلوا الكنيسة ومعهم ممارسات شبه وثنية أنشأ نوعًا من الرفض لدى الأفراد الذين لهم اتجاهات تطهرية داخل الكنيسة. وقد دفع الانهيار والتدهور الذي حدث للأخلاقيات ولاسيما بين الطبقات العليا في المجتمع الروماني، كثيرين لليأس من أي إصلاح اجتماعي فأصبحت الرهبنة ملاذًا لأولئك الذين يرفضون ما آلت إليه أحوال المجتمع من تحلل في ذلك الوقت. وصارت الرهبنة احتجاجًا حيًا على المجتمع وقتئذ.

وكان للجغرافيا أيضًا فضلها في توفير بعض الاعتبارات التي صارت من العوامل المساعدة على انتشار الرهبنة. فمن الطبيعي أن الممارسات الرهبانية كانت ستكون أصعب بكثير لولا اعتدال الجو في مناطق مثل صحراء مصر، التي شهدت البدايات الحقيقية لحياة الرهبنة. فالطقس الدافئ الجاف وانتشار الكهوف والمغارات في التلال المطلة على نهر النيل والصحاري القريبة منه ساعدت بقدر كبير على تنفيذ فكرة انعزال الأفراد ليعيشوا متوحدين في تلك الكهوف. وكانت إمكانية زراعة الحدائق الصغيرة والاعتماد على الماء والأسماك التي يوفرها نهر النيل الذي يجري قريبًا من البرية عنصرًا حاسمًا في تمكين الفرد من الحياة في عزلة عن المجتمع. وقد وفرت الصحراء الجرداء القريبة من العمران نسبيًا مناخًا مناسبًا للانقطاع وممارسة التأمل.

## ٢- تطور ونمو الرهبنة

مرت الرهبنة في أربع مراحل رئيسية خلال فترة ازدهارها في الحضارة الغربية. ففي أول الأمر، كان الكثيرون يمارسون الحياة النسكية داخل الكنيسة. ثم بعد ذلك انسحب الكثيرون من المجتمع ليعيشوا متوحدين.

وسرعان ما ذاعت شهرة أولئك المتوحدين، وجذبت قداستهم وحياتهم العظيمة آخرين كانوا يأتون للسكنى في الكهوف القريبة منهم ناظرين





إليهم طلبًا للقيادة والمشورة فيما كان يسمى Laura. وقد يبنون ديرًا يضم مجموعة من الرهبان. وفي المرحلة الأخيرة ظهرت الحياة الجماعية المنظمة في إطار دير يعيش فيه الرهبان معًا. وقد بدأت هذه العملية لتطور ممارسات الرهبنة أولاً في الشرق في القرن الرابع، حيث امتدت من هناك لتنتشر في الكنيسة في الغرب أيضًا.

### (أ) الرهبنة في الشرق

يعتبر الأنبا أنطونيوس Anthony (من ٢٥١-٣٥٦ تقريبًا) مؤسس الرهبنة. فعندما بلغ العشرين من عمره باع كل ممتلكاته، ووزع أمواله على الفقراء، واعتزل متوحدًا في مغارة ليمارس فيها حياة التأمل. وقد أكسبته الحياة المقدسة التي عاشها شهرة كبيرة حتى إن آخرين سعوا لكي يعيشوا بالقرب منه في المغارات العديدة التي تناثرت بالقرب من المكان الذي اعتزل فيه. لم يسع أبدًا إلى تنظيم هؤلاء التلاميذ في مجتمع مشترك، بل شجعهم على أن يعيش كل منهم حياته النسكية متوحدًا في مغارته.(١)

ولم يكن كل الرهبان المتوحدين على نفس الدرجة من الاتزان الذي كان للقديس أنطونيوس وتلاميذه. بالبعض منهم بالغوا جدًا في بعض التصرفات التي تعتبر غريبة لمن يسمعها اليوم. فقد بقي أحدهم ويدعى القديس سمعان العمودي Saint Simeon Stylites (من ٣٩٠-٤٥٩ تقريبًا)، لعدة أشهر وقد دفن جسده كله حتى الرقبة في الأرض ثم قرر أن يحقق مقياسًا من القداسة في حياته بأن يعيش باقي عمره جالسًا على عامود. فقد عاش ما يزيد عن خمسة وثلاثين سنة على قمة عامود ارتفاعه ستون قدمًا (١٨ مترًا) بالقرب من مدينة أنطاكية Antioch. وآخرون اختاروا أن يعيشوا في الحقول يتخذون من عشب الحقل طعامهم مثلما تفعل الماشية. بل إن أحدهم ويدعى أمّون Ammoun اكتسب شهرته وقداسته من كونه لم يخلع ثيابه ولم يغتسل ولا مرة من بعد أن صار راهبًا متوحدًا. وراهب آخر عاش مدة خمسين سنة متجولاً في منطقة جبل سيناء عريانًا بدون ملابس. إلا أن مثل هذه الممارسات لا تقدم صورة صحيحة عن حركة الرهبنة ككل، ولكنها تعتبر تطرفات هامشية وقد انتشرت في الشرق أكثر منها في الغرب.



*إن أي رأي متوازن في الرهبنة ينبغي أن يضع في الاعتبار الدوافع التي تقف وراء هذه الحركة، والإسهامات الإيجابية التي قامت بها إلى جانب التجاوزات أو المبالغات التي وقع فيها بعض أفرادها. تُظهر هذه اللوحة الخشبية مكاريوس الذي قيل عنه إنه ندم على قتله بعوضة فذهب ليعيش في مستنقع طيني لمدة ستة أشهر معرضًا نفسه لقرصات الحشرات المختلفة.*

وقد ظهرت الرهبنة الجماعية Cenobite Monasticism ، هي الأخرى أولاً في مصر. عاش القديس باخوميوس Pachomius (حوالي ٢٩٠-٣٤٦)، الذي كان وهو جندياً تم تسريحه، اثنتي عشرة سنة متوحداً، ثم نظم أول دير في نحو عام ٣٢٠م في منطقة تابنيسي على الضفة الشرقية لنهر النيل. وسرعان ما أصبح لديه عدة آلاف من الرهبان يعيشون تحت إشرافه المباشر سواء من مصر أومن سوريا. وقد تميزت هذه الحركة(٢) ببساطة الحياة، والعمل الشاق والتكريس والطاعة.



*اعتبر الرهبان أن المرأة هي مصدر للتجربة والخطية، لذلك تجنب الرهبان التواجد بالقرب من النساء. إلا أن المفارقة الحقيقية في هذا الأمر هو أن الجنس والشهوات أصبحت تلازم الرهبان في كل مكان وتشغل بالهم كل الوقت. ويبين هذا الرسم محاولة أحد الرهبان للتخلص من تجاربه في هذا الأمر، وذلك بتعريض أصابعه للنار لتحترق. وتظهر يده اليسرى ولم يبق فيها شئ، بينما لا تحمل يده اليمنى إلا أصابع الإبهام والسبابة.*

قام القديس باسيليوس من قيصرية Basil of Caesarea (٣٣٠-٧٩) بالكثير من الجهد لنشر نمط الرهبنة الجماعية. فبعد ان تلقى أفضل تعليم في أثينا والقسطنطينية، تخلى وهو في سن السابعة والعشرين من عمره عن كل اهتمام بالأمور العالمية ووهب حياته للحياة النسكية. وتم تعيينه أسقفاً على منطقة كبيرة في كبدوكية في عام ٣٧٠م، وهو المنصب الذي ظل يشغله حتى وفاته. وقد أضاف القديس باسيليوس إلى الاتجاه الرهباني روح الوحدة والتعبير الجماعي وذلك بإصراره على أن يواظب الرهبان الخاضعين له على ممارسة العمل والصلاة وقراءة الكتاب المقدس والأعمال الحسنة. ولم يشجع المغالاة في النسك. وتدين الرهبنة في الكنيسة في أوربا الشرقية اليوم بالكثير للنظم والقوانين التي ابتكرها لإرشاد الرهبان التابعين له.(٣) وقد انضم الكثيرون إلى هذه الحركة حتى أصبح هناك ما يقرب من مئة دير في أوربا عندما ارتقى جاستينيان عرش الإمبراطورية الشرقية.

### (ب) الرهبنة في الغرب

اختلفت الرهبنة في الغرب اختلافاً كبيراً عنها في الشرق. فقد جعل طقس أوربا البارد من الرهبنة الجماعية ضرورة وذلك للحاجة لتوفير مبانٍ مدفئة وأماكن لتخزين الطعام لفترة الشتاء الطويلة. وكانت الرهبنة في الغرب ذات طابع عملي في تعبيرها عن رسالتها. فقد نبذت الفراغ أو السكون السلبي واتخذت موقفاً من الممارسات النسكية البحتة. وركزت على العمل والتعبد.

ويرجع الفضل - بحسب التقليد - إلى أثناسيوس Athanasius في إدخال الرهبنة ألى الغرب خلال إحدى الفترات التي تم فيها نفيه بعيداً





عن الإسكندرية. وقد اتصل العديد من الحجاج الذين يأتون إلى فلسطين لزيارة الأراضي المقدسة، بالرهبنة سواء في فلسطين نفسها أو في سوريا وانجذبوا إليها. وقد كتب كل من مارتن التوروزي Martin of Tours وجيروم، وأغسطينوس Augustine وأمبروز يمدحون في الرهبنة وساعدوا بذلك على نشر الرهبنة في الإمبراطورية الرومانية. وقد بلغت كتابات جيروم عن الحياة النسكية مكانة تلي مكانة الكتاب المقدس وكتاب قوانين بندكت للرهبنة في مكتبات الرهبان في القرون الوسطى.

يعتبر بندكت من نورسيا Benedict of Nursia هو أعظم قادة حركة الرهبنة الغربية. وهو الذي عاش ما بين ٤٨٠م-٥٤٢م تقريباً. صدم بندكت من الشرور المتفشية في روما مما دفعه ليعتزل المجتمع ويعيش راهباً متوحداً في كهف في الجبال التي تقع إلى الشرق من روما وذلك نحو عام ٥٠٠م. وفي نحو عام ٥٢٩م أسس ديراً في مونت كازينو، والذي ظل قائماً حتى الحرب العالمية الثانية عندما دمرته القنابل. وسرعان ما نشأت عدة أديرة أخرى تحت إشرافه وتتبع النظام الإداري الذي ابتكره لتنظيمها، والعمل والعبادة في داخلها، وهو ما يعرف باسم قانون بندكت للرهبنة. كان كل دير يُعتبر وحدة مستقلة لها إدارة ذاتية واكتفاء ذاتي تمثل حامية من جنود المسيح. وكان يتم تقسيم اليوم إلى فترات تقضى في القراءة والعبادة والعمل. وكانت الضوابط التي وضعها بندكت لا تسمح للرهبان إلا بتناول قدر يسير من اللحوم ولكنه سمح لهم بقدر وفير من الأسماك والزيت والزبد والخبز والخضروات والفاكهة في وجباتهم. هذه القواعد التي نبرت على الفقر والعفة والطاعة كانت هي أهم القيم التي سادت الرهبنة في العصور الوسطى.(٤) وقد نقلت هذه القواعد إلى إنجلترا وألمانيا وفرنسا مع حلول القرن السابع وأصبحت سائدة حول العالم تقريباً في عصر الملك شرلمان Charlemagne. وأصبحت هي قواعد الرهبنة السائدة في الغرب في سنة ١٠٠٠م.

## ٣- تقييم حركة الرهبنة

## Evaluation of Monasticism

يميل الدارسون السطحيون لتاريخ الكنيسة في كثير من الأحيان إلى تجاهل أهمية عمل ودور الرهبان أو التقليل منه، بل وأحياناً يظهرون موقفاً سلبياً تجاه الرهبان لا يضع في الحسبان الإسهامات التي قام بها أولئك الرهبان في الزمن الذي عاشوا فيه. وهي الإسهامات التي مازالت لها تأثيراتها على الحضارة الحديثة.

فالأديرة في المناطق الريفية كانت في أغلب الأحيان تقوم في العصور الوسطى بنفس الدور الذي تقوم به المزارع التجريبية الحديثة اليوم في تقديم البيان العملي لأساليب مستحدثة في الزراعة. كان الرهبان يعملون في إزالة الأشجار من الغابات وإعدادها لزراعة المحاصيل، وكانوا ينشئون أنظمة لصرف المياه وتجفيف المستنقعات، وبناء الطرق وتحسين التقاوي وسلالات الماشية. وكان المزارعون الذين يعيشون بالقرب من الدير ينقلون ويقلدون الأساليب الأفضل التي يرون الرهبان يطبعونها في مزارعهم.

وقد ساعدت الأديرة أيضاً على الحفاظ على روح البحث والدراسة خلال العصور المظلمة ما بين عام ٥٠٠م وعام ١٠٠٠م، إذ اضطربت الحياة في

داخل المدن عندما استولى البرابرة على الإمبراطورية الرومانية. كما وفرت المدارس التابعة للأديرة فرص التعليم الإبتدائي لأبناء الأهالي الذين يسكنون حول الدير ولديهم رغبة في تعليم أولادهم. وقد انشغل الرهبان في نسخ وتدوين المخطوطات النادرة الثمينة، فتم بذلك حفظ تلك الكنوز للأجيال اللاحقة. وفي منتصف القرن السادس، كان كاسيودورس Cassiodorus (٤٧٨-٥٧٣) موظفًا حكوميًا كبيرًا في مملكة القوط الشرقيين، لكنه تقاعد من منصبه الحكومي وكرّس جهوده لإنجاز مهمة جمع وترجمة ونسخ أمهات الكتب من كتابات الآباء وروائع الأدب. وقد ساعده في هذه الجهود العديد من الرهبان الذين عاشوا في الدير الذي أسسه.

وتعتبر الوثيقة المعروفة باسم The Book of Kells وهي مخطوطة لإنجيل يوحنا باللغة اللاتينية مكتوبة ومزخرفة بشكل رائع، من النماذج الحية على روعة وجمال أعمال الرهبان، وقد نسخت هذه المخطوطة بواسطة الرهبان الأيرلنديين في القرن السابع. وكتب رهبان آخرون من أمثال بيديه وأينهارد Einhard وماثيو باريس سجلات تاريخية، تعتبر من المصادر الأساسية للمعلومات المتعلقة بتاريخ هذه الفترة.

وقد صار بعض الرهبان وبالأخص من بريطانيا هم مبشرو الكنيسة في العصور الوسطى. كانوا يخرجون كجنود شجعان للصليب بهدف تأسيس أديرة جديدة أصلحت بدورها مراكز انطلقت منها الجهود التي أدت إلى ربح قبائل بأكملها للمسيحية. كان كولومبا Columba راهبًا من أيرلندا استخدمه الله لربح شعب اسكتلندا، وقام أحد أتباعه وهو أيدان Aidan بربح شعب شمال انجلترا. ولكن للأسف فإن معظم جهودهم التبشيرية قد تشوهت من خلال ممارستهم لأسلوب التجديد الجماعي للجماهير. فإذا قبل أحد الحكام الإيمان المسيحي، كان يتم تعميده ومعه كل شعبه سواء استوعبوا المعنى الحقيقي لهذا العمل أو لم يفهموا معناه وتطبيقاته على حياتهم.

وفرت الأديرة ملجأ يرحب بالمنبوذين من المجتمع الذين كانوا في أشد الاحتياج للمساعدة. وكان أولئك الذين يحتاجون الرعاية الطبية غالبًا ما يجدون في الدير من يقبل بترحاب ومحبة تقديمها لهم. وكان المسافرون الذين أتعبتهم وأرهقتهم مشقة السفر يجدون المأوى والطعام في رحاب الأديرة المنتشرة على الطرق. وكان الذين تتعبهم الروح المادية في المجتمع يجدون في رحاب الأديرة مكانًا للراحة من مشاغل الحياة. وقد أفرزت الأديرة في العصور الوسطى بعضًا من أفضل القيادات الكنسية من أمثال البابا غريغوريوس السابع Gregory 7th.

ولكن على الناحية الأخرى هناك بعض السلبيات التي تنسب إلى الرهبنة في العصور الوسطى. فقد حرم المجتمع من مجموعة من أفضل رجال ونساء الإمبراطورية في نزيف مستمر يصب في الأديرة، وحرم العالم والمجتمع من الاستفادة من خبراتهم ومهاراتهم في وقت كان المجتمع في أشد الحاجة إلى وجود مثل هذه الشخصيات القيادية. بل أكثر من ذلك حرمت الدعوة لحياة العزوبية كل هؤلاء الرجال والنساء من الزواج وتربية أطفال





أكفاء. ومن ثم صار مقياس الحياة الأخلاقية للراهب هو التبتل يختلف عن المقياس للشخص العادي.

وفي كثير من الأحيان ساهمت الرهبنة Monasticism في خلق نوع من الكبرياء الروحي حيث أصبح الرهبان يتفاخرون بالممارسات النسكية التي يقومون لها لنفعهم الروحي الشخصي. وإذ تزايدت الثروات في الأديرة بسبب الملكية الجماعية والتكامل الاقتصادي، زحف التكاسل والتكالب على المال والنهم للمتع إلى حياة تلك الأديرة.

وساعدت الرهبنة على سرعة ظهور على نظام السلطة المركزية في الكنيسة. وذلك لأن الرهبان كانوا دائمًا ملتزمين بالطاعة الكاملة لرؤسائهم الذين كانوا بدورهم موالين للبابا. قد لا نرضى عن هذه الاتجاهات رضاء كاملاً ولكننا في نفس الوقت لا نستطيع إلا أن نسجل الإعجاب بالإسهامات الرفيعة التي قدمها الرهبان للكنيسة في العصور الوسطى.

## اقتراحات للقراءة


*Hannah, Ian.* Christian Monasticism. *New Yok: Macmillan, 1925.*

*La Carriere, Jacques.* Men Possessed of God. *Translated by Roy Monkcom. Garden. City, N.Y.: Doubleday, 1964. This work discusses the more ascetic Eastern monasticism.*

*Zarnecki, George.* The Monastic Achievement. *New York: McGraw, 1972.*

## الفصل الخامس عشر

# تطورات نظم العبادة والقيادة في الكنيسة

تحولت الكنيسة الكاثوليكية القديمة من كونها كنيسة يتمتع فيها كل أسقف بمكانة مساوية لغيره من الأساقفة إلى الكنيسة الكاثوليكية التابعة لروما حيث أصبح لأسقف روما السيادة على باقي الأساقفة. حدث هذا في الفترة ما بين عام ٣١٣ إلى عام ٥٩٠م. كما تطورت وكثرت طقوس الكنيسة. كانت الكنيسة الكاثوليكية التابعة لروما تعكس في نظامها وقوانينها الداخلية نظام الإمبراطورية الرومانية.

## ١- سيادة أسقف روما

كان الأسقف في الكنيسة الأولى واحداً من أساقفة كثيرين يتساوون كلهم في المكانة والرتبة والسلطان والوظيفة. وفي الفترة ما بين عام ٣١٣م إلى عام ٤٥٠م تطورت مكانة أسقف روما بحيث أصبح الآخرون يعترفون بأنه الأول أو المتقدم بين إخوته المساوين له في المكانة. إلا أنه ابتداء من ارتقاء ليو الأول Leo 1st كرسي الأسقفية في عام ٤٤٠م بدأ أسقف روما في ادعاء سيادته على الأساقفة الآخرين. فقد أدَّى الاحتياج إلى الكفاءة والتنسيق، بطبيعة الحال، إلى تمركز السلطة. وكان الأسقف يُعتبر أيضاً أنه حامي حمى العقيدة السليمة. وبالإضافة إلى ذلك فإن بعض الرجال الذين شغلوا منصب أسقف روما في تلك الفترة كانت لهم شخصيات قوية ولم يفوتوا أية فرصة تتاح لهم لزيادة وتوسيع دائرة نفوذهم.[1]

وقد تضافرت الأحداث التاريخية التي شهدتها تلك الفترة لتساعد على تدعيم سمعة ودور أسقف روما. فقد ظلت روما المركز التقليدي للسلطة في العالم الروماني لما يقرب من خمسمائة عام، وكانت هي أكبر مدينة في الغرب. وبعد أن نقل قسطنطين عاصمة الإمبراطورية إلى مدينته الجديدة القسطنطينية في عام ٣٣٠م، انتقل مركز الثقل السياسي من روما إلى تلك المدينة الجديدة. كانت نتيجة ذلك أن أصبح أسقف روما هو أقوى شخصية في روما بدون منازع لفترات طويلة من الوقت، وابتدأت شعوب هذه المناطق تتطلع إلى أسقف روما باعتباره ممثل القيادة الزمنية والروحية كلما واجهتهم الأزمات. كان أسقف روما بمثابة الحصن القوي عندما استولى ألاريك Alaric وجيوشه من القوط الغربيين على روما في عام ٤١٠م، حيث استطاعت المهارة الدبلوماسية لأسقف روما أن تنقذ المدينة من أن تحرق بالنار. كان الإمبراطور في القسطنطينية بعيداً عن روما وعن

مشكلاتها، بينما كان الأسقف موجوداً على أرض الواقع مستعداً لممارسة السلطة بفاعلية في مواجهة الأزمة السياسية إلى جانب الأزمة الروحية. وعندما سقط العرش الإمبراطوري في الغرب في أيدي القبائل المهاجرة من البربر بعد عام ٤٧٦م، وأصبحت مدناً أخرى في إيطاليا مقراً للسلطة الزمنية، تطلع شعب إيطاليا إلى أسقف روما طلباً لممارسته القيادية السياسية والروحية عليهم.

وقد استقر قبول الكنيسة لنظرية الخلافة الرسولية المتسلسلة من بطرس الرسول Petrine Theory والتي تستند على أجزاء كتابية مثل مت ١٦:١٦-١٨، لو ٢٢:٣١-٣٢، يوحنا ٢١:١٥-١٧، مع حلول عام ٥٩٠م. وبحسب هذه النظرية، فقد أعطي بطرس "السيادة الكنسية" على زملائه من الرسل، وأن هذه المكانة الخاصة التي وُهبت به تم نقلها منه إلى خلفائه من أساقفة روما بواسطة الخلافة Succession الرسولية. وكان أول من استخدم هذه الأجزاء الكتابية عام ٢٥٠م إستفانوس. وقد ظهر الكثيرون من عظماء اللاهوتيين في الكنيسة الغربية تحت قيادة أسقف روما. ومن بين هؤلاء الرجال الأفذاذ ظهر كبريانوس Cyprian وترتليان Tertullian وأغسطينوس Augustine ولم يواجه أسقف روما أبداً معاناة الجدل والخلاف مع الهرطقات كتلك التي أدت إلى الشقاقات في الشرق مثل الجدل حول آراء أريوس Arius على سبيل المثال. نعم لقد عقد أسقف روما سنودسات عرض فيها بوضوح وجهة النظر السليمة.

ومن بين الأساقفة الخمسة العظماء في أورشليم وأنطاكية، والإسكندرية والقسطنطينية وروما. لكن مدينتي روما والقسطنطينية Constantinople كانا أكثر هذه المدن تأثيراً في التاريخ منذ عام ٥٩٠م. فأسقف أورشليم فقد مكانته بعد التمرد اليهودي ضد روما خلال القرن الثاني. وسرعان ما تضاءلت أهمية الإسكندرية وأنطاكية بعدما اجتاحتهما جيوش العرب في القرن السابع. وبقي أسقف روما وأسقف القسطنطينية يحتلان مكانتهما باعتبار أنهما يمثلان أهم قيادات كنسية في عام ٥٩٠م.

أقرَّ مجمع القسطنطينية Council of Constantinople في عام ٣٨١ المكانة المتميزة لأسقفية روما. وأُعطي بطريرك القسطنطينية "مكانة الشرف التالية لأسقف روما" وذلك بحسب ما ورد في القرار الثالث من قرارات مجمع القسطنطينية.[٢] كان ذلك بمثابة الاعتراف العملي بسيادة أسقف روما من قبل مجموعة من قيادات الكنيسة البارزين. وفي عام ٤٤٥م أصدر الإمبراطور فالنتينيان الثالث Valentinian 3rd قانوناً يعترف فيه بسيادة أسقف روما في الشئون الروحية. وكان ذلك القانون يقضي بأن ما يقرره الأسقف ينبغي أن "يصبح قانوناً يسري على الكل".[٣] وبذلك اعترفت كل من السلطات الكنسية والزمنية في القرنين الرابع والخامس بمكانة أسقف روما وبسيادته في الكنيسة.

وقد ساعدت الجهود التبشيرية الفعالة التي قام بها الرهبان الموالون لروما على توطيد وتدعيم نفوذ أسقف روما. كان كلوفيس Clovis قائد الفرنج مسانداً مخلصاً لنفوذ أسقف روما . وقد أرسل جريجوري الأول Gregory 1st أغسطينوس Augustine إلى انجلترا حيث استطاع هذا





الراهب ومن خلفوه إدخال انجلترا تحت سطوة روما. وحيثما ذهب الرهبان المبشرون كانوا يصرون على أن يعلم من يهتدون للإيمان المسيحي ولاءهم لأسقف روما.

وفوق كل ذلك، فإن الله قد أعطى الكنيسة في روما مجموعة من أقدر الأساقفة في تلك الفترة، ولم يضيع أي من أولئك الرجال أي فرصة لاحت لهم لتقوية وتدعيم قوتهم. ويبدو أن الأسقف داماسوس الأول Damasus 1st (٣٦٦-٣٨٤) كان أول أسقف لروما يطلق على كرسي الأسقفية في روما وصف "الكرسي الرسولي". وقد أسهمت ترجمة الفولجاتا للكتاب المقدس، والتي بدأ جيروم Jerome العمل فيها بناء على توجيه داماسوس عندما كان سكرتيراً له، في زيادة مكانة شاغل كرسي الأسقفية في روما. ويمكن أن نلاحظ امتناع جيروم الشديد بسلطان أسقف روما عندما نقرأ ما كتبه في رسالة لداماسوس حيث كتب يقول إن كرسي بطرس الرسول هو الصخرة التي بنيت عليها الكنيسة.[٤]

كان ليو الأول Leo 1st، والذي شغل كرسي الأسقفية في روما في الفترة ما بين ٤٤٠-٤٦١م أقدر من شغلوا هذا المنصب حتى تولى جريجوري الأول Gregory 1st هذا المنصب نفسه في عام ٥٩٠م. وقد أكسبته قدراته الفذة لقب ليو الكبير. وقد استفاد كثيراً من استخدام لقب Papas ومنه خرج لقب بابا الذي مازال يستخدم حتى اليوم. ففي عام ٤٥٢م استطاع أن يقنع أتيلا Attila ملك الهن بأن يترك مدينة روما لحالها. ومرة أخرى في عام ٤٥٥م، عندما قَدِم جايسريك Gaiseric وأتباعه من الوندال من شمال أفريقيا للإستيلاء على روما وتدميرها، استطاع ليو أن يقنعهم ألا يحرقوا المدينة أو يدمروها. ولكنه اضطر أن يوافق أن تترك المدينة للوندال لمدة أسبوعين ينهبونها. وقد حفظ جايسريك وعده وكلمته، ورأى أهل روما في ليو الشخص الذي أنقذ مدينتهم من الدمار الكامل. وقد تدعم مركزه أكثر عندما اعترف الإمبراطور فالنتينيان الثالث Valentinian 3rd للأسقف ليو بالسيادة الروحية المطلقة على الغرب وذلك في القانون الذي أصدره في عام ٤٤٥م. وقد أصرَّ ليو على أن ترفع إليه القضايا التي ترد من محاكم الأساقفة الكنسية لينظرها هو بنفسه بحيث يكون قراره فيها نهائياً. وقد كتب ليو تعريفاً للرأي السليم في العمل الذي ألَّفه باسم Tome وكتب أيضاً ضد الهراطقة من المانيين والدوناتيين.[٥] وحتى وإن لم نعتبر ليو أول البابوات، إلا أنه من الإنصاف أن نقول إنه فعلياً مارس السلطان وطالب بالحقوق التي كانت لمن جاءوا من بعده ليشغلوا الكرسي البابوي. كتب جيلاسيوس الأول Gelasius 1st الذي شغل منصب البابا في الفترة من ٤٩٢-٤٩٦م كتب في عام ٤٩٤ يقول إن الله قد منح البابا السلطان الروحي كما منح الملك السلطان الزمني. وحيث أن البابا كان عليه أن يقدم حساباً أمام الله عن الملك في يوم الدينونة، فإن السلطان الروحي الذي للبابا أهم من السلطان الممنوح للملك للحكم.

لذلك فإن الملوك والحكام ينبغي أن يخضعوا للبابا. ربما كان مثل هذا النفوذ نافعاً في الفترة الأولى من تلك المرحلة وذلك في مواجهة خطر القبائل المهاجرة التي هاجمت الإمبراطورية، لكن هذا النفوذ أدَّى في وقت لاحق إلى انتشار الفساد في كنيسة روما نفسها.

## ٢- تطور نظام العبادة (الليتورجية)

أدى الاتحاد والتقارب العملي الذي حدث ما بين الكنيسة والدولة، إبان عصر الإمبراطور قسطنطين ومن خلفوه، إلى اصطباغ الكنيسة بطابع دنيوي. خضع بطريرك القسطنطينية تحت سيطرة الإمبراطور، وأصبحت الكنيسة الشرقية مجرد إدارة من إدارات الحكومة. قد أسهم تدفق الأعداد الكبيرة من الوثنيين إلى داخل الكنيسة عن طريق حركة التجديد الجماعي التي شهدتها تلك الفترة في دخول التأثير الوثني إلى العبادة في الكنيسة بالتدريج وذلك عندما حاولت الكنيسة أن تجعل هؤلاء المتجددون البربر Barbarians لا يشعرون بأنهم غرباء في الكنيسة. وهذا التدفق الوثني والذي كان يتألف من مجرد مسيحيين اسميين، دفع الكنيسة للإستنجاد بالدولة وطلب مساعدتها في حفظ النظام وإقراره داخل الكنيسة باستخدام سلطتها المدنية لمعاقبة التجاوزات التي تحدث في الكنيسة. وفي عام ٥٢٩م أمر جستينيان Justinian إمبراطور القطاع الشرقي من الإمبراطورية بإغلاق أكاديمية أثينا. وكانت الفلسفة اليونانية الوثنية مازالت تدرس في ذلك المكان حتى ذلك العام. وقد تراخى النظام العام داخل الكنيسة لأن القائمين عليه انشغلوا بالمجهود الكبير الذي تطلبه السيطرة على البربر الذين دخلوا الكنيسة دون أن يتخلصوا إلا جزئيًا من وثنيتهم.

أحدث تدفق رجال القبائل المهاجرة وتزايد السلطان الأسقفي تغيرات في نظام العبادة في الكنيسة. فلكي يجد البربر الذين اعتادوا عبادة الصور Pictures والتماثيل معاونة حقيقية من الكنيسة، فقد اعتقد كثيرون من القيادات الكنسية أنه يجب تشخيص العبادة بما يساعد هؤلاء العابدين على الشعور بأن الله قريب منهم. فنتج عن هذا الإتجاه ممارسات مثل تمجيد الملائكة، والقديسين والصور والأيقونات والتماثيل. وأدى ارتباط الكنيسة بالدولة الملكية إلى تغير شكل العبادة Worship من النمط الديمقراطي البسيط للعبادة إلى نمط يميل أكثر نحو الأرستقراطية، واستخدام الفنون الراقية في الليتورجية بما لا يخلو من بهرجة وأبهة، هذا إلى جانب تزايد التميز الشديد ما بين رجال الكهنوت وعامة الشعب.

أصبح يوم الأحد واحدًا من الأيام الرئيسية في التقويم الكنسي بعد أن قرر قسطنطين أن يكون هو يوم الراحة إلى جانب كونه يوم العبادة الدينية.

وأصبح الاحتفال بعيد الميلاد من الممارسات السائدة في الغرب نحو منتصف القرن الرابع، بعد اعتماد تاريخ الميلاد في شهر ديسمبر وهو نفس التاريخ الذي كان الوثنيون قبلاً يستخدمونه للإحتفال. وعيد الظهور الذي كان الغرب يحتفل به باعتباره ذكرى مجيء المجوس ليروا الطفل يسوع بينما كان الشرق يحتفل به باعتباره عيد الغطاس أي ذكرى معمودية Baptism المسيح، تم ضمه هو الآخر إلى التقويم الكنسي. ثم استمر إضافة احتفالات من التقويم اليهودي المقدس، وذكرى أحداث معينة من الإنجيل، والاحتفال بذكرى حياة القديسين والشهداء، مما أدى في نهاية الأمر إلى زيادة كبيرة في عدد الأيام التي تعتبرها الكنيسة أعيادًا مقدسة في تقويمها الكنسي.

أيضًا حدثت زيادة في عدد الطقوس التي يمكن اعتبارها من ضمن الأسرار المقدسة. اتجه





أغسطينوس نحو اعتبار الزواج كأحد أسرار Sacraments الكنيسة. ورأى كبريانوس Cyprian أن التوبة Penance والاعتراف لهما دور حيوي في الحياة المسيحية. ومع تزايد الفجوة ما بين الكهنوت وعامة الشعب برزت ضرورة حتمية لاعتبار الرسامة (سر الكهنوت) من أسرار الكنيسة. وفي نحو عام ٤٠٠م أصبحت الكنيسة تنظر إلى التثبيت والمسحة باعتبارهما من الأسرار أيضًا. وقد ساهم تبلور الفكر اللاهوتي المبكر حول عقيدة الخطية الأصلية في إضفاء أهمية كبرى على معمودية الأطفال Infant Baptism. ومع بداية القرن الثالث، اعتبر كل من ترتليان Tertullian وكبريانوس معمودية الأطفال Infants Baptism من الحقائق الثابتة. وقد نبَّر أغسطينوس Augustine بشكل خاص على أهمية المعمودية. يشغل العشاء الرباني المكانة المركزية في تفكير العابدين وفي ترتيب نظام العبادة. بل إنها في حقيقة الأمر كان في سبيل أن تعتبر ذبيحة إلى الله إلى جانب كونها فريضة مقدسة. رأى كبريانوس أن الكاهن إنما يقوم بدور المسيح في أداء فريضة العشاء الرباني Lord's Supper والتناول وأنه كان يقدم "ذبيحة فعلية وكاملة لله الآب".[٦] و"القداس الإلهي" The Canon of The Mass، الذي أدخل عليه جريجوريوس الأول Gregory 1st بعض التعديلات الطفيفة، ينبر على الطبيعة الذبائحية لخدمة التناول.[٧]

ومع نهاية القرن السادس كانت قد استقرت ممارسة الممارسات السبع التي تعتبرها الكنيسة الكاثوليكية التابعة لروما أسرارها السبعة المقدسة، بل وكانت قد احتلت مكانها السامي في العبادة Worship. وقد ازداد الاقتناع بمبدأ الكهنوتية الذي يقول بأن فاعلية الطقس تعتمد على شخصية الكاهن الذي يقوم به، بصورة تدريجية مع مرور الوقت. وقد أدى ذلك إلى تزايد التأكيد على انفصال الكهنوت عن عامة الشعب.

وقد تطور مبدأ تبجيل مريم أم يسوع Mary بسرعة بعد عام ٥٩٠م وأدى إلى تبني عقيدة الحبل بها بلا دنس Immaculate Conception في عام ١٨٥٤م وعقيدة الصعود المعجزي Assumption لجسدها إلى السماء في عام ١٩٥٠م. وقد أنشأ التفسير الخاطئ لبعض الأجزاء من كلمة الله، وأيضًا الكم الهائل من المعجزات التي ارتبطت باسم مريم العذراء في الأبوكريفا، قدرًا هائلاً من احترام وتبجيل العذراء مريم. وقد نتج عن الجدل النسطوري وغيره من المجادلات حول طبيعة المسيح في القرن الرابع، قبول العذراء باعتبارها "والدة الإله" وأُعطي لها كرامات خاصة تظهر في الليتورجية ذاتها.

نسب كل من إكليمندس Clement وجيروم Jerome وترتليان إلى مريم العذراوية الدائمة. واعتقد أغسطينوس Augustine أن أم المسيح الذي هو بلا خطية لا بد وأنها لم تقترف أي خطية فعلية. وقد ساعدت الرهبنة بتركيزها الشديد على فضيلة العذراوية أو العفة على تدعيم وتقوية فكرة تبجيل العذراء مريم. وقد أدت هذه الاعتبارات كلها ومعها غيرها بالكنيسة الكاثوليكية إلى إعطاء كرامة خاصة للعذراء مريم. وما ابتدأ على أساس أنه مجرد اعتراف بالمكانة الخاصة التي أعطتها كلمة الله لمريم العذراء باعتبارها أم يسوع، سرعان ما تحول ليصبح إيمانًا راسخًا بقدرتها على الشفاعة بافتراض أن الابن يسوع لابد وأنه يُسر بأن يطيع ويسمع كلام أمه وطلباتها.

والصلاة التي كتبها إفرايم السرياني Ephraim Syrus قبل عام ٤٠٠م تعتبر مثالاً مبكرًا للابتهالات الرسمية التي كانت توجه للعذراء مباشرة. ومع حلول منتصف القرن الخامس أعطيت العذراء مكانتها على رأس جميع القديسين. وظهرت الاحتفالات الخاصة المرتبطة بها في القرن الخامس أيضًا. ومن هذه الأعياد عيد البشارة في ٢٥ مارس الذي يُحتفل فيه بذكرى بشارة الملاك لها بميلاد المسيح، وعيد التطهير المعروف باسم "قداس الشموع" في ٢ فبراير وهو الاحتفال بذكرى تطهير العذراء بعد ولادة المسيح، وعيد ذكرى رفع جسدها إلى السماء في ١٥ أغسطس ويُعرف باسم عيد العذراء، وهذه الأعياد هي أبرز الاحتفالات المرتبطة بالعذراء. وفي القرن السادس طلب الإمبراطور جاستينيان Justinian شفاعة العذراء من أجل إمبراطوريته. وفي عام ٥٩٠م كان للعذراء مقامًا رفيعًا في عبادة Worship الكنيسة الكاثوليكية التابعة لروما.

أما تمجيد القديسين فقد نبع من رغبة الكنيسة الطبيعية في إكرام الذين استشهدوا في الأيام التي لاقت فيها الكنيسة أشد الإضطهادات من قبل الدولة. وهذا بالإضافة إلى العادة التي كانت لدى الوثنيين بتمجيد أبطالهم وإحياء ذكراهم. وعندما انضم الكثير من الوثنيين إلى الكنيسة، فقد كان طبيعيًا بالنسبة لهم أن يضعوا القديسين في نفس المكانة التي شغلها أبطالهم في الماضي، وأن ينسبوا إليهم الكرامات والفضائل التي تقترب من الألوهية. وحتى عام ٣٠٠م كان الاحتفال بالقديسين يقتصر على الذهاب إلى قبورهم ورفع الصلاة لأجل راحة روح القديس المحتفل بذكراه، ولكن نحو عام ٥٩٠م أصبحت الصلوات التي كانت ترفع لأجلهم صلوات ترفع إلى الله من خلالهم. وقد تم قبول مثل هذه الممارسات في مجمع نيقية Council of Nicaea الثاني وأصبحت الكنائس تبنى فوق قبور القديسين، ودخلت الاحتفالات بذكرى موتهم إلى التقويم الكنسي وأصبحت جزءًا منه، وسرعان ما تراكمت الأساطير العديدة حول المعجزات الفذة التي قام بها هؤلاء القديسين. ونما نوع من التجارة في "الذخائر" التي شملت أجساد القديسين وأسنانهم وخصلات الشعر والعظام التي نسبت كلها إلى القديسين مما خلق مشكلة كبيرة استلزمت استصدار قرار بوقف هذا النشاط في عام ٣٨١م.

انتشر استخدام الصور Pictures والتماثيل في العبادة بسرعة، وذلك بسبب زيادة عدد المنضمين إلى الكنيسة من البربر الذين لم ينالوا قدرًا كافيًا من التعليم والتوجيه. وقد قامت الصور والتماثيل بتجسيد بعض الحقائق الغير مرئية عن الله بالنسبة لأولئك العابدين. كما كان لها دور في تزيين وتجميل مباني الكنائس. وقد حاول آباء الكنيسة التمييز ما بين إظهار الاحترام اللائق بهذه الصور والاحترام والتوقير الذي كان جزءًا من الليتورجية وبين عبادة الله ذاته. ولكن هناك شك كبير في أن هذا التمييز الدقيق قد وصل إلى أفهام العابدين البسطاء الذين قدموا لتلك الصور والتماثيل العبادة التي لم يكن الآباء يوافقون على تقديمها إلا لله وحده.

وقد بدأت مواكب الشكر ومواكب التوبة في الظهور في الكنيسة بعد عام ٣١٣م لتصبح جزءًا من العبادة. وانتشرت أيضًا عادة زيارة الأماكن المقدسة وكانت في بداية الأمر لزيارة الأراضي المقدسة في فلسطين، ثم امتدت لتشمل زيارة قبور





القديسين المشهورين. وقد زارت هيلانة Helena أم قسطنطين Constantine في أيام شيخوختها حيث يشاع أنها اكتشفت هناك الصليب الذي صُلب عليه المسيح.

وقد أدّى الدعم الحكومي وانتشار الحريات الدينية في عهد قسطنطين إلى انتشار حركة لبناء الكنائس، وقد اقتبس المسيحيون نمط العمارة Architecture الروماني المعروف باسم "البازيليك" وهو تصميم ابتكره الرومان للمباني العامة المخصصة للأعمال التجارية أو الترفيه واللهو. كانت البازيليكا (مبنى الكنيسة) عبارة عن مبنى مستطيل الشكل وله جناحان على شكل صليب والجزء الغربي رواق يخصص لجلوس طالبي المعمودية وصحن في الوسط يجلس فيه المعمدون، وإلى الشرق يوجد محراب يجلس فيه المنشدون والكهنة، فإن كان المبنى كاتدرائية فيوضع في هذا المكان كرسي الأسقف أيضًا. وكان هذا المحراب أو المذبح يفصل عن صحن الكنيسة بستار من الحديد المشغول.

ومن أقدم أشكال الترنيم والموسيقى Music التي عرفتها الكنيسة، كان يقف قائد يرنم ويرد عليه الشعب مردات معينة بالإنشاد الجماعي. أما الترنيم أو الإنشاد الجماعي الذي كان يقسم فيه المنشدون إلى فرقتين تتناوبان الإنشاد فقد ظهر أولاً في أنطاكية. وقد أدخل أمبروز Ambrose ممارسة الترنيم الجماعي في ميلانو ومنها انتشر في أنحاء الكنيسة الغربية.

وشهدت هذه الفترة أيضًا ظهور مجموعة من الوعاظ العظماء. كان أمبروز رائدًا للوعاظ في الغرب بينما كان يوحنا فم الذهب Cyrysostom أبرز وعاظ الشرق. وحتى ذلك الوقت لم يكن الوعاظ يرتدون اي ثياب خاصة. أما ملابس الكهنة الخاصة فقد ظهرت عندما توقف الشعب عن ارتداء الملابس الرومانية. بينما استمر الكهنة في ارتدائها أثناء خدمات الكنيسة.

وظهر خلال هذه الفترة أيضًا جهاز خاص من القيادات الكهنوتية المتدرجة تحت قيادة أسقف روما، وظهر ميل واضح لزيادة عدد أسرار الكنيسة واعتبارها وسائط النعمة الأساسية، كما ظهرت حركة للتوسع في صلوات العبادة. ساعدت كل هذه الأمور على وضع الأساس لكنيسة العصور الوسطى الكاثوليكية.

## اقتراحات للقراءة


*Freemantle, Anne.* The Papal Encyclicals. *New York: Mentor, 1956.*

*Gontard, Friedrich.* The Chair of Peter. *Translated by A. J. and E.F. Peeler. New York: Holt, Rinehart, and Winston, 1964. This is a scholarly history of the popes by a Protestant.*

*Hardman, Oscar.* History of Christian Worship. *London: Hodder & Stoughton, 1937.*

# تاريخ الكنيسة في العصور الوسطى
# ١٥١٧-٥٩٠

## قيام الإمبراطورية والمسيحية اللاتينية-التيوتونية
## ٨٠٠-٥٩٠

## المد والجزر في العلاقات ما بين الكنيسة والدولة
## ١٠٥٤-٨٠٠

## سيادة البابوية ١٠٥٤-١٣٠٥

## غروب العصور الوسطى وإشراق العصور الحديثة
## ١٥١٧-١٣٠٥

## الفصل السادس عشر

# أول بابوات العصور الوسطى

يفصل تنصيب جريجوري الأولGregory 1st أسقفا لروما ما بين العصر القديم والعصر الوسيط من تاريخ الكنيسة. إلا أننا ينبغى أن نذكر أنفسنا دائمًا أن تقسيم التاريخ إلى حقب وعصور ليس إلا وسيلة مصطنعة لتنظيم ترتيبات الله لتاريخ البشر في أقسام يَسهل استيعابها والإشارة إليها. ويعتبر البعض أن العصر الوسيط من تاريخ الكنيسة يبدأ في سنة ٣١٣م وذلك بمنح الحرية الدينية. وأخرون يرون أنه بدأ من مجمع نيقية في ٣٢٥م. وأخرون يفضلون عام ٣٧٨م بداية له إذ أن "معركة أدريانوبل" Battle of Adrianople أدّت إلى هجرة قبائل القوط الغربيين إلى الإمبراطورية. لكن يعتقد أخرون أن نهاية العصر القديم من تاريخ الكنيسة كانت بسقوط أخر الأباطرة الرومان في ٤٧٦م.

أما نحن فقد اخترنا عام ٥٩٠م بداية للعصر الوسيط Middle Ages عندما فتح جريجوري الأول الطريق أمام حقبة جديدة من النفوذ والقوة للكنيسة في العالم الغربى. ويسود الجدل أيضًا حول تاريخ نهاية العصر الوسيط من تاريخ الكنيسة. فقد قدره البعض على أنه في سنة ١٠٩٥م، أى مع بداية حقبة الحملات الصليبية، بينما رأى البعض الآخر أنه في ١٤٥٣م أى عند سقوط القسطنطينية، أو في عام ١٦٤٨ مع معاهدة السلام في وستفاليا Peace of Westphalia. اختار مؤلف هذا الكتاب عام ١٥١٧ الذى شهد نشاطات لوثر التى كانت بمثابة إعلان لبداية مرحلة تختلف اختلافًا كاملاً عن كل ما سبقها، حيث لم يكن التركيز فيها على الكنيسة كمؤسسة بقدر ما كان على الكنيسة كجسد حي يتألف من الأفراد المؤمنين بعمل المسيح الفدائي إيمانًا شخصيًا.

شهدت الحقبة الوسيطة تفسخ الإمبراطورية الرومانية وانقسمت الى شمال أفريقيا الذى يدين بالإسلام، وأقاليم آسيا البيزنطية والأقاليم الأوربية البابوية. وأصبحت العلاقات ما بين الكنيسة والدولة في غاية الاهمية. وانبثقت حضارة أوروبية غربية متميزة لها جذور مسيحية وأسس كلاسيكية. وكان أول من ابتكر تسمية "العصور الوسطى" هو كريستوفر كيلنر Christopher Kellner (١٦٣٤-١٦٨٠) في كتاب تم نشره حوالى سنة ١٦٦٩. قسّم كيلنر تاريخ الغرب إلى ثلاثة أقسام. كان العصر القديم بالنسبة له ينتهى في ٣٢٥. ورأى أن العصر الحديث بدأ من عام ١٤٥٣ عندما نزح كثير من علماء اللغه اليونانية إلى الغرب ومعهم كنوز المخطوطات القديمة نتيجة سقوط القسطنطينية. ثم

وصف السنوات التى تقع بين هذين التاريخين على أنها "العصور الوسطى" Middle Ages. وذلك بسبب عقم هذه السنين وغياب التأثير الكلاسيكي وقد دأب المؤرخون على استخدام تعبير "العصور الوسطى" منذ ذلك الحين باعتباره وصفًا مناسبًا لهذه الحقبة إلا أن القرون الخمسة الأولى من هذه الفترة أي من ٥٠٠-١٠٠٠م، هي التي تستحق وحدها أن توصف بالعصور المظلمة، وحتى في تلك الفترة لم تفتقر أوربا الغربية تمامًا إلى الحضارة والثقافة وذلك بسبب الإسهامات الفكرية التى قدمتها الأديرة. اعتبر رجال عصر النهضة أن تلك الفترة هى بمثابة فجوة تفصل ما بين فترات التألق الكلاسيكي والحركة الإنسانية الحديثة. فلم تكن هذه الفترة بالنسبه لهم إلا عصورًا مظلمة. لكن المؤرخين في العصر الحديث الذين كتبوا عن هذه الفترة استطاعوا أن يرصدوا أن العصور الوسطى كان بها نوع من النمو البطيء حيث قامت الكنيسة في الغرب بدور مفيد على الصعيدين الثقافي والديني معًا وذلك بوصلها الفجوة ما بين النظام القديم لدويلات المدينة الواحدة والنظام الحديث لدولة الأمة والشعب الواحد.

وإن كان رجال عصر النهضة Renaissance قد اعتبروا أن السنوات ما بين ٥٠٠-١٠٠٠ كانت عصورًا مظلمة، إلا أن الكنيسة الكاثوليكية الغربية رأت أن تلك الفترة كانت هى العصر الذهبى من تاريخ البشر. فقد كانت بالنسبة لهم مسبوقة بالعصور الكلاسيكية المرتبطة بالوثنية، وجاءت بعدها قوى التحلل البروتستانتية، والتى خلقت الفوضى السائدة على المشهد الدينى الحديث-(هذا هو رأى المفكرين من الكاثوليك).

أما المؤرخون البروتستانت فقد اعتبروا أن العصور الوسطى كانت بمثابة وادٍ مظلم عبرت فيه الكنيسة النقية الطاهرة التى خرجت من العصر القديم فتعرضت لكل ما تعرضت له من فساد. وكانت الحقبة الحديثة من تاريخ الكنيسة والتى بدأت بظهور مارتن لوثر Martin Luther حقبة إصلاح استعادت فيها الكنيسة مُثل وقيم العهد الجديد إلا أن هذه الآراء ينبغى أن نتفحصها في ضوء حقيقة أن العصور الوسطى لم تكن فترة من الجمود والموت بل شملت عوامل ديناميكية فاعلة. واستمر التطور الذى تحدثه العناية الإلهية حتى أثناء العصور الوسطى.

وقعت أحداث تاريخ الكنيسة في العصر الوسيط على مسرح أكبر وأوسع بكثير من الذى وقعت عليه أحداث الكنيسة الأولى. فبعد دخول القبائل التيوتونية (الجرمانية) إلى المسيحية، أصبح حوض بحر البلطيق في نفس أهمية البحر المتوسط.

والحقبة الحديثة مدينة بدين كبير للعصور الوسطى. ففي العصور الوسطى حاول الناس إقامة حضارة مسيحية يمتزج ماضيها بحاضرها في نسيج متآلف له معنى وشخصية متميزة. فقد قدمت الكنيسة إلى القبائل التيوتونية (الجرمانية) الثقافة الكلاسيكية القديمة بعد أن غيرتها المسيحية. وتفتقر الحقبة الحديثة إلى مثل هذا التوافق في الحياة، لذلك يصارع الانسان الحديث ضد التشويش وضد الاحتمال القائم بحدوث فوضى كاملة ليس فقط فكريًا وأخلاقيًا وروحيًا بل وماديًا أيضًا.





وبهذه الخلفية، تتضح لنا الأهمية التى يمثلها جريجوري الأول Gregory 1st. حيث وقف نفس الوقفة التي وقفها قسطنطين Constantine في عصره، في مفترق عالمين، عالم الكلاسيكية، وعالم مسيحية العصور الوسطى وأصبح رمزًا لعالم العصور الوسطى الجديد الذي صارت فيه الثقافة مؤسسة في إطار الكنيسة يسيطر عليها أسقف روما.

وجريجورى Gregory الملقب بالكبير The Great (٥٤٠-٦٠٤) ولد في عصر الاضطرابات عندما كانت الإمبراطورية الشرقية بقيادة جاستنيان تسعى لاستعادة الجزء الذى استولت عليه القبائل التيوتونية من الإمبراطورية الغربية. وقد تميز ذلك العصر بعصابات قطاع الطرق، والأوبئة والمجاعات.

لأن جريجوري كان من أبناء إحدى الأسر العريقة الغنية في روما فقد أهلَّه ذلك لكى يدرس القانون ويتأهل للوظائف والخدمة الحكومية. درس اللغة اللاتينية بتعمق ولكنه لم يعرف أيا من اللغتين العبرية أو اليونانية. كان على دراية بمؤلفات أمبروز Ambrose وجيروم Jerome وأغسطينوس Augustine ولكنه لم يعرف الكثير عن الأدب الكلاسيكي القديم أو عن الفلسفة اليونانية. وفي نحو عام ٥٧٠ م عُيِّن واليًا على روما، وهو منصب رفيع ذات أهمية كبيرة. إلا أنه بعد ذلك بوقت قصير تخلى عن الثروة التى ورثها عن أبيه، ودخلت أمه سيليفيا، ديرًا بعد موت أبيه- إلا أنه استخدم أمواله في بناء سبعة أديرة في إيطاليا، وكان أهمها الذي أنشأه في قصر أبيه وهو الدير الذي صار جريجوريوس أحد رهبانه. كان جريجوريوس في الفترة ما بين ٥٧٨-٥٨٦ سفيرًا يمثل أسقف روما في مدينة القسطنطينية. وعند عودته الى روما، عُيِّن رئيسًا لدير القديس أندرو، الذى كان قد أسسه بعد موت أبيه. وإن كان أغسطينوس قد صار راهبًا لأهداف فكرية، إلا أنه من الإنصاف أن نقول إن جريجوريوس أصبح راهبًا لأنه اعتقد أن النسك هو الطريق لتمجيد الله. وعندما توفى البابا بلاجيوس Pelagius أثناء انتشار وباء الطاعون الذي حدث في عام ٥٩٠م، تم إختيار جريجوريوس ليحل مكانه.

وهذا الرجل، الذى لقب "قنصل الله"، كان من أنبل قادة الكنيسة الرومانية. فقد آثر تخليه عن ثروته الكبيرة في الشعب. كان رجل تواضع اعتبر نفسه "خادمًا لخدام الله". كانت له غيرة كبيرة في العمل المرسلي واستخدمه الله في ربح الانجليز إلى المسيحية. وقد أهلَّته دراسته القانونية وحصافته ومهارته لكى يصبح من أقدر مدبري الكنيسة الرومانية في العصور الوسطى. ولكنه كان مثل الكثيرين في عصره يميل إلى التطرف في الإيمان بالخرافات أكثر من اللازم وكان أيضًا سريع التصديق. وتُظهر حوارته سنة ٥٩٣ قابليته غير المحدودة لتصديق ما كان يبدو معجزيًا لأهل العصور الوسطى.[1] فضلاً عن ذلك، فبالرغم من أنه تلقى بعض التدريب في التعليم اللاهوتي، إلا أن مكانته العلمية قد أضيرت بعدم معرفته للغات الأصلية التى كُتب بها الكتاب المقدس. فهو لم يهتم طوال السنين السبعة التى قضاها سفيرًا في القسطنطينية بتعلم اللغة اليونانية.

أما أعظم أعمال جريجوريوس فهى توسيع نفوذ أسقف روما. وبالرغم من أنه ترفع عن

استخدام لقب "البابا". إلا أنه مارس كل السلطات والصلاحيات التي كانت للبابوات الذين جاءوا بعده، وقد فعل كل ذلك ليدعم السيادة الروحية لأسقف روما. ولقد قام جريجوريوس بالرعاية الأسقفية على الكنائس في بلاد الغال، وأسبانيا وبريطانيا وأفريقيا وفي إيطاليا فقد كان يعين الأساقفة ويرسل لهم عصا الأسقفية ووشاحها لكل من عينهم أو وافق عليهم.

وعندما منح يوحنا الصائم John the Faster بطريرك القسطنطينية، نفسه لقب "الأسقف المسكوني" سارع جريجوريوس إلى مخاصمته. كان مستعداً لقبول موقف متساو يجمع كل بطاركة وآباء الكنيسة، بحيث يأخذ كل منهم وضعه كرأس لقسم عظيم من الكنيسة لكنهم جميعهم على مستوى واحد، ولم يكن مستعداً أبداً أن يسمح لأى شخص أن يأخذ لنفسه لقب الأسقف المسكوني ولكن لم يرضخ لهذا لا البطريرك ولا الإمبراطور الشرقي، وكان على جريجوريوس أن ينتظر فرصته الملائمة.

وعندما قامت ثورة في عام ٦٠٢م وأتت بإمبراطور جديد هو فوكاس Phocas. ونصبته على عرش القسطنطينية، سعى جريجوريوس Gregory للإبقاء على علاقة طيبة به، بالرغم من أن هذه الثورة العنيفة كانت قد قتلت زوجة الإمبراطور السابق وأولاده. انحاز فوكاس لجريجوريوس ضد البطريرك واعترف بأسقف روما على أنه "رئيس لكل الكنائس". إلا أن جريجوريوس رفض أن يقبل لقب "البابا العالمي" الذى أراد بطريرك الاسكندرية أن يعطيه له. وفضل أن يكون لقبه "خادم خدام الله" ومع أنه رفض هو اللقب الدولي لنفسه، لكنه لم يسمح لأي شخص آخر أن يدعى هذا اللقب لنفسه ومارس جريجوريوس فعلياً كل مظاهر النفوذ البابوي، ولم يجرؤ أى أسقف في الغرب كله أن يتحدى رغباته، ولم يسمح لأى شخص في أنحاء العالم المعروف وقتئذ أن يتخذ وضع السيادة العالمية على الكنيسة.

ويظهر اهتمام جريجوريوس الكبير بالعمل المرسلي في هذه القصة الرائعة التى أوردها بيديه Bede فى مؤلفه التاريخي، فبحسب هذه القصة، سمع جريجوريوس عن بيع مجموعة من الأطفال من ذوى الشعر الأصفر والعيون الزرقاء كعبيد في روما في السوق وقيل له إنهم من دير (يوركشير) وأن منظرهم مثل الملائكة. فما كان منه إلا أنه أهتم بأمرهم وفكر في احتياج شعوبهم إلى رسالة الإنجيل.(٢) وأرسل راهب اسمه أغسطينوس وهو غير القديس أغسطينوس أسقف هيبو Augustine of Hippo أرسله إلى بريطانيا ليقدم رسالة الإنجيل للبريطانيين. وصل أغسطينوس Augestine إلى انجلترا سنة ٥٩٧ وسرعان ما ربح ملك كنت للمسيحية. إلا أن هذا المرسل الروماني سرعان ما دخل في منافسة مع الكنيسة الكلتية، والتي كانت تتقدم ببطء في مجهوداتها لنشر الإنجيل في اتجاه الجنوب وفي سنة ٦٦٣ انتصر الإيمان الروماني في ذلك الأمر. لذلك فيمكن اعتبار أن جريجوريوس هو الأداة التى استخدمها الله في دخول انجلترا تحت سطوة الكنيسة في روما. وقد وضع خططاً كثيرة لتطوير الكنيسة الإنجليزية.(٣)

ولقد ساعد جريجوريوس في أن تصبح أسقفية روما من أغنى الأسقفيات في الكنيسة في عصره وذلك بإرادته الممتازة. فلم تكن أوقاف وأملاك الكرسي البابوي في إيطاليا والمناطق المحيطة قد





حققت من قبل، مثل ذلك الحصاد الذهبي الذي نتج عن سياسات جريجوريوس الإدارية. وقد ساعدته هذه الأموال على القيام بدور حارس وحامي السلام في الغرب. وعندما هدد ملك لومبارد الأريوسي مدينة روما أثناء تولي جريجوريوس مسئوليات الأسقفية، تمكن جريجوريوس من تجنيد قوات كبيرة أجبرت حاكم لومبارد أن يطلب السلام ويرجع عن عقيدته الأريوسية Arianism. وقد وضع جريجوريوس نصوص وألحان وموسيقى Music القداس الجريجورى Gregorian chant، والذي احتل مكانة مرموقة في الكنيسة الكاثوليكية، ربما أكثر من القداس الذى أعده القديس أمبروز Ambrose. ويستخدم هذا القداس لحناً وقوراً مهيباً في الأجزاء المرتلة منه.

كان جريجوريوس Gregory واعظاً موهوباً أيضاً، وكانت له رسالة حقيقية في زمن الأزمات الذى عاش فيه. كانت عظاته عملية وتركز على التواضع والتقوى؛ ولكنها في كثير من الأحيان أضعفتها كثرة استخدامه للتشبيهات والرموز والاستعارات Allegory، وهو الأسلوب الذي كان سائداً في عصره.(٤)

بل هناك ما هو أميز من عظاته ألا وهو مؤلفاته الأدبية الأخرى. فقد كتب "الماجنا موراليا" Magna Moralia (الأخلاق العظيمة)، وهو مؤلف عبارة عن تفسير لسفر أيوب، وقد ركّز فيه على التفسير المعنوي الأدبي، حيث لجأ إلى الرمزية لتساعده على استنباط نظرياته الأخلاقية. فقد صور أيوب على أنه كان رمزاً للمسيح، وزوجته على أنها رمز للطبيعة الجسدانية، وسبعة أبناء أيوب على أنهم رمز لرجال الإكليروس، ورأى أن بنات أيوب



*كان لجريجوريوس الكبير مكانة مرموقة كمعلم فى الكنيسة الغربية حتى أنه ظهر في الصور التي رسمت له دائماً وقد وقفت على كتفه حمامة وهى ترمز للروح القدس وهى تهمس في أذنه بالحق الإلهى.*

الثلاثة يرمزن إلى الشعب العلماني الأمين. وقد كتب جريجوريوس تفاسير أخرى، ولكن لم يرق واحد منها إلى مستوى وضخامة تفسيره لسفر أيوب. كتب أيضاً كتاباً عن الخدمة الرعوية Book of Pastoral Care، وتصدى فيه لقضايا اللاهوت الرعوي. وقد نبّر فيه على المواصفات اللازم توافرها في حياة الأسقف والفضائل التى يجب أن يتحلى بها وحاجته الكبرى إلى فحص الذات. وقد لاقى هذا الكتاب قبولاً عظيماً بين الرهبان في ذلك العصر وذلك بسبب طابعه النسكى.(٥) وتوجد أيضاً قرابة ثمانمائة رسالة من الخطابات التى كتبها جريجوريوس.

كان جريجوريوس أيضاً لاهوتياً بارزاً، ويوضع على نفس المستوى مع جيروم Jerome، وأمبروز وأغسطينوس Augustine كواحد من

الأربعة أساتذة للكنيسة في الغرب. فقد ساهم في وضع أسس الفكر اللاهوتي الذي حفظته الكنيسة الكاثوليكية عبر العصور الوسطى إلى أن جاء توماس أكويناس Thomas Aquinas وصاغ مؤلفه المشهور Summa. لقد آمن جريجوريوس أن الإنسان خاطىء منذ ولادته ثم باختياره، ولكنه خفف من موقف أغسطينوس بأن قال إن الإنسان لم يرث ذنبه من آدم بل ورث خطيته أو طبيعته الخاطئة، مثل مرض يتعرض له الجميع. ولقد أصرَّ على أن إرادة الانسان حرة وأن ما فقده الانسان هو الصلاح وليس حريه الإرادة. آمن بالتعيين السابق "الاختيار" لكنه رأى أنه ينطبق فقط على المختارين. ورأى أن النعمة لا يمكن أن تكون قاهرة، ولا يمكن مقارنتها وذلك لأنها مبنية على علم الله السابق وأيضاً إلى حد ما على أعمال الإنسان نفسه. ولقد دافع عن فكرة وجود المطهر كمكان تتطهر فيه النفوس قبل دخولها إلى السماء. ولقد تمسك بالإيمان بالوحي الحرفي للكتاب المقدس، لكن الغريب أنه أعطى مكاناً مساوياً للتقليد إلى جانب الكتاب المقدس. انتشر استخدام صيغة القداس The Canon of The Mass التى حوَّرها قليلاً في أيام جريجوريوس، حيث كشف استخدامها الاتجاه المتزايد نحو اعتبار التناول على أنه ذبيحة جسد ودم المسيح في كل مرة يقام فيها القداس.(٦) ولقد ركَّز جريجوريوس Gregory أيضاً على أهمية الأعمال الصالحة وشفاعة القديسين للحصول على مساعدتهم. بل يمكننا أن نقول إن الفكر اللاهوتي في العصور الوسطى كان يحمل طابع فكر جريجوريوس نفسه.

تمثل ولاية جريجوريوس علامة حقيقية على طريق التحول من تاريخ الكنيسة القديم إلى تاريخها الوسيط. وقد بنى الذين جاءوا من بعده على الأساس الذي وضعه، وأوجدوا النظام الكهنوتي الرياسي المرتبط بالأسرار المقدسة الذي ميَّز الكنيسة كمؤسسة في العصور الوسطى. لقد ساهم جريجوريوس بوضع نظام منطقي للعقيدة، وجعل من الكنيسة قوة سياسية لها نفوذها الكبير.

## اقتراحات للقراءة

العناوين المميزة بـ * تغطي تاريخ العصور الوسطى للكنيسة باكمله.

* *Anderson, Charles S.* The Augsburg Historical Atlas of Christianity in the Middle Ages and Reformation. *Minneapolis: Augsburg, 1967. This atlas has clear, simple maps and helpful texts for these eras.*

* *Cannon, William R.* History of Christianity in the Middle Ages. *New York: Abingdon, 1960. This book surveys the era with above-average coverage of the Eastern churches.*

* *Deanesley, Margaret.* A History of the Medieval Church, 590-1500. *7th ed. London: Methuen, 1951. This work provides much additional material for the period.*

* *Downs, Morton.* Basic Documents in Medieval History: *Princeton, N.J.: Van Nostrand,*





*1959.*

*Dudden, Frederick H.* Geogory the Great. *2 vols. New York: Russell & Russell, 1905. Though old, this work is based on sources.*

* *Edman, V. Raymond.* The Light in the Dark Ages. *Wheaton, Ill.: Van Kampen, 1950. The work on medieval missions gives a good account of missionary work in this era.*

* *Foakes-Jackson, Frederick J.* An Introduction to the History of Christianity, A.D. 590-1314. *New York: Macmillan, 1928. I have found this to be a more detailed and very interesting history of the period.*

* *Kidd, Beresford J.* Documents Illustrative of the History of the Church. *3 vols. London: SPCK, 1920-41. Documents specifically dealing with church history will be found in volume 3.*

* *Latourette, Kenneth S.* The Thousand Years of Uncertainty: A History of the Expansion of Christianity. *Vol. 2. New York: Harper, 1938. This is an even more detailed history of medieval missions. The complete seven-volume work has been republished by Zondervan, Grand Rapids, Michigan.*

* *Ogg, Frederic A.* A Source Book of Medieval History. *New York: American, 1907. This contains many interesting documents.*

* *Paetow, Louis, J.* A Guide in the Study of Medieval History. *New York: Crofts, 1931. The teacher or student who desires to pursue the study of medieval church history in more detail will find this biographical work a useful guide to other works.*

* *Scott, Jonathon F.: Huma, Albert; and Noyes, Arthur H.* Readings in Medieval History. *New York: Appleton-Century-Crofts, 1933.*

* *Southern, R. W.* Western Society and the Church in the Middle Ages. *Harmondsworth, Middlesex: Penguin, 1970. This work has many helpful insights.*

* *Thatcher, Oliver J., and McNeal, Edgar H.* A Soruce Book for Medieval History. *New York: Scribner, 1905.*

* *Ullman, Walter.* A Short History of the Papacy in the Middle Ages. *London: Methuen, 1972. This is a useful, factual survey of the medieval papacy.*

* *Walker, G.S.M.* The Growing Storm. *Grand Rapids: Eerdmans, 1961. This covers the era from 600 to 1350 from an evangelical viewpoint, with stress on the rise and fall of the medieval papacy.*

## الفصل السابع عشر

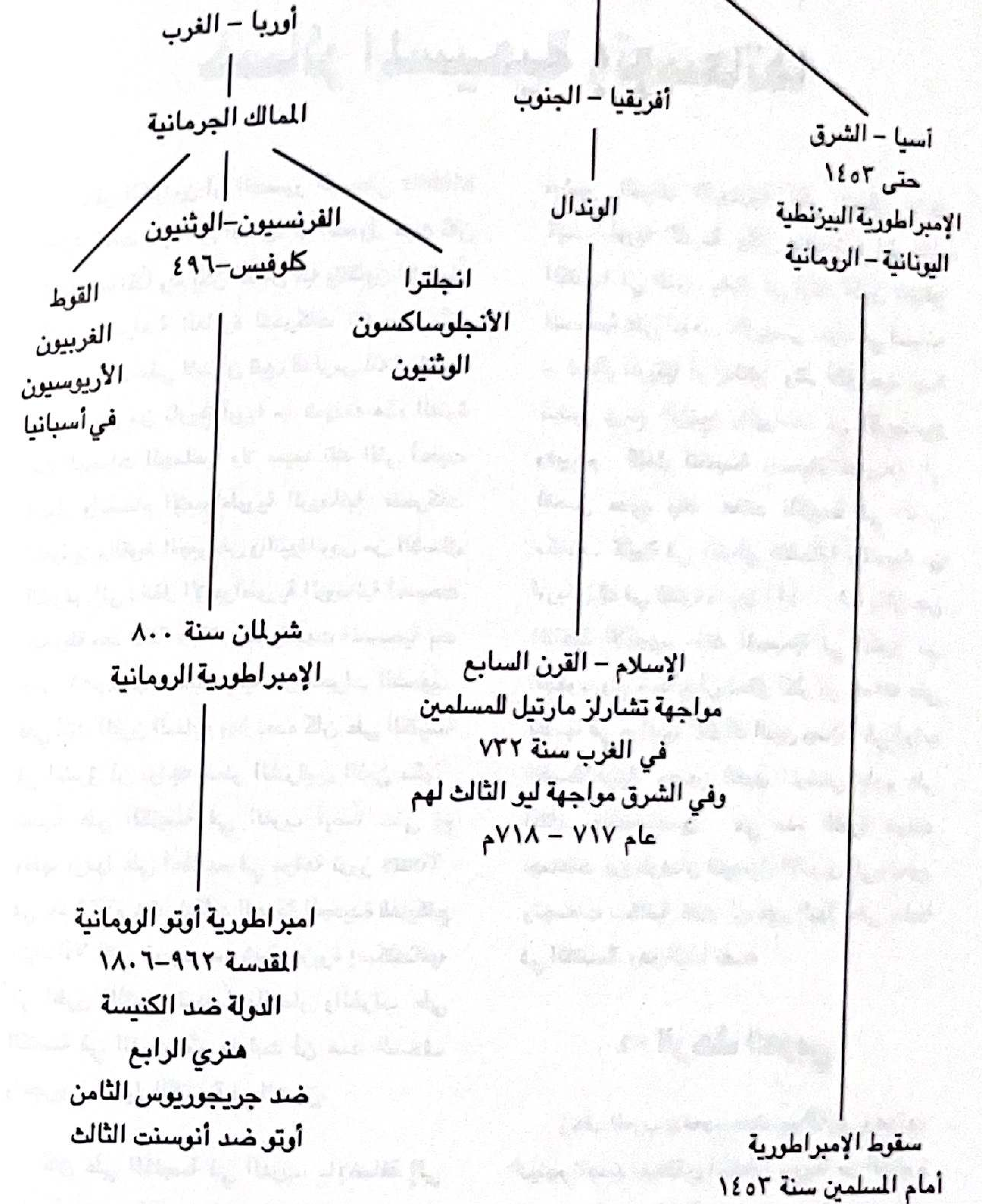
# خسائر المسيحية وتوسعاتها

يظن الكثيرون أن العصور الوسطى Middle Ages كانت فترة من الجمود أو الخمول حيث كان المجتمع ساكنًا ولم يكن الناس فيه يتنقلون إلا قليلاً. إلا أن الدراسة العابرة لتحركات الشعوب أثناء العصور الوسطى لابد أن تبين للدارس أنه لم تشهد فترة أخرى من تاريخ أوربا ما شهدته هذه الفترة من الهجرات الجماعية ولا سيما تلك التى أعقبت انهيار وانقسام الإمبراطورية الرومانية. فتحركات المغوليين والقوط الجيرمان والتيوتانيون من الشمال الشرقى إلى داخل الإمبراطورية الرومانية أصبحت ملحوظة بعد سنة ٣٧٥. وقد واجهت المسيحية بعد عام ٥٩٠م موجات ديناميكية من هجرات الشعوب. ففي أثناء القرن السابع وما بعده كان على الكنيسة في الشرق أن تواجه خطر الشرقيين الذين مثلوا تهديداً على الكنيسة في الغرب أيضًا حتى تم وقفهم وردوا على أعقابهم في موقعة تورز Tours في عام ٧٣٢م .وقد شكلت الحركة الجديدة للفايكنج Vikings التي خرجت من شبة جزيرة إسكندنافيه في القرن الثامن، تهديداً بالدمار والخراب على الكنيسة في الغرب. ثم ما لبث أن هدد السلاف والمجريون والمغول الكنيسة في الشرق.

كان على الكنيسة في الغرب، بالإضافة إلى مواجهة التحدى الذى يمثله هؤلاء المهاجرون، مهمة تبشير القبائل التيوتونية التي تسكن داخل الإمبراطورية القديمة. وكان هناك تحدٍ آخر أمام الكنيسة في الغرب يتمثل في أولئك الذين اعتنقوا المسيحية على المذهب الأريوسى سواء في أسبانيا أو شمال أفريقيا أو إيطاليا. ولقد أثقل عبء مهمة تبشير وربح الوثنيين والهراطقة من الأريوسيين وغيرهم كاهل الكنيسة واستنفذ مواردها إلى أقصى مدى. ولقد حققت الكنيسة في الغرب مكاسب كثيرة فى المناطق الشمالية والغربية من أوربا وذلك في الفترة ما بين ٥٩٠-٨٠٠م، ولكن على الناحية الأخرى، عانت المسيحية في الشرق من الجمود، ولم تستطع أن تحقق أكثر من الحفاظ على نفسها في مواجهة الأتراك الذين وصلوا الى أبواب القسطنطينية. وصار العمل المرسلى يقوم على أكتاف المتخصصين. في هذه الفترة خرجت جماعات من الرهبان لتوصيل الإنجيل إلى شعوب وتجمعات سكانية كانت ترسلهم إليها أعلى سلطة في الكنيسة، وهو البابا نفسه.

## ١- الزحف العربي

زحف العرب يدفعهم حماسهم الكبير، وغيرتهم لدينهم الجديد، محققين انتشاراً سريعاً من الجزيرة العربية حتى شمال أفريقيا وأسيا بل وحتى إلى






أوربا عن طريق أسبانيا. وكانوا السبب الرئيسى في سقوط الإمبراطورية الشرقية في سنة ١٤٥٣ وهكذا وقعت الكنيسة في الشرق تحت سلطة الأتراك السياسية. وقد أسهم العرب في تجميع ونقل فلسفة أرسطو اليونانية الى أوربا الغربية عبر الأندلس (أسبانيا).

وقد حاول فلاسفة العصور الوسطى المدرسيين توفيق المنهج العلمى اليونانى مع اللاهوت المسيحى وذلك باستخدام المنهج الاستنتاجي الذى ابتكره أرسطو، الذى عرفهم به ابن رشد Averroes العربى فى أسبانيا بترجمة كتاب أرسطو. لقد بلغ ذلك التأثير مبلغًا عظيمًا في أوربا في القرن الثانى عشر حتى أن "هاسكين" أطلق على هذة الفترة اسم: "نهضة القرن الثانى عشر".[١]

لقد عانت الكنيسة في الشرق وفي الغرب، وأصابها الوهن بسبب ما فقدتة من شعوب ومناطق، إلا أن خسائر الكنيسة في الشرق كانت أكبر من خسائر الكنيسة في الغرب. فقد اختفت الكنيسة القوية التى كانت في شمال أفريقيا، وضعفت في مصر والأراضى المقدسة. ولم تستطع الكنيسة البيزنطية أن تفعل أكثر من تعطيل جيوش الأتراك من الاستيلاء على القسطنطينية بعض الوقت. نتج عن ذلك تركيز المجهودات التبشيرية، التى قامت بها أساسًا الكنيسة في الغرب، على منطقة شمال غرب أوربا. واجهت الكنيسة فى الشرق مشكلة حول ما إذا كان استخدام الصور والتماثيل في الكنائس لائقًا. وكانت هذه القضية مصدر جدل واسع عرف بإسم "الجدل حول الأيقونات" Iconoclastic وحيث اتهم المسيحيين بأنهم يعبدون الأصنام، وذلك بسبب وجود الصور والتماثيل في كنائسهم.

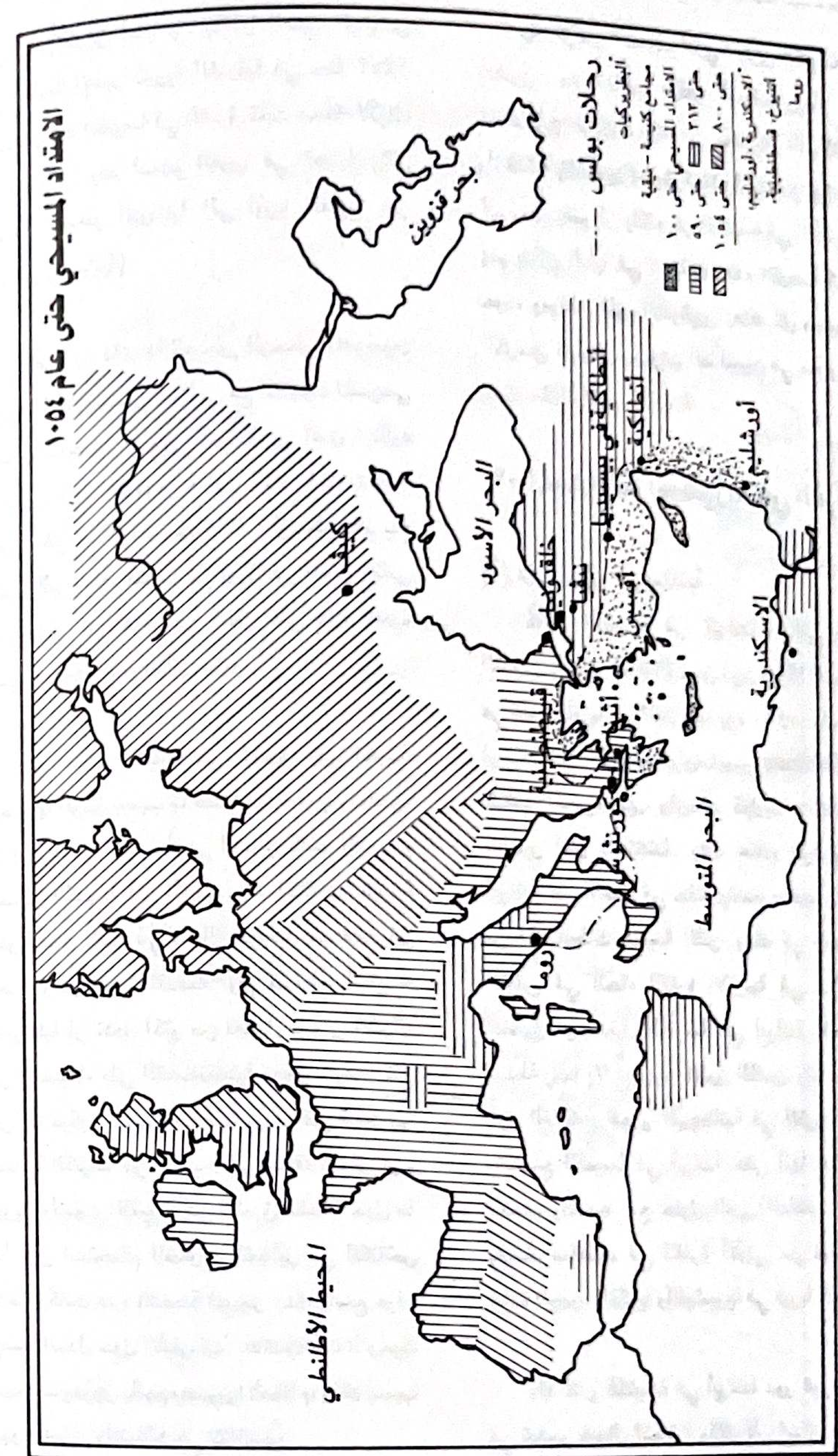
وقد تزامن الضعف الذي اعترى الكنيسة في الشرق، مع تعاظم موقف أسقف روما. كان المنافسون لبابل روما من بطاركة الاسكندرية وأنطاكية خاضعين لسيطرة الشرقيين فمن ثم لم يعد أى منهم يقدر أن يتكلم عن الكنيسة في العالم كله. ولم يتوان البابا في استغلال هذه الفرصة لتدعيم نفوذه وموقفه. قاوم الشرقيون بعناد كل مجهودات الكرسى البابوى وجيوش الصليبيين في محاولاتهم استعادة الأراضى المقدسة.

## ٢- المجهودات التبشيرية في الغرب

### (أ) في الجزر البريطانية

كانت الكنيسة فى أيرلندا، والتى بدأها القديس باتريك Patrick ، من أبرز مراكز الحضارة في شمال أوربا في الفترة ما بين ٥٩٠–٨٠٠م. فقد أرسلت هذه الكنيسة كولومبانوس Columbanus لتبشير السويسريين، وأرسلت كولومبا Columba لتبشير أهل اسكتلندا. ولقد عكف الرهبان في أيرلندا على العمل في حفظ ونسخ وتجميل العديد من المخطوطات عظيمة الأثر، وذلك في وقت كان التعليم في أنحاء القارة الأوربية في حالة من الخمول، ولم تقبل الكنيسة في أيرلندا الخضوع لسلطة روما إلا مع بداية القرن الثامن. وقد أضعف غزو الفايكنج للجزر البريطانية في القرن الثامن والتاسع الكنيسة في أيرلندا حتى أنها بدأت في التحلل والفساد مع حلول القرن العاشر. ولكنها بلاشك ساهمت في الفترة الأولى من قوتها في قيادة الجهود الفكرية والتبشيرية في أوربا كلها.

وقد كان للكنيسة في أيرلندا دور غير مباشر في تبشير شمال انجلترا وذلك لأن ايدان Aidan

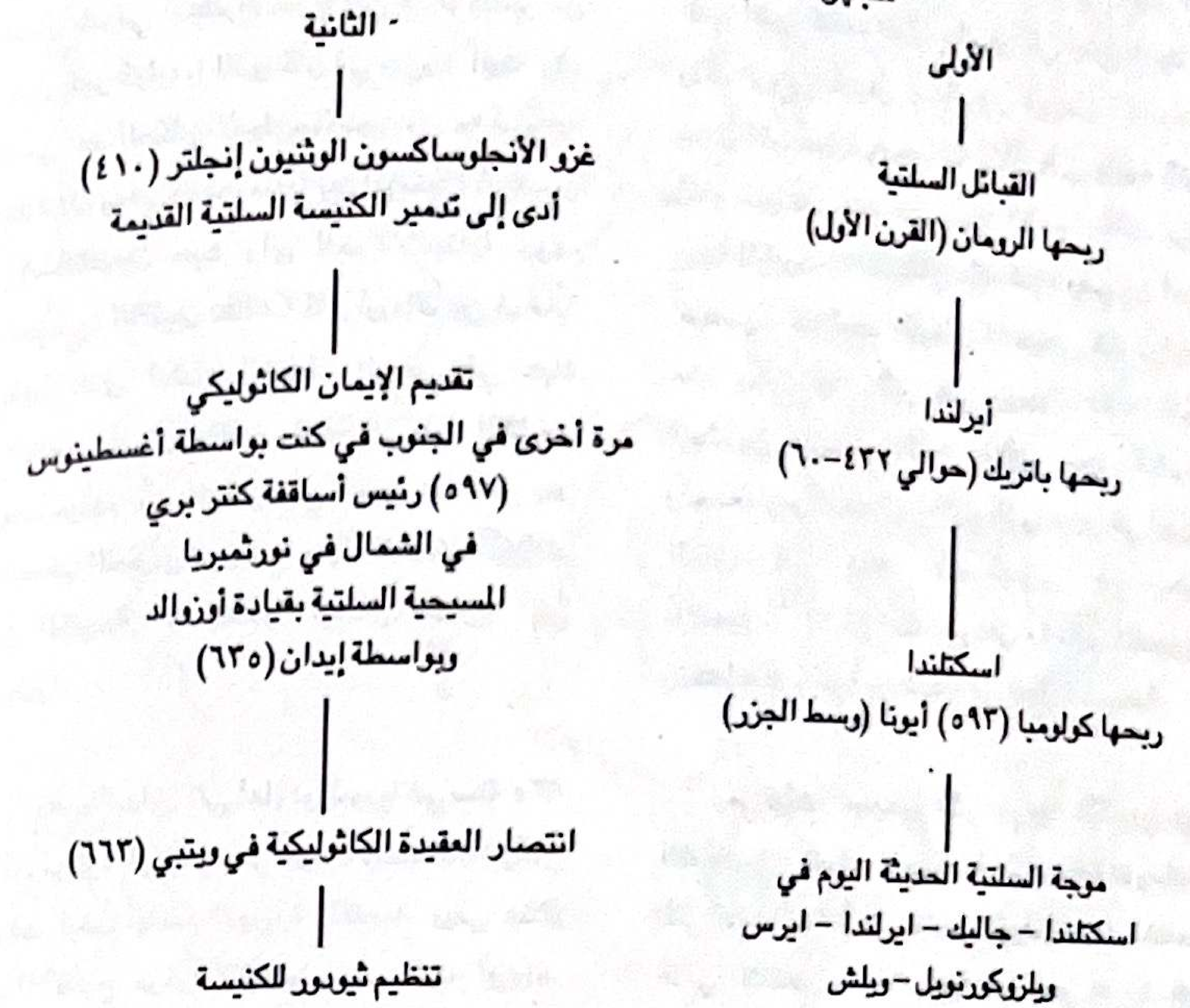



الذى بشر أهل نورثمبريا (وهى المملكة القديمة في شمال شرقي انجلترا) خرج إلى هناك بتأثير من رهبان دير كولومبا الذى كان في جزيرة "أيونا" وقد قضى أحد الحكام الأنجلوساكسون واسمه أوزوالد Oswald بعض الوقت منفياً بين المؤمنين الأيرلنديين والأسكتلنديين حيث رأى الحياة الجذابة لهؤلاء المسيحيين الكلتيين Celtic كان أوزوالد من ضحايا القهر الذى أنشأه الضعف الروحي في حياة الأنجلوساكسون، والذي دفعهم إلى طرد الكلتيين، ومسيحيتهم من انجلترا في القرن الخامس بعد انسحاب الجيوش الرومانية منها، لذلك طلب أوزوالد من الكنيسة الاسكتلندية ارسال مبشرين إلى انجلترا.

ذهب "ايدان" إلى أهل نورثمبريا في سنة ٦٣٥ وأقام مركزه الرئيسى على جزيرة "لينديسفارن والتى عرفت أيضاً باسم الجزيرة المقدسة. وبنى هناك ديراً أصبح مركزاً للتبشير. وقد عاونه أوزوالد معاونة كاملة، وقام بدور المترجم له عندما كان يزور شعب أوزوالد ويتنقل على رجليه بينهم حاملاً رسالة الإنجيل. وقد أعطى إيدان اهتماماً كبيراً للتعليم، وذلك بهدف توفير القيادات الواعية القادرة لكنيسة نورثمبريا. وعندما مات إيدان في سنة ٦٥١م، كانت المسيحية الكلتية قد مدت جذوراً قوية في شمال انجلترا

وكانت الكنيسة في روما قد بدأت بعض جهود التبشير بين الأنجلوساكسون في جنوب انجلترا، كان ذلك قبل بداية المجهودات التبشيرية التى قام بها الكلت بعدة سنوات حيث عين جريجوريوس Gregory بابا روما، الراهب أغسطينوس Augustine الذى كان رئيسا لدير القديس أندراوس في روما، قائداً لجماعة من رهبان ذلك الدير الذين كلفهم البابا بالسفر إلى جنوب انجلترا، وذلك لربح الأنجلو ساكسون للإيمان المسيحى. وصل أغسطينوس وجماعته ونزل على جزيرة ثانيت أمام سواحل كنت في ربيع ٥٩٧م. وكانت برثا، زوجة اثيلبرت Ethelbert ملك كنت، وهى من أصل "فرنسى"، قد قبلت الإيمان المسيحى قبل زواجها منه. وكان لها تاثير على زوجها، دفعه لقبول المبشرين. وبعد اللقاء الأول بين ايثلبرت وأغسطينوس، وحديثهم الأول الذى جرى في الهواء الطلق، أذن الملك لأغسطينوس أن يبشر بالإنجيل.(٢) إلا أن الملك سرعان ما طلب المعمودية وتبعه أعداد كبيرة من شعبه فى قبول المسيحية.

وما لبثت المسيحية التى زرعها الكلتيون فى الشمال، أن اتصلت بالمسيحية الكاثوليكية الرومانية التى كانت تنتشر في جنوبي انجلترا. وقد اختلف هذان الشكلان من المسيحية فى أمور عديدة. فلم يكن المسيحيون الكلتيون يعترفون بسلطان البابا. ولكنهم لم يحتفلوا بعيد القيامة في نفس اليوم الذى احتفل فية الكاثوليك. وكان مسموحاً للرهبان الكلتيين بالزواج في الوقت الذى كان محرماً على الرهبان الرومان. وكان للرهبان الكلتيون طابع مختلف في قص الشعر. كانت مثل هذه الاختلافات سبباً في نشوء نوع من الخلط والتشويش بالإضافة إلى قدر من الخصومة بين هاتين الجماعتين من المسيحيين مما دعا أوزوى Oswy، الذى وحّد معظم الأنجلوساكسون في انجلترا تحت قيادته إلى الدعوة إلى اجتماع في هويتبي Whitby في ٦٦٣، وذلك لاتخاذ قرار في أي نوع من المسيحية يختاره الشعب. وقد قرر الشعب يومئذ إتباع المذهب الكاثوليكي لأن أوزوي، كما نقله بيديه Bede فضلَّ




المذهب الذي ادعى أنه يمتلك مفاتيح السماء.[٣] وأرسل البابا راهبًا آخر يدعى ثيودور Theodore في ٦٦٨ م إلى انجلترا لكي ينظم المسيحيين في انجلترا تحت لواء المذهب الكاثوليكي الروماني، وينظم الأبروشيات ويقيم رؤساء الأساقفة وهو النظام الذي مازال قائمًا في انجلترا إلى الآن في الكنيسة الأسقفية الإنجليزية.

وقد اشتهرت المسيحية في انجلترا بمجهوداتها الفكرية المتميزة وذلك لأن ثيودور أسس مدارس كثيرة فيها. وقد برزت بينها مدرستا جارو ويورك. وعندما احتاج شرلمان Charlemagne في ٧٨١ لمن يساعده على تطوير نظام التعليم في إمبراطوريته، لجأ إلى ألكوين Alcuin من رجال مدرسة يورك للقيام بهذه المهمة. كان "بيد" أيضًا من العلماء البارزين، وقد قضى معظم حياته في جارو. وتعتبر مؤلفاته في تاريخ انجلترا، والتي كتبها من وجهه نظر الكنيسة، من أفضل مصادر المعلومات الخاصة بالحياة الإنجليزية وتاريخ انجلترا للفترة ما قبل سنة ٧٣١م. أرسلت الكنيسة في انجلترا مرسلين إلى أوربا كان لهم دور بارز في ربح إخوانهم التيوتانيين للعقيدة الكاثوليكية. ولأن الإنجليز كان لهم ولاء كبير للكرسي البابوي في روما استمر حتى زمن الإصلاح، فإن الكنيسة في انجلترا كانت دعمًا كبيرًا للكرسي البابوي Papacy مثلما كان الفرنسيون في أوربا.





ب - ألمانيا

عمل بونيفاس Boniface (٦٨٠-٧٥٤)، الذى عرف أيضًا باسم وينفريد Winfrid، على تقديم الإنجيل إلى القبائل التيوتانية التى احتلت معظم المنطقة المعروفة اليوم بالمانيا. وقد حرس بونيفاس في نفس الوقت أن يجعل منهم رعايا مخلصين للبابا في روما. بعد أن صار بونيفاس كاهنًا مكرسًا متعلمًا، وكانت له قدرات كبيرة في عالم المال والأعمال، اختار أن يكرس حياته للجهود التبشيرية.

ذهب إلى روما سنة ٧١٨م وحصل على تفويض من البابا ليبشر بالإنجيل في ألمانيا. فذهب وقطع شجرة بلوط كبيرة في جيسمار، وكانت مقدسة لإله ألماني اسمه Thor وصنع من خشب هذه الشجرة كنيسة صغيرة. وسرعان ما ربح إقليم هيس إلى الإيمان الكاثوليكي. ثم وجه انتباهه إلى ثورينجا وزرع الإنجيل هناك. ثم عينه البابا جريجوريوس الثالث Gregory 3rd رئيسا للأساقفة في ٧٣٢م.

وقد بدأ في هذه الفترة من خدمته التبشيرية في الاستعانة بالنساء المكرسات في العمل المرسلي. وهؤلاء النسوة كن الأوائل من بين طابور طويل من خادمات المسيح اللاتي خدمنه بشجاعة وتفان عبر تاريخ الكنيسة في حقول التبشير المختلفة في كل أنحاء العالم. التفت بونيفاس بعد ذلك إلى بافاريا وأسس الكنيسة هناك على أسس متينة. وقد أجبر شارلمان الساكسونيين الذين سكنوا على الحدود الشرقية من مملكته أجبرهم بقوة السلاح على الدخول إلى المسيحية.

ولقد أدت مثل هذه الفتوحات الكبيرة، والتي نتج عنها أحيانًا تجديد ومعمودية جماهير كبيرة في نفس الوقت، وذلك بدخول شعوب أو قبائل بأكملها إلى الإيمان، أدى ذلك إلى خلق مشكلة أولئك الذين يقبلون المعمودية دون اختبار الإيمان الحقيقي. ولقد صاحبت هذه المشكلة المجهودات التبشيرية في كل مكان أمنت فيه شخصية مرموقة أو قائد واسع النفوذ، دخول شعبه كله إلى المسيحية بالجملة، الأمر الذي يؤدي إلى عدم توافر الفحص اللازم أو التعليم المناسب الذي يضمن أن جميع الداخلين إلى المسيحية قد اختبروا الخلاص الحقيقي بالمسيح.

ج - الأراضي الواطئة

كان وينفريد Winfrid (٦٣٤-٧٠٩) من رجال الكنيسة الإنجليزية، أول من نزل إلى فريسلاند في سنة ٦٧٨ ونادى بالإنجيل لشعب هذه المنطقة. وقد تبعه ويليبرورد Willibrord (٦٥٨-٧٩) وزرع المسيحية هناك على أسس أكثر صلابة وربح فريسلاند للولاء الكامل للبابوية سنة ٦٩٠م.

د- إيطاليا

استولى اللومبارديون فيما بين ٥٦٨و ٦٧٥ على جنوب إيطاليا وكان اللومبارديون يتبعون المذهب الأريوسى لذلك فقد شكلوا معارضة للبابوية في عقر دارها. وقد تمكن جريجوريوس الأول Gregory 1st من منع المشاكل أثناء توليه البابوية وذلك من خلال تأثيرة ونفوذه على الاميرة ثيودليندا Theudelinda أميرة بافاريا، والتى كانت زوجة لاثنين من ملوك لومبارديا. وكان لزيارة الراهب كولومبانوس Columbanus حوالى سنة ٦١٠م تأثيرًا كبيرًا في رجوع الكثيرين من اللومبارديين عن إيمانهم الأريوسى. ومع حلول عام ٦٧٥م كان حكام لومبارديا ومعظم رعاياهم قد قبلوا الإيمان المسيحى القويم وتبعوا روما.

Robinson, Charles. The Conversion of Europe. *London: Longmans, 1917. This detailed work provides more background for missions than is possible within the scope of this text.*

Talbot, C.H., ed. and trans. The Anglo-Saxon Missionaries in Germany. *London: Sheed and Ward, 1954. The primary documents contained in this work emphasize especially the work of Willibrord and Boniface.*



هـ - أسبانيا

مثَّل القوط الغربيون Arian Visigoths في أسبانيا والذين اعتنقوا أيضا المذهب الأريوسى تحديًا آخر لكنيسة روما. وقد أعلن ريكارد الثانى Recared 2nd في مجمع توليدو الثالث Third Council of Toledo عام ٥٨٩ تخليه عن عقيدته الأريوسية وقبوله الإيمان المسيحى القويم وقد تبعه في ذلك معظم نبلائه وأساقفته من الأريوسيين. لكن النصرة لم تكمل أبداً، وقد جعل الصراع ما بين الأرثوذكسى والأريوسيين في أسبانيا هذه البلاد تقع فريسة سهلة في يد المسلمين الذين اجتاحوا أسبانيا في القرن الثامن.

كانت سلطة البابوية قد استقرت بالكامل سنة ٨٠٠ على الجزر البريطانية وفي أغلب منطقة ألمانيا كما نعرفها اليوم. وقد زال تهديد الأريوسيين في أسبانيا وإيطاليا تماماً ولكن الكنيسة في الشرق لم تقم بعمل تبشيرى واسع، فيما عدا تجديد البلغاريين والمورافيين على يد كيرلس Cyril وميثوديوس Methodius في منتصف القرن التاسع تقريباً. وقد خضع المورافيون فيما بعد للسلطان البابوى. وفيما عدا ذلك استنفذت معظم طاقات الكنيسة الشرقية في صراعها لمنع المسلمين من الاستيلاء على القسطنطينية.

## اقتراحات للقراءة

Addison, J.T. The Medieval Missionary. *New York: International Missionary Council, 1931. This is a careful study of missionary techniques.*

Bodley, Ronald U.C. The Messenger. *Garden City, N.Y.: Doubleday, 1946. A good edition of the Quran also helps in understanding the Muslim faith.*

Crawford, Samuel J. Anglo-Saxon Influence in Western Christendom, 600-800. *Oxford: Oxford University Press, 1933. The author shows how in the Dark ages the Celtic churches busied themselves with missions and manuscripts.*

Deanesley, Margaret. Augustine of Canterbury. *London: Nelson, 1964.*

Emerton, Ephraim, trans. The Letters of Saint Boniface. *New York: Columbia University Press, 1940.*

Godfrey, John. The Church in Anglo-Saxon England. *Cambridge: Cambridge University Press, 1962.*

Hilgarth, J.N. The Conversion of Western Europe, 350-750. *Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, 1969. This volume contains many primary documents.*

## الفصل الثامن عشر

# بعث الإمبريالية في الغرب

وجد البابوات أنفسهم عرضة لضغوط هددت مطالبتهم القويه بالنفوذ فيما بعد ٥٩٠م. فقد كان أباطرة القسطنطينية، والذين كان اعتقادهم أن الكنيسة يجب أن تكون خاضعة لحكم الدولة، يواظبون على التعدي على ما كان أسقف روما يراه أنه من صميم صلاحياته وممتلكاته.

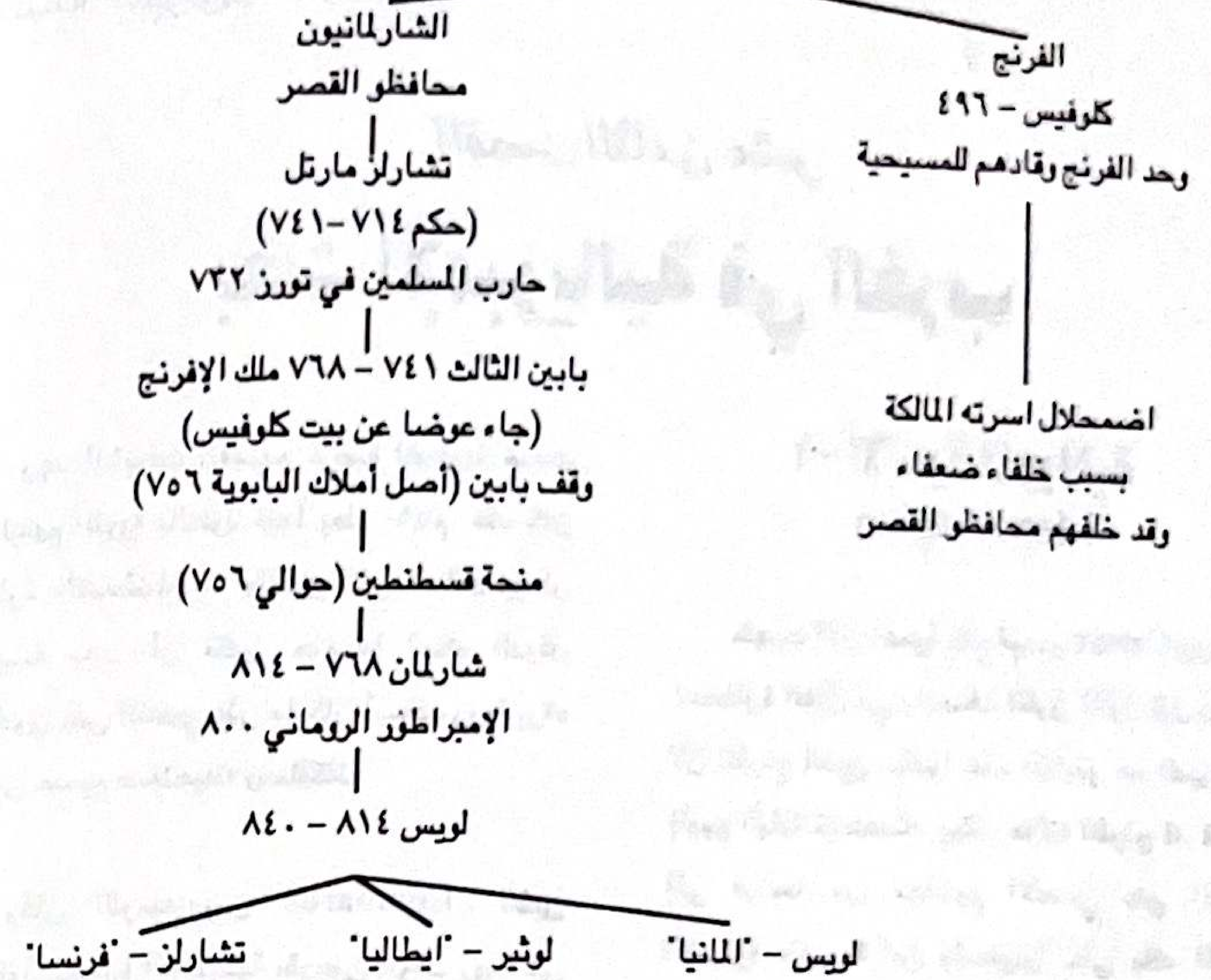
وكان اللومبارديون Lombards ، الذين اعتنقوا العقيدة الأريوسية يقرعون أبواب روما في تلك الفترة مهددين إياها. وقد دفعت هذه الصعوبات البابا أن يتلفت حوله بحثًا عن حليف قوي يدعم مطالبه بالنفوذ الروحي وبأملاكه الزمنية في إيطاليا. بدا أن حكام الفرنج Franks هم الحليف المرتقب، وعقد البابوات معهم تحالفًا كان له تأثيره على شئون الكنيسة والسياسة طوال العصور الوسطى. ولقد بعثت الإمبراطورية السياسية الجديدة في الغرب والتى وهبها البابا بركته في ٨٠٠م، بعثت التطلعات الإمبريالية التى كانت للإمبراطورية الرومانية، إلا أن حكام هذه الإمبراطورية الجديدة كانوا من التيوتونيين بدلاً من الرومان. ونسب مجد وفضل إحياء الإمبراطورية الرومانية إلى حكام إمبراطورية شرلمان.

## ١- الأسرة الموراقية
## Merovingian

ظهرت الآن أهمية فتح قيصر Caesar وهزيمته لحضارة الغال في منتصف القرن الأول قبل الميلاد لأن الفرنج الذين سكنوا هذه المناطق هم الذين لجأ إليهم البابا لمساعدته. وكان هؤلاء الفرنج قد قدموا إلى فرنسا من موطنهم الأصلي على الضفة الشرقية لنهر الراين واستولوا على بلاد الغال، ولكنهم في نفس الوقت قبلوا الثقافة الرومانية من الشعوب التي أخضعوها.

كان كلوفيس Clovis (تقريبا ٤٦٦-٥١٠) هو أول القادة الذين نجحوا في توحيد الفرنج وإخضاع المناطق التى تعرف اليوم بفرنسا. وتزوج كلوفيس من أميرة بورجندية تدعى كلوتيلدا Clotilda (٤٧٤-٥٤٥)، وربط مناطق بورجندى التى حصل عليها بواسطة زواجه، بمناطق أخرى كسبها لنفسه بالحرب والقتال. وقد كان توحيد جميع القبائل الافرنجية المنحدرة من الراين تحت قيادته إسهامًا عظيمًا في استقرار المنطقة. وقبل كلوفيس المسيحية، من ناحية عن طريق تأثير زوجته عليه، ومن ناحية أخرى بسبب ما بدا له أنه تأييد إلهى له في الحرب. ولقد جعل قبوله المسيحية في

## ممالك العصور الوسطى




سنة ٤٩٦. وهذا العام من الأعوام الهامة في تاريخ غرب أوربا. فقد صار الفرنج Franks الذين وحدهم تحت قيادته، وملوكهم وحكامهم من بعده، سنداً قوياً للبابوية في مواجهة خصومها ومنازعيها، بل ولمنح البابوية الأراضي الشاسعة التي احتفظت بها مع غيرها من الممتلكات الزمنية أكثر من ألف عام.

وكما هى الحالة في أغلب الأحيان، لم يملك أبناء كلوفيس Clovis من بعده ما كان له من قدرات، وتسربت السلطة الحقيقية في شئون الدولة إلى يد موظف مرموق عرف بلقب "محافظ القصر"، والذى امتلك زمام الحكم، بينما استمتع خلفاء كلوفيس الضعفاء برغد الحياة داخل قصورهم. وأصبح "محافظو القصر" هؤلاء فئة حاكمة تطورت لتصبح بمثابة أسرة مالكة تسمى مجازاً "بيت شارلمان الحاكم" وذلك لأنها وصلت إلى ذروة نفوذها تحت قيادة الملك شارلمان.

## ٢- حكم الشارلمانيون

كان بابين من هيريستال Pepin of Heristal هو أول "محافظ للقصر" يوحد أملاك كلوفيس المقسمة، وقد سيطر على الفرنج من خلفاء كلوفيس الفاسدين من ٦٨٧-٧١٤. وقد جعل من منصب محافظ القصر منصباً وراثياً لكى يشغله نسله من بعده.

كان تشارلز مارتل Charles Martel (ضارب



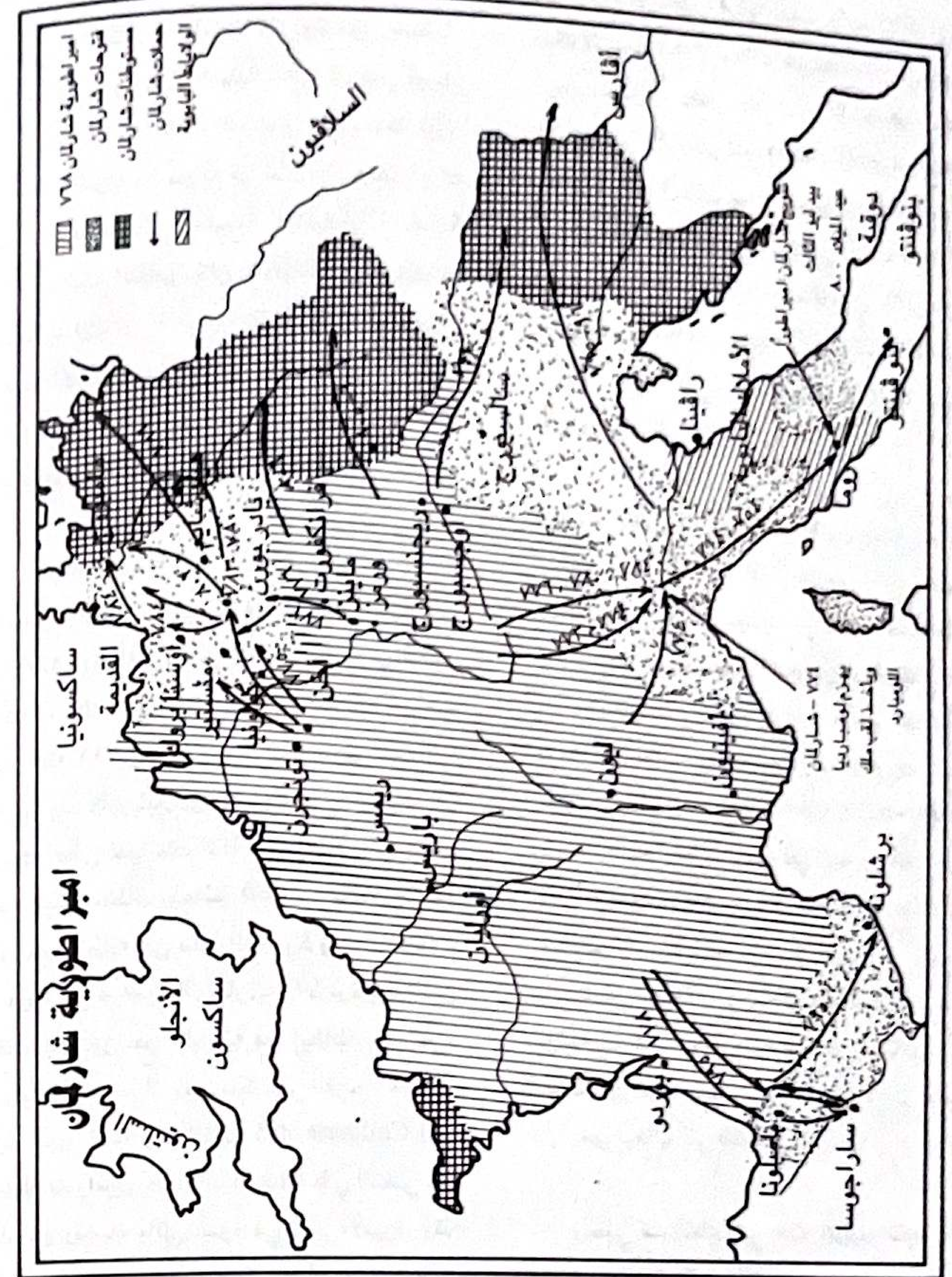


المطرقة) ٦٨٩-٧٤١، ابناً غير شرعي لبابين استولى على مقاليد منصب محافظ القصر بعد ٧١٤. وكان الاحتياج كبيراً إلى قدراته كمحارب قدير حيث كان المسلمون قد اجتاحوا أسبانيا، وكانوا الآن يهددون بالاستيلاء على كل غرب أوربا. هزم تشارلز Charles المسلمين في معركة تورز Tours بالقرب من بوتيه في عام ٧٣٢ وصار بذلك صاحب فضل على الكنيسة الكاثوليكية الرومانية لأنه بحسب الظاهر كان قد أنقذ أوربا الغربية وحفظها للإيمان المسيحى القويم. وقد دعّم تشارلز مجهودات بونيفاس لتبشير قبائل ما وراء الراين، عالمًا أنهم إذا قبلوا المسيحية فلن يواجه أى مشاكل معهم على الضفة الغربية من نهر الراين.

جاء ابن تشارلز خلفًا له في منصب محافظ القصر، وكان يدعى بابين Pepin (حوالى ٧١٤-٦٨)، ولُقب ببابين القصير أو بابين الكبير Pepin the Great وقد حكم بالاشتراك مع أخيه من سنة ٧٤١ وحتى ٧٤٧، عندما دخل أخوه إلى الدير. وقد كان بابين أول ملك فعلي من الشارلمانيين حيث أعطى لقب ملك سنة ٧٥١ وذلك إلى جانب ممارسته سلطات محافظ القصر. وكانت مناسبة توسيع سلطاته هى طلب البابا زكريا Zecharias معونته في مواجهه اللومبارديين الأريوسيين الذين كانوا يهددون نفوذ البابوية في إيطاليا. ولقد توج بونيفاس Bonifas بابين ملكًا على الفرنج Franks. وقد أجبر تشيلدريك الثالث Childeric 3rd آخر ملوك الموراقيين Merovingians على التخلي عن العرش وقضاء باقى عمره في أحد الأديرة. وقد أوفى بابين وعده بمساعدة البابا بحملات ضد اللومبارديين فى ٧٥٤ و ٧٥٦. وقد وعد بمنح أرض فى وسط إيطاليا من روما وحتى رافينا للبابا اسطفانوس الثانى Stephen 2nd في ٧٥٤ وهذه المنحة والتي عرفت بأسم منحة أو وقف بابين Donation of Pepin، لها أهمية خاصة لأهل روما وذلك لأن سنة ٧٥٤ق.م كانت هى سنة تأسيس مدينة روما المتعارف عليه. كان هذا التخصيص لتلك الأرض هو الأساس لكل الأملاك البابوية Papal States التي احتفظ بها البابا بدون انقطاع منذ ٧٥٦ وحتى اتحاد الشعب الإيطالى في ١٨٧٠. لذلك فليس بمستغرب أن البابا اسطفانوس الثانى توج بابين للمرة الثانية ليصبح "ملك الفرنج وراعى الرومان" في سنة ٧٥٤. وقد تسلم البابا منحة الأرض في سنة ٧٥٦.

وقد تداول الناس لبضعة قرون قصة نشرها أسقف روما عن شفاء مفترض للإمبراطور قسطنطين وقصة تجديده وكان قسطنطين Constantine وقد غمره الشعور بالعرفان قد أطلق يده بالعطايا من حقوق وأراضٍ قدمها للأسقف. جمعت كل هذه القصص في وثيقة معروفة باسم "منحة قسطنطين" Donation of Constantine وتم نشرها على نطاق واسع في العصور الوسطى. وقد استخدم البابوات هذه الوثيقة لتدعيم مطالبتهم للممتلكات الزمنية والنفوذ الزمني الروحي.[1] ويظهر من صيغة الوثيقة التى تنطق بالسلطان أن هذه الوثيقة قد كتبت حول منتصف القرن الثامن، أى أنها نشرت في الوقت الذي وهب فيه بابين عطيته من أرض إيطاليا إلى الكرسي البابوي.

ويحيي قسطنطين في هذه الوثيقة سيلفستر Sylvester وأساقفة الكنيسة ويمضى في رواية شفائه من البرص وتعميده على يد سيلفستر. وفي المقابل فإنه يعلن أن الكنيسة في روما ينبغى أن




تتقدم على كل الكنائس الأخرى وأن أسقفها هو أسقف الكنيسة الأعلى. ووهب سيلفستر أراضى في كل أجزاء الإمبراطورية، وقصر لاتيران، ملابس وأوسمة إمبراطورية ثم عاش قسطنطين Constantine في القسطنطينية حتى لا يتدخل في الحقوق الإمبراطورية التى وهبها للبابا.

وبالرغم من كل هذه الحقائق المكتوبة في الوثيقة، إلا إنها لم تكن صحيحة تاريخيًا. ولا يوجد أى تسجيل آخر لمثل هذه الحقائق. بل أكثر من ذلك، أثبت لورنزو فالا Lorenzo Valla في سنة ١٤٤٠ في كتابه، أول وثيقة تحوي نقدًا تاريخيًا حقيقيًا، أثبت أن وثيقة المنحة Donation كانت مزيفة أدخلت بعد عدة قرون من الأحداث التي تدعي أنها تسجلها. والواقع إنه لم تبلغ أى وثيقة أخرى ما بلغته هذه الوثيقة من تأثير على التاريخ.

كان الملك الذى خلف بابين في حكم الفرنج Franks، هو شارلمان Charlemagne ابنه. جاء شارلمان (٧٤٢-٨١٤) الى العرش في سنة ٧٦٨ وأصبح امبراطورًا في ٨٠٠ في الغرب عندما توجه البابا على أنه "إمبراطور الرومان" وترك شارلمان تأثيرًا محسوسًا في كل مجالات الإنجازات البشرية في غرب أوربا.

ونستقي معظم المعلومات عن شارلمان مما كتبه إينهارد من سيرة ذاتية عن الملك شارلمان.(٢) بلغ طول قامة شارلمان سبعة أقدام وكان ضخم الجسم، حيث تضافر لمعان وجهه وشعره الأبيض مع ضخامة جسمه في إضفاء مسحة من المهابة والوقار. وكان يجد مسرته في الصيد وركوب الخيل والسباحة لكن كان لديه أيضًا اهتمام حقيقي بالثقافة والحضارة. وقد قاده هذا الاهتمام إلى الإقبال على سماع الموسيقى أو الاستماع لمن يقرأ له. وكان أيضًا مهتمًا بالدين، وإن كان اهتمامه بالدين لم يكن له تأثير شخصي على حياته الخاصة حيث أنه احتفظ بالمحظيات في قصره ولم يكتف بزوجته وحدها.

وكان شارلمان رجل حرب أيضًا ولقد اشترك في أكثر من خمسين حملة أثناء سني حكمه في محاولاته لإنهاء الفوضى من أنحاء مملكته ولتوسيع حدودها داخل إيطاليا، حيث هزم اللومبارديين Lombards، وفي ألمانيا حيث هزم الساكسون. وقد نشر المسيحية بين الساكسون بقوة السلاح. استطاع أن يضاعف الأملاك التى ورثها عن أبيه حتى استولى على كل إيطاليا جنوبيًا حتى مدينة روما، وعلى كل مساحة فرنسا كما نعرفها اليوم ومعظم أراضى ألمانيا. استولى على أراضٍ كثيرة في غرب أوربا لم يجمعها حكم واحد منذ زمن الإمبراطورية الرومانية القديمة. ولكن هذه المملكة الشاسعة احتفظت بوحدتها بسبب عبقرية شارلمان، وسرعان ما تفككت أوصالها بعد موته سنة ٨١٤.

طور شارلمان نظامًا إداريًا رائعًا وحكومة قوية استطاعت التحكم والسيطرة على مملكته الكبيرة. فقد قسم الإمبراطورية إلى مناطق مختلفة تشمل كل منها عدة مقاطعات ويحكمها دوق. وكان الإمبراطور يرسل رسلاً من قبله الى قصور هؤلاء الدوقات لكى يفحصوا حساباتهم في أوقات غير محدودة، أو لإعلامهم بضرائب جديدة أو قوانين أو لوائح وأيضا للتأكد من حفظ النظام العام.

كان شارلمان يحتفظ بعلاقة ودية مع الكنيسة.




تمثل هذه اللوحة واحدة من صياغات العلاقة بين البابا والإمبراطور. فهى تصور القديس بطرس، جالساً على العرش، وهو يسلم وشاح الأسقفية إلى البابا ليو الثالث ويعطى لواء الإمبراطور إلى شارلمان، مما يظهر أن كلا منهما استمد سلطته من بطرس الرسول مباشرة دون الاعتماد على الآخر.



وكان يعتبر الكنيسة بمثابة الروح والدولة هي الجسد. كان يرى لكل من الكنيسة والدولة مجال تمارس فيه مسئولياتها. وبينما كان في روما في إحدى حملاته لإخضاع اللومبارديون في سنة ٧٧٤، أكّد حقوق البابوية فى الأرض التى منحها لها بابين Pepin فى ٧٥٦. إلا أنه رأى أن رئيس الكنيسة لا ينبغى أن يجادل قرارات رئيس الدولة وأن الأساقفة ينبغى أن يكونوا خاضعين لرأس الدولة.

وعندما تآمر البعض في روما على البابا ليو الثالث Leo 3rd وكادوا يقتلونه، غادر البابا روما قاصداً بلاط شارلمان، وعاد به شارلمان إلى روما، وأبرىء البابا أمام المجلس من كل التهم ضده وأثناء القداس الإلهى في الكاتدرائية في ليلة عيد الميلاد في سنة ٨٠٠، وبينما ركع شارلمان أمام المذبح، وضع البابا التاج على رأسه وأعلن أن شارلمان أصبح إمبراطور الرومان. وهكذا بعثت الإمبراطورية الرومانية مرة أخرى في الغرب. وأخذت روما الجديدة بقيادة واحد من التيوتونيين مكان الإمبراطورية الرومانية القديمة. وهكذا وجدت إمبراطورية عالمية جنباً إلى جنب مع الكنيسة العالمية ولم يرتبط التراث الكلاسيكى مع التراث المسيحى في إمبراطورية مسيحية.

بدأ الحلم الإنسانى القديم بوحدة البشر أقرب إلى التحقيق، لأن شارلمان جمع تحت سلطانه أوسع مساحة من الأراضى ملك عليها إنسان منذ سقوط الإمبراطورية وصار للإمبراطورية الروحية العالمية أي البابوية والتي سادت على نفوس البشر، نظير مكمل لها في الإمبراطورية الرومانية التي أحياها شارلمان والتي ساد فيها على أجساد البشر.

كانوا يعتقدون أن ملكوت الله له ذراعان، واحد روحي وعلى رأسه البابا، وكان مسئولاً عن نفوس وأرواح البشر. والآخر زمني وله مسئوليات تحقيق الرخاء والأمان على المستوى المادى للبشر. وكان ينبغى على الإمبراطور والبابا أن يدعم أحدهما الآخر. وبالطبع كان مثل هذا الاعتقاد كفيلاً بأن يخلق صراعات بين رؤساء الكنيسة وملوك الإمبراطورية التيوتونية الرومانية الجديدة. فهل أعطى الإمبراطور السلطة التى له من الله مباشرة ليسود على البشر، وهل يمارس البابا سلطان مفوض له من الإمبراطور ليسود على أرواح البشر؟ أو أعطى الله السلطة المطلقة للكنيسة، ويفوض البابا السلطة على أجساد البشر إلى الإمبراطور؟ أم أنهما كليهما يشغلان مناصب متوافقة حيث أعطى الله لكل منهما سلطاناً مباشراً في نطاق مسئولياته ؟ شغلت الإجابة على هذا السؤال طاقات البابوات والأباطرة طوال فترة العصور الوسطى حتى نجح البابوات في النهاية في إخضاع الأباطرة تحت سيطرتهم.

وبعد موت شارلمان، تدهورت مملكته تحت قيادة ابنه الضعيفة، واستهتار أحفاده حتى إن أحفاده اقتسموها فيما بينهم في معاهدة فيردون Treaty of Verdun في ٨٤٣م، بعد حرب طويلة بينهم. إلا أن الحلم الإمبريالي عاد إلى الظهور مرة أخرى بواسطة أمير ألمانى يدعى أوتو Otto في ٩٦٢، ومنذ ٩٦٢ وحتى ١٨٠٦ ظلت الإمبراطورية الرومانية المقدسة Holy Roman Empire مؤسسة محترمة في أوربا بالرغم من وصف فولتير Voltaire لها بأنها لم تكن لا مقدسة ولا رومانية ولا إمبراطورية.

كرّس شارلمان Charlemagne نفسه لرعاية ودعم التقدم الحضاري والثقافي، وكانت فترة حكم الإمبراطورية من ٨٠٠ وحتى ٨١٤ فترة تطور حضاري عُرفت منذ ذلك الحين باسم "النهضة الشارلمانية". فلم يكن قد حدث مثل هذا التقدم والرقي الثقافي منذ نشر أعمال بوثيوس Boethius وكاسيودورس Cassiodorus أثناء حكم ثيودوريك Theodoric، الحاكم القوطي الشرقي الذي حكم إيطاليا في القرن السادس. ولكي يدعم شارلمان نهضته الحضارية لجأ إلى العلماء في الكنيسة في انجلترا وأقنع العالم الكبير ألكوين Alcuin (حوالى ٧٣٥-٨٠٤) لكي ينضم إلى بلاطه ويأتي من يورك ليدير المدرسة التى في قصر الملك في آخن، حيث تعلم أطفال الأسرة المالكة وأبناء النبلاء البارزين. وقد عاون الكوين في عمله كل من بولس الشماس Paul the Deacon، إينهارد Einhard وغيرهم من العلماء الأكفاء.

وكانت مدرسة القصر التى أنشأها شارلمان حلقة متكاملة في سلسلة الرجال والمدارس التي سلمت لجامعات العصور الوسطى الخطوط الرئيسية للمناهج المأخوذة عن سنوات نظام التعليم العالي عند الرومان بواسطة مارتيانوس كابيلا Martianus Capella في القرن الخامس. كانت أنشطة شارلمان الثقافية خطوة هامة في العملية التى جمع فيها الشعب الألمانى ما بين التعليم الكلاسيكى والتعليم المسيحى. وقد استمتع شارلمان نفسه بالاستماع إلى قراءة بعض الكتب القديمة العظيمة ولاسيما مؤلفات أغسطينوس Augustine وبالذات كتاب "مدينة الله" City of God. وكان يصر أيضًا على أن يؤسس رؤساء الأديرة مدارس في داخل تلك الأديرة حتى يصبح مفسرو الكتاب المقدس رجال علم يفهمون الكتاب ويفسرونه تفسيراً صحيحاً.(٣)

وينبغي أن نعطى قدرًا كبيرًا من الاهتمام لأهمية شارلمان في تاريخ العصور الوسطى. فتتويجه كان علامة على التصالح والاتحاد ما بين شعب الإمبراطورية القديمة وبين قاهريه من التيوتونيين. وأنهى حلم الإمبراطور الشرقى في استعادة المناطق التى فقدت، باستيلاء البرابرة في الغرب عليها في القرن الخامس، وبما أن البابا هو الذى توج شارلمان ونصبه في مكانه الجديد، ازدادت مكانة البابا بصفته الشخص الذي يدين له الملوك بتيجانهم، وكان الإمبراطور ملتزمًا بمعاونته عند وقوعه في ضيقة ما وكان تتويج شارلمان علامة على وصول نفوذ الفرنج Franks إلى ذروته، ذلك النفوذ الذى بدأ بقرار كلوفيس Clovis بأن يصير مسيحيًا.

## ٣- الكنيسة والإمبراطورية في الشرق

اهتم شارلمان أيضًا بالإمبراطورية والكنيسة في الشرق بل إنه حاول أيضًا توحيد الشرق والغرب في إمبراطورية واحدة تشمل كل مناطق وأقاليم الإمبراطورية الرومانية القديمة. ولا ينبغي أن ننسى أن الأباطرة في الشرق قد منعوا جحافل المسلمين من اجتياح أوربا حتى استطاعت أوربا أن تستعيد توازنها مما تعرضت له من فوضى واضطراب نتيجة لانهيار االإمبراطورية واجتياح البرابرة لها.

كان الشرق يعانى من الاضطرابات التى أنشأتها المجادلات حول موضوع الأيقونات





Iconoclastic Controversy من ٧٢٦-٨٤٣. وقد منع ليو الثالث Leo 3rd في مراسيم أصدرها في ٧٢٦ و ٧٣٠ استخدام الصور والتماثيل في الكنيسة وأمر بتدميرها. وقد أعلن شارلمان Charlemagne موقفه من رفض عبادة الصور والتماثيل في نفس الوقت تقريبًا الذى أصبحت فيه إيرين إمبراطورة الشرق. بل إنه عرض أيضًا الزواج من إيرين Irene لكى يوحد أقاليم الإمبراطورية الرومانية القديمة تحت تاج واحد وعاصمة واحدة في الغرب. لكن إيرين رفضت محاولاته، واستمر انقسام الإمبراطورية الذي بدأ عندما نقل قسطنطين Constantine عاصمة ملكه في سنة ٣٣٠ من روما إلى القسطنطينية. سمح مجمع نيقية الثانى Second Council of Nicaea في سنة ٧٨٧ بتوقير Veneration الصور والتماثيل بدلاً من عبادتها.

وقد ظلت الكنيسة في الشرق خاملة فيما يتعلق بتطور الفكر اللاهوتي، فيما عدا كتابات يوحنا الدمشقي John of Damascus، وذلك من الفترة التى شهدت الجدل اللاهوتى في القرن الرابع إلى القرن السادس وحتى الحقبة الحديثة. أما يوحنا الدمشقي (٦٧٥-٧٤٩ تقريبًا) فقد صاغ الفكر اللاهوتى فيما يمكن مقارنته بمؤلف توما الاكوينى Thomas Aquinas الشهير Summa. أصبح مؤلفه الكبير "منابع الحكمة" الذى جاء في ثلاثة كتب مرجعًا لاهوتيًا بالنسبة لعلماء الكنيسة الشرقية مثلما صار مؤلف توما الاكويني مرجعًا في الكنيسة الغربية. والكتاب الثالث، عن الإيمان الأرثوذكسي، هو بمثابة تجميع وتصنيف للفكر اللاهوتي الذي طوره الآباء والمجامع من القرن الرابع وحتى اليوم الذي عاش فيه. وأصبح هذا الكتاب التعبير النمطي عن الفكر الأرثوذكسي في القسم الشرقي من الإمبراطورية. وربما فسر خضوع الكنيسة في القسطنطينية لسلطة الإمبراطور جمود أحوال المسيحية في الشرق بعد منتصف القرن الثامن. ففي الشرق كانت الكنيسة فعليًا جهازًا من ضمن الدولة بينما استطاع البابا فى الغرب أن يتحرر من تحكم السلطات الزمنية، بل إنه أصبح فيما بعد هو المسيطر على تلك السلطات الزمنية.

ومع نهاية الحقبة ما بين ٥٩٠-٨٠٠، انقشعت بعض مظاهر التخبط التى صاحبت سقوط وانهيار الإمبراطورية الرومانية في الغرب. أما الجزء الشرقي الواقع في أسيا فاستمر تحت حكم الإمبراطور في القسطنطنية. نمت مملكة الفرنج Franks التى أسسها كلوفيس Clovis لتصبح إمبراطورية مسيحية تحت حكم شارلمان وأدّت إلى توحيد التيوتونيين الذين أصبحوا مسيحيين مع سكان وشعوب الإمبراطورية القديمة في الغرب. أما الساحل الجنوبي للبحر المتوسط، والذى كان يومًا من ضمن أملاك الإمبراطورية الرومانية، فقد فقدته روما والقسطنطينية باستيلاء المسلمين عليه، إلا أن التوسع الإسلامى تم وقفه في الغرب وفي الشرق مع عام ٧٣٢. وأصبحت مناطق نفوذ روما القديمة منقسمة إلى ثلاث مناطق، ويدور تاريخ الكنيسة في الفترة ما بين ٨٠٠-١٠٥٤ حول الصراع ما بين البابا وحاكم إمبراطورية الفرنج.

## اقتراحات للقراءة

*Duckett, Eleanor S.* Alcuin, Friend of Charlemagne. *New York: Macmillan, 1951.*



المد والجزر في العلاقات ما بين
الكنيسة والدولة ٨٠٠-١٠٥٤

*الفصل التاسع عشر*

# قيام الإمبراطورية الرومانية المقدسة

يشمل تاريخ الكنيسة في هذه الفترة مناقشة النسيج المعقد للعلاقات التى نشأت مابين الكنيسة والدولة الإمبراطورية سواء في الشرق أو في الغرب. كانت تلك هى الفترة التي حدث فيها الانشقاق الاكبر الأول في الكنيسة. فقد انفصل الجزء الشرقي عن الجزء الغربي من الكنيسة ليمضي كل منهما في طريقه ليصبح الجزء الغربي هو الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، ويصير الجزء الشرقي هو الكنيسة اليونانية الارثوذكسية. في الوقت نفسه كان ظلام العصور الوسطى قد بدأ في الانقشاع البطيء وذلك بالنهضة التعليمية التى بدأت بقيادة شارلمان Charlemagne.

## أولاً: أفول إمبراطورية شارلمان

### أ- خلفاء شارلمان الضعفاء

لم يستمر النظام الامبراطوري الفذ الذى تأسس بتتويج البابا ليو الثالث Leo 3rd للملك شارلمان في ليلة عيد الميلاد من عام ٨٠٠م، لم يستمر طويلاً بعد موت مؤسسه العظيم. وبسبب اعتماد الإمبراطورية على عبقريته الشخصية، كان موته إشارة إلى بداية تحللها وزوالها. فلم يكن ابنه أو حفيده يملك ما كان يملكه شارلمان من طاقة وقدرة، وسرعان ما تفككت إمبراطورية الفرنج الرائعة.

### ب- المبدأ التيوتوني في الميراث

أما العامل الاهم في أفول الحقبه الافرنجية من الإمبراطورية الرومانية المقدسة كان التفكك التى أدخله المبدأ التيوتوني للميراث إلى النظام الإمبراطوري. كان هذا المبدأ يوحى بتقسيم الأراضى التى يملكها الآب على أبنائه بعد موته. وكان هذا المبدأ القانوني قد بدأ العمل به في عهد لويس التقى Louis the Pious (٧٧٨-٨٤٠) الذى جاء بعد شارلمان مباشرة. فقد كان مفهوم الإمبراطورية التي لايمكن تقسيمها، الذي اعتنقه الرومان، غريبًا على التفكير التيوتوني. بالإضافة إلى ذلك فإن لويس نفسه حتى وإن كان قد تمسك بمبدأ وحدة الإمبراطورية إلا أنه لم يكن يملك العبقرية الشخصية التى كانت عند شارلمان أبوه، لذا لم يكن حتى قادراً على تطبيقه. لم يكن لويس قادرًا على التحكم في الطبقة الأرستقراطية ذات النفوذ الكبير من حوله، بل إن طبيعته الرهيفة أفقدته السيطرة على أسرته بكل ما كان فيها من اضطرابات.

وبعد أن اعتلى لويس العرش الإمبراطورى بفترة قصيرة، أعلن خطته لتقسيم إمبراطوريته على أبنائه. وعندما رزق بطفل آخر من زوجته الثانية يوديث وكان اسمه تشارلز الأصلع Charles the Bald، اضطر أن يغير خططه لتشمل تشارلز كواحد من ورثته في حالة وفاته.

وعندما توفى لويس Louis في سنة ٨٤٠، بعد فترة حكم مضطربة بدأت سنة ٨١٤م، أدت الصراعات التى نشأت بين أولاده إلى أن يصير سقوط إمبراطورية شرلمان Charlemagne أمرًا لا مفر منه. ورث ابنه لويس القسم الشرقي من الإمبراطورية، كما ورث تشارلز الأصلع القسم الغربي، أما القسم الاوسط الذى أمتد من قسم الشمال إلى البحر الأدرياتيكي إلى جانب لقب الإمبراطور فكانت من نصيب لوثير Lothair. تمنى لوثير لو أنه استطاع أن يوسع سيطرته على كل أملاك إمبراطورية أبيه، لكن أخويه تشارلز الاصلع ولويس الالماني Louis the German اتحدا ضده. واجتمع كلاهما في ستراسبورج Strasbourg في سنة ٨٤٢ حيث أقسم كل منهما بلغة الشعب الذي يملك عليه أن يظل وفيًا للآخر حتى يهزما لوثير. وقد أكتسب هذا الاجتماع أهمية خاصة في تاريخ كل من ألمانيا وفرنسا وذلك لأن كلا من لويس وقد شملت أملاكه معظم منطقة ألمانيا، وتشارلز الذى شملت أملاكه منطقة فرنسا اعترف بلغة رعاياه وذلك بأخذه قسم الولاء بتلك اللغة دون غيرها.[١]

كان هذا التحالف أقوى من أن يواجهه لوثير، وفي عام ٨٤٣ اتفق الإخوة الثلاثة في معاهدة فيردون Treaty of Verdun[٢] حيث أعطيت منطقة فرنسا كما نعرفها اليوم إلى تشارلز، بينما أعطيت ألمانيا إلى لويس. وأعطى لوثير لقب الإمبراطور كما أعطى الاراضي الواقعة بين المملكتين والتى بلغ طولها ألف ميل وعرضها أكثر قليلاً من مائة ميل. كان هذا الحدث بمثابة إعلان ميلاد دولتي فرنسا وألمانيا كما نعرفهما اليوم، واستمرت الخصومة بينهما حول ملكية المنطقة الواقعة بينهما إلى زماننا الحاضر وكانت دائمًا مصدرًا للمشاكل في العلاقات بين دول غرب أوربا.

وحدث في سنة ٨٧٠ أن عقدت معاهدة ميرسن Treaty of Mersen حيث اقتسم حكام القسم الشرقي والقسم الغربي من إمبراطورية شارلمان المنطقة الواقعة بين المملكتين وانحصر بذلك ملك خلفاء لوثير على إيطاليا فقط.

### ج- قيام النظام الإقطاعي

أسرع قيام نظام الإقطاع Feudalism بتمزيق الإمبراطورية العظيمة التى بناها شارلمان وينشأ الإقطاع بشكل أو بآخر دائمًا عندما تضعف الحكومة المركزية ولا تعود قادرة على ممارسة سلطة فعالة على المناطق الواقعة تحت سيطرتها. فانحسار الحياة في المدن وتدهورها بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية دفع الناس إلى العودة إلى الأرض لكسب عيشهم. وكان للإقطاع سوابق في العادات الرومانية والجيرمانية في تملك الأرض واحتكار الخدمات. شجعت هذه وغيرها من عوامل الفوضى التي سادت القرن التاسع قيام الأسلوب الإقطاعي في غرب أوربا. فقد وضعت النفوذ والسلطة العامة في أيدي معينة.

وانقسم المجتمع أفقيًا لا رأسيًا في القرون الوسطى وقلّ الحراك الإجتماعي فكان الإنسان يعيش كل حياته أسيرًا للطبقة التي وُلد فيها والتي





عاش فيها أبوه من قبله. قسم المجتمع بعد قيام نظام الإقطاع إلى مجموعة من الفرسان الإقطاعيين يقومون بالحماية وكانت لهم دون غيرهم امتيازات ملكية الأرض وذلك نظير خدماتهم ثم مجموعة أخرى من المنتجين وهؤلاء هم العمال الذين يخدمون في حقول الإقطاعيات والذين أصبحوا مع الوقت الأساس الإقتصادي لنظام الإقطاع، ثم كان هناك فئة ثالثة وهي طبقة الكهنة، الذين يقومون بالأمور الدينيه في إطار الكنيسة الجامعة. وكان على الفرد أن يخضع للفئة أو الجماعة التى ينتمي إليها. وكان لكل فرد سيد في نظام رياسي هرمي.

ويمكن تعريف الإقطاع Feudalism على أنه نظام سياسي مبني على ملكية الأرض. فمالك الأرض عليه أن يوفر حكمًا جيدًا في المنطقة التى يملك أرضها. وقد كانت هذه هى الطريقة الوحيدة العملية لتطبيق النظام والعدل في فترة ضعف السلطة المركزية بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية وفشل الملكة الموراقية Merovingian وتمزق إمبراطورية شارلمان Charlemagne ، إلى أن قامت الدولة التى تضم أممًا باكملها في إنجلترا وفرنسا وأسبانيا في أواخر العصور الوسطى.

كان نظام الإقطاع الزراعي Manorialism نظامًا اقتصاديًا عملت فيه كل طبقات المجتمع ولاسيما بعد انهيار التجارة الدولية، وهو أحد النتائج الأخرى لانهيار الإمبراطورية الرومانية. فكان السيد وعبد الأرض كلاهما ياكلان من الأرض المزروعة، وكان كل إقليم زراعي أو عزبة كبيرة تحقق الاكتفاء الذاتي فيما عدا بعض الأشياء القليلة مثل الملح، وأحجار الطحن، القضبان الحديدية التى يستخدمها الحدّادون في صنع أدوات الزراعة. كانت العزبة أو الإقليم الزراعي، وهى مساحة من الأرض تكفي لإعالة أحد فرسان الإقطاع، هى وحدة ملكية الأرض في النظام الإقطاعي. كان يمكن بعض السادة الإقطاعيين أن يملكوا عدة مناطق (عزب) لذا كانت هذه العزب هى الوحدة الاقتصادية الأساسية التى جعلت من النظام الاقطاعي حقيقة ممكنة.

كان امتلاك الأرض هو الرباط الذى ربط نظامي الأقاليم الزراعية والإقطاع معًا. كان الفارس، وهو أصغر حلقة في هرم الإقطاع، معتمدًا في عيشه على عبيد الأرض الذين يفلحون الأرض لحسابه. وفي المقابل كان عليه أن يوفر لهم الحماية اللازمة.

تضمن الإقطاع أيضًا نوعًا من العلاقات الشخصية الخاصة التى يظهر فيها متعهدو الأرض ولاء شخصيًا لسيدها ومالكها، مثل الالتزام بأربعين يومًا من الخدمة العسكرية سنويًا، وإمداده بالطعام، ورفع الصلوات من أجله لو كان المتعهد من رجال الكنيسة. كان الوضع الأمثل للمجتمع ذا ترتيب هرمي، حيث يجد كل متعهد نفسه تحت سلطان سيد له، والسيد على قمة الهرم، وكان الملك ينظر إليه باعتباره وكيلاً له. إلا أن مثل هذا الهرم الإجتماعي لم يتحقق بصورته المثالية إلا في انجلترا تحت حكم وليم الفاتح William the Conqueror في القرن الحادي عشر أما في المنطقة المعروفة اليوم باسم فرنسا وألمانيا فإن العلاقة بين متعهدي الأرض في النظام الإقطاعي والحاكم أو الملك كان ضعيفًا.

كان من الضروري تقديم هذا الشرح الموسع

لموضوع الإقطاع بسبب أهمية الإقطاع كنظام سياسي اقتصادي وفر سيادة القانون والأمن في حقبة تميزت باللامركزية والفوضى التي أعقبت انحلال إمبراطورية شارلمان وغزو الفايكنج لأوربا الغربية وانجلترا فى القرنين التاسع والعاشر وغزو السلاف والمجريين أيضاً.

ويفوق تأثير الإقطاع على الكنيسة في هذه الفترة كل ما تقدم. فمساحات شاسعة من الأراضي في أوربا الغربية كانت مملوكة للكنيسة أثناء الفترة الأخيرة من العصور الوسطى Middle Ages. وكان مصدر هذه الأراضى الأوقاف والهبات التي منحها الاتقياء والتائبين من أصحاب الأراضى الساعين للتكفير عن خطاياهم، وقد ظلت هذه الأراضي في حوذة الكنيسة الكاثوليكية كمؤسسة من جيل إلى جيل، لذلك فإن هذه الكنيسة وبصفتها من أكبر ملاك الأرض لم يكن ممكناً إلا أن تتأثر بنظام الإقطاع Feudalism. كانت هذه الهبات يعهد بها في صورة إقطاعيات أو عزب توضع تحت إشراف رؤساء الاديرة أو الأساقفة. ولم يكن رجال الكنيسة، وبصفتهم خدام الله، يقدرون أن يقوموا بالخدمة العسكرية لأصحاب الأراضي التى يسكنون عليها لذلك كانوا يعطون بدلاً من ذلك جزءاً من أراضيهم للفرسان الذين يمكنهم تأدية الخدمة العسكرية. ولقد نتج عن تقسيم أراضى الكنيسة إلى إقطاعيات صبغ الكنيسة بصبغة عالمية مادية، شغلت الكنيسة عن الالتفات إلى اهتماماتها الروحية لتنشغل بمصالحها الزمنية. وكان متعهدو الأراضى الذين يشرفون على أراضى الكنيسة يواجهون مشكلة ازدواج ولائهم هل يكون ولاؤهم للملك الأرضي أو السيد الذى وكّلهم على الأرض أم يكون ولاؤهم للبابا، السيد الروحي على الجميع، والذى يمدهم بالسلطان الروحي؟ وقد عطل مثل هذه الازدواج فى الولاء التطور السليم في الحياة الروحية التي تلزم لنجاح الكنيسة في خدمتها.

وبما أن أبناء النبلاء الصغار كان يمكنهم الحصول على مزيد من الأراضي والامتيازات بانخراطهم في خدمة الكنيسة، فإن بعض كبار النبلاء تدخلوا فى كثير من الأحيان فى الانتخابات لإنجاح مرشح قريب لهم لمنصب رئيس دير أو أسقف. وكان الكثيرون من هؤلاء ليس لهم أي اهتمامات روحية ولا تهمهم الخدمة التي تربط بالمناصب التي يحصلون عليها قدر اهتمامهم بالمصالح المادية التى يسعون لتحقيقها.

وكان الجدل حول هل يمنح البابا أو سيد الأرض متعهد الأرض الإقطاعي الذي يشرف على الأملاك الكنيسة سلطته؟ وصار هذا الجدل مصدراً متجدداً للمرارة في العلاقات ما بين الكنيسة والدولة في القرنين الحادي والثاني عشر. كان الخاتم والعكاز ووشاح الأسقفية هى رموز السلطة الروحية، بينما كان السيف والصولجان هما رمزي السلطة الإقطاعية. وفى بعض الأحيان كان كل من البابا والملك الإقطاعي يدعى لنفسه الحق في منح كل هذه الرموز. ولقد أدت مثل هذه المجادلات إلى فقدان قيادات الكنيسة لحياتهم الروحية، وإهمالهم لواجباتهم الروحية، واهتمامهم لمصالحهم الدنيوية إذ أعطوا اهتماماً أكبر بالسيطرة على أراضيهم وعلى المنازعات المحلية على حساب الاهتمام بشئون الكنيسة الحقيقية. كان على الكنيسة في الغرب أن تقاوم الإقطاع وتأثيره عليها بينما كانت الكنيسة فى الشرق تقاوم السيطرة الإمبريالية دون تحقيق أى نجاح.





إلا أننا ينبغى أن نوازن ما بين اتجاه الكنيسة نحو الاهتمامات الدنيوية بسبب انغماسها في نظام الاقطاع، وبين محاولات الكنيسة الحد من شرور الحرب الإقطاعية. ففى بداية القرن الحادي عشر تمكنت الكنيسة من إقناع ملوك الإقطاع بقبول معاهدتين بخصوص موضوع الحرب بينهم. كانت الأولى Peace of God تقضي بحفظ حد أدنى من السلام في المجتمع وذلك بمنع المنازعات الخاصة، وتحريم مهاجمة الأشخاص العزل، وعدم السماح بالعنف أو السرقة وعدم انتهاك حرمة الأماكن المقدسة. كانت مثل هذه المعاهدة لازمة بسبب افتقار هؤلاء النبلاء الالتزام الطبيعي بعدم مهاجمة الاخرين من حولهم.

أما المعاهدة الأخرى فعقدت فى ١٠٣١ وتسمى "اتفاقية الهدنة الإلهية" Truce of God وكانت تلزم طبقة الاقطاعيين بالامتناع عن القتال من غروب شمس يوم الأربعاء حتى شروق شمس يوم الاثنين من كل أسبوع وعدم القتال في أيام أعياد الكنيسة. والحقيقة أن هذا لم يترك سوى أقل من مائة يوم في السنة يمكن فيها تسوية المنازعات الاقطاعية بالقتال. وقد نصت هذه الاتفاقية أيضاً على أن الكنائس والمدافن والأديرة تعتبر كالكنائس يمكن أن يجد فيها اللاجئون الأمان في زمن الاضطرابات. أيضاً لا ينبغى الإساءة إلى النساء أو الفلاحين ولا رجال الكنيسة. ولقد ساهمت هذه الاتفاقيات[٣] بقدر كبير في تقليل وحشية المعارك الإقطاعية في العصور الوسطى.

د- غزوات الفايكنج والسلاف والمجريون

كان الإقطاع سبباً لأفول إمبراطورية شارلمان Charlemagne ونتيجة له . إلا أن غزوات الفايكنج Viking والسلاف والمجرين Magyar كانت من العوامل المحددة التى ساهمت في الإسراع بانحلالها. وهؤلاء الفايكنج أو رجال الشمال، والذين قدموا من المناطق التى نعرفها اليوم باسم السويد والدنمارك والنرويج، كانوا بمثابة مشكلة لغرب أوربا من أواخر القرن الثامن وحتى القرن العاشر. فكل مدينة أو دير على الساحل أو على ضفاف أي نهر صالح للملاحة كانت معرضة لهجوم وإغارة هؤلاء البحارة الجسورين.

وقد انتهى الأمر بالكثيرين من الفايكنج باستقرارهم في انجلترا حيث اندمجوا بعد كثير من القتال مع أقرانهم من الأنجلوساكسون الذين قدموا إلى انجلترا في وقت سابق. وأثناء هذه العملية دمرت وأحبطت الحضارة المسيحية الرفيعة التى قد نشأت في أيرلندا وانجلترا أثناء العصور الوسطى. وقد استقر البعض الآخر من الفايكنج فى نورماندي، ثم ما لبثوا أن قدموا لغزو انجلترا مرة أخرى بقيادة وليم الفاتح William the Conqueror في ١٠٦٦م. ونزل البعض الآخر منهم جنوبًا عبر شرق أوربا واضعين أساس الدولة الروسية. واستقر آخرون منهم في صقلية في جنوب إيطاليا، حيث ظلوا لفترة من الزمن يمثلون تهديداً للنفوذ الزمني للبابوية. أما السلاف والمجريون فقد استقر بهم الوضع في جنوب ووسط أوربا.

## ثانيا: أهمية الإمبراطورية الشرلمانية

يجب ألا يشغلنا اهتمامنا بالأسباب التى أدت إلى انهيار الإمبراطورية التى أسسها الملك شارلمان عن تدارس أهميتها بالنسبة لتاريخ غرب أوربا. فقد

خرجت دولتا فرنسا وألمانيا من أطلالهما، وبالرغم من أن الدولة الألمانية، بما ادعته فيما بعد بأنها الوريثة الشرعية للإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية شارلمان، لم تنجح أبداً في إنشاء دولة مركزية تشمل الأمة كلها حتى القرن التاسع عشر عندما ساعدت الدعوة القومية على صهر الألمان كلهم في أمة ودولة واحدة، إلا أن الدولة الألمانية أصبحت خليفة لدولة الافرنج في القرن العاشر. ولكنها بدلاً من مساعدة البابا كما فعل أباطرة الافرنج، حاربت البابوية منافسة إياها على السيادة والسيطرة حتى هزمها البابا أنوسنت الثالث Innocent 3rd. لم يندثر أبداً حلم إعادة الإمبراطورية الرومانية كوضع مثالي، ولا حتى بانهيار إمبراطورية شارلمان. فقد تسلم أباطرة الألمان في القرن العاشر من دولة الفرنج الغربية تراث الإمبراطورية، ثم عادت الإمبراطورية التى أسسها أوتو الأول Otto 1st لتعرف باسم الامبراطورية الرومانية المقدسة Holy Roman Empire.

وقد خلقت إمبراطورية شارلمان Charlemagne مشكلة أخرى وهى التنازع ما بين الكنيسة والدولة حول أيهما تعتبر تمثل ظل الله على الأرض. فقد كانت قضية التفويض الإلهي وهل هو للبابا أم للإمبراطور وأيهما يتبع الآخر من تراث إمبراطورية شارلمان. وقد أساءت هذه القضية إلى العلاقة بين الكنيسة والدولة لعدة قرون عبر العصور الوسطى.

وقد بدأت إدعاءات البابا بأن له سلطة حكم دنيوية عندما منح بابين Pepin إقطاعيات كبيرة من الأرض للكنيسة في إيطاليا بل وللبابا شخصياً وذلك في ٧٥٦م. وقد طالب البابا بحقوق معينة من الحكام الوطنيين في العصور الوسطى باعتباره الحاكم الزمني والروحي ويجب أيضاً أن نحسب لشارلمان الدفعة الكبيرة التى أعطاها للثقافة والحضارة والتي كانت علامة مميزة لإمبراطوريته. فقد كانت فترة حكمه بمثابة الضوء المبهر المضيء في وسط الظلمة الثقافية التي سادت في العصور الوسطى في أماكن أخرى من غرب أوروبا. ولا يستطيع المرء إلا أن يُعجب بالدور الذى قام به شارلمان ومملكته فى تاريخ الكنيسة والدولة في غرب أوروبا كلها.

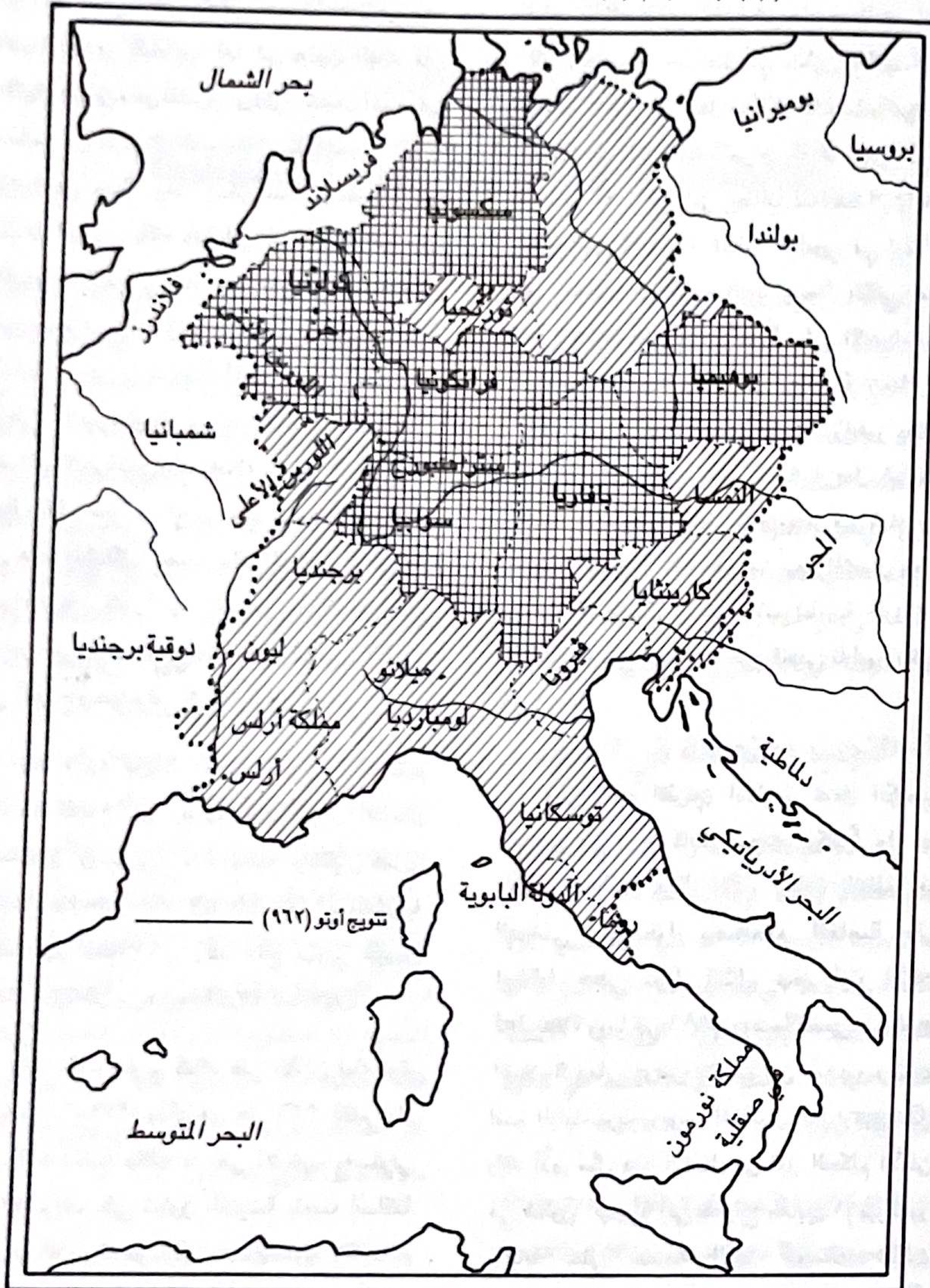
## ثالثا: إحياء الإمبراطورية الرومانية في القرن العاشر

اختفت الإمبراطورية التى أنشأها شارلمان، لكن بقى الحلم المثالى بإنشاء إمبراطورية سياسية تسود العالم كله، هذا الحلم الذى ورثته أوروبا الغربية من روما. ولم يكن لهذا الحلم أن يتحقق مرة أخرى على يد الفرنج Franks ولكنه كان سيتحقق في القسم الشرقي من إمبراطورية شارلمان، والذي كان من نصيب ابنه لويس الألمانى Louis the German في ٨٤٣م. ويجب النظر باعتبار إلى قيام ونمو وأهمية هذا الكيان الجديد الذى قام ليطالب بالنفوذ الذى كان لروما في العصر الإمبراطوري في الغرب.

ظل توحيد ألمانيا دائمًا أصعب في تحقيقه من توحيد فرنسا. فإن الجغرافيا الطبيعية لفرنسا توفر لها الحدود الطبيعية المتمثلة في البحر المتوسط والأطلنطي وجبال بيريه والألب. ولم تواجه مشاكل إلا من ناحية نهر الراين لأنها لم تتمكن أبداً



### امبراطورية أوتو الاكبر وخلفاؤه (٩٦٢-٩٧٣)




الإمبراطورية تحت أوتو (٩٣٦-٩٣٧) — مناطق ضمها أوتو

من اعتباره من الحدود الطبيعية لفرنسا. إلا أن نفس هذه الجغرافيا تعمل ضد الوحدة في ألمانيا لأن الأنهار في ألمانيا تتدفق نحو الشمال إلى بحر الشمال وبحر البلطيق، أما في جنوب البلاد فإن الأنهار تتدفق نحو الشرق. ويتكون شمال ألمانيا في معظمه من السهول المنبسطة، بينما جنوب ألمانيا عبارة عن جبال. وهذا يخلق مصالح متنافرة بين الشعب الواحد. بالإضافة إلى ذلك تأتي الانقسامات القبلية التقليدية و تتحد مع نظام دويلات الإقطاع الذى ساد في وقت لاحق، لكى يؤدي إلى لامركزية السلطة. وبعد أن توحدت ألمانيا إسمياً تحت حكم أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة، لم تتوافق مصالح الإمبراطور واهتماماته بشئون الكنيسة غير جبال الألب مع مصالح ورغبات شعبه. لكن بالرغم من هذه المشاكل، أصبح ذلك الجزء الشرقي من إمبراطورية شارلمان القديمة مركزاً للنفوذ الإمبريالي والذى كان حكراً في وقت من الأوقات على الفرنج وحدهم في كل الغرب.

وقد واجه دوقات ألمانيا القبليين احتياجهم للاتحاد للدفاع عن وطنهم ضد رجال الشمال والسلافيين والمجريين Magyars باختيار هنرى الصياد Henry the Fowler، دوق ساكسونيا حاكماً لهم سنة٩١٩م. ولقد دفع هنري جيوش الشماليين وتمكن من هزيمة الغزاة السلافيين.

ولقد خلف هنري كملك على الألمان ابنه أوتو Otto (٩١٢-٩٧٣) وذلك في عام ٩٣٦. أقام أوتو من دوقات ألمانيا وكلاء له على الارض، واستولى على الإشراف على شئون الكنيسة بتعينه أساقفة ورؤساء للأديرة من أتباعه للإعتناء بالمصالح الكنسية في ألمانيا، ولو أن أوتو كان مستعداً أن يقصر مجهوداته على ألمانيا وحدها، لاستطاع أن يقيم دولة ملكية مركزية على درجة كبيرة من القوة، مثلما فعل ملوك انجلترا وفرنسا وأسبانيا مع الوقت. ولكنه تطلع بشغف إلى ما يحدث عبر جبال الألب، وأصبح متداخلاً في شئون الكنيسة في إيطاليا الأمر الذى جعل مشاكل الكنيسة والدولة في إيطاليا تستنزف وباستمرار ولعدة قرون الموارد الألمانية. فقد ذهب إلى إيطاليا لمساعدة البابا ضد حاكم قوي قام يهدد النفوذ البابوي في إيطاليا. وفى مقابل ذلك توجه البابا يوحنا الثاني عشر Pope John 12th إمبراطوراً على الإمبراطورية الرومانية المقدسة Holy Roman Empire في ٩٦٢م. ومرة أخرى أصبح هناك إمبراطور يطالب بالسيادة على شعوب أوربا مثلما فعل شارلمان Charlemagne والأباطرة الرومان من قبله. وقد توحدت كل أوربا الوسطى من بحر الشمال وحتى البحر الأدرياتيكي تحت الإمبراطورية الرومانية الألمانية، والتي أستمرت حتى قضى نابليون عليها في ١٨٠٦م.

وفي أثناء القرنين التاليين، شغل الكرسي البابوي في روما قادة ضعفاء، وكثيراً ما عبر الأباطرة الألمان جبال الألب لإعادة النظام بعد الفوضى وليبسطوا مصالحهم الخاصة على إيطاليا. فعلى سبيل المثال، دخل أوتو الثالث Otto 3rd روما في ٩٩٦م، وبعدما قضى على تمرد النبلاء الرومان، فرض انتخاب ابن عمه برونو تحت اسم البابا جريجوريوس الخامس Gregory 5th. ولقد أدى مثل هذا التدخل من قبل الحكام الألمان في شئون البابوية إلى صراع ما بين الإمبراطور والبابا حتى حسمه البابا أنوسنت الثالث Innocent 3rd بهزيمة الإمبراطور وإذلاله منهياً بذلك التدخل الألمانى في إيطاليا.



المد والجزر في العلاقات ما بين الكنيسة والدولة ٨٠٠-١٠٥٤

*الفصل العشرون*

# النهضة والانشقاق في الكنيسة

بالرغم من أن الكنيسة في الغرب كانت تحيا في ظل الإمبراطورية الرومانية المقدسة خلال الجزء الأخير من الفترة من ٨٠٠ وحتى ١٠٥٤، إلا أنها اختبرت تجدداً داخلياً وفر لها القوة على التعامل مع تدخلات السلطة الإمبراطورية. أما الكنيسة في الشرق في هذه الفترة فقد أدركت الفروقات التي أصبحت حقيقية بين أحوالها وأحوال الكنيسة في الغرب حتى إن هذه الفترة بانشقاقها مما أدّى لخلق الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية في الشرق.

## ١- التجديد والنهضة في الغرب

شهدت الكنيسة في الغرب مجهودات أدّت الى تجديد طاقتها وقوتها، ومع أن هذا التجديد لم يكن كله تجديداً للروح، إلا أنه نتج عنه تجديد قوة الكنيسة وساعدها في صراعها مع الدولة التى كانت تمثلها عندئذ الإمبراطورية الرومانية الألمانية المقدسة. وهناك عوامل كثيرة ساهمت في تدعيم نفوذ البابا وقوته.

أ- وثائق تؤيد وتدعم حقوق البابوية Papacy

أصبحت وثيقة منحة قسطنطين Donation of Constantine (انظر فصل ١٨) الأساس القانوني لملكية البابا للأراضي. وكانت أضخم منحة من الأرض، أُستخدمت هذه الوثيقة لتبريرها، هى تلك التى وهبها بابين Pepin في ٧٥٦. وفي عام ٨٦٥، أظهر البابا نيقولاس الأول Nicholas 1st والذى جلس على كرسى البابوية من ٨٥٨-٨٦٧، مجموعة من المراسيم التى أصدرها حكام مختلفون لروما. وعُرفت هذه المجموعة باسم "المراسيم المزيفة" False Decretals ، أو مراسيم "إيزيدور غير القانونية" Pseudo-Isidorian Decretals وقد تضمنت هذه الوثيقة العجيبة وثيقة "منحة قسطنطين" الحقيقية ثم مجموعة أخرى من المراسيم والقرارات المزيفة أصدرها بابوات روما من وقت إكليمندس Clement أسقف روما، وبعض نصوص قرارات مجامع الكنيسة العظمى. وقد ارتبطت هذه المجموعة باسم ايزيدور من سيفيل Isidore of Seville(٥٦٠-٦٣٦ تقريبا)، الذى كان رأساً لكنيسة أسبانيا في الجزء الأول من القرن السابع. ولا نستطيع الجزم حول شخصية من كتب هذه الوثائق، لكنه من المؤكد أنها لعبت دوراً هاماً في مطالبة بابا روما بالسيادة على باقي الكنائس من منتصف القرن التاسع.

وكان أول استخدام لوثيقة منحة قسطنطين فى القرن الثامن، حيث استخدمت لتدعيم مطالبات البابوات بملكية الأراضي في إيطاليا، لكن

"المراسيم" أستخدمت لتدعيم نفوذ البابا في الكنيسة نفسها، وكانت تلك "المراسيم" تؤيد سيادة البابا على غيره من القيادات الكنسية، بل وأعطت كل أسقف الحق في اللجوء المباشر إلى البابا دون الرجوع إلى رئيس الأساقفة التابع له. وأيدت أيضاً حق الكنيسة في أن تتحرر من تحكم السلطات الزمنية. وإن كان الاحتمال ضئيلاً أن يكون أحد البابوات هو الذى قام بتزوير هذه الوثيقة بنفسه، أى أن الكثيرين منهم استخدموا هذه المجموعة من الوثائق لتدعيم مطالبهم بالمزيد من النفوذ والسلطان داخل الكنيسة. وقد دعمت وثيقة ثالثة تعرف باسم "مرسوم جريجوريوس السابع" Dictatus of Gregory 7th مثل هذه الادعاءات في وقت لاحق.

### ب- تحول اسكندنافيا للمسيحية

تدعمت قوة ونفوذ البابا في هذه الحقبة بقبول شعب اسكندنافيا Scandinavia للإنجيل. ويستحق أنسكار Anskar (٨٠١-٦٥)، وهو من مواطني الفلاندرز، معظم الفضل في تحقيق ذلك. فعندما طلب هيرالد Harald ملك الدانمارك أحد المرسلين في ٨٢٦، شعر أنسكار بدافع ليلبى هذا النداء وكرس باقى حياته للجهود التبشيرية Mission في شمال أوروبا. ولم يتم ربح الدانمارك بالكامل للمسيح إلا في القرن الحادي عشر، في أيام كانوت Canute وتثبتت المسيحية في النرويج حوالى عام ١٠٠٠، ونحو نفس الوقت صارت المسيحية ديانة الدولة الرسمية في كل من السويد وأيسلندا. ولقد أثمر العمل الذى بدأه أنسكار[١] نحو سنة ١٠٠٠ ودعم ثمرة قوة ونفوذ روما في شمال أوروبا.

### ج- عقيدة القداس الإلهى

ثار الجدل حول طبيعة حلول المسيح في التناول المقدس في الكنيسة في الغرب في القرن التاسع. وكان قبول فكرة أن العشاء الربانى Lord's Supper ذبيحة متكررة يقدمها الكاهن، إضافة إلى قوة وسلطان البابوية لأن البابا يرأس التنظيم الرياسي للإكليروس الذين كان لهم ودون غيرهم السلطان لإجراء هذه المعجزة في القداس. ونحو عام ٨٣١، ابتدأ باسشاسيوس رادبرتوس Paschasius Radbertus (٧٨٥-٨٦٠ تقريباً)، الذى كان رئيساً لدير كوربى بالقرب من مدينة أميَنز، يُعلم أنه بواسطة معجزه إلهية تتحول مادة الخبز والخمر لتصبح فعلياً جسد المسيح ودمه. وإن كان لم يسم هذا التحول باسمه اللاهوتي التحول الكامل Transubstantiation إلا أن مؤدي تعليمه كان يصل إلى نفس النتيجة. وقد كتب هذه النظرية في كتاب بعنوان "عن جسد الرب ودمه"[٢] Of the Body and Blood of the Lord في سنة ٨٣١ وكان جدير بفكرة مثل هذه أن تدعم نفوذ الكاهن وبالتالى من يرأسونه في الترتيب الكهنوتي الهرمي إلى أن نصل إلى البابا نفسه. هذا مع العلم أن الكنيسة الكاثوليكية لم تقبل مبدأ التحول الكامل بصفة رسمية حتى سنه ١٢١٥، ولم تصغ تعريفه الكامل إلا في مجمع ترنت Council of Trent في سنة ١٥٤٥.

### د- الإصلاح الرهبانى

ساهم الإصلاح الرهباني الذي قامت به الأديرة الكلانية Monastery of Cluny في القرنين العاشر والحادى عشر بدور عظيم في تدعيم سيادة البابوية. فمع حلول القرن العاشر كانت الأديرة قد أصبحت غنية جداً واستشرى فيها الفساد وكانت في أشد الإحتياج للإصلاح. فقد استبدلت القيم المثالية عن الخدمة والتضحية بقيم





أخرى تتركز حول تحقيق الخلاص للفرد وضمان الحياة المريحة في كنف أحد الأديرة الثرية. بل إن البابوية ذاتها تعرضت لفترة من الاضمحلال الخطير ما بين زمن نيقولاس الأول Nicholas 1st وليو التاسع Leo 9th وحركة الإصلاح التى بدأت في كلانى Cluny كانت الأولى بين حركات إصلاحية متعددة تلاحقت الواحدة بعد الأخرى لإصلاح نظام الرهبنة الكاثوليكى وكان لها آثار بعيدة المدى.

كانت قصة تأسيس الدير في كلانى كما يأتى: في سنة ٩٠٩، أصدر ويليام دوق اكويتان Duke William of Aquitaine تكليفاً إلى برنو[٣] Berno، الذى كان له سجل حافل كرئيس دير، لكى يؤسس ديراً جديداً في كلاني في شرق فرنسا.[٤] وكان مرسوم التكليف يضمن أن يظل هذا الدير بعيداً عن الإشراف الكنسي أو المدني على أن يمارس نوعاً من الحكم الذاتي تحت حماية البابا نفسه. كان برنو الذى رأس هذا الدير من ٩١٠-٩٢٦ وبعده أودو Odo الذى رأسه من ٩٢٧-٩٤٤ كان كل منهما رجلاً ذا أخلاق متميزة. وقد قاما بأعمالهما بمهارة فائقة حتى إن باقى الأديرة من حولهم اقتبست النظام الذى وضعاه. وأعادت تنظيم شئونها على نفس الأسس الإدارية المتبعة في دير كلاني.

في ظل نظام الرهبنة Monasticism القديم، كان لكل دير رئيسه المستقل تماماً حتى عن باقى الأديرة التي تتبع نفس النظام. إلا ان رئيس دير كلانى قام بتعيين المشرفين على الأديرة الجديدة التى أسسها هو أو غيره وجعلهم تحت إشرافه. وقد خلق هذا الابتكار نظاماً جديداً له قيادة مركزية تحت رأس واحد، وهو رئيس دير كلاني الذى عمل بدوره في تناسق تام مع البابوية. ومع حلول القرن الثانى عشر كان يوجد أكثر من ألف ومائة دير تحت قيادة وإشراف دير كلاني.

وقد نادى قادة دير كلاني بإصلاح حياة الإكليروس، فقاوموا الممارسة الشائعة ببيع وشراء المناصب الكنسية بالمال، ومحاباة الأقارب في التعينات للوظائف الهامة. والمبدأ الثالث الذى تمسكوا به كان الحفاظ على العفة والطهارة Celibacy، فلم يكن مسموحاً لرجال الإكليروس لا أن يتزوجوا ولا أن يتخذوا محظيات وذلك حتى ينصرف كل انتباههم إلى شئون الكنيسة دون غيرها. وقد أصر هؤلاء الرهبان أيضاً على تحرر الكنيسة من تحكم السلطات المدنية سواء من الملك أو الإمبراطور أو الدوق. وقد طبق هذا النظام بواسطة سلسلة من البابوات الذين سعوا الى إصلاح أوضاع الكنيسة بمساعدة رجال الأديرة التابعة للنظام الكلاني ونالت الحياة النسكية قدراً كبيراً من الاهتمام.

وظهر تاثير حماس الأديرة لأصلاح أوضاعها في مناطق أخرى. فقد أنشأ رجال كلاني مدارس ممتازة تابعة للأديرة، حيث ساعدت هذه المدارس على جعل اللغة اللاتينية أكثر اللغات انتشاراً في العصور الوسطى. وتدين الحركة التى أدت إلى تنظيم الحملات الصليبية Crusades بالكثير للأديرة الكلانية. وأصبحت هذه الأديرة من طلائع المجهودات التبشيرية ونشر الحضارة ومن مراكزها المرموقة. وقد انتهى وضع هذا النظام الرهبانى بصفة رسمية سنة ١٧٩٠م.

### هـ- قيادات مرموقة

كان معظم بابوات الفترة ما بين ٨٠٠-١٠٥٤ إما فاسدين أو عديمي القدرة، إلا أن الكنيسة لم تحرم من عدد من القادة المرموقين الذين ساعدوا على تدعيم قوة ونفوذ البابوية. كان نيقولاس الأول Nicholas 1st من أقدر هؤلاء الرجال، وكان البابا من ٨٥٨-٨٦٧ وقد أصر على سيادة البابا على الكنيسة، سواء في كتاباته أو في ممارساته، وكان يرى أن البابا هو الشخص المسئول عن الحالة الروحية للأمناء من رعيته وله أيضاً السيادة على الحكام المدنيين في الأمور الأدبية والدينية. وكان كثيراً ما يشير إلى مراسيم ايزادورس Pseudo Isidorian Decretals لتدعيم مطالباته.(٥)

وقد مارس نيقولاس الأول نفوذه بنجاح على الأساقفة والحكام المدنيين كما في حالة لوثير الثاني Lothair 2nd ملك اللورين. كان لوثير قد تزوج من تتبرجا لأسباب سياسية أساساً، و لكنه افتتن بامرأة أخرى أسمها والدرادا Waldrada، فهجر زوجته الشرعية، وحصل على الطلاق من تتبرجا Teutberga بأن دعى مجمعاً من الأساقفة الذين أعطوه الطلاق. وقدم كل طرف قضيته أمام نيقولاس وإن كان لوثير قد تزوج والدرادا على أي حال. وفي تصميمه على إخضاع الأساقفة الذين تسرعوا بتأييد الحاكم، أجبر نيقولاس لوثير على سبيل التاديب أن يهجر والدرادا ويُعيد زوجته تتبرجا إلى مكانها الشرعي زوجة له. ونجح نيقولاس أيضاً في الحفاظ على حق الأسقف باللجوء إلى البابا مباشرة. وعندما طرد هنكمار Hincmar رئيس أساقفة ريمز، الأسقف روثارد Rothad أسقف سويسونز من منصبه نقض نيقولاس ذلك القرار وأمره برد روثاد إلى أسقفيته.

وقد حاول نيقولاس أن يفرض وصايته على البطريرك والإمبراطور في الشرق في القسطنطينية. فالإمبراطور ميخائيل Emperor Michael الذى أفسده عمه بارداس Bardas، خلع البطريرك إغناطيوس Ignatius عندما رفض أن يقدم الفريضة المقدسة لبارداس، وعين فوتيوس بدلاً منه عام ٨٥٨. طلب إغناطيوس معونة نيقولاس. فأعلن نيقولاس خلع فوتيوس Photius، فما كان من فوتيوس، إلا أن دعى مجمع الكنيسة الشرقية حيث أتهموا الكنيسة الغربية بالهرطقة لأنهم أضافوا إلى قانون الإيمان أن الروح القدس انبثق من الابن كما من الآب أيضاً.(٦) زرعت الضغائن بين قسمي الكنيسة في الشرق والغرب. ولم ينجح نيقولاس، الذى طالما نجح في ممارسة نفوذه على السلطات المدنية والكنسية في الغرب، في تحقيق نفس الأمر في الشرق.

وما بين ولاية نيقولاس الأول وولاية ليو التاسع Leo 9th، لم يظهر سوى عدد قليل من القادة المرموقين جلسوا على كرسي البابوية. لم يكن هذا بسبب نقص البابوات، حيث أن الكرسي البابوي شغله أكثر من أربعين من البابوات في تلك الفترة. وقد حدثت فضيحة مشهورة في منتصف القرن الحادي عشر. تعرض بندكت التاسع Benedict 9th وهو أحد البابوات غير المستحقين للطرد من روما، وتولى بدلاً منه سيلفستر الثالث Sylvester 3rd. إلا ان بندكت ما لبث أن عاد الى روما حيث اتفق أن يبيع العرش البابوي بمبلغ كبير من المال لشخص، أصبح فيما بعد البابا جريجوريوس السادس Gregory 6th في عام ١٠٤٥. إلا أنه مع توالي الأحداث عاد بندكت ورفض التنازل عن البابوية. فأصبح هناك ثلاثة بابوات يتصارعون





على الكرسي في نفس الوقت ويدعي كل منهم أنه هو صاحب الحق في المنصب. فدعى هنرى الثالث Henry 3rd (١٠١٧-١٠٥٦)، إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، السنودس للاجتماع في سوترى Synod of Sutri في عام ١٠٤٦. وقرر السنودس خلع كل من بندكت Benedict وسيلفستر Sylvester، وأجبر جريجوريوس Gregory على الاستقالة لصالح كلمنت الثانى Clement 2nd. إلا أن كليمنت سرعان ما توفى، وجاء خلفه وهو أيضاً من اختيار هنري ولكنه ما لبث أن مات بعد وقت قصير. فعين هنرى ابن عمه برونو تحت اسم ليو التاسع Leo 9th.

ويمجيء ليو التاسع إلى كرسي البابوية، انتهى عصر البابوات الضعفاء الذى امتد من نيقولاس الأول Nicholas 1st حتى ليو التاسع. وذلك لأن ليو ومن جاءوا من بعده كانوا شخصيات قوية اهتموا بالإصلاحات من نفس نوع ما حدث في الأديرة الكلانية. ويعتبر سنودس سوتري أدنى مستوى وصل إليه نفوذ البابوية في العصور الوسطى. وأثناء تولى البابا نيقولاس الثانى Nicholas 2nd، نجح بمساعدة كل من همبرت Humbert، وهيلدبراند Hildebrand الذى صار فيما بعد البابا جريجورى السابع Gregory 7th نجح في انتزاع حق انتخاب البابا من رعايا الشعب الإيطالي لتصبح عملية تحدث تحت سيطرة مجمع الكرادلة College of Cardinals وذلك منذ عام ١٠٥٩. ومنذ ذلك الحين وحتى وصول البابوية الى ذروة قوتها في عهد انوسنت الثالث Innocent 3rd حدث تقدم ونمو مستمرين في تأثير ونفوذ البابوية في الشئون الأوربية.

أما الكنيسة في الشرق، لم تكن في حال يسمح لها أن تمثل مقاومة أو معارضه فعالة في مواجهه تنامي نفوذ بابا روما على الصعيد الروحي أو الزمني، وذلك لأنها كانت تحت ضغط جهادها لمنع المسلمين من اجتياح الإمبراطورية الشرقية، وقد أضعفتها سيطرة الإمبراطور على شئونها، وأحبطها الجمود في فكرها اللاهوتي الذى استقر بعد ما كتبه يوحنا الدمشقي John of Damascus من مؤلفات عظيمة. أدّى العداء المتنامي بين الكنيستين، والذى كانت له جذوره التاريخية، إلى حدوث انشقاق شبه تام بينهما سنة ١٠٥٤. ويحدوث هذا الانشقاق برزت طائفتان رئيسيتان للمسيحية، ولكنهما لم يكن يجمعهما أى نوع من التنسيق أو الاتفاق أو مجرد الاتصالات الرسمية.

## ٢- جذور الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية

## Greek Orthodox Church

لم تستطع الكنيسة في الشرق أبداً أن تكون مستقلة تماماً كما كانت الكنيسة في الغرب وذلك لانها كانت تحت رقابه الإمبراطور ولأنها أيضاً كان عليها أن تتوافق مع التراث اليوناني والروماني من الحضارة الذى حُفظ في الشرق في الوقت الذى عانى فيه الغرب من الفوضى الثقافية التى تمثلت في العصور المظلمة. ولم تواجه الكنيسة في الغرب أي خصوم سياسيين أقوياء جلسوا على العرش بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية، بل ازدادت قوتها بما واجهته من مشاكل تزامنت مع الانهيار الحضارى المرتبط بسقوط الإمبراطورية.

## أ- الاختلافات والأسباب التي أدّت إلى انفصال الشرق والغرب

عندما نقل قسطنطين Constantine عاصمة ملكه إلى القسطنطينية في ٣٣٠، مهّد الطريق لانفصال الغرب عن الشرق سياسياً وكنسياً في نهاية الامر. وقد رتب ثيودوسيوس Theodosius النظام الإداري لكل من الشرق والغرب ووضعهما تحت اشراف مستقل في سنة ٣٩٥ وبعد سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب، في أواخر القرن الخامس، ترسخ الانفصال وتحقق بشكل كامل. كانت الكنيسة في الشرق تحت وصاية الإمبراطور، في الوقت الذى كان أسقف روما أبعد من أن يوضع تحت الاشراف المباشر للإمبراطور في الشرق وفي غياب السيطرة السياسية الفعالة في الغرب، أصبح البابا قائداً مدنياً إلى جانب كونه القائد الروحي في وقت الأزمات. كاد الأباطرة في الشرق أن يكونوا هم البابوات بينما كان البابوات وكأنهم أباطرة في الغرب. وأدّى هذا الأمر أن يكون لكلا الكنيستين نظرة مختلفة كل الاختلاف فيما يتعلق بالنفوذ الزمني.

وقد اختلفت النظرة الفكرية في الغرب عنها في الشرق. كان الغرب اللاتيني يميل أكثر إلى الاهتمام بالجوانب العملية للسياسة ولم يجد صعوبة كبيرة في صيانة العقيدة القويمة. أما العقل اليوناني في الشرق فكان أكثر اهتماماً بحل المشاكل اللاهوتية في اتجاه فلسفي. وقد ثارت معظم المجادلات اللاهوتية ما بين ٣٢٥ و ٤٥١ في الشرق، ولكن في معظم الحالات لم تثر نفس هذه المشاكل أي صعوبة في الغرب. ومن الاختلافات الأخرى بين الكنيستين موضوع العفة والتبتل. ففي الشرق كان زواج رجال الإكليروس مسموحاً به لكل من تقل رتبته عن الأسقف، بينما في الغرب لم يكن مسموحاً بالزواج للإكليروس على الاطلاق. وقد قامت منازعات في بعض الأحيان حول موضوعات مثل حلق اللحية أو إطلاقها. في الغرب كان مسموحاً للكاهن أن يحلق ذقنه. أما الإكليروس في الشرق فكان لزاماً عليهم اطلاق لحاهم. أيضا نبّر الغرب على استخدام اللاتينية بينما استخدمت الكنائس الشرقية اللغة اليونانية. ولقد أدّت مثل هذه الخلافات في كثير من الأحيان إلى مواقف من سوء الفهم، وإن كانت مثل هذه الأمور تبدو اليوم تافهة أو قليلة الأهمية، إلا أنه كانت لها أهمية عظمى في ذلك الوقت بالنسبة لكل من الكنيستين.

تصادمت الكنيستان في خلافهما حول بعض القضايا اللاهوتية. ففي عام ٨٦٧ اتهم البطريرك فوتيوس Photius البابا نيقولاس الأول Nicholas 1st والكنيسة في الغرب بالهرطقة وذلك لان الغرب قد أضافت العبارة الخاصة بالروح القدس Filioque Clause على صيغة قانون الإيمان النيقوي Nicene Creed التي يستعملها. قبل الغرب انبثاق الروح القدس من الابن أيضاً بينما رفض الشرق هذا الأمر تمام. ثم تلى ذلك سلسلة من المجادلات أفسدت العلاقات مابين الشرق والغرب وزادت العداوة مع كل من هذه المنازعات.

ونحو منتصف القرن الثاني، ظهرت مشكلة تحديد مواعيد الاحتفال بعيد القيامة لتشوه العلاقات بين الكنيسة في الشرق والكنيسة في الغرب (انظر الفصل ٨). ولقد صعّبت اختلافات الرأي حول هذا الموضوع من تحسن العلاقات بين الفريقين.





أما الجدل الذى ثار في الكنيسة الشرقية حول الأيقونات Iconoclastic Controversy في القرن الثامن والقرن التاسع فقد نتج عنه الكثير من المشاعر الأليمة. ففي ٧٢٦ أصدر ليو الثالث Leo 3rd كإمبراطور الشرق أمره بمنع أي سجود أمام الصور أو التماثيل، ثم في ٧٣٠ أمر بإزالة كل هذه الصور Pictures والتماثيل ما عدا الصليب من كل الكنائس وتدميرها وذلك لكي يحد من سلطان ونفوذ الرهبان ولكى يدفع اتهام المسلمين للمسيحيين بالوثنية. واجهت هذه الصحوة العلمانية مقاومة شرسة من رجال الإكليروس والرهبان. وفي الغرب اتخذ البابا بل والإمبراطور شارلمان Charlemagne أيضاً موقفاً مسانداً لاستخدام الرموز المرئية لتوضيح الحقائق الإلهية. زاد هذا التدخل من جهه الغرب في شئون الكنيسة في الغرب الشعور بالعداء بين الكنيستين. واستمرت الكنيسة في الغرب في استخدام الصور والتماثيل لكنها أبقت على الأيقونات التي تصور المسيح في أغلب الأحيان على أنه يُظهر الشعب من نحوها التوقير والاحترام ولكن ليس العبادة التي هى لله وحده.

ولقد قاوم الشعب في الشرق بالأخص محاولات البابا نيقولاس الأول Nicholas 1st في منتصف القرن التاسع للتدخل في اختيار وتعيين البطريرك في الكنيسة في الشرق، وذلك بالرغم من إمكانية تبرير موقفه على أسس أخلاقية. ومع أن نيقولاس لم ينجح في محاولاته، إلا أن هذه المحاولات للتدخل فيما رآه الكثيرون في الشرق أنه من صميم شئونهم الخاصة زاد من نمو المشاعر السيئة بين الكنيستين.

### ب- الانشقاق في عام ١٠٥٤م
### The Schism of 1054

في سنة ١٠٥٤، دار الجدل الأخير حول ما بدا أنه أمر ثانوي. فإن مايكل سيرولاريوس Michael Cerularius، بطريرك القسطنطينية فيما بين ١٠٤٣-١٠٥٩، أدان الكنيسة في الغرب لاستخدامها الخبز غير المخمر (الفطير) في الأفخارستيا. وكان مثل هذا الاستخدام للفطير شائعاً في الغرب منذ القرن التاسع. فأرسل البابا ليو التاسع Leo 9th الكاردنال همبرت Humbert واثنين من القانونيين إلى الشرق لحسم هذا النزاع، إلا أن اختلاف وجهات النظر اتسع واستمرت المناقشات. وفي ١٦ يوليو ١٠٥٤ وضع الوفد الروماني (الكاثوليكي) مرسوماً بحرمان البطريرك وتابعيه على مذبح كاتدرائية القديسة صوفيا.(٧) إلا أن البطريرك لم ييأس، فعقد سنودساً حيث أعلن خروج البابا وتابعيه عن الإيمان القويم ومن ثم قطعه من الكنيسة. كان هذا أول انشقاق كبير Great Schism يحطم وحدة الكنيسة. ومن ذلك الوقت مضت كل من الكنيسة الكاثوليكية الغربية، والكنيسة اليونانية الارثوذكسية (الشرقية) كل في طريقها بعيداً عن الأخرى. وظل حرمهما الواحد للآخر سارياً حتى أبطل في ٧ديسمبر ١٩٦٥، بواسطة البابا بولس السادس والبطريرك أثيناجوراس Athenagoras.

### ج- نتائج الانشقاق

أصبح قيام أي حركة مسكونية صعباً جداً بعد الأحداث الأليمة التي فصلت الكنيسة في الشرق عن الكنيسة في الغرب. وقد استهدفت الحركة المسكونية الحديثة توحيد الكنائس المسيحية ولكنها لم تلق إلا أقل دعم من قبل الكنيسة الكاثوليكية (الغربية ) أو





من قبل الكنيسة اليونانية الارثوذكسية Greek Orthodox Church (الشرقية) فقد كانت الحركة المسكونية بروتستانتية في مجملها حتى وقت قريب. فلم تكن أى من الكنيستين ترضى بقيام كنيسة مسكونية إلا بشروطها، وذلك بالرغم من أن الكنيسة في الشرق رضيت التباحث مع الكنائس البروتستانت حول الوحدة.

ولقد حرم هذا الانفصال الكنيسة في الشرق من التعرض للكثير من المؤثرات الإيجابية التي ساهمت في تقوية وتدعيم الكنيسة في الغرب. قبل قيام المدن ، والأمم، والطبقه الوسطى، الحركات الثقافيه في عصر النهضة، والإصلاح هذه كلها عبرت دون أن تؤثر على الكنيسة في الشرق. لكن الكنيسة في الغرب تعرضت لكل هذه المؤثرات التى جعلتها أقوى، سواء باكتسابها صفات جديدة إيجابية أو حتى بمجهوداتها لمقاومة ما رأته تهديداً لها.

وقد قامت الكنيسة في الشرق، على أى حال، ببعض المجهودات التبشيرية في تلك الحقبة. فقد تم ربح البلغار للمسيحية في ٨٦٤ بقياده بوريس Boris، الذى ملك من ٨٥٢-٨٨٩، وقد اعتنقوا العقيدة السائدة في القسطنطينية ومع أن كيرلس Cyril وميثوديوس Methodius قد ربحا المورافيين Moravians للمسيحية، إلا أن المورافيين خضعوا في نهاية الأمر لسلطان روما بدلاً من القسطنطينية. إلا أن البطريرك لاقي نجاحاً أكبر في مجهودات التبشيرية في روسيا Mission in Russia. حيث قبلت أميرة اسمها أولجا Olga المسيحية سنة ٩٥٥ واستطاعت التأثير على حفيدها فلاديمير Vladimir (٩٥٦-١٠١٥) حتى إنه قبل المسيحية نحو سنة ٩٨٨. ولقد كان هذا الحدث بمثابة بداية لانتصار المسيحية الشرقية في روسيا، ومعظم شرق ووسط أوربا، وقد تبعت بطريرك القسطنطينية.(٨) وكان المجريون Magyars أيضاً قد قبلوا المسيحية.

ولقد ساهم انتشار الإسلام في القرن السابع وفقدان شعوب وبلاد كثيرة استولى عليها المسلمون، والصراع مدة قرنين من الاضطرابات حول موضوع الايقونات، في إضعاف المسيحية في الشرق حتى أصبحت في حالة من العقم والجمود. لم يجد أى تطوير أو تغيير في الطقوس أو سياسات الكنيسة أو فكرها اللاهوتى في تلك الكنيسة حتى عصرنا الحاضر. ومن ثم فقدت تأثيرها على العالم والذى ساهمت فيه الكنيسة في الغرب بقسط وافر. ذلك مع كون الكنيسة في الشرق رائدة في صياغة الإيمان المسيحى القويم في الفترة القديمة من تاريخ الكنيسة.

## اقتراحات للقراءة

*Adeney, Walter F.* The Greek and Eastern Churches. *New York: Scribner, 1908. This is still a useful survey for more detail concrning the history of the church in the East.*

*Benz, Ernest. The Eastern Orthodox Church :* Its Thought and Life. *Chicago: Aldine, 1963,*

*Meyendorff, John.* The Orthodox Church. *New York: Pantheon, 1962.*

*Runciman, Steven.* The Eastern Schism. *Oxford: Clarendon University Press, 1955. This is a scholarly study of the schism of 1054.*

_____ . The Great Church in Captivity. *Cambridge: Cambridge University Press, 1968. Both of Runciman;s books are excellent.*

*Spinka, Matthew.* Christianity in the Balkans. *New York: Archon, 1968.*




سيادة البابوية ١٠٥٤-١٣٠٥

## الفصل الحادي والعشرون

# ذروة نفوذ البابوية

مارست البابوية نفوذاً مدنياً عظيماً ما بين ١٠٥٤-١٣٠٥. فقد تمكن هيلدبراند من أن يخضع إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وكان أنوسنت الثالث قوياً بالدرجة التي مكنته من إجبار حكام الدول الجديدة على فعل ما يريد. ووقفت البابوية أمام الحملات الصليبية الاولى. وقد دعم إنشاء الجامعات والمنهج المدرسي الأسس الفكرية لنفوذ البابوية. وأضاف الإصلاح الرهباني أعداداً وافرة من الرهبان الغيوريين دعموا بخضوعهم الكامل قوة البابا ونفوذه. وعلى الأرجح بلغت البابوية في هذه الفترة درجة من النفوذ المطلق لم تبلغه في أي من مراحلها الأخرى في أوربا العصور الوسطى. إلا أنها سرعان ما كانت ستواجه تحديات الحركات القومية في انجلترا وفرنسا والتعامل مع المجالس المختلفة.

## ١- جريجوريوس السابع يدعم سيادة البابوية

### أ- القوى المدعمة للعرش البابوي

تفرض فترات ولاية جريجوريوس السابع Gregory 7th وأنوسنت الثالث Innocent 3rd نفسها على تاريخ البابوية في العصور الوسطى.

فكلا من الرجلين لم يكن مستعداً لقبول فكرة أن الله قد وهب البابا والحاكم المدني معًا السيادة المشتركة على نفوس وأجساد البشر. فلم يقبل البابا فكرة أنه يستمد سلطته على نفوس البشر من الحاكم المدني الذي وهبه الله السيادة على البلاد، ومن الناحية الأخرى لم يكن الحاكم مستعداً لقبول فكرة أنه يمارس سيادة على أجساد الناس بسبب ما يمنحه له البابا من سلطة كعطية جزيلة منه. ولم يستطع أي من البابوات بعدهما أن يفرض هذا الادعاء الأخير كما استطاع هذان البابوان. أرسي هيلدبراند Hildebrand (١٠٢١-٨٥) الأساس الذي بنى عليه أنوسنت بعد ذلك بفترة طويلة ركيزته في مطالبته بالسلطان الكلي.

وتنقسم أعمال هيلدبراند بطبيعتها إلى فترتين. فقد كان هو القوة التي وقفت مساندة العرش البابوي لمدة تزيد عن عشرين عاماً، قبل أن يتولى المنصب بنفسه سنة ١٠٧٣، ومن ١٠٧٣ وحتى وفاته سنه ١٠٨٥ مارس السلطات التي حصل عليها للبابوات الذين جاءوا قبله بينما ظل هو المؤمن المتواضع للبابوية. فقد تمكن من التأثير على صياغة السياسات البابوية تحت ولايه خمسة بابوات قبل أن يصير هو نفسه البابا.

كان لهذا الرجل الضعيف البنية خفيض الصوت حماس أفضل المصلحين الذين عملوا في الأديرة الكلانية فقد تعاطف مع برنامجهم للإصلاح وأيضاً عارض هيلدبراند Hildebrand السيمفونية (التجارة في المناصب) وزواج الإكليروس وتعيين العلمانيين في المناصب الدينية Investiture.

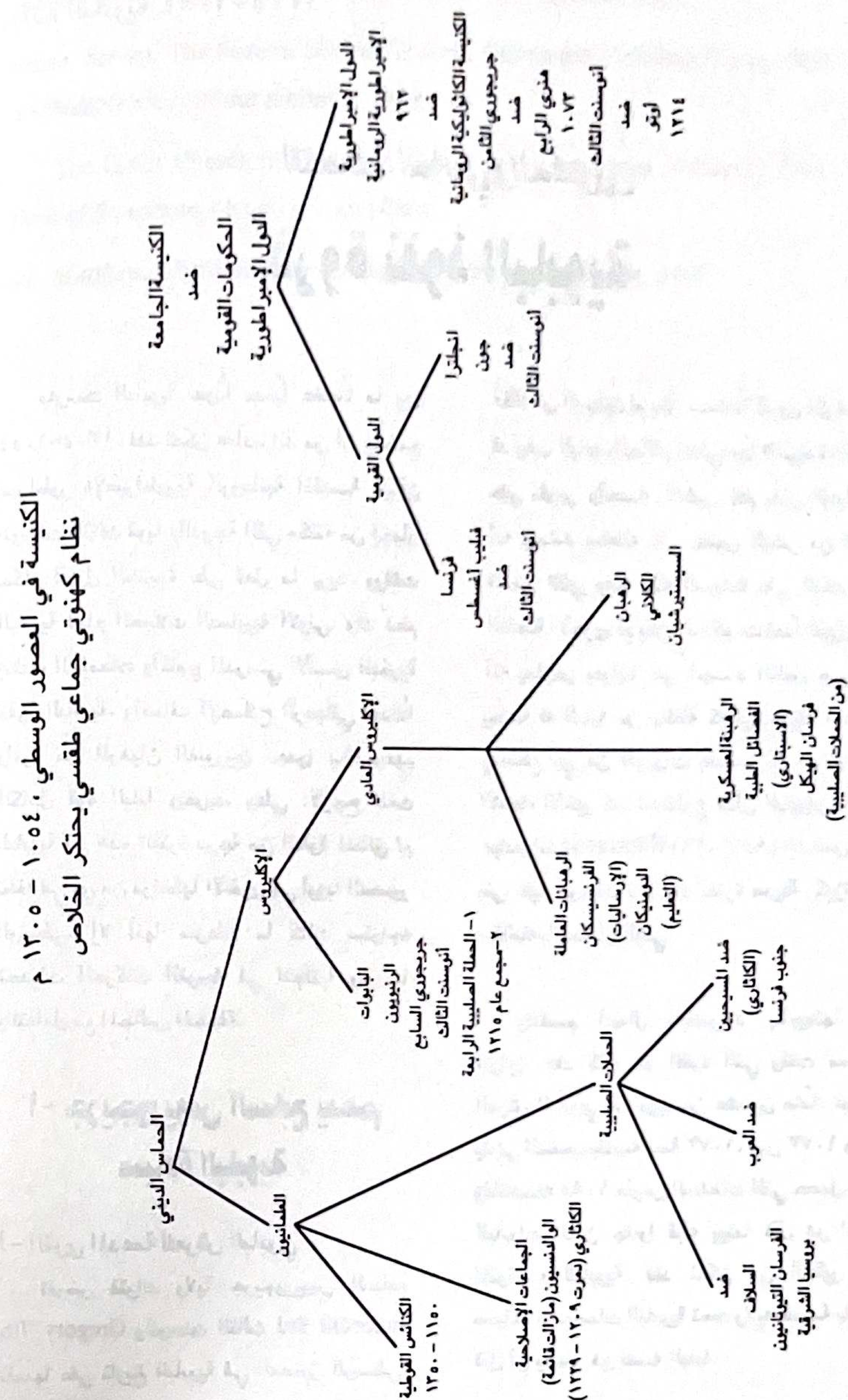
أعطى ليو التاسع Leo 9th الفرصة الكاملة لهيلدبراند ليكون القوة التي تقف وراء الكرسي البابوي وذلك باختياره له ولبعض رجال صالحين آخرين من خارج روما لشغل مناصب هامة في البلاط البابوي. نحو بداية القرن الرابع خصصت بعض الكنائس في روما وما جاورها لإجراء المعمودية فيها دون غيرها. وأصبح رعاة هذه الكنائس يحملون لقب "الكاردينال الكاهن" وكان قد تم تقسيم روما في وقت سابق إلى مناطق لتنظيم أعمال الخير، وكان كهنة هذه المناطق معروفين بلقب "الكاردينال الشماس". أما الأساقفة فيما حول روما كانوا يلقبون "الكاردينال الأسقف" وأصبح هؤلاء الرجال نواة لما صار مجلساً للكرادلة College of Cardinals. عُين هيلدبراند مسئولاً عن الشئون المالية البابوية وهكذا أصبح كاردينالاً.

وقد تمتع هيلدبراند بسلطان أعظم في عهد نيقولاس الثانى Nicholas 2nd (١٠٥٨-١٠٦١)، عندما ساعد على تحرير قانون كنسي انتزع حق تحرير البابا من أيدي ممثلي شعب أسقفية روما. فإن أسقف روما (البابا) كان يتم انتخابه من زمن بعيد بالانتخاب الشعبي ، بالرغم من تدخل الأباطرة في الانتخابات في معظم الأحيان، وفي أيام هيلدبراند كانت أرستقراطية روما تمارس نوعاً من الوصاية الفاسدة على الإنتخابات. وقد غير البابا نيقولاس بمشورة همبرت Humbert وهيلدبراند، طريقة انتخاب البابا، وذلك في مجمع لاتيران Lateran Council في ١٠٥٩، حتى لا يكون للأرستقراطية الرومانية أو الاباطرة الألمان أي تأثير على هذه العملية. فعندما يتوفى البابا، يجتمع الكرادلة الأساقفة للبحث عن خليفة له. ويتباحثون مع الكرادلة الشمامسة. وعندئذ فقط يسمح للشعب في أسقفية روما بالتصويت على انتخاب مرشح الكرادلة. كان مثل هذا النظام من الوجهة العملية يضع عملية انتخاب البابا تحت سيطرة مجلس الكرادلة. وكان يمكن اختيار أى رجل من الإكليروس من أى مكان من الكنيسة الرومانية الكاثوليكية لمنصب البابا وفي حالة حدوث أي اضطرابات أو شغب، يمكن إجراء الانتخاب خارج روما نفسها. وكان البابا الجديد يتسلم منصبه بعد انتخابه مباشرة. وقد وضع هذا التعديل في إجراءات الانتخاب لاختيار البابا في نطاق سلطة ونفوذ الإكليروس بعيداً عن سيطرة العلمانيين من الشعب.[1] ولا ينبغي أن نغفل أهمية هذا التشريع في تعاظم نفوذ البابوية.

ب – البابا جريجوريوس السابع

أُنتخب هيلدبراند بالإجماع ليصبح البابا جريجوريوس السابع Gregory 7th في ١٠٧٣، وذلك بهتاف جميع الشعب قائلين "نريد هيلدبراند أسقفاً". أصبح الآن في وضع يتيح له العمل بشكل مباشر لتحقيق تصوره المثالي عن نظام يعتمد على السلطان الإلهي يمارس فيه البابا سلطات روحية وزمنية كممثل ووكيل الله على الأرض. لم يكن يرضى بوجود أي سيطرة من قبل السلطة المدنية على الكنيسة، بل ينبغي أن تسيطر الكنيسة على السلطات المدنية. لهذا السبب فقد كرس نفسة لإلغاء





نظام تعيين العلمانيين في المناصب الرسمية. وهو النظام الذي كان يؤدي إلى تسليم قادة الإكليروس رموز مناصبهم الكنسية من السادة من الإقطاعيين التابعين لهم، والذين كانوا عادة من العلمانيين. وكان أيضاً مهتماً بإلغاء السيمونية أي الإتجار بالمناصب وبفرض العزوبية على كل رجال الأكليروس كأفضل وسيلة لإصلاح الكنيسة.

وترى نظرية سيادة البابوية في إطار الكنيسة الكاثوليكية على الحكام المدنيين في صيغتها المتكاملة في وثيقة تسمى "المرسوم البابوي" Dictatus Papae وجدت ضمن رسائل هيلدبراند بعد وفاته. وحتى وإن كان الكاردينال ديوسددت Deusdedit هو كاتبها، حيث أنها كثيراً ما تنسب إليه، إلا أن تلك الوثيقة تعبر تعبيراً واضحاً عن الفكر المثالي في رأي جريجوري عن البابوية. فقد ادعت هذه الوثيقة بكل قوة السياسة المطلقة للبابوية كما أوضحنا. وحسمت بكل حزم أن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية مدينة في تأسيسها "لله وحده" أنه رئيسها دون غيره "الوحيد الذي يلقب بالعالمية" وأن له السلطة الكاملة فوق كل الأساقفة، وأنه وحده الذي يجب أن يقبل قدميه كل الأمراء "وأنه يستطيع خلع الأباطرة" وهو الذي يمكن أن يعفي ويحل رعايا أي حاكم شرير من "ولائهم له". أما ذروة ادعاء البابوية بسيادتها المطلقة فقد وجدت في المادة الثانية والعشرين من هذه الوثيقة Dictatus حيث تقول إن الكنيسة الكاثوليكية معصومة من الخطأ، وأنه بحسب الكتاب المقدس، أنها لن تخطيء أبداً.(٢) كان جريجوريوس Gregory على أتم استعداد لفرض هذه الادعاءات لتصبح البابوية متفوقة روحياً ودنيوياً. فقد أصر على أن بلدان مثل انجلترا والمجر وروسيا وأسبانيا قد وُضعت تحت سلطان القديس بطرس وخلفائه.

في الوقت الذي استمر جريجوري يقاوم بنجاح فكرة زواج الإكليروس والإتجار بالمناصب، أظهرت بنود وثيقة "المرسوم البابوي" أن مشكلته الكبرى ستكون في إخضاع الحكام المدنيين تحت سلطانه. كان صراعه الأكبر أثناء ولايته هو الصراع حول موضوع شغل العلمانيين للمناصب Investiture ، وهو ما ورثه عن سلفه، البابا الكساندر الثاني Alexander 2nd. خلا منصب أسقف ميلانو وهو منصب هام، واختار هنري الرابع Henry 4th، إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة رجلاً يدعى جودفري Godfrey ليشغل هذا المنصب الرفيع. لكن الهيئة الانتخابية لهذه الأسقفية كانت قد اختارت شخصاً آخر يُدعى أوتو Atto. اعترف الكسندر الثاني بتعيين أوتو، وأصدر قراره قبل أن يموت مباشرة بحرم جودفري وطرده من الكنيسة. سُر خلفه هيلدبراند Hildebrand بأن يتصدى لهذه المعركة مع هنري الرابع. وأصدر السنودس الروماني الكاثوليكي في سنة ١٠٧٥ قراراً يمنع أي رجل من رجال الكنيسة المعينين للمناصب العليا من أن يتسلم منصبه الكنسي من أي شخص علماني.

كان هنري هو الآخر مستعداً للصراع ضد نفوذ البابوية الروحي، ولكنه لم يكن قد تدرب على ضبط النفس. وقد دفعته هذه النقيصة إلى اتخاذ اتجاه غير حكيم في ادارة صراعه مع البابا. وسرعان ما وجد نفسه يواجه تمرد الأمراء الإقطاعيين من ساكسونيا الذين رفضوا محاولاته لتكوين دولة مركزية في ألمانيا. وبعد أن عقد سلاماً مؤقتاً مع نبلاء ساكسونيا، دعا هنري إلى انعقاد







يظهر هذا الرسم التوضيحي من مذكرات أوتو من فوينذنج، الصراع مابين هنري الرابع وجريجوري السابع حول شغل العلمانيين للمناصب العليا. فمن اليسار إلى اليمين يظهر هنري الرابع ثم ويبرت البابا الذي أقامه هنري ضداً لجريجوري، ثم جريجوري السابع وهو يطرد بقوة السيف.

مجمع للكنيسة في ورمز Worms في يناير ١٠٧٦، وذلك في الوقت الذى كان البابا قد حرم خمسة من مستشاري الإمبراطور في سنة ١٠٧٥ بسبب تجارتهم في المناصب. رفض المجمع السلطان البابوي،(٣) فقابل البابا جريجوريوس هذا الموقف العدائي برفض سلطانه بأن قام بحرم هنري Henry وإعفاء رعاياه من الالتزام بولائهم له كإمبراطور.(٤) كان هذا أشد إجراء اتخذه أى بابا في منازعة مع سلطة مدنية، لكن أمل جريجوريوس في النجاح كان معقوداً على ضعف هنري في وطنه.

وفي خريف عام ١٠٧٦، أعلن النبلاء الساكسون وأعداء هنري الآخرون أنه مالم يحصل هنري على عفو من البابا ينقض حكم حرمانه، فإنهم سوف يخلعونه عن عرشه. وقاموا أيضاً بدعوة البابا جريجوريوس Gregory لحضور سنودس كان سوف ينعقد في أوجسبرج في الشتاء. أحس هنري بالخطر الذي يتهدده بفقدان عرشه وإذلاله أمام شعبه لو أن البابا جريجوريوس قدم إلى أوجسبرج، لذلك قرر أن يذعن للبابا ويستسلم له. فأخذ زوجته وابنه الرضيع وعبر الألب على رجاء مقابلة جريجوريوس في كانوسا Canossa وذلك في شتاء ١٠٧٧م. كانت الرحلة شاقة، ولكن عند وصول هنري إلى كانوسا تركه جريجوريوس يقف حافي القدمين في الثلج خارج بوابات القصر لثلاثة أيام متتالية قبل أن يسمح له بالدخول إلى حضرته. ثم أعفاه من حكم الحرمان الذي كان قد أصدره في حقه.

وبالرغم من أن البابا حطم كبرياء أعظم ملك مسيحي ، إلا أن هنري حقق الكثير بخضوعه للبابا، فقد منع هذا جريجوري من القدوم إلى الإجتماع الذي كان المقرر عقده في أوجسبورج وهكذا هزم أعداءه من الألمان. واستمر الصراع طوال ولاية جريجوريوس. حرم جريجوريوس هنري مرة أخرى، في وقت لاحق، وخلعه من عرشه. لكن هنري بتأييد ألمانيا له غزا إيطاليا واختار ويبرت ليعينه بابا جديد. وبعد أن تُوِّجَهُ ويبرت ملكًا مرة أخرى غادر إيطاليا. وعندئذ طلب جريجوريوس من النورمان في

جنوب إيطاليا معاونته، فجاءوا لمعاونته ولكنهم عملوا السلب والنهب في ما حول روما ، وأُجبر جريجوريوس على الهرب إلى ساليرنو، وهناك توفى هذا البابا العظيم وهو منفي، وذلك بحسب كلماته هو عن نفسه بسبب "أنه أحب البر وأبغض الإثم".

استمرت المعارك حول تعيين العلمانيين للمناصب العليا Investiture حتى تم الوصول الى حل وسط وتمت صياغته في اتفاقية ورمز Concordat of Worms التي عقدت بين هنري الخامس Henry 5th والبابا كاليكتوس الثاني Calixtus 2nd، في سنة ١١٢٢. كان الانتخاب الحر لرؤساء الكنيسة يتم بواسطة رجال الكنيسة أنفسهم في حضور الملك. وكانت رموز السلطة الروحية الخاتم وعصا الرعاية تُعطى لموظفي الكنيسة بواسطة البابا أومن ينوب عنه، بينما كان على موظفي الكنيسة أن يقسموا بالولاء للحاكم المدني وهو غالبًا الأمير الإقطاعي التابع له ذلك الموظف. وكانت الكنيسة الكاثوليكية هى الرابحة في هذا الاتفاق بالرغم من الحل الوسط الذي تم الوصول إليه،[٥] وذلك لأنها على الاقل قد أقرت مبدأ مساواتها بالسلطة المدنية وحررت نفسها من السيطرة الإمبراطورية في إيطاليا. بالإضافة إلى ذلك، فان جريجوريوس بفرضه العزوبية Celibacy على رجال الإكليروس بعد قرار منع زواجهم مطلقًا في ١٠٧٤، منع انحدار الإكليروس ليصبحوا طبقة تورث وظائفها بل جعلهم طبقة من الرجال المخلصين لقائدهم الروحي الذي هو البابا نفسه. وقد حل هذا الاتفاق قضية شغل العلمانيين للمناصب العليا. ومع أن جريجوريوس مات منفيًا، إلا أنه قد أتم عمله، وجاء الباباوات من بعده يبنون على الأسس التى وضعها هو.

## ٢- السيادة البابوية فى عهد أنوسنت الثالث

تم انتخاب أنوسنت الثالث Innocent 3rd (١١٦١-١٢١٦) ليصبح البابا عام ١١٩٨، فوصلت البابوية إلى ذروتها فى العصور الوسطى. كان أنوسنت ابنًا لأحد نبلاء الرومان وتلقى تعليمًا راقيًا في اللاهوت فى باريس ، وفى القانون في بولونيا. وكان تواضعه الشخصي وتقواه متوازنان مع حماسة ورجاحة فكرة وإحساسه القوي بالقوة الأدبية التى تمثلها البابوية.

آمن أنوسنت أنه كان "وكيل المسيح" الذى له السلطة العليا على الأرض. واعتقد أن الملوك والأمراء يستمدون سلطاتهم منه، لذا فإنه يستطيع أن يحرمهم أو يخلعهم من مناصبهم، أو أن يوقع الحرم على أى منهم مما يؤدي إلى منع الإكليروس من تأدية أي من خدمات الكنيسة اللازمة في مجال دولته. لقد آمن أن الله قد أعطى خليفة بطرس الرسول مهمة "حكم العالم كله" إلى جانب إدارة الكنيسة. فوضع البابا أعلى من كل البشر لكنه يلى الله. ويجب أن ترتبط الدولة بالكنيسة كما يرتبط القمر بالشمس والدولة يجب أن تدور فى فلك مجد البابوية وتستمد نفوذها من البابا، كما يستمد القمر ضياءه من الشمس.[٦] لذلك فليس غريبًا أن أنوسنت وقد تملكه مثل هذا الإدراك القوي لسلطته مع وجود كل نفوذ وامتيازات البابوية تحت تصرفه استطاع أن يطوي حكام الدول الناشئة فى انجلترا وفرنسا تحت لواء سيطرته وأن يهزم إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

وقد تدعم موقف البابوية Papacy أكثر من





ذلك بنشر طبعة معتمدة من قوانين الكنيسة الكاثوليكية نحو عام ١١٤٠ بواسطة جراتيان Gratian، وهو راهب معلم من بولونيا. وهذه الطبعة المعروفة باسم Decretum وفرت نصًا كاملاً لكافة أحكام القوانين التي يمكن أن تستخدم في كل محاكم الكنيسة الرومانية الكاثوليكية. وينبغى أن نتذكر أن القانون الروماني، الذي كان الأساس الذي وضعت على أساسه قوانين الكنيسة Canon Law كان يؤيده فكرة مركزية السلطة وتركيزها فى فرد واحد. وقد استفاد البابا الى أقصى حد من هذا النظام ليدعم ويروج لسلطانه ونفوذه وليجد من يحتاجهم من الإداريين القانونيين.

### أ- الحكام الزمنيون في مواجهة الحكام الدينيين

اهتم أنوسنت الثالث بعد توليه المسئولية مباشرة بالتحدي الذي يمثله حكام الدولة الجديدة في انجلترا وفرنسا والإمبراطورية الرومانية المقدسة بعد جلوسه على كرسي بطرس. فاستخدم نفوذه أولاً ضد فيليب أوغسطس Philip Augustus ملك فرنسا وذلك لكي يثبت أنه ولا الملوك يمكن أن يستهينوا بشرعية الله المقدسة للزواج. كان فيليب قد تزوج من إينجبورج Ingeborg الدانماركية بعد موت زوجته الأولى في ١١٩٣. وعندما جاءت عروسه إلى فرنسا، لم تعجبه وادعى أنه وقع تحت تأثير السحر. وأجبر الأساقفة الفرنسيين على إبطال زواجه منها، واتخذ أجنس Agnes إلى بيته زوجة له بدلاً من زوجته الشرعية. رفعت إنجبورج Ingeborg دعواها إلى البابا لكى ينصفها. فأمر أنوسنت فيليب أن ينفصل عن أجنس ويعيد ارتباطه بإنجبورج كزوجته الشرعية. وعندما رفض فيليب أن يفعل ذلك، وضع أنوسنت Innocent فرنسا تحت قرار تأديب فى سنة ١٢٠٠. وكان قرار التأديب Interdict هذا له تأثيره على كل من في فرنسا، لأنه تضمن إغلاق كل الكنائس، إلا لإجراء معمودية الأطفال ولإجراء مسحة الزيت بالنسبة للمتحضرين، ومنع إجراء القداس الإلهي، إلا بالنسبة للمرضى أو المحتضرين، ومنع أيضًا دفن الموتى في مقابر الكنيسة. أما الكهنة فلم يكن مسموحًا لهم بالوعظ إلا في الهواء الطلق.[٧] أثار هذا القرار ثورة عارمة في كل أنحاء فرنسا مما أجبر فيليب Philip على الخضوع للبابا، وصرف أجنس من بيته وأعاد إنجبورج إلى القصركزوجة شرعية له. إلا أن حياة إنجبورج لم تكن سعيدة أبدًا، لكن أنوسنت، باستخدامه أسلحة سلطته الروحية أجبر حاكم دولة فرنسا الجديدة بكل عظمتها على احترام وطاعة القانون الأخلاقي.

تمكن أنوسنت في الفترة ما بين ١٢٠٥-١٢١٣ من هزيمة جون ملك إنجلترا John of England في الصراع حول انتخاب رئيس أساقفة كنتربري. كان كلا المرشحين سواء الذى انتخبته الأسقفية أو الذي أراد جون فرضه عليهم، غير مناسب فى عين أنوسنت الذى نحى ترشيحهما جانبًا عندما طلب منه تأييد تعيين أحدهما فعين بدلاً منهما ستيفان لانجتون Stephen Langton. رفض جون قبول لانجتون فحرم أنوسنت الملك جون في ١٢٠٩، بعد وضع انجلترا تحت قرار تأديب في ١٢٠٨. أُجبر جون على أن يتضع بسبب معارضة انجلترا له، وسُر فيليب ملك فرنسا لأنه وجد سببًا لغزو إنجلترا بناء على طلب البابا. اعترف جون في عام ١٢١٢ أنه إنما حكم بلاده كوكيل إقطاعي مكلف من البابا ووافق أن يدفع ضريبة سنوية للبابا مقدارها ألف

مارك.[٨] ولم يتم رفع هذه الضريبة نهائيًا حتى وقت الإصلاح الإنجليزي.

وبعد نجاحه في إذلال حكام الدولتين الأكثر أهمية من بين الدول القومية الصاعدة، قرر أنوسنت الثالث أن الوقت قد حان للتعامل مع مشكلة حاكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة. فأعلن في سنة ١٢٠٢ حق البابا في قبول أو رفض الإمبراطور المنتخب من قبل الهيئة الانتخابية الألمانية.[٩] كانت إتفاقية ورمز Worms قد خلقت نوعًا من عدم الارتياح ما بين الإمبراطور والبابا، وكان الشعب الإيطالي متشوقًا للتعاون مع البابا لإنهاء تدخل الإمبراطور في شئون إيطاليا. كان هنري السادس Henry 6th الذي حكم ما بين ١١٩٠-١١٩٧، قد تزوج من أميرة نورمانية اسمها كونستانس ومن خلال زواجه بها، ادعى بحقه في ضم صقلية إلى مملكته. وقد أعطاه ذلك السيطرة على الأراضي الواقعة إلى الشمال وإلى الجنوب من أملاك الكرسي البابوي. وقد عين ابنه، فريدريك Frederick، ملكًا على صقلية، وجعل أنوسنت وصيًا عليه بعد موت كونستانس أمه. وعندما نسى أوتو الرابع Otto 4th وعوده التى أعطاها لأنوسنت في وقت تتويجه إمبراطورًا للإمبراطورية الرومانية المقدسة، ساند أنوسنت مطالبة فريدريك بالعرش الإمبراطورى ونجح في ضمان انتخابه لذلك المنصب باسم فريدريك الثانى Frederick 2nd في ١٢١٢. ودعا عندئذ البابا أنوسنت جيوش فيليب الثانى Philip 2nd ملك فرنسا وهزم أوتو Otto في بوفين فى ١٢١٤.

وهكذا أملى أنوسنت شروطه ورغباته في قضية الخلافة على العرش الإمبراطوري مستخدمًا المناورات السياسية الماهرة. ولكن وبينما تميزت ولايته بأنها قمة النفوذ البابوي في العصور الوسطى، أخطأ ذلك البابا العظيم في تقديراته وخلق مشكلة ظلت تواجه خلفاءه. كان هذا في دعوته مرتين ملك فرنسا لمساعدته بجيوشه، مرة في مواجهة جون John ملك إنجلترا والمرة الثانية في مواجهة الإمبراطور أوتو. وكانت النتيجة أنه حطم قوة الإمبراطور الرومانية المقدسة تاركًا خلفاءه بدون قوة تتوازن مع قوة الدولة الفرنسية القوية. قبل ذلك كان بإمكان البابا أن يناور بأن يضع ملك فرنسا والإمبراطور في مواجهة بعضهم البعض. لذلك فليس عجيبًا أن بونيفاس الثامن Boniface 8th قد لقى إذلالاً على يد ملوك الدولة القومية في كل من انجلترا وفرنسا.

### ب- أنوسنت الثالث والحملات الصليبية

كان البابا أنوسنت الثالث Innocent 3rd ومعه العديد من الكهنة الفرنسيين وراء القيام بالحملة الصليبية الرابعة Fourth Crusade، التى كان الهدف منها هو استعادة أرض فلسطين من يد المسلمين وذلك بالإستيلاء على مصر واستخدامها كقاعدة انطلاق للحملات التالية. كان معظم أفراد تلك الحملة من الفرنسيين وكانت تحت التوجيه البابوي. وعندما احتاجت الحملة إلى السفن لتنقل الجنود الصليبيين إلى وجهتهم وافق عمدة البندقية على توفير السفن والمؤن في مقابل مبلغ كبير من المال. فجاء الصليبيون إلى البندقية ولكن لم يكن معهم المال الكافي، فطالبهم أهل البندقية بمساعدتهم فى استعادة مدينة زارا Zara، والتى كانت يومًا تابعة لهم من يد ملك المجر المسيحي. فبعد استيلائهم على زارا، أبحر الصليبيون إلى القسطنطينية بدلاً من الاسكندرية، واستولوا على





المدينة بعد حصارها في ١٢٠٤م. وأقيمت في القسطنطينية مملكة لاتينية استمرت حتى ١٢٦١. وبالرغم من أن أنوسنت لم يقرر رسميًا تحويل جهود الحملة الصليبية ضد إخوانهم من المسيحيين في زارا والقسطنطينية إلا أنه قبل النتائج لأنها أخضعت الإمبراطورية الشرقية تحت سيطرته ولأن القسطنطينية يمكن أن تصبح قاعدة انطلاق للحملة الصليبية الخامسة Fifth Crusade التي كان يخططها ضد المسلمين. أصبحت الإمبراطورية الشرقية تحت سلطانه مثلها مثل الغرب.[١٠] وبرز البابا كاقوى شخصية في أوربا في العصور الوسطى.

وقد دعم أنوسنت أيضًا حملة صليبية أخرى بقيادة سيمون دى مونتفورت Simon de Montfort ضد الألبينين Albigenses في جنوب فرنسا في ١٢٠٨. وكان هؤلاء أعضاء طائفة من الهراطقة عرفت باسم "الكاثارى" Cathari. ولأن هؤلاء ادعوا أن إيمانهم مبني على الكتاب المقدس، فما كان من الكنيسة الكاثوليكية إلا أنها في وقت لاحق منعت الشعب من امتلاك الكتاب المقدس. استمرت الحملة طوال عام ١٢٠٩ وأبادت كل الكاثارى تقريبًا في جنوب فرنسا بعد سلسلة من المعارك الدموية. وقد أيد كل من الرهبان الفرنسيسكان والرهبان الدومنيكان هذه الحملة بكل قوة، لأنهم رأوا أن الهراطقة مثلهم مثل الحكام الزمنيين يجب أن يحنوا رؤوسهم أمام الرأس الأعلى للكنيسة في روما.

### ج- المجمع اللاتيرانى الرابع في ١٢١٥م

بعد قضائه على الهراطقة بالقوة، حاول أنوسنت أن يصدر إعلانًا إيجابيًا للحق المسيحي. ولكي يفعل ذلك دعا مجمعًا عامًا للكنيسة في روما. وكان من قرارات هذا المجمع الذى عُرف باسم المجمع اللاتيراني الرابع Fourth Lateran Council، أنه جعل الاعتراف السنوي للكاهن إجباريًا على كل العلمانيين، وأعلن أن جميع الشعب يجب عليهم حضور القداس في عيد القيامة على الأقل. أيضًا أعلن ذلك المجمع عقيدة التحول الكامل Transubstantiation، التي أصبحت منذ ذلك الحين عقيدة رسمية يجب على الجميع قبولها في الكنيسة الكاثوليكية. وتنادى هذه العقيدة أن جوهر مادة الخبز والخمر تتحول لتصبح جسد المسيح الفعلي ودمه بعد أن يتلو الكاهن صلوات وكلمات التقديس عليها. ومع أن الشكل الخارجي لهذه العناصر لايزال يبدو للحواس على أنه خبز وخمر، لكن تغييراً غير منظور قد حدث في طبيعة مادتيهما حتى تحولا الى جسد المسيح ودمه. وعلى ذلك يكون الكاهن وكأنه يقدم ذبيحة المسيح متجددة في كل مرة يقوم بالقداس. لذلك فليس غريبًا أن الشعب في القرون الوسطى كانوا يخافون من الإكليروس، الذين لهم السلطان على منح أو منع الأسرار المقدسة التي تمنح المؤمن الحياة الروحية.

## ٣- تضاؤل النفوذ البابوي في عهد بونيفاس الثامن

كان عهد ولاية البابا أنوسنت الثالث Innocent 3rd بمثابة ذروة النفوذ البابوي في أوربا. ولقد ضايقت القصص الرهيبة عن محاباة الأقارب في التعيين في الوظائف الرسمية وتجارة المناصب والسكر والعربدة وإهمال الكهنة للشعب عدداً كبيراً ممن عاشوا في القرن الذي أعقب موت أنوسنت في عام ١٢١٦. وأصبح حكام الدول القومية

أكثر ميلاً إلى التنازع الجديدة في انجلترا وفرنسا مع البابوية حيث أنهم امتلكوا جيوشاً قومية تحت تصرفهم إلى جانب تأييد الطبقة الوسطى التى صارت تملك مالاً وفيراً. وترك إذلال أنوسنت الثالث للإمبراطورية الرومانية المقدسة الكرسي البابوي مجرداً من القوة العسكرية التي يمكن أن تؤيده في مواجهة ملك فرنسا.

وإن كان عهد أنوسنت الثالث يمكن اعتباره ذروة النفوذ البابوي في العصور الوسطى، فإن عهد بونيفاس الثامن Boniface 8th ما بين ١٢٩٤-١٣٠٣ يمكن اعتباره أقل مستوى وصلت إليه البابوية في نفوذها وسطوتها. ولقد عانى بونيفاس الثامن في أكثر من مناسبة من إذلال الحكام الزمنيين. أما أعظم الصراعات التي تعرض لها بونيفاس فكان صراعه مع فيليب الأشقر Philip the Fair ملك فرنسا. كانت الحرب دائرة مابين فرنسا وانجلترا واحتاج فيليب ملك فرنسا وادوارد الأول Edward 1st ملك انجلترا الأموال للصرف على هذه الحرب بينهما. فما كان من كل منهما إلا أنه فرض الضريبة على رجال الكنيسة. وفي عام ١٢٩٦ أصدر بونيفاس مرسوماً[١١] Clericis Laicos يمنع الكاهن من دفع أى ضريبة للحاكم الزمني بدون موافقة البابا.

واجه إدوارد هذا التحدي بإصداره قراراً من البرلمان يمنع رجال الكنيسة من الإدعاء بسلطة البابا الزمنية أو الاعتراف بها في انجلترا. أما فيليب فمنع تصدير الأموال من فرنسا إلى إيطاليا فحرم البابوية بذلك من كل ما كان يدخل إليها من أموال من فرنسا.

وتجدد الصراع بين فيليب وبونيفاس مرة أخرى في ١٣٠١ عندما اعتقل فيليب مندوباً بابوياً بتهمة الخيانة للملك. وعندما أمر البابا الملك بإطلاق سراح المندوب وأن يحضر إلى روما لشرح أسباب سلوكه ضد البابا، دعى فيليب Philip الجمعية الوطنية الفرنسية، وهى المجلس التشريعي في فرنسا، حيث أيدت مقاومة فيليب لمطالب بونيفاس. فما كان من بونيفاس Boniface إلا أنه أصدر المرسوم البابوي المعروف باسم Unam Sanctum، الذي ادّعى فيه بأن "الخلاص ومغفرة الخطايا" لايمكن الحصول عليها خارج الكنيسة الكاثوليكية. وأن البابا بصفته رأس الكنيسة في روما له السلطان الروحي والزمني فوق الجميع، وأن الخضوع للبابا شرط لازم لنوال الخلاص.[١٢] وقد أعيد تاكيد هذه الأفكار في مرسوم آخر معروف باسم Quanto Conficiamur أصدره البابا بيوس التاسع Pius 9th في ١٨٦٣. إلا أن بونيفاس لم يكن يستطيع دعم دعواه بالقوة العسكرية، فقبض فيليب على البابا، وسجنه لمنعه من إعلان حرمه وخلعه من ملك فرنسا.

أصبح كليمنت الخامس Clement 5th البابا بعد وفاة بونيفاس، وقام بنقل الإدارة البابوية إلى أفنيون في ١٣٠٩ حيث تعرض هو وبلاطه لضغوط عديدة من الملك الذي أحاط بأملاكه من كل جانب. كان هذا هو عكس ما حدث في كانوسا Canossa بعد أن تبدلت الأحوال. كان نقل الكرسي البابوي من روما بداية حقبة عُرفت باسم "السبي البابلي للبابوية" Babylonian Captivity. وظلت البابوية تحت تأثير ملوك فرنسا حتى سنة ١٣٧٧، وفقدت نفوذها الهائل سواء الروحي أوالزمني الذى تمتعت به في أنحاء أوربا أثناء ولاية أنوسنت الثالث Innocent 3rd.





## اقتراحات للقراءة

تفيد القراءات المدونة في نهاية الفصل السادس عشر أيضًا في دراسة الفترة من ١٠٥٤-١٣٠٥.


*Clayton, Joseph.* Pope Innocent III and His Times. *Milwaukee: Bruce, 1941. Though written from the Roman Catholic viewpoint, this is an interesting biography of that great medieval pope.*

*Cowdrey, H.E.J.* The Cluniacs and the Gregorian Reform. *Oxford: Clarendon University Press, 1970.*

*Emerton, Ephraim, ed.* The Correspondence of Pope Gregory VII. *New York: Columbia University Press, 1932. Much insight into the activitites of Gregory VII can be gained from this volume.*

*MacDonald, Allan J.* Hildebrand. *London: Methuen, 1932.*

*Stevens, R.W.* Hildebrand and His Times. *New York: Randolph, ca. 1888. This little work is a useful summary of the imperial papal conflict with the empire, with an emphasis on Hildebrand's work.*

## الفصل الثاني والعشرون

# الحملات الصليبية والإصلاح

تميزت المسيحية في غرب أوربا أثناء القرنين الثاني عشر والثالث عشر بموجات من الغيرة للإصلاح والحملات الصليبية Crusades. كانت الحملات تنظم ليحارب الفرسان المسيحيون من أجل أهداف دينية بدلاً من أن يتحاربوا لأهداف خاصة أو سعيًا وراء أهداف سياسية. كان الشرقيون يمثلون تهديدًا عنيفًا للغرب في الفترة ما بين سنة ٦٣٢-٧٥٠م، ولكن في الفترة ما بين ١٠٩٥-١٢٩١م نظمت الحملات ضدهم في أوربا وأسيا وضد الهراطقة في أوربا، وكان معظمها تحت لواء كنيسة روما. وظهرت الحركات الرهبانية Cistercian من الدومنيكان Dominicans والفرنسيسكان Franciscans والبندكتيين باعتبارها حركات إصلاحية ساهمت في إحياء وتجديد الرهبنة في العصور الوسطى. وقد دفعت الغيرة الروحية العلمانيين للاشتراك في حركة الألبنيين Albigenisan والوُلدانسيين Waldensian بزعامة بيتر وُلدو. أيضًا يمكن أن نعتبر أن الطاقة والموارد التي بذلت في بناء الكاتدرائيات الكبرى في أوربا إنما هي دليل على نمو وازدهار الغيرة الروحية في تلك الفترة.

## ١- الحروب الصليبية في المدة من ١٠٩٥-١٢٩١

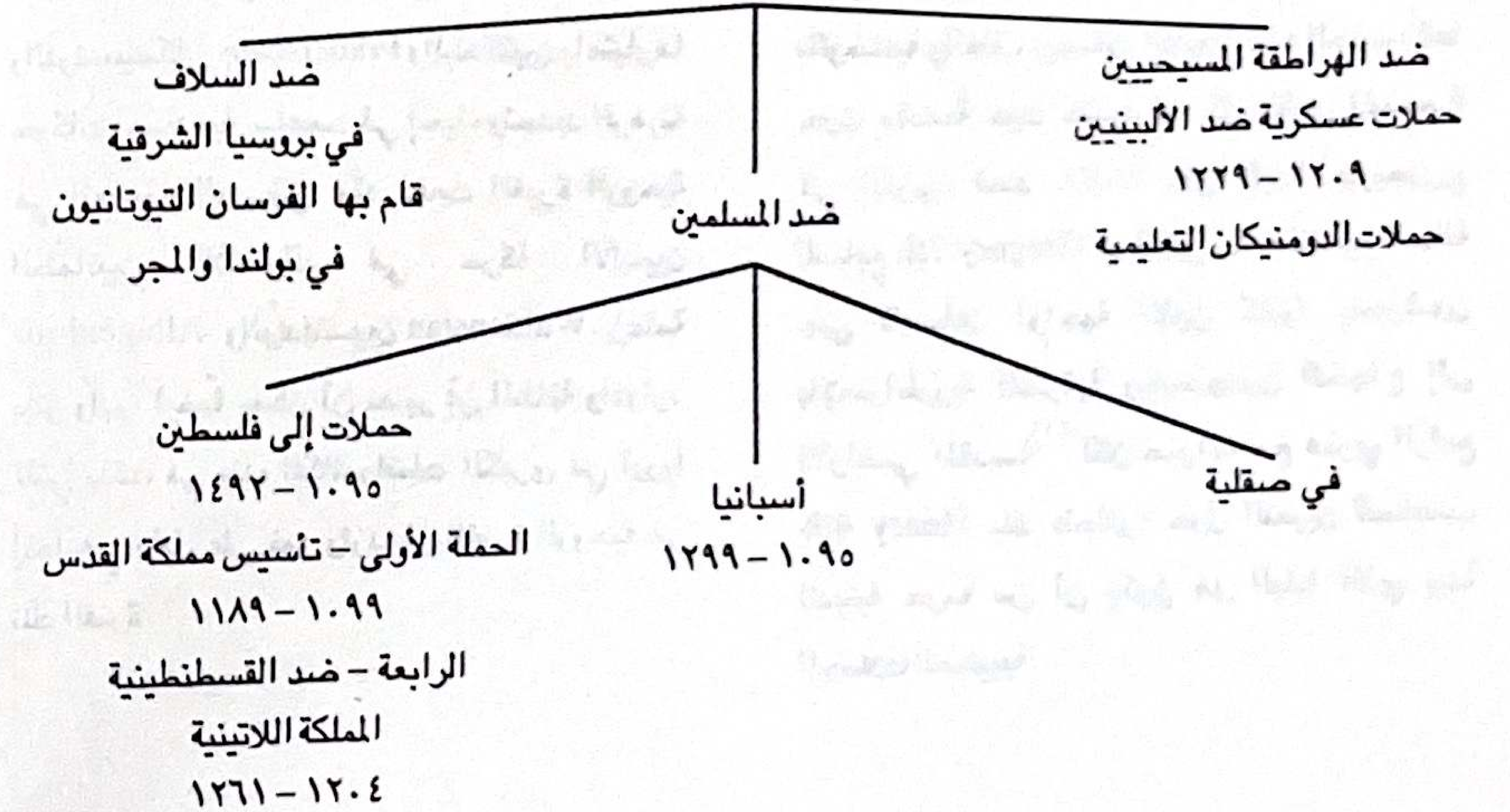
نظم المسيحيون حملات صليبية ضد المغاربة في الأندلس بأسبانيا وفي صقلية وذلك قبل تنظيمهم حملاتهم للمشرق بفترة. وكان هذا الجناح الغربي من الحملات الصليبية مكرسًا لطرد الشرقيين من المناطق التي استولوا عليها في غرب أوربا. أما الحملات الصليبية التي ذهبت إلى فلسطين، والتي تعتبر الجناح الشرقي من الحركة الصليبية ، فقد وضعت هدفًا لها استعادة فلسطين من السلاجقة Seljuk الأتراك الذين تميزوا بالوحشية والعنف. وصفت البابوية هذه الحرب بأنها حرب مقدسة حيث جندت لها كل القوى المسيحية في الغرب. فمنذ ١٠٧٤ كان البابا جريجوري السابع Gregory 7th قد أطلق نداءه لتنظيم الحملة على فلسطين لمواجهة الذين كانوا يتحرشون بالإمبراطورية الشرقية ويضطهدون الحجاج إلى الأراضي المقدسة[1] لكن صراعه مع هنري الرابع Henry 4th ملك انجلترا حول التعيين للمناصب الدينية حرمه من أن يكون هو البابا الذي يبدأ الحملات الصليبية.

### أ- الأسباب التي أدت إلى تنظيم الحملات الصليبية

ينبغي أن نتذكر دائمًا أنه بالرغم من أن الصليبيين كانت لهم مصالح اقتصادية وسياسية، إلا أن الدافع الأساسي للحملات كان دينيًا. كان الأتراك السلاجقة، الذين كانوا يحكمون الشرق، أكثر وحشية وتعصبًا من العرب، وتعرض الحجاج من الأوربيين للمضايقات والاضطهادات لدى وصولهم إلى فلسطين. أيضًا كان ألكسيوس Alexius إمبراطور القسطنطينية، يطلب معونة المسيحيين في غرب أوربا ضد الغزاة من مسلحي أسيا الذين هددوا أمن مملكته. وقد أعطى هذا الدافع الديني للحملات الصليبية Crusades طبيعة أشبه بالزحف الجماهيري أو الحج الجماعي إلى فلسطين. ويمكن مقارنة حجم هذه الحملات بغزو Invasion البرابرة وهجراتهم الجماعية إلى الإمبراطورية الرومانية قبل سقوطها بوقت قصير. وقد قُدر عدد المشاركين في الحملات الصليبية الأولى First Crusade وكل الأنشطة المتعلقة بها بحوالي مليون شخص. كانت الحركة الصليبية الأولى بمثابة محاولة لإيجاد حل لسؤال من يسيطر على الشرق الأدنى، وهي المشكلة التي أقلقت أوربا دائمًا.

دفعت الاعتبارات الاقتصادية الكثيرين للاشتراك في هذه الحملات. كانت المجاعات من الظواهر المستمرة في غرب أوربا في القرن الذي سبق الحملات الصليبية. كان أهل البندقية يهمهم إعادة تنشيط تجارتهم مع الشرق الأدنى، واهتم النورمان الإيطاليون بالسلب والنهب وإقامة إقطاعيات لهم إلى جانب اهتمامهم بإنقاذ الأماكن المقدسة.

جذب حب المغامرة العسكرية، والذي اعتبرته الكنيسة عندئذ أمرًا مشروعًا، العديد من نبلاء الإقطاع وفرسانه لينضموا إلى جيوش الحملات








الصليبية. وانضم البعض الآخر إلى تلك الحملات هربًا من عقوبات جرائم ارتكبوها أو لمجرد التخلص من الملل الذي تمثله حياتهم في أوطانهم.

### ب- الحملات الصليبية

كان السبب المباشر للحملة الصليبية الأولى First Crusade هو الدعوة التي وجهها البابا أربان الثاني Urban 2nd في عظة ألقاها في سنودس عقد في كليرمونت Synod at Clermont في نوفمبر ١٠٩٥، ودعا فيها إلى تنظيم حملة ضد الشرقيين استجابة لطلب ألكسيوس Alexius للمعونة، لكن الواقع أن البابا أربان كان يفكر في المفهوم الأوسع وهو إنقاذ الأماكن المقدسة كأولوية أهم من تقديم المعونة للإمبراطورية الشرقية.[٢] كان معظم الحاضرين في هذا الاجتماع من الفرنسيين وكان البابا نفسه فرنسيًا، تجاوب الحاضرون مع نداء البابا بحماس شديد. كان الحماس كبيرًا جدًا حتى إن جموع المزارعين، الذين أثارهم وعظ بيتر المتوحد Peter the Hermit والتر الفقير Walter the Penniless، بدأوا في الزحف من ألمانيا والمجر والبلقان نحو فلسطين في سنة ١٠٩٦م. وبسبب عدم تنظيمهم أو انضباطهم فقد كان إمبراطور القسطنطينية مسرورًا عندما سمح لهم بالمرور عبر المضايق إلى أسيا الصغرى، حيث أبادهم الأتراك أو أسروهم وباعوهم عبيدًا.

كانت هذه الحملة غير المنظمة التي قام بها أفراد الشعب العاديون من الفرنسيين مجرد مقدمة للمجهودات المنظمة التي تبلورت في الحملة الصليبية الأولى التي قادها النبلاء الفرنسيين والبلجيك والنورمان. وصلت الجيوش المختلفة مع قادتها إلى القسطنطينية في ربيع عام ١٠٩٧م. استولى الصليبيون على نيقية بعد حصار قصير، وعند حلول الخريف وجدوا أنفسهم أمام أنطاكية، حيث استولوا عليها في ربيع عام ١٠٩٨. وأخيرًا استولوا على أورشليم في يونيه ١٠٩٩م. كان هؤلاء الصليبيون من نبلاء الاقطاع في أوربا، لذلك لم يستطيعوا مقاومة الإغراء بإقامة مقاطعات تابعة لهم في الشرق أيضًا، في المناطق التي استولوا عليها. ويرجع تاريخ معظم الحصون المبنية في الشرق الأوسط إلى تلك الفترة. وفي نهاية الأمر تم تنظيم أورشليم والمدن المحيطة بها لتصبح مملكة القدس حيث تم تنصيب جودفري ملك بويلون Godfrey of Bouillon ملكًا عليها. وكان جودفري هو القائد الأدبي لهذه الحملة. فتحققت بذلك أهداف الحملة الصليبية الأولى. فقد تم تخفيف ضغط الشرقيين على القسطنطينية، واستعاد الحكام المسيحيون سيطرتهم على القدس. وتم تنظيم فرق الفرسان من حراس الهيكل وحراس الحجاج لحماية الحجاج وحمايتهم.

أما مناسبة تنظيم الحملة الصليبية الثانية Second Crusade، فكانت تهديد الأتراك لمملكة القدس من الجانب الشمالي الشرقي بعد استيلائهم على مقاطعة أديسا. وفي عام ١١٤٦ دعى الراهب برنارد من كليرفو Bernard of Clairvaux، إلى تنظيم الحملة الثانية. وتصدى ملك فرنسا إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة Holy Roman Empire لقيادة هذه الحملة لكنها كانت حملة فاشلة. وكان من نتيجة فشلها نجاح القائد صلاح الدين الأيوبي Saladin في استعادة مدينة القدس في عام ١١٨٧م.

كانت الحملة الثالثة Third Crusade

(١١٨٩-٩٢)، والتي عرفت باسم حملة الملوك. تحت قيادة فيليب أغسطوس Philip Augustus ملك فرنسا، وريتشارد Richard ملك انجلترا، والإمبراطور فريدريك Frederick. لقي فريدريك حتفه في حادث أدّى إلى غرقه في الطريق إلى فلسطين، ورجع فيليب إلى بلاده بعد خلافه مع ريتشارد. أما ريتشارد فقد واصل قتاله. ومع أنه لم ينجح في استعادة مدينة القدس، إلا أنه تفاوض مع صلاح الدين Saladin ونجح في إقناعه أن يعطي الحرية للحجاج في زيارة القدس. ولأنه لم يستطع أن ينجز أكثر من ذلك، رجع ريتشارد إلى بلاده في نهاية الأمر.

كان البابا أنوسنت الثالث Innocent 3rd مهتمًا بتعويض الفشل الذي واجهته الحملة الثالثة لذلك دعى بكل إلحاح إلى ضرورة تنظيم حملة جديدة، وهي الحملة الرابعة Fourth Crusade التي كان هدفها الاستيلاء على مصر كقاعدة للعمليات للاستيلاء على فلسطين.(٢) وكان من النتائج الهامة لهذه الحملة اخضاع الكنيسة اليونانية والإمبراطورية الشرقية مرة أخرى لنفوذ البابا وذلك في الفترة من ١٢٠٤-١٢٦١، بعد قرن ونصف من الاستقلال الديني عن روما. ساعدت هذه الحملة على إضعاف الإمبراطورية الشرقية وعلى تعميق الكراهية بين المسيحيين اللاتين والمسيحيين اليونانيين (انظر الفصل ٢١).

نجح فريدريك الثاني Frederick 2nd الذي قاد الحملة السادسة Sixth Crusade في التفاوض لإبرام معاهدة استعادت أورشليم وبيت لحم والناصرة وممرًا ضيقًا نحو البحر يكون تحت سيطرة المسيحيين، لكن الشرقيين احتفظوا بجامع عمر. وأصبحت أورشليم (القدس) مرة أخرى تحت حكم ملك مسيحي بصفة مؤقتة. لكن بالرغم من تنظيم حملات أخرى عديدة، إلا أن المناطق التي استولى عليها الصليبيون ما لبثت أن سقطت الواحدة بعد الأخرى في يد السراسنة الذين أعقبوا السلاجقة Seljuk الأتراك في سيطرتهم على فلسطين.

كانت حملة الأطفال الصليبيين Children's Crusade في عام ١٢١٢ من أكثر الأحداث المؤسفة في تاريخ الحملات الصليبية. فقد زحف أطفال من فرنسا وألمانيا بقيادة ولدين لم يبلغا سن المراهقة، وكان اسميهما ستيفن ونيقولاس، زحفا عبر أوربا الجنوبية نحو إيطاليا، بافتراض أن براءتهم وطهر حياتهم ستضمن لهم النجاح فيما فشل فيه آباؤهم بسبب خطاياهم. مات الكثيرون منهم في الطريق وتم بيع الباقين منهم عبيدًا في مصر. وانتهت فترة الحملات الصليبية بسقوط عكا في ١٢٩١

### ج- نتائج الحملات الصليبية

كان للحملات الصليبية نتائج Results وتبعات مهمة في غرب أوربا على الصعيدين السياسي والاجتماعي. عانى النظام الإقطاعي من الضعف والوهن ذلك لأن الكثيرين من الفرسان والنبلاء الذين ذهبوا في هذه الحملات لم يرجعوا أبدًا، وأيضًا لأن كثيرين باعوا أرضهم للمزارعين أو للأثرياء من الطبقة المتوسطة من سكان المدن وذلك لتدبير الأموال اللازمة للحملات. واستطاعت كثير من المدن التي كانت مملوكة قبلاً للأمراء الاقطاعيين، أو كانت تقع تحت سلطانهم، استطاعت الحصول على وثائق تعطي لهم حكمًا ذاتيًا نظير مبالغ من المال. واستطاع الملوك أن يبسطوا نفوذهم وسيطرتهم





المركزية بمعاونة الطبقة المتوسطة، التي حبذت إقامة الحكومات والدول المركزية تحت سلطان ملك واحد وذلك لتوفير الأمن والنظام الذي تحتاجه أعمالهم التجارية والصناعية.

وكانت هناك بعض النتائج الدينية منها أن البابوية زادت سلطاتها أثناء فترة الحملات الصليبية Crusades ، لكن توجيه طاقات وموارد الدول إلى الحملات أدّى إلى تصاعد الشعور القومي لدى تلك الشعوب مما أدى في نهاية الأمر إلى تناقص النفوذ البابوي. عمّق تأسيس المملكة اللاتينية في القسطنطينية الشعور بالعداء بين الشرق والغرب وأضعف المملكة الشرقية حتى تأكد سقوطها سنة ١٤٥٣. أعطى ظهور النظم الرهبانية ذات الطابع العسكري المزيد من الدعم للبابوية بما أضافه لها من الرهبان الذين يدينون لها بالولاء المطلق.

حلت قوة الإقناع بدلاً من قوة السلاح كوسيلة للتعامل مع العرب وحضارتهم. تعلم رايموند لال Raymond Lull ١٢٣٥-١٣١٥ وهو أحد نبلاء جزيرة مانوركا بإيطاليا اللغة العربية وشيئًا عن الحضارة العربية من عبد اشتراه خصيصًا لهذا الأمر، وذلك بفكرة أن المرشحين ليصبحوا مرسلين إلى الشرق ينبغي أن يتعلموا اللغة العربية وآدابها وملامح الحضارة، أنشأ ريموند لال معهدًا للتدريب سنة ١٢٧٦ وذلك في ميرامير في جنوب شرق أسبانيا، وألّف عدة كتب تضمنت المجادلات الدفاعية، وقد استشهد في شمال افريقيا.

وكانت النتائج Results الاقتصادية على نفس الدرجة من الأهمية. بدأت المدن الإيطالية وعلى رأسها مدينة البندقية (فينيسيا) في التجارة مع الشرق الأوسط بأسرع ما يمكن بعد النجاح الذي حققته الحملة الصليبية الأولى First Crusade. وأرست تجارة المنتجات الغالية الثمن من الشرق الأوسط (مثل الحرير والتوابل والعطور) الأساس الاقتصادي لحركة رعاية الفنون في عصر النهضة في إيطاليا. أراد الأشخاص الذين عادوا من الحملات شراء الأطايب التي رأوها في الشرق الأوسط.

وبالرغم من فشل الحملات الصليبية في تحقيق التحرر الكامل الدائم لمدينة القدس من سيطرة المسلمين، إلا أنها عادت بالكثير من الفوائد على غرب أوربا وساعدت على تخليص أوربا من محلية الحضارة فيها. جاءت الحملات بعلوم العرب وآدابهم إلى أوربا الغربية، ليعكف على دراستها المتخصصون الذين حاولوا توفيق هذه العلوم مع الفكر المسيحي.

## ٢- الإصلاحات الرهبانية

ظهر العديد من المؤسسات الرهبانية الجديدة في القرن الثاني عشر، وذلك تعبيرًا عن نفس الغيرة الروحية التي ظهرت في الحملات الصليبية ويبدا ذلك بوضوح في الاتجاه الكبير لتشييد الكاتدرائيات الكبرى. عندما أصبحت حركة الرهبنة الكلونية، التي ازدهرت في القرن العاشر، غنية بممتلكاتها الكثيرة، فترت غيرتها الإصلاحية التي بدأت بها. ولكن ظهرت مجموعات إصلاحية جديدة مثل الحركة البندكتية التي ظهرت لتقوم في القرن الثاني عشر بنفس الدور الذي قامت به كلوني Cluny في القرن العاشر. وقد ظهرت نظم الرهبنة مثل الدومينيكان

Dominicans والفرنسيسكان Franciscans لمواجهة الاحتياج الذي ظهر لربح غير المسيحيين والهراطقة من المسيحيين للإيمان المسيحي عن طريق قوة الاقناع، بواسطة التعليم والتهذيب أو بواسطة العمل المرسلي. أدت الغيرة الروحية التي خلفتها الحملات الصليبية إلى تأسيس نظم رهبانية علمانية ذات طابع عسكري، وأخضعت مثل هذه النظم نفسها طواعية للبابوية، حيث أقسمت على الطاعة للبابا ولرئيس الدير الذي ينتمون إليه. وقد أشبعت هذه الحركات الرغبة التي سادت العصور الوسطى في حياة النسك ووفرت عدداً ممن اهتموا بالتعليم والتخصص في الدراسات الأكاديمية العليا.

وقد بُذلت محاولات لاصلاح النظام البندكتي أثناء القرن الحادي عشر وذلك بتجديد التأكيد على ما تميزت به هذه الحركة في أول عهدها من تقشف ونسك، والذي كان يعبر عنه في العمل والصلاة. وقد تم تغيير وضع اللامركزية الذي كان في النظام القديم، الذي أعطى الاستقلال التام لكل رئيس دير، وذلك لنظام جديد من القيادة المركزية. وقد اتبعت الأديرة الكارثوسية Carthusian التي أسسها برونو في ١٠٨٤ نفس هذا النظام.

أُنشئ نظام القواعد الأغسطينية Augustinian Canons في بدايته كمحاولة لإلزام الكهنة الذين يعاونون الأسقف في مهامه في نطاق كاتدرائية معينة، بما يلتزم به غيرهم من الكهنة. وقد استخدمت مجموعة القواعد التي وضعها القديس أغسطينوس Rule of Saint Augustine ، وأصبح لهم رداء موحد كما نشأ الاستخدام المشترك للسكن أو الممتلكات وذلك منذ عام ١١١٩.

### أ- النظام البندكتي Cistercian للرهبنة

أسس هذا النظام في مدينة سيتو Citeaux في فرنسا في عام ١٠٩٨ وقد أسسه راهب بندكتي اسمه روبرت Robert ، حيث أراد أن يصحح ما لاحظه من نقص في الانضباط في الرهبانية المعاصرة. وقد اختلف رهبان هذا النظام عن نظرائهم من النظام الكولوني Cluny بتاكيدهم الشديد على حياة النسك وانكار الذات، وببساطة ما شيدوه من مباني وأيضا بالتنظيم المركزي لشئونهم. كان رؤساء الأديرة الفرعية يجتمعون مع رئيس الدير الرئيسي Citeaux في اجتماع سنوي للتباحث في المشاكل التي تواجه الجماعة. وبالرغم من أن رئيس الدير مارس نوعًا من السلطة على الأديرة الفرعية، إلا أنه لم يمارس نفوذًا مثل ما كان لرئيس دير كولوني، لكنه كان يرأس مجلسًا سنويا لرؤساء الأديرة. وبينما كان الرهبان الكلونيون في معظمهم من خلفيات أرستقراطية، اجتذب نظام البندكتي تابعيه من طبقة الفلاحين وأجراء الأرض. وقد اهتم الرهبان البندكتيين بالزراعة أكثر من الدراسات الأكاديمية. وكان لبرنامجهم الإصلاحي جاذبية شديدة حتى إن هذا النظام شمل ٥٣٠ ديرا في سنة ١٢٠٠، ومنذ ذلك الحين استمر في النمو السريع. لقد أدخل هذا النظام روحًا جديدة من الغيرة والحماس للرهبانية التي كادت تخبو وتنتهي.

وترجع معظم شهرة هذه المؤسسات لمجهودات برنارد Bernard (١٠٩٠-١١٥٣) الذي كان راهبًا في دير مدينة كليرفو وكان من أصل نبيل ويدين بالكثير لأمه التقية أليتا. أسس برنارد الدير في مدينة كليرفو Clairvaux في عام ١١١٥ عندما كان في الخامسة والعشرين من عمره،





واستطاع بمساعدة ثلاثين من الرفقاء وأخوته الخمسة أن يجعل من ذلك الدير أشهر مركز لنظام الرهبنة البندكتية.(٤)

وبالرغم من كونه متواضعًا وذا نزعة تصوفية، إلا أن برنارد Bernard كانت لديه القدرة على التدبير العملي والشجاعة النادرة. وكان البابا نفسه والحكام أيضًا يسعدون بالاستماع إلى مشورته إبان ذروة خدمته في ذلك الدير. وكان وعظه الذي وصف فيه المعاناة التي يواجهها الحجاج إلى فلسطين وتدنيس الأماكن المقدسة، له دور كبير في تنظيم الحملة الصليبية الثانية Second Crusade. وتظهر مهارته الشديدة في الوعظ والتفسير وولعه بالتصوف في المؤلف الذي كتبه "تفسير نشيد الانشاد" Homilies on the Song of Solomon. وكانت اتجاهاته التصوفية مصدرًا للعديد من الترنيمات الخالدة. لم يكن برنارد تنقصه المعرفة اللاهوتية، بل عندما بدت نظريات ابلارد Abelard وكأنها كانت تزعزع الأسس اللاهوتية، انبرى برنارد للتصدي له مدافعًا عن الإيمان القويم. ولقد جعلت قدراته الفكرية والتصوفية والخطابية إلى جانب قدراته العملية، جعلت منه القائد الروحي والمؤسس الثاني للحركة البندكتية، كما جعلته أيضًا مركز نفوذ في شئون الكنيسة والدولة في أوربا في العصور الوسطى.

### ب- النظم الرهبانية العسكرية

أنتجت الحملات الصليبية نوعًا عسكريًا Military من الرهبنة مزج بين فنون الحرب والحياة الرهبانية. تأسس نظام رهبان القديس يوحنا Knights of Saint John أو الـ Knights Hospitallers أي "الفرسان الخادمون" في بداية القرن الثاني عشر لحماية الحجاج والعناية بالمرضى. وقد كان هذا النظام في بدايته يشبه في الدور الذي قام به في العصور الوسطى ما تقوم به منظمة الصليب الأحمر اليوم. أخذ الرهبان على أنفسهم عهد الرهبنة الثلاثي لكنهم لم يتخلوا عن حمل السلاح. بل أصبح هذا النظام الرهباني فيما بعد هيئة عسكرية منضبطة هدفها حماية الأراضي المقدسة من المعتدين. أما فرسان الهيكل Knights Templars والذين أخذوا اسمهم من وجود مقر قيادتهم بجوار الهيكل في أورشليم (القدس)، فقد تأسس هذا النظام الرهباني في عام ١١١٨. وقد تم الاعتراف بهذا النظام رسميًا في ١١٢٨ حيث تم إدراجه تحت النظام البندكتي Cistercian لممارسة الحياة الرهبانية في ١١٣٠. وقد كرست هذه الفرقة نفسها للدفاع عن الأراضي المقدسة. وتم حل هذا النظام في ١٣١٢ بسبب تدخله الزائد في السياسة الفرنسية. كانت هاتان الحركتان تدينان بالولاء للبابوية وحدها وتكرس كل مجهوداتهما لرعاية مصالح البابوية، لذلك فإنهما كونتا جيشًا يُعتمد عليه من الفرسان الرهبان.

### ج- الأخويات

تمثل الأخويات The Friars نموذجًا آخر للرهبنة الإصلاحية التي انتشرت في القرن الثاني عشر. كان هؤلاء الرهبان يأخذون على أنفسهم عهود الفقر والعفة والطاعة مثلهم مثل باقي الرهبان، ولكنهم بدلاً من العيش في مجتمعات رهبانية للصلاة والعمل بعيدًا عن العالم الدنيوي، فإنهم كانوا يخرجون إلى الناس في المدن ويساعدونهم ويعظونهم باللغات العامية التي يتحدثها الشعب. كانت الأديرة تملك الأراضي والأوقاف وكان

الرهبان يعولون أنفسهم بالعمل، لكن الرهبان العاملون كانت تعولهم العطايا والتقدمات التي يقدمها الشعب لهم. كانوا يخضعون للقيادة المباشرة للبابا أكثر من الأنظمة الأخرى التي تكونت قبل القرن الثاني عشر. ومن أمثلة مثل هذه الأخويات يبرز الفرنسيسكان والدومنيكان Dominicans وأيضاً الكارمليت والأوستن التي تكونت أيضاً في نحو نفس الوقت.

أسس فرنسيس الأسيسي Francis of Assisi (١١٨٢-١٢٢٦) نظام الرهبنة المعروف باسم الفرنسيسكان. كان فرنسيس ابناً مستهتراً لأحد التجار الأثرياء. وتم تجديده أثناء مرض ألم به، فترك بيت أبيه ونذر نفسه لحياة الفقر وخدمة الله. جمع فرنسيس حوله العديد من الشباب الذي كانت لهم نفس اهتماماته(٥) ونظم مجموعة قواعد تحكم حياتهم معاً. وقد تضمن هذا القانون قواعد للفقر والعفة والطاعة، مع التعبير الشديد على الطاعة للبابا.(٦) وقد أقر البابا أنوسنت الثالث Innocent 3rd تأسيس هذه المؤسسة شفهياً سنة ١٢٠٩. اكتسبت الرهبنة الفرنسيسكانية شهرة طيبة وانتشرت حتى إن البابا في عام ١٢١٢ سمح لفتاة في الثامنة عشرة من عمرها وتدعى كلير أن تنظم رهبنة مشابهة للنساء عرفت باسم أخوية كلير الفقيرة Poor Clares. وفي عام ١٢٢١ أنشئ نظام ثالث عرف باسم "النظام الثالث" Tertiaries للعلمانيين من الرجال والنساء الذين عاشوا بنفس قوانين الرهبنة ولكنهم لا يستطيعون ترك حياتهم الدنيوية بسبب روابط أسرية أو ارتباطات أعمالهم.

أصبح اسم مثل هذه الحركات وهو "أخوية" Friar أو "رهبنة عاملة"، والذي أخذ من الكلمة اللاتينية Frater ومعناها أخ، أصبح مرادفاً ليس فقط لتطور الحياة الروحية بل أيضاً مرتبطاً بخدمة الكنيسة الكاثوليكية. وقد خدم فرنسيس الأسيسي أثناء حياته في كل من أسبانيا ومصر. وذهب آخرون إلى الشرق الأوسط بل وإلى الشرق الأقصى أيضاً. جون دي مونت كورفينو John de Monte Corvino الذي عاش (١٢٤٦-١٣٢٨) وصل إلى بكين قبل سنة ١٣٠٠.(٧) وفي بكين وحدها عُمِّد ستة آلاف شخص وتجدد على يديه ثلاثون ألفاً مع حلول عام ١٣٠٠، لكن أسرة مينج الحاكمة في الصين دمرت الكنيسة في عام ١٣٦٨. وعندما فتحت أسبانيا وفرنسا أراضي النصف الغربي من الكرة الأرضية، قام الفرنسيسكان بمعظم العمل التبشيري Missions المرسلي في العالم الجديد. وتشهد أطلال المراكز التبشيرية التي أنشأها الفرنسيسكان في القرن الثامن عشر على الطريق المعروف بطريق الملك في كاليفورنيا على ما قاموا به من نشاط.

ومع نمو هذه الحركة الرهبانية، أصبحت تميل إلى المركزية حيث خضعت مثل روجر باكون Roger Bacon وبونافينتورا Bonaventura ودونس سكوتوس Duns Scotus ووليم من أوكهام William of Ockham. أصبح باكون رائداً في التجريب والبحث العلمي، وكان لأفكار ويليام من أوكهام حول طبيعة الواقع تأثيرها على تطور فكر لوثر الروحي بل ودعمت الاتجاه التجريبي في الحياة الذي ساد عصر النهضة. كان الرهبان الدمنيكان Dominicans أيضاً من بين الذين يعيشون على الصدقات. وبينما كان الفرنسيسكان مبشرين عظماء، يربحون الناس بالقدوة والكرازة الغيورة، كان الدومنيكان علماء عظماء، يحاولون أن





يربحوا الناس من فخ الهرطقة بالاقناع العقلي. كان الدومنيكان يخاطبون عقل الإنسان بينما كان الفرنسيسكان يلمسون قلبه.

كان دومنيك Dominic (١١٧٠-١٢٢١)، كاهناً أسبانياً من أصل نبيل، وفي زيارة له لجنوب فرنسا تقابل مع الهراطقة من الألبنيين الذين عاشوا في تلك المنطقة. تأسى دومينيك عليهم وتبلورت في ذهنه فكرة مقاومة هذه الهرطقة بأسلحة مثل التقشف في الحياة والبساطة وقوة الإقناع. لأجل ذلك نجد أن الدومنيكان ركزوا تركيزاً كبيراً على الوعظ. وقد وافق البابا على نظام الرهبنة الدومنيكاني في ١٢١٦، وأصبح هذا النظام يتميز بالمركزية الشديدة، حيث كان لكل جماعة منهم رئيساً يخضع بدوره إلى رئيس للإقليم كله. وكان البابا يعين رئيساً عاماً لكل الحركة يكون مسئولا أمام البابا نفسه. اهتم الدومنيكان بالعمل التبشيري والعمل التعليمي.

كان توما الاكويني Thomas Aquinas وأستاذه ألبرتوس ماجنوس Albertus Magnus من أبرز العلماء الذين أفرزهم هذا النظام الرهباني. والنظام اللاهوتي الحالي للكنيسة الكاثوليكية هو نتاج مجهودات الاكويني في تطويره. وقد شارك الدومنيكان أيضاً في العمل التبشيري. فقد عهد لهم البابا في سنة ١٢٣٣ بمهمة تنظيم الأسس العلمية لمحاكم التفتيش Inquisition. وكان الكثير من قادة التصوفيين من أمثال ميستير ايكهارت وجون تولر Meister Eckhart & John Tauller من الرهبان الدومنيكان الذين خرج منهم أيضاً سافونارولا Savonarola المصلح الشهير الذي عاش في فلورنسا.

ساهم هؤلاء الأخوة الرهبان في تدعيم وتقوية الروح الدينية لدى شعب الأبروشيات التي خدموا فيها وذلك بما قدموه من خدمة مضحية. كانت أعمالهم الصالحة إلى جانب ما علموا به في وعظهم باللغات التي يتكلمها الشعب بمثابة إعلانات عملية عن رسالة الكنيسة يسهل على الشعب استيعابها. في الواقع إن مجهوداتهم أدت إلى استعادة الوعظ لمكانته اللائقة في الكنيسة الكاثوليكية. وبما أن هؤلاء الأخوة الرهبان كانوا مسئولين أمام البابا مباشرة، فإنهم اتجهوا إلى تقوية نفوذ البابوية على الأساقفة المحليين والحكام العلمانيين. ولقد دفع كلا النظامين الرهبانين بالكثير من أعضائه إلى العمل المرسلي الذي امتد إلى كل أرجاء العالم. قدمت مستشفيات الفرنسيسكان خدمتها لتسدد الاحتياجات المادية إلى جانب الاحتياجات الروحية للشعب. وقد مات ما يقرب من عشرة آلاف راهب أثناء خدمتهم الناس خلال فترة الوباء الذي عُرف باسم الموت الأسود Black Death في سنة ١٣٤٨-١٣٤٩م. وفوق الكل أسهم هؤلاء الرهبان إسهاماً كبيراً في مجال العلم والتعليم ولاسيما في مجال اللاهوت، حيث برز اسم توما الاكويني كأفضل لاهوتي بين صفوف الحركات الرهبانية.

أما مجهودات الرهبان الدومنيكان في ادارة محاكم ولجان التفتيش بسلطان من البابوية فهي تقع على الجانب الآخر من الصورة والذي يعتبر الجانب المظلم من تاريخ هذه الحركات. فمع حلول القرن الرابع عشر كانت مثل هذه الحركات الرهبانية قد كونت لنفسها مؤسسات لحفظ وإدارة أملاكها وثرواتها، واختفت الغيرة والحماس التي ميزت الأجيال الأولى من الرهبان العاملين.

## ٣- الحركات الإصلاحية العلمانية

كانت الوحدة هي النغمة السائدة في مجتمع العصور الوسطى، وقد تحققت هذه الوحدة من خلال المؤسسات الدولية للإمبراطورية الرومانية المقدسة، وبواسطة النظام الكهنوتي المحكم للكنيسة الكاثوليكية والولاء الكامل له، وأيضاً من خلال تعميم القيم الروحية والمقاييس الثابتة للممارسات الكنسية ولقوانين الإيمان، ولكن بقيت دائماً تحت هذه الوحدة أنواع من شائعات عدم الرضى. وكانت مثل هذه الاضطرابات جديرة بأن تصير في زمن الإصلاح انفجارات بركانية مزقت نسيج الديانة التي سادت العصور الوسطى. وعلى عكس الحركات الرهبانية التي كانت تسعى لإحداث الإصلاح من الداخل قامت حركات مثل الكاثاريين Cathari والألبينيين وغيرهم من الحركات على اعتبار أنها ثورات من الخارج تهدف إلى تطهير الدين مما أصابه في أواخر القرن الثاني عشر. أدّى انتشار الفساد في حياة وممارسات صفوف النظام الكهنوتي البابوي والممارسات الدنيوية للبابوية إلى تحرك الكثيرين ضد افتقار هؤلاء إلى القوة الروحية والذي ظهر في معظم الكنائس المحلية.

ومعظم ما وصلنا من معلومات حول هذه الحركات جاءت إلينا من خلال أعدائهم أكثر من أصدقائهم، لذا تندر المعلومات الدقيقة حولها. فقد سعى كل من الألبينيين والوالدنسيين Waldenses للرجوع إلى الصورة الأنقى للدين والتي استقوا تفاصيلها من العهد الجديد. كان هؤلاء بمثابة طلائع الإصلاح الكبير الذي حدث.

### أ- الألبينيون الفلاسفة

اكتسب الألبينيون Albigenses لقبهم من تكاثر عددهم في المنطقة المحيطة ببلدة ألبي في جنوب فرنسا، وكان هؤلاء يستخدمون العهد الجديد كأساس لأفكارهم إلا أن تلك الأفكار كانت منحرفة وكانت تشبه التعاليم الغنوسية عن الزهد والازدواجية، كما تشابهت مع بعض الحركات الأخرى التي انتشرت في أوربا مثل البولسيين Paulician والبوجوميل Bogomil. كان الألبينيون يؤمنون أن الوجود له طبيعة إزدواجية مطلقة ما بين الإله الصالح الذي خلق نفوس البشر، والإله الشرير الذي أعطى جسداً مادياً بعد طرده من السماء. كانوا يؤمنون أن ذلك الإله الشرير عقب طرده من السماء صنع العالم المنظور. وعلى ذلك فإنهم رأوا أن المادة لابد وأن تكون شراً، لذلك عارض الكاثاري – ومعناها الحرفي الأطهار – التناسل وتكاثر النوع، وعارضوا الأسرار المقدسة ولاسيما العشاء الرباني في القداس ولاسيما في تأكيده على حلول المسيح المادي في عناصر التناول، ورفضوا أيضاً تعليم الكنيسة عن جهنم وعن المطهر، ورفضوا قيامة الأجساد. كانوا يقولون إن الخلاص يشمل التوبة بالإضافة إلى ممارسة طقس معين عبارة عن وضع الأيدي مع نسخة من إنجيل يوحنا على رأس طالب التوبة، كما يشمل الخلاص أيضاً الامتناع النسكي عن الزواج وعن الحلف وعن الذهاب إلى الحرب وأكل اللبن واللحم والجبن والبيض.

وأدانت هذه الجماعة استخدام أي شئ مادي في العبادة. والصفوة المختارة الكاملة Perfecti، يتمتعون بغفران الخطايا ويقين الدخول إلى ملكوت الله. وبما أن الجسد لا يمكن أن يرث السماء، فإن المؤمنين الذين لم يجر لهم طقس التوبة





Consolamentum الذي سبق شرحه يجب أن يجرى لهم قبل موتهم. كان الألبينيون بجعلهم العهد الجديد دستور إيمانهم الملزم يمثلون تحدياً للكنيسة الكاثوليكية التي بنت لنفسها السلطان الرسولي من خلال تتابع البابوات الذي ينحدر تسلسلهم من المسيح نفسه. كان رد الكنيسة الكاثوليكية على مثل هذا التحدي هو الاضطهاد والحملات الصليبية التي مولها البابا أنوسنت الثالث Innocent 3rd في ١٢٠٨م والتي خرجت بقيادة سيمون دي مونتفورت Simon De Montfort لقمع حركة الألبينيين.

### ب- حركة الوالدنسيين Waldenses التطهرية

بدأت هذه الحركة في الربع الأخير من القرن الثاني عشر، وهي تشبه كثيراً الحركات البروتستانتية التطهرية، وقد نسبت إلى مؤسسها بيتر والدو. كان بيتر والدو Peter Waldo تاجراً ميسوراً من ليون في فرنسا، ونحو عام ١١٧٦ قرأ ترجمة للعهد الجديد حيث تأثر جداً بالتحديات التي يطالب بها المسيح تلاميذه حتى إنه تخلى عن معظم ممتلكاته فيما عدا ما يكفي لسد احتياجات أسرته. ثم نظم فريقاً خادماً أطلق عليه اسم "الرجال الفقراء" كان هدفهم القيام بخدمة الوعظ كعلمانيين، إلا أن البابا منعهم من القيام بهذا الدور. وفي سنة ١١٨٤ حرمهم البابا من الكنيسة لأنهم لم يتوقفوا عن خدمة الوعظ. وكما هو الحال في كثير من الأحيان رفضت الأغلبية داخل الكنيسة مجهودات القلة الراغبة في الإصلاح ودفعتهم خارج نطاق المؤسسة الكنسية حارمين بذلك الكنيسة من الإضافات الإيجابية التي ربما استطاع هؤلاء المصلحين انجازها.

دافع الوالدنسيون عن حق كل إنسان في الحصول على كتاب مقدس خاص به وباللغة التي يفهمها. وآمنوا بأن الكتاب المقدس ينبغي أن يكون السلطة العليا والرأي الفاصل في أمور الحياة والإيمان. ونظم أتباع والدو خدمتهم على نفس المثال الذي أعطاه لنا المسيح فخرجوا اثنين اثنين، وقد ارتدوا ثياباً بسيطة، وسعوا لكي يعظوا فقراء الشعب باللغة واللهجات المحلية التي يفهمها هذا الشعب. كانوا يقبلون إقرارات الإيمان المسكونية، والعشاء الرباني والمعمودية، ورسامة العلمانيين للوعظ وممارسة الشعائر. وكان لجمعيتهم خدامها المرتسمون، بما في ذلك الأساقفة والكهنة والشمامسة. وظل والدو نفسه هو رئيس الجمعية حتى وفاته في سنة ١٢١٧م.

كان هناك جماعة أخرى، عرفت باسم "الأصدقاء" كان لها ارتباطات سرية مع الوالدنسيين ولكن سمح لها أن تخدم داخل الكنيسة الكاثوليكية. كان جماعة الوالدنسيين في كثير من أفكارهم بمثابة ارهاصات للإصلاح البروتستانتي. وهذه الجماعة مازالت موجودة في شمال إيطاليا متمثلة في جماعة يبلغ عددها ٣٥ ألف خادم غيور.

### ج- حركة أتباع يواقيم Joachimites ونظرتهم لأواخر الأيام

كان يواقيم Joachim راهباً من البندكتيين Cistercians عاش (١١٣٢-١٢٠٢) وكان يؤمن أن الآب هو الشخصية المحورية في العهد القديم في عهد الناموس ورأى أن بطرس الرسول ركز على ذلك في تعليمه، وأن الابن هو الشخصية المحورية في عصر العهد الجديد والتي تمثلها تعاليم بولس واستمر ذلك حتى سنة ١٢٦٠م، وأن عصر الروح القدس وهو ما بعد عام ١٢٦٠ فهو عهد جديد من

المحبة كما ظهرت في كتابات يوحنا الرسول وأن هذا العهد سوف يسود بعد فترة قصيرة من عمل ضد المسيح.

كان رد فعل الكنيسة الكاثوليكية لمثل هذه التحديات لسلطتها المطلقة ولاسيما التي تمثلها جماعة "الكاثاري" Cathari متنوعًا. فمن ناحية برزت مجهودات رهبان الدومينكان التي تمثلت في الوعظ والتعليم في محاولتهم اقناع الكاثاري بالعودة إلى الإيمان القويم. ومن ناحية أخرى كانت هناك الحملات الصليبية التي استهدفت إبادة بعض هذه الجماعات مثل الألبينيين في جنوب فرنسا. إلا أنه كان هناك نوع ثالث من تجاوب الكنيسة وهو الذي تبلور في السنودس الذي انعقد في تولوز Synod of Toulouse في سنة ١٢٢٩. حيث اتخذ هذا السنودس قرارًا بمنع العلمانيين من استخدام ترجمات الكتاب المقدس في اللغات المحلية. وكان القصد من ذلك هو التقليل من فرصة عقد المقارنات الهدامة ما بين الكنيسة في العهد الجديد والكنيسة الكاثوليكية القائمة. لجأت الكنيسة أيضًا إلى أسلوب آخر وهو محاكم التفتيش، وهي لجان كنسية كانت تقوم بدور التحقيقات والمحاكمات في ذات الوقت مستخدمة أساليب التعذيب الشديد مع حجب هوية المدعي عن المتهمين بالهرطقة الذين تحكم عليهم وتسلمهم للسلطات لتنفيذ العقوبات التي شملت نزع الأملاك أو الإعدام حرقًا. في بداية هذه الممارسات كانت محاكم التفتيش تحت سلطة الأساقفة المحليين، إلا إنه مع زيادة عدد الهراطقة رأت السلطة البابوية أن تأخذ هذا الأمر بيدها، وفي عام ١٢٣٣ كلف البابا جريجوريوس التاسع Gregory 9th الرهبان الدومينكان Dominicans بمعاقبة الهراطقة والقضاء التام على الكاثاري.

كان من نتائج مثل هذه الإجراءات الصارمة التي اتخذت ضد الهراطقة أن انطبعت الوحشية على الكهنة والعلمانيين الذين ساهموا في مواجهة الهراطقة. وساهم الخوف من العقاب الشديد، الذي يقع على كل من له فكر يخالف ما تراه الكنيسة، في سيادة الركود الفكري. إلا أن الاضطهاد كثيرًا ما أدى إلى زيادة عدد الذين يقبلون ويتجاوبون مع التعاليم المنحرفة. وكان لرفض الكنيسة الكاثوليكية وعدم استعدادها تلبية احتياج شعبها للإصلاح والذي عبرت عنه مثل هذه الجماعات أثره في خلق الأوضاع غير المستقرة التي جعلت الإصلاح ضرورة لا مفر منها.

تميز القرنان الثاني عشر والثالث عشر بحركات الإصلاح التي قامت داخل الكنيسة وخارجها. كانت حركة البندكتيين متمثلة في شخص برنارد من كلاريفو Bernard of Clairvaux مع حركة المستجِدين تشكلان محاولات داخلية للإصلاح بهدف استعادة نقاوة الكنيسة الكاثوليكية عن طريق تجديد الغيرة الروحية. أما العلمانيون الذين حاولوا استعادة مكانة الكتاب المقدس كسلطة روحية مطلقة وجدوا أنفسهم خارج المؤسسة الكنسية، والتزموا أن ينشئوا حركات خارج الكنيسة الكاثوليكية لكي يتمكنوا من ممارسة المسيحية التي رأوها في الكتاب المقدس. ومع أن حماس الرهبان وأعضاء الأخويات والصليبيين ارتبط إلى حد كبير بالمؤسسة في حد ذاتها ربما أكثر من ارتباطه بالمسيح إلا أن هذه الفترة تميزت بالحماس الروحي الذي ربما كان جديرًا بالكنيسة الكاثوليكية أن توظفه بطريقة بناءة وتستفيد به أكثر.





## اقتراحات للقراءة

إن العديد من مراجع هذا العصر قد تم تحريره، وهي متوفرة في معظم المكتبات الجيدة.

*Barker, Ernest.* The Crusades. *London: Oxford University Press, 1923. This little volume is an excellent manual with a fine bibliography.*

*Brundage, James A.* The Crusades. *Milwaukee: Marquette, 1962. The Crusaders tell their own story through the author's selection of documents.*

*Bruno, James S.* The Letters of Saint Bernard of Claivaux. *Chicago: Regnery, 1953.*

*Coulton, George G. Five Centuries of Religion. 4 vols. Cambridge: Cambridge University Press, 1923-50.*

*Daniel-Rops, Henri.* Bernard of Clairvaux. *New York: Hawthorne, 1964.*

*Jarrett, Bede.* Life of Saint Dominic 1170-1221. *Westminster, Md.: Newman, 1955.*

*Lamb, Harold.* The Crusades, Iron Men, and Saints. *New York: Doubleday, 1930. This popular account of the Crusades expresses the spirit of the Crusades.*

*Lea, Henry C.* A History of the Inquisition of the Middle Ages. *3 vols. New York: Harper, 1887. This is a standard work based on scholarly research in the primary documents.*

*Runciman, Steven.* A History of the Crusades. *3 vols. Cambridge: Cambridge University Press, 1951-54. This is an excellent work on the Crusades.*

*Setton, Kenneth M., ed.* The History of the Crusades. *6 vols., 4 completed. Madison: University of Wisconsin Press, 1969-.*

*Seward, Desmond.* The Monks of War. *Hamden, Conn.: Shoestring, 1972.*

*Smith, John H.* Francis of Assisi. *New York: Scribner, 1893. This is a good biography of the outstanding monk of the period.*

*Wakefield, Walter L., and Evans, Austin P.* Heresies of the High Middle Ages. *New York: Columbia University Press, 1969.*

*Warner, H.J.* The Albigensian Heresy. *New York: Russell and Russell, 1967.*

*Zwemer, Samuel L.* Raymond Lull. *New York: Funk and Wagnalls, 1902.*

## الفصل الثالث والعشرون

# التعليم والعبادة في القرون الوسطى

تواجه الكنيسة الاختيار ما بين انفصالها عن الحضارة أو التوافق معها. ولقد مارست جماعة المدرسين الاختيار الثاني (التوافق). تطورت الحركة الفكرية المدرسية ما بين ١٠٥٠ و ١٣٥٠ حيث توازت جهودها مع انتشار الرهبان المتحولين* والهرطقات التي تصاعدت في نفس هذه الفترة. ولقد وجدت هذه الحركة في الكاتدرائيات والمعاهد الرهبانية مستقرًا لها، وذلك إلى حين انشاء الجامعات في القرن الثالث عشر حيث سادت هذه الحركة على مناهج معظم الجامعات الأوربية. وقد احتل المدرسون فيما بعد عام ١٠٥٠ المكانة التي كان يشغلها آباء الكنيسة في حفظ الإيمان، وأصبح لقب الاستاذية في نفس المقام الرفيع للقب "أب" سابقًا في تاريخ الكنيسة.

## ١- الحركة المدرسية (المدرسيون)

### أ- تعريف المدرسية

يشتق تعبير المدرسية Scholasticism و"المدرسي" من الكلمة اللاتينية Scholē (المدرسة)، والتي تستخدم للإشارة إلى المكان الذي تجرى فيه العملية التعليمية. وكان لقب "المدرسين" يستخدم للإشارة إلى المعلمين في بلاط الملك شارلمان Charlemagne أو في مدرسة القصر وأيضًا للإشارة إلى العلماء الذين استخدموا الفلسفة في دراستهم للدين. وقد سعى هؤلاء العلماء إلى إثبات الحق المعروف عن طريق المنطق أكثر من سعيهم إلى اكتشاف حقائق جديدة. ويمكن تعريف الحركة المدرسية على أنها محاولة استخدام المنطق في دراسة اللاهوت بهدف تدعيم الإيمان بالإقناع والمنطق. كان يجب أن يدرس علم اللاهوت بالنسبة لهم من وجهة النظر الفلسفية أكثر من وجهة النظر الكتابية. كان المقصود هو ترتيب المعلومات التي يحتويها الوحي والإعلان الإلهي منهج نظامي وذلك باستخدام المنطق الاستنباطي الذي ابتكره أرسطو Aristotle بحيث تتوافق مع فلسفة أرسطو التي أعيد اكتشافها في هذه الفترة. واجه المدرسيون مشكلة مشابهة لتلك التي واجهت الكنيسة في القرن التاسع عشر عندما احتاجت أن توفق بين الحقائق الدينية والمكتشفات العلمية الجديدة. كان عليهم أن يحققوا المصالحة ما بين الفلسفة الطبيعية العامة التي ابتدعها أرسطو، والتي يصل إليها الإنسان من خلال العملية المنطقية، وبين الإعلان الخاص الذي يتضمنه الكتاب المقدس للحقائق اللاهوتية، والتي يقبلها الإنسان بالإيمان.

* رهبان كانوا يعيشون بما يحصلون عليه من العطايا والعشور (المترجم)

ب- أسباب ظهور الحركة المدرسية

كان السبب الرئيسي لظهور الحركة المدرسية Scholasticism هو ظهور فلسفة أرسطو Aristotle مرة أخرى في أوربا. فلم تكن أوربا تعرف الكثير عن فلسفة أرسطو فيما عدا بعض الترجمات القليلة لبعض أجزاء من فلسفة أرسطو كانت جماعة من الرهبان بقيادة بويثيوس Boethius قد قامت بترجمتها في القرن الخامس. إلى أن قام شخص يدعى William of Moerbeke (١٢١٥-٨٦) بترجمة أعمال أرسطو إلى اللاتينية من أصول يهودية أو عربية وبدأت تلك في الظهور في غرب أوربا في القرن الثاني عشر. أما ترجمة ابن رُشد Averroes الفيلسوف العربي المشهور والذي عاش ما بين ١١٢٦-١١٩٨، لأعمال أرسطو، فقد قُدمت إلى الغرب من خلال أسبانيا نحو عام ١٢٠٠. ونحو نفس الوقت ظهرت في الغرب الترجمات التي قام بها موسى بن ميمون Moses Maimonides الطبيب والفيلسوف اليهودي الشهير (١١٣٥-١٢٠٤). ورحب رجال مثل الكسندر من هيلز Alexander of Hales (تقريبًا ١١٨٦-١٢٤٥) بهذه الفلسفة وحاولوا ربطها بعلم اللاهوت.

إلا أنه يوجد سبب آخر لانتشار الحركة المدرسية Scholastic وهو اهتمام بعض حركات الرهبنة المتجولة باستخدام الفلسفة في دراسة الوحي الإلهي. كان توما الإكويني Thomas Aquinas ، وهو أعظم المدرسين على الإطلاق، ومعلمه ألبرتوس ماجنوس Albertus Magnus من الرهبان الدومنيكان Dominican ، بينما كان وليام من أوكهام William of Ockham وبونافنتورا Bonaventura من الرهبان الفرنسيسكان Franciscans. وفرت حركة تأسيس الجامعات التي بدأت في القرن الثاني عشر، مكانًا مناسبًا اعتبرته الحركة الفكرية الجديدة بيتًا لها. وسرعان ما اتخذت الجامعات الدراسات اللاهوتية محورًا لمناهج الدراسة فيها، وأصبحت جامعة باريس University of Paris في زمن أبيلارد Abelard مركزًا رائدًا للمدرسية.

ج- مضمون الفكر المدرسي

إن دارس تاريخ الكنيسة ينبغي أن يتذكر دائمًا أن المدرسيين لم يهتموا بالوصول إلى الحقيقة بقدر ما كانوا يسعون إلى ترتيب الحقائق المتاحة في نسق متوافق ومقبول. سواء كانت تلك الحقائق تم الوصول إليها بالإيمان في الإعلان الإلهي، أو بالمنطق من خلال الفلسفة. كانت الحياة الفكرية في العصور الوسطى تسعى إلى الوحدة الفكرية كما أيضًا إلى الوحدة على الصعيد السياسي والكنسي. ودفع ظهور فلسفة أرسطو في القرن الثاني عشر الكثيرين إلى التصدي لتلك المهمة العظيمة. بالنسبة إلى المدرسيين كانت بيانات دراساتهم ومضمونها ثابتة، ومطلقة، ومؤيدة بسلطان أكيد. كان مضمون دراستهم هو الكتاب المقدس نفسه، إلى جانب قوانين الإيمان التي أقرتها الكنيسة في مجامعها، وأيضًا كتابات آباء الكنيسة الأولين. وكان السؤال الذي يسعون لحسم الإجابة عليه هو ما إذا كان الإيمان المسيحي يمكن فهمه من خلال المنطق.

د- منهج المدرسية في البحث

بقدر ما كانت طرق البحث المدرسية ملتزمة بالخط اللاهوتي الخاضع للمنهج الجدلي لأرسطو أو المنطق فإن المضمون كان خاضعًا لسلطة لاهوت



اتجاهات الحركة المدرسية

| | الواقعية | الواقعية المعتدلة أو صياغة المفاهيم | الإسمانية* |
|---|---|---|---|
| العلاقة ما بين الإيمان والمنطق | إنني أؤمن لكي أعرف | أنا أعرف لكي أؤمن | إنني أؤمن – وهذا منفصل عن ما أعرف |
| طبيعة الحقيقة | universalia ante rem | universalia in re | universalia post rem |
| أهم من يمثلها | أنسلم | الأكويني وأبيلارد | وليم من أوكهام وروسيلليني |
| الأعمال والمؤلفات | Proslogion monologion | Summa Theologiae | |
| النظائر المعاصرة | الإنجيلية | الكنيسة الكاثوليكية | عصر النهضة والتنوير |

* مذهب فلسفي يقول إن المفاهيم المجردة أو الكليات ليس لها وجود حقيقي وأنها مجرد أسماء لا غير.

الكنيسة الكاثوليكية في روما. كان كل من المضمون والمنهج في المدرسية ثابت. يستخدم الباحث العلمي المعاصر المنهج التجريبي للمنطق الاستقرائي حيث لا يقر أنه حقيقة عامة إلا على أساس مجموعة حقائق نجح في ملاحظتها وتجربتها على مدى وقت طويل. أما الأسلوب الجدلي الذي استخدمه أرسطو أو الأسلوب المنطقي فهو يعتمد على الاستنتاج أكثر من الاستقراء ويركز على القياس المنطقي باعتباره الأداة التي نستخدمها في المنطق الاستنتاجي. والمفكر الذي يستخدم المنهج الاستنتاجي يبدأ بحقيقة عامة أو قانون معين على أساس أنه مسلم به. ثم يربط هذا المبدأ العام بأي معلومة معينة ومن خلال العلاقة بين المبدأ العام وتلك المعلومة المعينة يستنبط استنتاجاً نهائياً يصبح بدوره مبدأ عاماً جديداً يمكن ربطه بمعلومات أخرى جديدة. أخذ المدرسيون هذا المنهج في البحث من أرسطو. وأخذوا المبادئ العامة للفلسفة من الإعلان اللاهوتي، ثم باستخدام منهج أرسطو سعى المدرسيون إلى الوصول إلى نتائج يمكن اعتمادها واستخدموها للوصول إلى النسق الفكري المتوافق الذي كانوا ينشدونه. وتم ترتيب أجزاء من الكتاب المقدس وكتابات الآباء وقوانين الإيمان والقرارات البابوية في ترتيب متسلسل يمكن إخضاعه للترتيب المنطقي.

### هـ- المدارس المختلفة للحركة المدرسية

بعد أن حددت الحركة المدرسية Scholasticism مضمونها وطريقتها، وبعد أن أخضعت نفسها لسلطان الكنيسة من ناحية ولأرسطو Aristotle من ناحية أخرى. اختار معظم المدرسيون أن يضمهم الإطار الفلسفي المبني على الفلسفة اليونانية، وأصبح التقييم يعتمد على مدى اتباع الفكر المدرسي للموقف العام لأفلاطون وأرسطو فيما يختص بمشكلة طبيعة الكليات أو الواقعية المطلقة وعلاقة الإيمان بالمنطق.

### ١- الواقعية Realism

أصرّ أفلاطون كما أصرّ معلمه سقراط وأرسطو من قبله أن الكليات مثل الكنيسة أو الإنسان لها وجود موضوعي في ذاتها.* ولكن أفلاطون Plato أصرّ على عكس أرسطو أن مثل هذه الكليات أو الأفكار لها وجودها المنفصل عن الأشياء المعينة أو الأفراد. فعلى سبيل المثال فإن أفلاطون اعتقد بأن هناك مفاهيم عامة للحق والجمال والصلاح لها وجودها الخاص الذي لا يعتمد على ما يفعله البشر من حق أو جمال أو صلاح. وقد تم تلخيص وجهة النظر هذه في العبارة اللاتينية Universalia ante rem ومعناها أن الكليات العامة موجودة قبل المخلوقات. فالعمل الصالح على سبيل المثال هو بكل بساطة ظل أو انعكاس لمفهوم الصلاح ذات الوجود الموضوعي المنفصل عن العمل ذاته. لذا فإن أفلاطون أصرّ أن البشر ينبغي أن ينظروا لما وراء هذه الحياة ليجدوا الحقيقة المطلقة. كان أغسطينوس Augustine رائداً بين المفكرين وجاء من بعده أنسلم Anselm حيث طبق كل منهما هذا الاتجاه في فهم اللاهوت. وقد عرف هذا الاتجاه الفكري بالواقعية Realism، وهي التي اتخذت عند بعض المفكرين صورة مذهب وحدة الوجود الذي يقول إن كل الأشياء يمكن دمجها في الكلي.

• كان المذهب الواقعي في فلسفة العصور الوسطى هو المقابل للمذهب الأساسي حيث كان يجعل للكليات وجوداً واقعياً مطلقاً (الموسوعة الفلسفية) المترجم.





أ- أنسلم Anselm (تقريباً ١٠٣٣-١١٠٩)، وُلد في شمال إيطاليا وحصل على تعليمه في دير Bec وانتخب رئيساً للدير وظل يشغل هذا المنصب حتى تم تعيينه رئيساً لأساقفة كانتربري في ١٠٩٣. وقد قاوم أنسلم موضوع إعطاء المناصب الكنسية للعلمانيين وهو ما دأب الملوك الإنجليز على ممارسته، لكن شهرته الحقيقية ترجع إلى مجهوداته الفكرية في مجال الدراسات اللاهوتية.

ويمكن تلخيص فكر أنسلم في العلاقة ما بين الإيمان والمنطق في العبارة اللاتينية Credo ut intelligam ومعناها (أنا أؤمن لكي أعرف) فالإيمان ينبغي أن يكون هو الأساس الذي تُبنى عليه المعرفة. كان هذا هو الموقف الأساسي الذي تمسك به أغسطينوس Augustine قبل عدة قرون. طبق أنسلم مبدأ استخدام المنطق لإثبات حقائق الإيمان في مؤلفين عظيمين. أولهما عُرف باسم المناجاة Monologion وهو في الواقع طرح استقرائي يبدأ من النتيجة ويصل إلى السبب في وجود الله. وهذا الطرح هو من ضمن ما يسمى بالبرهان الكوني Cosmological Argument ويمكن عرضه كما يلي: يستمتع الإنسان بأمور صالحة كثيرة متاحة له في الحياة. وهذه الأمور الصالحة ما هي إلا انعكاس للصلاح الأوحد الأكبر الذي يستمد منه كل شئ وجوده وحيث أنه لا يمكن تصور النكوص اللانهائي فإننا نقول إن السبب في كل شئ لابد وأن يكون هو نفس الواحد الذي أطلقنا عليه اسم الله. أما المؤلف الثاني لأنسلم ومعروف باسم "العظة" Proslogion وهو طرح استنتاجي لإثبات وجود الله يُعرف باسم البرهان الوجودي Ontological Argument وهو مبني على عقيدة التطابق. وقد كتب أنسلم يقول إن كل إنسان لديه تصور في عقله عن كائن أسمى يمثل الكمال. وينبغي أن تتطابق مثل هذه الفكرة أو التصور مع حقيقة لها أساس موضوعي لوجودها، إذ لو افتقر مثل ذلك الكائن للوجود الموضوعي لما استطعنا اعتباره مقياساً للكمال ولا استطعنا حتى إدراكه باعتباره أعظم من كل ما نعرف ولأنه لا توجد فكرة أكبر من وجود الله كالكائن الكامل الأسمى يمكن إدراكها لذلك فلابد أن يكون الله موجوداً فعلياً.(١)

وبالرغم من أن هذه البراهين وغيرها من البراهين العقلية التي تحاول إثبات وجود الله لا تقدم دليلاً شاملاً يدل على وجوده، إلا أنها بلاشك لها قيمتها في مساعدة الشخص المفكر على إدراك أنه لو رفض وجود الله فإنه لا يستطيع فعلياً تفسير أي شئ آخر.

ولقد صاغ أنسلم أيضاً نظرية في الكفارة Atonement وذلك في كتابه Cur Deus Homo (لماذا صار الله إنساناً) وكتب يقول: الإنسان مدين لله بالطاعة المطلقة. إلا أن هذه الطاعة لم يقدمها الإنسان له منذ خطية آدم، وتراكم دين الإنسان نحو الله الذي طالب إما بدفع الدين أو بتسويته بعقاب الإنسان. دفع هذا الدين الذي عجز الإنسان عن دفعه الله الظاهر في الجسد - المسيح - وذلك بموته على الصليب. فتحرر الإنسان من التزامه بالدين تجاه الله. كانت نظرة أنسلم للفداء والكفارة لها طابع تجاري، لكن هذه النظرية التي صاغها هي التي سادت الفكر السليم حتى زمن توما الأكويني Thomas Aquinas في القرن الثالث عشر، وأنهت وجهة النظر التي سادت من أيام الآباء بأن الكفارة والفداء كانت فدية دُفعت إلى الشيطان.



*وفق توما الاكويني ما بين المنطق والإيمان وابتكر منهجًا للاهوت النظامي في كتابه Summa Theologiae حيث أصبح هذا الكتاب التفسير التقليدي للعقيدة اللاهوتية في الكنيسة الكاثوليكية في القرون الوسطى. ويصور هذا الرسم أرسطو على يمين توما وأفلاطون على يساره وعند قدميه يظهر الفيلسوف الشرقي ابن رشد الذي كتب تفاسير لفلسفة أرسطو وقد صرعه شعاع النور الخارج من كتاب توما الأكويني اللاهوتي.*



**ب- المراجع:** شغلت المؤلفات الكبرى مكانًا هامًا في حياة المفكرين والعلماء في العصور الوسطى. بعض هذه المراجع كان مثلا ما كتبه جراتيان Gratian في كتاب باسم Decretum وهو مؤلف قانوني Canon Law. وأيضًا ما كتبه بيتر لومبارد Peter Lombard (١١٠٠-١١٦٠) وهو أستاذ نابغ للعلوم اللاهوتية في جامعة باريس، وقد كتب ما يمكن اعتباره المرجع اللاهوتي الأساسي في العصور الوسطى وهي مؤلفاته الأربعة والمعروفة باسم الأحكام Sentences وهي عن الثالوث والتجسد والأسرار المقدسة والأخرويات. ركَّز لومبارد في كتاباته على أهمية أسرار الكنيسة السبعة التي كان مجمع فلورنسا Council of Florence في ١٤٣٩ قد قبلها واعتبرها قانونية.

## ٢- الواقعية Moderate Realism المعتدلة

كان لأرسطو وجهة نظر أكثر اعتدالاً فيما يختص بطبيعة الحقيقة. فقد أصرَّ على أن المفاهيم العامة لها وجود موضوعي ولكنها لا توجد منفصلة عن الأشياء أو الأفراد بل هي موجودة في الأشياء وفي فكر الأفراد. ومثل هذه النظرية تمت صياغتها في العصور الوسطى باستخدام عبارة Universalia in re والمدرسيون الذين عاشوا في العصور الوسطى وقبلوا الإطار الذي عبر عنه أرسطو Aristotle عُرفوا على أنهم من الواقعيين المعتدلين. يمكن اعتبار أبيلارد وتوما الاكويني من بين هؤلاء الواقعيين المعتدلين أو كما يسميهم البعض أصحاب الاتجاه المفاهيمي.

### (أ) أبيلارد Abelard(١٠٧٩-١١٤٢)

وقد وُلد في إقليم بريتاني واشتهر من بداية حياته بسبب قدراته الذهنية. وقد اشتهرت محاضراته اللاهوتية التي ألقاها في جامعة باريس حتى إنه كان يحضرها آلاف من الطلبة في بعض الأوقات. وقد وقع أبيلارد في حب إحدى تلميذاته واسمها هيلويز Heloise وكانت ابنة أخت زميل له يدعي فولبرت. ولكن عندما اكتشف فولبرت علاقة الحب التي أدَّت إلى الزواج بين أبيلارد وهيلويز غضب جدًا وانتقم انتقامًا دمويًا بأن سلط جماعة من المجرمين على أبيلارد حيث هاجموه وشوهوه تمامًا. فما كان منه إلا أنه أقنع زوجته بالدخول إلى الدير. وكانت أفكار أبيلارد اللاهوتية تلقى مقاومة شديدة من برنارد دي كلاريفو Bernard de Clairvaux الذي نجح في تحجيم شهرته مما أجبر بيلارد بعد هزيمته إلى الاعتزال في أحد الأديرة حتى وفاته.(٢)

كان موقف أبيلارد اللاهوتي يمثل الواقعية المعتدلة. وقد آمن أن الحقيقة وُجدت أولاً في فكر الله، ثم وُجدت هنا والآن في الأفراد والأشياء وليس في مجال أسمى وأبعد من هذه الحياة الحاضرة. ثم إن الحقيقة توجد في نهاية الأمر في فكر الإنسان وعقله. وعلى النقيض من فكر أغسطينوس Augustine وأنسلم، تمسك أبيلارد بفكرة (أنا أعرف لكي أؤمن) Intelligo ut credam. وفي تأكيده على مكانة المنطق في تطوير واستيعاب الحق، فإنه كان يلجأ إلى المنطق لتدعيم سلطان الحق. كان يرى أن الشك يقود إلى البحث والبحث لابد وأن يصل إلى الحق. اعتقد أن موت المسيح لم يكن لإرضاء الله بل للتأثير على الإنسان بمحبة الله حتى يؤدي ذلك بالإنسان إلى تسليم حياته لله وهذه النظرة للفداء والكفارة Atonement تُعرف باسم نظرية التأثير المعنوي.

أما أهم مؤلفات بيلارد فهو كتاب Sic et Non ويتكون هذا الكتاب من ١٥٨ مسألة لاهوتية وقد رُتبت لبيان آراء الآباء سواء المؤيدة أو المعارضة لبعض الأفكار المعينة. استطاع أبيلارد Abelard بذلك أن يُظهر التناقضات الموجودة بين الآباء وكان يأمل أن يؤدي هذا المجهود إلى حل هذه التناقضات.[٣] لم يرفض أبيلارد ما تقوله الكنيسة الكاثوليكية في المسائل اللاهوتية لكن منهجه جعل الكثيرين يشعرون أنه يبالغ في تركيزه على دور المنطق ومن ثم يمثل تهديداً للحق.

(ب) ألبيرتوس ماجنوس Albertus Magnus (تقريباً ١١٩٣-١٢٨٠)

وقد اشتهر عنه لقب "الاستاذ الشامل" وذلك بسبب الاتساع المذهل في مجال معرفته، وكان أيضاً يُدرس في جامعة باريس، إلا أن أعظم مؤلفاته كتبها في كولون مسقط رأسه. وأهم مؤلفاته عبارة عن مجلدات في اللاهوت ودراسة الطبيعة والخليقة. حيث تعرض في هذه المجلدات إلى العلوم اللاهوتية والعلوم الطبيعية في محاولة لتحقيق توافق ومصالحة ما بين العلم والدين. تلك المصالحة التي حققها من بعده تلميذه توما الاكويني.

(ج) توما الأكويني Thomas Aquinas (١٢٢٥-٧٤)

والمعروف بلقب "الاستاذ الملائكي" كان من أصل نبيل حيث كانت أمه أخت فريدريك بارباروسا Frederick Barbarrossa. وقد تلقى علومه في Monte Cassino وفي جامعة نابولي، وأصبح راهباً من الدومنيكان Dominican ضد رغبة والديه وكرس نفسه للدراسة. كان توما ضخم الجسم قليل الكلام بطئ الحركة ويبدو وكأنه شارد الذهن وكان زملاؤه في الدراسة في كولون يهزأون به ويلقبونه بالثور الأبكم إلا أن أستاذه ألبيرت دافع عنه وتنبأ له بتأثير واسع على العالم.

وانصب مجهود توما في البحث على مسألة التوفيق بين فلسفة أرسطو Aristotle الطبيعية، التي كانت من العلوم الحديثة آنذاك، واللاهوت المعلن في الكتاب المقدس كما تفسره الكنيسة. وهو في محاولته تلك أخذ لنفسه موقف الواقعية المعتدلة بل وأصبح أبرز مفكري المدرسية الذين تمسكوا بهذا الموقف. كان من اعتقاد توما الإكويني أنه في مجال الفلسفة الطبيعية، كما في العلم الحديث، فإن الإنسان يمكنه باستخدام التفكير المنطقي وقواعد أرسطو للمنطق أن يصل إلى حقائق مثل وجود الله، والعناية الإلهية والخلود. أما خارج ذلك المجال فإن مصدر معرفة الإنسان فيما يختص بموضوعات مثل التجسد، الثالوث وارتباط الخلق بالزمن، الخطية، المطهر، لا يمكن إلا أن يكون الإعلان الإلهي المتمثل في الكتاب المقدس في ضوء تفسير الآباء والمجامع المسكونية له. وُجدت الحقيقة في فكر الله قبل أن توجد في الأشياء أو فكر الإنسان. حاول توما الاكويني التوفيق بين المنطق والإيمان في منظومة شاملة للحق وذلك في مؤلفه المشهور Summa Theologiae.[٤] ورأى أنه بما أن كل من الإيمان والمنطق يأتي من الله فلا يمكن وجود تعارض بينهما. ويعتبر كتابه Summa ... contra Gentiles مؤلفاً جامعاً لمسائل جدلية عن إعلان الطبيعة والهدف منه تدريب المرسلين الذين يخدمون بين غير المسيحيين.

ويتألف كتابه Summa Theologiae من ثلاثة آلاف بند تحوي ستمائة سؤال مقسمة إلى ثلاثة





أقسام رئيسية. وكان القصد من هذا الكتاب أن يكون بمثابة شرح منظم لكل القضايا اللاهوتية. وقد أصبح فعلاً التفسير التقليدي للاهوت النظامي للكنيسة الكاثوليكية. ويعكف العلماء اللاهوتيون المعرفون باسم الأكوينيين الجدد Neo-Thomistics على دراسة التراث الفكري الرائع الذي خلفه توما الأكويني بنفس الشغف الذي كان لمعاصريه في القرون الوسطى. يتعرض الجزء الأول من هذا المؤلف لمناقشة قضية وجود الله وطبيعته وذلك بتأكيد وجود الله. ويناقش هذا الجزء أيضاً قضية الثالوث ودوره في عملية الخلق. أما الجزء الثاني فيناقش "تقدم الإنسان نحو الله". لقد ركز توما انتباهه على طبيعة الأخلاق والفضائل مؤكداً أن إرادة الإنسان تشوهت بالخطية، وإن كانت لن تستعبد بالكامل للشر. ونراه هنا وقد انفصل عن أغسطينوس Augustine الذي اعتقد أن الإرادة الإنسانية غير قادرة بالمرة على مساعدة الإنسان في سعيه نحو الله. أما الجزء الثالث فهو يدور حول المسيح باعتباره الطريق إلى الله وينبر على تجسد المسيح وحياته وموته وقيامته. ويختتم هذا الجزء بمناقشة السبعة أسرار على اعتبار أنها وسائط النعمة التي أسسها المسيح. لقد تشارك توما الأكويني Thomas Aquinas مع كثير من مفكري عصره في إيمانهم بأهمية التسلسل الهرمي للحق والنظام. ولقد عبر دانتي Dante من الكوميديا الإلهية Divine Comedy عن وجهة نظر توما الأكويني في هذا الأمر، وتبنى البابا ليو الثالث عشر Leo 13th رسمياً رأي توما الأكويني في عام ١٨٧٩.

وقد برر الأكويني فكرة صكوك الغفران Indulgences، التي ابتكرتها الكنيسة لكي يعفي الإنسان نفسه بواسطتها من اتمام بعض أعمال التوبة المفروضة عليه، بررها بالتأكيد على استحقاقات المسيح والقديسين وفرصة استفادة المؤمنين منها. وافترض أن الكنيسة تستطيع أن تسحب من رصيد هذه الاستحقاقات لحساب التائبين من أبنائها. كان موقفه الواقعي المعتدل وراء تركيزه على كون الكنيسة مؤسسة جامعة وذلك على حساب حرية الفرد. أيضاً هناك خطر في افتراضه وجود مجالين للمعرفة، الفلسفة الطبيعية والإعلان الكتابي كما تفسره الكنيسة، حيث يمكن أن يقود مثل هذا الافتراض إلى الإيمان بازدواجية الحق وانفصال المعرفة بين المجالين.

٣- الإسمانية Nominalism

كان هذا المذهب الفلسفي من ضمن اتجاهات المدرسية في العصور الوسطى ولكن أصحابه كانوا يعارضون الواقعية والواقعية المعتدلة معاً. ومن الأمثلة الواضحة لهذا الاتجاه الفلسفي كان روسيلينيوس Roscellinus ومن بعده وليم من أوكهام William of Ockham. ويمكن اجمال وجهة نظرهم في العبارة اللاتينية Universalia post rem والتي تعني أن المفاهيم المجردة أو الكليات ليس لها وجود موضوعي خارج الفكر، بل إنها مجرد أفكار ذاتية لها صفات معروفة تم تطويرها بواسطة الفكر كنتيجة لملاحظة بعض الأمور المعينة. والكليات ليس إلا أسماء أكاديمية. فالعدل مثلاً هو ببساطة الفكرة المركبة التي يستنتجها الإنسان من ملاحظة تنفيذ العدل في الواقع. وقد ركَّز أصحاب الفلسفة الإسمانية كثيراً على الفرد، بينما اهتم الواقعيون، والواقعيون المعتدلون بالجماعة والمؤسسة أكثر من اهتمامهم بالفرد. كان الإسمانيون بمثابة الطلائع التي ظهرت

في العصور الوسطى لاتجاهات مثل التجريبية التي ظهرت في القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر، ومثل الوضعية والبراجماتية السائدة في يومنا هذا. لم ينكر الإسمانيون Nominalists فكرة الإعلان بل على العكس قالوا بوجود الإيمان بالإعلان الإلهي على أساس سلطته ويغض النظر عن خضوعه للمنطق، لأنهم رأوا أن الكثير مما نادت به الكنيسة على أنه ذات سلطة إلهية لا يمكن تمحيصه بالمنطق.

(أ) سرعان ما بدأ الرهبان الفرنسيسكان Franciscans في انتقاد مؤلفات توما الأكويني والذي كان ينتمي إلى رهبنة الدومنيكان المنافسة لهم. وأدى مثل هذا الانتقاد إلى تبلور موقف إسماني كانت له السيادة خلال القرن الرابع عشر، وهي فترة انحسار للحركة المدرسية. ومع أن John Duns Scotus (تقريباً ١٢٦٥-١٣٠٨) نبّر على الفرد أكثر من المؤسسة إلا أنه لم يكن من الإسمانيين. لكن وليم من أوكهام William of Ockham (١٢٨٠-١٣٤٩) كان هو الذي ساهم في بلورة الصياغة الكاملة للإسمانية. فقد أصر أوكهام على أن العقائد اللاهوتية لا يمكن ولا ينبغي محاولة عرضها منطقياً بل ينبغي قبولها على أساس سلطان الكتاب المقدس. يفصل مثل هذا الرأي بين الإيمان والمنطق ويرفض محاولة توما الأكويني Thomas Aquinas التوفيق بين مجالي المنطق والإعلان الإلهي. أنكر أوكهام أيضاً وجود مفاهيم عامة موضوعية وتمسك بالموقف القائل إن المفاهيم العامة (الكليات) ما هي إلا مجرد تسميات للمفاهيم العقلية التي يطورها البشر داخل عقولهم. وقال إن الفرد له وجود حقيقي وإنه أهم بكثير من أي مؤسسة. وكان لتقليل أوكهام من أهمية سلطان الكنيسة باعتبارها ليست مؤسسة فكرية أثره في لفت نظر مارتن لوثر Martin Luther إلى مؤلفاته.

(ب) روجر بيكون Roger Bacon (تقريباً ١٢١٤-٩٢) ينتمي بيكون لنفس المدرسة التي خرج منها أوكهام لكنه كرس وقته للتجارب العلمية. فوضع بذلك أسس العلوم التجريبية وهو المنهج الذي طوره فرانسيس بيكون في القرن السابع عشر. وهذا المدخل إلى الحقائق عن طريق التجارب في مجال الطبيعة، يتوافق تماماً مع موقف الإسمانية.

وقد اهتمت هذه الحركة الفكرية التأملية في الكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى، بمسألة الوحدة في حياة الإنسان الفكرية بحيث تتوافق وتنسجم معرفته الروحية مع معرفته المنطقية لتعطي له اليقين سواء من جهة إيمانه أو من جهة تفكيره المنطقي. كان الصراع ما بين الإسمانية والواقعية هو المشكلة العظمى التي واجهت المدرسيين في بداية الحركة المدرسية ما بين ١٠٥٠ و ١١٥٠م. في تلك الفترة انتصرت الواقعية بأبطالها أمثال أنسلم Anselm وبرنارد Bernard. وخلال فترة المدرسية العالية High Scholasticism، أي ما بين ١١٥٠-١٣٠٠، انتصرت الواقعية المعتدلة في موقعتها ضد الإسمانية بقيادة الأكويني. ولكن خلال السنوات التي تلت عام ١٣٠٠ كسبت الإسمانية مواقع كثيرة في تفكير قادة الكنيسة اللاهوتيين.

### و- نتائج الحركة المدرسية

دعمت الحركة الواقعية، والواقعية المعتدلة، كل من أسرار الكنيسة ونظامها الرياسي وذلك بالتأكيد على الكليات الذي يؤدي إلى اخضاع الفرد إلى المؤسسة أو الجماعة الأبقى. كان تركيز الأكويني





على أن الأسرار الكنسية هي وسائط النعمة له دور في تقوية سيطرة الكنيسة الكاثوليكية على الفرد على أساس أنه لا يوجد خلاص بعيداً عن الأسرار الكنسية التي لا يمكن لأحد غير كهنة الكنيسة تقديمها.

وقد أدى رأي الأكويني بأن الفكر يأتي قبل الإعلان الإلهي كوسيلة للمعرفة ويكتمل بواسطة ذلك الإعلان، أدى إلى خطر أن يفصل الناس الحقائق التي تأتي إليهم من كلا المصدرين باعتبارهما دائرتين منفصلتين، المادي والروحي. إن مثل هذا الانفصال يظهر بوضوح في فكر الإسمانيين Nominalists ، الذين اعتقدوا أنه هناك مجالاً للحقائق العلمية وأخذ للحقائق اللاهوتية بدلاً من أن يروا أن المجالين هما ببساطة أجزاء من كل أشمل متحد في الله الخالق.

أوجدت الإسمانية اهتماماً جديداً بالإنسان، لأنه بحسب ما نادت به فإن وجود الفرد حقيقي أكثر من وجود المؤسسة. وقد دعم هذا الاهتمام الجديد بالإنسان الكثير من الاتجاهات المادية التي سادت عصر النهضة حيث بدأ الناس يفكرون في الإنسان على أنه كائن مستقل، مما أدى إلى تمجيد المنهج التجريبي واعتباره المصدر الرئيسي للحقائق. واندفع آخرون من الذين اعتنقوا آراء الإسمانية في اتجاه الصوفية كطريقة يمكن للفرد من خلالها أن يدخل مباشرة إلى محضر الله. إلا أن أهم الانجازات هي أن كتاب اللاهوت Summa Theologiae الذي ألّفه توما الأكويني Thomas Aquinas قدم للكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى والعصر الحديث أيضاً مرجعاً موثوقاً به حقق الانسجام والتوافق ما بين الفلسفة والدين.

ويسعى اليوم الاكوينيون الجدد Neo-Thomists إلى إعادة دراسة مؤلفات توما الاكويني لتحقيق التوافق ما بين العلم والدين بما يناسب احتياج الكنيسة الكاثوليكية اليوم. ولا نستطيع أبداً أن نتهم المدرسيين بالسفسطة والجدل اللانهائي أو أن ننكر الدور الذي قاموا به في صياغة فكر الكنيسة.

## ٢- قيام الجامعات

بدأ تطور دور الجامعات Universities كمراكز للتعليم والبحث حول عام ١٢٠٠ ومع حلول عام ١٤٠٠ كان هناك أكثر من خمسة وسبعين جامعة في أوروبا. وقد مثلت الدراسات المدرسية الجزء الأكبر من مناهج هذه الجامعات. وترجع أصول معظم الجامعات الكبرى في أوروبا اليوم إلى تلك الفترة. كان التعليم العالي موجوداً قبل تطور الجامعات، لكن بعد تأسيس وقيام هذه الجامعات انتقل لواء التعليم العالي من الأديرة والمدارس الملحقة بالكاتدرائيات إلى الجامعات الجديدة.

### أ- أسباب قيام الجامعات

توجد عدة أسباب تفسر سرعة قيام وتأسيس الجامعات قبل ١٢٠٠ فنحو عام ٤٢٥ طوّر مارتيانوس كابيلا Martianus Capella نظام التعليم الروماني الرباعي والثلاثي لاستخدامه في التعليم الديني. فكان النظام الثلاثي يشمل النحو والخطابة والمنطق. أما النظام الرباعي فكان يشمل الهندسة والحساب والفلك والموسيقى. كان النظام الثلاثي نافع لتدريب رجال الكنيسة على مخاطبة الجماهير حتى يستطيعوا القيام بواجبهم في الوعظ بفاعلية. أما النظام الرباعي فكان نابعاً لتحديد تواريخ احتفالات الكنيسة المختلفة. كانت

هذه الدراسات تستخدم في مدرسة القصر التي أنشأها الملك شارلمان Charlemagne وكانت مصممة على نمط مدارس الأديرة في الفترة ما بين ٥٥٠-١١٠٠م. أما مراكز التعليم العالي الأخرى فقد نشأت مرتبطة بالكاتدرائيات الكبرى التي كانت تحت إشراف أسقف أو رئيس أساقفة. فجامعة باريس University of Paris تطورت من المدرسة الملحقة بكاتدرائية نوتردام. والسبب الثاني وراء نهوض الجامعات كان وجود مدرس عظيم في مدرسة ما. ففي القرن الحادي عشر، اكتسب إيرناريوس Irnerius شهرة بوصفه استاذاً عظيماً للقانون الروماني، وتدفق الطلبة إلى بولونيا لسماع محاضراته. فسرعان ما أنشئت جامعة نشيطة في بولونيا University of Bologna. وقد ساهمت أيضاً شهرة أبيلارد Abelard كأستاذ ومعلم اسهاماً كبيراً في تطوير جامعة باريس.

كما ظهرت جامعات أخرى كنتيجة لتمرد الطلبة أو عمليات الهجرة فلان ملوك انجلترا وفرنسا كانوا دائمي التفاخر نحو منتصف القرن الثاني عشر، تمرد الطلبة الإنجليز الذين كانوا يدرسون في باريس لأنهم شعروا بإساءة معاملتهم في جامعة باريس، فرفضوا ظروف معيشتهم هناك وانتقلوا معًا إلى أوكسفورد في انجلترا في سنة ١١٦٧ أو ١١٦٨، فكانت مثل هذه الثورة الطلابية سببًا في نمو جامعة اكسفورد العظيمة. وجامعة كامبردج نمت جدًا بعد تمرد مشابه لطلبة جامعة اكسفورد ونزوحهم الجماعي إلى كامبردج في عام ١٢٠٩.

### ب- تنظيم الجامعات الأوروبية

تختلف أسس تنظيم الجامعات في العصور الوسطى Medieval University اختلافاً كبيراً عن أسس تنظيمها في الزمن الحاضر. اشتقت كلمة "الجامعة" University أو التي نستخدمها اليوم في كلمة Universitas والتي كانت تشير إلى رابطة أو نقابة تجمع الطلبة أو الاساتذة بهدف حماية مصالحهم المشتركة بينما هم يقومون بعملهم وكانت عبارة تستخدم لوصف مثل هذه الجماعة في إطار وظيفتها التعليمية.

وقد اتبعت جامعات جنوب أوربا النموذج المتبع في بولونيا، حيث شكلت هذه الروابط من الطلبة الذين نظموا أنفسهم لتحقيق الحماية لأنفسهم من سوء معاملة المدن التي كانوا يدرسون فيها، أو لحمايتهم من تخلي أساتذتهم عن مسئولية تعليمهم. كان لكل جامعة لائحة تحدد حقوقها وواجباتها وامتيازاتها يمنحها لها الملك أو النبيل الذي تخضع له الأرض التي ستقام عليها. وقد اشتهرت بولونيا بدراسة القانون لكن ساليرنو اشتهرت بدورها بتعليم الطب وبأبحاثها المتقدمة في علومه. أما الجامعات في شمال أوربا فقد اتبعت النموذج الذي طبقته جامعة باريس ففي باريس كانت الرابطة التي تُمنح لها المرسوم هي رابطة الأساتذة.

كانت الجامعة عادة مكونة من أربعة تخصصات. كانت الفنون والآداب هي التخصص العام الذي يدرسه الجميع. أما اللاهوت والقانون والطب فكانت تعتبر مثل الدراسات العليا. كان الطلبة الذين يدرسون الفنون والآداب يدرسون المنهاج الثلاثي ويحصل دارسه على درجة البكالوريوس. أما الدراسات الأخرى والتي كان يدرس فيها المنهاج الرباعي فكان الطالب يمنح في نهايتها درجة الماجستير وكانت المؤهل اللازم لمن يريد أن يعمل بالتدريس في الجامعة. أما إذا





استمر في دراسته في تخصص آخر فكان يحصل على درجة الدكتوراه في القانون أو اللاهوت أو الطب.

كان طلبة جامعات العصور الوسطى Medieval University يبدأون دراساتهم وهم مازالوا في الرابعة عشر من العمر، وإن كان معظمهم يدخلون الجامعة وهم ما بين السادسة عشر والثامنة عشر سنة. كانوا يتمتعون بامتيازات رجال الكنيسة. وكانت الامتحانات شفوية وشاملة وتجرى أمام جمهور وكان على الطالب الممتحن أن يدافع عن بحثه أمام الأساتذة أو غيره من الطلبة. كانت المحاضرات تقدم باللغة اللاتينية. ولأن المراجع لم تكن متاحة إلا للأساتذة فإن الطالب كان عليه أن يحفظ الكثير من المعلومات عن ظهر قلب. فكانت القدرة على الحفظ واستخدام المنطق السليم مهمًا على نفس الدرجة من الأهمية مثل أهمية القراءة والبحث في الجامعات الحديثة. وكانت العملية التعليمية في مجملها تتم عن طريق المحاضرات والمناظرات العلمية.

وترجع أصول معظم مظاهر الحياة الجامعية الحديثة إلى زمن العصور الوسطى. فأسماء الكثير من الدرجات العلمية، والإمتحانات والأرواب الجامعية وغطاء الرأس والعناصر الأساسية للمناهج الدراسية الجامعية، كل هذه تمت صياغتها في العصور الوسطى. فوجود أجيال متعاقبة من الطلبة وتشجيع التعلم عن طريق البحث ما هي إلا ملامح ورثتها الجامعات الحديثة من جامعات العصور الوسطى. وفوق الكل فإن جامعات العصور الوسطى هي التي حفظت وطورت وأحيت الدراسات اللاهوتية. فقد كان أعظم العلماء من أساتذة الجامعة البارزين. وقد خدمت الجامعات مصالح الكنيسة في العصور الوسطى وذلك بإعداد الأشخاص للخدمة في رحاب الجامعة مثلما تفعل جامعات اليوم في إعداد المتخصصين في مجالات العلوم والصناعة. وقد ارتبطت المدرسية مع الجامعات ارتباطًا وثيقًا لخدمة الكنيسة، حيث دفعت الجامعات بنهر متدفق من الأشخاص الذين تم تدريبهم في الفنون والقانون واللاهوت الذين انضموا لصفوف خدام الكنيسة.

## ٣- الحياة والعبادة في العصور الوسطى

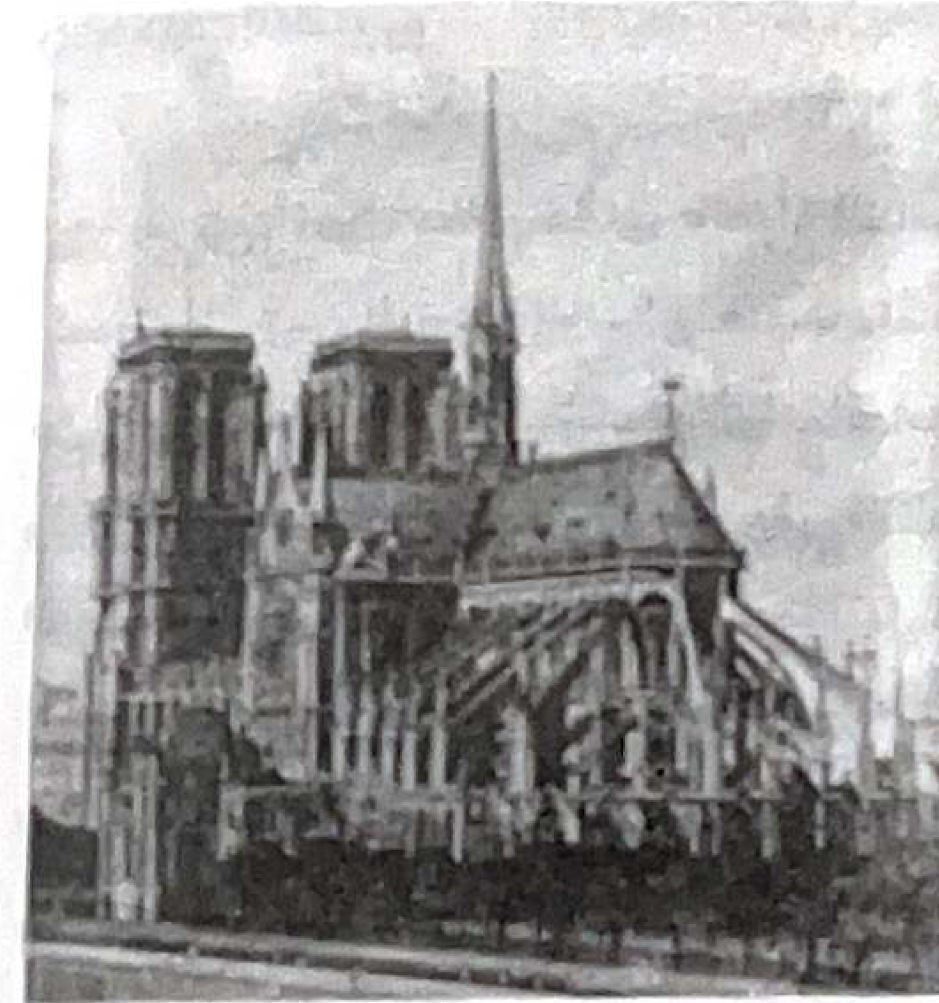
تميزت العمارة القوطية Gothic Architecture بطابع بيزنطي حيث استخدمت القباب العظيمة المعلقة على المقرنصات المزينة في كنائس مثل سانت صوفيا وسان مارك. ثم بعد ذلك جاءت العمارة الرومانية Romanesque من ١١٠٠-١١٥٠ يميزها الأقواس الثقيلة المستديرة وتصميم الكنائس على شكل الصليب. وتعتبر كاتدرائية درهام نموذجًا جيدًا بهذا الطراز المعماري Architecture.

كانت الجامعات تتميز بأبراجها والتي كانت تمثل الحركة المدرسية داخل هذه الجامعات على الناحية الأخرى تميزت الكاتدرائيات القوطية بالأبراج العالية المدببة. وكانت الكاتدرائيات العظيمة التي تم بناؤها في العصور الوسطى تتميز بخطوطها الرأسية أي بارتفاع مبانيها للسماء، وكان يستغرق بناء الواحدة منها قرابة قرن كامل. كانت مباني هذه الكنائس العظيمة تمثل طبيعة

العصر الروحية بمقدار ما تمثل ناطحات السحاب اليوم، الروح المادية لعالم اليوم. وقد تم بناء معظم هذه الكنائس العظيمة في شمال وغرب أوربا ما بين ١١٥٠ - ١٥٥٠م. وكان للعمارة القوطية Gothic روادها ولاسيما في فترة ذروتها في القرن الثالث عشر وكان من بينهم سوجر رئيس دير سان دينيس.

وبالرغم من انتقاد المعماريين الذين جاءوا في عصر النهضة الذي تميز بارتباط قيمه بالحياة الأرضية، للطراز المعماري للعصور الوسطى ووصفهم إياه بأنه بربري متوحش - أي قوطي. إلا أن المعماريين في العصور اللاحقة لم يتمسكوا بهذا الرأي. وتتميز المباني القوطية ببعض الخواص التي تظهر مهارة مهندسي وعمال العصور الوسطى. فانك عندما تدخل إلى كاتدرائية من الطراز القوطي، لابد وأن تلاحظ تصميم المبنى الذي يتخذ من الصليب شكلاً له تعبيره عن الرمز الأساسي لايمان الكنيسة في المسيحية. واستخدام مهندس الطراز القوطي للأقواس المدببة بدلاً من الأقواس الرومانية المستديرة لايمكن أن تخطئه العين حيث أن تلك الأقواس تقود الناظر تلقائياً إلى أعلى مبتعداً عن الأرض متطلعاً إلى السماء. وتنقل الأكتاف المعلقة والقوائم المقوسة التي تشبه الاضلاع ثقل السقف إلى الأرض مما يتيح أن تكون الأجزاء العليا من الحوائط الجانبية رقيقة مما يسمح بوجود عدد كبير من النوافذ الكبيرة التي تسمح بدخول الضوء وهي احتياج كبير للمباني في شمال أوربا حيث النهار قصير في الشتاء الطويل. وغالباً ما يكون هناك ثلاثة أبواب في الطرف الغربي من مبنى الكنيسة. وكانت كل عناصر الزينة التي تستخدم في تزيين المبنى سواء كانت نوافذ الزجاج الملون أو التماثيل تخضع بشكل مباشر للتصميم العام للمبنى ككل فمثلاً يمكن أن تنظر إلى أحد التماثيل وهو على الأرض فترى أن أبعاده وأحجام أطرافه تبدو غير متناسقة بل ربما مشوهة ولكن ما أن يوضع هذا التمثال في مكانه أعلى المبنى أو في مكانه فوق إحدى النوافذ حتى يبدو للناظر إليه من تحت متناسقاً جداً حيث أنه يتوافق تماماً مع التصميم الشامل للمبنى. كانت الألوان أيضاً تستخدم بواسطة فناني النوافذ الزجاجية الملونة في رسم قصص الكتاب المقدس بأبدع شكل ممكن.

ويقع أبرز أمثلة الكنائس القوطية التي شيدت في العصور الوسطى في دائرة قطرها مئة ميل حول باريس. فقد اشتهرت كاتدرائية النوتردام بواجهتها الرائعة. نجد أيضاً كاتدرائية كما في نوتردام نوافذ زجاجية رائعة على شكل الوردة حيث تُظهر مهارة الصناع في استخدام ألوان الزجاج. إلا أن أهمية الكاتدرائية القوطية أكثر بكثير من







سماتها المميزة. فقد كان مبنى الكاتدرائية يمثل روح العصر التي تميزت بالنزعة الروحية المتسامية فوق الحقائق الطبيعية. وكان ذلك المبنى بموقعه المتميز الذي يتوسط المدن يرمز إلى مركزية الحق الكتابي بالنسبة لمجتمع تلك الأيام. ويظهر التضامن الاجتماعي للناس في العصور الوسطى في حقيقة أن هذه الكاتدرائيات العظمى تم بناؤها على اعتبار أنها مشروع قومي يشترك فيه المجتمع عبر عشرات السنين، ويشترك المجتمع بكل فئاته وكل طبقاته في أعمال البناء. استغرق بناء كاتدرائية كولون الفترة ما بين ١٢٤٨-١٨٨٠. كان للكاتدرائية دور بارز في العملية التعليمية والتشجيعية للمجتمع - فمثلاً كانت النوافذ الزجاجية المرسومة وسيلة فعالة تساعد المزارعين غير المتعلمين على فهم واستيعاب قصص الكتاب المقدس ومعانيه. وكانت الكاتدرائية أيضاً مركزاً للأنشطة الاجتماعية وأنشطة المجتمع الأخرى في تلك المدينة، بل إن مبنى الكاتدرائية كان بالنسبة للشعب المكان الذي تتصل فيه النفس البشرية بالله وذلك من خلال جوانب العبادة المختلفة.

كانت كل المراسم والاحتفالات اللازمة لحياة الفرد الدينية تحدث داخل الكاتدرائية لذلك فالذين كانوا يسكنون في بلدة أو مدينة بها كاتدرائية يحسبون أنفسهم محظوظين. حيث أنهم نالوا المعمودية والتثبيت بل وتزوجوا في رحاب الكنيسة، بل أيضاً عند الموت يدفنون بمعرفة الكنيسة في مدافن الكنيسة. لكن أهم جزء من أجزاء العبادة، سواء كان المبنى الذي تشغله الكنيسة مبنى كاتدرائية هائلة أو مجرد كنيسة بسيطة، هو القداس الالهي ذاته. فبعد مجمع لاتيران الرابع Fourth Lateran Council الذي انعقد في ١٢١٥، صار جزءاً هاماً من عقيدة الكنيسة الكاثوليكية. إن كلمات الكاهن في تكريس عناصر التناول تحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح الفعلي ودمه. أي أن المسيح يُقدم ذبيحة جديدة بواسطة الكاهن أثناء القداس لفائدة المؤمنين. ولم يؤثر على هذا المفهوم ما قررته الكنيسة بعدم تقديم الكأس للشعب بعد القرن الثاني عشر، إذ أنه بحسب عقيدة الكنيسة الكاثوليكية يوجد الجسد والدم في أي عنصر على حدة. وقد انتشرت ممارسة رفع الكاهن للعناصر أمام الشعب في القرن الثالث عشر وذلك لكي يستطيع المؤمنون أن يعبدوا المسيح في القداس.

كان الشعب يرنم لكن تطور الموسيقى واشتمالها على أربعة اصوات جعل فرق الترنيم المدربة فقط هي التي ترنم وانتهى اشتراك الشعب في الترنيم معاً. وصارت الموسيقى بكل فنونها وألوانها من العناصر الجميلة التي تصاحب الأجزاء السرية المثيرة للقداس الإلهي.

لا نستطيع أن نغفل أو ننكر الاسهام الايجابي الذي قامت به الكنيسة الكاثوليكية في الفترة ما بين ٥٩٠-١٣٠٥، وذلك بالرغم من بعض دلائل القصور والفشل في الممارسات الفردية أو ممارسات الكنيسة كمؤسسة. فإن الكنيسة قدمت للحضارة الاغريقية-الرومانية والمسيحية إلى الشعوب الجرمانية التي استولت على الإمبراطورية الرومانية. والكنيسة وفرت الحضارة الحقيقية ومجهودات البحث والدراسة التي حافظت على التعليم حياً وذلك من خلال المجهودات الفكرية لمفكري ولاهوتي الكنيسة من أمثال الكوين Alcuin بيديه Bede اينهارد Einhard وغيرهم كما تحسن وضع المجتمع الأخلاقي وذلك بزوال بعض الأمراض الإجتماعية مثل مساوئ العبودية، ورفع مكانة المرأة

في المجتمع، وتخفيف أهوال حروب الاقطاع أو الحروب الأهلية. كانت الكنيسة وراء كل المجهودات الخيرية للإغاثة والأعمال الاجتماعية في العصور الوسطى. قدمت الكنيسة إطارًا فكريًا للحياة وذلك في النظام اللاهوتي الذي طورته الحركة المدرسية، ودعمت إحساس الناس بتضامنهم كأعضاء في الكنيسة وذلك بالرغم من الاتجاهات الانفصالية التي ميزت النظام الاقطاعي. استخدم الله الكنيسة الكاثوليكية لتحقيق أهدافه بالرغم من ضعفاتها في بعض الجوانب عند مقارنتها بالكنيسة الحقيقية التي وصفها العهد الجديد.

## اقتراحات للقراءة

*Artz, F.B.* The Mind of the Middle Ages. *New York: Knopf, 1953. See Pages 253-69 for the pertinent discussion.*

*Clayton, Joseph.* Saint Anselm. *Milwaukee; Bruce, 1933.*

*De Wulf, Maurice M. C. J.* An Introduction to Scholastic Philosophy. *Translated by P. Coffey. New York: Dover, 1956. This is useful for the beginning student.*

*Fairweather, Eugene R., ed. and trans.* A Scholastic Miscellany: Anselm to Ockham. *Philadelphia: Westminster, 1956.*

*Gardner, Helen.* Art through the Ages. *Rev. ed. New York: Harcourt, Brace, 1936. There is a useful section on Gothic architecture on pages 303-34.*

*Jansen, H. W., with Jansen, Dora J.* A History of Art. *Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall and New York: Abrams, n.d. This work has a clear, helpful text and man pictures both in black and white and in color.*

_____. Key Monuments of the History of Art. *Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall and New York: Abrams, 1962. This work has hundreds of pictures to illustrate the above book.*

*Kessel, Dimitri.* Splendors of Christendom. *Lausanne: Edita Lausanne, 1964. This is a folio with helpful text and splendid color illustrations of Byzantine, Romanesque, Gothic, and Baroque architecture.*

*Neve, Juergen L., and Heick, Otto W.* A History of Christian Thought. *Philadelphia: Fortress, 1965. A helpful discussion of Scholasticism is given in vol. 1, pp. 265-309.*





*Simson, Otto G. von.* The Gothic Cathedral. *New York: Pantheon, 1956.*

*Short, Ernest.* The House of God. *London: Eyre and Spottiswood, 1955. This is a useful history of religious architecture.*

*Southern, Richard W.* Saint Anselm and His Biographer. *Cambridge: Cambridge University Press, 1963.*

*Thorndyke, Lynn.* University Records and Life in the Middle Ages. *New York: Columbia University Press, 1944. This work has a fine collection of documents relating to the universities of medieval Europe. Matters such as curriculum, fess, charters, rules, and student life are illustrated from contemporary documents.*

*Weinberg, Julius R.* A Short History of Medieval Philosophy. *Princeton: Princeton University Press, 1964.*

## الفصل الرابع والعشرون

# محاولات الإصلاح من الداخل

لم يكن لوثر Luther وكالفن Calvin من قادة الإصلاح أول من نادى بالرجوع إلى الكتاب المقدس، بل كانت هناك محاولات سابقة لوقف تدهور النفوذ البابوي؛ وذلك بواسطة العديد من الإصلاحات المتنوعة. فمن عام ١٣٠٥ وحتى عام ١٥١٧ استمرت تلك الاحتجاجات ومحاولات الإصلاح تمثل تحدياً لسلطان الكنيسة الكاثوليكية. كانت البابوية بما تميزت به من فساد وبذخ قد اختارت أن تقيم في فرنسا بدلًا من روما، وصار الانقسام الذي نتج عن محاولات البعض ارجاع البابا إلى مقره في روما عاملاً مساعداً لمجموعات أمثال الأتقياء، والمصلحين (مثل ويكليف Wycliffe وهاس Hus وسافانارولا Savonarola)، ومجامع الإصلاح التي انعقدت في القرن الرابع عشر، ومجموعات الإنسانيين الكتابيين وغيرها، لإحداث نهضة في داخل الكنيسة الكاثوليكية نفسها.

## ١- تدهور البابوية Papacy ١٣٠٩-١٤٣٩

### أ- فشل رجال الكهنوت

انحدرت الكنيسة الكاثوليكية انحداراً كبيراً ما بين ١٣٠٩-١٤٣٩ وذلك من جهة قيمتها في أعين شعبها. كان نظام الكهنوت المتدرج، بكل متطلباته من الإقلاع عن الزواج والطاعة المطلقة للبابا، ومع تقسيم إلحاق الكنيسة الكاثوليكية على التقسيمات الاقطاعية المختلفة، أدّى ذلك إلى تدهور المستوى الأخلاقي بين رجال الكهنوت. كان الالتزام بالعفة وعدم الزواج لا يتفق لا مع الغرائز الطبيعية للإنسان ولا مع التعاليم الكتابية التي تشجع على الزواج. انغمس العديد من رجال الكهنوت في علاقات غرامية مع نساء من كنائسهم بل واتخذوا لأنفسهم عشيقات ثابتات. بل إن بعضهم انشغل عن واجباته الرعوية بانشغاله بالعناية بالأطفال غير الشرعيين الذين ولدوا نتيجة لهذه العلاقات وكانوا يمثلون مشكلة حقيقية في ذلك الوقت. أما البعض الآخر ولاسيما في عصر النهضة، فقد عاشوا في بذخ شديد. وكان النظام الإقطاعي مازال يمثل مشكلة بسبب الولاء المزدوج ما بين البابا والحاكم الإقطاعي في انشاء نوع من تضارب المصالح في الكثير من الحالات. كان الكاهن في كثير من الأحيان يولي اهتماماً أكبر بمسؤلياته الدنيوية أكثر من مسئولياته الروحية.

### ب- انتقال البابوية إلى فرنسا (السبي البابلي) والانقسام الكبير

فقدت البابوية نفسها احترامها في أعين الشعب في مختلف المناطق التي كانت خاضعة

لنفوذها. وكانت الأحداث التي صاحبت ما عُرف باسم "السبي البابلي" Babylonian Captivity (١٣٠٩-١٣٧٧) والانقسام الكبير The Great Schism (١٣٧٨-١٤١٧)، الذي يختلف عن ذاك الذي حدث في ١٠٥٤، كانت تلك الأحداث هي المسئولة عن فقد البابوية لاحترامها. كان النفوذ البابوي قد وصل إلى ذروته أثناء ولاية البابا أنوسنت الثالث Innocent 3rd ؛ إلا أن البابوية سرعان ما فقدت حظوتها بعد فشل البابا بونيفاس الثامن Boniface 8th في محاولاته لإخضاع حكام انجلترا وفرنسا اللذين دعمتهما القوى القومية.

كان البابا كليمنت الخامس Clement 5th فرنسيًا انتخبه الكرادلة ليصبح البابا في سنة ١٣٠٥، وكان رجلاً ضعيفًا مشكوكًا في أخلاقه. فما لبث أن وقع تحت تأثير ملك فرنسا، وانتقل من روما إلى فرنسا في ١٣٠٥ ثم إلى مدينة أفنيون في عام ١٣٠٩. كان ذلك له معنى واحد بالنسبة لشعوب أوربا وهو أن البابا وضع نفسه تحت سيطرة الفرنسيين بالرغم من أن مدينة أفنيون لم تكن أرضًا فرنسية. وقد ظل المقر البابوي في أفنيون عامرًا حتى سنة ١٣٧٧ فيما عدا فترة قصيرة ما بين ١٣٦٧-١٣٧٠، وكان تحت سيطرة ملوك فرنسا الأقوياء. إلا أن الراهبة التقية كاترين من سيناء Catherine of Siena (١٣٤٧-١٣٨٠) مارست ضغطًا شديدًا على البابا جريجوري الحادي عشر Gregory 11th (١٣٢٩-١٣٧٨) لإقناعه بالرجوع إلى روما لاستعادة النظام هناك وإنقاذ سمعة البابوية باعتبارها سلطة دولية مستقلة وذات سيادة. وقد عاد إلى روما في سنة ١٣٧٧ منهيًا بذلك فترة انتقال البابوية من روما والمعروفة باسم " السبي البابلي".

وعندما توفى جريجوري الحادي عشر في العام التالي، انتخب الكرادلة الرجل الذي أصبح البابا إربان السادس Urban 6th إلا أن عصبية هذا البابا وصلفه سرعان ما زرعت العداوة بينه وبين الكرادلة، مما جعلهم ينتخبون البابا كليمنت السابع Clement 7th في ١٣٧٨ فما كان من كليمنت إلا أن نقل كرسيه مرة أخرى إلى أفنيون، وأصبح كلا الرجلين- وقد انتخبه نفس المجلس- يدعي بأنه البابا الشرعي والخليفة الحقيقي للرسول بطرس. وقد دفع هذا الوضع شعوب أوربا إلى الدخول في صراع الولاء البابوي. فالبابا الذي اتخذ روما مكانًا له تبعته شعوب شمال إيطاليا ومعظم المانيا والدول الإسكندنافية وانجلترا، أما فرنسا وأسبانيا وأسكتلندا وجنوب إيطاليا فأعطت ولاءها لبابا مدينة أفنيون. استمر ذلك الانشقاق حتى تم تسويته في مطلع القرن التالي بواسطة مجامع الإصلاح (انظر الفصل التالي). وقد ساهم "السبي البابلي" والإنشقاق الكبير في دعم وتشديد مطالب الإصلاح داخل الكنيسة الكاثوليكية نفسها.

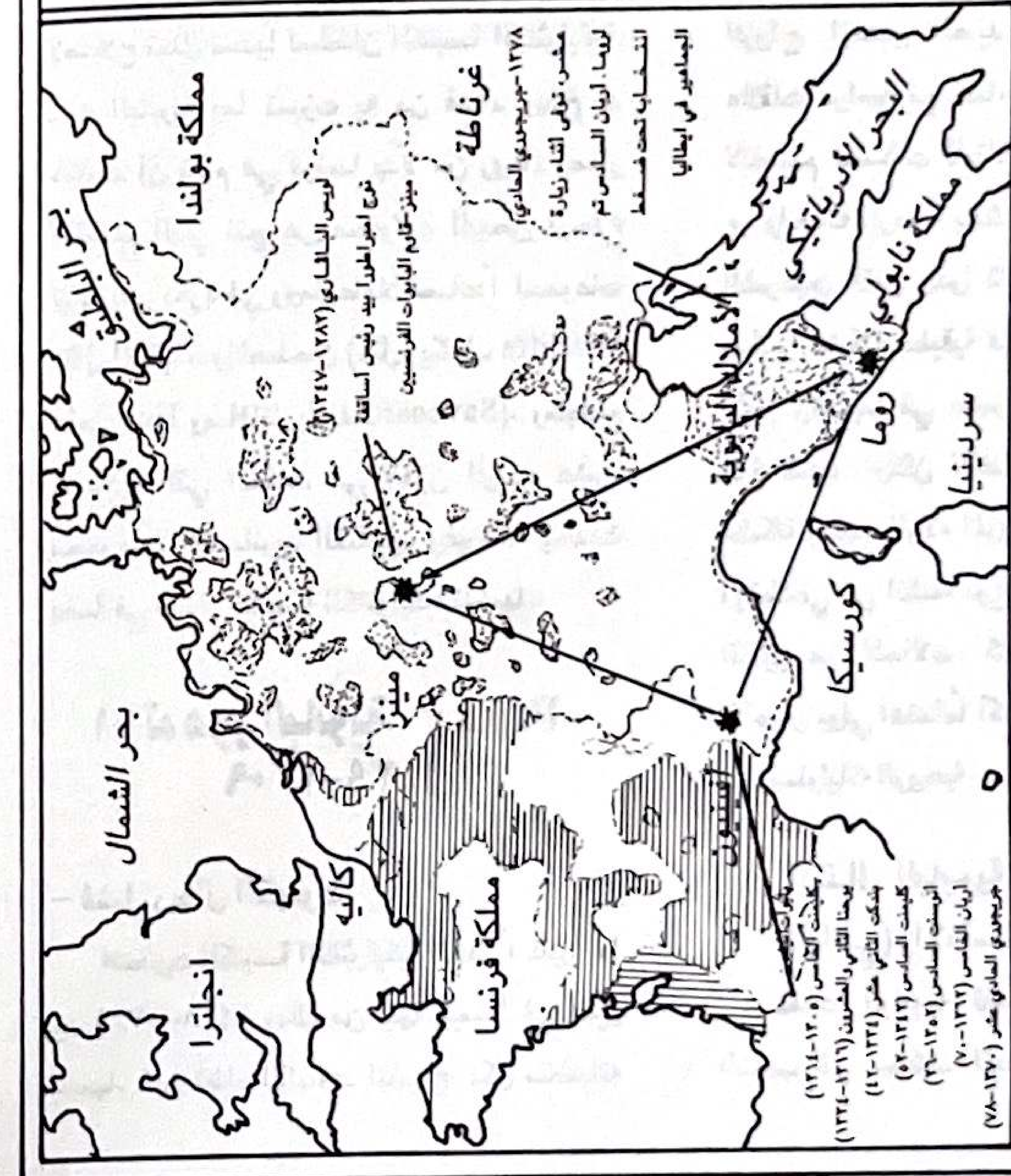
### ج- الضرائب البابوية Papal Taxation

أصبحت الضرائب اللازمة لدعم مقرين بابوين عبئًا مرهقًا على الشعب الأوربي. وكان الدخل البابوي يتألف من واردات الأملاك البابوية، مع العشور التي يدفعها الشعب وضريبة السنة الأولى وهي عبارة عن مرتب السنة الأولى لأي موظف كنسي حيث كان يجب أن يدفعها للبابا، وأيضًا بدل الإعاشة، الذي كان يُلزم رجال الكنيسة وشعبهم بمصاريف انتقال البابا أثناء سفره في منطقتهم، وضريبة الأيلولة والتي بمقتضاها تؤول الممتلكات الشخصية لكبار رجال الكهنوت إلى البابا بعد موتهم. هذا بالإضافة إلى الضريبة المعروفة باسم



الانشقاق الكبير والسبي البابلي للكرسي البابوي



"قرش بطرس" والتي كان العلمانيون يدفعونها سنويًا في الكثير من الدول. وأيضًا الواردات التي تمثلها الوظائف الخالية وغيرها من الرسوم العديدة.[1] إلا أن الحكام الذين تعاظمت قوتهم بمن يدعمونهم من رجال الطبقة المتوسطة الأقوياء رفضوا استمرار استنزاف خزائن بلادهم لصالح الخزانة البابوية. وكان هذا هو الوضع في كل من فرنسا و انجلترا بالذات، ففي أثناء الفترة الطويلة التي قضاها الكرسي البابوي منفيًا Captivity في القرن الرابع عشر، كان صعبًا على الإنجليز أن يدفعوا أموالاً كانوا يرون أنها ستذهب إلى يد أعدائهم الفرنسيين باعتبار أن البابا مقيم في منطقة تحت نفوذ ملك فرنسا.

د- نشأة الدول القومية

من العوامل السياسية التي لعبت دورًا هامًا في تدهور النفوذ البابوي نشأة الدول القومية National States والتي ترتكز على فكر يناقض فكرة السيادة الدولية التي تضمنتها مفاهيم الإمبراطورية الرومانية المقدسة والكنيسة الكاثوليكية. تعاون الملك مع الطبقة الوسطى؛ فكان الملك بجيوشه الوطنية يعمل على توفير الأمن حتى يتسنى للطبقة الوسطى العمل على تقدم الصناعة والأعمال في جو مناسب. وفي المقابل قدمت الطبقة الوسطى الأموال اللازمة للملك لادارة شئون الدولة. نتج عن هذا التحالف دول وطنية قوية لها أجهزة حكم مركزية ولها من القوة ما يساعدها على تحدي رغبات البابا بل ومحاولة إخضاع الكنيسة للمصالح الوطنية في كل من بوهيميا وفرنسا وانجلترا.

خلقت كل هذه العوامل تيارات متنامية تطالب بإصلاح النظام البابوي في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وما لبث أن برز عدد من القادة التقويين، والكتابيين، والإنجيليين والإصلاحيين في المجالس الكنسية هؤلاء جميعًا. خلفوا الإصلاحيين الرهبانيين في القرن الثاني عشر والثالث عشر.

## ٢- الاختباريون The Mystics

إن انتعاش الاختبارية في الفترات التي تنحسر فيها الكنيسة في حدود الديانة الشكلية إنما يشهد ويبرهن على رغبة القلب البشري في الاتصال المباشر بالله في العبادة بدلاً من مجرد المشاركة السلبية فيما يقوم به رجال الكهنوت من طقوس رسمية جامدة. يرغب الاختباريون في اتصال مباشر مع الله بالتأمل والتوجيه الروحي. فإن كان التركيز الأساسي هو اتحاد جوهر الإنسان مع الجوهر الإلهي في اختبار النشوة الروحية الذي يعتبره الاختباريون قمة الاختبارات الباطنية، لكانت الاختبارية اتجاهًا فلسفيًا. ولكن إن كان التركيز على اتحاد عاطفي بالله بالإرشاد والتوجيه لأصبحت الإختبارية عندئذ اتجاهًا نفسيًا. لكن الهدف الأساسي في كلتا الحالتين هو الإدراك المباشر لله باسلوب يفوق الإدراك العقلي حيث ينتظر طالب الاختبار بسكون أمام الله، وقد فتح كيانه للتعامل الالهي وقد ظهرت نماذج لهذين الاتجاهين في الحركة الاختبارية (التصوفية) في القرن الرابع عشر.

### أ- أسباب نمو الحركة الاختبارية

ساهمت الحركة المدرسية Scholasticism في نمو الحركة الاختبارية Mysticism وذلك لأنها أكدّت على دور العقل على حساب طبيعة الانسان الوجدانية. فجاءت الاختبارية كرد فعل ضد الاتجاه





العقلاني. فإن الحركات التي تؤكد على الجانب الذاتي في علاقة الإنسان مع الله غالبًا ما تبدأ كرد فعل للحركات التي تؤكد على الجانب الفكري العقلاني. وبنفس الأسلوب جاءت الحركة التقوية Pietism عقب فترة الجمود والمحافظة في الكنيسة اللوثرية في القرن السابع عشر. قادت حركة الفلسفة الإسمانية المدرسية* Scholastic Nominalism إلى التاكيد على الفرد كمصدر للواقع وإلى الاختبار طريقًا للحصول على المعرفة. فتحول بذلك جناح من أصحاب هذه الفلسفة الإسمانية إلى الاختبارية الباطنية كأسلوب للوصول إلى معرفة الله، بينما أكّد الإسمانيون الآخرون على المادية والتجريب.

كانت تلك الحركة أيضًا بمثابة احتجاج ورد فعل ضد الاضطرابات في ذلك الوقت وضد الفساد في الكنيسة. فقد كانت الثورات السياسية والاجتماعية مألوفة في القرن الرابع عشر. جاء الموت الأسود Black Death في ١٣٤٨-١٣٤٩ ليحصد حوالي ثلث عدد سكان اوربا كلها. وجاءت ثورة الفلاحين Peasants' Revolt في انجلترا سنة ١٣٨١ كدليل على التزعزع والقلاقل الاجتماعية التي ارتبطت بأفكار ويكليف Wycliffe. وقد أثار انتقال البابوية من روما والانشقاق الكبير تساؤلات كثيرة في عقول الشعب عن قياداتهم الروحية حيث رغب الكثيرون أن تكون لهم صلة مباشرة بالله.

### ب- بعض الاختباريون البارزون Outstanding Mystics

ينقسم الاختباريون في هذه الفترة إلى مجموعتين أساسيتين هما : اللاتينيون والتيوتانيون. وكان للاختباريين اللاتينيين نظرة أكثر وجدانية للحياة عن التيوتان، حيث نراهم يؤكدون على الإختبارية على أساس أنها اختبار الإنسان للمسيح وجدانيًا. وصدق مثل هذا التأكيد عند برنارد من كلاريفو Bernard of Clairvaux في القرن الثاني عشر. فقد كان ينبر على اتحاد إرادة الإنسان ومشاعره مع الله وذلك في مقابلة التنبير على الاتحاد في الجوهر. وقد اتخذ معظم الاختباريين التيوتانيين موقفهم على أساس التركيز على مدخل فلسفي نحو الله، والذي أدّى في حالة أحدهم وهو ميستر إيكهارت Meister Eckhart إلى نوع من الإيمان بوحدة الوجود.

وتمثل كاثرين من سيناء Catherine of Siena الاختبارية اللاتينية في أفضل صورها. فكانت تؤمن بقوة أن الله يخاطبها بواسطة الرؤى ويبدو أنها كانت دائمًا تستخدم هذه الرؤى لتحقيق أهدافًا عملية جيدة. فقد كانت هى التي وقفت بلا خوف تشجب الفساد الإداري في الكنيسة، وهى أيضًا التي استطاعت إقناع البابا جريجوري الحادي عشر Gregory 11th بالعودة من أفنيون إلى روما في سنة ١٣٧٦وقد ساعدتها شجاعتها[٢] على توبيخ الخطية حتى وإن كانت في البابوية نفسها.

أما الحركة الاختبارية في المانيا فقد تركزت في النظام الرهباني الدومينكاني. وكان ميستير ايكهارت (١٢٦٠-١٣٢٧ تقريبًا) هو الراهب الدومينكاني الذي ينسب له الفضل في تأسيس الاختبارية في المانيا. فقد كان يدرس في جامعة

* مذهب فلسفي يقول بأن المفاهيم المجردة أو الكليات ليس لها وجود حقيقي وأنها مجرد أسماء ليس إلا (المورد)

باريس قبل انتقاله إلى كولون لخدمة الوعظ هناك. وكان يؤمن أن الله وحده هو الحقيقة، فعلَّم أن هدف المؤمن المسيحي يجب أن يكون اتحاد روحه مع الله وذلك من خلال انصهار الجوهر الانساني واندماجه في الجوهر الإلهي أثناء اختبار شعوري معين. وكان يميز ما بين الثالوث الذي كان يمثل بالنسبة له الجوهر الالهي المطلق باعتباره دعامة الوحدة الفلسفية للكون، وما بين الله الذي خلق بذاته العالم وهو يسود ويملك عليه. كان هدفه هو الاتحاد مع الثالوث الذي هو دعامة كل خليقة. ومن أقواله المأثورة عنه: "يجب أن يصبح الله أنا، وأنا الله". وتقترب معتقدات اكهارت Eckhart من أفكار الافلاطونية الحديثة Neoplatonism حتى إنه اتُّهم بأنه ينادي بأن الله يظهر في كل شئ، وتم رفض آراءه في وثيقة بابوية على اعتبار أنها من مذاهب الإيمان بوحدة الوجود، وصدر هذا القرار البابوي بعد موته. إلا أننا ينبغي أن نضيف أن اكهارت أكَّد على ضرورة أن تكون الخدمة المسيحية ثمراً للإتحاد الإختباري مع الله.(٣)

وبرزت جماعة من الرهبان الدومنيكان تعرف باسم "أصدقاء الله" Friends of God وحملت تعاليم ايكهارت. منهم كان جون تولر John Tauler (١٣٠٠-٦١ تقريباً)، إلا أنه كان مبشراً أكثر من معلمه، وكان ينبر على أن اختبار عمل الله في داخل قلب الانسان أنفع وأجدى من كل ممارسات العبادة الشكلية التي يمارسها البشر. كان تولر على ارتباط بجماعة أصدقاء الله التي تمركزت في وادي نهر الراين. وكان هينريش سوسو Heinrich Suso (١٢٩٥-١٣٦٦ تقريباً) هو شاعر هذه الجماعة حيث عبَّر عن أفكارها الاختبارية في صور شعرية. وكان من بينهم أيضاً أحد رجال المال واسمه Ruleman Merswin (١٣٠٧-١٣٨٢) ساعد بأن دبر بيتاً يأوى إليه أعضاء هذه الجماعة ويتخذونه مقراً جماعياً لهم. ومن المؤلفات التي نسبت إلى هذه الجماعة مؤلف صغير معروف باسم Theologia Germanica (اللاهوت الألماني). وقد وجد مارتن لوثر Martin Luther في هذا الكتاب عوناً في صراعه لأجل خلاص نفسه وأشرف على اعادة نشره باللغة الألمانية في عام ١٥١٦. إلا أن هذا الكتاب به نفس الاتجاهات الفلسفية التي تؤمن بوجود الله في كل الأشياء والتي شابت كتابات ميستير ايكهارت.

أما الحركة المعروفة باسم Devotio Moderna أو "إخوة الحياة المشتركة" Brethren of the Common Life والتي نشأت في هولندا ومركزها في مدينة Deventer، تميزت باتجاه أكثر عملية ويخلو من ذلك الاتجاه الفلسفي، وهي تعتبر نموذجاً أكثر تكاملاً للإختبارية العلمانية من جماعة أصدقاء الله. كان جون رويزبرويك John Ruysbroeck (١٢٩٣-١٣٨١) من بين الذين تأثروا بكتابات ايكهارت، وتعرف على بعض أفراد جماعة أصدقاء الله وأصبح له تأثيره الشخصي على الحركة الاختبارية في هولندا. كما كان له تأثيره في مساعدة جيرارد جروت Gerard Groote (١٣٤٠-٨٤) على تأكيد مكانة العهد الجديد في تطوير الاختبارات الروحية، وأصبح جروت قائداً لحركة "إخوة الحياة المشتركة" في Deventer. وشجع جروت أحد تلاميذه وهو Florentius Radewijns (١٣٥٠-١٤٠٠) على فتح بيت لجماعة "إخوة الحياة المشتركة" Brethren of the Common Life في مدينة Windesheim. وقد تألفت هذه الحركة من علمانيين اتفقوا على الحياة





المشتركة في إطار مجموعة من القواعد مكرسين حياتهم للتعليم وبعض الخدمات العملية بدلاً من مجرد التفرغ السلبي لاختبار حضور الله فقط وهو ما كان يؤكد عليه ميستير ايكهارت Meister Eckhart. وقد نبرت كلتا الحركتين على تعليم النشء حيث تم بناء مدارس ضخمة على مستوى ممتاز. وقد تم تأسيس عدة بيوت بهذه الجماعة في كل أنحاء هولندا.(٤)

ساهم كتاب The Imitation of Christ (الاقتداء بالمسيح) أكثر من أي شئ آخر في تخليد سمعة حركة "أخوة الحياة المشتركة". وهذا الكتاب ارتبط باسم توما الكمبيسي Thomas à Kempis (١٣٨٠-١٤٧١) الذي تعلم في Deventer تحت رعاية Radewijns، ثم دخل إلى الدير الأغسطيني بالقرب من Zwolle. وأغلب الظن أنه هو الذي كتب كتاب "الاقتداء بالمسيح" Imitation of Christ.(٥) ويعكس هذا الكتاب تركيز حركة الاخوة على الخدمات العملية. فهو لا يكتفي أو يقف عند الزهد السلبي في مباهج العالم لكنه يبرز الحاجة إلى محبة إيجابية للمسيح تظهر في خدمة عملية متواضعة من أجله.

### ج- نتائج ظهور الحركة الاختبارية

تعتبر الحركة الاختبارية Mysticism هي النموذج التقليدي للتقوية في إطار الكنيسة الكاثوليكية وهي كحركة قد تطورت كرد فعل للممارسة الشكلية للطقوس المقدسة وضد الاتجاه العقلاني الجاف للمدرسية في الكنيسة في ذلك الوقت. كانت هذه الحركة تعكس الميل نحو الجانب الذاتي في المسيحية، والذي يحدث دائماً عندما يزداد التركيز على المظاهر الخارجية للعبادة في المسيحية. وفي هذا الإطار يمكن النظر إلى الاختبارية على أنها بمثابة توقع الاتجاه الفردي إلى الدين وهو من أبرز معالم الإصلاح.

وكان من بين المخاطر الذي مثلتها هذه الحركة الاتجاه للإستعاضة بالسلطة الذاتية عن الكتاب المقدس. وأيضاً التقليل من أهمية الدراسات العقائدية وكانت هذه الحركة في بعض أطوارها المبالغ فيها تحمل خطر التقوقع السلبي حتى إن أفرادها أصبحوا معادين للعلاقات الطبيعية مع المجتمع ومتقوقعين داخل أنفسهم. وفي حالة مثل ايكهارت أدَّت هذه الحركة به إلى الإغراق في نوع من التفكير الفلسفي الذي يوحد ما بين الله وخليقته وخلائقه.

## ٣- رواد الإصلاح

حاول الاختباريون أن يصيغوا الاختبار الديني في قالب شخصي، بينما كان المصلحون من أصحاب الاتجاهات الكتابية والوطنية مثل ويكليف Wycliffe وهس Hus وسافونارولا Savonarola أكثر اهتماماً بمحاولة الرجوع بالكنيسة إلى الصورة المثلى التي يصفها العهد الجديد. استطاع كل من ويكليف وهس استغلال المشاعر القومية الرافضة للسلطان البابوي في الفترة التي عرفت بالسبي البابلي Babylonian captivity والتي انتقلت فيه البابوية من روما بانتقال البابا إلى أفنيون.

### أ- جون ويكليف John Wycliffe (١٣٢٨-٨٤تقريباً)

اعترض الشعب الإنجليزي على إرسال أموالهم إلى البابا في أفنيون حيث كان يتعرض

## تدهور الكنيسة الكاثوليكية

١- المسيحي البابلي ١٣٠٩ - ١٣٧٧

٢- الإنشقاق الكبير ١٣٧٨ - ١٤١٤

في مواجهة

الإحتجاج والإصلاح ١٣٠٥ - ١٥١٧

**داخليا**

١- الإختباريون - مشاركون لا متفرجون (القرن ١٣)

٢- المصلحون - ويكليف (القرن ١٤) - اللولارد، هس - الإخوة المتحدون

٣- مجالس الإصلاح (القرن ١٥) بيزا - كونستانس

٤- الإنسانيون الكتابيون

انجلترا Colet

التيوتانيون Reuchlin (العهد القديم)

فرنسا Lefevre

اراسموس

العهد الجديد اليوناني مطبوعا - ايجابي

كتاب مدح الحماقة - سلبي

**خارجيا**

١- الدولة القومية وحكامها

٢- والطبقة المتوسطة قاوموا

(أ) المحاكم الكنسية

(ب) الضرائب الكنسية

(ج) الأملاك الكنسية لأراضي

(د) الفساد الإداري في الكنيسة

٣- اختراع المطبعة

إلى ضغوط ملك فرنسا عدو انجلترا. وقد تعزز هذا الشعور الوطني برفض الملك ورجال الطبقة الوسطى أيضاً لخسارة الخزانة الإنجليزية للأموال التي تذهب كضرائب للكرسي البابوي دون أن تستفيد بها دولة انجلترا. وكان التشريع المؤقت The Statute of Provisors الذي صدر عام ١٣٥١ قد منع البابا من تعيين رجال الكنيسة في الكنيسة الكاثوليكية في انجلترا. ثم جاء التشريع المعروف باسم Statute of Praemunire والذي صدر في ١٣٥٣ ليمنع نقل القضايا المتعلقة برجال الكنيسة من المحاكم الانجليزية إلى المحكمة البابوية في روما. وقد أوقف أيضاً دفع الضريبة السنوية وقدرها ألف مارك، والتي كان جون قد استن دفعها، وذلك بموجب قرار من البرلمان في نفس تلك الفترة وكانت تلك الفترة التي تميزت برد الفعل القومي تجاه السلطة الكنسية هى التي شهدت ظهور جون ويكليف John Wycliffe على مسرح الأحداث. واستطاع ويكليف أن يواجه البابا بسبب الدعم الذي لقيه من يوحنا جونت John of Gaunt صاحب النفوذ الكبير.

درس ويكليف ثم علَّم في أكسفورد مدة طويلة من حياته حتى عزم في عام ١٣٧٨ على العمل على إصلاح الكنيسة الكاثوليكية باستئصال الفساد المتمثل في رجالها وبتجريدها من أملاكها، التي رأى أنها كانت أصل الفساد فيها. وفي كتابه Of





Civil Dominion الذي كتبه سنة ١٣٧٦ حدَّد ويكليف الأساس الأخلاقي للقيادات الكنسية. فقد أعطى الله حق وكالة استخدام وتوظيف الأملاك لقادة الكنيسة ليس للامتلاك بل للتوظيف لمجد الله وحده. ورأى أن فشل رجال الكنيسة في تحقيق هذا الدور على الوجه الأكمل يوفر الأساس الكافي الذي يسمح للسلطات المدنية انتزاع هذه الأملاك منهم وتوكيل آخرين أكثر كفاءة لتقديم خدمة مقبولة لله. كان هذا الرأي مناسباً جداً لأطماع النبلاء والإقطاعيين الذين سعدوا بفرصة الاستيلاء على أملاك الكنيسة الرومانية الكاثوليكية. وصنع يوحنا من جونت John of Gaunt - ومعه النبلاء - من ويكليف بطلاً قومياً حتى أن الكنيسة في روما لم تجرؤ على التعرض له.

استاء ويكليف Wycliffe جداً من أحداث السبي Captivity البابلي والانشقاق الكبير، ولم يكتف بالاتجاه السلبي وابتدأ بعد عام ١٣٧٩ يقاوم ويهاجم تعليم وعقيدة الكنيسة الكاثوليكية بالعديد من الأفكار الثورية. هاجم سلطة البابا باصراره في عام ١٣٧٩ أن يكتب أن المسيح وليس البابا هو رأس الكنيسة. وأكَّد بأن الكتاب المقدس Bible وليس الكنيسة هو السلطان الوحيد الذي ينبغي أن يرجع إليه المؤمن وأنه ينبغي على الكنيسة أن تجتهد لكي تجعل من النموذج الذي يمثله العهد الجديد مقياساً تشكل نفسها على أساسه. وليوفر ويكليف دعماً كافياً لمعتقداته الجديدة، سعى لكي يوفر الكتاب المقدس ليصبح متاحاً للشعب باللغة التي يفهمها الشعب ويستخدمها كل يوم. وفي سنة ١٣٨٢ أتم ويكليف أول نسخة متكاملة للعهد الجديد باللغة الإنجليزية. ثم أتم نيكولاس من هيرفورد Nicolas of Hereford ترجمة معظم العهد القديم إلى الإنجليزية في عام ١٣٨٤. فمن ثم استطاع الإنجليز ولأول مرة أن يقرأوا الكتاب المقدس كله باللغة التي يفهمونها. إلا أن ويكليف طور هجومه على العقيدة الكاثوليكية وذلك بهجومه في ١٣٨٢ على عقيدة التحول الكامل أو الاستحالة. وحيث آمنت الكنيسة الكاثوليكية أن جوهر عناصر التناول تتغير أو تتحول إلى جسد ودم المسيح بينما يظل شكلها الخارجي على ما هو عليه، جادل ويكليف أن طبيعة أو جوهر العناصر ثابت ولا يتحول ولا يتغير إنما المسيح يحل روحياً في الممارسة المقدسة وأن المؤمن يدرك ذلك بالإيمان.[6] ومن ثم فمن يرى أن ما قاله ويكليف صحيح فهذا لابد وأن يعي أن الكاهن لا يستطيع أن يحرم أحداً من الخلاص بحرمانه من التناول من جسد المسيح ودمه في التناول المقدس Lord's Supper.

أدينت آراء ويكليف[7] في لندن عام ١٣٨٢، وأجبر على التقاعد في منزله في Lutterworth. لكنَّه رتَّب لأجل استمرار انتشار أفكاره، وذلك بتأسيس جماعة من الوعاظ العلمانيين عرفت باسم اللولارد Lollards، عملت على المناداة بأفكاره في كل أنحاء انجلترا[8] حتى استطاعت الكنيسة الكاثوليكية أن تصدر قانوناً مرَّ في البرلمان في سنة ١٤٠١ عرف باسم Statute de Haeretico Comburendo ويقضي بعقوبة الإعدام على كل من يروج مبادئ أو أفكار جماعة اللولارد. كان لمنجزات ويكليف دور بارز في تمهيد الطريق لما تبِع من إصلاح ديني في انجلترا. فقد أعطى الشعب الانجليزي أول كتاب مقدس في لغتهم العادية وأسس جماعة اللولارد لنشر الأفكار الإنجيلية في كل أنحاء انجلترا بين عامة الشعب. وقد تم تطبيق مبادئ المساواة التي نادى بها ويكليف في إطار

الكنيسة، تم تطبيقها على الحياة الاقتصادية بواسطة الفلاحين وساهمت في اندلاع ثورة الفلاحين Peasants' Revolt في عام ١٣٨١. وحمل الطلبة البوهيميون الذين كانوا يدرسون في انجلترا أفكار وأراء ويكليف إلى بوهيميا حيث أصبحت أساساً لتعاليم جون هس.(٩)

### ب- جون هس John Hus (١٣٧٣-١٤١٥)

عندما تزوج ريتشارد الثاني Richard 2nd ملك انجلترا من أن أميرة بوهيميا Anne of Bohemia ، جاء طلبة من بوهيميا يطلبون العلم في انجلترا. وعند عودتهم إلى بلادهم، حملوا معهم أفكار ويكليف. كان جون هس راعياً لكنيسة بيت لحم هناك، وكان قد نال تعليمه في جامعة براج وأصبح القسيس المسئول عنها في حوالي سنة ١٤٠٩، اطلع هس على أفكار ويكليف وتبناها. وتزامن وعظه بتلك الأفكار مع تزايد المشاعر الوطنية في بوهيميا ضد سيطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة على بلادهم. سعى هس إلى إصلاح الكنيسة في بوهيميا على نفس الخط الذي أعلنه ويكليف. لكن سرعان ما أدّت به أراؤه إلى مواجهة عداء البابوية، ثم ما لبث أن جاءه أمر استدعاء للذهاب إلى مجلس كونستانس Council of Constance بوعد بالأمان من الإمبراطور. إلا أن هذا الوعد بالأمان لم يحترم. وتم إدانة أرائه مع أراء ويكليف في ذلك المجلس. وبعد أن رفض هس الرجوع عن أرائه تم إعدامه حرقاً بأمر من المجلس. لكن الكتاب الذي كتبه بعنوان De Ecclesia عام ١٤١٣ استمر حياً من بعده.

يستطيع المضطهدون التخلص من أجساد البشر، لكنهم لا يستطيعون تدمير الأفكار، أما أفكار هس(١٠) فقد نشرها أتباعه. من بين أتباع هس Hus ، جماعة عُرفت باسم التابوريين Taborites، وهي جماعة شابها قدر من التطرف، حيث رفضوا كل ما لم يذكر في الكتاب المقدس من ممارسات وعقائد الكنيسة الكاثوليكية. وجماعة أخرى عُرفت باسم Utraquists اتخذت موقفاً بوجوب التخلص من الممارسات التي يمنعها الكتاب المقدس وبأنه من حق العلمانيين أن يتناولوا من الخبز والكأس أثناء القداس. وكونت جماعة من التابوريين ما عُرف باسم Unitas Fratrum "الإخوة المتحدون" أو "الإخوة البوهيميون" وذلك في عام ١٤٥٠، وهي الجماعة التي تطورت لتخرج منها جماعة المورافيين المعروفة باسم كنيسة المورافيين Moravian.

وبالرغم من أن الكنيسة قضت على حياة جون هس، إلا أنها لم تستطع أن تقضي على تأثيره. أصبحت الكنيسة المورافية في زمن لاحق واحدة من أكثر الكنائس التي تهتم بالعمل المرسلي في كل التاريخ المسيحي. كان يوحنا عاموس كومنيوس John Amos Comenius (١٥٩٢-١٦٧٠) المعلم الإنجيلي التقدمي واحداً من هؤلاء الإخوة وله كتاب عن التعليم اسمه Great Didactic ويمكن القول بأنه ربما أثر هس بطريقة غير مباشرة على وسلي Wesley لأن جون وسلي استنار من خلال الكنيسة المورافية في لندن. كان تعليم هس وقدوته مصدر إلهام لمارتن لوثر Martin Luther وهو يواجه مشاكل مشابهة في ألمانيا في أيامه.

### ج- سافونارولا Savonarola (١٤٥٢-١٤٩٨)

اعتبرت الكنيسة كل من ويكليف Wycliffe





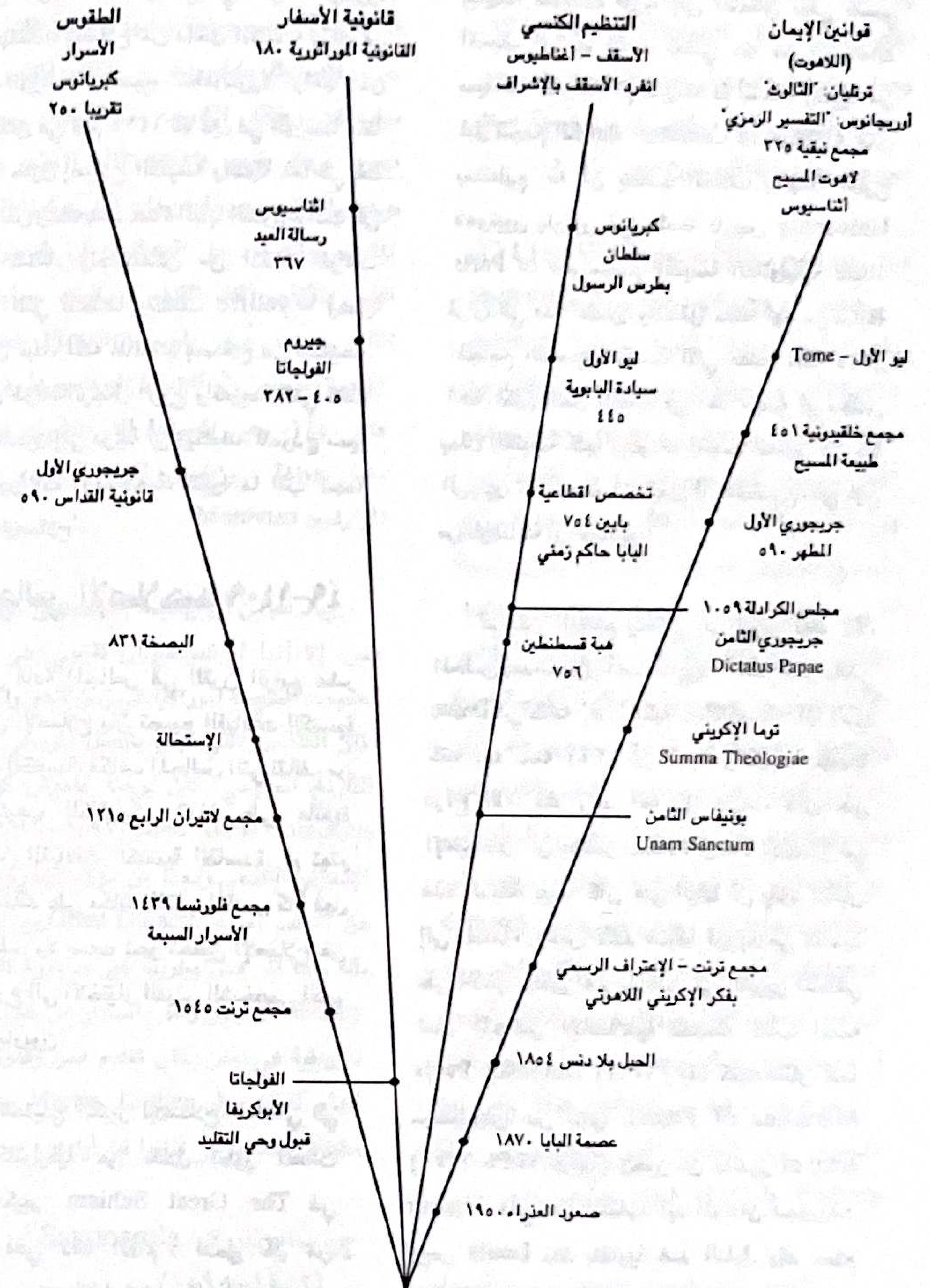
وهس Hus من الهراطقة الذين جعلوا الكتاب المقدس الأوحد للسلطان الروحي، لكن سافونارولا كان مهتماً بالإصلاح من داخل الكنيسة وذلك في مدينة فلورنسا. أصبح سافونارولا راهباً من الدومنيكان في عام ١٤٧٤ ثم عين في فلورنسا سنة ١٤٩٠. حاول إصلاح الكنيسة والدولة معاً في تلك المدينة، لكن وعظه ضد حياة البابا الشريرة أدّت إلى إعدامه شنقاً. ولم يتمكن من اتخاذ المواقف التقدمية التي اتخذها ويكليف Wycliffe وهس Hus من قبله، لكنه طالب بالإصلاح في الكنيسة. توقع كل هؤلاء الرجال الروح والعزيمة التي كانت عند المصلحين إلى درجة أن ويكليف، لنموذج مميز فريد للإجراءات الإصلاحية، كثيراً ما لقب "نجمة الصباح للإصلاح".

## ٤- المجالس الإصلاحية ١٤٠٩-٤٩

سعى قادة المجالس في القرن الرابع عشر إلى تحقيق الإصلاح بأن تصبح القيادات الكنسية تمثل شعب الكنيسة. فكانت المجالس التي تتألف من ممثلي الشعب الكاثوليكي تأخذ على عاتقها التخلص من القيادات الكنسية الفاسدة. لم تهتم المجالس بالتأكد على مكانة الكتاب المقدس كما فعل هس وويكليف، ولا سعت نحو تحقيق الإصلاح عن طريق الرجوع إلى الاختبار الديني الشخصي الذي شجعه الاختباريون.

ظهر الاحتياج الكبير للإصلاح الداخلي في الكنيسة الكاثوليكية من خلال تطور أحداث الانشقاق الكبير The Great Schism في سنة ١٣٧٨. ففي ذلك العام ، ادعى كل من أربان السادس 6th Urban وكليمنت السابع Clement 7th أنه هو الخليفة الشرعي لبطرس الرسول. وحيث اضطرت بلدان أوربا للاختيار بينهما، تعرضت أوربا إلى انشقاق ديني كنسي أضيف إلى ما كانت تعاني منه من انقسامات سياسية. كان كلا الرجلين قد تم انتخابه وتعيينه من قبل مجمع الكرادلة College of Cardinals. فمن يستطيع إذاً أن يحسم الخلاف بينهما؟ اقترح لاهوتيون بارزون في جامعة باريس University of Paris عقد مجمع للكنيسة الكاثوليكية لاتخاذ قراراً في هذا الشأن. واتخذوا سنداً لهم من سابقة المجامع الكنسية المقدسة التي عقدت سنة ٣٢٥و ٤٥١. كان الحل المتمثل في عقد مجمع أو مجلس يمثل الكنيسة كلها يبدو أنه أفضل الحلول لأن كلا الرجلين كانا يرفضان قبول أو الخضوع لأي نوع من الوساطة أو التحكيم.(١١)

لم يكن الوضع يحتاج إلى تبرير لعقد ذلك المجلس بهدف عزل أحد البابوات. فقد أصر دانتي Dante في كتابه "عن الملكية" Of Monarchy الذي كتبه بعد سنة ١٣١١ أن الدولة والكنيسة كليهما نراع الله. فقد رتّب الله كل منهما. كان على الإمبراطور أن يضمن سعادة ورخاء الإنسان في هذه الحياة، بينما كان على البابا أن يقود الناس إلى السماء. وليس لأحد منهما أن يسعى للتسيد على الآخر. ولكن أهم ما كتب في التبرير المنطقي لعقد المجالس الإصلاحية تضمنه كتاب اسمه Defensor Pacis (١٣٢٤) وقد كتبه اثنان هما مرسيليوس من بادوا Marsilius of Padua (١٢٧٥-١٣٤٢ تقريباً)، وجون من جاندون John of Jandun. ففي هذا الكتاب، أيّد المؤلفان مجهودات لويس Louis ملك بافاريا ضد البابا. وقد حطم الكتاب الفكرة القائلة بالاحتياج إلى السلطة سواء في الكنيسة أو الدولة".






اعتقد مرسيليوس أن الشعب في الدولة أو المؤمنين في الكنيسة هم مصدر السلطة الأساسي وأنهم يمكنهم من خلال مجالس تمثلهم أن ينتخبوا الإمبراطور والبابا، ولكنه رأى أن الإمبراطور كان مكانه أعلى من البابا. ورأى أن الكنيسة من خلال مجلس عام يسترشد بالعهد الجديد وحده قادرة على صياغة التعليم والعقيدة وعلى تعيين موظفيها والمسئولين عنها. فالمجلس الكنسي العام هو إذاً أعلى سلطة في الكنيسة وليس البابا؛ وأن هذه المجالس ينبغي أن تعمل لأجل الصالح العام لكل المسيحيين.[١٢] لو أن أفكار وآراء مرسيليوس كانت لها الغلبة، لكانت الكنيسة الكاثوليكية قد تحولت إلى ملكية دستورية يقودها بابا منتخب ومعين من قبل مجلس، ولاختفت البابوية المطلقة التي سادت الكنيسة في القرون الوسطى. إلا أن هذه الآراء لم تنتصر بصفة دائمة، بالرغم من أن هذه المجالس قد ساهمت بمجهودات إيجابية في مجالات أخرى.

تمت دعوة المجلس لكي يعمل على إنهاء الانشقاق في قيادة الكنيسة، ولكي يصلح الكنيسة من داخلها ولمقاومة الهرطقة. وكان متوقعاً من المجلس أيضاً أن يطبق عملياً بعض نظريات الحكم التي صاغها مرسيليوس.

### أ- مجلس بيزا The Council of Pisa (١٤٠٩)

عند انعقاد مجمع ومجلس بيزا في ربيع عام ١٤٠٩ ، كان البابا بندكت الثالث عشر Benedict 13th مسيطراً على أفنيون، وكان البابا جريجوري الثاني عشر Gregory 12th يشغل الكرسي البابوي في روما. وما أن انعقد المجمع الذي دعاه الكرادلة للانعقاد حتى صرح بإقراره حق الكرادلة في دعوته وأن هذا المجمع كانت له الصلاحية حتى في استدعاء شاغلي مقصد البابا لتقديم أسبابهما في ما حدث من انشقاق.[١٣] قرر المجلس عزل كلا الرجلين بندكت الثالث عشر وجريجوري الثاني عشر وعين الرجل الذي عرف باسم البابا الكسندر الخامس Alexander 5th باعتباره هو البابا الشرعي.[١٤] فما كان من شاغلي العرش البابوي إلا أنهما رفضا الاعتراف بهذه القرارات فأصبح هناك ثلاثة أشخاص يشغلون منصب البابا ولكن ما لبث أن توفى الكسندر الخامس في ١٤١٠ ليخلفه البابا يوحنا الثالث والعشرون John 23rd.

### ب- مجمع كونستانس The Council of Constance (١٤١٤-١٨)

دعا سيجسموند Sigismund إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة مجمعاً آخر عقد في مدينة كونستانس وذلك بالاتفاق مع البابا جون الثالث والعشرين. وقد تمت دعوة هذا المجمع استناداً إلى ما فعله الإمبراطور قسطنطين Constantine عندما دعى مجمع نيقية Council of Nicaea عام ٣٢٥. فاجتمع ٣٥٠ شخصاً من كبار رجال الكنيسة. ولإحباط محاولة البابا جون السيطرة على المجلس باستخدام تصويت الأغلبية، وكانت مضمونة له بسبب العدد الكبير لأتباعه من الإيطاليين، وافق أعضاء المجلس على التصويت كتكتلات وطنية، أي أن كل كتلة من الأعضاء من بلد معين تُعطي صوتًا واحداً، ويصبح ضرورياً إجماع الدول الخمس الممثلة في المجلس على أي قرار، حتى يصبح مُلزماً للمجمع كله. وأعلن المجلس إقراره لقانونيته ولحقه في أن يصبح السلطة العليا في الكنيسة الرومانية.[١٥] وقد أطلق على هذا

القرار الذي استبدل سلطة البابا المطلقة على كنيسة روما بسلطة المجمع عليها اسم Sacrosanct.

بعد المجمع مباشرة تنحى جريجوري الثاني عشر Gregory 12th، ثم بعد مفاوضات كثيرة تم اقصاء كل من بندكت الثالث عشر Bendect 13th وجون الثالث والعشرين John 23rd وذلك في سنة ١٤١٥. وتم انتخاب مارتين الخامس Martin 5th من قبل المجلس ليصبح البابا الجديد. فبذلك أخذ المجلس سلطة انتخاب البابا منتزعًا إياها من مجلس الكرادلة College of Cardinals. وقد واجه هذا المجلس مشكلة الهرطقة بأن أدان آراء ويكليف Wycliffe وحكم بإعدام جون هس John Hus حرقًا بالرغم من وعد الإمبراطور له بالأمان. وناقش المجلس أيضًا مشكلة الإصلاح، ومشكلة الانشقاق والهرطقة. وقد حدد قرار من المجلس عُرف باسم Frequens قاعدة لاجتماع المجالس العامة للكنيسة في مواعيد محددة في المستقبل كوسيلة لحفظ النظام في الكنيسة الكاثوليكية التابعة لروما. فكان المجلس التالي مقررًا أن يجتمع بعد سبع سنوات أخرى، ثم بعد ذلك ينعقد المجمع مرة كل عشر سنوات لمعالجة مشاكل مثل الانشقاق والهرطقة والإصلاح.(١٦)

ج- مجامع بازل وفيرارا، (فلورنسا) Council of Basel and Ferrara (Florence) (١٤٣١-٤٩)

أدّت القلاقل التي سادت بوهيميا بعد استشهاد هس Hus ، والاحساس المتزايد بالحاجة إلى الإصلاح، إلى الدعوة إلى عقد مجمع في بازل سنة ١٤٣١. لقد طال انعقاد هذا المجلس حتى عام ١٤٤٩، لكن القوة التي اكتسبها الاصلاح واكبها انتعاش للنفوذ البابوي، أقصى المجلس البابا يوجينيوس الرابع Eugenius 4th وذلك في عام ١٤٣٩، أي بعد سنة واحدة من انعقاد المجمع المضاد الذي دعى إليه البابا في مدينة فيرارا. إلا أن ذلك المجمع المضاد اضطر إلى نقل أعماله إلى مدينة فلورنسا بسبب وباء الطاعون عام ١٤٣٩. وحاول مجمع فلورنسا إعادة توحيد الكنائس اليونانية مع الكنائس التابعة لروما لكن المحاولة لم تنجح. وكان هذا المجمع هو الذي أعلن تحديد الأسرار السبعة المقدسة التي قبلتها الكنيسة الكاثوليكية. وتم صياغة هذا الأمر في إقرار بابوي أصدره البابا يوجينيوس الرابع عام ١٤٣٩. وقد اعترف مجمع بازل بالهزيمة بأن حل نفسه في عام ١٤٤٩.

وبذلك وصلت المحاولة لخلق نظام ملكي دستوري في روما إلى نهايتها، وعادت البابوية إلى نظام الحكم البابوي المطلق الذي اتبعته لقرون عديدة. وفي وثيقة بابوية أصدرها البابا بيوس الثاني Pius 2nd بعنوان Execrabilis عام ١٤٦٠ أدان أي طلب لعقد مجالس أو مجامع في المستقبل.(١٧) إلا أن رجال الكنيسة في فرنسا متفقين مع الحاكم الفرنسي أعلنوا قرارات براجماتية عرفت باسم Sanction of Bourges في سنة ١٤٣٨، وهي التي جعلت الكنيسة في فرنسا مستقلة عن البابا، ولكنها من ناحية أخرى وضعتها تحت نفوذ وسيطرة الدولة.(١٨)

ومع أن المجامع والمجالس الإصلاحية قد فشلت في محاولة تأسيس نظام رياسي دستوري في الكنيسة في روما، إلا انهم أنقذوا الكنيسة من





الفوضى التي صاحبت الانشقاق الكبير. وقد قضى الفشل في تحقيق الإصلاح الفعال على أخر فرصة للإصلاح في الكنيسة الكاثوليكية من داخلها والتي قام بها الإختباريون أو المصلحون أو المجالس والمجامع. ومن ذلك الوقت أصبح الإصلاح البروتستانتي حتمية لا يمكن تفاديها.

## اقتراحات للقراءة

*Flick, Alexander.* The Decline of the Medieval Church. *2 vols. London: Kegan, Paul, Trench, Truber, 1930. This work was a helpful discussion of this era.*

*Gill, Joseph.* The Council of Florence. *Cambridge: Cambridge University Press, 1959. This is a scholarly treatment of that council.*

*Hyma, Albert.* The Christian Renaissance. *New York: Century, 1924. This is a scholarly work on the Brethren of the Common Life.*

*Leff, Gordon.* Heresy in the Middle Ages. *New York: Barnes & Noble, 1967.*

*Lucas, Henry S.* The Renaissance and the Reformation. *2nd. ed. New York: Harper, 1960. This work is still one of the most useful surveys of the era between 1305 and 1517 concerning such matters as the reforming councils, the rise of nations, and the Renaissance. The bibliography will be found helpful for information on the mass of literature available concerning the subjects discussed in this unit.*

*MacKinnon, James.* The Origin of the Reformation. *New York: Longmans, 1939.*

*Mollatt, Guillaume.* The Popes at Avignon 1305-78. *Translated by Janet Love. New York: Nelson, 1968.*

*Mundy, John H., and Woody, Kennerly M., eds.* The Council of Constance. *Translated by Louise R. Loomis. New York: Columbia University Press, 1961. Contemporary accounts of the Council of Constance are found in this work.*

*Parker, Geoffrey H. W., The Morningstar:* Wycliffe and the Dawn of the Reformation. *Grand Rapids: Eerdmans, 1965.*

*Ridolfi, Roberto.* The Life of Girolamo Savonarola. *Translated by Cecil Grayson. New York: Knopf, 1959. The autor ably describes that reformer.*

*Smith, John H.* The *Great Schism:* The Disruption of the Papacy. *New York: Weybright and Tally, 1970.*

*Spinka, Matthew.* John Hus: A Biography. *Princeton: Princeton University Press, 1968.*

____. John Hus at the Council of Constance. *New York: Columbia University Press, 1965 This and above work cover the life of Hus in scholarly fashion.*

____, *trans.* The Letter of John Hus. *Manchester: Mancherster University Press, 1972. This is a firsthand account of the thought of Hus.*

*Stacey, John.* John Wyclif and Reform. *Philadelphia: Westminster, 1964.*

*Workman, Hebert B.* The Dawn of the Reformation. *2 vols. London: Kelly, 1901-2.*

____. John Wyclif. *2 vols. Oxford: Clarendon University Press, 1926.*



غروب العصور الوسطى وإشراق
العصور الحديثة ١٣٠٥-١٥١٧

## الفصل الخامس والعشرون

# البابوية تواجه مقاومات خارجية

كانت مجهودات الاختباريون والإصلاحيون، والمجالس الاصلاحية والإنسانيون كلها محاولات مخلصة نبعت من زوايا مختلفة ولكنها كلها كانت تهدف إلى إحداث الإصلاح من داخل الكنيسة بحيث يصبح الإختبار الديني شخصياً، وتصبح الكتب المقدسة هي مصدر السلطان، وتصير الكنيسة الكاثوليكية أكثر ديموقراطية في مؤسساتها. إلا أن فشل هذه المحاولات أو قدرة الكنيسة على استيعابها أنهت كل أمل في حدوث الإصلاح من الداخل. وفي نفس الوقت كانت هناك بعض القوى الخارجية تمثل ضغوطاً ومقاومات للنظام البابوي. كانت هذه القوى متمثلة في الروح الإنسانية التي طغت على عصر النهضة، والروح القومية الوطنية، إلى جانب التوسع الجغرافي في العالم المعروف عندئذ والذي كان نتيجة للاستكشافات في الشرق الأقصى وفي النصف الغربي من الكرة الأرضية. كانت هذه العوامل داعمة ومقوية للحركة التي ما لبثت أن تبلورت في النهاية في الإصلاح البروتستانتي الذي ساهم في إنهاء سيادة البابوية على العالم.

## ١- عصر النهضة

تعتبر النهضة Renaissance التي حدثت في العلوم والفنون في بلدان أوربا الرئيسية في الفترة ما بين ١٣٥٠-١٦٥٠، مؤشراً للانتقال من عالم العصور الوسطى إلى عالم العصر الحديث. والاسم الذي اشتهر به هذا العصر مشتق من الكلمات اللاتينية التي معناها "الميلاد" و "العودة" وهو يعبر عن فكرة إعادة بعث أو ولادة الحضارة من جديد. وقد استخدم هذا الاسم لأول مرة حوالي سنة ١٨٥٤ كتعبير وصفي لهذه الحقبة من التاريخ الإنساني. وقد ارتبط عصر النهضة في مفهومه الأضيق بالقرن الرابع عشر في إيطاليا، إذ أدّى إعادة اكتشاف كنوز الماضي الكلاسيكية إلى توفير الحافز والتحدي للإبداع الأدبي والفني مرة أخرى. ويظهر التأثير الكلاسيكي على أعمال فنانين مثل بترارك Petrarch (١٣٠٤-١٣٧٤) وبوكاشيو Boccacio (١٣١٣-١٣٧٥). إلا أن هذه الإبداعات الإنسانية Humanism الكلاسيكية في جنوب جبال الألب تقابلها إبداعات إنسانية في شمال الألب في بداية القرن السادس عشر قام بها ريوتشلين Reuchlin وكوليه Colet وإراسموس Erasmus وغيرهم. عاد الإنسانيون في الشمال إلى الكتاب المقدس في لغاته الأصلية، لكن الإنسانيين في الجنوب ركزوا على دراسة روائع الأدب الكلاسيكي ولغات الاغريق والرومان.

أما عصر النهضة في مفهومه الأوسع فيمكن تعريفه على أنه تلك الفترة التي شهدت إعادة صياغة الحضارة حيث استبدل الناس الاتجاه الديني الجماعي الذي ساد العصور الوسطى وحكم نظرة الناس إلى حياتهم، بنظرة جديدة حديثة علمانية ذات طابع فردي. وأصبحت شوارع روما هي مركز انتباه الناس بدلا من التفكير في أورشليم الجديدة في السماء. وتغيرت مفاهيم العصور الوسطى للعالم والتي كانت تتمركز حول الله الذي كان يعتبر مقياسًا لكل شئ: وصار التركيز على مجد الانسان بدلًا من مجد الله. وأصبح مجتمع المدن المكون من رجال الطبقة الوسطى أكثر أهمية من مجتمع القرية القديم الذي يعمل بالزراعة التي سادت الأنشطة الإقتصادية في عصر الإقطاع. وينبغي أن نتذكر في هذا السياق أن النهضة اقتصرت في مجملها على مجتمع الطبقة العليا الصغير وأن أفكارهم وأسلوب حياتهم تسرب ببطء ليصل إلى الدرجات الأدنى في قطاعات المجتمع المختلفة. أصبحت التجارة أهم من الزراعة كوسيلة لكسب العيش. وساد نمط جديد في معالجة الأمور يتميز بالنزعة الانسانية، المتفائلة الراغبة في التجريب. ومع أن الطابع الديني ظل متسيدًا على شكل الحياة في العصر الجديد لكنه انحصر في الشكليات أيام الأعياد وغيرها. وكان الاتجاه السائد هو أن يتناسى الناس ما يطلبه منهم الله في حياتهم اليومية.

وهناك أمور عديدة ساهمت في تصاعد هذه النظرة الجديدة للحياة. فقد اصبحت المدن الإيطالية التي بدأت فيها هذه الحركة، مدنًا غنية بسبب دور الوسيط الذي قامت به في عمليات التجارة الكبيرة ما بين غرب أوربا والشرق الادنى. وقد أتاح الرخاء قدرًا من الوفر في الوقت والجهد أمكن تخصيصه للدراسة والتحصيل ومكّن التجار من العمل على رعاية الفنانين والعلماء. وكانت الطبقة الوسطى الجديدة، والتي توفر لديها المال، تهتم بكل ما يجعل الحياة أكثر بهجة وراحة. وفرت الحكومات المركزية الأمن والنظام. ودخول الطباعة باستخدام الحروف المتحركة في عام ١٤٥٦ في ألمانيا جعل انتشار المعلومات بسرعة ممكنًا ومتاحًا في الفترة من عصر النهضة. وساعدت الفلسفة الإسمانية باهتمامها بالفرد وبالمنهج التجريبي طريقًا إلى المعرفة والحق على استثارة اتجاهات فكرية وجدت تحقيقها الكامل في عصر النهضة.

## أ- عصر النهضة في إيطاليا

ظهرت النهضة Renaissance أولاً في إيطاليا خلال القرن الرابع عشر لأن التراث الكلاسيكي كان قويًا في إيطاليا أكثر منه في أي مكان آخر. فالإيطاليون محاطون في كل مكان بآثار مبهرة تمثل عظمة تاريخهم، كما أن الروح الإيطالية تتعاطف مع التركيز على القيم الحضارية الرفيعة في الحياة الحاضرة. هذا بالإضافة إلى وجود فئة من الأغنياء في إيطاليا تستطيع تقديم الدعم المادي الذي يحتاجه الفنانون للإبداع بحرية كاملة. قدم التاجر الكبير لورنزو دي ميديسي Lorenzo Dè Medici منحًا للأدباء والفنانين لكي يحيط نفسه بالجمال والإبداع. وأصبح البابوات في عصر النهضة يهتمون بالآداب والفنون إلى درجة أن مثل هذه الاهتمامات صارت لها الأولوية لديهم عن مهامهم الروحية. وكان من نتائج سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ نزوح العديد من علماء اليونان إلى إيطاليا ومعهم الاف المخطوطات القيمة هربًا من تدمير الأتراك لها. وكان من الصفات





المميزة للنهضة في أول عهدها في إيطاليا هو اهتمامها بالثقافة الكلاسيكية والعلوم الإنسانية في اليونان وروما أكثر من اهتمامها بالأمور اللاهوتية. وعندما أتى مانويل كريسولوراس Manual Chrysolores (١٣٥٠-١٤١٥) إلى فينسيا في عام ١٣٩٣ كسفير يطلب عونًا للقسطنطينية في مواجهة التهديد التركي، بقي في فلورنسا لمدة ثلاث سنوات يُدرس اللغة اليونانية للمهتمين من أهل فلورنسا. وقد سعى بترارك وهو من أوائل الإنسانيين الإيطاليين، باجتهاد لاكتشاف المخطوطات الرومانية والإغريقية لكي يدرسها. وجد هؤلاء الرجال عالمًا جديدًا بدراستهم لهذه المخطوطات، عالمًا اهتم فيه الناس بمتع الحياة الحاضرة. ولقد تجاوب هؤلاء العلماء الإيطاليون مع ذلك التركيز على مباهج الحياة، وتراجع الحس الديني، الذي يركز على الأبدية إلى خلفية تفكيرهم وحياتهم.

اتجه علماء عصر النهضة وفنانوه إلى أن تكون لهم نزعة فردية في نظرتهم للحياة. أحدهم كان سيليني Cellini الذي سجل وصفًا شيقًا لحياته في سيرته الذاتية التي كتبها، كان شديد الفردية في استمتاعه بحياته وأعطى اهتمامًا واعتبارًا كليًا لرغباته الذاتية. وقد أدى مثل هذا التوجه من قبل الفنانين وكبار المفكرين إلى إبراز الطابع العلماني للمجتمع الجديد في تعارض صارخ مع ما كان سائدًا على المجتمع في العصور الوسطى من اهتمام بالعالم الآخر. ويظهر بعض من هذه النزعة الدنيوية المتجردة من الأخلاق في كتاب الأمير The Prince الذي كتبه ميكيافيلي Machiavelli (١٤٦٩-١٥٢٧) وفيه ينصح الحاكم بأن يخضع مقاييس ومعايير السلوك المطلقة للنفعية. فإن كان الكذب أو الخداع يدعم مركزه أو دولته، فإنه لا ينبغي أن يتردد في استخدامه.

ويدهش الدارس لقدرة الأفراد في عصر النهضة على إظهار البراعة في عدة مجالات. فمثلاً مايكل أنجلو Michaelangelo هو الذي زين سقف كنيسة سيستين برسوم رائعة. وكان في نفس الوقت المعماري القدير الذي أشرف على إكمال انشاء كاتدرائية القديس بطرس في روما وتوج ذلك المبنى بإنشاء قبته البديعة. وصمم مايكل أنجلو أيضًا الزي الرسمي للحرس الوطني والذي مازال يرتديه أعضاؤه إلى اليوم. أما ليوناردو دافنشي Leonardo da Vinchi فقد رسم لوحة العشاء الأخير والموناليزا بل ورسم تصميمًا تخطيطيًا للبنادق الآلية والغواصات يدهش المرء لمطابقتها لتصميمات هذه الالات الحديثة.

كان رجال عصر النهضة Renaissance يعشقون الجمال في الطبيعة وفي البشر. بل إنهم في الواقع أسسوا مدرسة جديدة للجمال. وتصور لوحات هذه الفترة تزايد الاهتمام بالدراسة الدقيقة لتشريح جسم الانسان حتى ما تخرج الصور والتماثيل دقيقة تماثل الواقع. ويظهر هذا الحب والتقدير في المهارة الفائقة التي أظهرها تيتيان رسام اللوحات الشخصية العظيم من فنيسيا وهو يتفنن في رسم الأقمشة الملونة الفاخرة التي يرتديها شخوص لوحاته. وهذه اللوحات الدقيقة تختلف كل الاختلاف عن المسخ والشخوص المشوهة التي تظهر في لوحات الفترة القوطية.

ظلت تعاليم الكنيسة وعقائدها مقبولة، واستمر الناس في ممارسة طقوس العبادة بها، ولكن حدث

نوع من الانفصال بين الحياة الدينية للناس وحياتهم اليومية. وقد أثرت هذه الروح الدنيوية حتى على بابوات عصر النهضة أنفسهم. فلم يظهر سوى عدد قليل من الهراطقة أو الملحدين في البلاد اللاتينية في تلك الفترة، لكن الاتجاه الروحي احتل مكانًا ثانويًا بعد الديانة الطقسية الجامدة.

وإذا ألقينا نظرة سريعة على إنجازات ونشاطات البارزين من بابوات عصر النهضة ما بين ١٤٤٧ وعام ١٥٢١ سنرى كيف أن البابوية أذعنت لتلك الروح الدنيوية الإنسانية التي سادت ذلك العصر. نيقولاس الخامس Nicolas 5th (١٣٩٧ – ١٤٥٥ كان من الإنسانيين وقد تدرج في صفوف رجال الكنيسة حتى أصبح البابا. وكان اهتمامه بالعالم الكلاسيكي هو الذي دفعه لترميم وتجديد المباني والجسور والقنوات المائية وكنائس روما العظيمة. أما اهتمامه بالماضي وأمجاده الكلاسيكية فقد ظهر في أنه تبرع بمكتبته الشخصية لتكون نواة لمكتبة الفاتيكان، التي صارت كنزًا نفيسًا للباحثين في العصور اللاحقة. وكان سكرتيره هو لورنزو فالا Lorenzo Valla (١٤٠٥–١٤٥٧)، الذي بعد أن ترك وظيفته في البلاط البابوي عام ١٤٤٠، كتب بحثًا كشف فيه أن وثيقة "هبة قسطنطين" Donation of Constantine مزورة وذلك باستخدامه أسلوب النقد التاريخي الأدبي. فكان بذلك أول من طوَّر مبادئ علم النقد التاريخي. وعدم مواجهة لورنزو لأية مشاكل نتيجة لاتهامه الجرئ إنما يظهر ويبرهن على اللامبالاة التي أظهرتها البابوية تجاه الأمور الدينية.

يوليوس الثاني Julius 2nd (١٤٤١–١٥١٣) قضى هذا البابا وقتًا طويلاً في مجهوداته السياسية لتوحيد الأملاك البابوية في إيطاليا. كان أيضًا راعيًا للفنانين. وهو الذي كلف مايكل انجلو Michaelangelo بتزيين سقف كنيسة سيستين التي بناها البابا سيكستوس الرابع Sixtus 4th (١٤٧١–٨٤).

ليو العاشر Leo 10th (١٤٧٥–١٥٢١) الذي كان البابا عندما اتخذ لوثر Luther موقفه ضد صكوك الغفران، كان واحدًا من عائلة ميدتشي Medici المشهورة في فلورنسا. وكان قد أصدر تصريحه ببيع صكوك الغفران لتمويل عملية بناء كاتدرائية القديس بطرس الموجودة اليوم في روما. وكان أيضًا راعيًا للفنون والاداب. وبوجود مثل هؤلاء البابوات فليس غريبًا أن صدم لوثر بما رآه من جمود العبادة والافتقار إلى الحياة الروحية الحقيقية عندما زار روما لأول مرة في ١٥١٠–١١.

### ب- الإنسانيون الكتابيون
### Biblical Humanists

اشترك علماء النهضة الذين عاشوا شمال جبال الألب مع إخوتهم من جنوب الألب في تقديرهم ومحبتهم للمصادر القديمة، والتركيز على فردية الناس ولا سيما من جهة حق كل انسان في تطوير شخصيته بنفسه، وأيضًا باهتمامهم بطاقات العقل البشري وقدرته على تفسير وتحليل المعلومات التي تدخل إليه عن طريق الحواس. إلا أن علماء النهضة في الشمال لم يكن لديهم ذلك الاهتمام الزائد بالتراث الكلاسيكي قدر اهتمامهم بالتراث المسيحي القديم فعكفوا على دراسة النصوص الكتابية في لغاتها الأصلية بنفس القدر الذي درسوا فيه كتابات أفلاطون Plato وأرسطو Aristotle وربما باهتمام أكبر. كان تركيزهم على





التراث اليهودي المسيحي أكثر من التراث اليوناني الذي ساد في غرب أوربا. كانوا مسيحيين إنسانيين في المقام الأول وطبَّقوا أساليب وطرق الحركة الإنسانية Humanism على دراستهم للكتب المقدسة. كان لديهم اهتمام بالإنسان من ناحية أنه بشر له روح أكثر من اهتمامهم به كمخلوق عاقل مفكر. كان اتجاههم الإنساني له طابع أخلاقي ديني، بينما كان اتجاه زملائهم في جنوب الالب في إيطاليا جمالي دنيوي.

١- مع أن ما قيل عن الإيطاليين من رجال الحركة الإنسانية يصدق على الأغلبية، إلا أنه كان هناك جماعة صغيرة في فلورنسا، يقودها مارسيليو فيسينو Marsilio Ficino (١٤٣٣–٩٩) تاثرت كثيرًا بآراء سافونارولا Savonarola. ترجم مارسيليو كتابات أفلاطون إلى اللاتينية في الفترة من ١٤٦٣ الى ١٤٧٧. وقد كان مسعى هؤلاء الإنسانيين هو توفيق الكتاب المقدس مع الفلسفة اليونانية وبالأخص فلسفة افلاطون. وفي محاولة لتحقيق هذا الهدف بدأوا في دراسة الكتاب المقدس من وجهة النظر الادبية السائدة على الحركة الإنسانية. وقد ساعد توافر الدعم المادي من عائلة مديشي De Medici في فلورنسا على إنشاء أكاديمية أفلاطونية في فلورنسا حيث عكف المسيحيون الإنسانيون على استكمال دراساتهم. وقد قضى في هذه الاكاديمية بعض الوقت للبحث والدراسة كل من جون كوليت John Colet من انجلترا وجاك ليفيفر Jacques Lefèvre من فرنسا وروتشلين Reuchlin من ألمانيا.

٢- مع أن ليفيفر (١٤٥٥–١٥٣٦) استخدم منهجًا حرفيًا روحيًا في تفسير الكتاب المقدس في الدراسة التي كتبها لسفر المزامير من زاوية الفقه اللغوي، إلا أنه نبَّر على أهمية دراسة النص الكتابي ذاته. وفي نحو عام ١٥١٢ نشر تفسيرًا باللغة اللاتينية لرسائل بولس الرسول. وقد ساعدت كتاباته على تمهيد الطريق لتكوين حركة الهجونوت Huguenots عندما وصل تاثير الإصلاح إلى فرنسا.

٣- جومينية فرانسيسكو Jeminéz Francisco de Cisneros والذي عُرف باسم الكاردينال Ximénes، رئيس أساقفة توليدو في أسبانيا، أصبح أب اعتراف الملكة ايزابلا Isabella وكان أيضًا لمدة عدة سنين رئيسًا لمحاكم التفتيش Inquisition في أسبانيا. كان هو الذي أسس جامعة ألكالا لتأهيل رجال الكنيسة في علوم الكتاب المقدس وقد طبع العهد الجديد باللغة اليونانية في عام ١٥١٤. وقد اشرف بالإضافة إلى ذلك على الانتهاء من إعداد نسخة متعددة من الكتاب المقدس عُرفت باسم Complutensian Polyglot.

٤- جون كوليت John Colet (تقريبًا ١٤٦٧–١٥١٩) كان واحدًا من جماعة في انجلترا اشتهرت باسم "مصلحي أوكسفورد". فبعد زيارته لإيطاليا، بدأ كوليت في محاضراته اكتشاف المعنى الحقيقي لرسائل بولس الرسول. وكان ذلك يعتبر ابتكارًا وتجديدًا حيث أن معظم من سبقوه من علماء اللاهوت كانوا يهتمون في المقام الأول بالمعنى الرمزي بدلاً من محاولاتهم فهم ما كان يحاول الكاتب توصيله إلى معاصريه أو من يجيئون بعدهم. كانت مجهودات مصلحي أوكسفورد عاملاً مساعدًا على وصول الإصلاح إلى انجلترا.

٥- كان روتشلين وإيرازموس أكثر رجال الحركة الإنسانية تأثيراً وذلك بسبب انتشار تأثير عملهم في كل أنحاء أوروبا. فقد درس جون روتشلين O Reuchlin (١٤٥٥-١٥٢٢) لدى بيكو ديلا ميراندولا Pico Della Mirandola في إيطاليا مكتسبًا منه قدرة على استيعاب وتذوق اللغة العبرية وآدابها وعلومها اللاهوتية. وكانت ثمرة دراسته العلمية للعهد القديم تأليفه لمعجم للغة العبرية وقواعدها أطلق عليه اسم "من مبادئ العبرية". وقد ساعد هذا الكتاب والذي تم نشره عام ١٥٠٦ كثيرين على التعرف على اللغة الأصلية التي كتب بها العهد القديم مما يتيح لهم التعمق في دراسته. ومن المثير أن نعرف أن روتشلين كان له دور في تقديم المشورة لتوجيه ميلانكثون Melanchthon الذي أصبح الذراع الأيمن للوثر Luther وأول لاهوتي في حركة الإصلاح.

٦- كان تأثير ديزيدريوس إيرازموس Desiderius Erasmus (تقريباً ١٤٦٦-١٥٣٦) أكبر من تأثير روتشلين. فقد تلقى جزءاً من تعليمه الابتدائي في مدرسة إخوة الحياة المشتركة Brethren of the Common Life في Deventer ثم استأنف دراسته في العديد من جامعات أوروبا وانجلترا. وأصبح إيرازموس عالمًا له شهرته العالمية وله مكانته في الدوائر الثقافية في كل مكان. وقد دفعته طبيعته المتعلقة بالبحث والدراسة إلى تبني منهج الإصلاح وليس الثورة، وكان تعبيره عن معارضته السلبية للتجاوزات التي لاحظها في الكنيسة الكاثوليكية هو في كتابه "مدح الحماقة" The Praise of Folly (حوالي ١٥١١) وكتابه الآخر المعروف باسم Familiar Colloquies ومعناها "الأمثال العامية" (١٥١٨).[1]

وفي هذه الكتب حاول إرازموس عن طريق مهارته في النقد والسخرية أن يبرز الشرور التي انتشرت في حياة كل من الكهنة والرهبان. كان الإنسانيون يهاجمون شرور الكنيسة ويسخرون منها بينما كان المصلحون يرفضون هذه الشرور ويوبخونها. أما الجانب الإيجابي من مجهودات إرازموس فقد تمثلت في إعداده ونشره العهد الجديد باللغة اليونانية الذي نُشر عام ١٥١٦ بواسطة الناشر Froben من بازل في سويسرا، الذي كان يطمع في الحصول على الشهرة والربح الذي توقع أن يصاحب أول إصدار مطبوع للعهد



*صنع هانز هولباين الصغير رواسم خشبية توضيحية في هوامش كتاب "مدح الحماقة" الذي سخر فيه إرازموس من الشرور المتفشية في الكنيسة. ويصور هولباين في هذا الرسم راهبا سمينا، أما في الصفحة التالية فيظهر أحد الرسمين روح راهب في طريقها لتسكن في جسم أحمق في حين يتعبد أحدهم لإيقونة في الرسم الآخر.*





الجديد باللغة اليونانية. وكان العلامة الأسباني Ximénes قد سبق وأن طبع عهداً جديداً باليونانية في عام ١٥١٤ ولكنه لم يتمكن من تسويقه أو بيعه قبل إقرار البابا له. ولكي يحقق Froben السبق عليه ويحتكر السوق استمر في حث إرازموس Erasmus للانتهاء من عمله بسرعة. استخدم إرازموس أربعة مخطوطات يونانية كانت متاحة له في بازل، لكنه عندما اكتشف أن الآيات الأخيرة من سفر الرؤيا ناقصة في المخطوطات الأربعة كلها، أعاد ترجمتها من اللغة اللاتينية إلى اليونانية على نفس نسق أسلوب الكتابة في تلك المخطوطات. كان تأثير ذلك الكتاب هائلاً، لأنه أتاح للدارسين عقد مقارنات دقيقة بين الوصف الذي وجدوه في العهد الجديد للكنيسة وبين ما يحدث حولهم في الكنيسة في زمنهم. ولم تكن هذه المقارنات في صالح الكنيسة التي عاصروها بأي حال.

في بداية الأمر تعاطف إرازموس مع لوثر Luther، ولكنه عارضه فيما بعد لأنه لم يكن يرغب أن يحدث الانشقاق عن الكنيسة الكاثوليكية الذي أجبر عليه لوثر في نهاية الأمر. كان كتاب إرازموس بعنوان "دليل الجندي المسيحي" (١٥٠٣) بمثابة مدخل أخلاقي للمسيحية حيث ركز فيه على الأخلاق. أيضاً اختلف إرازموس في فكره اللاهوتي كثيراً عن المواقف التي تمسك بها لوثر. وفي كتابه "الإدارة الحرة" (١٥٢٤)، شجع على إصلاح التجاوزات بدلاً من مهاجمة العقائد، ودافع عن حرية الإنسان في إرادته، وهي التي قال لوثر عنها إنها مسيرة تماماً فيما يختص بالصلاح والخلاص.





كان لعصر النهضة نتائج طويلة المدى في شمال أوربا وجنوبها. أدَّت دراسة التراث القديم الكلاسيكي، بارتباطه بالوثنية، إلى بلورة اتجاه دنيوي في الحياة حتى تراجع الدين فيه إلى طقس هامشي يؤدى بصفة رسمية فقط أو إلى شأن يتجاهله الإنسان ولا يتذكره إلا عندما تحين ساعة وفاته. أيضاً تغيرت صورة الإنسان المثالية عن نفسه، فأصبح يرى نفسه كإنسان مستقل له الحق أن يتطور تبعاً لرغباته الشخصية، وذلك بدل الصورة التي كانت سائدة في العصور الوسطى حيث كان الإنسان فيها يسعى لنوال الخلاص باتخاذه مكانه المتواضع في المجتمع الذي تتحكم فيه الكنيسة عن طريق تركيبه الطبقي المتدرج. أيضاً استعادت المكانة الطبيعية لاستخدام اللغات التي يستعملها الشعب في حياته اليومية، حيث أصبح الأدباء والشعراء والعلماء يستخدمونها في أعمالهم في أوربا في القرن الرابع عشر والخامس عشر مما ساعد على توصيل الكتاب المقدس وخدمات الكنيسة المختلفة إلى الشعب بلغته الخاصة. وقد أتاحت العودة إلى مصادر الثقافة القديمة ودراستها بأسلوب علمي نوعاً من المعرفة التي تتسم بالدقة والشمول للكتاب المقدس نفسه وهو ما لم يكن متاحاً من قبل.

أما في المجال السياسي فقد شجعت النبرة المتجردة من الالتزام الأخلاقي والتي ظهرت في كتاب ميكيافيلي "الأمير" Machiavelli's Prince، على تجاهل المبادئ الأخلاقية في إدارة العلاقات الخارجية بين حكومات المدن في إيطاليا والدول القومية التي نشأت في شمال أوربا. وإذا أردنا الوصول إلى رأي متوازن عن تأثير عصر النهضة فإننا لن نستطيع أن نصفها لا بأنها كانت مأساة ولا أنها كانت بركة خالصة، لكن ينبغي اعتبارها خليط من البركة والوبال على شعوب أوربا.

٧- بالإضافة إلى التطور الذي حدث في اهتمام الإنسان بذاته كفرد متميز له عقل وروح، أدى عصر النهضة إلى اتساع معرفة الإنسان بالكون المادي الذي يعيش فيه. أصبح الإنسان مهتماً بالبيئة التي يعيش فيها إلى جانب اهتمامه بنفسه، وأدت الدراسات العلمية والجغرافية إلى عالم جديد من العلوم وإلى تزايد معرفة الإنسان بعظمة حجم العالم الذي يعيش فيه الإنسان. كان أهل جنوب أوربا هم الذين بدأوا مجهودات الاستكشافات الجغرافية. هنري أمير البرتغال Prince Henry of Portugal (١٣٩٤-١٤٦٠) أرسل الرحالة البرتغاليين حتى اكتشف فاسكوداجاما Vasco da Gama الطريق إلى الهند بعد عبوره الطرف الجنوبي من افريقيا (اكتشاف رأس الرجاء الصالح). ثم اكتشف كولمبوس Columbus (١٤٤٥-١٥٠٦) النصف الغربي من الكرة الأرضية وعرف العالم كله به، وسرعان ما ساهم الرحالة والمستكشفون الإنجليز والفرنسيون في إكمال العمل الذي بدأه، وكانوا جميعاً يفتشون على طريق أقصر يصلون به إلى موارد الشرق الأقصى. وساهم كل من كوبرنيكوس Copernicus وجاليليو Galileo في إدراك الإنسان مدى اتساع الكون من حوله. وكان لاختراع التليسكوب وتطور استخداماته دوراً في إثبات النظريات التي نادى بها هؤلاء.

## ٢- قيام الدول القومية والطبقة الوسطى

كان العالم التقليدي يسوده مفهوم دولة المدينة





باعتبارها أكبر وحدة سياسية معروفة يمكن للبشر تنظيم أنفسهم في إطارها. بل حتى الإمبراطورية الرومانية لم تكن إلا توسعاً كبيراً لدولة المدينة في روما. فكل من حصل على الجنسية الرومانية كان يُعتبر من سكان روما، بغض النظر عن مكان سكنه. وكان يسود العصور الوسطى مفهوم الوحدة الدينية والسياسية، وكانت النظرية تقول إن كل البشر يمكن أن يتحدوا في ظل روما الجديدة، أي الإمبراطورية الرومانية المقدسة Holy Roman Empire. لكن في الممارسة الفعلية كان نظام الإقطاع بكل ما يمثله من لامركزية هو الذي يوفر الأمن والنظام في فترات الفوضى والقلاقل. وكان لبعث بعض المدن قبل عصر النهضة Renaissance مباشرة دوره في خلق دول مدن قوية في إيطاليا. لكن المستقبل في أوربا كان للدول القومية Nation-States كشكل من أشكال التنظيم السياسي. وكان لإنجلترا وفرنسا وأسبانيا السبق في صياغة هذه الدول القومية. كان تطور الأحداث في إنجلترا يمضي في خط تأسيس نظام ملكي دستوري يتشارك فيه الملك مع البرلمان في الحكم. أما الأجهزة التي كانت تمثل الشعب في كل من فرنسا وأسبانيا فلم تبلغ أبداً ما وصل إليه البرلمان الإنجليزي من نفوذ وقوة. وتطور الوضع في فرنسا وأسبانيا لتصبح دولاً قومية مركزية حيث كان حاكمها يحكمها حكماً مطلقاً. وبنمو المدن وتطور التجارة، برزت طبقة متوسطة تطالب بنصيب في الحياة السياسية والحياة الدينية.

### أ- قيام الدولة القومية الإنجليزية

نما البرلمان الانجليزي من أصل مجلس المقاطعات الذي كان معروفاً باسم Curia Regis، والذي تأسس في انجلترا أثناء حكم وليم الفاتح William the Conqueror بعد نجاحه في غزو انجلترا في عام ١٠٦٦م. وكان مجلس النبلاء الإقطاعيين يقوم بدور المحكمة العليا، وكجهاز استشاري يساعد الملك، وكهيئة تمويلية توفر الأموال التي يطلبها الملك بالإضافة إلى الحصص العادية التي كانت الإقطاعيات تدفعها. وقد تدعم نفوذ هذا المجلس بعد التوقيع على وثيقة الماجناكارتا Magna Charta التي وقعها الملك جون في ١٢١٥. وفيها وافق الملك جون John على عدم فرض ضرائب جديدة إلا بعد موافقة مجلس النبلاء وإعطائه الحق لهؤلاء البارونات في أن يتمردوا عليه في حالة نقضه لهذه المعاهدة. أصبح إجراء العدل حقًّا مكتسباً، وأعطى الحق للشعب أن يحاكم أمام محاكم تكون من أشخاص من نفس الطبقة التي تنتمي إليها الأطراف المتخاصمة. وبالرغم من أن هذه الوثيقة لم ينتفع بها إلا طبقة الإقطاعيين في ذلك الوقت، إلا أنها قدمت المبادئ التي تقر بأن الحاكم ينبغي أن يخضع للقانون وأن الضرائب تفرض فقط بموافقة الذين سوف يدفعونها. في عام ١٢٩٥ دعا الملك إدوارد الأول Edward 1st ما أطلق عليه اسم البرلمان المثالي حيث حضره ممثلون عن المقاطعات وعن المدن إلى جانب اللوردات الاقطاعيين ورجال الكنيسة. كوّن ممثلو المقاطعات والمدن مجلس العموم، بينما انتهى الأمر باللوردات ورجال الكنيسة إلى تكوين مجلس اللوردات. وخلال القرن الرابع عشر أدّى احتياج الملك إلى الأموال إلى تطور سلطة البرلمان لإصدار القوانين والتشريعات، حيث كان أعضاء البرلمان لايوافقون على منح الملك الموارد المطلوبة قبل موافقته هو على مشروعات القرارات أو القوانين التي يطلبونها منه.

كان برلمان النواب، والذي كان وزراء الملك مسئولين أمامه مجرد واحد من مؤسسات الملكية الدستورية في انجلترا. وفي فترة حكم الملك هنري الثاني Henry 2nd تم تطوير القانون العام الذي يحمي حريات الأفراد بصورة أفضل من القانون الروماني، وأيضاً تم تطوير نظام المحلفين. فصار للفرد العادي ما يحميه من أي إجراءات تعسفية من قبل الحاكم.

ساهمت حرب المئة عام Hundred Years' War مع فرنسا (١٣٣٧-١٤٥٣) إلى خلق الكبرياء القومي الإنجليزي حيث وجد رماة السهام الإنجليز أن سهامهم قادرة على مواجهة الفرسان الفرنسيين، وساعد فقدان المناطق التي سيطر عليها الإنجليز في فرنسا إلى تقارب الطبقات العليا واتحادها مع الطبقات الأدنى لتكوين الوحدة القومية. وقادت حرب الورود The War of the Roses في الربع الثالث من القرن الخامس عشر إلى التخلص الكامل من طبقة النبلاء الإقطاعيين القديمة وأصبح في الإمكان تحقق تحالف مباشر بين الملك والطبقة الوسطى لصياغة الدولة من جديد. فقد كانت الطبقة الوسطى على أتم استعداد لتوفير المال والنفوذ في مقابل توفيره الأمن والنظام. وسمحت الحريات التي توفرت للبرلمان في القرن الخامس عشر إلى الاستبداد المستتر الذي مارسته أسرة تيودور؛ الذين حكموا بمنهج ميكيافيلي طوال القرن السادس عشر. إلا أنهم احتفظوا بالبرلمان ليضمنوا نوعاً من الدعم الشعبي لتصرفاتهم.

### ب- قيام الدولة القومية في فرنسا

واجهت الدولة القومية Nation-State في فرنسا عقبات كبيرة في بدايتها. كان الحكام الإنجليز يسيطرون على مساحات كبيرة من فرنسا، ولم يكن للملك الفرنسي أي سيطرة على النبلاء الإقطاعيين في بلاده، بل إن الملك لم تتعد أملاكه مساحة صغيرة من الأراضي حول مدينة باريس نفسها. لم يتوفر لفرنسا العوامل اللازمة لتحقيق الوحدة لا على أساس اللغة ولا العرق وذلك بسبب تنوع الشعوب التي يتكون منها الشعب الفرنسي إلى جانب التكوين الجغرافي للبلاد الذي أثار الاتجاهات الإقليمية بين سكانه. وبالرغم من هذه المشاكل كلها، استطاع الحكام الكابيون في باريس، وأولهم هيو كابيه Hugh Capet ٩٨٧م، توحيد فرنسا. ولم تبلغ الجمعية الوطنية، البرلمان الفرنسي، ما وصل اليه البرلمان الإنجليزي من قوة ونفوذ، دأب حكام فرنسا على ممارسة الحكم المطلق في سيطرتهم على شئون الدولة. وقد تضافرت عوامل وجود حكام أقوياء مع تنامي الإحساس بالكراهية تجاه العدو المشترك لكل الفرنسيين وهو إنجلترا طوال فترة حرب المئة عام Hundred Years' War لتحقيق الكثير على صعيد توحيد فرنسا. وهذه الحرب وهبت فرنسا أيضاً بطلتهم القومية جان دارك Joan of Arc.

### ج- قيام الدولة القومية في أسبانيا

ساهم زواج فرديناند دي أرجون Ferdinand of Aragon من ايزابيلا Isabella من كاستيل في عام ١٤٦٩ في تدعيم وحدة أسبانيا. ولقد اصطبغت عملية تطور الدوله القومية الأسبانية طابعاً دينياً وذلك من خلال الصراع من أجل تحرير شبه الجزيرة الأسبانية من الغزاة حيث كانت الحملة الصليبية التي عرفت باسم حملة Reconquista في أوجها خلال القرن الحادي عشر. وقد تحالف الإيمان الكاثوليكي مع المشاعر القومية في





أسبانيا، ومضى أسلوب السلطة المطلقة المرتبط بالكنيسة الرومانية في توازٍ مع السلطة السياسية المطلقة للحاكم أيضاً. وقد ظهر ذلك واضحاً في أعمال محاكم التفتيش وعلى راسها توركيومادا Torquemada، حيث تم بتفويض منها قتل ما يزيد على عشرة الاف شخص، ثم تحت قيادة Ximénes الذي قضى بإعدام ألفين وخمسمائة شخص.

وقد هيأ قيام الدولة القومية قوى قادرة على مقاومة الكنيسة الكاثوليكية ونفوذها، وبالذات في كل من فرنسا وانجلترا حيث استاء الحكام والطبقة الوسطى القوية من تدفق الأموال من خزانة الدولة أو من أموالهم الخاصة لتصب في الخزانة البابوية. وقد استاء طبقة النبلاء من سيطرة كنيسة روما على الأراضي الشاسعة من بلادهم. ولم يرض الملوك عن الولاء المزدوج الذي دفع رعاياهم إلى التمزق ما بين ولائهم للبابا وبين خضوعهم لهم شخصياً.

وكانت المحاكم الكنسية التي لم يكن ممكناً محاكمة رجال الكنيسة إلا أمامها بمثابة تهديد وانتقاص من سلطة النظام القضائي التابع للملك. بل إن الاستئناف أمام المحكمة البابوية كان مخرجاً غير مقبول متاح لرجال الكنيسة وحدهم. ولا بد من الإشارة إلى أنه في نحو عام ١٣٠٠ نجح الحكام الأقوياء في فرنسا وانجلترا في هزيمة مجهودات البابا بونيفاس الثامن Boniface 8th للسيطرة على رجال الكنيسة في دولهم، وأن فرنسا باصدارها المرسوم البراجماتي Pragmatic Sanction في بورج في عام ١٤٣٨ أصرت على أن الكنيسة الرومانية في فرنسا يجب أن تخضع لسيطرة ملك فرنسا دون غيره. أما انجلترا فباصدارها تشريعين في عامي ١٣٥١ و ١٣٥٣ منعت البابا من حقه في تعيين موظفي الكنيسة للوظائف التي تخلو في انجلترا قبل إجراء انتخابات بين رجال الكنيسة المحليين وموافقة الملك عليها كما منع التشريع أي استئنافات من المحاكم الإنجليزية إلى القضاء البابوي. كان هذا الاتجاه لرفض تدخل الكنيسة في شئون الدولة بمثابة قوة خارجية دعمت مجهود المصلحين عند ظهورهم على مسرح الأحداث.

وينبغي هنا الإشارة إلى أن حكام أوربا ما كان لهم أن ينجحوا في مقاومة البابوية بدون مساندة الطبقة الوسطى لهم بما لديها من أموال ونفوذ وهو النفوذ الذي نشأ من انتعاش التجارة نتيجة لنمو المدن وانتعاش التجارة بعد عام ١٢٠٠م. فقد تلقى الحكام دعماً من طبقة التجار في المدن ومن الطبقة الوسطى الغنية من ملاك الأرض وذلك لتمكين الحكام من الوقوف ضد سيطرة البابوية على أراضيهم واستقرت السيادة في يد حكام الدول القومية بدلاً من البابا.

## ٣- الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية (١٣٠٥-١٥١٧)

بينما كانت القوى الخارجية النشيطة للمقاومة والإصلاح تتزايد في أوربا الغربية، وهي قوى عتيدة بأن تمزق وحدة الكنيسة الكاثوليكية كما عرفناها في العصور الوسطى، بقيت الكنيسة الشرقية جامدة في نظرتها اللاهوتية، ولم تنتشر وتمتد إلا في أضيق الحدود. بل إن مكانة القسطنطينية كمركز ديني قد تدهورت بعد سقوطها في يد العثمانيين الاتراك في عام ١٤٥٣، بينما تزايدت أهمية البطاركة الروس وتعاظم دورهم في قيادة

الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية Greek Orthodox Church.

وقد وقع تغييران في روسيا كان لهما أعمق الأثر على مستقبل المسيحية في روسيا. ففيما بين عام ١٢٣٧، عندما دخل الغزاة المغول إلى روسيا لأول مرة، وعام ١٤٨٠، عندما فقدوا سيطرتهم على الدولة، كانت روسيا تحت سيطرة الغزاة من المغول التتار. وبالرغم من أن هذا الغزو ساهم في تأخير روسيا حضارياً وثقافياً، إلا أنه عمل في صالح الكنيسة الروسية لأن هذا الغزو فصل الكنيسة الروسية وقطع اتصالها بالقسطنطينية مما دفعها إلى الاعتماد على قيادتها الوطنية. ومن خلال جهاد الروس المحافظة على دينهم وثقافتهم بالرغم من تأثير الغزاة عليهم، اتحدت مشاعر الروس القومية مع تراثهم الديني فتحول الشعب للدين طلباً للعزاء والقيادة والإرشاد في زمن المحنة القومية.

وفي عام ١٣٢٥ نقل كبير أساقفة الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا قصره من مدينة كيف القريبة من القسطنطينية إلى موسكو. فقد شعر أنه في موسكو يستطيع أن يكون أكثر استقلالاً عن القسطنطينية، ولكنه في نفس الوقت أصبح أكثر عرضة للسيطرة المدنية من قبل حكام الدولة الروسية. وبعد عام ١٤٥٣ أصبح المطران الروسي مستقلاً عن البطريرك في القسطنطينية إذ وقعت هذه المدينة وفيها البطريرك تحت سيطرة الأتراك. وبعد سقوط القسطنطينية بوقت قصير، انتخب الاساقفة الروس المطران على اعتبار أنه "مطران موسكو وكل روسيا". وأصبحت الكنيسة في روسيا في عام ١٥٨٩ كنيسة وطنية، وذلك بعد أن توفرت لها الحرية في تطوير ذاتها في ضوء استقلالها، وإن بقيت دون تغيير كبير على صعيد الفكر اللاهوتي والطقس العبادي، اختارت الكنيسة أن تزداد تقارباً مع الدولة وأصبحت موسكو هي "روما الثالثة" لتحتل المكانة التي تشغلها روما والقسطنطينية.

وفيما بين ١٣٠٥ و ١٥١٧ عملت القوى المشجعة على التغيير في الكنيسة في الشرق كما في الكنيسة في الغرب. في الشرق كانت التغييرات أساساً في مجال القيادات والتنظيمات الكنسية، أما في الغرب فقد أحدث الإصلاح مجموعة من التغييرات الجذرية لم ينتج عنها تأسيس الكنائس القومية البروتستانتية فحسب بل وساهمت أيضاً في إحداث الإصلاح في داخل الكنيسة الكاثوليكية لمواجهة تحدي الحركة البروتستانتية.

## اقتراحات للقراءة

*Adeney, Walter F.* The Greeek and Eastern Church. *New York: Scribner, 1908. This will provide sufficient information concerning the church in the East in this period.*

*Bainton, Roland H.* Erasmus of Christendom. *New York: Scribner, 1969.*

*Erasmus.* In Praise of Folly. *The student should read this classical satirical work so that he





*can capture the critical spirit of the Christian humanists.*

*Ferguson, Wallace.* The Renaissance. *New York: Holt, 1940. This little volume is a helpful survey of the Renaissance.*

*Froude, J. A.* Life and Letters of Erasmus. *New York: Scribner, 1912.*

*Green, Vivian H.H.* Renaissance and Reformation. *London: Arnold, 1952.*

*Hyma, Albert.* The Life of Desiderius Ersamus. *Assen, Netherlands: Van Gorcurm, 1972.*

*Lea, Henry C.* A History of the Inquisition in Spain. *4 vols. London: Macmillan, 1906-7.*

*Lucas, Henry S.* The Renaissance and Reformation. *2nd ed. New York: Harper & Brothers, 1960. This is a helpful general treatment of the northern and southern Renaissance and also gives attention to the rise of nation-states and the middle class as important influences during the Reformation.*

*Smith, Preserved.* Erasmus. *New York: Harper, 1923. This is a scholarly and interesting account of the life and work of Erasmus.*

*Thomson, S. Harrison.* Europe in Renaissance and Reformation. *New York: Harcourt, Brace, 1963.*

# تاريخ الكنيسة الحديث

الإصلاح والإصلاح المضاد

١٥١٧-١٦٤٨

العقلانية ، النهضة ، الطائفية

١٦٤٨ - ١٧٨٩

النهضة ، الإرساليات ، التحديث

١٧٨٩ - ١٩١٤

الصراع بين الكنيسة والمجتمع

منذ عام ١٩١٤

## الفصل السادس والعشرون

# خلفيات الإصلاح

أصبح الإصلاح Reformation ضرورة بسبب تضافر عدة عوامل. فمن بينها عدم استعداد الكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى لتقبل الإصلاحات التي اقترحها مصلحون مخلصون من أمثال الاختباريين، ويكليف Wycliffe وهس Hus، وأيضا قادة المجالس الإصلاحية والإنسانيون. ومن بينها أيضا قيام الدولة القوية التي عارضت ما نادت به البابوية بأن نفوذها الدولي يغطي العالم كله. وتعاظم دور الطبقة الوسطى التي أساءها استنزاف مواردها لدعم البابوية في روما. هذه العوامل مجتمعة جعلت الإصلاح ضرورة حتمية. كان المجتمع الإيطالي، تنتمي إليه البابوية، يثبّت نظره على الماضي الوثني الكلاسيكي دون إدراك لقوى التغيير التي كانت تعمل لخلق مجتمع جديد، واختار ذلك المجتمع ومعه البابوية نمط حياة تتميز بالرقي الحضاري لكنه فعلياً كان يحكمه الفساد الأخلاقي والنزعة الشهوانية.

## ١-ظهور عالم دينامي متنام

مع حلول عام ١٥٠٠م كانت أساسات مجتمع العصور الوسطى القديم في طريقها للتفكك، ليظهر بدلا منها مجتمع جديد متغير ببطء لكن بآفاق جغرافية أوسع وبأنماط سياسية واقتصادية وفكرية ودينية جديدة. كانت تلك التغييرات عظيمة جداً إلى حد الثورة، سواء في مداها أو في أثرها على التركيب والنظام الاجتماعي.

واجه تركيب المجتمع الذي ساد في العصور الوسطى تحدياً خلال الإصلاح في صميم نظام الحكم فيه، وذلك من خلال فكرة لزوم استبدال الكنيسة العالمية بكنائس قومية أو وطنية إلى جانب الكنائس الحرة. أما فلسفة الكنيسة المدرسية Scholastic بارتباطها بالفلسفة اليونانية فقد أفسحت المجال للاهوت الإنجيلي الكتابي. وانتهى مفهوم التبرير بالإيمان مع الأسرار والأعمال، وأصبح الإيمان وحده هو الذي يبرر. وأصبح الكتاب المقدس وحده هو المقياس بعد أن كان الكتاب والتقليد وكما تفسرهما الكنيسة وحدها. إلا أن كل هذه الأفكار بدأت تتراجع بعد عام ١٦٥٠ بالفلسفة الألمانية المثالية ومدرسة النقد الكتابي. وتزايد اتجاه الحضارة الغربية إلى العلمانية ومع امتداد نفوذ أوربا جغرافياً تأثر العالم كله بما يحدث فيها.

### (أ) التغيرات الجغرافية

تعرضت معرفة إنسان العصور الوسطى

لتغيرات مذهلة في الفترة ما بين ١٤٩٢-١٦٠٠.

تميزت حضارة العالم القديم بأنها حضارة الأنهار وذلك لارتباطها بنظام الأنهار في العالم القديم. أما الحضارة في العصور الوسطى فقد عرفت بارتباطها بالبحار لأنها تطورت حول البحار: البحر المتوسط، وبحر البلطيق. ومع حلول عام ١٥١٧ قادت اكتشافات كولومبوس Columbus وغيره من الرحالة المستكشفين العالم إلى عصر جديد من عصور الحضارة هي حضارة المحيطات، وأصبحت المحيطات هي الطرق الملاحية الرئيسية للعالم. وفي الوقت الذي ترجم فيه لوثر Luther العهد الجديد إلى اللغة الألمانية (١٥٢٢)، كانت سفينة ماجلان قد اكتملت رحلتها حول العالم. وقد فتح اكتشاف الممرات المائية الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية طريقًا بحريًا رخيصًا يوصل أوربا بكنوز الشرق الأقصى. وكان للدول الكاثوليكية في أوربا مثل فرنسا والبرتغال وأسبانيا السبق في تلك الاكتشافات الجغرافية، ولكن الدول البروتستانتية مثل انجلترا وهولندا سرعان ما سبقتها في الاستكشاف الجغرافي وبناء المستوطنات. وانفتح طريق استغلال قارتين جديدتين في النصف الغربي من الكرة الأرضية أمام قوى العالم القديم. كانت البرتغال وأسبانيا تحتكران استغلال موارد أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية، ولكن الجزء الأكبر من أمريكا الشمالية، أصبح المقر الجديد للانجلو ساكسون بعد صراع بين انجلترا وفرنسا. وقد صدرت أسبانيا والبرتغال، ومن بعدهم فرنسا، ثقافة لاتينية مع كاثوليكية مضادة للإصلاح Counter Reformation وقد حملها الفاتحون ورجال الكنيسة إلى كيوبك وأمريكا الوسطى والجنوبية مكونين بذلك ثقافة متجانسة. أما شعوب شمال غرب أوربا فقد صدروا الثقافات الانجلو ساكسونية أو التيوتانية (الجرمانية) مع التعددية البروتستانتية إلى أمريكا الشمالية فكونوا بذلك ثقافة الولايات المتحدة وكندا. وقد استمرت هاتان الثقافتان حتى يومنا الحاضر في النصف الغربي من الكرة الأرضية.

### (ب) التغيرات السياسية

كانت الأمور تتغير أيضًا على الصعيد السياسي. كان المفهوم الذي ساد العصور الوسطى بوجود الدولة العالمية يفسح مكانه للمفهوم الجديد للدول القومية الإقليمية. فمنذ نهاية العصور الوسطى والدول يتم تنظيمها على أسس قومية. وكان يحكم هذه الدول القومية المركزية ملوك أقوياء ويدعمها جيش منظم ونظام من الخدمات المدنية. وكانت لها توجهات قومية تقاوم الانضمام تحت راية دولة عالمية أو الخضوع لحاكم ديني عالمي. بل إن بعض تلك الدول تحمست جدًا في تأييدها لحركة الإصلاح Reformation لكي تصبح الكنائس في دولهم تحت سيطرتهم المباشرة. فاستبدلت الوحدة السياسية النظرية التي جمعت عالم العصور الوسطى بمجموعة من الدول القومية، تصر كل منها على استقلالها وسيادتها. وحل محل اللامركزية في عالم القرون الوسطى أوربا جديدة تتكون من دول قومية Nation-States مركزية. ولأن كل من هذه الدول كانت مستقلة، فقد ساد مبدأ توازن القوى في العلاقات الدولية وأثناء الحروب الدينية في القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر.

### (ج) التغيرات الاقتصادية

حدثت تغيرات اقتصادية مذهلة قبل الإصلاح مباشرة. فخلال العصور الوسطى كان اقتصاد دول أوربا زراعيًا، وكانت الأرض هي أساس الثروة. ومع





حلول عام ١٥٠٠، انتعشت المدن، وانفتحت أسواق جديدة، ومع اكتشاف مصادر المواد الأولية في المستعمرات في الأراضي الجديدة التي تم اكتشافها بدأ عصر جديد للتجارة حل فيه تجار الطبقة الوسطى مكان نبلاء العصور الوسطى الإقطاعيين في قيادة المجتمع. وظل هذا النمط التجاري للحياة الاقتصادية دون تغيير ملحوظ إلى أن بدأت الثورة الصناعية حوالي عام ١٧٥٠. فصارت التجارة تتم بين الدول بدلاً من أن تكون بين المدن فقط. وبرز اقتصاد يهتم ويقدر أهمية تحقيق الربح. ورفضت الطبقة الوسطى الجديدة استنزاف الرأسماليين لمواردهم بدعوى تمويل الكنيسة الدولية بقيادة بابا روما، وكان أن ألقت هذه الطبقة بثقلها لدعم الإصلاح Reformation في بلدان شمال أوربا.

### (د) التغيرات الاجتماعية

استُبدل النظام الاجتماعي الأفقي الذي ساد العصور الوسطى، والذي كان يبقى الشخص فيه في الطبقة التي ولد فيها، ليحل محله مجتمع جديد فيه نظام رأسي. أصبح ممكنًا لأي إنسان أن يرتقي من طبقة أدنى في المجتمع إلى أخرى أعلى منها. ففي العصور الوسطى كان إذا وُلد شخص ما ابنًا لأحد عبيد الأرض وعمالها فليس أمامه سوى فرصة ضئيلة أن يصبح أي شئ آخر غير عامل في تلك الأرض، إلا في حالة انضمامه للخدمة في الكنيسة. لكن مع حلول عام ١٥٠٠ كان الناس سيصعدون إلى رتب اجتماعية أعلى، عن طريق العمل في الصناعة. وكانت العبودية للأرض في طريقها إلى الاختفاء بسرعة، لتظهر بدلا منها الطبقة الوسطى الجديدة في المدن، وهي الطبقة التي لم تكن موجودة في العصور الوسطى، وفي هذه الطبقة كنت تجد المزارع الحر، وأعيان الريف وطبقة تجار المدينة وقد تبوأوا مراكز الصدارة دائمًا. دأبت هذه الطبقة الوسطى القوية على تأييد التغيرات التي أحدثها الإصلاح في شمال غرب أوربا.

### (هـ) التغيرات الفكرية

خلقت التغيرات الفكرية التي أحدثها عصر النهضة سواء في شمال أو جنوب جبال الألب موقفًا فكريًا مؤيدًا للتطورات التي استحدثتها البروتستانتية. فقادت الرغبة في الرجوع إلى المصادر القديمة المسيحيين الإنسانيين في الشمال لدراسة الكتاب المقدس في اللغات الأصلية التي كُتب بها. فظهر الفرق واضحًا بين كنيسة العهد الجديد وما يحدث في الكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى. وبالتأكيد لم يكن ذلك الاختلاف البين في صالح البابوية، أو المؤسسة الكنسية. وكان تأكيد رواد عصر النهضة على أهمية الفرد عاملا مساعدًا في تطوير موقف الإصلاح من أن الخلاص أمر شخصي يحسمه الفرد في علاقة مباشرة مع إله دون الحاجة إلى كاهن يقوم بدور الوسيط البشري. واستخدم المصلحون روح النقد التي سادت عصر النهضة في تبرير ملاحظاتهم الناقدة للرتب الكهنوتية والأسرار الكنسية في كنيسة العصور الوسطى ومقارنتها مع ما جاء في الكتاب المقدس. وبالرغم من أن النهضة في إيطاليا سارت على خط إنساني وثني، إلا أن الاتجاهات التي تبلورت في إطارها تلقفها المسيحيون الإنسانيون والمصلحون في الشمال الأوربي مستخدمين إياها لتبرير ضرورة دراسة الكتاب المقدس في لغاته الأصلية باعتبارها المصدر الموثوق للإيمان المسيحي.

### (و) التغيرات الدينية

أفسح انتظام شكل ممارسة الدين في العصور الوسطى مكانه في بداية القرن السادس عشر لتنوع الأشكال في ممارسة الدين. وتمزق رداء الكنيسة الكاثوليكية الذي كان يضفي عليها طابع الدولية بما تميز به تركيبها من شمول وتدرج كهنوتي وطقسية، تمزق ذلك كله مثلما حدث قبلا في عام ١٠٥٤، بانشقاقات أدت إلى تأسيس كنائس قومية أخرى بروتستانتية حرة. وكانت هذه الكنائس عموماً تحت سيطرة حكام تلك الدول القومية، وبالذات الكنائس الانجليكانية واللوثرية، ولم تظهر الطوائف وحرية العبادة كما نعرفها قبل عام ١٦٤٨. واستبدلت سلطة الكنيسة الكاثوليكية بسلطان الكتاب المقدس، وسمح للأفراد بقراءته بكل حرية. فأصبح المؤمن الفرد الآن قادراً على أن يكون هو كاهن نفسه وأن يباشر بنفسه حياته الدينية في شركة مع الله بعد أن يقبل ابن الله مخلصاً شخصياً له بالإيمان وحده.

وفي الجيل الذي عاش ما بين اكتشاف كولمبس Columbus لأمريكا (١٤٩٢) وتعليق لوثر Luther لاعتراضاته الخمسة والتسعين على باب الكنيسة في وتنبرج (١٥١٧)، حدثت كل تلك المتغيرات المذهلة التي وصفناها هنا على الأقل أو شهدت تلك الفترة بداياتها وذهبت الأنماط الجامدة للحضارة في العصور الوسطى لتحل مكانها الأنماط الديناميكية للمجتمع الحديث. ولم تكن التغيرات الدينية بأي حال أقل شأناً من غيرها من المتغيرات التي تعرضت لها الحضارة في أوربا الغربية. ويجد المسيحي المؤمن نفسه خاشعاً أمام آثار يد الله العاملة في حياة البشر في تلك الفترة من التاريخ.

## ٢- وصف الإصلاح وتعريفه

تمت صياغة اسم حركة الإصلاح Reformation وتعريفها من وجهة نظر المؤرخ. ويرى بعض مؤرخي الكنيسة الكاثوليكية ما حدث في حركة الإصلاح على أنه تمرد من البروتستانت على الكنيسة العامة. أما المؤرخون البروتستانت فإنهم يعتبرونه إصلاحاً ساهم في تقريب الحياة الدينية المعاصرة من نموذج المسيحية كما يصفه العهد الجديد. ولكن المؤرخين العلمانيين يرون في حركة الإصلاح مجرد حركة ثورية.

فلو نظرنا إلى الإصلاح من وجهة النظر السياسية أو الكنسية فقط، فإنه يمكن اعتبارها حركة تمرد ضد الكنيسة في روما ورئيسها البابا. وإننا وإن كنا نقرأ أن حركة الإصلاح كان لها طابع ثوري، إلا أنه لا يلزم أن يتبع ذلك الإقرار بأن الكنيسة الحقيقية الوحيدة هي كنيسة روما. فقد حاول المصلحون والكثيرون الذين جاءوا قبلهم دون نجاح أن ينبع إصلاح الكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى من داخلها ومن بين صفوفها، إلا أنهم أجبروا على الخروج من النظام القديم بسبب آرائهم من جهة الإصلاح. إلا إن الإصلاح الكاثوليكي جاء على أي حال ولكن في وقت لاحق.

أما التعبير الأكثر شيوعا وهو "الإصلاح البروتستانتي" فقد اكتسب معناه الحالي مع مرور الزمن. ولأن الإصلاح كان محاولة للرجوع للطهارة الأولى التي ميزت المسيحية في العهد الجديد، فلعله من الحكمة الاستمرار في استخدام التعبير نفسه لوصف الحركة الدينية ما بين ١٥١٧-١٥٤٥. كان للمصلحين غيرة واهتمام على بلورة تعليم لاهوتي





المصلحين غيرة واهتمام على بلورة تعليم لاهوتي يتفق تماماً مع العهد الجديد، وكانوا يعتقدون أن هذا مستحيل طالما استمرت الكنيسة هي السلطة والمرجع النهائي وليس الكتاب المقدس. وينسى الكثيرون من البروتستانت أن الحركة البروتستانتية أحدثت حركة إصلاحية داخل الكنيسة الكاثوليكية، كرد فعل يوقف مكاسب الإصلاحيين وأن هذا الإصلاح المضاد منع الإصلاح من تحقيق المزيد من المكاسب بعد ما حققه في بدايته. وهذه الحركة الإصلاحية التي نشأت وتطورت داخل الكنيسة الكاثوليكية في الفترة ما بين ١٥٤٥-١٥٦٣ عرفت باسم "الإصلاح المضاد" Counter Reformation أو الإصلاح الكاثوليكي.

اقتصر انتشار الإصلاح Reformation في مجمله على شعوب أوربا الغربية والطبقة الوسطى التيوتانية، ولم يقبل الإصلاح لا الكنيسة الشرقية ولا الشعوب اللاتينية التي كانت ضمن الإمبراطورية الرومانية القديمة. وظلت المثل التي سادت في العصور الوسطى عن الوحدة والتماسك هي التي لها التأثير الأكبر في تلك المناطق. أما شمال وغرب أوربا فقد تحركت الشعوب التيوتانية من الوحدة والتماسك إلى تنوع واختلاف البروتستانتية.

وتعريف تعبير "الإصلاح" ليس بالمهمة السهلة. فلو اعتبر المرء الإصلاح أنه ببساطة عملية خلق وتأسيس الكنائس القومية، تكون الحركة التي حدثت ما بين ١٥١٧-١٦٤٨ حركة دينية. ولأن هولندا وحدها هي التي انضمت إلى البروتستانتية بعد مجمع ترنت Council of Trent، فربما كان الأفضل تحديد الجزء الأهم من حركة الإصلاح في الأعوام ما بين ١٥١٧-١٥٤٥. وهنا يصبح تعريف الإصلاح أنه حركة الإصلاح الديني التي أدت إلى تأسيس الكنائس البروتستانتية القومية في الفترة ما بين ١٥١٧-١٥٤٥. وعلى ذلك يمكن تعريف الإصلاح الكاثوليكي على أنه حركة الإصلاح الديني داخل الكنيسة الكاثوليكية في الفترة ما بين ١٥٤٥-١٥٦٣ والتي أدت إلى استقرار وتدعيم الكنيسة الكاثوليكية بعد خسائرها الكبيرة أمام الحركة البروتستانتية، كما أنها شجعت حركة إرسالية رئيسية من الكنيسة الكاثوليكية في القرن السادس عشر نتج عنها ربح أمريكا الجنوبية وأمريكا الوسطى، وإقليم كيوبك والهند الصينية والفيلبين للكنيسة.

## ٣- بدايات الإصلاح

### (أ) التفسيرات المختلفة للإصلاح

أثر تفسير المؤرخين للتاريخ على تقديمهم للأسباب التى أدت إلى الإصلاح. فالتنبير على أحد العوامل التاريخية دون غيره يتم اعتماداً على مدرسة التفسير التاريخي التي يستخدمها المؤرخ. فالمؤرخون البروتستانت - أمثال شاف Schaff وجريم Grimm وبينتون Bainton - يفسرون الإصلاح على اعتبار أنه حركة دينية سعت لاستعادة نقاوة المسيحية الأولى كما يصورها العهد الجديد. ويتجه هذا التفسير إلى تجاهل العوامل الاقتصادية والسياسية والفكرية التي ساعدت على نشر الإصلاح. وبحسب هذا التفسير، تأخذ العناية الإلهية مكاناً باعتبارها العامل الأساسي وراء الإصلاح والذي يسبق كل العوامل الأخرى.

أما المؤرخون الكاثوليك فهم يفسرون الإصلاح على أنه هرطقة حركها مارتن لوثر Martin

الزواج، ويُنظر إلى البروتستانتية على أنها انشقاق هرطوقي دمر وحدة الكنيسة اللاهوتية والتنظيمية. والحقيقة أنه لو نظرنا إلى لوثر من وجهة نظر الكاثوليك، لرأيناه فعلا أنه كان هرطوقياً وأصبح منشقا، ولكن من نفس هذه الزاوية يفشل المؤرخون عادة في رؤية مقدار انحراف الكنيسة في القرون الوسطى عن نموذج الكنيسة المثالي الذي يصفه العهد الجديد. بل إن الإصلاح Reformation الكاثوليكي ذاته يعتبر إقراراً على أن الأمور لم تكن على ما يرام في كنيسة العصور الوسطى.

ويعطي المؤرخون العلمانيون اهتماماً أكبر للعوامل الثانوية في تفسيرهم للإصلاح. ويقدم فولتير Voltaire نموذجاً للتفسير المنطقي لحركة الإصلاح. فبالنسبة له كان الإصلاح أكثر قليلا من نتائج الخلاف الرهباني في ساكسونيا، ومن كون الإصلاح الديني في انجلترا ليس إلا نتيجة لعلاقات هنري الثامن Henry 8th الغرامية. حقيقي أن الرهبان الأغسطينيين اصطدموا بالدومنيكان حول موضوع صكوك الغفران، وأن غرام هنري الثامن بآن بولين Anne Boleyn جعل بداية الأحداث التي انتهت إلى حدوث الإصلاح في انجلترا من الشئون السياسية إلا أن هذا النوع من التفسير للتاريخ يتجاهل العديد من العوامل الأخرى المهمة، مثل الإصلاح الديني في انجلترا في أيام حكم الملك ادوارد السادس Edward 6th ابن هنري الثامن.

أما المؤرخون الذين يقبلون المفهوم الماركسي للحتمية الاقتصادية فلا يستطيعون تفسير الإصلاح إلا من الزاوية الاقتصادية. فإنهم ينظرون إلى الإصلاح باعتباره نتيجة لمحاولة البابوية في روما لاستغلال ألمانيا اقتصادياً لمجرد تحقيق المكاسب المادية للبابوية. أما المؤرخون السياسيون فيرون الإصلاح نتيجة لمقاومة الدول القومية لفكرة وجود الكنيسة العامة الدولية. ويرون أن الإصلاح بكل بساطة ليس إلا حدثاً سياسياً جاء سبباً مباشراً لنمو المشاعر القومية.

وبالرغم من وجود عناصر من الحق في كل هذه التفسيرات، إلا أن الدارس لابد وأن يلاحظ أن معظم هذه التفسيرات تركز في تحليلها على الأسباب الثانوية بل وفي بعض الأحيان تركز على سبب واحد ثانوي دون غيره. لم تكن الأسباب التي أدت إلى الإصلاح سبباً واحداً أو حتى مجموعة بسيطة من الأسباب لكنها كانت متعددة ومركبة. كان الإصلاح حتمياً وفرضته الظروف التي سبقته وعاصرته. كان للكثير من الأسباب جذورها في القرون التي سبقت الإصلاح، عندما رفضت روما وقاومت أي إصلاح داخلي بل وتجاهلت مد المعارضة الخارجية التي سببت لها الكثير من المشاكل وقد كان للطبيعة الخلاقة لشخصيات قادة الإصلاح من أمثال لوثر Luther وكالفن Calvin تأثيراً حاسماً في تحديد الاتجاه الذي سارت فيه حركة الإصلاح ككل. فكان أغلب قادة حركة الإصلاح البروتستانتي ينحدرون من الطبقة المتوسطة، بينما كان معظم قادة حركة الإصلاح الكاثوليكي من الأرستقراطيين. فلأجل كل هذه الأسباب، يتجه تفسير حركة الإصلاح في هذا الكتاب ليكون توفيقياً، أي أننا نعطي الدين اعتباراً أولياً أساسياً ثم نعطي اعتباراً ثانوياً يخلو من أي تجاهل للعوامل السياسية والاقتصادية والأخلاقية والفكرية.(١)





## (ب) الأسباب التي أدت إلى الإصلاح

١- يمكن اعتبار العامل السياسي أحد أهم الأسباب غير المباشرة للإصلاح. فقد كانت الدول القومية المركزية الجديدة في شمال غرب أوربا تعارض مفهوم الكنيسة العامة التي ادعت الوصاية على هذه الدول القومية وحكامها الأقوياء. وقد تصادم هذا النموذج الأمثل لعمومية الكنيسة مع الشعور الوطني المتنامي في أوساط الطبقة الوسطى في تلك الدول الجديدة.

وقد تعقدت هذه المشكلة السياسية الأساسية ببعض الأسئلة المعينة فإنه من الملاحظ أن الدول التي قبلت البروتستانتية أثناء الإصلاح Reformation تقع خارج مجال الإمبراطورية الرومانية القديمة، كما أن الطبقة الوسطى في تلك البلاد كان لها توجه ثقافي مختلف عن توجه الدول اللاتينية. بل ويظن البعض أن حركة الإصلاح ليست إلا تمرد الدول الجرمانية الشمالية ضد الدول اللاتينية وحضارة البحر المتوسط التي ميزتها، إلى جانب المفهوم السائد فيها عن التنظيم الدولي الذي يعتبر من ضمن تراثها المعروف عن الإمبراطورية الرومانية القديمة. رفض حكام هذه الدول القومية وصاية البابا عليهم في مناطق ملكهم. فإن هذه الوصاية كثيراً ما كان لها طابع دنيوي إلى جانب طبيعتها الدينية الروحية وذلك لأن الكنيسة في روما كانت تملك مساحات كبيرة من الأرض في كل أنحاء أوربا. وقد خلقت ملكية الكنيسة للأراضي نوعا معينا من ازدواج السيادة داخل الدولة الواحدة، ولم يرض الحكام المستبدون لتلك الدول عن هذا الوضع وأبرزهم التودريون في انجلترا. كانت التعيينات للمراكز الحيوية في الكنيسة يقوم بها أجنبي وهو البابا. ولم يكن رجال الكنيسة يقدمون للمحاكمة أمام المحاكمة المدنية بل كانوا يقفون أمام القضاء الكنسي بدلا من القضاء التابع للملك. وكان يمكن لأي منهم أن يستأنف الحكم أمام القضاء البابوي مباشرة. وقد ساهمت الضرائب المرتفعةُ التي تفرضها الكنيسة على اتساع الهوة التي تفصل بين الشعوب الأوربية وكنيسة روما. كان الحاكم الوطني وحكومته المدنية تتعارض مع النظام الرياسي الدولي لكنيسة روما. انفصل هنري الثامن Henry 8th عن الكنيسة في روما وذلك بسبب قضية ما إذا كان طلاق الملك يعتبر قضية دولية يقررها البابا، أو إنها قضية وطنية يحسمها رجال الكنيسة الوطنيون.

٢- لا يمكن للمؤرخ المسيحي أن يتجاهل الاهتمام المتزايد بالدور الذي يلعبه الاقتصاد كعامل محرك للشئون الإنسانية، حتى وإن لم يكن ذلك المؤرخ يقبل تفسير ماركس Marx المادي للتاريخ أو نظرية الحتمية الاقتصادية. كان الحكام الوطنيون ينظرون بعين الطمع إلى الأراضي المملوكة للكنيسة في غرب أوربا، كما شاركهم النبلاء، وأفراد الطبقة الوسطى في الدول القومية الجديدة طمعهم. قاوم الحكام ضياع الأموال التي تذهب للخزانة البابوية في روما. ومما زاد تأزم الموقف أن رجال الكنيسة كانوا يعفون من دفع الضرائب للدول القومية. وكان هناك رفض مرير لمحاولات البابا استنزاف المزيد من الأموال من ألمانيا في القرن السادس عشر وذلك من قبل الطبقة الوسطى التي كان يتزايد نفوذها في روما مثل ساكسونيا. وقد تعقد موضوع استنزاف الأموال من الدولة لتذهب إلى روما نتيجة التضخم الاقتصادي وارتفاع تكاليف المعيشة. وقد زاد التضخم بسبب المبالغ الهائلة التي جمعتها أسبانيا

من أملاكها ورعاياها في العالم الجديد. إذ عادت أسبانيا لتصبها في عروق الاقتصاد الأوربي. كان سوء استخدام نظام صكوك الغفران كوسيلة لجمع الأموال من ألمانيا لصالح البابوية هو أكثر ما أغضب لوثر Luther وأثار حفيظته.

٣- كان العامل الفكري في حركة الإصلاح Reformation يتركز في أن الأشخاص أصحاب الفكر المتقد والنظرة العلمانية صاروا ينتقدون الحياة الدينية المعاصرة لهم كما بدت في الكنيسة الكاثوليكية. ومع زيادة عدد أفراد الطبقة الوسطى، أصبحت لهم نظرة فردية للأمور حيث بدأوا في رفض مفهوم المجتمع الجماعي الذي ساد على تفكير العصور الوسطى وهو المفهوم الذي يضع الفرد تحت التزام من السلطة. وقد تدعم هذا الميل للفردية والاستقلالية بقيام دعاوي السيادة المطلقة للدول القومية والتي أعطت المصالح الدولية للكنيسة مكانًا ثانويًا بالنسبة لمصالح الأمة وحاكمها ومؤيديه المخلصين من رجال الأعمال الذين يمثلون الطبقة الوسطى ومصالحها. وقد خلقت الحركة الإنسانية Humanism لعصر النهضة، ولاسيما في ايطاليا، روحًا علمانية تشبه تلك التي تميزت بها اليونان القديمة. فحتى بابوات عصر النهضة تبنوا الاتجاه العقلاني العلماني في الحياة. وقد نما هذا الاتجاه وتلك الروح من رغبة الدارسين في الرجوع إلى المصادر القديمة للفكر الإنساني. فإن مقارنة التدرج الاجتماعي الجماعي الذي ساد في ذلك الوقت بالحرية الفكرية والعلمانية التي تميز بها المجتمع اليوناني وأيضًا بمبادئ حرية الفرد كما تظهر في كتابات العهد الجديد جعلت الناس يتشككون في دعاوي كنيسة روما وقياداتها. صار للأشخاص أفق فكرية أوسع وبدأوا في الاهتمام بالحياة الدنيوية أكثر من الحياة الدينية.

٤- كان العامل الأخلاقي في حركة الإصلاح مرتبطًا مع العامل الفكري. فقد رأى الدارسون، الذين امتلكوا الآن العهد الجديد باللغة اليونانية، بكل وضوح الفوارق الكبيرة ما بين الكنيسة التي قرأوا عنها في العهد الجديد وبين الكنيسة الكاثوليكية التابعة لروما التي يعيشون فيها. فقد انتشر الفساد في الرأس كما في أعضاء النظام الرياسي الكهنوتي للكنيسة. كان رجال الكنيسة الذين لم يكن يهمهم إلا أنفسهم يشترون ويبيعون الوظائف والمناصب بلا ضوابط. بل إن كثيرين منهم تمتعوا بمزايا مناصب نالوا فيها مرتبات مجزية دون أن يقوموا بأي من الواجبات أو الأعمال المرتبطة بتلك الوظائف، بل إن بعضهم كان يشغل عدة مناصب في ذات الوقت، مثل ألبرت من مينز Albert of Mainz الذي قاوم وكيله تيتزل Tetzel لوثر Luther بكل شدة في ساكسونيا. كانت العدالة أيضًا تباع وتشترى في المحاكم الكنسية. فقد كان يمكن للشخص أن يشتري نظير مبلغ من المال حلا يتيح له الزواج من إحدى قريباته بالرغم من أن الشريعة الكنسية كانت تحرم مثل هذا الزواج.

عاش الكثير من الكهنة في الخطية دون خجل أو احتفظ البعض منهم بخطية خاصة. كان الأسقف يهمل شعب أبروشيته، ولم يكن يهتم بانجاز الزيارات الأسقفية اللازمة للإشراف على رجال الكهنوت الخاضعين لإشرافه والتأكد من أنهم يهملون رعيتهم. ونتيجة لذلك أهمل الكثير من الرعاة خدمات الوعظ أو الزيارات مكتفين بتلاوة صلوات القداس وكأنها طقس سحري يأتي بالبركة والنعمة



## مولد الحقبة الحديثة
## ١٣٥٠ - ١٦٥٠
المصادر - الأفراد - التجريب

النهضة - فكرية
١٣٥٠ - ١٦٥٠
لاتينية
جغرافية
البرتغال
(هنرى)
اسبانيا
فكرية وفنية
ايطاليا
مايكل انجلو
شيليني
رافائيل
تيوتونية
كتابية
إيرازموس
روتشلين
كوليت

الإصلاح - روحي
الطبقة المتوسطة
البروتستانتية التيوتونية
١٥١٧ - ١٥٤٥
الى أمريكا الشمالية واستراليا
ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا
(٢) كنائس الدول
لوثري
أنجليكاني
مصلحة
أو
مشيخية
(٣) الكنائس الحرة
الإصلاح الجذري
الهيتورايت
الشفينكفيلدز
الأميش
المنونايت
المعمدانيون
(١) الكنيسة العامة
الكاثوليكية اللاتينية
١٥٤٥ - ١٥٦٠
داخلي
الإصلاح الكاثوليكي
ارستقراطي
التجديد
١- نشيد الحب الإلهي
٢- بول الثالث
٣- مجمع ترنت (الفولجاتا) ١٥٤٥ - ١٥٦٣
٤- الإرساليات ١٥٣٦ -١٥٣٧ إلى أمريكا الجنوبية، كيوبك الفلبينية وأندونيسيا
خارجي
الإصلاح المضاد
رد فعل
ضد البروتستانت
١- الجيزويت - ١٥٤٠
٢- الدليل
٣- التفتيش
٤- أسبانيا

على الشخص. وأصبحت العادة الشائعة هي جمع الآثار المقدسة، مثل قطع من الصليب أو أجزاء من عظام القديسين حتى إنه كان يقال إن مشاهدة مجموعة الذخائر المملوكة لفردريك ملك ساكسونيا Frederick of Saxony والتي بلغ عددها ٥٠٠٥ قطعة، ولو مرة واحدة كفيلة بتخفيض المدة التي يقضيها المرء في المطهر بحوالي ٢ مليون سنة. فقد تعب الناس من تكرار طلب جمع الأموال بواسطة رأس مؤسسة لم تكن تؤدي الخدمة المتوقعة من الكنيسة نحو مجتمعاتهم.(٢)

٥- ساهمت التغيرات التي حدثت في التركيب الاجتماعي في تصاعد الشعور بعدم الرضى والاحباط لدى الناس في العصور الوسطى من جهة الكنيسة. وساهم انتعاش المدن وتبلور الطبقة الوسطى الثرية في تلك المدن في خلق روح الفردية الاستقلالية. وكان للاقتصاد الجديد المعتمد على النقود تأثيره في تحرير الناس من اعتمادهم على الأرض كوسيلة الكسب الوحيدة. ولم يكن وضع المواطن من أبناء الطبقة الوسطى محدداً مميزاً مثل الوضع الذي كان للإقطاعيين وأصحاب الأرض من قبل، وحتى الحرفيين من سكان المدن ومعهم العمال الزراعيين كانوا قد بدأوا يدركون أيضاً أن الأمور لم تكن كلها على ما يرام من جهة النظام الاجتماعي الذي يعانون فيه من الظلم والقهر ممن أعلى منهم في المجتمع. كان الشعور بعدم الرضى الاجتماعي والمطالبة بالإصلاح عاملا اجتماعيا محدداً عجّل بحدوث الإصلاح في أوربا.

٦ - من وراء فشل الكنيسة في تلبية الاحتياجات الحقيقية للشعب، وقف العامل اللاهوتي والفلسفي في حركة الإصلاح Reformation. وقد بالغ البعض في تأكيد هذا العامل ودوره حتى إنهم ينظرون إلى الإصلاح باعتباره صراع فقط بين الفكر اللاهوتي لتوما الاكويني Thomas Aquinas وفكر أغسطينوس Augustine. فالكنيسة في العصور الوسطى فعلاً تبنت فلسفة توما الاكويني، ونبّرت على ما علّم به من أن إرادة الإنسان ليست فاسدة تماماً، وأنه بالإيمان واستخدام وسائط النعمة في الأسرار المقدسة التي يقدمها رجال الكهنوت، يمكن للانسان أن يحصل على الخلاص. أما أغسطينوس فقد آمن أن إرادة الإنسان فاسدة تماماً إلى درجة أنه لا يقدر أن يفعل شيئاً يحقق به خلاص نفسه. لكن الله هو الذي يمد نعمته للإنسان فيحيي إرادته حتى يستطيع بواسطة الإيمان أن يحصل على الخلاص الذي هيأه المسيح له. إلا أن أي دراسة مدققة لكتابات المصلحين ستبين أن المصلحين وصلوا إلى فكر أغسطينوس من خلال الكتاب المقدس الذي سعوا إليه استناداً إلى سلطان الوحي فيه. لكنهم لم يصلوا إلى عقيدة التبرير بالإيمان بدراساتهم لكتابات أغسطينوس بل كانت الكتب المقدسة هى التي أعلنت لهم ذلك الحق المجيد. كان السبب اللاهوتي لحركة الإصلاح هو رغبة المصلحين في الرجوع إلى المصدر التقليدي للايمان المسيحي الذي هو الكتاب المقدس، وذلك لتقييم وتفنيد افتراضات اللاهوت الأكويني القائل بأن الخلاص هو نعمة يحصل عليها الإنسان بواسطة الأسرار المقدسة التي يؤديها ويقدمها رجال الكهنوت .

٧- ويصل عدم الرضا مداه عندما يواجه الشعب ظروفاً قاسية، فإن مشاعر عدم الرضا السائدة بينهم عادة تجد تعبيراً عنها من خلال قائد عظيم يعبر عن تلك الأفكار نيابة عنهم. كان مؤكداً





أن رفض الكنيسة في القرون الوسطى قبول الإصلاح، بل واستحالة أن تصلح نفسها لابد وأن يفتح الطريق أمام ظهور قائد يجسد الرغبة في إصلاح ما أفسدته الممارسات الخاطئة، ويكون هو العامل الذي يحدث التغيرات الثورية المطلوبة. وكانت هذه مهمة مارتن لوثر Martin Luther الذي تجسدت فيه روح الإصلاح، بكل إصرارها على حق الفرد في أن يذهب مباشرة إلى الله بواسطة المسيح، الحق الذي تعلنه كلمة الله.

كان الأسلوب الفج الذي أُسئ به استخدام نظام صكوك الغفران Indulgence في ألمانيا هو السبب المباشر لحدوث الإصلاح في تلك البلاد. كان ألبرت Albert رئيس الاساقفة (١٤٩٠-١٥٤٥) أحد أمراء عائلة هوهنزليرن وكان يسيطر على إقليمين في الكنيسة الكاثوليكية، ولكنه طمع في المنصب الخالي لوظيفة رئيس أساقفة مينز في عام ١٥١٤. ولأن عمر البرت لم يكن يتجاوز ثلاثة وعشرين عاماً، ولأن قانون الكنيسة كان يمنع شغل نفس الشخص لأكثر من منصب، كان عليه أن يدفع رشوة للبابا ليو العاشر Leo 10th لكي يحصل على التفويض اللازم قبل استحواذه على الوظيفتين. وكان من حسن حظه أن رغبته في المنصب الجديد تطابقت مع رغبة البابا ليو العاشر في الحصول على المال لبناء كاتدرائية القديس بطرس في روما. كان البابا مستعداً أن يعطي البرت تفويضاً بشغل وظيفة رئيس أساقفة مينز لو أنه دفع له مبلغاً كبيراً من المال بالإضافة إلى الرسوم المعتادة التي يدفعها شاغل هذا المنصب. ولأن هذا المبلغ كان ضخماً جداً، اقترح البابا أن يقترض البرت هذا المبلغ من عائلة فوجر الثرية أصحاب البنوك في أوجسبرج. وكنوع من ضمان دفع القرض، أصدر البابا قراراً




*يظهر تتزل - بائع الغفران - في هذا النقش من عصره - وقد وضع يده فوق الصندوق المعد لتلقي أتعاب الغفران وقد علته قائمة بالأسعار المعتمدة.*

بالسماح ببيع صكوك الغفران في ساكسونيا، وذلك تأميناً لقدرة ألبرت على رد القرض للبنك. وكان البابا ليو يحصل على نصف الأموال التي تجمع بينما يذهب نصفها الآخر لتسديد القرض لعائلة فوجر.

ارتبط بيع صكوك الغفران بممارسة سر التوبة Penance. فبعد أن يتوب الشخص عن خطيته ويعترف بها، كان الكاهن يعطي الشخص حلاً من خطاياه. وكان يُعتقد أن الله يغفر الخطية ويرفع عقابها الأبدي ولكن يبقى على الشخص وعلى الخاطي التائب أن يكفر عن ذنبه إما في هذه

الحياة أو في المطهر بعد موته. وهذه الأعمال التكفيرية يمكن أن تكون رحلة لزيارة مكان معين، أو دفع مبلغ من المال للكنيسة، أو أي عمل صالح. أما صك الغفران فهو وثيقة يمكن شراؤها نظير مبلغ من المال يعتق المرء بمقتضاها من العقوبة الزمنية لخطاياه. وكان يُعتقد أن المسيح والقديسين قد حققوا صلاحًا كثيرًا في حياتهم أكثر من حاجتهم وأن هذا الصلاح الزائد مذخر في خزانة سماوية للصلاح Treasury of Merit يمكن للبابا أن يسحب منها لحساب الأمناء الأحياء.[٣] وأول من صاغ هذه الفكرة هو الكسندر من هيلز Alexander of Hales في القرن الثالث عشر. وقد أعلنها البابا كليمنت السادس Clement 6th باعتبارها من عقائد الكنيسة الرسمية في عام ١٣٤٣. وفي وثيقة بابوية لاحقة باسم البابا سيكستوس الرابع Sixtus 4th في عام ١٤٧٦ تم توسيع تطبيق هذا الامتياز ليشمل النفوس التي في المطهر على أساس أن يقوم أقاربهم الأحياء بدفع قيمة صكوك الغفران نيابة عنهم.

كان هذا النظام في جمع المال هو الذي أُسيءَ استخدامه دون خجل في القرار البابوي الذي أصدره البابا لصالح ألبرت Albert. وكان أهم الذين وكلهم البرت على هذا الأمر راهب دومنيكاني اسمه جوهان تيتزل Johann Tetzel وكان يحصل على راتب شهري يساوي ١١٠٠ دولار بالإضافة إلى مصاريفه لكي يبيع هذه الصكوك للشعب وكان يرافق تيتزل مندوب عن فوجر وغيره من باعة الصكوك للتأكد من أن نصف المال المدفوع يذهب للبنك تسديداً للقرض الذي مُنح لألبرت. كان تيتزل يستخدم أفضل أساليب البيع والإعلان لترويج بيع الصكوك وكان يعد الناس بمحو العقاب الزمني لخطاياهم مهما كانت بشاعتها بمجرد أن يشتري الخاطئ صكًا للغفران.[٤] وكان ثمن الصك يتحدد في ضوء ثروة الخاطئ ومكانته الاجتماعية. وكانت بعض الصكوك تعطى بدون مقابل للمعدمين الفقراء أما الملك مثلاً فيمكن أن يدفع أكثر من ٣٠٠ دولار ليحصل على صك غفرانه. وكانت اعتراضات لوثر Luther الخمسة والتسعين Ninety-Five Theses الشهيرة ضد الممارسات الخاطئة في ترويج بيع تلك الصكوك هي البداية التي بدأت منها سلسلة الأحداث التي أدت إلى الإصلاح في ألمانيا. ومن ألمانيا انتشر الإصلاح Reformation في كل أنحاء شمال وغرب أوربا. لم يكن الإصلاح حدثًا منفردًا لكنه كان وثيق الارتباط بحركة النهضة وغيرها من الحركات التي أوجدت ميلاد العصر الحديث في القرن السادس عشر. ويمكن تتبع علاقة الإصلاح ، بحركة النهضة وبالإصلاح الكاثوليكي في الشكل التوضيحي المرفق بهذا الفصل.

وقد تفاوت مقدار تباعد مختلف الكنائس البروتستانتية التي خرجت من أحداث هذه القلاقل عن الكنيسة كما عرفناها في العصور الوسطى، ولكن جميع تلك الكنائس قبلت الكتاب المقدس باعتباره المرجع والسلطة النهائية. ولقد احتفظ لوثر بأشياء كثيرة من طقس العبادة وكل ما لم يمنعه الكتاب المقدس منعًا صريحًا. أما الكنيسة الأنجليكانية Anglican فقد ابتعدت أكثر قليلاً عن طقوس وممارسات كنيسة العصور الوسطى مما فعله اللوثريون، ولكن ينبغي أن يفهم أن اللوثريين والأنجليكانيين اتجهوا بالكامل بعيدًا عن نظام الكهنوت الرياسي وعن نظام الأسرار المقدسة في الكنيسة الكاثوليكية. أما الكنائس المصلحة





والمشيخية التي تبعت كالفن Calvin سواء في فرنسا أو هولندا واسكتلندا وسويسرا والمجر فقد تركت جانبًا كل الممارسات التي لا يمكن إثبات تطابقها مع العهد الجديد. أما دعاة إعادة المعمودية Anabaptists فهم أكثر الكنائس تطرفًا في ابتعادهم عن كل باقي جماعات الإصلاح حيث سعوا إلى إنشاء كنيسة من المؤمنين الأحرار تتخذ من الكنيسة الأولى في العهد الجديد نموذجًا وحيدًا لها. ولم يقبل الإصلاح إلا الشعوب المنحدرة من أصول تيوتونية سواء في شمال أوربا أو غربها. وظلت الشعوب اللاتينية في جنوب أوربا على ولائها للبابا ولعقيدة تحقيق الصلاح. ولقد قدم الإصلاح تغيرات مدهشة أدت إلى استبدال الكنيسة الكاثوليكية الجامعة في روما بمجموعة من الكنائس القومية. وقد اتخذت هذه الكنائس من الكتاب المقدس دستورًا لها وآمنت أن الانسان لا يحتاج أي وسيط بشري يقف بينه وبين الله لكي يحصل على الخلاص الذي اشتراه له المسيح على الصليب.

## اقتراحات للقراءة

تغطي العناوين المميزة بـ * كل تاريخ العصر الحديث للكنيسة


*Anderson, Charles S.* Augsburg Historical Atlas of Christianity in the Middle Ages and Reformation. *Minneapolis: Augsburg, 1967. This work has clear, simple maps and helpful texts for these eras.*

*Atkinson, James.* The Great Light. *Grand Rapids: Eerdmans, 1968.*

*Bainton, Roland.* The Reformation of the Sixteenth Century. *Boston: Beacon, 1952. This book contains illuminating insights and has a good bibliography of the Reformation.*

_____ . Women of the Reformation. *2 vols. Minneapolis: Augsburg, 1971-73. These two volumes diccuss the role of women in the German, Italian, French, and English Reformations very ably from the best sources.*

_____ . *and Gritsch, Eric W.* Bibliography of the Continental Reformation. *2nd rev. and enl. ed. Hamden, Conn.: Shoestring, 1972.*

*Chadwick, Owen.* The Reformation. *Grand Rapids: Eerdmans, 1964.*

* *Cheetham, Samuel.* A History of the Christian Church Since the Reformation. *London: Macmillan, 1907. This work can be consulted with profit.*

* *Dillenberger, John, and Welch, Claude.* Protestant Christianity. *New York: Scribner, 1954. This is a series of interpretative essays covering the era from 1650 on.*

# الإصلاح والإصلاح المضاد
# ١٥١٧-١٦٤٨

## الفصل السابع والعشرون

# لوثر والإصلاح في ألمانيا

لم يتم التأكيد الكافي على أن حركة الاصلاح Reformation كانت حركة دينية حدثت في معظمها بين الشعوب ذات الأصول الألمانية في شمال وغرب أوربا. فمعظم الأمم التي قبلت مبادئ حركة الإصلاح وتبنتها لم تكن أبدًا جزءًا من الإمبراطورية الرومانية القديمة ولا كانت تقع بالقرب من المناطق الحدودية معها. ولم تقبل الأمم اللاتينية في جنوب أوربا الإصلاح بل ظلت باقية على ولائها للنظام الكاثوليكي في روما.

ويحتمل أن اشتداد سطوة روح العقلانية والنقد التي تميز بها عصر النهضة Renaissance على الناس في جنوب أوربا، جعلتهم غير مهتمين بالأمور الروحية. والأرجح أنهم كانوا مكتفين بالشكل الرسمي الخارجي للدين مما يتيح لهم الحرية في حياتهم للتمتع بالأشياء المادية. بل حتى بابوات عصر النهضة أنفسهم أعطوا الجزء الأكبر من أوقاتهم للشئون الثقافية بدلاً من القيام بوظائفهم الدينية. ومهما كانت الأسباب الحقيقية، فإن الإصلاح البروتستانتي لم يجد لنفسه مستقراً جنوب جبال الألب، ولكن مبادئه لاقت كل الترحيب من الشعوب ذات الأصول التيوتونية.

وهناك عدة أسباب يمكن أن تقدم تفسيراً لهذه الظاهرة. فقد لاقت كتابات الإنسانيين Humanists الألمان بنقدهم السلبي اللاذع للكنيسة الكاثوليكية في كتب مثل كتاب "مدح الحماقة" In Praise of Folly لإرازموس Erasmus، وأيضًا بتقديمهم صورة أكثر إيجابية للمسيحية كما رأوها في العهد الجديد اليوناني، لاقت هذه الكتابات رواجًا كبيراً بين قراء الطبقة المثقفة في شمال أوربا. وقد أدت مثل هذه القراءات إلى خلق روح من عدم الرضى عن النظام البابوي وزيادة الرغبة في حدوث نوع من الإصلاح الديني. وربما كان أحد الأسباب الأخرى هو أن التراث الديني الاختباري النسكي كانت له جذور قوية في الأراضي التيوتونية أكثر منه في إيطاليا أو أسبانيا. وربما يتذكر الدارس أن أهم الأسماء في هذا المجال النسكي كانوا ألمانًا أو هولنديين. فكان المواطن التقي يقرأ كتابًا مثل "التشبه بالمسيح" Imitation of Christ ويجتهد لكي يجعل ممارسته للدين حياة عملية. ولم يكن لأهل الشمال في ذلك الوقت تلك الحضارة المتقدمة التي كان يعيشها أهل جنوب أوربا.

وحيث أن ألمانيا لم يكن لديها حاكم وطني قوي يحمي مصالحها، فقد سَهُل على البابوية أن تحصل على الأموال من شعب ألمانيا. وكان اكتشاف مناجم

جديدة في ألمانيا سبباً في زيادة ثروتها وثرائها، وأرادت البابوية الاستيلاء على هذه الثروة. وكان للكنيسة في روما أملاك كثيرة من أراضي ألمانيا. وبالاضافة لذلك تعرضت الطبقات الوسطى في ألمانيا للإستغلال المالي من قبل رجال الكنيسة. وقد اتحدت المشاعر القومية مع الرفض العام لاستنزاف الثروة من ألمانيا على خلق مناخ عام يؤيد ويتجاوب مع أي حركة يمكن أن تقود ألمانيا للتمرد ضد روما. إلا أن القضية الأساسية كانت على أي حال هي: "ماذا أفعل لكي أخلص؟"

وقد اتفق وجود الرجل والساعة المناسبة في ألمانيا في القرن السادس عشر. عندما وجدت ألمانيا مارتن لوثر Luther الذي اجتمعت لديه كل القوى المعارضة لروما وظهرت مركزة في إعلانه الاستقلال الروحي. كان لوثر قبل عام ١٥١٧ يعيش مرحلة إعداد وتشكيل حتى وصل في نهاية هذه المرحلة إلى مرحلة رفض ونقد لنظام صكوك الغفران Indulgence. وفي الفترة ما بين ١٥١٨-١٥٢١ أُجبر على الانفصال عن الكنيسة. أما الفترة ما بين ١٥٢٢-١٥٣٠ فقد كانت مرحلة التنظيم، ومن عام ١٥٣١ وحتى عقد اتفاقية السلام في أوجسبورج Peace of Augsburg في ١٥٥٥، واجهت اللوثرية، بقيادة لوثر نفسه ثم صديقه ميلانكثون Melanchthon بعد وفاة لوثر، فترة من الصراع مع الكاثوليكية الرومانية وأدت إلى تبلور المكاسب التي حققتها .

## ١- سنوات التكوين في حياة لوثر حتى ١٥١٧

ولد مارتن لوثر في ١٠ نوفمبر ١٤٨٣، في بلدة صغيرة اسمها Eisleben. وكان أبوه، المنحدر من عائلة من المزارعين الأحرار، قد هاجر من مدينة أجداده البعيدة إلى Eisleben. وحقق ثروة من مناجم النحاس في تلك المنطقة حيث اهتم بهذا العمل وحقق من ورائه ما يكفي لجعله رجلاً ثرياً. وبالرغم من أنه كان يملك حصصاً في ستة مناجم ومسبكين في عام ١٥١١، إلا أن أحوال الأسرة لم تكن سهلة عند ولادة مارتن لوثر. ونشأ لوثر وتربى بنظام التأديب الصارم الذي كان نموذج التربية في ذلك الزمان. وقد روي أن أمه كانت تجلده حتى يسيل منه الدم لأنه سرق مجرد حبة بندق واحدة. وفي أحد الأيام في بداية اليوم الدراسي في المدرسة اللاتينية في مانسفيلد تلقى لوثر أيضاً ١٥



*هذه لوحة تمثل مارتن لوثر، وقد رسمها الفنان الشيخ لوكاس كراناك وهو رسام شهير في وقت الإصلاح. ويحتمل أن يكون قد رسمها بعد زواج لوثر من كاثرينا فون بورا التي كانت راهبة وذلك في سنة ١٥٢٦ .*





جلدة عقاباً له. وقد غرس أبواه، وكانا من المزارعين، وبالذات أمه التقية التي كانت تؤمن بالكثير من الخرافات، غرست فيه الكثير من المعتقدات الخرافية التي سادت تفكير طبقتهم الاجتماعية. وقد طاردت هذه الأحوال تفكيره وهو يجاهد طويلاً في بحثه عن خلاص نفسه. فقد وجدت قيم كثيرة متأصلة في شخصيته منذ البداية مثل حبه للعمل الشاق، إرادته القوية وتفكيره العملي الحافظ.

وبعد قضاء فترة قصيرة في مدرسة تابعة لأخوية الحياة المشتركة Brethren of the Common Life في مدينة مجدبرج، أرسل لوثر إلى مدرسة في الفترة ما بين ١٤٩٨-١٥٠١. وقد وفر له بعض الاصدقاء المحبين الطعام والمأوى، ومنهم أورسولا كوتا Ursula Cotta وهناك تلقى لوثر تعليمه المتقدم في اللغة اللاتينية والتي كانت لازمة له إذا أراد أن يذهب للدراسة في الجامعة. وفي عام ١٥٠١ بدأ لوثر يدرس في جامعة ارفورت Erfurt University حيث درس فلسفة أرسطو Aristotle على يد أساتذة اتبعوا الأفكار الإسمانية لوليم من أوكهام William of Ockham. وكان وليم قد علم أن الإعلان الإلهي هو المرشد الوحيد في مجال الإيمان، وأن المنطق هو المرشد إلى الحق في الفلسفة. لذا فإن دراسة لوثر Luther للفلسفة في أيرفورت جعلته يدرك الاحتياج إلى التدخل الإلهي إذا كان للإنسان أن يعرف الحق الروحي لكي يخلص. وقد نال لوثر في عام ١٥٠٢ أو ١٥٠٣ درجة البكالوريوس في الآداب، ونال عام ١٥٠٥ درجة الماجستير.

أراد له أبوه أن يدرس القانون، لكن في عام ١٥٠٥ ارتعب لوثر جداً أثناء عاصفة رعدية شديدة على الطريق بالقرب من Stotternheim ووعد القديسة آن أن يصير راهباً لو أنه نجا من تلك العاصفة. ولعل تنامي اهتمامه بمصير نفسه الأبدي قد وصل ذروته من خلال ذلك الاختبار . في بداية يوليو من عام ١٥٠٥، وهو الاختبار الذي وصفه أبوه أنه "خدعة من الشيطان". وبعد ذلك الموقف بأسبوعين دخل ديراً يتبع النظام الأغسطيني في إيرفورت. وهناك، وفي عام ١٥٠٧، تمت رسامته واحتفل بتأدية أول صلاة قداس بعد رسامته.

وأثناء شتاء عام ١٥٠٨ قام لوثر بتدريس اللاهوت فصلاً دراسياً واحداً في الجامعة الجديدة في وتنبرج University of Wittenberg التي أنشأها فريدريك حاكم ساكسونيا Frederick, elector of Saxony سنة ١٥٠٢ في مدينة ويتنبرج. وكانت دراساته في إيرفورت معظمها لاهوتية. إلا أن هذه الدراسات لم تفده إلا في زيادة حدة صراعه الروحي، لكنه وجد أيضاً بعض المساعدة في توجيهات رئيس النظام الرهباني الذي كان يتبعه وهو الذي شجعه على أن يضع ثقته في الله ويدرس الكتاب المقدس وهو رجل مشهود له بالتقوى واسمه ستوبتز Staupitz.

وفي شتاء عام ١٥١٠ و ١٥١١ تم إرسال لوثر إلى روما في رحلة عمل. وهناك شاهد قدراً من الفساد والبذخ الذي عاشته الكنيسة في روما، وهناك أدرك حاجة الكنيسة الشديدة إلى الإصلاح. قضى وقتاً طويلاً في زيارة الكنائس ومشاهدة العديد من آثار القديسين (الذخائر) التي امتلأت بها روما. وقد راعه طيش الكهنة الإيطاليين الذين كانوا يقومون بتلاوة عدة قداسات في الوقت الذي يتلو هو




*رسم فنان مؤيد للوثر سنة ١٦١٧ هذه اللوحه للوثر وهو يكتب اعتراضاته على باب الكنيسة. ويظهر القلم الذي يكتب به لوثر وقد اخترق أذني البابا ليو العاشر، والذي يرمز إليه بالأسد، ويزيح التاج من على رأس تشارلز الخامس، إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وإلى يمين الصورة يبدو الكتاب المقدس وهو يسطع رمزيًا بنور يشير إلى يسوع في سحب السماء. أما الأوزة المحترقة فتشير إلى إعدام جون هس حرقًا، بسبب أفكاره الإصلاحية قبل لوثر بمائة عام وحكم عليه مجمع كونستانس. وإن كان لوثر قد كتب اعتراضاته باللغة اللاتينية، إلا أن الفنان يظهره يكتب بالألمانية على باب الكنيسة.*

فيه قداسًا واحدًا. في عام ١٥١١ نُقل لوثر Luther نهائيًا إلى وتنبرج. وهناك وخلال العام التالي أصبح أستاذًا لعلوم الكتاب المقدس ونال درجة الدكتوراه في اللاهوت. وظل لوثر يشغل منصب أستاذ اللاهوت الكتابي حتى وفاته. وفي ذلك الوقت كان مكتب لوثر في البرج وهناك وصل إلى تحقيق التبرير بالإيمان. وفي تلك الجامعة قبل لوثر ومعه جماعة صغيرة من زملائه الأساتذة وبعض الطلبة الإيمان الذي انتشر فيما بعد في كل أنحاء ألمانيا.

بدأ لوثر في تقديم محاضراته حول أسفار الكتاب المقدس بلغة الشعب، ولكي يستطيع أن يقدم تلك المحاضرات على أكمل وجه، عكف على دراسة اللغات الأصلية التي كُتب بها الكتاب المقدس. وبالتدريج استطاع أن يكون الفكرة التي تقول إن الكتاب المقدس وحده هو مصدر السلطان الحقيقي. وقد ألقى لوثر محاضراته في الفترة ما بين ١٥١٣-١٥١٥ حول سفر المزامير، ومن ١٥١٥-١٥١٧ عن رسالة رومية، وبعد ذلك عن رسالتي غلاطية والعبرانيين. وفيما بين ١٥١٢-١٥١٦، وبينما هو يحضر لهذه المحاضرات، وجد سلامًا في نفسه لم يجده من قبل في ممارسة





طقوس العبادة، أو في أعمال النسك، ولا حتى في "اللاهوت الألماني" الشهير الذي كتبه الاختباريون والذي أشرف لوثر على طبعه ونشره باللغة الألمانية في سنة ١٥١٦. وقد اقتنع لوثر بعد أن قرأ ما جاء في رومية ١:١٧ إن الإيمان بالمسيح وحده يمكن أن يجعل الإنسان بارًا أمام الله. ومنذ ذلك الحين، أصبحت الحقيقتان التي تعبر عنهما الكلمات اللاتينية sola fide ومعناها التبرير بالإيمان وحده، والكتاب المقدس وحده sola scriptura وهي تعبر أن الكلمة المقدسة هي المرجع الوحيد الذي يحتاجه الإنسان الخاطئ في سعيه للخلاص، أصبحتا الركيزتين الأساسيتين في فكره اللاهوتي. وبذلك يكون تأثير ستوبيتز Staupitz، والزيارة إلى روما، وكتابات النسكيين وكتابات الآباء وبالأخص القديس أغسطينوس كلها معًا كانت عوامل ساهمت في تشكيل حياة وفكرة مارتن لوثر، ولكن دراسته للكتاب المقدس هي التي قادته إلى أن يضع ثقته في المسيح وحده لينال الخلاص.

وفي سنة ١٥١٧، بدأ تيتزل Tetzel مندوب رئيس الأساقفة ألبرت Albert في بيع صكوك الغفران Indulgences في بلدة Jüterbock بالقرب من وتنبرج واستاء لوثر وأتباعه في الإيمان الجديد من استغلال الشعب بواسطة هذا النظام المبتدع وقرر الاحتجاج العلني. كان تتزل يدعي أن التوبة ليست لازمة لمن يشتري صكوك الغفران وأن تلك الصكوك تضمن الغفران الكامل لكل الخطايا وفي ٣١ أكتوبر ١٥١٧ علق لوثر وثيقة الاعتراضات الخمسة والتسعين Ninety-Five Theses على باب كنيسة القلعة في وتنبرج. وفي تلك الاعتراضات أدان لوثر سوء استخدام نظام صكوك الغفران بل وتحدى الناس ليأتوا لمناقشة الأمر كله. وعندما نقرأ

هذه الوثيقة[١] يظهر لنا أن لوثر كان ينتقد فقط الممارسات الخاطئة التي صاحبت نظام صكوك الغفران. على أي حال أجبر لوثر خلال السنوات ما بين ١٥١٨-١٥٢١ على قبول فكرة الانفصال عن الكنيسة الكاثوليكية في روما كالسبيل الوحيد لتحقيق إصلاح يتضمن العودة إلى مثاليات الكنيسة التي يصفها العهد الجديد. وأدّت ترجمة لوثر لهذه الاعتراضات إلى اللغة الألمانية وطبعه إياها إلى انتشار أفكار لوثر بسرعة كبيرة.

## ٢- الانفصال عن روما ١٥١٨-٢١

بعد أن نشر لوثر Luther إعتراضاته، حاول تيتزل Tetzel استخدام كل نفوذ الدومينكان لكي يسكت صوته، ولكن لوثر وجد دعمًا من الرهبنة الأغسطينية. وكان هذا الصراع بين الحركتين الرهبانيتين في السنوات الأولى للإصلاح Reformation هو الذي فتح مجالاً للعقلانيين أن يوجهوا للإصلاح تهمتهم السخيفة بأنه لم يكن أكثر من "مجادلات فارغة بين الرهبان". تلقى لوثر أمرًا بعقد مناظرة حول المشكلة وذلك أمام أعضاء الرهبنة التي يتبعها وذلك في مدينة هيدلبرج في عام ١٥١٨، إلا أن هذه المناظرة لم تكن لها نتائج كبيرة سوى أنها ساهمت في توسيع دائرة الذين قبلوا أفكار لوثر، بما فيهم مارتن بوسر Martin Bucer(١٤٩١-١٥٥١).[٢]

كان ملانكثون Melanchthon من الحلفاء الذين صارت لهم قيمة لا تعوض، حيث أنه ساهم فيما بعد بتدعيمه شجاعة لوثر ومجاهرته مكملاً إياه بمنطقه اللطيف الوديع. جاء فيليب ميلانكثون إلى وتنبرج أستاذًا للغة اليونانية في عام ١٥١٨. كان

ميلانكثون Melanchthon (١٤٩٧-١٥٦٠) في الحادية والعشرين من عمره ولكنه كان قد أكمل تدريبه في معرفة اللغات القديمة والعبرية. وبينما صار لوثر Luther يمثل الصوت النبوي الواضح لحركة الإصلاح Reformation، أصبح ميلانكثون هو المفكر اللاهوتي لتلك الحركة. وقد ساهم هو ومعه آخرون من المدرسين في وتنبرج بكل إخلاص في تأييد آراء لوثر الإصلاحية.(٣)

ومع حلول خريف ١٥١٨، كان لوثر يصر على أن المرجع الوحيد الذي يرضى به لحسم الخلاف لم يكن الكنيسة ولا البابا، بل الكتاب المقدس وحده. وكاد لوثر يسقط في مواجهة الدومينكان لولا مساندة فريدريك Frederick ملك ساكسونيا Elector of Saxony، حيث أنه كان أحد الذين انتخبوا إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وعندما استدعى لوثر للمثول أمام المجلس التشريعي الإمبراطوري في أوجسبورج Imperial Diet of Augsburg في عام ١٥١٨، وعد فريدريك أن يقدم دعمه القوي في مساندة ذلك المصلح الجسور. ولم يكن البابا على ما يبدو مدركًا الحد الذي وصلت إليه المساندة الشعبية للوثر في أنحاء ألمانيا. وفي اجتماع المجلس التشريعي تقابل لوثر مع الكاردينال كاجيتان Cajetan، الذي طالبه بسحب آرائه والرجوع عنها، لكن لوثر رفض أن يفعل ذلك قبل أن يقنعه أحد أن هذه الآراء لا تتفق مع الكتاب المقدس. وأنكر لوثر أيضًا كون البابا المرجع النهائي للإيمان والحكم الأدبي. بل وشكك في جدوى ممارسة الأسرار بدون الإيمان القلبي. وفي أوائل عام ١٥١٩ وعد لوثر المبعوث البابوي، كارل فون ميلتيتز Karl von Miltitz، بعدم المجاهرة بآرائه إذا التزم معارضوه بنفس الشئ.


رسم فنان مؤيد للكاثوليكية في القرن السادس عشر هذا الرسم الكاريكاتيري، ويبدو فيه الشيطان وهو يعزف ألحانه بواسطة لوثر. وقد علّق لوثر على هذا الرسم متهكمًا بقوله: "لابد أنني معصوم من الخطأ، لأنهم لا يقدرون أن يغلبوني ما دام لي رأس واحد.

وبعد ذلك بفترة دعا لوثر لانعقاد مجلس عام لمعالجة المشكلة وبحثها. وفي يوليو ١٥١٩ تناظر لوثر مع جون إك John Eck في مدينة ليبزج.(٤) وقد نجح إك بمهارته في أن يدفع لوثر إلى الإقرار بإمكانية وقوع المجلس العام في الخطأ، وأيضًا بعدم استعداده لقبول قرارات البابا، وأيضًا إقراره للكثير من آراء جون هس Hus.

في عام ١٥٢٠ قرر لوثر أن يحمل القضية ويعرضها على الشعب الألماني كله، فنشر ثلاثة كتيبات. كان أولها يخاطب رجال الكهنوت الكنسي.(٥) كانت روما تدّعي أن السلطات الروحية





أعلى من السلطة الدنيوية، وأن البابا وحده هو الذي يستطيع تفسير الكلمة المقدسة، وأنه ليس من حق أحد غير البابا الدعوة لانعقاد مجمع عام للكنيسة. فبعد أن عرض لوثر Luther الأسانيد لمثل هذه الآراء مضى لوثر يفند هذه الأسانيد والحجج من الكتاب المقدس. وقال إن الأمراء أو الحكام ينبغي أن يعملوا على إصلاح الكنيسة عندما يكون ذلك ضروريًا، وأن البابا لا يجب أن يتدخل في الشئون المدنية، وأن كل المؤمنين كهنة لله بالمفهوم الروحي ومن ثم يمكنهم تفسير الكتاب المقدس لأنفسهم ولغيرهم وأن لهم الحق في اختيار من يخدمهم روحيًا. في أكتوبر نشر الكتيب الثاني وأسماه "السبي البابلي" Babylonian Captivity.(٦) وفيه وسَّع هجومه لتحدي المنطق وراء نظام الأسرار المقدسة الذي تقوم عليه كنيسة روما. كان الكتيب الأول هجومًا تاريخيًا على الكهنوت، لكن هذا الكتيب الثاني،هاجم مركز النظام الكنسي في كنيسة روما - وهو اعتبار الأسرار من وسائط النعمة فقط عندما يقوم بها أحد الكهنة. وقد أكَّد لوثر على أهمية العشاء الرباني Lord's Supper والمعمودية. ولقد اكتسب هنري الثامن Henry 8th لنفسه اللقب الذي وهبه له البابا وهو "حامي الإيمان" عن طريق محاولته الرد على هجوم لوثر على الأسرار المقدسة. أما الكتيب الثالث، ومعنى عنوانه "حرية الإنسان المسيحي"، فكان في حقيقته هجومًا على فكر كنيسة روما اللاهوتي، وذلك بتأكيده على كهنوت جميع المؤمنين كنتيجة مباشرة لإيمانهم الشخصي بالمسيح. وضحت المسائل الآن وهي أن لوثر يهاجم نظام الكهنوت، والأسرار، والفكر اللاهوتي للكنيسة وأنه كان يدعو الشعب كله لتحقيق الإصلاح على المستوى القومي.

في يونيه ١٥٢٠ أصدر البابا ليو العاشر Leo 10th الوثيقة المعروفة باسم Exsurge Domine، وهي التي كانت نتيجتها حرمان لوثر وطرده من الكنيسة. وقد حرقت كتب لوثر في كولون فما كان من لوثر إلا أنه بادر بإحراق الوثيقة التي أصدرها البابا علنًا في ١٠ ديسمبر ١٥٢٠.(٧) جاء تشارلز الخامس Charles 5th، الإمبراطور الجديد، ليصدر دعوته لانعقاد مجلس تشريعي Imperial diet في مدينة ورمز Worms في ربيع ١٥٢١، حيث كان على لوثر Luther المثول أمام هذا المجلس للتحقيق معه حول آرائه. ذهب لوثر إلى Worms بعد أن تلقى تأكيدًا من فريدريك ملك ساكسونيا Frederick, elector of Saxony



رسام كاريكاتيري آخر يصور لوثر في هذا الرسم بسبعة رؤوس، تظهره من اليسار لليمين كمشعوذ، راهب بقلنسوة، كافر معمم، رجل كنسي، متعصب يسكن النحل شعره، ومهرج، وباراباس مذنب بالقتل والعصيان والسرقة.

ومؤسس جامعة وتنبرج Wittenberg University، وبعض الأمراء الألمان بحمايته. وهناك رفض لوثر مرة أخرى التراجع عن آرائه ما لم يتم إقناعه ببطلانها من الكتاب المقدس أو حتى بالمنطق. وقال إن موقفه في ذلك ثابت وطلب من الله أن يساعده.[8] فما كان من أصدقائه إلا أنهم خطفوه في طريق عودته إلى وتنبرج وأخذوه إلى قلعة وارتبرج حيث بقي حتى عام ١٥٢٢. وبعد مغادرته Worms، أصدر المجلس قرارًا يأمر أي فرد من رعايا الإمبراطور أن يلقي القبض على لوثر ويسلمه للسلطات، بل وتم تجريم مجرد قراءة مؤلفات لوثر.

## ٣- سنوات الانفصال ١٥٢٢-١٥٣٠

لم يهدأ ميلانكثون Melanchthon طوال العام الصعب من مايو ١٥٢١ إلى مارس ١٥٢٢، بل عمل على إصدار مؤلفه القصير عن لاهوت مصلحي وتنبرج، والمعروف باسم Loci Communes،[9] الذي تم نشره في عام ١٥٢١. وكان هذا الكتاب الصغير المكتوب باللغة اللاتينية هو أول عرض بحث لاهوتي مهم عن الإصلاح وتم طبعه عدة مرات أثناء حياة مؤلفه. وكان من نتائج هذا الكتاب الاعتراف بمكانة ميلانكثون باعتباره المفكر اللاهوتي لحركة الإصلاح اللوثري.

رفض ميلانكثون سلطان الكنيسة في روما، والآباء، والقانون الكنسي Canon Law بل وفكر المدرسين. ووضع الكتاب المقدس فوق كل هؤلاء دستورًا وحيدًا نهائيًا للإيمان المسيحي. وقد كان كتابه الصغير عبارة عن دراسة مستفيضة لرسالة بولس الرسول إلى أهل رومية. وفي ذلك الكتاب، حاول ميلانكثون معالجة ما أسماه "أشهر موضوعات علم اللاهوت" بأسلوب منهجي يساعد الناس ويشجعهم على "دراسة الكلمة المقدسة". وفيه صوّر الإنسان مكبلاً بالخطية غير قادر على مساعدة نفسه. وكتب يقول إن الناموس لا يمكن أن يساعد الإنسان لأن دور الناموس الرئيسي هو أن يعلن الخطية ويوبخها. يجب أن يبدأ الله عمل الخلاص الذي يناله الفرد بواسطة الإيمان بالمسيح. وقد قبل لوثر هذا الكتاب واعتمده باعتباره التعبير اللاهوتي عن أفكاره ووصفه بأنه "عمل خالد". فعل لوثر ذلك لأنه عرف أنه بطبيعته عنيفًا جسورًا بينما كان ميلانكثون وديعًا سالمًا. كان لميلانكثون دوره في صياغة نظام المدرسة الألمانية. وكان مسئولاً عن صياغة اعتراف أوجسبورج The Augsburg Confession وهو بمثابة إقرار للإيمان. وظل هذا اللاهوتي المسالم صديقًا وزميلاً للوثر مدة ثلاثين عامًا.

استغل لوثر أيضًا فترة إقامته الجبرية في قلعة وارتبرج في الفترة ما بين مايو ١٥٢١ ومارس ١٥٢٢، واستعان بالعهد الجديد الذي نشره إيرازموس Erasmus باللغة اليونانية، ليكمل الترجمة الألمانية للعهد الجديد في أقل من سنة واحدة. وقد تمت ترجمة الكتاب المقدس كله بما في ذلك أسفار الأبوكريفا، إلى اللغة الألمانية من اللغات الأصلية وذلك في عام ١٥٣٤. وعند نشر الكتاب المقدس بالألمانية لم يقتصر تأثيرها على مجرد تقديم الكتاب المقدس للشعب الألماني بلغته بل كانت نموذجًا للكتابة باللغة الألمانية. وكتب لوثر أيضًا كتابًا عن "العهود الرهبانية"، وفيه حثّ الرهبان والراهبات على التحلل من هذه التعهدات الخاطئة، وعلى ترك الأديرة والزواج ليعيشوا حياتهم الطبيعية.





اكتسب لوثر Luther فعليًا مكانة البطل القومي، حيث قدره الأمراء والفلاحون والفرسان وأصحاب المذهب الإنساني Humanist متفقين جميعهم على مكانته. لكن السياسات التي اتبعها في السنوات التي تلت هذه الفترة ساهمت في تباعد بعض الذين تبعوه بحماس في بداية حركته. فبينما كان لوثر في وارتبرج، ظهر كل من نيقولاس ستورش Nicholas Storch وماركوس ستيوبنر Markus Stubner واللذين عرفا باسم أنبياء مدينة زويكاو Zwickau Prophets، ظهرا في وتنبرج يعظان بأفكار تشبه بعض أفكار الأنا بابتست المنادين بإعادة المعمودية Anabaptists. كانا يعلمان أن ملكوت الله سيظهر بعد قليل على الأرض وأن أتباعهم سينالون إعلانًا خاصًا. فتأثر الشارع الألماني بهذه التعاليم، مما دفع لوثر Luther أن يخاطر بحياته ويرجع إلى وتنبرج في عام ١٥٢٢ لمواجهة هذه التعاليم. ونجح في دحر أنبياء زيكاو بعد أن ألقى ثماني عظات نارية، أكّد فيها سلطان الكتاب المقدس والحاجة إلى التغيير التدريجي في الكنيسة. إلا أن الجناح الراديكالي في الإصلاح شعر منذ ذلك الحين أنه لا يستطيع الاعتماد على تأييد لوثر ودعمه له. وحدث في عام ١٥٢٥ أن اختلف لوثر علانية مع حركة الأنابابتست وانفصل عنهم تمامًا.

وفقد لوثر أيضًا تأييد الإنسانيين من أمثال إرازموس مع حلول عام ١٥٢٥. كان إرازموس Erasmus قد أيَّد مطالب لوثر للإصلاح Reformation في بداية الأمر، لكنه تراجع عندما رأى أن آراء لوثر لابد أن تؤدي إلى الانفصال عن روما. واختلف مع رأي لوثر في أن إرادة الإنسان مكبلة تمامًا بالخطية حتى إن المبادأة في عملية الخلاص ينبغي أن تأتي دائمًا من الله. نبَّر إرازموس على حرية إرادة الإنسان في كتابه "حرية الإرادة" الذي نشره عام ١٥٢٤ ردًا على أفكار لوثر لحرية إرادة الإنسان.

وقد انقلب الفلاحون أيضًا على لوثر في عام ١٥٢٥ عندما عارض ثورة الفلاحين Peasants' Revolt. فكان هؤلاء الفلاحون قد سمعوا لوثر وهو ينكر سلطان الكنيسة ويؤكد سلطان الكتاب المقدس وحق الفرد في أن يأتي إلى الله مباشرة لنوال الخلاص، ثم طبق الفلاحون هذه الحجج على أوضاعهم الاجتماعية ومشاكلهم الاقتصادية. كان الإقطاع Feudalism قد أوقع الكثير من الظلم والقهر على أولئك الفلاحين، الذين طالبوا في الوثيقة التي أصدروها باسم "البنود الاثني عشر" Twelve Articles.[10] في عام ١٥٢٥ طالبوا بإصلاح الممارسات المتجاوزة للإقطاع باعتبارها لا تتمشى مع مبادئ الكتاب المقدس. في البداية، وفي "نداء السلام" الذي أصدره لوثر في ابريل ١٥٢٥ ناشد لوثر الفلاحين التمسك بالصبر بينما طالب أصحاب الأرض برفع الظلم عن الفلاحين وترضيتهم . وعندما أدرك لوثر أن هذه الحركة الثورية الاجتماعية يمكن أن تهدد الإصلاح، وأنها يمكن أن تزعزع أساسات النظام والحكم حتى في الأقاليم البروتستانتية، حثّ الأمراء على مواجهة الفوضى التي يحدثها الفلاحون بالقتل والتدمير، واستعادة الأمن والنظام. لم تكن السلطات في حاجة إلى مثل هذه المناشدة لاستخدام الاجراءات العنيفة، حيث قتلت السلطات في مذابح رهيبة ما يقرب من مئة ألف من الفلاحين. والظاهر أن الفلاحين الألمان في جنوب ألمانيا ظلوا على إيمانهم الكاثوليكي أساسًا بسبب ما بدا لهم من تخلي لوثر عنهم وعن

قضيتهم. شعر آخرون أن تخلي لوثر Luther عن عهود ونذور الرهبنة بزواجه من الراهبة الهاربة كاثرين فون بورا Catherine von Bora في عام ١٥٢٥، انفصال مفاجئ عن الماضي ولم يجد الكثيرون تبريراً له. إلا أن لوثر ظل دائمًا على شعوره بأنه فعل الشئ الصحيح وكانت حياته الأسرية مصدراً للبهجة والفرح في حياته. وكان أبناؤه الستة ومعهم العديد من تلاميذه يأكلون على مائدته حتى إن زوجته كانت تواجه مشقة كبيرة في تدبير كميات الطعام اللازمة لكل هؤلاء.

ومن الأمور التي يؤسف لها عدم تمكن لوثر من توحيد جهوده مع زوينجلي Zwingli، الذي قاد الإصلاح Reformation في الأقاليم الشمالية من سويسرا. تلاقى لوثر مع زوينجلي في خريف ١٥٢٩، فيما عرف باسم "مباحثة ماربورج" The Marburg Colloquy والتي انعقدت في قلعة Philip of Hesse في بلدة ماربورج. وفي هذه المباحثة اتفقا حول أربع عشرة نقطة من نقاط البحث الخمس عشرة، لكنهما اختلفا حول حلول المسيح في عناصر التناول. أصرَّ زوينجلي على أن التناول هو ذكرى لموت المسيح، لكن لوثر جادل بأنه هناك حضور مادي حقيقي للمسيح في التناول بالرغم من عدم تغير مادة عناصر التناول الخبز والكأس. وكما يبقى الحديد حديداً وإن تغير لونه إلى الأحمرار عند تسخينه، هكذا أيضاً أكَّد لوثر أن مادة الخبز والخمر لا تتغير ولكن من خلال الرمز يظهر حضور المسيح الفعلي.(١١)

دفعت الأحداث التي سادت ألمانيا لوثر ليصبح في موقف يلزمه بتطوير تنظيم الكنيسة وطقوسها بشكل يناسب أتباعه. وفي البرلمان الذي انعقد في عام ١٥٢٦ في مدينة Speier، استطاع الأمراء الموالين للوثر أن يجعلوا البرلمان يوافق على أن يكون حاكم كل دولة حراً في أن يتبع ما يشعر أنه هو الإيمان الصحيح، وذلك حتى ينعقد مجمع عام للكنيسة كلها. وتم تبني المبدأ بأن الحاكم هو الذي يختار المذهب الديني لمقاطعته مؤقتًا. ويمكن تفسير هذا القرار، والنمو السريع للحركة اللوثرية الذي أعقب ذلك، في ضوء حقيقة أن الإمبراطور تشارلز الخامس Charles 5th كان يحارب ليمنع عدوه الفرنسي فرانسيس الأول Francis 1st من السيطرة على إيطاليا سنة ١٥٢٠، هذا إلى جانب التهديد التركي من الجهة الشرقية، وغياب الكثير من الأمراء الألمان الكاثوليك عن حضور هذا البرلمان أو المجلس التشريعي بالذات.

وجاء برلمان آخر عقد أيضًا في Diet of Speier عام ١٥٢٩ ليلغي قرار البرلمان السابق ويعلن أن الإيمان الكاثوليكي هو المذهب الشرعي الوحيد. فقدم الأمراء الستة الموالين للوثر ومعهم ممثلو أربع عشرة مدينة حركة احتجاج ومنذ ذلك الحين أطلق معارضوهم لقب البروتستانت نسبة إلى ذلك الاحتجاج وهذا هو مصدر الكلمة المستخدمة إلى هذا اليوم.

انعقد البرلمان مرة أخرى في أوجسبورج Diet of Augsburg عام ١٥٣٠ وكان ميلانكثون قد كتب ما عرف باسم "اعتراف أوجسبورج" Augsburg Confession وذلك بمواقف لوثر نفسه، حيث تم عرض هذه الوثيقة على المجلس التشريعي المنعقد.(١٢) وأصبحت هذه الوثيقة هي إقرار الإيمان الرسمي للكنيسة اللوثرية. كان هذا الإقرار هو الأول بين العديد من إقرارات الإيمان التي تلته





مما جعل الفترة ما بين ١٥١٧-١٦٤٨ فترة عظيمة في تطوير وصياغة قوانين الإيمان البروتستانتية مثلما كانت الفترة ما بين ٣٢٥-٤٥١ التي شهدت تطور قوانين الإيمان المسكونية التي تتمسك بها الكنيسة إلى اليوم، مثل قانون الإيمان النيقوي. سبعة بنود فقط من بين تسعة وعشرين بنداً كانت لها صيغة سلبية، باعتبارها رفضًا للتجاوزات الدينية. أما باقي البنود كانت عبارة عن صياغة ايجابية لعناصر الإيمان اللوثري. وقد كتب لوثر القداس الألماني ونظام العبادة سنة ١٥٢٦.

وكتب لوثر أيضًا أصول الإيمان المختصر في عام ١٥٢٩.(١٣) وهو عبارة عن تعليم مختصر للوصايا العشر، قانون الإيمان الرسولي، والصلاة الربانية وبعض الأمور الأخرى في اللاهوت والعبادة. وبدأت هيئة التدريس في وتنبرج تفحص المرشحين للخدمة ثم ترسمهم. وحققت الحركة اللوثرية تقدمًا سريعًا في شمال ألمانيا بالرغم من المقاومة المسلحة سواء من الإمبراطور أو من الأمراء الكاثوليك.

## ٤- حقبة الحروب الدينية في ألمانيا وتأسيس الكنائس في الأقاليم ١٥٣١-١٥٥٥

قرر الأمراء البروتستانت التنسيق فيما بينهم لتحقيق الدفاع المشترك، فأسسوا رابطة Schmalkaldic League تجمعهم في أوائل عام ١٥٣١. واتفقوا على الدفاع عن إيمانهم الجديد بقوة السلاح إذا استدعت الظروف. لكن الإمبراطور ظل مشغولاً عنهم بحروبه ضد الأتراك والفرنسيين في الفترة ما بين ١٥٣٢-١٥٤٢ ولم تتعرض رابطة البروتستانت لمواجهة أي قتال. لذلك تمكنت اللوثرية من تحقيق مكاسب عظيمة في شمال ألمانيا. وكان معنى إقرار اللوثريين لنظامهم الجديد في رسامة الخدام في عام ١٥٣٥ تأكيد انفصالهم الكنسي عن نظام الكهنوت في كنيسة روما.

شهدت سنوات لوثر الأخيرة اضطراباً نتج عن الوضع الذي نتج عن زواج فيليب من هيس Philip of Hesse (١٥٠٤-٦٧) - وهو أحد مناصري لوثر Luther - من زوجة أخرى هي مارجريت فون درسال Margaret von der Saale في ١٥٤٠ دون أن يطلق زوجته الأولى. وقد ساير لوثر الموقف بأن وافق على الزواج الثاني مع طلبه بأن يحفظ سراً. وفي عام ١٥٤٦ توفى لوثر تاركًا الحركة اللوثرية تحت قيادة ميلانكثون Melanchthon.

أخيراً أصبح الإمبراطور مستعداً للدخول في حرب ضد الألمان البروتستانت. وبدأت سلسلة الحروب التي عرفت باسم Schmalkaldic Wars والتي احتلت الفترة ما بين ١٥٤٦-١٥٥٢ من التاريخ الألماني. وانتهى القتال في نهاية المطاف بتوقيع معاهدة السلام في أوجسبورج في ١٥٥٥. فيما عرف بمعاهدة سلام أوجسبورج The peace of Augsburg. وضعت هذه الاتفاقية أو المعاهدة اللوثرية على قاعدة من المساواة مع الكاثوليكية في ربوع ألمانيا. وكان الأمير هو الذي يحدد المذهب الذي يُتبع في مقاطعته، على أن يكفل حق الهجرة للمواطنين الذين يرغبون في أن يكون لهم مذهباً مخالفًا. أيضًا إذا تحول قائد كاثوليكي إلى البروتستانتية فيجب عليه التخلي عن منصبه. وقد ضمنت هذه الاتفاقية سيطرة الكاثوليك على جنوب ألمانيا والتي كان أغلب سكانها فعلاً من الكاثوليك

التابعين لروما. وكانت تلك خطوة إيجابية نحو تعدد المذاهب في أوربا.

وينبغي أن نلاحظ أن اتفاقية السلام في أوكسبورج جعلت من الأمير الحاكم قوة مؤثرة في شئون الكنيسة. وحتى في عام ١٥٣٩ عين الحاكم جون فريدريك John Frederick مجلسًا كنسيًا في وتنبرج ليقوم بمهام المحكمة التي تفصل في القضايا المتعلقة بالطلاق والتأديب. وخلال العقد التالي أصبح هذا المجلس هو المجلس الأعلى الذي يصرف شئون الكنيسة تحت إشراف الأمير. أما الأشخاص الذين عينهم أمراء ساكسونيا منذ عام ١٥٢٧ في منصب المراقب العام، كانوا يرسلون للإشراف على شئون الكنائس المحلية. آمن لوثر بأهمية النظام وكتب يقول بأنه بالرغم من أن الدولة ليس لها الحق في التدخل في حياة الأفراد فيما يتعلق بخلاصهم، إلا أن الدولة أعطاها الله سيفًا لكي تحفظ به النظام حتى يعيش الأتقياء في سلام. وكان يرى أن الحاكم مسئول أمام الله عن الأسلوب الذي يحكم به دولته. إلا أن لوثر يعارض الثورة للتخلص من حكومة مستبدة ظالمة، على أساس أن الزمن والأعداء الخارجين كفيلان بتصحيح الأوضاع.[١٤] كانت الكنائس الأقليمية تتضمن كل الأفراد الذين تعمدوا ومعهم مراقبون أو مشرفون يعينهم الأمير ويكونون مسئولين أمامه عن انتظام العبادة وانضباط الرعاة المحليين.

كان لوثر بلا شك أحد الرموز البارزة في الكنيسة وكان لهذا تأثيره على الأجيال التي جاءت بعده إلى جانب تأثيره على الحقبة التي عاش فيها. فقد كانت الكنيسة اللوثرية في ألمانيا وأيضًا في دول اسكندنافيا نتيجة مباشرة لمجهوداته. وقد قدم لهذه الكنائس أصول الإيمان المفصل والمختصر، إلى جانب ملاحظات مساعدة في تحضير العظات يستخدمها الرعاة وتعرف باسم Postils، وأعطى لها أيضًا نظامًا لإدارة الكنيسة طوره بنفسه، وأعطى لها أيضًا الكتاب المقدس باللغة الألمانية، والذي ساعد على تقنين اللغة الألمانية ذاتها، وألف أيضًا مجموعة من الترانيم الخالدة يرنمها الشعب بلغته. وشجع لوثر ميلانكثون على تصميم نظام للتعليم الابتدائي العام في ألمانيا لكي يتعلم الشعب قراءة الكتاب المقدس باللغة الوطنية. وقد ألزم الهيئات الحاكمة في مختلف المدن بأداء هذه المهمة وذلك في رسالة كتبها لهم في ١٥٢٤، وفي عام ١٥٣٠ كتب بخصوص مسئولية الوالدين عن إرسال أولادهم للمدارس. وكانت هذه المجهودات التي قام بها لوثر هي البدايات الأولى لنظام التعليم الابتدائي الإلزامي العام. وقد اهتم لوثر Luther أيضًا بالتعليم الثانوي وبالدراسات الجامعية.

استعاد لوثر للوعظ مكانته الصحيحة في الكنيسة، فأعاد اكتشاف تلك الوسيلة الفعّالة للتوجيه الروحي التي شاع استخدامها في الكنيسة الأولى. وقبل كل شئ فإن لوثر هو الذي نبّه جيله أن الثقافة والحضارة لم تكن مجرد نتاج الفكر والمنطق البشري لكنها أساسًا هي عمل التجديد بالإيمان في المسيح. فلم يرفض الروح الفردية التي سادت عصر النهضة لكنه جعل منها شأنًا روحيًا دعا فيه الفرد إلى الارتباط بعلاقة شخصية مع الله تصل به إلى الخلاص بالإيمان بواسطة يسوع المسيح. وفي مكان سلطان الكنيسة المطلق، وضع لوثر سلطان الكتاب المقدس المطلق كالدستور الوحيد المعصوم للإيمان والأعمال الذي يجب على كل مؤمن أن يسترشد به في أمور الإيمان والقرارات الأدبية. ولم





يرفض لوثر أهمية العلاقة الجماعية التي تربط الأفراد معًا في إطار الكنيسة، بل بالعكس أصر على أهمية الشركة مع الأعضاء الآخرين في جسد المسيح.

## ٥- اللوثرية ١٥٥٥-١٥٨٠

منذ إقرار وثيقة السلام في اوجسبرج Peace of Augsburg وحتى صدور ونشر الكتاب المعروف باسم "كتاب التوافق" The Book of Concord في سنة ١٥٨٠، تعرض السلام الداخلي للكنائس اللوثرية إلى أزمات بسبب المجادلات العقائدية الداخلية. ومعظم القضايا التي دار الجدل حولها كانت مشابهة للنقاط التي اختلفت فيها الآراء ما بين لوثر وميلانكثون. أحد هذه الخلافات كان حول مكان الناموس في الوعظ. شجع لوثر الوعظ عن الناموس على اعتبار أنه وسيلة تكشف للبشر مقدار خطيتهم. بينما رأى آخرون أن الإنجيل وحده هو الذي ينبغي إبرازه في الوعظ على اعتبار أنه هو الطريق إلى الخلاص. أما الجدل الماجوري فقد نما مما علم به جورج ماجور George Major عن أن الأعمال الصالحة جزء هام في الخلاص بالرغم من أن الإنسان يخلص بالإيمان وحده. إلا أن أولئك اللوثريين المقربين من لوثر Luther نفسه رأوا في هذا الرأي عودة إلى عقيدة الكنيسة الكاثوليكية وهو الخلاص بالإيمان والأعمال معًا. وقد تطورت المجادلات أيضًا حول العشاء الرباني Lord's Supper وحول ما إذا كانت إرادة الإنسان قادرة على التعاون والتفاعل مع النعمة الإلهية في عملية الخلاص.[١٥]

ولأن مثل هذه المجادلات والخلافات كانت تولد الانقسامات الدينية والسياسية أيضًا، قرر أمراء ألمانيا أن مثل هذه المشكلات ينبغي حسمها إذا أرادوا للحركة اللوثرية الاستمرار والبقاء. لذلك تم صياغة "وثيقة التوافق" Formula of Concord في عام ١٥٧٧ وتم نشرها عام ١٥٨٠.[١٦] وقد قبل معظم اللوثريين الألمان ما جاء في هذه الوثيقة على أنه تعبير وافٍ عن موقفهم اللاهوتي. وقد أخذ اللاهوتيون اللوثريون على عاتقهم مهمة صياغة إقرار شامل للاهوت اللوثري يمكن أن يوضح نواحي الاختلاف بينه وبين العقيدة الكاثوليكية. وقد تم ذلك في الكتاب المعروف باسم "كتاب التوافق" الذي نشر في عام ١٥٨٠. وقد تضمن هذا الكتاب قوانين الإيمان المسكونية الثلاثة التي صاغتها الكنيسة الأولى، بالإضافة للصياغات اللوثرية المتعددة التي صيغت في الفترة ما بين ١٥٢٩-١٥٨٠.

وقد جعلت هذه الخلافات اللوثريين أكثر إدراكًا لأهمية التعليم العقائدي وأوجدت رأيًا ينبر على صحة العقيدة والتعليم. وقد أدّى مثل هذا التنبير في بعض الأوقات إلى فكر أكاديمي جامد يتجه نحو تجاهل الجوانب الشخصية في الاختبار المسيحي. وقد ظهرت الحركة التقوية Pietism في القرن السابع عشر كرد فعل لمثل هذا الاتجاه العقلاني الفكري.

## ٦- اللوثرية في اسكندنافيا

بدأ الإصلاح Reformation الكنسي في الدنمارك Denmark في فترة حكم أحد أقارب فريدريك ملك ساكسونيا Frederick of Saxony، واسمه كريستيان الثاني Christian 2nd

(١٥١٣-٢٣)، وكانت لديه ميول قوية تجاه الحركة الإنسانية وكان غيوراً على تحرير العرش من سيطرة مجلس النبلاء ورجال الكنيسة المفروضة عليه. أراد أن ينشئ كنيسة تابعة للدولة تكون خاضعة لسيطرة الملك. ثم جاء خليفته فريدريك الأول Frederick 1st (١٥٢٣-٣٣) وكان مخلصاً للإيمان اللوثري ومحبذاً له فاعطى حرية لهانس تاوسن Hans Tausen (١٤٩٤-١٥٦١ تقريباً) أن يفعل في الدانمارك ما عمله لوثر في ألمانيا. وقد لقي تاوسن عوناً كبيراً بتزامن مجهوداته مع نشر ترجمة العهد الجديد باللغة الدانماركية في عام ١٥٢٤. وقد جاهر فريدريك بتأييده للإصلاح في عام ١٥٢٦ وعين تاوسن قسيساً للبلاط الملكي، وقد لقي تأييداً ومساندة كبيرة من عامة الشعب، الذين كان يسيئهم الفساد المستشري بين رجال الكهنوت وما يحدث من تجارة في صكوك الغفران. وما أن حل عام ١٥٣٠ حتى كانوا قد أعدوا إقراراً للإيمان اللوثري، وجاء خليفة فريدريك واسمه كريستيان الثالث Christian 3rd، ليطلب من المجلس التشريعي في عام ١٥٣٦ إلغاء المذهب الكاثوليكي من البلاد ويصادر أملاك كنيسة روما كلها. وتم اقتسام هذه الأملاك بين الملك والنبلاء. ومنذ ١٥٣٩ أصبحت اللوثرية هي المذهب الرسمي في الدانمارك.

ولأن النرويج كانت خاضعة لسيطرة الدانمارك حتى عام ١٨١٤، كان عليها أن تقبل التغيرات الدينية التي جرت في الدانمارك. وقد عرفت النرويج المذهب اللوثري لأول مرة في ايام حكم الملك فريدريك الأول. وأصبحت اللوثرية هي المذهب الرسمي للنرويج Norway أيضاً في عام ١٥٣٩ أثناء حكم الملك كريستيان الثالث. كان أحد رجال الكنيسة ويدعى جيسور أينارسن Gissur Einarsen قد تعرض لتأثير اللوثرية وهو يدرس في جامعة ويتنبرج في ألمانيا. وما أن عاد إلى بلاده أيسلنده في عام ١٥٣٣ حتى بدأ في الوعظ بتعاليم لوثر. وعندما أصبح هو الاسقف في عام ١٥٤٠ أدخل اللوثرية إلى أبروشيته. ونشر العهد الجديد بلغة الشعب في أيسلنده وذلك لتشجيع الاتجاه البروتستانتي فيها. وفي عام ١٥٥٤ أصبحت اللوثرية هي المذهب الرسمي في أيسلنده بمقتضى مرسوم ملكي.

نالت السويد استقلالها من الدانمارك في عام ١٥٢٣ بعد ثورة عام ١٥٢١ وذلك أثناء فترة حكم الملك كريستيان الثاني، وحكم ملكها الجديد ذو الميول الإصلاحية جوستافوس فاسا Gustavus Vasa (١٥٢٣-٦٠) الذي رأى في الإصلاح وسيلة تمكنه من مصادرة ثروات كنيسة روما في بلاده. قام أولافوس بيتري Olavus Petri (١٤٩٣-١٥٥٢) في السويد بنفس الدور الذي قام به لوثر في ألمانيا، وذلك بعد أن قضى ثلاث سنوات يدرس في وتنبرج، وساهم في وضع القاعدة الشعبية للإصلاح في السويد. وقد مكنت مجهودات بيتري الحاكم من ادخال السويد إلى الحظيرة اللوثرية. وقد ساعد نشر ترجمة العهد الجديد باللغة السويدية في عام ١٥٢٦ على تمكين الجمهور القادر على القراءة من مقارنة ما يسمعونه من وعظ مع ما يقرأونه في الكتاب المقدس ومن ثم يقدرون أن يروا أن تعاليم بيتري اللوثرية أصدق كتابياً من غيرها. وقد أصبحت اللوثرية هي دين الدولة في السويد بقرار المجلس التشريعي الذي انعقد في Diet of Westeras سنة ١٥٢٧ ثم قبلها الشعب بالتدريج. وقد تم تدعيم وجود الإصلاح في السويد





Reformation in Sweden أثناء الفترة الطويلة التي شهدت حكم جوستافوس فاسا (١٥٢٣-١٥٦٠).

امتد الإصلاح من السويد إلى فنلندا Finland لأنها كانت خاضعة لسيطرتها. وكان مايكل أجريكولا Michael Agricola (١٥٠٨-٥٧) هو رسول هذه البلاد. فقد صار رئيساً للأساقفة حوالي عام ١٥١٠ وترجم العهد الجديد إلى اللغة الفنلندية مما ساعده على وضع قواعد للغة الفنلندية نفسها. ونحو عام ١٥٣٠ أصبح الإيمان اللوثري هو عقيدة الشعب الفنلندي وقادته.

كان للوثرية تأثير في بلاد أخرى. فقد ساهمت الأفكار اللوثرية في وضع أساس الإصلاح في أسكتلندا بقيادة جون نوكس John Knox. ونشر اللوثريون تعاليمهم في انجلترا أيضاً. إلا أن هذه البلاد في نهاية المطاف تبنت أشكالاً أخرى من الإصلاح، وكانت اللوثرية من عوامل التحول من الكاثوليكية إلى البروتستانتية. حققت اللوثرية انتصاراً مؤقتاً في بولندا، لكن الانقسامات بين الذين تبعوا الإيمان اللوثري والصراعات الداخلية مكنت الكنيسة الكاثوليكية من استعادة بولندا إلى الإيمان الكاثوليكي. حققت اللوثرية أعظم وأثبت انجازاتها في ألمانيا ودول اسكندنافيا وأصبح سلطان الكتاب المقدس والتبرير بالإيمان هما أهم المبادئ التي سادت في تلك البلدان في القرن السادس عشر. أنجز لوثر عملاً أعظم بكثير مما كان يتخيل عندما بدأ معارضته لتجارة تيتزل Tetzel في صكوك الغفران في عام ١٥١٧.

## اقتراحات للقراءة


*Aland, Kurt.* Martin Luther's Ninety-Five Theses. *St. Louis: Concordia, 1967.*

*Bainton, Roland.* Here I Stand. *Nashville: Abingdon, 1950. This is a popular and interesting account of the reformer.*

*Carlson, Edgar.* The Reinterpretation of Luther. *Philadelphia: Westminster, 1948.*

*Doernberg, Edwin.* Henry VIII and Luther. *Stanford: Stanford University Press, 1961.*

*Drummond, Andrew L.* German Protestantism Since Luther. *London: Epworth, 1951.*

*Fife, Robert H.* The Revolt of Martin Luther. *New York: Columbia University Press, 1957.*

*Green, Vivian H.H.* Luther and the Reformation. *New York: Putnam, 1964. This is a brief, scholarly account of the reformer's career.*

*Hyma, Albert.* Luther's Theological Development From Erfurt to Augsburg. *New York: Crofts, 1928. This little book gives insight from the sources into the development of*

## الفصل الثامن والعشرون

# الإصلاح في سويسرا

كانت سويسرا هي أكثر بلدان أوربا تمتعاً بالحرية في زمن الإصلاح، بالرغم من أنها كانت إسمياً ضمن الإمبراطورية الرومانية المقدسة. ومنذ ١٢٩١ دخلت مقاطعات الغابات الثلاث شفايز وأوري وأونترفالدن في اتحاد أتاح لكل منها الحرية في أن تتطور على أساس كونها جمهورية ذات حكم ذاتي. وعندما حان زمن الإصلاح Reformation السويسري، كان هناك ثلاثة عشر مقاطعة يتضمنها الاتحاد السويسري. وكان أهل سويسرا بما عُرف عنهم من صرامة والتزام بالديمقراطية مطلوبين في كل أنحاء أوربا للعمل كجنود مرتزقة. كانوا هم عماد الجيوش التي استخدمها البابا لحماية مصالحه. كانت حكومة كل مقاطعة مسئولة مسئولية كاملة عن شئونها المحلية، لذلك كانت كل مقاطعة منها لها حرية قبول الشكل الذي ترتضيه للمذهب الديني الذي تريد اتباعه. وهكذا تحقق الإصلاح في سويسرا بواسطة الإجراءات القانونية التي اتخذتها الحكومات المحلية المنتخبة ديمقراطياً. كانت المدن السويسرية أيضاً مراكز للثقافة والحضارة، واستطاعت الحركة الإنسانية Humanism أن توطد أقدامها في مقاطعات المدن. كان في بازل جامعة مشهورة حيث راجع إرازموس Erasmus الطبعة التي نشرها للعهد الجديد باللغة اليونانية. وبسبب هذا التقدم، وجد الإصلاح السويسري في الحركة الإنسانية أحد مصادره الرئيسية.

وقد تطورت ثلاثة أنماط من الفكر اللاهوتي لحركة الإصلاح في الأقاليم السويسرية. فالمقاطعات الناطقة بالألمانية، والتي تقع في شمال البلاد، وتقودها مدينة زيورخ، تبعت كلها آراء زوينجلي في الإصلاح. أما المقاطعات الناطقة بالفرنسية في الجنوب، وتقودها مدينة جنيف فقد اتبعت آراء كالفن Calvin. بالاضافة إلى ذلك، تكوَّن جناح من الإصلاحيين الراديكاليين، هم الأنابابتست الذين ينادون باعادة المعمودية للمتجددين وهم جناح متشدد من الذين عملوا في البداية مع زوينجلي. امتدت حركة إعادة المعمودية من زيورخ لتنتشر في كل أنحاء سويسرا وألمانيا وهولندا. وتحت قيادة مينو سيمونز Menno Simons تزايد انتشارها بالتدريج في هولندا وشمال ألمانيا.

## ١- إصلاح زوينجلي في المقاطعات الألمانية في شمال سويسرا

كان هولدريخ زوينجلي Holdreich Zwingli

(١٤٨٤-١٥٣١) من الجيل الأول من المصلحين. وفيه تبلورت بواسطته قوى عدم الرضى على الكنيسة في روما لينتج عنها إنشاء كنيسة جديدة مصلحة. كان أبوه مزارعًا كما كان رئيس قضاة ويلدهاوس، وكانت أسرته تتمتع بدخل كبير، مما أتاح الفرصة لزوينجلي للحصول على أفضل تعليم يؤهله للكهنوت. فقد درس في جامعة فيينا وفي عام ١٥٠٢ ذهب إلى جامعة بازل، حيث نال درجة البكالوريوس سنة ١٥٠٤ ودرجة الماجستير سنة ١٥٠٦. وقد راقه تركيز أساتذته على مبادئ الحركة الإنسانية Humanism، وأصبح إرازموس مثله الأعلى. كان اهتمامه الأكبر بالعلوم الإنسانية ولم تكن دراسة اللاهوت تمثل سوى اهتمامًا ثانويًا بالنسبة له.

وفي الفترة التي أعقبت تخرجه في عام ١٥٠٦ وحتى عام ١٥١٦، خدم زوينجلي Zwingli البابا بأمانة من خلال عمله كاهنًا لأبروشية وقسيسًا ووطنيًا سويسريًا غيورًا. كانت أول أبروشية خدم فيها في جلاروس. ودفعته نزعاته الإنسانية في ذلك الوقت إلى محاولة تفسير أفكار الرسول بولس باستخدام فلسفة أفلاطون Plato وموعظة المسيح على الجبل مما يؤكد على الجوانب الأخلاقية للإيمان المسيحي. وقد دفعته دراسته لكتابات إرازموس Erasmus إلى التباعد التدريجي عن اللاهوت المدرسي والاتجاه إلى دراسة الكتاب المقدس. وأدت به ميوله الوطنية إلى معارضة تجنيد الشباب السويسري للعمل كجنود مرتزقة إلا أولئك الذين يخدمون البابا. ولكي يضمن البابا تأييد زوينجلي له حدد له معاشًا سنويًا سخيًا. وفي عام ١٥١٣ وعام ١٥١٥ ذهب زوينجلي مع المرتزقة الذين خرجوا من جلاروس لكي يكون راعيًا لهم.

وفي الفترة ما بين ١٥١٦-١٥١٨ خدم راعيًا في Einsiedeln التي كانت مركزًا للحجاج. وهناك بدأ في مواجهة بعض التجاوزات في نظام صكوك الغفران، وكان يسخر من هذه الأمور بنفس أسلوب إرازموس اللاذع. وعندما صدر العهد الجديد باللغة اليونانية، والذي أصدره إرازموس في سنة ١٥١٦، استعار إحدى النسخ ونسخ لنفسه رسائل بولس وذلك لكي تكون لديه نسخة خاصة به. وعندما ترك زوينجلي مدينة Einsiedeln كان واحدًا من الإنسانيين الكتابيين. وقد تلقى دعوة رعوية ليخدم في زيورخ حيث ابتدأ خدمته هناك في أوائل عام ١٥١٩. وفي ذلك الوقت أخذ زوينجلي موقفًا محددًا ضد تجنيد الشباب السويسري كمرتزقة في جيوش الدول الأخرى، وذلك بسبب التأثير المفسد الذي رأى أولئك الجنود يتعرضون له أثناء خدمتهم في تلك الجيوش. وقد أوقفت زيورخ تجنيد أبنائها منذ عام ١٥٢١.

وقد كان لانتشار الطاعون عام ١٥١٩ واطلاعه على الأفكار اللوثرية وأثرهما في اقتياده إلى اختبار التجديد. وكان أول ما أثاره زوينجلي من قضايا الإصلاح Reformation هو ما نادى به من أن دفع المؤمنين لعشورهم هو موضوع اختياري يرجع إلى رغبتهم في العطاء وليس حقًا إلهيًا للكنيسة. وكانت هذه بمثابة ضربة قاصمة للنظام المالي للكنيسة الكاثوليكية. والحقيقة أن الحادثة المذكورة عن زوينجلي تبدو غريبة وهي أنه تزوج سرًا من أرملة اسمها أنا رينهارد Anna Reinhard في عام ١٥٢٢. ولم يعلن زواجه منها بصورة شرعية إلا في عام ١٥٢٤.

وعندما تخلى المواطنون عن ممارسة الصوم





في موسم الفصح وأكلوا اللحوم في عام ١٥٢٢ مقتبسين أقوال زوينجلي عن سلطان الكتاب المقدس المطلق لتبرير ما فعلوا، وعندما أقروا بعض التغيرات لتطوير نظام العبادة السائدة في الكنيسة الكاثوليكية، قررت السلطات عقد مناظرة عامة يواجه فيها زوينجلي جمهور الحاضرين. وبعدها تقرر السلطات المنتخبة المذهب الديني الذي سوف تعتنقه المدينة والمقاطعة. وهكذا بدأ الإصلاح في مقاطعات سويسرا الشمالية بقرارات حكومية بعد مناظرة الآراء المختلفة. وقبل المناظرة التي أجراها زوينجلي Zwingli مع يوهان فابر Johanne Faber في عام ١٥٢٣، أعد زوينجلي وثيقة البنود السبعة والستين، والتي أكَّد فيها على الخلاص بالإيمان، وسلطان الكتاب المقدس، وأن المسيح رأس الكنيسة، وحق الكهنة في الزواج. أدانت هذه الوثيقة الممارسات غير الكتابية في كنيسة روما.[1] قرر مجلس المدينة أن زونجلي هو الذي فاز في المناظرة، وبسرعة أعطيت أفكاره الوضع القانوني اللازم لإقرارها. تم الغاء الرسوم التي كانت تدفع نظير إجراء المعمودية أو مراسم الدفن. وتم التصريح للرهبان والراهبات بالزواج إذا رغبوا في ذلك. وتم تحريم استخدام الصور والتماثيل وآثار القديسين. وفي عام ١٥٢٥ أكمل الإصلاح Reformation في زيورخ بإلغاء القداس. كان زونجلي يعتقد أن السلطة النهائية تكمن في المجتمع المسيحي ككل، وهذه السلطة العامة تمارس عمليًا من خلال حكومة مدنية منتخبة تمارس أعمالها على أساس سلطان الكتاب المقدس. وقد أثمر هذا التصور في زيورخ التي كانت الكنيسة فيها مرتبطة بالدولة تحت حكم الله.

وفي برن حدث نفس الشئ أي أن المدينة اتجهت نحو الإصلاح بعد مناظرة مثل التي أجريت في زيورخ. وقد اشترك زوينجلي في تلك المناظرة أيضًا على أساس وثيقة قدمها اسمها Ten Thesis أو المباحث العشر[2] وكنتيجة لتلك المناظرة، أمر مجلس المدينة بقبول مبادئ الإصلاح وذلك في عام ١٥٢٨. وتم الغاء تلاوة القداس في عام ١٥٢٩ في بازل أيضًا وذلك من خلال نفوذ صديق زونجلي أو كولامباديوس Oecolampadius.

واجه زونجلي من بعد عام ١٥٢٢ ضغوطًا من بعض أتباعه والذين عرفوا باسم معيدي المعمودية Anabaptists لأنهم أصروا على إعادة معمودية الذين يتجددون. وفي عام ١٥٢٥ منع مجلس المدينة هذه الجماعة من عقد اجتماعاتها بل ونفاهم من المدينة. وتم إعدام أحدهم غرقًا في عام ١٥٢٧ واسمه فيليكس مانز Felix Manz (١٤٩٨-١٥٢٧). وقد فقد زونجلي تأييد ومساندة لوثر Luther بعد المباحثة التي جرت بينهما في ماربورج Marburg Colloquy في عام ١٥٢٩، وذلك عندما لم يستطع الرجلان الوصول إلى اتفاق حول حضور المسيح في العشاء الرباني. لذا فان حركة زونجلي تطورت ونمت منفصلة عن الحركة اللوثرية.

وقد أوجب قبول عدد من المقاطعات لمبادئ زوينجلي إيجاد تنظيم ديني يجمعهم وفي عام ١٥٢٧ تكون سنودس للكنائس الإنجيلية في سويسرا. ونحو نفس الوقت تمت ترجمة الكتاب المقدس إلى لغة الشعب. ولم يكن البابا قد تدخل حتى ذلك الوقت ربما بسبب حاجته الشديدة للمرتزقة من الجنود السويسريين، لكن المقاطعات الريفية القديمة، والتي بقت على ولائها للبابا قررت

وقف مسيرة الابتعاد عن روما. فنظموا فيما بينهم اتحاداً مسيحياً يجمع المقاطعات الكاثوليكية، ونشبت الحرب بين المقاطعات البروتستانتية والمقاطعات الكاثوليكية في عام ١٥٢٩. إلا أن الفريقين وصلا إلى عقد اتفاق سلام تم توقيعه في Cappel وفيه تقرر أن يكون من حق الأغلبية في كل مقاطعة تقرير المذهب الديني للولاية، وتقرر أيضاً إعطاء حقوق للبروتستانت الذين يسكنون في المقاطعات التابعة للبابا. إلا أنه عندما فرض زوينجلي Zwingli الإصلاح في بعض المقاطعات، اشتعلت الحرب مرة أخرى في عام ١٥٣١. حيث نزل زوينجلي أرض المعركة ليرعى جنوده لكنه قُتل في المعارك. وكنتيجة لتلك الحرب، أُعطي لكل مقاطعة السيطرة الكاملة على كل شئونها الداخلية، وتخلت زيورخ عن تحالفها مع الرابطة المدنية المسيحية للمقاطعات المصلحة. ولم يحدث الكثير من التغيير في الوضع الديني للجزء الألماني من سويسرا بعد تلك الفترة. وجاء هاينريش بولينجر Heinrich Bullinger (١٥٠٤-٧٥) ليخلف زوينجلي وينجح في تحقيق التوافق في تلك الحركة. وفي وقت لاحق اندمجت قوى حركة زوينجلي مع قوى حركة كالفن في كنائس سويسرا المصلحة وذلك بواسطة الاستفتاء الذي جرى في زيورخ عام ١٥٤٩.

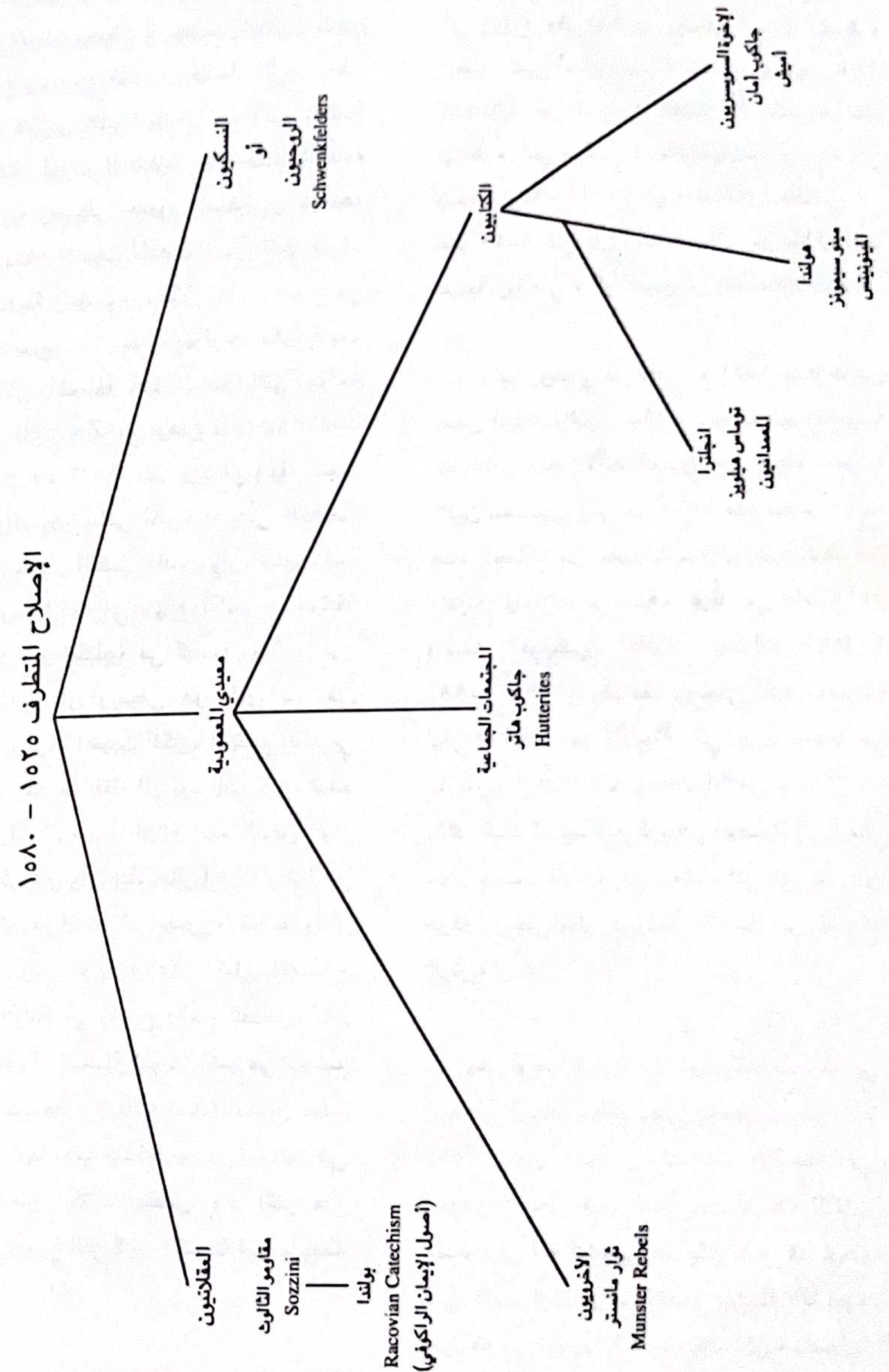
واعتبر البعض أن زوينجلي كان أكثر المصلحين ارتباطاً بفكر الحركة الإنسانية. فقد كان يعتقد أن الفلاسفة اليونانيين مثل سقراط Socrates وأفلاطون Plato والفلاسفة الرومان مثل كاتو وسينكا سيدخلون السماء ولكن فيما عدا ذلك فانه نادى وتمسك بالسلطان المطلق للكتاب المقدس ولم يكن ليسمح بأن يتضمن الدين أي شئ لا يمكن برهنته وإثباته من الكتاب المقدس. وقبل زوينجلي فكرة التعيين السابق غير المشروط للخلاص لكنه آمن أن الذين سمعوا الإنجيل ثم رفضوه بعدم إيمان هم فقط المعينون للدينونة والهلاك. وآمن أيضاً أن الإيمان هو العنصر الأساسي في ممارسة الفرائض المقدسة، وأن العشاء الرباني كان تذكاراً رمزياً وليس إعادة لعمل الكفارة وأن المؤمن ينال بركة روحية عندما يتأمل ويتذكر موت المسيح من أجله. وكان يرى أن الخطية الأصلية نوع من المرض الأخلاقي، ولكنه لم ينظر إليها على أنها ذنب يحمله الإنسان. فعلى ذلك اعتبر أن الأطفال يمكن أن ينالوا الخلاص بالمسيح حتى بدون المعمودية. وتتضح آراؤه الكتابية التي تدور حول المسيح في الكتاب الذي كتبه سنة ١٥٢٥ بعنوان "الديانة الحقيقية والديانة الزائفة".

هذه كانت آراء الرجل الذي أرسى أساسات الإيمان المصلح في سويسرا الألمانية. وإن كان كالفن Calvin هو الذي أصبح بطل الإيمان المصلح، إلا أن الكنيسة لا ينبغي أن تنسى الدور الذي قام به زوينجلي ذلك القائد المثقف الديمقراطي الذي تميز بإخلاصه الشديد في تحرير سويسرا من قيود البابوية. كان أكثر تحرراً من لوثر Luther ولكنه لا يقل عنه في شجاعته.

## ٢- الإصلاح المتطرف ١٥٢٥-١٥٨٠

إن معالجة ظاهرة إعادة المعمودية Anabaptists في فصل يتحدث عن قيام الإيمان المصلح في سويسرا تبرره حقيقة أن حركة إعادة المعمودية كانت في بدايتها وثيقة الصلة بحركة زوينجلي في شمال سويسرا. ومن هناك امتدت





لتنشر في مورافيا، وهولندا وبلاد أخرى. وتعتبر حركة إعادة المعمودية أصلاً حركة روحية امتدت منه حركة الـ Mennonite "المينونيتس" المعاصرة، وكنيسة الأميش Amish وكنيسة الهاتريين وهي كنائس منتشرة في كل العالم. وقد استقطبت هذه الحركة العمال سواء في المدينة أو الريف.

### أ- إعادة المعمودية

شهدت سويسرا أول ظهور لحركة إعادة المعمودية بسبب مقدار الحرية التي شهدتها هذه البلاد. فلا الإقطاع ولا البابوية استطاعت أن تجد لنفسها نفوذاً في هذه البلاد التي يسكنها الجنود المحترفون الشجعان. وكان لإصرار زوينجلي على جعل الكتاب المقدس الأساس الوحيد للتعليم الذي يقدمه الوعاظ اثره في تشجيع ظهور مفاهيم حركة إعادة المعمودية استناداً إلى الكتاب المقدس.

١- كونراد جربل Conrad Grebel (١٤٩٨-١٥٢٦) يمكن اعتباره مؤسس حركة إعادة المعمودية Anabaptists في سويسرا. فقد ولد في عائلة نبيلة ذات نفوذ، وتلقى تعليماً جيداً في جامعات فيينا وباريس. وبعد تجديده في عام ١٥٢٢ عمل بالقرب من زوينجلي Zwingli حتى اختلف معه وانفصل عنه في عام ١٥٢٥. وكان قد أعجبه رأي زوينجلي في بداية حركته بأن معمودية الأطفال ليس لها سند كتابي. وفي عام ١٥٢٥ أصدر مجلس مدينة زيورخ أمره إلى جربل وفيليكس مانز Felix Manz، وهو أيضاً أحد القادة المثقفين لحركة إعادة المعمودية، بأن يتوقفا عن عقد اجتماعات درس الكتاب. وقد عمدَّ جربل جورج بلوروك George Blaurock في عام ١٥٢٥ وهذا بدوره عمده هو وآخرين ولكن عندما وجد زوينجلي أن الإصرار على معمودية المؤمنين أدَّي إلى حرمان الكثيرين من حقوقهم الدستورية، تخلى عن موقفه السابق بعدم وجود أساس روحي لمعمودية الأطفال. وكان وجود جماعة إعادة المعمودية الأكثر تطرفاً وموقفهم من مقاومة تدخل الدولة في الشئون الدينية يمثل تهديداً لمحاولات زوينجلي لاستقطاب السلطات المحافظة بايقاعها البطئ نحو الإصلاح. في البداية كان لدى زوينجلي الاستعداد لأن يستخدم أسلوبه بعقد المناظرات لمحاولة اقناعهم بالتخلي عن آرائهم، ولكن عندما فشلت هذه المحاولة اتخذ المجلس اجراءات أكثر شدة، مثل توقيع الغرامات والحكم بالنفي. ولم يعد لهذه الحركة وجوداً فعلياً في زيورخ بعد عام ١٥٣٥ وذلك بسبب قسوة معاملة أفرادها، وهروب الكثيرين منهم إلى بلاد أخرى. وترجع أصول الأميش الذين يعيشون اليوم في بنسلفانيا إلى تلك الفترة بأحداثها المؤلمة.

٢- بلتاصر هابماير Balthasar Hubmaier (١٤٨١-١٥٢٨) كان من أوائل الألمان الذين عملوا في حركة إعادة المعمودية. وقد تلقى تعليماً ممتازاً ونال درجة الدكتوراه في اللاهوت من جامعة إنجولشتاد حيث درس تحت تأثير غريم لوثر Luther جون إك John Eck. وأتاحت له خدمته الرعوية في مدينة والدشوت على الحدود مع سويسرا اتصالاً مباشراً بالمتطرفين في سويسرا الذين اعتنق هابماير أفكارهم. وفي عام ١٥٢٥ تقدم هو ومعه ٣٠٠ من أتباعه لقبول المعمودية بالتغطيس، وكان عليه أن يهرب إلى زيورخ فراراً من السلطات النمسوية. ومن زيورخ تم نفيه إلى مورافيا حيث تصدى لمسئولية قيادة الذين فروا معه من اضطهاد حركة زوينجلي بالإضافة إلى آلاف المورافيين الذين انضموا إلى حركة إعادة











*أنصار حركة إعادة المعمودية يتعرضون للقتل الوحشي على يد الكاثوليك والبروتستانت. لقد كانوا يدفعون دفعاً إلى الموت بالقفز من فوق أكداس التبن أو بالغرق أو الحرق أو الشنق.*

المعمودية. وتم إعدامه حرقاً بأمر الإمبراطور في عام ١٥٢٨، وتم إغراق زوجته في الدانوب بمعرفة السلطات الكاثوليكية التابعة لكنيسة روما. وطوال خدمته كأحد قادة حركة إعادة المعمودية، كان يصر على فصل الكنيسة عن الدولة، وعلى سلطان كلمة الله ومعمودية المؤمنين.(٣)

ساعد وجود ذلك الهامش المتطرف من حركة إعادة المعمودية، وبالذات بسبب نظرتهم وآرائهم بخصوص أحداث أواخر الأيام، على إهدار قيمة الكثيرين من المؤمنين الممتازين في صفوف حركة إعادة المعمودية في ألمانيا. وقد دأب البعض، وربما دون وجه حق، على نسبه بأبناء زويكاو Zwickau الذين سببوا المتاعب للوثر Luther في وتنبرج في عام ١٥٢٢، إلى هذه الحركة مسببين ضرراً كبيراً لسمعتها. وكانت أحداث ثورة مونستر Münster Rebellion التي قادها حركة إعادة المعمودية المتطرفين سبباً في اتخاذ لوثر وأتباعه موقفاً سلبياً تجاه هؤلاء الناس.

بدأ برنهارد روثمان Bernhard Rothmann، الذي كان أحد خدام كاتدرائية مونستر، جهوده ليربح تلك المدينة إلى الإيمان الإنجيلي. وفي عام ١٥٣٢ صرح المجلس بتعيين خدام لوثريين للقيام بخدمة الوعظ، لكن الإمبراطور أصدر أمره لأسقف مونستر ليقوم بطرد روثمان وأتباعه بسبب تزايد تطرف أفكارهم - باعتناقهم أفكار إعادة المعمودية في الإشتراكية وتفكيرهم في بيع الممتلكات لمساعدة الفقراء. وعند هذا الحد، كان ميلكويد هوفمان Melchoir Hoffman (١٤٩٥-١٥٤٣)، والذي كان قد وصل إلى ستراسبورج في عام ١٥٢٩ لينتظر مجئ الملك الألفي للمسيح الذي افترض مجيئه عام ١٥٣٣، كان قد سلم مكانه في قيادة جماعة إعادة المعمودية الألفيين في ستراسبورج لخباز اسمه جان ماثيس Jan

Matthys. لكن ماثيس هذا أعلن أنه هو أخنوخ الذي نقل إلى السماء، وأرسل مبعوثيه إلى مونستير في ١٥٣٤. وفيما بعد قرر أن مونستير وليست ستراسبورج هي التي ستكون أورشليم الجديدة وانتقل إلى هناك مع زوجته الجميلة التي كانت راهبة قبل زواجها منه واسمها ديفارا Divara. وعندما قتل ماثيس في إحدى المعارك، خلفه يوحنا من ليدن John of Leyden الذي تزوج ديفارا بالإضافة إلى خمس عشرة زوجة أخرى. وقد أصدر قراراً يسمح بتعدد الزوجات بسبب العدد الكبير من النساء غير المتزوجات في مونستير استناداً على ما فعله بعض الآباء الأقدمين في العهد القديم. وقد حدثت فوضى بسبب تعليمهم بالملكية المشاعة وبسبب تطرفهم في توقع مجئ ملكوت السماء الوشيك. واستعاد أسقف المنطقة السيطرة على المدينة مستعيناً بقوات مسلحة كبيرة وبتعاون بعض من خانوا حركة إعادة المعمودية من الداخل، وتم إعدام قادة الحركة. وكان إنكار إعادة المعمودية لأفكار لوثر وأفكار زوينجلي Zwingli إلى جانب أحداث مونستير السبب في اضطهاد وإدانة هذه الحركة من قبل البروتستانت[٤] والكاثوليك معاً.

تكونت مجتمعات أو قرى جماعية على نمط مبني على مثال الكنيسة الأولى في سفر الأعمال في كل من ألمانيا ومورافيا، وقد قادها في البداية شخص اسمه جاكوب هاتر Jacob Hutter (توفى ١٥٣٦)، وقد دفعهم الاضطهاد إلى الهرب إلى المجر وأوكرانيا ثم بعد ذلك في عام ١٨٧٤ إلى داكوتا الجنوبية في أمريكا، وأيضاً إلى إقليم مانيتوبا في كندا، حيث ما زالوا يعيشون إلى اليوم في مجتمعات زراعية بنظام التطوع. وقد عرفوا باسم الهاتريين Hutterites.

٣- بعد أن تعرضت حركة إعادة المعمودية Anabaptist إلى تحطيم سفينتها بأفعال الألفيين في مونستير، تغيرت أحوالهم تحت القيادة الرشيدة مينو سيمونز Menno Simons (١٤٩٦-١٥٦١) في هولندا. وكان سيمونز قد اعتنق مبادئ إعادة المعمودية وتخلى عن وظيفته الكهنوتية في كنيسة روما الكاثوليكية في عام ١٥٣٦. وتولى قيادة مجموعة "الإخوة" وهو الاسم الذي عُرفت به حركة إعادة المعمودية في هولندا وذلك للتخلص من اللعنة التي أصبحت مرتبطة باسمهم الأصلي. وبعد موت سيمونز، عُرفت جماعة "الإخوة" باسم منسوب إليه وهو المينونيتس Mennonites. وقد نالوا حريتهم في العبادة في عام ١٦٧٦.

إن وجود العديد من جماعات إعادة المعمودية المختلفة، حيث تبدو الاختلافات العقائدية بينهم طفيفة جداً - وهي الاختلافات التي نشأت عن تركيزهم على حق كل مؤمن في أن يفسر الكتاب المقدس لنفسه بأسلوب حرفي مع اعتباره سلطان نهائي، فإنه يصعب جداً تحديد وصف دقيق لمعتقدات إعادة المعمودية. إلا أن هناك بعض العقائد التي اشترك كل معيدي المعمودية في الإيمان بها. فقد ركزوا على سلطان الكتاب المقدس كالدستور الكامل المعصوم للإيمان والأعمال. وقد لجأ الكثيرون منهم إلى تفسير الكتاب حرفياً. وآمنوا أيضاً أن الكنيسة الطاهرة الحقيقية يجب أن تكون مؤسسة حرة تجمع المؤمنين المتجددين لا أن تكون كنيسة تابعة للدولة ينضم إليها من يريد من غير المؤمنين. ومارسوا أيضاً معمودية الذين يقبلون الإيمان، في أول الأمر بالرش أو السكب ولكن فيما بعد بالتغطيس وكان موقفهم من معارضة معمودية الأطفال واعتبارها ممارسة غير كتابية وإصرارهم





على إعادة معمودية الكبار هو الذي أكسبهم الاسم الذي عرفوا به. وأصرَّ معظمهم على الفصل الكامل بين الكنيسة والدولة بل ورفضوا التعامل نهائياً مع الكنائس التابعة للدولة. ويعتبر إقرار الإيمان الذي أعلنوه عام ١٥٢٧ وعرف باسم The Schleitheim Confession[٥] والذي قام بمعظم مجهود اصداره شخص يدعى مايكل ساتلر Michael Sattler تعبيراً وافياً عن الأفكار الرئيسية التي يؤمن بها معظم معيدي المعمودية . كان البعض منهم يميلون إلى معارضة العنف ورفض حمل السلاح كما رفضوا القسم في المحاكم أو العمل في وظيفة القاضي. وكان بعضهم يؤمن بمجئ ملك المسيح الألفي على الأرض مما جعلهم يمارسون الملكية العامة لمقتنياتهم.

لاقت حركة إعادة المعمودية رواجها الكبير في أوساط العمال والفلاحين، وهي الفئات التي لم يصل إليها المصلحون الآخرون. وهذه الحقيقة وقد ارتبطت بميل الكثير من الرجال غير المتعلمين إلى تفسير الكتاب حرفياً، أدَّت في معظم الأحيان إلى التجاوزات سواء في المجال الاختباري أو في عقيدة انتظار الملك الألفي. كانت الظروف الصعبة التي شهدها القرن السادس عشر سبباً في أن يجد الكثيرون من أبناء الطبقات الدنيا عزاءهم في الأفكار والآراء التي روج لها معيدو المعمودية. لم يكن معيدو المعمودية هم "بلاشفة الإصلاح" ولم يكونوا كلهم من المتطرفين اليساريين. لكنهم كانوا أشخاصاً بسطاء يؤمنون بالكتاب المقدس، أضل البعض منهم قادة جهلاء فسروا الكتاب المقدس حرفياً لتحقيق مصالحهم الشخصية. فلا ينبغي أن يخجل المعمدانيون أو المينونيتس من الانتساب إلى هذه الحركة التي تعتبر بمثابة الجذور الروحية لكل منها. وقد أثرت أفكارهم حول الكنيسة الحرة جماعات مثل الانفصاليين التطهريين والمعمدانيين والكويكرز.

### ب- النسكيون أو الروحيون المتطرفون

تبع كثيرون قيادة النبيل كاسبار شفينكفلد Kaspar Schwenkfeld، (١٤٨٩-١٥٦١) وكان هؤلاء الناس يميلون للاعتماد على الاختبارات الذاتية، ولهم اتجاه باطني ويؤمنون بالإرشاد الداخلي للروح القدس. ولا تزال هناك مجموعة صغيرة منهم في بنسلفانيا. وكان سيباستيان فرانك Sebastian Franck (١٤٩٩-١٥٤٢ تقريباً) أيضاً له نفس هذه الأفكار.

### ج- أتباع سوسينوس العقلانيون المتطرفون

يعتبر أتباع سوسينوس روادا للحركة الحديثة الرافضة للتثليث والقائلة بالتوحيد، وهم جماعة أخرى متطرفة من جماعات الإصلاح. وقد نشأ فكر هذه الجماعة في إيطاليا. كان ليليو سوزيني "سوسينوس" Lelio Sozzini (Socinus) (١٥٢٥-٦٢) وهو من بلدة Siena قد انجذب للفكر الرافض لعقيدة الثالوث بعد أن شهد موت سيرفيتوس Servetus الذي نادى بهذه الفكرة في جنيف. ثم ما لبث أن انتقل ابن أخيه فوستو سوزيني Fausto Sozzini (١٥٣٩-١٦٠٤) ليعيش في بولندا وبقي هناك حتى وفاته. تطور مذهب سوسينوس Socinianism بسرعة في بولندا، وقام فوستو بكتابة أصول الإيمان الراكوفي Racovian Catechism والذي تم نشره عام ١٦٠٥. وكان أتباع سوسينوس يقولون إن المسيح ينبغي أن تقدم له العبادة باعتباره إنسان تحققت ألوهيته بسبب نقاوة حياته. وكان موته ببساطة مثلاً ونموذجاً

للطاعة التي يطلبها الله من أتباعه. وكانوا ينكرون الخطية الأصلية، ولاهوت المسيح والثالوث والتعيين السابق للخلاص. وقد استطاع الجزويت دحر هذه الحركة في بولندا، ولكن أفكار سوسينوس انتشرت في هولندا وفي انجلترا ومنها إلى أمريكا. وتعتبر الكنيسة التي تنادي بالتوحيد اليوم امتداداً لأتباع سوسينوس في بولندا والذين تم تسميتهم "بالموحدين" لأول مرة في ترانسيلفانيا في عام ١٦٠٠.

## ٣- الإصلاح الكالفيني في جنيف

يشهد الملايين الذين قبلوا الإيمان المصلح أساساً لعقيدتهم، سواء كانوا في سويسرا أو هولندا، أو اسكتلندا أو الولايات المتحدة، بأهمية النظام اللاهوتي الذي أسسه جون كالفن John Calvin (١٥٠٩-٦٤) وأشرف على تطويره. ويشير تعبير "الكالفينية" Calvinism وعبارة "الإيمان المصلح" إلى النظام اللاهوتي الذي تطور على أساس النظام الذي وضعه كالفن. أما كلمة "المشيخية" فتستخدم للتعبير عن نظام إدارة الكنيسة الذي طوره كالفن أيضاً. كانت مدينة جنيف هي المركز الذي أتاح لكالفن تطبيق أفكاره وتجريبها. ويمكن اعتبار كالفن ممثلاً للجيل الثاني من رجال الإصلاح.

### أ- لوثر وكالفن

يتعجب المرء كيف أن كالفن كان صورة عكسية للوثر، فبينما انحدر لوثر Luther من جذور ريفية من عائلة مزارعين، كان والد كالفن موثقاً عاماً، مما جعل من كالفن عضواً في طبقة أصحاب المهن المتميزة، ودرس لوثر الفلسفة واللاهوت أثناء سني دراسته الجامعية، أما كالفن Calvin فدرس العلوم الإنسانية والقانونية. وربما كان هذا هو السبب الذي جعل من كالفن العقل المنظم لحركة الإصلاح بينما ظل لوثر يمثل صوتها النبوي. كان لوثر قوي البنية يتمتع بحصة ممتازة، في الوقت الذي ظل كالفن يعاني من المرض طوال سني خدمته في جنيف. أحب لوثر بيته وحياته الأسرية ولكن كالفن كان دارساً وحيداً. وكان لوثر الذي عاش في ألمانيا بنظامها الملكي يتطلع للحصول على مساندة ودعم الأمراء والارستقراطيين. وكالفن الذي عاش في سويسرا بنظام الجمهوري اهتم أكثر بتطوير مجالس نيابية تمثل الشعب لتدبر شئون الكنيسة.

وقد اختلف لوثر وكالفن في الفكر اللاهوتي بالاضافة إلى اختلاف شخصياتهم. اهتم لوثر بالوعظ، بينما اهتم كالفن بتطوير نظام لاهوتي رسمي. قبل كلا منهما سلطان الكتاب المقدس وتمسك به، لكن تركيز لوثر الأساسي كان على التبرير بالإيمان، بينما ركّز كالفن على سيادة الله. اتخذ لوثر موقف اتحاد المسيح الكامل بعناصر العشاء الرباني، واعتبره شرحاً وافياً لحضور المسيح في العشاء الرباني، لكن كالفن رفض مفهوم حضور المسيح المادي لينبر على مبدأ حضور المسيح الروحي بالإيمان في قلوب المشاركين في مائدة الرب. رفض لوثر الأمور التي كان يرى أن كلمة الله لا توافق عليها، لكن كالفن رفض كل ما هو مرتبط بالماضي ولا يمكن إثباته من كلمة الله. آمن لوثر بالتعيين السابق للمختارين ولكنه لم يتكلم كثيراً عن المعينين للهلاك. لكن كالفن تمسك بنظرية التعيين المزدوج للخلاص والهلاك - على أساس إرادة الله، ورفض أي فكرة تنسب فضلاً للشخص المختار أو فكرة الله السابق بمعنى أن الله اختار للخلاص





الذين علم بمقتضى علمه السابق أنهم سوف يؤمنون.

### ب- حياة كالفن حتى عام ١٥٣٦

يمكن تقسيم حياة كالفن إلى فترتين رئيسيتين، فحتى عام ١٥٣٦ كان كالفن طالباً متجولاً، ومن عام ١٥٣٦ وحتى موته في عام ١٥٦٤، فيما عدا فترة قصيرة قضاها منفياً في ستراسبورج ما بين ١٥٣٨-١٥٤١، كان كالفن المواطن الأول في جنيف أو رئيساً لمجلسها. ولد كالفن في شمال شرق فرنسا في بلدة نويون في مقاطعة بيكاردي، حيث كان أبوه مواطناً محترماً، استطاع أن يوفر من الدخل الذي كان يحصل عليه من بعض أوقاف الكنيسة ليصبح حساباً خاصاً لمصروفات تعليم ابنه؛ ساعد ذلك الدخل الإضافي على أن يتلقى كالفن أفضل إعداد متاح قبل ذهابه إلى الجامعة. درس كالفن لفترة في جامعة باريس، حيث تقابل مع العالم الإنساني جويلم كوب Guillaume Cop. وهناك تعرف كالفن على أفكار البروتستانت من خلال ابن خاله بيير أوليفيه Pierre Oliver. وبعد أن أنهى دراساته الإنسانية، أرسله أبوه إلى الجامعة في أورلينز ليدرس القانون. ثم انتقل إلى جامعة بورجيه في عام ١٥٢٩. وقد كان نجاحه في الانتهاء من تأليف تفسير ممتاز لمؤلف سينكا Seneca الذي عنوانه De Clementia في عام ١٥٣٢ علامة على وصول التأثير الإنساني في حياته إلى ذروته. ولقد تجدد كالفن في وقت ما في الفترة ما بين انتهائه من بحثه ونهاية عام ١٥٣٣ وتبنى أفكار الإصلاح. فتخلى كالفن عن الدخل الذي تتيحه له أوقاف الكنيسة. وأجبر على مغادرة فرنسا في عام ١٥٣٤ بعد تعاونه مع نيقولاس كوب Nicholas Cop، قسيس جامعة باريس، في توجيه نداء يدعو إلى إصلاح كتابي مثل الذي قام به لوثر Luther، فهرب ولجأ إلى بازل.

وفي بازل أتم كالفن Calvin أعظم مؤلفاته وهو كتاب "أسس الديانة المسيحية" The Institutes of the Christian Religion، وذلك في ربيع ١٥٣٦ وهو في سن السادسة والعشرين. كان هذا الكتاب موجهاً إلى فرانسيس الأول Francis 1st ملك فرنسا دفاعاً عن البروتستانت من الفرنسيين الذين كانوا يعانون بسبب معتقداتهم. كان كالفن يريد أن يدعو فرانسيس لقبول أفكار الإصلاح. كان الإصدار الأول من هذا الكتاب بمثابة وثيقة دفاعية قدم بها كالفن تطور فهمه للإيمان المسيحي. ويمكن تتبع تأثير أصول الإيمان Catechism الذي كتبه لوثر على ترتيب فصول هذا الإصدار الأول. فبدأ كالفن بمناقشة



*رسم تخطيطي لجون كالفن في شيخوخته، كما صوره أحد تلاميذه بالريشة والحبر.*

الوصايا العشر، ثم ناقش قضايا الإيمان على أساس قانون الإيمان الرسولي، ثم تعرض للصلاة على أساس الصلاة الربانية، ثم ناقش الفريضتين ثم مساوئ وجهة النظر الكاثوليكية عن العشاء الرباني Lord's Supper، وأخيراً تعرض لمفهوم حرية المواطن في إطار المسيحية، حيث ربطها بالحريات السياسية. وقد تعرض هذا الكتاب للتطوير مع كل إصدار جديد حتى أخر إصداراته في عام ١٥٥٩. وقد أصبح الكتاب في هذا الإصدار الأخير مؤلفاً لاهوتياً كبيراً[٦] من أربعة أجزاء ويتضمن ثمانين فصلاً.

### ج- فكر كالفن اللاهوتي

مع الحرص الشديد لعدم الوقوع في خطر التبسيط المخل لأفكار كالفن اللاهوتية، يمكن تلخيص جوهر لاهوت كالفن باستخدام خمسة عناصر أساسية تكون هذا الفكر. إن الفكرة المحورية في لاهوت كالفن هي "سيادة الله الكاملة". كان كالفن لديه مفهوم عن الله وعن مجده يتميز بالعظمة وهو نفس المفهوم الذي كان لدى بعض أنبياء العهد القديم كما كان يؤمن بالفساد الكامل لطبيعة الجنس البشري كله. حيث أن الإنسان قد ورث من خلال آدم ذنب خطية آدم وليس هناك ما يستطيع أن يفعله من جهة خلاص نفسه وذلك لأن إرادته نفسها أصبحت فاسدة بالكامل. أما العنصر الثاني من تعاليم كالفن فهو أن الخلاص ما هو إلا أمر يتعلق بالإختيار غير المشروط بعيداً عن صلاح الإنسان أو عن علم الله السابق. فالاختيار مبني على إرادة الله المطلقة وهو تعيين سابق مزدوج أي تعيين البعض للخلاص والبعض الآخر للدينونة والهلاك. والعنصر الثالث هو اعتقاد كالفن أن عمل المسيح على الصليب محدود الأثر أي أنه يفيد المعينين للخلاص دون غيرهم. وهذا المعتقد ظهر في عقيدة الكفارة المحدودة الذي صاغه كالفن. أما العنصر الرابع فهو في عقيدة النعمة الإلهية التي لا تقاوم وهو استنتاج للفكرة السابقة ويجب أن يلازمها. فالمختارون سوف يخلصون بغض النظر عن مدى توفر الرغبة لديهم التي يمكن أن تدفعهم في السعي إلى الخلاص، وذلك لأن الروح القدس سوف يجذبهم إلى المسيح لقوة لا يمكنهم مقاومتها. أما العنصر الأخير فهو الضمان الأبدي أو حفظ المؤمن مستمراً في الإيمان فأولئك المختارون الذين خلصوا بعمل الروح القدس لايمكن هلاكهم أبدياً مرة أخرى[٧]. وبالرغم من أن لاهوت كالفن له نفس عناصر لاهوت أغسطينوس Augustine، إلا أن كالفن يدين بهذا الفهم اللاهوتي لدراسته الشخصية لكلمة الله وليس لكتابات أغسطينوس. فهو مثله مثل باقي المصلحين وصل من الكلمة المقدسة إلى ما وصل إليه أغسطينوس وشرحه في كتاباته، فإن كالفن Calvin قرأ ما كتبه أغسطينوس وهو من أبرز آباء الكنيسة - ليدعم آراءه ولكنه لم يقرأ أوغسطينوس ليصل منه إلى الكتاب المقدس وإلى آراء الإصلاح.

### د- حياة كالفن بعد عام ١٥٣٦

بينما كان كالفن منشغلاً بدراساته، تقدم الإصلاح ليدخل المقاطعات السويسرية التي تتحدث الفرنسية. كان جليوم فاريل Guillaume Farel (١٤٨٩-١٥٦٥) شخصاً أحمر الشعر، حاد المزاج، له صوت جهوري وخدمة نبوية وهو الذي أسس الإصلاح في جنيف. ولد فاريل في عائلة فرنسية من الطبقة الوسطى وتلقى علومه في جامعات فرنسا. وسرعان ما قبل بعد عام ١٥٢١ فكرة لوثر عن التبرير بالإيمان. ووجد فاريل مساندة من مدينة





برن، ومن هناك ساعد في نشر أفكار حركة الإصلاح. وبدأ يعمل في عام ١٥٣٥ في مدينة جنيف. وفي عام ١٥٣٥ نجح في حسم خلافاً لصالحه واجه فيه المعارضين لحركة الإصلاح Reformation، وتبنت الجمعية العمومية للمواطنين رسمياً أفكار الإصلاح في عام ١٥٣٦. وأدرك فاريل أنه يحتاج إلى شخص يفوقه في القدرات التنظيمية ليساعده على تأسيس الإصلاح في مدينة جنيف. وحدث أن توقف كالفن في أثناء سفره الكثير في جنيف لليلة واحدة في عام ١٥٣٦. فذهب فاريل إليه ودعاه للبقاء معه ومساعدته. وعندما تمنع كالفن بسبب حبه حياة الطالب وعمله كمؤلف لاهوتي، أخبره فاريل بأن لعنة الله ستكون عليه إذا لم يبق معه في جنيف. فخاف كالفن وارتعب حتى إنه قرر أن يبقى ليساعده. وقد تعاون كالفن مع فاريل حتى تم نفي كليهما في عام ١٥٣٨. وكان كالفن قد رسم شيخاً معلماً في جنيف عام ١٥٣٦.

وفي عام ١٥٣٧ نجح كالفن وفاريل في تمرير قرار يقضي بتحديد مواعيد معينة لممارسة فريضة العشاء الرباني، وبتنظيم دورات دراسية لشرح الإيمان المسيحي للأطفال، أيضاً ادخال الترنيم الجمهوري في نظام الخدمة والعبادة، كما يسمح هذا المرسوم بقطع شركة بعض الأشخاص من الكنيسة بسبب تجاوزات معينة في حياتهم. وساهم الاثنان معاً في تأليف برنامج لشرح أصول الإيمان، وصياغة إقرار مختصر للإيمان، ولكن الخلاف حول طقوس ممارسة العشاء الرباني Lord's Supper أدى إلى نفيهما في عام ١٥٣٨. وخدم كالفن في الفترة ما بين ١٥٣٨-١٥٤١ بين اللاجئين الفرنسيين في ستراسبورج، حيث قاد مارتن بوسر Martin Bucer (٤٩١-١٥٥١) حركة الإصلاح هناك، وألقى محاضرات في اللاهوت. وفي عام ١٥٤٠ تزوج كالفن من أرملة أحد قسوس جماعة إعادة المعمودية واسمها إيدليت دي بور Idelette de Bure ورزقا بابن وحيد مات وهو طفل وفي عام ١٥٤٩ ماتت زوجته أيضاً.

وفي عام ١٥٤١ استعادت قوى الاصلاح سيطرتها في جنيف، وعاد كالفن مرة أخرى إليها بناء على دعوتهم له. وفي نفس هذه السنة صاغ كالفن مؤلفه عن الوظائف الكنسية المعروف باسم Ecclesiastical Ordinances[٨] وفيه وضع ملامح أنشطة الفئات الأربع للوظائف الكنسية. فتحدثت عن رابطة من الرعاة تقوم بعمل الوعظ والتقويم والتأديب، ثم مجموعة من المعلمين لتعليم العقيدة، ومجموعة من الشمامسة لتدبير أعمال الخير والإحسان وأهم الكل المجلس الكنسي الذي يتألف من القسوس والشيوخ، وعمله هو الإشراف على المستوى اللاهوتي والأخلاقي للمجتمع، ومعاقبة الأعضاء الغير ملتزمين عند اللزوم عن طريق قطعهم من الشركة وحرمانهم. ولكي يضمن كالفن Calvin إنشاء نظام فعال، استخدم سلطان الدولة نفسها لتوقيع عقوبات أشد.

إلا أن مثل هذه العقوبات ثبت أنها قاسية جداً حيث بلغ الذين تم إعدامهم ٥٨ شخصاً وتم نفي ٧٦ آخرين مع حلول عام ١٥٤٦. وقد أعدم سرفيتوس Servetus (١٥١١-٥٣) الذي أثار الجدل حول عقيدة الثالوث في عام ١٥٥٣. وبالرغم من أننا لا نستطيع تبرير مثل هذه الاجراءات، إلا أننا يمكن أن نفهم أن الناس الذين عاشوا في ذلك الزمن كانوا يؤمنون أن الإنسان ينبغي أن يتبع دين الدولة وأن العصيان أو عدم الطاعة يمكن أن تصل

عقوبته إلى الموت. كان هذا الاعتقاد سائداً عند البروتستانت وعند الكاثوليك أيضاً. والواقع أن بعض تلك القوانين التي طبقها كالفن يمكن أن تعتبر اليوم تدخلاً غير مقبول في الحياة الخاصة للأفراد. توفى كالفن عام ١٥٦٤ بعد أن أنهك المرض والعمل الشاق جسده الضعيف والذي أفناه من أجل الإنجيل. وقد خلفه ثيودور بيزا Therodore Beza (١٥١٩-١٦٠٥) والذي كان يشغل منصب قسيس الأكاديمية في جنيف، خلف كالفن في قيادته للعمل في جنيف.

### هـ- إسهامات كالفن

إن أعظم إسهامات كالفن في صياغة الإيمان المصلح كان في كتابه Institutes والذي قبله الجميع باعتباره الصياغة الرسمية للاهوت الإصلاح. وفي هذا الكتاب وضع كالفن أساساً لتأكيد الإصلاح على أهمية العقيدة ومركزية الله في اللاهوت المسيحي. كان كالفن أيضاً كاتباً موسوعياً في العديد من الخطابات التي كتبها رداً على الكثيرين الذين كتبوا له طلباً لمشورته من كل أنحاء أوربا والجزر البريطانية. وتملأ رسائله وكتاباته الأخرى ٥٧ مجلداً إلى جانب ألفين من مواعظه. وشجع كالفن التعليم . وقد أنشأ في جنيف نظاماً للتعليم يتضمن ثلاثة مستويات. المستوى الأعلى كانت الأكاديمية والمعروفة اليوم باسم جامعة جنيف، وقد تأسست عام ١٥٥٩. وقد أثر اهتمام كالفن بالتعليم على أمريكا في وقت لاحق وذلك عندما أنشأ التطهريون الكلفنيون الكليات والمدارس في العالم الجديد.

أصبحت جنيف تحت قيادة كالفن إلهاماً ونموذجاً بالنسبة لأتباع الإيمان المصلح في أماكن أخرى، ووفرت جنيف ملاذاً لأولئك الذين واجهوا اضطهاداً وضيقاً بسبب اتباعهم مذهب الإصلاح. فقد لجأ جون نوكس John Knox إلى جنيف في مرحلة من حياته حيث تأثر جداً بقدرة كالفن على الوعظ. وقد درس الكثيرون ما كتبه كالفن من تفاسير عديدة لأسفار الكتاب المقدس، ولا سيما الذين تبعوا مبادئه بعد موته. وقد أصبح نظام إدارة الكنيسة في جنيف نموذجاً احتذت به الكنائس المصلحة في كل مكان. وأثر كالفن أيضاً في نمو حركة الديمقراطية وذلك لأنه قبل مبدأ التمثيل الشعبي أو النيابي في إدارة كل من الكنيسة والدولة. فقد رأى أن الكنيسة والدولة معاً قد خلقهما الله لصالح البشر، وأنهما يجب أن يعملا معاً في توافق بهدف انتشار المسيحية. وكان لتاكيده على أن الله إنما يدعو الأفراد دعوة إلهية لوظائفهم ومهنهم وتشجيعه للتجارة والصناعة أثره في وضع دعائم الرأسمالية.

ويعتقد البعض أن اللاهوت الكالفيني يقطع عصب الكرازة والعمل المرسلي. إلا أن أي دراسة لتاريخ نشر الإنجيل لابد أن تُظهر أن الذين آمنوا بفكر الإصلاح كان لهم دور بارز في النهضات العظيمة التي حدثت في الماضي وأيضاً في الحركة الإرسالية الحديثة. إن تأثير هذا المفكر الدءوب والواعظ القدير على تطور الفكر الروحي في العصر الحديث لا يمكن مقارنته بضعفه وضعف جسده. فليس هناك أعظم من نعمة الله التي عملت في حياته تصلح تفسيراً لكمية ونوعية العمل الذي أنجزه كالفن في حياته بل والذي تم حتى بعد وفاته. فقد كان بحق مصلحاً دولياً أثر بمجهوداته في المشيخيين والمصلحين والتطهريين .





## اقتراحات للقراءة

بالإضافة إلى الأعمال العامة المدونة في قائمة قراءات الفصل السادس والعشرين يوجد أيضاً سير للرجال الذين كانوا موضوع بحث في هذا الفصل.

*Bender, Harold S.* Conrad Grebel. *Goshen: Mennonite Historical Society, 1950. This is a useful biography of that leader.*

*Bratt, John H., ed.* The Heritage of John Calvin. *Grand Rapids: Eerdmans, 1973. This may be profitably used with McNeill's work.*

*Claus-Peter, Asen.* Anabaptism, a Social History, 1525-1618. *Ithaca: Cornell University Press, 1972. This is a scholarly account of anabaptist groups, life, organization, and persecution.*

*Courvoisier, Jacques.* Zwingli, a Reformed Theologian. *Richmond, Va.: John Knox, 1963.*

*Dakin, Arthur.* Calvinism. *Philadelphia: Westminster, 1946.*

*Dyck, Cornelius J., ed.* An Introduction to Mennonite History. *Scottdale, Pa.: Herald, 1967.*

*Epp, Frank H.* The Mennonites in Canada, 1786-1920. *Toronto: Macmillan, 1974.*

*Estep, William.* The Anabaptist Story. *Nashville: Broadman, 1963. This is a short, popular account.*

*Farner, Oskar.* Zwingli the Reformer. *Trnaslated by D.G. Sear. London: Lutterworth, 1952.*

*Hostetler, John A.* Hutterite Society. *Baltimore: Johns Hopkins, 1974.*

_____ *. and Huntington, Gertrude E.* The Hutterites in North America. *New York: Holt, Rinehart, and Winston, 1967.*

*Hughes, Philip E., ed. and trans.* The Register of the Company of Pastors of Geneva in the Time of Calvin. *Grand Rapids: Eerdmans, 1966. This is valuable for documents important to the Reformed faith.*

*Hunt, Robert N.* Calvin. *London: Geoffrey Bles, 1933. This is a useful account of the important events in Calvin's life.*

*Jackson, Samuel M.* Huldreich Zwingli. *New York: Putnam, 1901. This has excellent maps, several helpful appendices, and documents of importance.*

## الفصل التاسع والعشرون

# الإيمان المصلح خارج سويسرا

بينما حقق الإيمان اللوثري مكاسباً بين الاسكندنافيين، ربحت الكالفينية أتباعها خلال القرن السادس عشر في وادي نهر الراين في ألمانيا، وفي المجر وفي مورافيا وفي فرنسا وهولندا واسكتلندا وأيرلندا الشمالية ولفترة وجيزة في بولندا أيضاً. كونت الكالفينية كتلة فاصلة بين الشمال اللوثري والجنوب الكاثوليكي.

## ١- الإيمان الكالفيني في فرنسا

اشتبك فرانسيس الأول Francis 1st والذي حكم فرنسا في الفترة ما بين ١٥١٥-١٥٤٧ في صراع شبه مستمر مع الحاكم الأسباني الذي حكم إيطاليا. وكان تدخل فرنسا في شؤون إيطاليا هو السبب في نشأة حركة الإنسانيين الكتابيين لأن الفرنسيين درسوا في إيطاليا حيث تولد لديهم حماس للبحث عن المعرفة في مصادرها القديمة. وكان جاك ليفيفر Jacques Lefèvre (١٤٥٥-١٥٣٦) أحد هؤلاء الفرنسيين. وقد درس على يد الإنسانيين في إيطاليا والذين كان لهم اهتمام خاص بدراسة الكتاب المقدس في لغاته الأصلية. وأكمل ليفيفر ترجمة العهد الجديد إلى اللغة الفرنسية عام ١٥٢٥ وقد ترجمها من الفولجاتا اللاتينية. وأصبحت مرجريت Margaret، أخت الحاكم نفسه، عضواً في جماعة ليفيفر ضمت فاريل و بودي Bude عالم الكلاسيكيات و فاتابل Vatable وهو عالم في اللغة العبرية وصارت مدينة Meaux مركزاً لتعاليم هؤلاء الإنسانيين، الذين رغبوا في إصلاح الكنيسة الكاثوليكية من الداخل حتى ما تصبح أكثر توافقاً مع كلمة الله.

وأصبح تأثير الفكر اللوثري، والذي تحقق من خلال جلبهم لمؤلفاته، عاملاً آخر في قيام الإصلاح في فرنسا. كان تجار الطبقة المتوسطة في المدن والعمال في المدن والريف يتبرمون من احتكار النبلاء ورجال الكنيسة للمناصب الإجتماعية والسياسية، بل وكانوا يعارضون مظاهر الفساد التي تفشت في كنيسة روما. فلاقت أفكار الإنسانيين الكتابيين في مدينة Meaux ومعها تعاليم لوثر مجالها بينهم باعتبار أنها الوسيلة التي يمكن الوصول بها إلى تحقيق الإصلاح المنشود.

قرر الملك فرانسيس Francis الذي راعه انتشار أفكار البروتستانت، استخدام القوة في مواجهة استمرار انتشار هذه الأفكار الهرطوقية أملاً في وقفه. فتشتت الجماعة التي في بلدة

Meaux في عام ١٥٢٥، وهرب كثيرون منهم من فرنسا. وقد اتخذت جامعة السربون موقفًا معاديًا من كتابات لوثر Luther منذ وقت مبكر أي في عام ١٥٢١، ولكنها لم تستطع أن تمنع انتشار أفكار البروتستانت.

وقد افتقدت حركة الإصلاح في فرنسا إلى وجود القيادة الفعالة، ولكن الذين اعتنقوا مبادئ الإصلاح أكدوا على سلطان الكتاب المقدس باعتباره دستورًا للإيمان والأعمال، ونبروا أيضًا على عقيدة التبرير بالإيمان. ولم تكن ترجمة ليفيفر للكتاب المقدس، والتي أسسها على الفولجاتا، مرضية للكثيرين، مما دفع أوليفتين، والذي كان له أثره على كالفن في أورلينز، إلى أن يكمل ترجمة جديدة كانت جاهزة للاستعمال في عام ١٥٣٥.

وإن كانت حركة الإصلاح في فرنسا Reformation in France استمدت قوتها في بدايتها من أفكار الإنسانيين الكتابيين ومن كتابات لوثر، إلا أن تجديد جون كالفن John Calvin أتاح لتلك الحركة كاتبًا قديرًا استطاع أن ينشر عقيدة الإصلاح بين عامة الشعب، وفي عام ١٥٣٢ اعتنقت جماعة أتباع والدين "الوالدينسيون" Waldenses في جنوب فرنسا الكالفينية. كان اضطهاد البروتستانت الفرنسيين هو الذي دفع كالفن لنشر أول إصدار لكتاب "الأساسيات" Institutes في عام ١٥٣٦ دفاعًا عن حقوق الفرنسيين البروتستانت كمواطنين أحرار وليطالب بوقف اضطهادهم. كان كالفن قائدًا للفرنسيين البروتستانت بقدر ما كان قائدًا لنظرائهم في جنيف. وقد أشرف كالفن على تدريب ما يزيد على ١٥٠ راعيًا في جنيف وإرسالهم إلى فرنسا في الفترة ما بين ١٥٥٥-١٥٥٦. وبالرغم من موجة الإضطهاد الشديد التي بدأت في عام ١٥٣٨، جمع البروتستانت أنفسهم من مختلف اتجاهاتهم اللاهوتية ونظموا أنفسهم لتكوين جماعة متحدة منظمة لها هواية واضحة في عام ١٥٥٩ وتم ذلك كله بمساندة واضحة من جنيف. وفي بداية حكم الملك هنري الثاني Henry 2nd (١٥٤٧-٥٩)، كان هناك ما يقرب من ٤٠٠ ألف بروتستانتي في فرنسا. أصبح كولجني Coligny وهو أدميرال فرنسي عظيم من البروتستانت. وفي عام ١٥٥٩ انعقد أول سنودس وطني في باريس برهانًا على تنظيم الفرنسيين أنفسهم. وقد تبنى هذا السنودس إقرار الإيمان الجاليكاني Gallican Confession of Faith[1]، وهو الإقرار الذي وضع كالفن أولى مسوداته. وكان ذلك الإقرار في مجمله ملخصًا للاهوت كالفن. وفيما بعد عام ١٥٦٠ أصبح البروتستانت الفرنسيون يعرفون باسم الهجونوت Huguenots وإن كان أصل هذا الاسم غير معروف بالتحديد، إلا أن ذلك اللقب اعتبره الكالفينيون الفرنسيون وسامًا للشرف على صدورهم.

ولقد أصبح الهجونوت على قدر كبير من القوة والتنظيم حتى إنهم أنشأوا مملكة داخل المملكة. وعندما أدركت السلطات الحكومية ذلك طورت الحكومة سياستها تجاههم، من الاضطهاد الدموي الشرس المستمر في الفترة ما بين ١٥٣٨-١٥٦٢، إلى سياسة شن الحرب الدينية بهدف إرجاع فرنسا مرة أخرى إلى حضن روما. وفي الفترة ما بين ١٥٦٢-١٥٩٨ قامت ثماني حروب ومذابح شرسة. وبدأت المذبحة الرهيبة المعروفة باسم القديس بارثماوس باغتيال كولجني الذي عرف







*كان الاميرالاي جاسبار دي كوليني – القائد السياسي للهجونوت – هو أول ضحايا مذبحة يوم القديس برثولماوس. لقد تم قتله في حجرة نومه وألقي جسده من النافذة. هذه الصورة من طبعة امريكية في أوائل القرن التاسع عشر لكتاب فوكس "كتاب الشهداء"*

بالتقوى والوقار وذلك في عام ١٥٧٢. وقتل ما يقرب من ألفين في ليلة ٢٣، ٢٤ أغسطس في باريس، وتم ذبح ما يقرب من عشرين ألف شخص واستولى الكاثوليك على كل ممتلكاتهم. وكان الكاثوليك التابعون لروما قد تم إثارتهم ودفعهم لهذه الأفعال الدموية بواسطة كاترين دي ميديسي Catherine de Medici والذي عُرف أنها كان لها تأثير كبير على الملك تشارلز التاسع Charles 9th.

وفي سنة ١٥٩٣، كان قائد الهجونوت Huguenots اسمه هنري دي نافار، لكنه أصبح كاثوليكيًا تابعًا لكنيسة روما وتم تعيينه ملكًا باسم هنري الرابع Henry 4th. وأصدر هذا الملك وثيقة عرفت باسم The Edict of Nantes في عام ١٥٩٨[2] وقد منحت هذه الوثيقة حرية العقيدة لجماعة الهجونوت حتى إنهم كونوا لأنفسهم نوعًا من الدولة التي يمكن استيعابها في إطار الدولة الفرنسية ذاتها. فقد سمح لهم بالاحتفاظ بحاميات عسكرية في العديد من المائتي مدينة التابعة لهم. وقد حمى ميثاق الحرية البروتستانت الفرنسيين حتى نقض لويس الرابع عشر Louis 14th هذا الميثاق في عام ١٦٨٥، وذلك لأنه أراد أن تكون لديه دولة واحدة وحاكم واحد ودين واحد. وبعد نقض ذلك الميثاق أجبر حوالي ٤٠٠ ألف من البروتستانت على الهرب من فرنسا إلى انجلترا وبروسيا وهولندا وجنوب أفريقيا، وإلى ولايات كارولينا في أمريكا

الشمالية. ولأن أولئك الذين أجبروا على الفرار كانوا من أرباب الحرف الفنية والمهن الرفيعة من رجال الطبقة الوسطى، فإن الخسارة التي مثلها نزوح هؤلاء كانت ضربة اقتصادية خطيرة تلقاها اقتصاد فرنسا. وقد ساعدت هذه الخسارة على إنزال الهزيمة بفرنسا في صراعها مع انجلترا حول المستعمرات في القرن الثامن عشر. ومنذ ذلك الحين لم يعد للفكر الإصلاحي البروتستانتي تأثير كبير في فرنسا، وبقي البروتستانت أقلية صغيرة في الشعب الفرنسي.

كانت الحركة التي عرفت باسم Jansenism والتي نشأت في أوساط الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا Roman Catholic Church of France هي حركة موازية لحركة التطهريين في انجلترا فقد وجدت كل من الحركتين جذورها اللاهوتية في آراء أوغسطينوس Augustine. كانت حركة Jansenist رد فعل من فكر توما الأكويني Thomas Aquinas المحافظ والذي عبر عنه مجمع ترنت إلى فكر أغسطيني يرتكز على الكتاب المقدس ويهدف إلى إعادة الحيوية للحياة الروحية الفردية. وقد اكتسبت هذه الحركة اسمها نسبة إلى كورنيليوس جانسن Cornelius Jansen (١٥٨٥-١٦٣٨) الذي كان أسقفًا لمدينة Ypres وأصبح استاذًا في Louvain. وفي عام ١٦٤٠ تم نشر كتابه عن أغسطينوس Augustine بعد وفاته. وفي كتابه أكد أن التجديد يتم بالنعمة، التي لا يمكن مقاومتها، والتي لا يستطيعَ المنطق أن يسبر أغوارها[٣]. لاقت آراء جانسين قبولاً واسعًا بين الأتقياء الفرنسيين، لكنها لم تجد تأييدًا أقوى مما لقيه في دير بورت رويال بالقرب من باريس. إلا أن آراءه لاقت مقاومة من الجيزويت، لأنه اتهمهم بأن أفكارهم مخلوطة وتشوبها أفكار من هرطقة بيلاجيوس لأنهم يركزون على المجهود البشري إلى جانب النعمة الإلهية في نوال الخلاص.

أيَّد بلايز باسكال Blaise Pascal (١٥٢٣-٦٢) آراء أتباع جانسين. فقد كان يعاني من المرض في طفولته لذلك تعهده أبوه ودرسه الرياضيات بنفسه، وعندما أخذ منه أبوه كتب الهندسة لكي يذاكر بعض دروس اللغات، فما كان من الطفل باسكال إلا أنه استنتج بنفسه ٣٢ نظرية هندسية من فرضيات إقليدس دون سابق معرفة به. أصبح باسكال أبرز علماء الرياضيات في فرنسا. وفي عام ١٦٥٤ اختبر باسكال اختبارًا روحيًا عميقًا جعل الكتاب المقدس وتعاليم جانسين التي كان قد قبلها قبل ذلك بخمس سنوات لها معنى خاص عنده. لذلك فقد كرَّس مجهوداته للدفاع عن تعاليم جانسين في بورت رويال حتى أصبحت جاكلين راهبة في عام ١٦٥٢. وقد ألَّف باسكال مجلدًا أسماه خطابات باسكال Provincial Letters في ١٦٥٦-٥٧ هاجم فيه القانون الأدبي للجيزويت والذي ثارت من حوله الأسئلة. أما مؤلفه المشهور Pensées ومعناه خواطر وقد ظهر بعد موته في عام ١٦٧٠. وقد نبر على فساد الطبيعة البشرية وعلى قوة الله المخلصة في المسيح، وذلك في مواجهة الطرق الكثيرة التي يمكن أن تلجأ إليها تدبيرات الإنسان وحواسه وتضله بعيدًا عن الخلاص.

لكن اقتدار دفاع باسكال لم يستطع أن ينقذ القضية التي حارب من أجلها. فصدر أمر ملكي بحل دير بورت رويال في عام ١٧١٠، واضطهد لويس الرابع عشر Louis 14th، بتشجيع من





الجزويت، جماعة أتباع جانسين. واضطر قائدهم الجديد باسكيه كوسنيل Pasquier Quesnel (١٦٣٤-١٧١٩) للهرب إلى هولندا. ودفع الجزويت البابا كليمنت الحادي عشر Clement 11th لإصدار قرار بابوي في عام ١٧١٣ يدين كتابات كوسنيل. وفي عام ١٧٢٣ تم تنظيم كنيسة كاثوليكية من أتباع جانسين في هولندا. وكانت هذه نهاية المحاولات التي تطلعت لنشر فكر أغسطينوس في كنيسة روما.

## ٢- الإيمان الكالفيني في ألمانيا

عندما فقد لوثر تأييد طبقة المزارعين في وادي نهر الراين بعد موقفه غير المتعاطف والمعارض لثورة الفلاحين، انضم الكثير من الفلاحين إلى جماعة إعادة المعمودية Anabaptists. ومع دخول الكالفينية إلى ألمانيا تحول إليها الذين كانت أحوالهم المادية متيسرة. وقبل ذلك بفترة أي في عام ١٥٣٠ كانت ثلاث مدن في منطقة الراين بالإضافة إلى ستراسبورج قد قدمت ما عرف باسم "اعتراف المدن الأربعة" إلى المجلس التشريعي الذي انعقد في أوجسبورج Confession to the Diet of Augsburg.

وقد اكتسبت الكالفينية أرضًا في الإمارات البلاتينية والتي تعاطف حاكمها فريدريك الثالث Frederic 3rd مع اللاهوت الكالفيني والنظام المشيخي في إدارة الكنيسة. فبعد إجراء مناظرة عامة في عام ١٥٦٠، اتخذ فريدريك قراره في صالح الكالفينية. وأعطيت مهمة صياغة شرح لأصول الإيمان لكل من زكريا أورسينوس Zacharias Ursinus (١٥٣٤-٨٣) وكاسبار أوليفيانوس Kaspar Olevianus (١٥٣٦-٨٧). فأعدا شرح أصول الإيمان المنسوب إلى مدينة هايدلبرج Heidelberg Catechism، والذي تم اعتماده رسميًا في عام ١٥٦٣.[٤] وأصبح قانون الإيمان الرسمي للكنائس الألمانية المصلحة. وعندما استقر الإيمان الكالفيني نهائيًا، بعد مرحلة فاصلة قصيرة من اللوثرية، أصبحت جامعة هايدلبرج مركزًا للكالفينية في ألمانيا.

## ٣- الإيمان الكالفيني في المجر

قد لا يدرك الكثيرون أن ما بين مليونين إلى ثلاثة ملايين شخص في المجر يعتنقون الإيمان الكالفيني. لأن المجريين كرهوا الألمان دائمًا، لم تلق اللوثرية ترحيبًا في المجر. ولكن بعد عام ١٥٥٠، وعندما عاد المجريون الذين درسوا في جنيف و وتنبرج إلى بلادهم لينشروا المبادئ البروتستانتية وبعد أن ترجم جون إردوسي John Erdosi العهد الجديد إلى اللغة المجرية، أقبل الشعب المجري بحماس لاعتناق البروتستانتية Protestantism. ومع نهاية القرن السادس عشر كان القسم الأكبر من السكان إلى جانب النبلاء قد تبنوا العقيدة المصلحة. وكان ماثيو ديفاي Matthew Dévay (١٥٠٠-٤٣) هو المسئول الأول عن هذا التحول في الأحداث. ومع سنة ١٥٧٠ كان إقرار الإيمان المجري Hungarian Confession قد انتشر تداوله، وهو الذي تم إعداده في عام ١٥٥٨. ولأن أتباع سوسينوس المقاومين لعقيدة الثالوث كانوا يحققون تقدمًا كبيرًا فإنه قد أضيفت مقدمة على إقرار الإيمان المجري تقدم الأسانيد الكتابية ضد فكر دعاة التوحيد Unitarianism.

وبعد عام ١٥٧٢ بدأ اضطهاد شديد ضد الكنيسة المجرية المصلحة استمر ما يقرب من قرنين من الزمان. وبذل الجيزويت جهوداً كبيرة لربح الشعب المجري Magyars مرة أخرى للإيمان الكاثوليكي. إلا أن البروتستانت في المجر ظلوا ثابتين بالرغم مما لاقوه من اضطهاد حتى نالوا الاعتراف بحقهم في الوجود في عام ١٧٨١ ثم نالوا حق حرية العبادة في عام ١٨٤٨.

## ٤- الإيمان الكالفيني في اسكتلندا

منذ حوالي عام ١٣٠٠، عندما حاول إدوارد الأول Edward 1st أن يخضع اسكتلندا تحت سيطرة التاج البريطاني دون أن ينجح، تحالفت اسكتلندا مع عدو انجلترا الأعظم فرنسا. فكانت إنجلترا تتوقع دائماً هجوماً من الأسكتلنديين في الشمال كلما خرجت للحرب مع فرنسا. ولم تتحسن العلاقة بين البلدين إلا عند مجئ الإصلاح الذي جمع كلتا الدولتين معاً في البيت البروتستانتي. وقد ساعد الصراع المشترك الذي دخلوا فيه ما بين النظام الأسقفي والنظام المشيخي، في النصف الأول من القرن السابع عشر، ساعد على زوال الفجوة القديمة بين الدولتين ولا سيما بعد ما توحدتا تحت حكم واحد في ١٦٠٣.

سيطر الدين على السياسة أثناء الإصلاح الأسكتلندي، لكن في انجلترا ظل الدين يمثل اعتباراً ثانوياً بالنسبة للاعتبارات السياسية. اتحد البارونات ورجال الأعمال الصالحين من الطبقة الوسطى في اسكتلندا تحت قيادة جون نوكس John Knox ليواجهوا الملك وذلك بهدف تحقيق الإصلاح المنشود. أما في انجلترا فإن الإصلاح بدأ من أعلى بقانون أصدره الحاكم. فليس غريباً أن الإصلاح في اسكتلندا كان أكثر جذرية منه في انجلترا. فلم يبلغ تأثير الكالفينية هذه القوة في أي مكان آخر سوى جنيف.

أدّى افتقار اسكتلندا لحاكم قوي إلى انقسام البلاد إلى مناطق نفوذ محلي تخضع كل منها للقيادة القوية التي يمثلها رئيس العشيرة. فلا عجب إذاً إن تدهورت الحالة الأخلاقية والدينية في ظل هذا الوضع الفوضوي. فكانت الشرور العديدة من اتخاذ العشيقات إلى السكر والتجارة في الوظائف والطمع والجشع للمال إلى جانب عدم الاهتمام بشئون الشعب هذه كلها أصبحت هي الصفات المميزة لرجال الكنيسة التابعة لروما في اسكتلندا. وكانت هذه الحالة المزرية التي وصلت إليها الكنيسة في اسكتلندا هي السلبيات التي أوجبت حدوث الإصلاح. إلا أنه كان هناك سبب ايجابي واحد للإصلاح الأسكتلندي Reformation in Scotland وهو التعاليم اللوثرية التي قدمها باتريك هاميلتون Patrick Hamilton (١٥٠٣-٢٨)، والذي درس في ماربورج و وتنبرج. وكان هاميلتون يؤكد في تعليمه على أهمية التبرير بالإيمان وعلى أن البابا ليس إلا ضد المسيح مما أثار ضده السلطات الرسمية حتى حكمت بإعدامه حرقاً وتم ذلك في عام ١٥٢٨. جورج ويشارت George Wishart (١٥١٣-٤٦ تقريباً) بدأ هو أيضاً يعلم العقائد البروتستانتية وأعدم أيضاً حرقاً في عام ١٥٤٦. وقد أسهم إسهاماً كبيراً في التطور الروحي لجون نوكس. وكان لنسخ العهد الجديد التي نشرها تيندال والتي أحضرها التجار الأسكتلنديون إلى بلادهم أثرها في ترويج أفكار البروتستانت.





ولقد أخذ الاسكتلنديون موقفاً من العائلة المالكة عندما أرسلت ماري ستوارت لتلقي تعليمها في فرنسا حيث تزوجت هناك من وريث العرش الفرنسي. خاف شعب اسكتلندا أن تصبح بلادهم مع الوقت جزءاً من أملاك فرنسا بسبب هذا الزواج. وقد تضايق الأسكتلنديون من التسيب الأخلاقي الذي مارسه الفرنسيون في اسكتلندا. فكان فشل الكنيسة من ناحية وانتشار لاهوت الإصلاح من ناحية أخرى سبباً في خلق جو مناسب للإصلاح في اسكتلندا.

وفي نفس ذلك الوقت كان يستكمل إعداد الرجل الذي سوف يؤسس الإصلاح في اسكتلندا لهذه المهمة. جون نوكس (١٥١٤-١٥٧٢ تقريباً) كان رجلاً شجاعاً يبدو في بعض الأحيان جامداً ولكنه كان رجلاً لا يخاف أحد إلا الله وحده. وقد تلقى تعليمه في جامعة القديس أندرو وتمت رسامته للكهنوت عام ١٥٣٦. أصبح نوكس من أتباع ويشارت Wishart وكان يعظ بين الجنود البروتستانت في حامية سان أندروز حتى ألقى الفرنسيون القبض عليه. فقضى فترة عقوبة بلغت تسعة عشر شهراً يعمل عبداً على أحد السفن الحربية الفرنسية حتى أطلق سراحه ضمن عملية تبادل للأسرى. عرض إدوارد السادس Edward 6th ملك انجلترا عليه منصب أسقف روتشستر، لكن نوكس Knox رفض العرض. وبعد ذلك أصبح نوكس واعظ البلاط الملكي. وعندما ارتقت ماري تودور Mary Tudor عرش انجلترا، هرب إلى أوروبا حيث خدم بين المنفيين المتدينين في فرانكفورت. وقد تأثر نوكس جداً بكالفن Calvin وكان كالفن بالنسبة له " أحد خدام الله البارزين".

اجتمع عدد من النبلاء الأسكتلنديين في مدينة إدنبرة في ديسمبر ١٥٥٧، يجمعهم استياءهم من التأثير الفرنسي على بلادهم ومن "الوثنية" التي تمارس "في مجمع الشيطان" (وهو الاسم الذي كانوا يستخدمونه للإشارة إلى كنيسة روما). وقطع هؤلاء اللوردات عهداً على أنفسهم بأن يكرسوا حياتهم وكل ما يمتلكون لترسيخ "كلمة الله" في اسكتلندا. وعاد نوكس إلى بلاده في هذه الفترة الانتقاليه أي في عام ١٥٥٩ ليصبح صوتاً ملتهباً للتعبير عن الفكر الكالفيني. وعندما أصبحت ماري ستوارت وزوجها حكاماً لفرنسا، ودخل الجنود الفرنسيون إلى اسكتلندا ، رفع الأسكتلنديون شكواهم إلى إليزابيث Elizabeth ملكة انجلترا الجديدة لمعونتها.

إلا أن إليزابيث التي كانت على درجة عالية من المهارة الدبلوماسية، ترددت في تقديم المعونة لشعب يريد أن يثور على ملكه. وأكثر من ذلك فإنها كانت تبغض نوكس لأنه في عام ١٥٥٨ كان قد كتب منشوراً يهاجم فيه تولي ماري تودور العرش بعنوان The First Blast of the Trumpt Against the Monstrous Regiment of Women وفي هذا المنشور كان يجادل بأن تولى المرأة عرش البلاد لا يتفق لا مع الطبيعة ولا مع كلمة الله، لأن تولي المرأة في نظره يؤدي إلى "الافتقار إلى النظام والعدل والمساواة". ولكن على أي حال، لأن وجود القوات الفرنسية في اسكتلندا كان يمثل تهديداً لأمن انجلترا، أرسلت الملكة أموالاً وأسطولاً في عام ١٥٦٠. وعقدت معاهدة أدنبره Treaty of Edinburgh في عام ١٥٦٠ لتسمح ببقاء قوة رمزية قوامها ١٢٠ جندياً فرنسياً فقط في اسكتلندا،




*صورة من الهجائية الساخرة لبيتر فرارين "خطاب ضد العصيان المسلح للبروتستانت في عصرنا" (١٥٦٦). ويبدو في اليسار كريستوفر جودمان ينفخ في بوقه: "حتمية طاعة السلطات العليا". في حين يبدو جون نوكس في يمين الصورة يوجه "النفخة الأولى في البوق ضد الحكم الشيطاني للمرأة". وكان نوكس يعني الحاكمات الكاثوليك في كل من اسكتلندا وفرنسا.*

وتمنع تولي الفرنسيين الوظائف العامة في اسكتلندا، وتقرر أن فرنسيس الثاني زوج ماري ستوارت Mary Stuart لن يشترك في حرب ضد انجلترا. أنهت هذه المعاهدة سيطرة فرنسا على اسكتلندا، وأطلقت يد النبلاء الأسكتلنديين المهتمين بالإصلاح لكي يروجوا لدعوتهم للإصلاح الديني.

انعقد البرلمان الأسكتلندي في عام ١٥٦٠، حيث بدأ بقيادة نوكس Knox اتخاذ الإجراءات التي تحقق الإصلاح. فانهى سيطرة البابا على كنيسة اسكتلندا وأعلن أن القداس ليس قانونيًا، وألغت كل القوانين التي سنت ضد الهرطقات. وقبل البرلمان إقرار الإيمان الأسكتلندي Scottish Confession الذي صاغه جون نوكس ومعه خمسة رجال آخرون يحملون جميعهم اسم جون، في أقل من أسبوع.[٥] كان إقرار الإيمان ذا صبغة كالفينية واضحة وظل هو الإقرار الرئيسي في اسكتلندا حتى قبول إقرار الإيمان الوستمنستري Westminister Confession في ١٦٤٧. بعد ذلك تم صياغة "الكتاب الأول للنظام والتأديب وفي عام ١٥٦١ تم تأليف كتاب "النظام العام للكنيسة". وتم تنظيم الكنيسة في اسكتلندا وتقسيمها إلى مجامع وسنودسات ومحفل عام، مع نظام للإدارة التي يقوم بها مجالس إدارية تتألف من شيوخ الكنائس كما في الكنيسة المصلحة في جنيف. وهكذا أنجز الإصلاح في اسكتلندا بدون سفك دم، وذلك بواسطة القرارات التي اتخذها المجلس التشريعي الأسكتلندي، إلا أن نوكس ومن معه واجهوا العديد





من الامتحانات الصعبة قبل استقرار الأمر نهائيًا.

وصلت ماري ستوارت (١٥٤٢-٨٧) إلى اسكتلندا أثناء هذه التغيرات، وكان زوجها الحاكم الفرنسي قد مات. كانت ماري امرأة جميلة واسعة الحيلة وكانت على ولاء كبير للكاثوليكية. وكان للخطيب المفوه نوكس حوارات عاصفة عديدة معها، ولكنه لم يستجب أو يتنازل لها بأي صورة بالرغم من دموعها وتملقاتها. وقد أدت مشاكل ماري الداخلية إلى هزيمتها في نهاية الأمر. وفي عام ١٥٦٥ تزوجت من ابن عمها الوسيم دارنلي Darnley الذي كان غيورًا جدًا، حتى إنه قتل سكرتيرها الإيطالي أمامها لأنه ظن أنها تميل إليه أو تحبه. ورزقا بولد أصبح فيما بعد ملكًا على اسكتلندا باسم جيمس السادس James 6th ثم ملكًا على انجلترا باسم جيمس الأول ولكن ماري أبغضت دارنلي زوجها بعد أن قتل سكرتيرها، وأنشأت علاقة غرامية مع اللورد بوثول Lord Bothwell. وتم اغتيال دارنلي بتفجير البيت الذي كان يقيم فيه في أدنبره. في ١٥٦٧ تزوجت ماري من بوثول، وافترض الكثيرون أنه هو الذي قتل دارنلي. وقد أثار هذا الأمر غضبًا شديدًا في البرلمان الأسكتلندي حتى إنهم أجبروها على التخلي عن العرش. فهربت إلى انجلترا ولجأت إلى إليزابيث Elizabeth لحمايتها في عام ١٥٦٩ فتحفظت إليزابيث عليها في مكان أمين، إلى أن بدأت في تدبير المخطط للاستيلاء على عرش انجلترا ووصل الأمر إلى تهديد حياة إليزابيث نفسها. وعندئذ وافقت إليزابيث بامتعاض على تنفيذ حكم الإعدام في ماري عام ١٥٨٧.

توفي جون نوكس John Knox في عام ١٥٧٢. وكانت الطبقة الوسطى تحكم قبضتها على السياسة وكان النظام المشيخي لإدارة الكنيسة واللاهوت الكالفيني قد أصبح اختيارًا ثابتًا عند الشعب الأسكتلندي. وكان التهديد الفرنسي لأمن إنجلترا من خلال اسكتلندا قد انتهى للأبد، وأزيل الحاجز الديني الذي كان يحول دون تحقيق الوحدة السياسية بين انجلترا وأسكتلندا حيث تم توحيدهما تحت حاكم واحد في عام ١٦٠٣، وأصبحت مملكة واحدة لها برلمان واحد في عام ١٧٠٧. وقد أثّر الإصلاح الأسكتلندي بطريق غير مباشر على أمريكا بسبب هجرة الكثيرين من المشيخيين الأسكتلنديين إلى ايرلندا الشمالية في بداية القرن السابع عشر، ومن هناك هاجر ما يقرب من ٢٠٠ ألف إلى أمريكا في النصف الأول من القرن الثامن عشر. لذلك فالمشيخية Presbyterianism في أمريكا هي امتداد للمشيخية في اسكتلندا.

وفي عام ١٥٧٢ جرت محاولة لتأسيس نظام أسقفي لإدارة الكنيسة في اسكتلندا. وحلت المعركة ضد سيادة الأسقف مكان الحرب ضد سيادة البابا. وقد قاد أندرو ميلفيل Andrew Melville (١٥٤٥-١٦٢٢) وهو الذي كان رئيسًا لجامعة سان اندروز، معركة استعادة النظام المشيخي في إدارة الكنيسة. وأعيد تنظيم المجامع مرة أخرى في عام ١٥٨١ وذلك على سبيل التجربة. وفي عام ١٥٩٢، وبالرغم من معارضة الملك جيمس السادس، James 6th أصبحت المشيخية هي المذهب السائد في اسكتلندا وقد حاول الحكام الأوائل من عائلة ستوارت أن يعيدوا تأسيس النظام الأسقفي في الفترة ما بين ١٦٠٣-١٦٤٠، لكن المشيخية استقرت نهائيًا في اسكتلندا في عام ١٦٩٠.

## ٥- الإيمان الكالفيني في أيرلندا

بالرغم من نجاح الإنجليز في توحيد ويلز ومن بعدها اسكتلندا مع انجلترا، إلا أنهم لم ينجحوا أبدًا في استقطاب أهل أيرلندا الأصليين لفكرة الوحدة فيما عدا فترات قصيرة للغاية. وحتى في تلك الفترات تم فرض الوحدة بالقوة. كان هذا نتيجة الكراهية التي نشأت بين الشعب المقهور والشعب الفاتح المنتصر، وأيضًا للتبعية الكاملة للاقتصاد الأيرلندي لإنجلترا، وأخيرًا كان نتيجة لفشل الإنجليز في ربح أيرلندا Ireland للعقيدة البروتستانتية.

وعندما ثار الأيرلنديون ضد انجلترا أثناء الإصلاح، صادر البرلمان بقوة القانون في عام ١٥٥٧ كل أراضي المتمردين المنهزمين ومنح ثلثها إلى المستوطنين الجدد من الإنجليز. وكان ذلك بمثابة بداية تطبيق سياسة الاستعمار التي تسببت في تقسيم أيرلندا إلى اليوم. وأدت الخطط المشتركة بين الأسبان وقادة التمرد الأيرلندي إلى قيام ثورة أخرى في الفترة ما بين ١٥٩٨-١٦٠٣ وشوهت نهاية حكم إليزابيث. وعندما ارتقى جيمس الأول James 1st عرش انجلترا، قرر استعمار أيرلندا الشمالية بواسطة مستوطنين من البروتستانت. ومعظم هؤلاء البروتستانت كانوا من المشيخيين الأسكتلنديين حيث كونوا الجزء الأكبر من سكان المقاطعات الشمالية. أصبحت مقاطعة ألستر مقاطعة مشيخية، وأصبحت بلفاست هي المدينة المشيخية. وأصبح هؤلاء المشيخيين الأيرلنديين من أصل اسكتلندي هم أجداد المشيخيين الذين يعيشون اليوم في أيرلندا الشمالية. وعندما فرضت انجلترا بعض المعوقات الاقتصادية عليهم فيما قبل عام ١٧٠٠، هاجر ما يقرب من ٢٠٠ ألف منهم إلى أمريكا الشمالية. ونحو عام ١٧٥٠ كانوا قد نجحوا في زرع المسيحية في أمريكا وبالذات في المنطقة المحيطة بمدينة بتسبرج. ولعل هذا الاستعمار لأيرلندا من قبل الأسكتلنديين المشيخيين كان أيضًا أحد الأسباب التي يمكن أن تفسر اتحاد أيرلندا الشمالية مع انجلترا واسكتلندا تحت نفس الحكم. بينما ظلت أيرلندا الجنوبية جمهورية مستقلة. ولم تقبل أيرلندا الجنوبية فكر حركة الإصلاح وبقيت على ولائها للبابوية.

## ٦- الإيمان الكالفيني في هولندا

لا ينبغي أن نفصل ما بين تمرد الأقاليم الشمالية السبعة من بلاد الأراضي الواطئة، والتي تعرف الآن بهولندا، على البابا، وبين تمرد البلاد الواطئة كلها ضد السيطرة السياسية التي يمثلها النفوذ الأسباني. فقد كان لإنجلترا تحت حكم إليزابيث Elizabeth دور في هذا الصراع السياسي حيث كانت تدعم الثوار أملاً في إحراج فيليب الثاني Philip 2nd، الذي كان يساند كنيسة روما ويطالب بعرش انجلترا على اعتبار أنه حق زوجته المتوفية، ماري تيودور Mary Tudor، والتي كانت ملكة انجلترا السابقة. وقد نال الشعب الهولندي حريته في نهاية الأمر واعتنق المذهب الكالفيني.

فشلت اللوثرية في اكتساب ولاء الشعب الهولندي، على الرغم من مساهمتها في الثورة الدينية في هولندا. لكن إصرار لوثر Luther بعد ثورة الفلاحين Peasants' Revolt على مبدأ السلطان المطلق للحاكم لم يلق قبولاً عند الهولنديين الذين كانوا يتهيأون للثورة على حكامهم من الأسبان. وقد أعجبتهم الكالفينية Calvinism بتوجهاتها الديمقراطية كوسيلة تتيح لهم التخلص من فساد النظام الكنسي لكنيسة روما.

ويجب أن نتذكر أيضًا أن هولندا كانت البلاد التي شهدت مجهودات إرازموس Erasmus وإخوة الحياة المشتركة Brethren of the Common Life. وتم نشر العهد الجديد باللغة الهولندية لأول مرة في عام ١٥٢٣ حتى يتمكن الهولنديون من مقارنة أحوال الكنيسة في بلادهم بمقاييس كنيسة العهد الجديد.

وقد تضافرت كل هذه القوى في صورة تمرد سياسي كنسي ضد سيطرة الحاكم الأسباني وسلطان البابا. وكانت هولندا هي البلد الوحيد الذي دخل إلى البروتستانتية بعد أن بدأ الإصلاح الكاثوليكي يأخذ مجاله.

فحتى عام ١٥٢٥ كان كل الذين قبلوا الإصلاح يتبعون لوثر، لكن حركة إعادة المعمودية Anabaptists جمعت وراءها عددًا كبيرًا من الأتباع من ذلك التاريخ وحتى عام ١٥٤٠. ومن عام ١٥٤٠ اتجه الإصلاح في هولندا Reformation in Holland نحو الاتجاه الكالفيني. ومع حلول عام ١٥٦٠ أصبح غالبية البروتستانت هناك من الكالفينيين. والأقلية كانوا يتبعون جماعة إعادة المعمودية بقيادة مينو سيمونز، بينما بقيت أقلية ضئيلة تتبع أفكار لوثر Luther. لم تكن سلبية اللوثرية ولا ثورية جماعة إعادة المعمودية تناسب المزاج العام لأفراد الطبقة الوسطى في هولندا والذين تميزوا بالروح الاستقلالية. لكن الكالفينية بتركيزها على أهمية التحرر من الطغيان لاقت قبولاً تامًا بينهم. وقد انتشرت البروتستانتية بالرغم من مجهودات محاكم ولجان التفتيش التي حاولت حتى ١٥٢٤ إقتلاعها من هذه الأراضي التي كانت تمثل أقيم وأغلى مخلفات التاج الأسباني.

وعندما ارتقى فيليب الثاني Philip 2nd عرش أسبانيا بعد تخلي أبوه تشارلز الخامس Charles 5th عن العرش سنة ١٥٥٥، كان فيليب كاثوليكيًا غيورًا فعقد عزمه على استعادة سيطرة البابا على البلاد الواطئة التي كانت تابعة لأسبانيا. وكان استخدامه لنظام صكوك الغفران إلى جانب استخدام القسوة الوحشية في قمع الشعب سببًا في أن يثور الهولنديون ضده. فاجتمع نبلاء وأعيان البلاد الواطئة في بريدا حيث أصدروا وثيقة في عام ١٥٦٥ قدموا بمقتضاها طلبًا بوقف أعمال لجان التفتيش ووقف العمل بالقوانين التي تدين الهراطقة. وأدت الاضطرابات والقلاقل إلى نشوب أعمال الشغب في فلاندرز عام ١٥٦٥، وفي هولندا بواسطة البروتستانت في عام ١٥٦٦. ونتج عنها نهب اربعمائة كنيسة كاثوليكية وتدنيس الأدوات التي تستخدم في القداس. دفعت هذه الأعمال الملك فيليب إلى اتخاذ أشد الإجراءات القمعية، حيث كلف دوق ألفا Duke of Alva ليكون حاكمًا على البلاد الواطئة في ١٥٦٩. فأقام دوق ألفا محكمة خاصة دعمها بقوة بلغت عشرة آلاف جندي أسباني ليبدأ حكمًا إرهابيًا. وأعدم في الفترة ما بين ١٥٦٧-١٥٧٣ ما يقرب من ألفي شخص، ومع نهاية القرن هاجر أربعون ألفًا إلى بلاد أخرى. وكانت الضرائب الثقيلة التي فرضها الأسبان تهدد باستنزاف موارد أهالي البلاد الواطئة.

تركزت المقاومة ضد الأسبان في شخص وليم أوف أورنج William of Orange، الذي عرف بلقب "الصامت". وقد تصاعد التمرد في عام ١٥٦٨ حتى وصل إلى الصدام المسلح، لكن جيش وليم لم يكن نداً لجنود ألفا المدربين، فاضطر وليم إلى الهروب إلى ألمانيا. ولما اكتشف الهولنديون أن فرصتهم في الحرب البرية منعدمة، لجأوا إلى إثبات تفوقهم في القتال البحري، فنزلوا إلى البحر في ١٥٦٩ وبدأوا الإغارة على الخطوط التجارية الأسبانية. لكن ألفا استولى على المدن المتمردة بعد أن أخضعها لحصار طويل وارتكب العديد من المذابح الجماعية. وفي إحدى المدن الهولندية تم وقف الهجوم الأسباني بهدم السدود وإغراق الحقول بمياه البحر. وفي عام ١٥٧٦ نهبت مدينة أنتورب وقتل الجنود الأسبان بقيادة خليفة ألفا سبعة آلاف مواطن. كانت هذه الحادثة والتي عرفت باسم "الغضبة الأسبانية" The Spanish Fury، السبب في استثارة الروح الوطنية التي دفعت هولندا وزيلند، وهما مقاطعتان لهما توجه كالفيني مؤكد، للإتحاد مع الأقاليم الأخرى في حلف عقد في مدينة Ghent في عام ١٥٦٧ وهدفه طرد الأسبان من البلاد.

أدى اختلاف الأجناس واللغة، ووسائل كسب العيش، وأهم من ذلك اختلاف المذهب الديني إلى حدوث الانقسام بين شعوب الفليمنج الكاثوليكية في الجنوب (فيما يعرف اليوم ببلجيكا) وبين الهولنديين الكالفينيين في الأقاليم الشمالية. وقعت الأقاليم الشمالية السبعة معاهدة الاتحاد في أوترخت Union of Utrecht في عام ١٥٧٩ ثم في عام ١٥٨١ تم إعلان رفضهم الرسمي لسلطة الملك الأسباني، وتم وضع أسس الدولة الحديثة في هولندا تحت قيادة وليم أوف أورانج William of Orange. وما لبث أن انتصر الهولنديون في حربهم من أجل الحرية، لكنهم خسروا قائدهم وليم الذي اغتاله أحدهم بطعنة خنجر في عام ١٥٨٤. ساعد دعم انجلترا للهولنديين وهزيمتهم للأسطول الأسباني في ١٥٨٨ في أن يأمن الهولنديون على حريتهم من أي محاولة من قبل الأسبان لاستعادة سيطرتهم على هولندا. لكن نهاية الحرب واستقلال الجمهوريات الهولندية لم يتم الاعتراف به رسمياً حتى تم توقيع معاهدة السلام في وستفالي Treaty of Westphalia عام ١٦٤٨. وأصبحت هولندا قوة بحرية عظمى في القرن السابع عشر، وبنت إمبراطورية واسعة الثراء في الشرق الأقصى وفي النصف الغربي من الكرة الأرضية، بل وقدمت أحد ملوك انجلترا في عام ١٦٨٩.

لم يغفل الهولنديون أهمية تطوير تنظيم الكنيسة ولا الفكر اللاهوتي في فترة كفاحهم لتحقيق الاستقلال الوطني ففي سنودس وطني عقد في مدينة إمدن في ١٥٧١ تم اتخاذ قرار بأن تتبع الكنيسة في هولندا النظام المشيخي في إدارتها حيث تصبح مجالس الكنائس والمجامع والسنودس وحدات هذا النظام. وقد قبل ذلك السنودس الإقرار المعروف باسم Belgic Confession[6] والذي أعده جيدو دي بريه Guido de Bres (١٥٢٧–٦٧) في عام ١٥٦١ وراجعه فرانسيس جونيوس Francis Junius، وكان راعياً كالفينياً في أنتورب. وقد تم تبني هذا الإقرار أولاً في سنودس عقد في أنتورب عام ١٥٦٦ وتم إقراره نهائياً في سنودس دورت الوطني في عام ١٥٧٤. فصار ذلك الإقرار ومعه شرح أصول الإيمان الهيدلبرجي Heidelberg Catechism الأسس اللاهوتية للكنيسة المصلحة





في هولندا. وأصبحت جامعة ليدين، والتي أنشئت في عام ١٥٧٥ بعد تحرير المدينة من الحصار، مركزاً للدراسات اللاهوتية الكالفينية. وقد كان الكالفينيون الهولنديون من بين المدافعين الأشداء دائماً عن المسيحية والمساهمين في صياغة وشرح مفاهيمها.

إلا أن الكالفينية التي انتصرت في هولندا واجهت أول جولات المعارضة لفكرها متمثلة في تطور فكر الأرمينية Arminianism. تلقى جاكوب أرمينيوس James Arminius (١٥٥٩–١٦٠٩) تعليمه بواسطة أموال جمعها أصدقاؤه ثم حصل بعد ذلك على منحة من السلطات المدنية في أمستردام. درس في ليدين وفي جنيف تلميذاً لـ Beza وسافر كثيراً في إيطاليا. وفي عام ١٦٠٣ وبعد أن قضى ١٥ عاماً في عمله كراع في امستردام، أصبح أستاذاً للاهوت في ليدين وعندما حاول أن يعدل أفكار كالفن حتى لا يصبح الله هو الذي خلق الخطية– على حد قوله – ولا يكون الإنسان مجرد دمية في يدي الله، وجد نفسه يواجه معارضة شديدة من زميله فرانسيس جومار Francis Gomar. طالب أرمينيوس الحكومة بدعوة سنودس قومي لمناقشة هذا الأمر، لكنه توفى قبل دعوة هذا السنودس. وقد جمع أتباع ومناصرو أرمينيوس، والذي كان من بينهم رجال من أمثال هوجو جروتيوس Hugo Grotius، والذي كانت له مؤلفاته في القانون الدولي، جمعوا آراءهم وأفكارهم عام ١٦١٠ في كتاب اسمه Remonstrance.[7]

وقد اشترك كل من أرمينيوس وكالفن Calvin في القول بأن الإنسان الذي ورث خطية آدم يقع تحت غضب الله، لكن أرمينيوس آمن أن الإنسان كان قادراً على أن يبدأ سعيه لنوال الخلاص بعد أن يهبه الله النعمة التي تمكن إرادته من التجاوب مع الله[8]. أما كالفن فكان يعتقد أن إرادة الإنسان قد تمكن منها الفساد بالسقوط مما يجعل الخلاص أمراً يتوقف بالكامل على النعمة الإلهية. قبل أرمينيوس فكرة الاختيار لكنه آمن أن الحكم بخلاص البعض وهلاك البعض الآخر ترجع أصوله إلى علم الله السابق[9]، أي أن الاختيار كان مشروطاً وليس غير مشروط. أما كالفن فكان على الناحية الأخرى يقبل فكرة الاختيار المطلق أي غير المشروط يقوم به إله كلي السلطان يهب نعمته لمن يشاء ودينونته على من يشاء. وآمن أرمينيوس أن موت المسيح يكفي للجميع ولكنه لا يعمل إلا في الذين يؤمنون به. بينما حدَّ كالفن الكفارة لتشمل المختارين للخلاص وحدهم.[10] علم أرمينيوس أيضاً بأن البشر يمكنهم مقاومة نعمة الله المخلصة[11] والتمرد عليها، بينما تمسك كالفن بفكرة أن عمل النعمة لا يمكن مقاومته. كان رد أرمينيوس على المفهوم الكالفيني بالضمان الأبدي للمؤمنين هو أن الله يمكن أن يعطي نعمة للقديسين لكيلا يسقطوا. ولكن كلمة الله تبدو أنها تعلم أنه يمكن أن يسقط الإنسان بعيداً عن الخلاص[12]. كان هدف أرمينيوس هو التخلص من هذه المزالق اللاهوتية التي تتضمنها الكالفينية التي تجعل الله يبدو وكأنه هو الذي خلق الشر[13] أو أن يبدو الإنسان بدون أي اختيار حر مثل دمية في يد الله دون أي اختيار له.

ومن ١٦١٨–١٦١٩ انعقد سنودس في مدينة دورت، كان في واقع أمره محفلاً دولياً للكالفينية لأن ٢٨ شخصاً من ١٣٠ شخصاً حضروا تلك

الاجتماعات، كانوا من الكالفينيين من إنجلترا، بريمن، هيس، الامارات البلاتينية، من سويسرا وفرنسا. وجاء الأرمينيون ليمثلوا أمام هذا الاجتماع باعتبار أنهم الفريق المدعي عليه.

تم كتابة خمسة مقالات تعبر عن الفكر الكالفيني وعرفت باسم Canons of Dort وكانت محاولة لتنفيذ ما جاء في كتاب Remonstrance الذي نشر ١٦١٠ وتم تجريد أتباع أرمينيوس من مناصبهم. ولم يتوقف اضطهاد الأرمينيين إلا في عام ١٦٢٥. كان للأرمينية تأثيرها الكبير على جانب من الكنيسة الانجليكانية في القرن السابع عشر، وعلى حركة المثوديست في القرن الثامن عشر وعلى حركة جيش الخلاص.

جاء يوحنا كوسيوس John Coeccius (١٦٠٣-٦٩) وهو دارس مقتدر للكتاب المقدس في هولندا، ليبلور فكرة أن عهد الأعمال الذي قطعه الله مع أدم تم استبداله بعهد النعمة الجديد في المسيح. وهذه الفكرة ما زالت موجودة في أوساط الكنائس المسيحية المصلحة، والكنيسة الهولندية المصلحة. بعد ذلك بفترة كبيرة أسس إبراهام كويبر Abraham Kuyper (١٨٣٧-١٩٢٠) جامعة امستردام المستقلة واستخدمها لنشر الكالفينية.

## اقتراحات للقراءة

تشمل الأعمال العامة المدونة في نهاية الفصل السادس والعشرين، أقساماً مفيدة فيما يختص بتطور حركة الإصلاح في القرون التي نوقشت في الفصل السابق

*Bangs, Carl.* Arminuis. *Nashville: Abingdon, 1971. This is a well-documented biography that includes the ideas of Arminius.*

*Brown, Peter H.* John Knox. *2 vols. London: Black, 1895. This is an old but still helpful work.*

*Burleigh, J.H.S.* A Church History of Scotland. *Oxford: Oxford University Press, 1960.*

*Caillet, Emile.* Pascal. *Philadelphia: Westminster, 1945. The author has ably presented the work and contributions of Pascal.*

*Classen, Claus Peter.* The Palatinate in European History, 1559-1660. *Oxford: Blackwell, 1963.*

*Cowan, Henry.* John Knox. *New York: Putnam, 1905. This biography gives an excellent account of the life and work of John Knox.*

*De Jong, Peter Y., ed.* Crisis in the Reformed Churches. *Grand Rapids: Reformed*





*Fellowship, 1968. This contains helpful data on the Synod of Dort.*

*ickinson, William C.* A New History of Scotland. *London: Nelson, 1962.*

___ *et al., eds.* A Source Book of Scottish History. *London: Nelson, 1962.*

*naldson, Gordon.* The Scottish Reformation. *Cambridge: Cambridge University Press, 1960.*

*ox, John.* History of the Reformation in Scotland. *2 vols. Edited by William C. Dickinson. New York: Philosophical Library, 1950. This is an interesting firsthand account.*

*cGregor, Geddes.* The Thundering Scot: A Portrait of John Knox. *Philadelphia: Westminster, 1957.*

*wick, A.M.* The Story of the Scottish Reformation. *Grand Rapids: Eerdmans, 1960.*

*ey, John.* John Knox. *New York: Oxford University Press, 1968. This is about the best, well-documented introduction to the life of Knox.*

*e, O.J.A.* The Days of the Upright. *New York: Potter, 1965. This gives the Huguenot tory.*

*nes, Ethel.* The Story of Port Royal. *London: Murray, 1907.*

*)tto.* The Huguenots. *New York: Fischer, 1942.*

الفصل الثلاثون

# الإصلاح والحركة البيروتانية (التطهيرية) في انجلترا

أفرز الإصلاح البروتستانتي الاتجاهات اللوثرية وحركة إعادة المعمودية، وإصلاح مفاهيم الإيمان المسيحي . أما الاتجاه الرابع والذي يعتبر الأكثر أهمية بالنسبة للولايات المتحدة وانجلترا ودول الكومنولث، فهو الإصلاح الأنجليكاني (الأسقفي) Anglican Reformation في انجلترا. وهو يشبه الحركة اللوثرية في اتجاهه المحافظ للإصلاح. ولأن الإصلاح في انجلترا لم تبرز فيه قيادة كنسية معينة مثل لوثر Luther وكالفن فقد سيطر عليه الحاكم الذي أصبح هو نفسه رأساً للكنيسة الوطنية. لذلك فقد بدأ الإصلاح في انجلترا على أنه حركة سياسية علمانية، ثم ما لبث أن أصبح حركة دينية، وختم بالاستقرار في عهد إليزابيث في أواسط القرن السادس عشر. ولقد انتشرت أفكار الإصلاح الإنجليزي في كل أنحاء العالم بسبب امتداد نفوذ الاستعمار البريطاني.

## ١- إصلاح الكنيسة في انجلترا
## Reformation in England

### أ- أسباب الإصلاح في انجلترا

لم يتم أبداً القضاء على حركة اللولاردز Lollards، والتي تكونت لنشر تعاليم جون ويكليف John Wycliffe بل بالعكس انتقلت تعاليمهم وانتشرت في بيوت البسطاء في انجلترا بواسطة حركة دينية سرية خلال القرن الخامس عشر. وقد انتعش تأكيد هذه الحركة على سلطان الكتاب المقدس وعلى الحاجة للعلاقة الشخصية مع المسيح، مع تصاعد الإصلاح السياسي في انجلترا في الربع الأول من القرن السادس عشر.

ولابد أن نتذكر أن الملوك من أسرة تيودور التي حكمت انجلترا في الفترة ما بين ١٤٨٥-١٦٠٣ نجحوا في تأسيس دولة قومية، يستطيع فيها الملك الحاكم -مدعوماً بجيشه القوي وبنظام إداري متكامل- أن يوفر للطبقة الوسطى المتنامية ما تحتاجه من أمن ونظام لإنجاز أعمالهم التجارية والصناعية. وفي مقابل ذلك، قبلت الطبقة الوسطى بعض الضوابط على حريتها وتعاونت مع الحاكم الذي استعان بها بدوره في الحكومة. كانت طبقة النبلاء الإقطاعيين القديمة قد اختفت من الحياة العملية في عام ١٤٨٥ لأنها انتحرت كطبقة من خلال "حروب الورود" Wars of the Roses. كان الملك والطبقة الوسطى على وفاق في هدفهم الواحد بأن يعم الرخاء البلاد. ونتيجة لذلك ارتفع مد الشعور الوطني الذي قدم الدعم للحاكم في جهوده لفصل الكنيسة الإنجليزية عن البابوية. كانت سيطرة كنيسة روما على مساحات كبيرة من

الأراضي في انجلترا، والضرائب البابوية، والتي ساهمت في استنزاف موارد انجلترا لصالح روما. هذا إلى جانب المحاكم الكنسية التي نافست القضاء التابع للملك. هذه كلها أنتجت غضباً شديداً لدى الملك ورعاياه أيضاً. ودفعت مثل هذه المشاكل الأمة الإنجليزية إلى تأييد هنري الثامن Henry 8th عندما قرر الانفصال عن كنيسة روما.

ولا ينبغي أن نتجاهل العامل الفكري. فقد بدأ الإنسانيون الكتابيون أو مصلحو أوكسفورد (في جامعة أكسفورد)- مثل جون كوليت John Colet (١٤٦٦-١٥١٩ تقريباً) الذي كان نائباً لمطران كنيسة القديس بولس- بدأوا عند بداية القرن السادس عشر في دراسة الكتاب المقدس في لغاته الأصلية من خلال العهد الجديد باللغة اليونانية الذي نشره إرازموس Erasmus ليشرحوا معاني الكتاب المقدس للشعب. وكان لهؤلاء الكتابيين نظرة ناقدة جداً لما لاحظوه من تقصيرات في الكنيسة الكاثوليكية التابعة لروما، وكانوا يتوقون لإحداث نوع من الإصلاح. وليم تندال William Tyndale (١٤٩٤-١٥٣٦ تقريباً) ومعه مايلز كوفرديل Miles Coverdale، وهما اللذان عملا في وقت لاحق على إتاحة الحصول على كلمة الله للشعب الإنجليزي باللغة الإنجليزية، وقد كانا من المصلحين أيضاً. نشر تندال إصدارين من العهد الجديد وبلغ عدد كل منهما ثلاثة آلاف نسخة وتم توزيعها في انجلترا بواسطة بعض التجار المتعاطفين. ومع أن تندال قد استشهد بالقرب من بروكسل في عام ١٥٣٦، إلا أن عمله بقي حياً ليساعد على تحريك واستثارة الإصلاح الديني في انجلترا. أما مايلز كوفرديل فقد أصدر أول كتاب مقدس كامل باللغة الإنجليزية في عام ١٥٣٥. ولعل الدارس لحركة الإصلاح يتعجب من الارتباط الوثيق ما بين حركة الإصلاح وترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات التي يتحدث بها الشعب.

وكانت كتابات لوثر Luther أيضاً منتشرة انتشاراً واسعاً في انجلترا. فقد عكف الدارسون في أوكسفورد وكامبريدج على دراسة كتاب "السبي البابلي" Babylonian Captivity بشغف كبير وذلك لما تضمنه من نقد لتجاوزات الكنيسة الكاثوليكية التابعة لروما. وفي عام ١٥٢١ هاجم هنري الثامن هذا الكتاب في مؤلف تافه اسماه "الدفاع عن أسرار الكنيسة السبعة"[١] فما كان من البابا تقديراً لجهوده إلا أن خلع عليه لقب "حامي الإيمان". وقد استخدم حكام انجلترا البروتستانت هذا اللقب منذ ذلك الحين وحتى يومنا الحاضر. ولم يؤد حرق مؤلفات لوثر في الميادين العامة إلى وقف انتشار أفكاره، بل إن رجال مثل تندال وتوماس كرانمر Thomas Cranmer جذبتهم أفكار البروتستانت.

لم تكن العلاقة الغرامية التي ارتبط بها هنري الثامن، سعياً وراء ولادة وريث شرعي للعرش، هي السبب المباشر لحدوث الإصلاح الأنجليكاني Anglican Reformation فقد وضح أن هنري الثامن وزوجته كاثرين لا يمكنهما إنجاب ولد، ولكي يحصل على الطلاق منها والحق في الزواج من أن بولين Anne Boleyn التي كان يحبها، كان عليه أن يخضع الكنيسة الكاثوليكية في انجلترا تحت سلطانه المباشر. وقد مثلت تصرفات هنري في هذا الأمر الدافع والسبب الشخصي المباشر في بداية حركة الإصلاح.





### ب- الإصلاح الكنسي بقيادة هنري الثامن (١٥٠٩-٤٧)

كان هنري الثامن Henry 8th، الذي حكم انجلترا ما بين ١٥٠٩-١٥٤٧، أميراً وسيماً كريماً مثقفاً، وكان على دراية بالعلوم اللاهوتية، وذا مهارات موسيقية جيدة، وكان يستطيع أن يتكلم اللاتينية والفرنسية والأسبانية إلى جانب اللغة الإنجليزية. وكان يهوى الصيد ورمي القوس والتنس وقد ساعدت الرياضة على جعله محبوباً بين أفراد الشعب الإنجليزي أكثر مما كان أبوه هنري السابع Henry 7th الذي اشتهر بالبخل. اهتم أبوه بأن يربط عائلته الملكية بعائلات أوربا الملكية ذات النفوذ والأهمية وذلك بتدبير عدد من الزيجات الاستراتيجية. فقد تزوجت ابنته مرجريت من جيمس ملك اسكتلندا (وقد صار حفيدها جيمس السادس ملك اسكتلندا، ملكاً لإنجلترا تحت اسم جيمس الأول James 1st في ١٦٠٣). أما ابنه أرثر Arthur فكان متزوجاً من أميرة أسبانية تدعى كاثرين أوف أراجون Catherine of Aragon. ولكن عندما مات ارثر، خاف الملك البخيل أن يخسر أملاك كاثرين، فسعى لاقناع البابا جوليوس الثاني Julius 2nd بأن يصدر تصريحاً بأن تتزوج كاثرين من هنري الأخ الأصغر لزوجها أرثر وذلك في عام ١٥٠٣. وقد رزق هنري وكاثرين بابنة واحدة وهي التي حكمت انجلترا فيما بعد باسم ماري تيودور Mary Tudor.

وعندما بات واضحاً أنه لن يتمكن من إنجاب ولد من كاثرين، قلق هنري لأنه كان يرى أن انجلترا لابد ستحتاج لرجل يحكمها بعد موته يستطيع أن يرعى ويحفظ هذه البلاد في وسط القلاقل الدولية. وفكر أيضاً أنه ربما كان عقم زوجته عقاباً من الله لأنه تزوج من أرملة أخيه، وهو أمر يحرمه قانون الكنيسة والكتاب المقدس في لاويين ٢٠:٢١. ولأنه وقع في غرام آن بولين Anne Boleyn الفتاة الجميلة، أمر هنري مستشاره الكاردينال ولسي Wolsey أن يتفاوض مع البابا كليمنت السابع Clement 7th للحصول على الطلاق من كاثرين. ولم يستطع كليمنت السابع أن يمنحه هذا الطلب لأنه كان في عام ١٥٢٧ تحت سيطرة ابن اخت كاثرين، الملك القوي تشارلز الخامس Charles 5th ملك أسبانيا وإمبراطور ألمانيا. اتهم هنري مستشاره ولسي بالخيانة العظمى عندما فشل في الحصول على الطلاق المنشود، لكن ولسي توفي قبل تنفيذ حكم الإعدام فيه.

أصبح توماس كروميل Thomas Cromwell رئيساً لوزراء هنري الثامن. في ١٥٣٢ تم تنصيب توماس كرانمر Thomas Cranmer البروتستانتي (١٤٨٩-١٥٥٦) رئيساً لأساقفة كانتربري. ولأنه صار واضحاً أن البابا لن يمنح هنري الطلاق الذي كان يريده، قرر هنري أن يحصل عليه من خلال رجال الكنيسة في انجلترا حيث يمكنه إرغامهم على منحه إياه من خلال البرلمان. كان البرلمان الذي أنشأته أسرة تيودور ممثلاً للشعب لكنه كان مسئولاً أمام الملك وليس أمام الشعب لأن أفراد أسرة تيودور كانوا يحكمون حكماً ديكتاتورياً مطلقاً، مع أنهم يخبئون قبضتهم الحديدية في قفاز من قطيفة. لذا فإن الإصلاح بدأ في انجلترا من خلال السلطات المدنية المتمثلة في الملك والبرلمان. وقد ألغى البرلمان الذي بدأ الإصلاح السيطرة البابوية ونظام الرهبنة.

وفي عام ١٥٣١ اتهم هنري رجال الكنيسة

*البيان البابوي برفض طلب الطلاق المقدم من هنري الثامن.*

الإنجليز بخرق القانون الذي يمنع الاعتراف بأي شخص يعينه البابا بدون موافقة الحاكم وذلك لأنهم قبلوا تعيين الكاردينال ولسي Wolsey ممثلاً بابوياً، وذلك بالرغم من كون ولسي من أقرب مستشاري هنري لمدة طويلة. وقد ألزمهم هنري بقبوله هو شخصياً رئيساً لكنيسة انجلترا "بقدر ما يسمح قانون المسيح". بل وفرض عليهم غرامة قدرها ١١٨ ألف جنيه ثم عاد وفرض عليهم غرامة أخرى في عام ١٥٣٢ وأجبر رجال الكنيسة المجتمعين في المحفل القومي للكنيسة الكاثوليكية في انجلترا، أجبرهم على الموافقة على وثيقة اسمها "خضوع رجال الكنيسة" بأنهم لن يطبقوا أي مرسوم بابوي في انجلترا بدون موافقة الملك الإنجليزي عليه. فقبل رجال الكنيسة بذلك أن يصبح هنري رئيساً عليهم،(٢) وتم إعلان بطلان زواجه من كاثرين Catherine في عام ١٥٣٣ حيث قام كرانمر Cranmer بإعلان ذلك في صحن كنيسته. وقد تزوج هنري من أن بولين في نفس ذلك العام. ثم ما لبث هنري أن لجأ إلى البرلمان طلباً للمساندة والعون. فأصدر له البرلمان قانوناً يمنع إقامة رجال الكنيسة الإنجليز خارج البلاد. ثم أصدر قراراً آخر يمنع توريد أو دفع الضريبة السنوية للبابا. ومنع البرلمان رفع أي استئنافات للأحكام من محاكم الكنيسة في انجلترا إلى المحاكم البابوية في روما.(٣) إلا أن أكثر الخطوات أهمية في عملية انفصال كنيسة انجلترا عن البابوية تم اتخاذها في إقرار قانون السيادة في عام ١٥٣٤ حيث أعلن هذا القانون أن الملك "هو الرئيس الأعلى للكنيسة في انجلترا".(٤) وقد وضع ذلك الأساس للانفصال السياسي عن روما. ثم أقر البرلمان في نفس ذلك العام قانوناً آخر عُرف باسم قانون الخلافة على العرش وهو الذي أعطى حق وراثة العرش لأبناء هنري من آن. وكان على أفراد الرعية القسم باتباع الدستور ورفض السلطان البابوي. وعندما رفض توماس مور Thomas More في موقفه الشجاع الارتباط بهذا القسم تم إعدامه. وكان هنري هو رئيس الكنيسة في انجلترا في ذلك الوقت.

من الواضح أن هنري كان يعتقد أنه لن يتحقق استقرار الأوضاع بصفة نهائية ما لم ينجح في ربط الطبقة الوسطى في انجلترا بالتغيرات التي أجراها، وذلك بإعطاء أفراد هذه الطبقة مصالح اقتصادية مرتبطة بالتغيرات. كان هو شخصياً يطمع في الاستيلاء على أملاك الكنيسة الكاثوليكية التابعة لروما في انجلترا، وجعل كرومويل Cromwell يعمل على جمع الأدلة على انحرافات بعض الرهبان، وكان بعض هذه الأدلة حقيقياً. وفي عام ١٥٣٦ أصدر البرلمان الانجليزي أمره بإغلاق كافة الأديرة التي يقل دخلها السنوي عن مائتي جنيه. فأغلق نتيجة لذلك ٣٧٦ ديراً وتم ضم أملاكها





لأملاك التاج بعد الاستيلاء عليها. وفي عام ١٥٣٩ تم اغلاق ١٥٠ ديراً أخرى بقرار آخر من البرلمان. واختفى ٢٨ رئيس دير من مجلس اللوردات. واستبقى الملك لنفسه جزءاً من تلك الأراضي والثروات ووزع الباقي أو باعه بارخص الأثمان لأفراد من الطبقة الوسطى. فأصبح أولئك الناس الذين اشتروا هذه الأراضي يكونون طبقة جديدة من النبلاء المؤيدين للتغيرات الكنسية التي أجراها هنري Henry بمساندة ومساعدة البرلمان. وقد حقق هنري دخلاً سنوياً من إيرادات هذه الأراضي يبلغ مائة الف جنيه تقريباً. وحيث أن الرهبان المخلوعين كانوا يحتاجون لمن يعتني بهم، بدأت الدولة ولأول مرة في المشاركة في أعمال الإعالة بمنح مساعدة لبعض هؤلاء الرهبان.

وكان تمرير "البنود الستة" في البرلمان في عام ١٥٣٩ دليلاً على أن هنري نجح فقط في كسر العلاقات التنظيمية الكنسية بين كنيسة انجلترا وكنيسة روما. وقد أعادت هذه البنود الستة التاكيد على الاستحالة، والتناول بعنصر واحد والبتولية والاعتراف الكنسي.(٥) فمن الناحية اللاهوتية ظلت كنيسة انجلترا على ولائها تجاه كنيسة روما. وقدم هنري تنازلات للإصلاح في عام ١٥٣٦ وذلك باصدار البنود العشرة ويمنحه التصريح باصدار ترجمة انجليزية للكتاب المقدس. وقد صدرت هذه النسخة من الكتاب المقدس في عام ١٥٣٩ كنسخة منقحة لمجهودات تندال Tyndale وكوفرديل Coverdale. وكتب كرانمر Cranmer مقدمة هذه النسخة. وقد اشتهر هذا الاصدار للكتاب المقدس باسم "الكتاب المقدس المقيد" وذلك لأنها كانت تثبت بسلاسل على المنابر في كثير من الكنائس. وعندما زال خطر الغزو الأجنبي، أعاد هنري العمل بالبنود الستة التي كان البرلمان قد أصدرها وذلك في عام ١٥٣٩. وفي ذات الوقت ملّ هنري وتعب من أن بولين Anne Boleyn، ولا سيما أن الطفل الذي رزقا به لم يكن ولداً بل بنتاً، حيث أسمياها اليزابيث Elizabeth. وفي عام ١٥٣٦ قدمت أن للمحاكمة وتم إعدامها بتهمة الزنا. ثم تزوج هنري من جين سيمور Jane Seymour والتي أنجبت له الابن الذي كان يريده قبل وفاتها. وبعد فترة أخرى تزوج هنري من أن اوف كليفز Anne of Cleves التي ما لبث أن طلقها. ثم تزوج من كاثرين هوارد Catherine Howard التي حكم بإعدامها، ثم من كاثرين بار Catherine Parr وهي التي عاشت بعد وفاته.

حرر هنري الكنيسة من البابوية ولكنه وضعها تحت النفوذ الملكي باعتبارها كنيسة وطنية قومية. وقد أوصى هنري في وصيته(٦) بأن يتولى ابنه ادوارد Edward العرش من بعده، وأن تخلفه ماري Mary ابنة كاثرين اوف ارجون Catherine of Aragon ثم تخلف ماري اليزابث ابنة آن بولين. وعندما مات هنري في نهاية الأمر، كانت الكنيسة الإنجليزية قد أصبحت كنيسة وطنية يرأسها الملك، ولكنها كانت ما زالت على عقيدتها الكاثوليكية. إلا أن الكتاب المقدس كان قد أصبح متاحاً للشعب بلغته الخاصة. وكان على ادوارد ابن هنري الثامن أن ينفذ المرحلة البروتستانتية من الإصلاح الذي بدأه هنري كحركة تنظيم كنسي ما بين ١٥٢٧-١٥٤٧.

### ج- الإصلاح البروتستانتي تحت إدوارد السادس Edward 6th

كان ادوارد السادس في التاسعة من عمره عندما

ارتقى العرش، فتعين دوق سومرست Duke of Somerset وكان خاله وصيًا على العرش. وبعد سنتين ونصف خلفه في الوصاية على العرش دوق نورثمبرلاند. كان دوق سومرست متعاطفًا مع الفكر البروتستانتي لذلك فقد شجع الملك الصغير على وضع الأسس والقوانين التي تتيح إجراء التغيرات التي تجعل من الإصلاح في انجلترا Reformation in England إصلاحًا دينيًا ولاهوتيًا. وفي عام ١٥٤٧ أقر البرلمان حق العلمانيين في تناول الكأس أيضًا في العشاء الرباني، وألغى قوانين الخيانة والهرطقة وألغى وثيقة البنود الستة. كما جعل البرلمان زواج الكهنة شرعيًا في ١٥٤٩، وفي عام ١٥٤٧ أصدر البرلمان أمره بتغيير نظام معين كان يسمح بأن يبني شخص كنيسة صغيرة لتلاوة صلوات القداس على روحه.

ومن القرارات الإيجابية التي ساهم دوق سومرست في اتخاذها أن تكون خدمات العبادة في الكنائس بلغة الشعب العادية بدلاً من اللاتينية. وقد أتاح إصدار قانون بتوحيد نظام العبادة في كل الكنائس، استخدام كتاب الصلوات العامة الذي كتبه كرانمر. وقد دعم هذا الكتاب استخدام اللغة الإنجليزية في خدمات الكنيسة، وأيضًا في قراءة الكتاب المقدس وفي مشاركة الجمهور في العبادة. أما الإصدار الثاني من كتاب الصلاة العامة وهي الأكثر قربًا للبروتستانتية فقد صدرت عام ١٥٥٢، وتأثرت بالكالفينية عن طريق بوسر Bucer. وأمرت الكنائس باستخدام هذا الكتاب بقوة القانون الثاني الذي صدر لتوحيد نظام العبادة.[7] وظل كتاب الصلاة العامة بعد إجراء القليل من التعديلات عليه في فترة حكم اليزابيث Elizabeth، هو الكتاب المستخدم في الكنيسة الأنجليكانية حتى يومنا الحاضر. وساهم كرانمر Cranmer في صياغة قانون للإيمان بمشورة لاهوتيين مختلفين مثل جون نوكس John Knox. وما نتج من صياغة ٤٢ بندًا تم اعتماده قانونًا لإيمان الكنيسة الأنجليكانية بقرار ملكي سنة ١٥٥٣. كانت هذه البنود ذات صبغة كالفينية وبالذات في موضوع التعيين السابق والرأي حول التناول. وقد توفى إدوارد السادس بعد التوقيع على هذا القانون.

## د- رد الفعل الكاثوليكي تحت حكم ماري تيودور Mary Tudor

حكمت ماري ابنة هنري الثامن Henry 8th من زوجته كاثرين أوف أرجون Catherine of Aragon في الفترة ما بين ١٥٥٣-١٥٥٨. وقد تزامن حكمها مع تطور الاتجاه المضاد للإصلاح في الكنيسة الكاثوليكية في بلدان القارة الأوربية. ويمكن اعتبار ما حدث في انجلترا أثناء حكم ماري مقابلاً للاتجاه المضاد للإصلاح الذي جرى في أوربا. استرشدت ماري بنصائح وتوجيه الكاردينال ريجنالد بول Reginald Pole وقد كانت هي نفسها كاثوليكية صميمة، وعملت على إجبار البرلمان على إرجاع الممارسات الدينية في انجلترا إلى ما كانت عليه عند موت أبيها في عام ١٥٤٧ والغاء كل التغيرات التي حدثت أثناء حكم إدوارد السادس. وقد وافق البرلمان على اتخاذ الإجراءات اللازمة، ولكنه رفض ارجاع الأراضي التي تم نزع ملكيتها من كنيسة روما أثناء حكم هنري الثامن. وتزوجت ماري من فيليب الثاني ملك أسبانيا Philip 2nd of Spain في ١٥٥٤، ولكن هذا الزواج لم يلق تجاوبًا شعبيًا في انجلترا.

رفض حوالي ٨٠٠ من رجال الكنيسة في







*ظهر هذا الرسم في "كتاب الشهداء" لجون فوكس (الذي نشر قبلاً بعنوان "أعمال وصروح") في سنة ١٥٦٣. وقد كتب في التعليق المصاحب: "الرهبان الفرير والبابويون يطرحون د. كرانمر من فوق المنصة لاجترائه أن يعترف بإيمانه".*

انجلترا قبول تلك التغيرات فتم إبعادهم عن مناصبهم. وأجبروا على الهرب إلى جنيف وإلى فرانكفورت طلبًا للحماية وللنجاة من الموت ومن الاضطهادات التي أوقعتها ماري عليهم. وقد استشهد أكثر من ثلثمائة شخص، معظمهم من المناطق التجارية في جنوب شرق انجلترا، بسبب إيمانهم، وأبرز هؤلاء هم لاتيمر Latimer، ريدلي Ridley وكرانمر Cranmer. وقد شجع لاتيمر صديقه ريدلي وهم ينتظرون الإعدام حرقًا بقوله إن حرقهم سوف يضيء شمعة في انجلترا ستظل مشتعلة بنعمة الله ولن يستطيع أحد أن يطفئها أبدًا. أما كرانمر فقد أعلن خضوعه في أول الأمر لكنه بعد ذلك تراجع عن هذا الخضوع، وعندما اقتيد للإعدام حرقًا في النار، صمم على أن يضع يده التي وقعت على إعلان خضوعه في النار أولاً حتى احترقت. وكان لموت هؤلاء الشهداء الشجعان أثرًا عجيبًا في دعم قضية الإصلاح البروتستانتي في انجلترا. فقد اقتنع الشعب الإنجليزي بأن آراء هؤلاء الشهداء كانت على حق عندما رأى شجاعتهم وإخلاص اقتناعهم بما يؤمنون به. وقد سجل فوكس Foxe في كتابه عن الشهداء (١٥٦٣) تصويرًا بشعًا لكل هذه الاضطهادات مما أثار التعاطف مع البروتستانت. وكانت أكبر الأخطاء التي ارتكبتها ماري Mary هي زواجها من ملك أسبانيا، واستعادة سلطة البابا في انجلترا، وارتكاب فظائع الاضطهادات. فإن الإنجليز لا يعجبهم التطرف أبدًا وقد عارض بعضهم ما وصلت إليه ماري من تطرف في كاثوليكيتها مثلما عارض آخرون التطرف البروتستانتي الذي مثلته التغيرات التي جرت في حكم إدوارد السادس Edward 6th. كان الطريق ممهدًا أمام استقرار قائم على الحلول الوسط والمهادنة عندما ارتقت إليزابيث عرش انجلترا.

## هـ- تحقق الاستقرار تحت حكم إليزابيث

عندما ارتقت إليزابيث Elizabeth العرش وهي في الخامسة والعشرين من عمرها، واجهت العديد من المشاكل. كان لماري ستوارت Mary Stuart حق في المطالبة بالعرش، وكانت أسبانيا على استعداد للتدخل لدعم مطالبة فيليب Philip بعرش انجلترا بصفته زوجًا للملكة المتوفاة ماري تيودور Mary Tudor. بل وكانت انجلترا نفسها منقسمة بين الكاثوليكية والبروتستانتية. لم يكن أمام إليزابيث من اختيار إلا أن تصبح من البروتستانت وذلك لأن رجال الكنيسة من الكاثوليك ما كانوا ليقروا بشرعية زواج والديها، ولكنها لم ترغب في اتخاذ مخاطرة الصراع المباشر مع القوى المؤيدة للبابا. ولهذا السبب فضلت إليزابيث أن تسلك المنهاج الذي يمكن أن يكون مقبولاً من غالبية شعب

انجلترا، الذي يفضل استقراراً معتدلاً في الأمور الدينية يتجنب التطرف بكل أشكاله.

عند إشعال النيران صرخ لاتيمر "استرح ياريدلي، وتصرف بشيمة الرجال. فاليوم سنضيئ في انجلترا بنعمة الله شمعة لن تنطفئ نورها أبداً".

جعلت إليزابيث البرلمان يقر قانوناً جديداً للسيادة في عام ١٥٥٩،[٨] حيث جعل هذا القانون الملكة "الحاكم الأعلى لهذه البلاد" في الأمور الروحية والكنسية كما في الأمور الدنيوية أيضاً. وكان هذا اللقب الجديد أقل في تأثيره من مقولة "الرئيس الأعلى للكنيسة" التي أصرَّ عليها هنري الثامن Henry 8th، وذلك لأنه بينما تعطى الملكة السلطة الإدارية إلا أنها توصي أن الشئون الخاصة بالعقيدة والأخلاق يجب أن تحسمها كنيسة انجلترا.

ثم جاء قانون توحيد نظام العبادة[٩] ليقرر استخدام كتاب الصلاة العامة الذي صدر في ١٥٥٢ بعد إجراء بعض التعديلات الطفيفة عليه. وفرضت غرامة قدرها شلناً واحداً عقوبة على الغياب عن حضور الكنيسة. وتمت مراجعة البنود الاثنين والأربعين التي تضمنها قانون الإيمان حيث تم حذف البنود التي تدين المعارضين من حركة إعادة المعمودية والألفيين، وتم إعادة صياغة البعض الآخر حتى انتهى الأمر بتسع وثلاثين بنداً Thirty Nine Articles. واعتمد البرلمان هذه البنود الـ٣٩ في عام ١٥٦٣ لتصبح قانون الإيمان للكنيسة الانجليكانية،[١٠] واصبح مطلوباً من كل الرعاة الالتزام به. وظل هذا القانون للإيمان بعد اجراء تعديلات طفيفة عليه في ١٥٧١، هو قانون الإيمان المعتمد للكنيسة الانجليكانية منذ ذلك الحين.

أثارت هذه الخطوات التي اتخذتها اليزابيث بكل الاعتدال الذي امتازت به حفيظة البابا وعداوته، وفي عام ١٥٧٠ أصدر البابا بيوس الخامس Pope Pius 5th قراراً بابوياً بحرمان اليزابيث وإعفاء رعاياها من واجب الولاء لها.[١١] فردت اليزابيث Elizabeth الضربة بعمل عدائي وجهته ضد الجيزويت الذين كانوا يخططون لاستعادة انجلترا للنفوذ البابوي. كانت هناك كلية للاهوت أسسها في فلاندرز في بلدة Douai شخص اسمه وليم ألن William Allen في عام ١٥٦٨، حيث كان الجيزويت يدربون العاملين بهدف إرسالهم سراً إلى انجلترا لرعاية الانجليز الذين مازالوا يتبعون البابا. فأعدمت اليزابيث حوالي ١٢٥ من الرهبان الجيزويت في انجلترا. فما كان من البابا إلا أن سعى لتجنيد إمكانات فيليب ملك أسبانيا Philip of Spain لاستعادة انجلترا تحت النفوذ البابوي. وقد سر فيليب جداً بالقيام بهذا الدور لأنه كان ابناً باراً لكنيسة روما وأيضاً لأنه كان يعرف أن اليزابيث كانت تدعم سراً رعاياه المتمردين في هولندا. وفي عام ١٥٨٨ جمع فيليب أسطولاً هائلاً عرف باسم "الأرمادا الأسبانية" Spanish Armada وأبحر نحو انجلترا. إلا أن هذا الأسطول العظيم تلقى هزيمة ساحقة من الأسطول الإنجليزي الذي كان يتألف من سفن أصغر حجماً



تطور الحركة البروتستانتية في انجلترا

الكنيسة الكاثوليكية في روما
١٥٦٧ الكنيسة ١٥٣٤ الأنجليكانية
الأرمينيون
الكنيسة الرسمية
التطهريون والإنفصاليون
الكنائس الإنجيلية الشعبية
الأنجليكانيون
خليج ماساشوتس ١٦٢٩
أصبحوا جمهوريين
الجمهورية في أمريكا
١٥٨٧ جون جرينود هنري بارو فرانسيس جونسون
سكروبي ١٦٠٦
جون روبنسون – ١٦٢٠
بليموث
لايدين – ١٦٠٩
جينزبورو ١٦٠٦ جون سميث
في أمستردام – ١٦٠٦
توماس هيلويز وجون مورتون – ١٦١٢
المعمدانيون العموميون (أرمينيون)
أمستردام ١٥٩٥ "الكنيسة الأثرية"
روبرت براون ١٥٨١ نورويتش
هنري جاكوب في ليدين ١٦٠٦ إلى ١٦١٦
١٥٦٧ توماس كارترايت المشيخية
المعمدانيون المحدودون (كالفينيون)
جون سبيلزبوري – ١٦٣٣
الجمهورية – الإنجليزية
العودة إلى انجلترا – ١٦١٦
المستقلون
المشيخية الإنجليزية
مجمع وستمنستر ١٦٥٢ – ١٦٤٣
إعلان سافوي – ١٦٥٨

وأكثر قدرة على المناورة تقودها أطقم من البحارة المحنكين. وكان لهذا الانتصار دوره في تأكيد مكانة انجلترا في زيادة حركة البروتستانت في أوربا، وأنهى آخر آمال البابا في استعادة نفوذه أو نفوذ الكنيسة الكاثوليكية في انجلترا.

قدم الإصلاح الكتاب المقدس إلى الشعب الانجليزي بلغته الخاصة. وأصبحت انجلترا زعيمة الحركة البروتستانتية في أوربا ودعمت الكالفينيين البروتستانت في هولندا وفرنسا ضد حكامهم من الكاثوليك. استقرت أوضاع الكنيسة التابعة للدولة وتزايدت حدة المرارة في قلوب الأيرلنديين تجاه انجلترا لأن ايرلندا بقيت على ولائها للبابا. وقد ساهمت ثورة وتمرد قام به الأيرلنديون في نهاية حكم إليزابيث Elizabeth إلى استنزاف مواردها المالية إلى آخر حد. وأدى بيع الأراضي التي انتزعت ملكيتها من كنيسة روما إلى الطبقة الوسطى إلى خلق فئة جديدة من نبلاء أسرة تيودور. أما رؤساء الأديرة الذين فقدوا أديرتهم فلم يعد لهم مكان في مجلس اللوردات. وأدى الاحتياج إلى وجود مؤسسة جديدة تقوم بدور الكنيسة في أعمال الخير والعمل الاجتماعي، إلى امتداد نشاط الدولة في هذه المجالات. وضع الاستقرار الذي حققته إليزابيث انجلترا على طريقها لتكون إمبراطورية عظمى، إلا أن هذا الطريق لم يكن سهلاً أبداً أو بدون مشاكل وتركت هزيمة أسبانيا والبابا الحرية الكاملة للحكام الإنجليز للتركيز على مشكلة التطهرية (البيوريتان). فمن عام ١٥٦٧ إلى ١٦٦٠ كان التطهريون قوة سائدة في كل شئون انجلترا الداخلية. فقد كان سعيهم موجهاً إلى تغيير الكنيسة الأنجليكانية وليس التخلص منها.

## ٢- التطهوريون (البيوريتان) والمستقلون

### أ- التطهوريون

لم يحقق الانتصار على البابوية الراحة المنشودة بالنسبة للملكة إليزابيث وذلك بسبب القوة النامية التي ظهرت مع الحركة التطهرية، حيث كانت تمثل تهديداً بتغيير النظام الأسقفي من كنيسة تابعة للدولة إلى كنيسة مشيخية أو مستقلة. كان التطهريون يعترضون على تعلق الكنيسة الانجليكانية الكثير من الأشكال المرتبطة بالنظام البابوي. وكانت دعوتهم لتطهير الكنيسة الأسقفية في انجلترا لتكون أكثر توافقاً مع الكتاب المقدس الذي قبلوه دستوراً معصوماً للإيمان والأعمال. وهذا هو السبب في إطلاق لقب "التطهريون" عليهم بعد عام ١٥٦٠. وحتى عام ١٥٧٠ كانت اعتراضاتهم الرئيسية موجهة ضد الاستمرار في استخدام الملابس والطقوس المرتبطة بالنظام البابوي في نظم العبادة في الكنيسة الأنجليكانية. فعارضوا الاحتفال بأعياد القديسين، والحل الكهنوتي للخطاة ورشم علامة الصليب، وعادة تعيين أب روحي للطفل عند معموديته(إشبين)، وعادة الركوع عند التناول، وارتداء الخادم رداء الكهنوت فوق ملابسه. وكان لهم موقف متشدد من عدم حفظ الأنجليكان ليوم الأحد. فقد اتبعوا تفسيرات وليم أيمز William Ames (١٥٧٦-١٦٣٣) ووليم بيركنز William Perkins لآراء كالفن. وأصبحت كامبريدج هي المركز الجامعي الذي بلغ فيه تأثير التطهريين أقصى مدى له.

استمرت التطهرية Puritanism في النمو واكتسبت تأييد الكثير من المحامين، والتجار وأعيان





الريف. وبعد زوال الخطر من جهة البابا، أصدرت اليزابيث Elizabeth قانوناً ضد التطهريين في عام ١٥٩٣.[١٢] وقد أعطى هذا القانون الحق للسلطات لحبس التطهريين بتهمة عدم حضور الكنيسة الأنجليكانية. وينبغي أن نتذكر أن التطهريين لم يكونوا خارج الكنيسة بل كانوا حزباً داخل الكنيسة الانجليكانية يطالبون إما بالنظام المشيخي كما كان الحال مع كارترايت وأتباعه، او بكنيسة دولة يحكمها الشعب كما في حالة جاكوب وأتباعه. وقد نظمت جماعة جاكوب Jacob نفسها لتصبح جماعة التطهريين الذين عرفوا بالاستقلاليين. ويجب أن نفرق بين الاستقلاليين والانفصاليين الذين طالبوا بانفصال الكنيسة عن الدولة وبالنظام المستقل في إدارة الكنيسة. وقد استمرت كلتا الجماعتين في تزايد قوتهما برغم معارضة الحاكم ومقاومته لهم واستمروا أيضاً في تقديم النقد البناء لكنيسة انجلترا. كانوا يدينون التبرج في المظهر، والتسيب في حفظ يوم الأحد للعبادة وتناقص الشعور بالخطية. وترجع جذور حركات المنشقين الانجليز والكنائس الجمهورية Congregationalism في نيوانجلند إلى الحركة التطهرية.

قبل موته بسنوات قليلة كتب رتشارد هوكر Richard Hooker (١٥٥٤-١٦٠٠ تقريباً) كتابه "بحث في قوانين السياسات الكنسية" Treatise of the Laws of Ecclesiastical Polity في محاولة لمواجهة تهديد التطهريين لكنيسة الدولة، وكان الكتاب ذا صبغة فلسفية. قال هوكر إن القانون الذي وضعه الله ويمكن اكتشافه بالمنطق العقلي والطاعة للحاكم الذي يحكم بموافقة الشعب وبالتزامه بالدستور والقانون أمر ضروري لأن الحاكم رأس للدولة وللكنيسة معاً. فأعضاء الدولة هم أيضاً أعضاء في كنيسة الدولة وفي كلا المجالين يخضعون للقانون الإلهي. والأساقفة الخاضعون للملك يقومون بالإشراف على كنيسة الدولة. لقي هوكر معارضة بسبب اتجاه التطهريين لفصل الكنيسة عن الدولة وأيضاً لما تدعيه البابوية من السلطة على الدولة. فلا عجب أن اللاهوتيين من التطهريين عارضوا أفكاره لأنهم اعتقدوا أن الشعب الخاضع لله هو مصدر السيادة في الكنيسة.

ظهر توماس كارترايت Thomas Cartwright (١٥٣٥-١٦٠٣) كأستاذ للاهوت في كامبريدج في نحو عام ١٥٧٠، فانتقل بذلك التركيز في مجهودات الحركة التطهرية من السعي إلى إصلاح نظم العبادة إلى إصلاح اللاهوت وأسلوب إدارة الكنيسة. وقد أدَّى إصرار أتباعه على أن الكتاب المقدس هو السلطان النهائي إلى تبني فكراً لاهوتياً كالفينياً مما جعل البنود التسعة والثلاثين Thirty Nine Articles تنحو أكثر للكالفينية. وفي محاضرات القاها كارترايت حول سفر أعمال الرسل في عام ١٥٧٠، عارض وجود نظام الأساقفة في إدارة الكنيسة. وكتب يقول إن إدارة الكنيسة يجب أن تكون تحت سيطرة مجمع من الأساقفة أو الشيوخ ليس له إلا مسئوليات ومهام روحية. كان هذا النظام في أساسه هو النظام الكالفيني لإدارة الكنيسة بواسطة شيوخ ينتخبهم الشعب. وفيما بعد ترجم كارترايت الكتاب الذي كتبه والترترافيرز Walter Travers بعنوان "النظام الكنسي" والذي دعا فيه إلى إقامة مجمع في كل أبروشية للكنيسة. فوضع بذلك أساساً للمشيخية الانجليزية والتي كان لها نفوذ في الفترة ما بين ١٦٤٣-١٦٤٨. وتدين المشيخية الحديثة في انجلترا إلى ما عمله كارترايت في ذلك الوقت. وقد تأسست

أول كنيسة مشيخية في عام ١٥٧٢ في Wandsworth.

إلا أن عدداً من التطهريين الذين لم يتبعوا النمط المشيخي الذي دعا إليه كارترايت تبنوا أفكار هنري جاكوب Henry Jacob (١٥٦٣-١٦٢٤). ويمكن اعتبار جاكوب مؤسس جماعة الاستقلاليين Independents أو التطهريين المستقلين Congregationalists. ولم يمل هؤلاء الاستقلاليون نحو الانفصالية كما فعل أتباع روبرت برون Robert Browne الذي أكد أن عهد تكوين الكنيسة هو الرباط الذي يجمع المسيحيين معاً. وكان جاكوب أحد الموقعين على "طلب الألفيين" Millenary Petition الذي رفعه إلى الملك جيمس الأول James 1st في عام ١٦٠٣، والذي طالبه الموقعون عليه التحول عن النظام الأسقفي السائد في انجلترا. وقد تعرض جاكوب للسجن نتيجة لرأيه في أن يترك لشعب كل كنيسة محلية في كنيسة الدولة حرية اختيار راعيه بنفسه، وتحديد سياسة تلك الكنيسة وإدارة شئونها الداخلية. وقد هاجر جاكوب إلى هولندا سنة ١٦٠٦ تقريباً حيث عمل راعياً للانجليز في بلدة ميديلبورج. أثر جاكوب وتأثر بحياة صديقه جون روبنسون John Robinson الذي كان راعياً لجماعة الاستقلاليين في هولندا والذي هاجر أعضاء كنيسته فيما بعد إلى بلايموث. فقد عاد جاكوب إلى انجلترا في عام ١٦١٦ حيث أصبح راعياً لجماعة المستقلين في ساوث وارك في لندن من ١٦١٦ إلى ١٦٢٢. تمت حركة التطهريين المستقلين في انجلترا ببطء من هذه البداية المتواضعة حتى أصبحت، تحت قيادة اوليفر كرومويل Oliver Cromwell، أقوى من المشيخية. كان كل من كرومويل وميلتون Milton من المستقلين. وفي عام ١٦٥٨ وفي حي سافوي في لندن، اجتمع أتباع جاكوب من المستقلين لصياغة قانون إيمان كلفيني عرف باسم "إعلان سافوي" The Savoy Declaration.(١٣) إن الطوائف المستقلة في انجلترا هي امتداد ترجع جذوره إلى الحركة التطهرية المستقلة وليس إلى الحركة الانفصالية التي قادها روبرت برون.

### ب- التطهريون (البيوريتان) الانفصاليون

إن نقطة الاختلاف الرئيسية بين الطوائف التي تم مناقشتها وهي الأسقفية والمشيخية والتطهرية المستقلة من ناحية وبين التطهريين

- فروع الحركة التطهيرية
  - كنيسة الدولة
    - التطهريون في إطار الكنيسة الأسقفية
    - التطهريون المشيخيون (كارترايت)
    - التطهريون المستقلون (جاكوب)
  - الإنفصاليون (كنائس منفصلة عن الدولة)
    - برون
    - جرينود وبارو
    - سميث وروبنسون





الانفصاليين من ناحية أخرى هي فكرة العهد الذي ألزم الانفصاليون أنفسهم بالولاء للمسيح ولبعضهم البعض بعيداً عن كنيسة الدولة. ويعطي الشكل التوضيحي التالي فكرة عن تطور الجماعات التطهرية المختلفة.

كانت أول جماعة من الانفصاليين الذين أنشأوا كنيسة بناء على عهد بينهم كانت تلك التي نظمها ريتشارد فيتز Richard Fitz حوالي سنة ١٥٦٧. أما روبرت برون (١٥٥٠-١٦٣٣ تقريباً) الذي تخرج من كامبردج في عام ١٥٧٢، فقد نظم جماعة على أساس عهد كنسي في نورويتش في ١٥٨٠ أو ١٥٨١. ومن هناك أجبر على الهرب مع كل جماعته إلى هولندا، حيث كتب ثلاثة أبحاث لشرح مبادئ حركة الانفصالية المستقلة (الشعبية). وكان أهم تلك الأبحاث بعنوان "الإصلاح بدون تأخير" Reformation Without Tarrying for Anie وقد حاور برون في هذا المؤلف الذي كتبه في عام ١٥٨٢ بأن المؤمنين يجب أن يتحدوا بالمسيح وببعضهم البعض بواسطة عهد يدخلون فيه بإرادتهم، كما يجب أن يختار أعضاء الجماعة المسئولين، وأنه لا يجب أن يكون لشعب أي كنيسة محلية سلطان على شعب كنيسة أخرى. وخلافاً للمستقلين فإن الانفصاليين كانوا يرفضون أن تكون لهم أي علاقة بالكنيسة التابعة للدولة. عاد برون إلى انجلترا. وفي عام ١٥٩١ تمت رسامته في الكنيسة الأنجليكانية وخدم فيها حتى موته. إلا أن المبادئ التقدمية التي ساهم في صياغتها وتطويرها استمرت باقية.

ظهرت مبادئ برون التقدمية في سيطرة وحكم شعب الكنيسة المحلية على شئونها مرة أخرى




*يصور هذا الرسم من سنة ١٦٤١ رأي الإنجليكان في جماعات تجديد العماد، (المعمدانين) والبرونين (المستقلون الأوائل)، والأسريين (المعروفين أيضاً بأسرة المحبة) والبابويين (الرومان الكاثوليك). يرى الانجليكان أن أتباع هذه المذاهب قد ألقوا - مثلهم مثل الرومان الكاثوليك - بالكتاب المقدس فوق ملاءة متلاعبين به.*

بصورة معدلة في الكنيسة التي ظهرت في لندن حوالي عام ١٥٨٦ بقيادة جون جرينود John Greenwood وهنري بارو Henry Barrow وقد تم شنقهما بأمر السلطات بسبب آرائهما وذلك في عام ١٥٩٣. وأصبح فرانسيس جونسون Francis Johnson راعياً لهذه الكنيسة التي هاجر أعضاؤها إلى هولندا. وفي عام ١٦٤٠ كان هناك عدة مئات من أتباع بارو في انجلترا.

وظهرت جماعة ثالثة من الانفصاليين Separists في جينزبورو وفي سكروبي في سنة ١٦٠٦. وكان يقود المجموعة التي في سكروبي جون روبنسون John Robinson(١٥٧٥-١٦٢٥ تقريباً)،

وقد قاد هذه الجماعة في نهاية الأمر للاستقرار في ليدين في هولندا في عام ١٦٠٨. وأصبح وليم برادفورد William Bradford (١٥٩٠-١٦٥٧) والذي اشتهر بعد ذلك في بلايموث عضواً في مثل هذه الجماعة. وكان أعضاء هذه الجماعة هم الذين هاجروا إلى أمريكا على متن السفينة ماي فلاور في ١٦٢٠. ومن الجدير بالملاحظة أن هؤلاء المهاجرين طبقوا مبدأ التعاهد على الحياة السياسية وذلك بعقدهم اتفاقية ماي فلاور Mayflower Compact قبل رسو السفينة في بلايموث. وقد هاجرت المجموعة التي كانت في جينزبورو هي الأخرى إلى أمستردام، وبسبب ما تعرضت له من اضطهاد وذلك في عام ١٦٠٦ أو ١٦٠٧ بقيادة جون سميث John Smyth (١٥٦٥-١٦١٢ تقريباً). وفي أمستردام تأثروا بأفكار أتباع مينو. وفي عام ١٦٠٨ أو ١٦٠٩ عمد سميث نفسه وأيضاً توماس هيلويز Thomas Helwys (١٥٥٠-١٦١٦ تقريباً) وأعضاء أخرون من الجماعة وذلك باستخدام أسلوب سكب الماء للمعمودية. وانضم جزء من جماعته إلى جماعة المينونيتس بعد فترة طويلة من المفاوضات.

أما توماس هيلويز وجون مورتون John Murton وأتباعهما فقد عادوا إلى انجلترا حوالي عام ١٦١٢ حيث نظموا أول كنيسة معمدانية Baptist. وقد مارست هذه الجماعة المعمودية بالسكب، وكانت لهم عقيدة أرمنية حيث كانوا قد تأثروا بأفكار أرمنيوس أثناء الجدل والخلاف الذي جرى في هولندا. وقد عُرفت هذه الجماعة باسم "المعمدانيون العموميون" وذلك لأنهم آمنوا بعمومية الكفارة وليس بمحدوديتها. بذلك تكون أول كنيسة معمدانية إنجليزية خرجت من المستقلين الانفصاليين.

أما الجماعة الأقوى من الكالفينيين أو المعمدانيين غير العموميين فقد نشأوا نتيجة الانشقاق عن كنيسة هنري جاكوب Henry Jacob في لندن في ١٦٣٣ و١٦٣٨. وقد تمسكوا بمعمودية المؤمنين بالتغطيس وبفكر لاهوتي كالفيني يؤكد على الكفارة المحدودة. وقد أصبح لهذه الجماعة في عام ١٦٣٨ التأثير الأكبر على الحركة المعمدانية في انجلترا حيث كان يقودها جون سبيلزبري John Spilsbury. وتعود جذور الحركة المعمدانية في أمريكا إلى هذه الجماعة. فبالرغم من أن روجر وليامز Roger Williams لم يكن معمدانياً عندما ذهب إلى أمريكا، لكنه كان قد تشرب مبادئ المعمدانية واستخدمها بمجرد ظهور المقاومة لواعظه بين الكنائس المستقلة. هذا وقد اجتمعت عوامل كثيرة جعلت الانجليز يقفون موقفاً عدائياً من الكاثوليكية ومن هذه العوامل حرائق سمثفيلد، والأرمادا الأسبانية، كتاب فوكس Foxe عن الشهداء ومؤامرة جاي فوكس Guy Fawkes.

### ج- صراع أسرة ستوارت مع التطهريين

ولدت موجات المهجرين المنفيين من انجلترا في عهد ماري تودور Mary Tudor قوى روحية سببت الكثير من الصعوبات لإليزابث Elizabeth في مواجهتها لحركة التطهر لأن هؤلاء المنفيين تعرفوا على الفكر الكالفيني في أوربا - أيضاً ساهم نشر الكتاب المقدس في جنيف في عام ١٥٦٠ إلى تشجيع فكر التطهرية Puritanism التي سببت متاعب غير قليلة لإليزابيث. وعندما أصبح خلفها جيمس السادس James 6th، ملك اسكتلندا، ملكاً لانجلترا باسم جيمس الأول James 1st خلفاً لماري تيودور Mary Tudor ١٦٠٣، تمنى التطهريون أن يعمل هذا الملك الكالفيني، والذي كان





معجباً بالنظام الأسقفي، على إقامة نظام إداري مشيخي لإدارة الكنيسة الأسقفية. ولتأكيد هذا الرجاء قدموا للملك طلباً عرف باسم "المطالب الألفية" The Millienary Petition حيث وقع عليه ما يقرب من ألف خادم من التطهريين وقدموه للملك عند قدومه في عام ١٦٠٣ يطالبون بتنقية نظم العبادة ونظم الإدارة[١٤] في الكنيسة الأنجليكانية لكن ذلك الملك المريض لم يكن الرجل الذي يحتاجه الموقف، فدعي لعقد مؤتمر في هامتون كورت Hampton Court Conference في عام ١٦٠٤. وعندما طالب التطهريون مرة أخرى بالإصلاح، غضب الملك جداً وقال إنه يعزم أن يطردهم من مملكته إذا لم يخضعوا للنظم القائمة، وأما عن مطالبتهم بالنظام المشيخي لإدارة الكنيسة التابعة للدولة فقد كان رأيه أن المشيخية لا تتفق مع الملكية كما لا يوجد اتفاق بين الله والشيطان. أما المطلب الوحيد الذي وافق عليه فهو إصدار ترجمة إنجليزية جديدة للكتاب المقدس، حيث عكفت مجموعة من أربعة وخمسين عالماً ودارساً لاهوتياًعلى بداية العمل في الترجمة الجديدة للكتاب المقدس والتي يعرفها الجميع اليوم باسم الملك جيمس King James. وقد انتهى العمل من هذه الترجمة في عام ١٦١١ حيث حلَّت بالتدريج مكان ترجمة جنيف Genevan Bible التي كان الشعب الأنجلوساكسوني شغوفاً بها.

إلا أن قضايا الخلاف بين جيمس والتطهريين كانت تشمل ما هو أكثر من الخلاف الديني حول النظام المشيخي أو النظام الأسقفي لإدارة الكنيسة التابعة للدولة. فقد طرحت قضية قضائية حول الخلاف أو الصراع بين النظام القضائي العادي الذي يستخدم القانون العام، وبين النظام القضائي الخاص الذي أنشأته أسرة تيودور ليوفر لها السيطرة الكاملة على كافة رعاياها. وبذرت مشكلة أخرى حول من له السيادة العليا الملك أم البرلمان. هل كان الملك، الذي اختاره الله وعينه، مسئولاً أمام الله وحده، أم أن تعيينه ملكاً يأتي بموافقة الشعب ورضاه ممثلاً في البرلمان. ثم كانت هناك المشكلة الاقتصادية حيث برز السؤال حول هل من حق الملك فرض الضرائب الجديدة أم أن هذا الدور يقوم به البرلمان وحده؟ ومن سوء حظ أسرة ستوارت أنه لم تكن لدى جيمس أو خلفائه الثلاثة الذين أتوا من بعده المهارة التي اشتهر بها حكام اسرة تيودور على إخفاء القبضة الحديدية في قفاز الملك الحريري الذي يبدو مؤيداً تأييداً مطلقاً من البرلمان. وفي أثناء حكم إليزابيث Elizabeth وجيمس James كان التطهريون يربحون كثيرين إلى جانبهم من بين تجار المدن وأعيان الريف. وقدتم دفع هذه الجماعات كلها إلى معارضة الحاكم في كل النقاط التي سبق عرضها وكانوا ينتظرون الوقت المناسب للحركةوالعمل.

كان تشارلز الأول Charles 1st الذي حكم من ١٦٢٥ وحتى تم إعدامه في ١٦٤٩ رجلاً شريفاً، شجاعاً، لكنه كان ضعيفاً وكان إيمانه بالارتباط الأزلي بين الحق الإلهي للملك وبين النظام الأسقفي أكثر من إيمان أبيه من قبله. وأصرَّ أيضاً على أن يكون البرلمان خاضعاً له، وعندما فشل في ايجاد مثل هذا البرلمان، حكم بدون برلمان من عام ١٦٢٩ وحتى ١٦٤٠. وقد تعب الكثيرون من التطهريين من سياسات الملك الموالية للكاثوليكية ورغبة منهم في ظروف أفضل هاجروا إلى أمريكا. فقد هاجر إلى أمريكا في الفترة ما بين ١٦٢٨-١٦٤٠ عشرين الف انجليزي على الأقل.




رسم خشبي من كتاب بيوريتاني في سنة ١٦٤١ يهاجم رئيس الأساقفة لود وأساقفته. من اليسار أحد التطهريين ممسكًا بالكتاب المقدس في حين يبدو أسقفًا وقد أمسك أحدهما بكتاب طقوس بشرية والآخر بكتاب خرافات شيطانية.

كان لتعيين تشارلز لوليم لود William Laud (١٥٧٣-١٦٤٥) رئيسًا لأساقفة كانتربري، وهو رجل صغير الجسم ضيق الأفق، أثره في خلق مجموعة من الظروف أدت مع الوقت إلى سقوطه هو نفسه. كان لود متحيزًا للنمطية في النظم الإدارية والفكر اللاهوتي الأرميني وهو ما لم يعجب التطهريين الكالفينيين ولا سيما أنه دأب على تعيين الأرمينيين في أفضل المناصب الكنسية.

وقد أثبتت محاولة لود في فرض كتاب جديد للصلوات العامة على كنيسة اسكتلندا في عام ١٦٣٧ أنها بداية للصراع بين التطهريين وحاكمهم. تمرد الأسكتلنديون ضد هذه المحاولة لتغيير نظام عبادتهم، ونظام إدارة كنائسهم بل وإيمانهم نفسه وذلك تحقيقًا لهدف توحيد شكل الدين بين الدولتين (انجلترا، واسكتلندا). وهذه هي الفترة التي يقال إنها شهدت حوادث مثل ما فعلته جيني جيدز Jenny Gedds الذي يقال إنها قذفت بالمقعد الذي كانت تجلس عليه في وجه القسيس لأنه تجرأ أن يتلو القداس في أذنيها وذلك في الكنيسة التاريخية المعروفة باسم القديس جيلز في أدنبرة. وفي عام ١٦٣٨ وقَّع الشعب الأسكتلندي تعهدًا قوميًا بالدفاع عن المشيخية وأيضًا هاجموا انجلترا لغزوها. حاول تشارلز Charles أن يصد ذلك الغزو ولكنه اضطر في نهاية الأمر أن يدفع لهم مبلغًا من المال. دخل الأسكتلنديون انجلترا مرة أخرى وبقوا في شمالها كتهديد قائم لها. دعى تشارلز لانعقاد البرلمان في عام ١٦٤٠ بهدف الحصول على الأموال التي يحتاجها وعرف هذا البرلمان "بالبرلمان الطويل" لأنه استمر في انعقاده دون استبدالٍ حتى عام ١٦٦٠.

إلا أن هذا البرلمان الطويل، وقبل أن يوافق على اعتماد أي أموال، قضى بسجن أو إعدام مستشاري الملك تشارلز، وألغى كافة المحاكم غير الشرعية، وسيطر بالكامل على الموارد المالية للدولة، ولكنه لم يستطع التوصل إلى اتفاق حول الموضوعات الدينية. كان المعتدلون، الذين أرادوا الاحتفاظ بالنظام الأسقفي، يطلق عليهم اسم الملكيون، وأما التطهريون من أعيان الريف والتجار الذين أرادوا النظام المشيخي أو سيطرة الشعب على الكنائس والعقيدة، فقد أطلق عليهم اسم التطهريين أو ذوي الرؤوس المستديرة. وفي عام ١٦٤٢ انسحب الملكيون من البرلمان بعدما حاول تشارلز دون أن يفلح القبض على خمسة من أعضاء مجلس العموم بتهمة الخيانة، وبدأت الحرب الأهلية التي استمرت حتى عام ١٦٤٦. وحقق التطهريون في البرلمان الطويل نجاحًا في الصراع بسبب ما أبداه اوليفر كرومويل Oliver Cromwell





(١٥٩٩-١٦٥٨) من مهارة عسكرية غير متوقعة. واشتهر فرسانه بتدريبهم وانضباطهم العالي وهم من المتطهرين الأنقياء وعرفوا باسم ذوي القمصان الحديدية، أصبحوا النموذج المثالي الذي يحتذى لتكوين الجيوش المنتصرة. ومع حلول عام ١٦٦٤ أسر البرلمان الملك الذي ما لبث أن هرب من أسره لتستمر الحرب الأهلية في جولة ثانية قصيرة في عام ١٦٤٨، ثم أعدم الملك في ١٦٤٩.

وفي نفس الفترة الغى البرلمان النظام الأسقفي في عام ١٦٤٣ وكلف مجمع وستمنستر Westminister Assembly الذي كان يتألف من ١٥١ من التطهريين الانجليز. ولكي يضمن البرلمان تأييد ومساندة الأسكتلنديين في الحرب، قبل اتفاقية المعاهدة التي عقدت في ١٦٣٨ مما أدى إلى ضم ثمانية اسكتلنديين من المشيخيين لتقديم النصح للبرلمان في أمور عقيدة ونظام إدارة الكنيسة القومية.[١٥] وقد عقد ذلك البرلمان ١١٦٣ جلسة يومية ما بين ١٦٤٣ و ١٦٤٩ وأنجز فيها العمل الحقيقي الذي قام به، بالرغم من أنه لم يكمل أعماله إلا في سنة ١٦٥٢. وتم إعداد دليل العبادة الجديد ليتفق مع النظام المشيخي في ١٦٤٤ وتم قبوله واعتماده في برلمان كل من اسكتلندا وانجلترا في عام ١٦٤٥. أما دستور إدارة الكنيسة والذي صيغ أيضًا لتدعيم النظام المشيخي في إدارة الكنيسة الوطنية فقد تم إعداده عام ١٦٤٥ ليعتمده البرلمان عام ١٦٤٨. أما أهم أعمال هذا المجلس، وهو إقرار الإيمان الوستمنستري The Calnanistic Westminister Confession of Faith، فقد انتهى إعداده في عام ١٦٤٦ واعتمده الأسكتلنديون في عام ١٦٤٧ والإنجليز في ١٦٤٨.[١٦] فأصبحت الكنيسة الإنجليزية الرسمية بذلك كالفينية مشيخية مع عام ١٦٤٨. وقد تم إعداد الشرح المفصل والشرح المختصر لأصول الإيمان في عام ١٦٤٧. فمع إتمام كل هذه الأمور، يكون العمل والدور الحقيقي الذي قام به مجلس العملاء في وستمنستر Westminister Assembly قد استكمل. وتتضمن دساتير الكنائس المشيخية الأمريكية كل الوثائق التي سبق ذكرها.

لم يعط المشيخيون في البرلمان الاهتمام الكافي للجيش الذي كان قد تحولت مشاعره نحو الكنيسة المستقلة فقد كان الجيش قد تعب من رفض المشيخيين دفع المرتبات المتأخرة للجيش وعدم رغبتهم السماح بأي نظام غير المشيخية للكنيسة الرسمية التابعة للدولة. فأمر كرومويل Cromwell الذي كان هو نفسه من المستقلين، أحد قواده ويدعى كولونيل برايد بأن يقود حملة "لتطهير البرلمان" في عام ١٦٤٨. طُرد المشيخون من البرلمان مما ترك البرلمان تحت قيادة فئة قليلة من الاستقلاليين. وبعد تنفيذ الإعدام في الملك تشارلز Charles أنشأ كرومويل الكومنولث وجعل نفسه رئيسًا له. وحلّ بقايا البرلمان في ١٦٥٣ وأنشأ مجلسًا للوصاية، وحكم حتى عام ١٦٥٨ حكمًا ديكتاتوريًا بمساندة الجيش. وكان كرومويل متسامحًا في أمور الدين. وسمح لليهود الذين كانوا قد طُردوا في عام ١٢٩٠ بالعودة إلى البلاد مرة أخرى في عام ١٦٥٦.

وبعد وفاة كرومويل، اتخذ البرلمان الطويل قرارًا بحل نفسه في عام ١٦٦٠. وكان الشعب قد تعب من أسلوب الحياة المتزمت الذي فرضه التطهريون، فدعى تشارلز الثاني Charles 2nd ليكون ملكًا على البلاد وأعاد الشعب النظام

الأسقفي مرة أخرى. وتم إصدار لائحة قوانين صارمة، عُرفت باسم لائحة كلاريندون Clarendon Code،[١٧] وبمقتضى هذه اللائحة تم وضع كل المناصب في الدولة وفي الكنيسة الرسمية في أيدي أشخاص من الكنيسة الأنجليكانية ومنع عقد اجتماعات التطهريين في أنحاء البلاد. وتم طرد أكثر من ألفين من رجال الكنيسة الكالفينيين من كنائسهم، وأصبحت الحركة التطهرية جزءًا من تقليد الخارجين على نظام كنيسة انجلترا. وكان من أبرز كتاب هذه الحركة جون ميلتون John Milton (١٦٠٨-٧٤)، وتعتبر قصيدته الرائعة "الفردوس المفقود" عبارة عن بحث لاهوتي في صورة شعرية، وكان الكتيب الذي كتبه بعنوان Areopagitica دفاعًا عن حرية الفكر. برز أيضًا جون بنيان John Bunyan (١٦٢٨-٨٨) والذي صار كتابه "سياحة المسيحي" الذي كتبه عام ١٦٧٨ مصدرًا لمعونة كثيرين في حياتهم الروحية. ولم ينل الخارجون على نظام كنيسة انجلترا الاعتراف بحقهم في الوجود إلا بعد طرد جيمس الثاني James 2nd من انجلترا بعد الثورة المجيدة في عام ١٦٨٩. وصار في كل من انجلترا وهولندا كنيسة وطنية مستقرة قادرة على التعايش مع من يختلفون معها في الرأي أو المعتقد.

## اقتراحات للقراءة

تشمل الأعمال الخاصة بالحركة الإصلاحية المذكورة ضمن قائمة القراءات في نهاية الفصل السادس والعشرين، تشمل أقسامًا تختص بالأمور الدينية في انجلترا بين عامي ١٥٢٧ ، ١٦٨٩.


*Burgess, Walter H.* The Pastor of The Pilgrims. *New York: Harcourt, Brace, 1920. This work has helpful accounts of Robinson, Smith, Helwys, and others.*

*Burrage, Champlin.* The English Dissenters. *2 vols. Cambridge: Cambridge University Press, 1912. This is an excellent study of the various Presbyterian and Congregationalist groups that developed into Puritanism. Volume 2 contains important documents written by them. The writer has followed Burrage's interpretation of the relationships between the Puritans and the Separatists.*

*Carruthers, Samuel W.* The Everyday Life of the Westminster Assembly. *Philadelphia: Presbyterian Historical Society, 1943.*

*Coffin, Robert P.T.* Laud. *New York: Brentano, 1930.*

*Collinson, Patrick.* The Elizabethan Puritan Movement. *Berkeley: University of California Press, 1967.*

*Clark, Henry W.* History of English Nonconformity. *2 vols. New York: Russell & Russell,*







*1965.*

*Dickens, A.G.* The English Reformation. *New York: Shocken, 1964. This is an excellent survey.*

_____ *. and Carr, Dorothy, eds.* The Reformation in England. *London: Arnold, 1967. Documents for the English Reformation are contained in this work.*

*Douglas, James D.* Light in the North. *Grand Rapids: Eerdmans, 1964. This is a scholarly history of seventeenth - and eighteenth - century Scottish Presbyterianism.*

*Fraser, Antonia P.* Cromwell the Lord Protector. *New York: Knopf, 1974.*

*Gee, Henry, and Hardy, William J.* Documents Illustrative of English Church History. *London: Macmillan, 1921. This contains most of the documents of interest to the student of this period.*

*Haller, William.* Elizabeth I and the Puritans. *Ithaca, N.Y.: Cornell Univerity Press, 1964.*

_____ . The Rise of Puritanism. *New York: Columbia University Press, 1938. This is a helpful study of the writings of the leading Puritans.*

*Knappen, Marshall M.* Tudor Puritanism. *Chicago: University of Chicago Press, 1939. This is an excellent study of the rise of Puritanism in Elizabeth's reign.*

*Loades, D.M.* The Oxford Martyrs. *New York: Stein and Day, 1970.*

*Mattingly, Gerrett.* Catherine of Aragon. *Boston: Little, Brown, 1941.*

*Maynard, Theodore.* The Life of Thomas Cranmer. *Chicago: Regnery, 1956.*

*Moorman, John R.H.* A History of the Church in England. *New York: Morehouse-Gorham, 1954. This is an able survey of English church history.*

*Pearson, Andrew.* Thomas Cartwright and Elizabethan Puritanism, 1553-1603. *Cambrigge: Cambridge University Press, 1925. This authoritatively describes the rise of Presbyterian Puritanism.*

*Plum, Harry G.* Restoration Puritanism. *Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1943. This book describes Puritanism after 1660.*

*Porter, Harry C.* Puritanism in Tudor England. *Columbia, S.C.: University of South*

## الفصل الواحد والثلاثون

# الإصلاح المضاد وتقييمه

مع حلول عام ١٥٤٥ بدا أن أشكال الكنائس الرسمية التابعة للدولة التي أفرزتها اللوثرية والأنجليكانية والكنائس المصلحة إلى جانب الكنائس الحرة أو المتطرفة من أشكال حركة إعادة المعمودية Anabaptists، تمضي كلها في طريقها لربح كل أوربا شمال جبال الألب. فقد كانت هذه الأشكال قد استقرت نهائيًا في ألمانيا واسكندنافيا، فرنسا، اسكتلندا، وسويسرا وانجلترا. ولم تستطع البروتستانتية أن تكسب أرضًا جديدة إلا في هولندا فيما بعد ١٥٦٠ وذلك بسبب موجة جديدة من الطاقة الدينية التي أعادت الحياة إلى الكنيسة الكاثوليكية التابعة لروما. بل ومعروف أن البروتستانتية فقدت كل من بولندا وبلجيكا كنتيجة مباشرة لما عُرف باسم الإصلاح المضاد الذي شهدته كنيسة روما بقيادة البابوية والقيادات الكنسية العليا. وقد أنشأت هذه الحركة اتجاهات داخلية للإصلاح والانتعاش كما بدأت ردود أفعال خارجية لمقاومة البروتستانتية ودحرها. بل إن هذه الحركة أطلقت القوى التي أدت إلى الصراع الأخير ما بين البروتستانت والكاثوليك في الإمبراطورية وذلك خلال حرب الثلاثين عام Thirty Years' War ١٦١٨-١٦٤٨. وقد حمل المرسلون الحركة الكاثوليكية الجديدة إلى كويك في كندا وإلى أمريكا اللاتينية وجنوب شرق أسيا.

## ١- الإصلاح المضاد

### أ- التجديد والإصلاح

اجتمعت عدة أسباب لتمنع البروتستانتية من ربح إيطاليا. أدَّت التفرقة في إيطاليا إلى سيطرة أسبانيا عليها باعتبارها القوى الكاثوليكية المقدامة. وكانت روما ايضًا مقر الكرسي البابوي، ومنعت البابوية ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة التي يستخدمها الشعب.

١- من العوامل التي أوقفت انتشار البروتستانتية في الفترة من ١٥١٧ إلى ١٥٢٧، تكوين جماعة عرفت باسم "المحبة الإلهية" The Oratory of Divine Love. وكانت هذه الحركة عبارة عن رابطة غير رسمية جمعت ستين من أبرز رجال الكنيسة والعلمانيين الذين اهتموا بتعميق الحياة الروحية بالممارسات الروحية. وكان من مجهوداتها أيضًا دعم أعمال الخير وجهود الإصلاح. وكان من أهم أعضاء هذه الجماعة جيوفاني بيترو كارافا Giovanni Pietro Caraffa (١٤٧٦-١٥٥٩) وهو الذي اصبح البابا بولس الرابع Pope Pual 4th في عام ١٥٥٥، وأيضًا جياتانو داي تيان Gaetano di Tiene (١٤٨٠-١٥٤٧)، والذي كان مصدر إلهام للبابوات

## الكاثوليكية
## ١٥٤٥ - ١٥٦٣

### الإصلاح المضاد
رد الفعل الخارجي ضد البروتستانتية

١- الحكام الوطنيين
(أ) أسبانيا - تشارلز الخامس، فيليب الثاني.
(ب) فرنسا - كاثرين دي ميديسي، لويس الرابع عشر

٢- الجيزويت - لويولا، التدريبات الروحية
٣- دليل الكتب الممنوعة
٤- محاكم التفتيش
التوركيماندا الأسبانية
التفتيش الروماني

بولس الثالث

لم تخسر كنيسة روما سوى هولندا فيما بعد عام ١٥٦٣، واستعادة بولندا وبلجيكا.

### الإصلاح الكاثوليكي
التجديد و الإصلاح الداخلي

١- النظم الرهبانية - الجيزويت، الثياتيني، الأورسوليني
٢- الأخلاقي - لجنة التسعة
بولس الثالث ١٥٣٦ - ١٥٣٧
٣- الرجال - الكاردينال كونتاريني
بولس الثالث
٤- الإختباريون - سانت تريزا، رابطة المحبة الإلهية
٥- المجامع - مجمع ترنت ١٥٤٥ - ١٥٦٣
(أ) لاهوت توما الإكويني
(ب) الفولجاتا
(ج) الأبوكريفا
(د) نذور الرهبنة الثلاثية
٦- الإرساليات
الجيزويت، الفرنسيسكان والدومينكان
الي أمريكا الوسطى والجنوبية
كويبك، الصين، الهند، اليابان، الفلبين والهند الصينية.
٧- الموسيقى - البالسترينا، القداسات، تعدد الأصوات
٨- عمارة الباروك
كنيسة إل جيزو
أعمدة برنيني
٩- التراث والتاريخ
سيزار بارونيوس
التاريخ الكنسي
الكنيسة تبقى دائما

الذين حاولوا الإصلاح. كان كارافا شديد الارتباط بالعقيدة التي سادت الكنيسة في القرون الوسطى. وكانت هذه المجموعة من رجال الكنيسة الذين لهم هذا الفكر الروحي على استعداد حقيقي لدعم أي حركة تساهم في استعادة اقتناع الأفراد بكنيستهم المحبوبة.

٢- عين البابا بولس الثالث Pope Paul 3rd أقدر هؤلاء الرجال المخلصين في مناصب الكرادلة. وقد كلف رجال مثل كارافا Caraffa، وجاسبارو Gasparo كونتاريني Contarini (١٤٨٣-١٥٤٢) الذي كان متعاطفًا مع تعليم البروتستانت حول التبرير بالإيمان، وبول Pole وآخرين بمهمة إعداد





تقرير يرفعونه إليه شخصيًا حول سبل تحقيق الإصلاح الديني، وكان ذلك في عام ١٥٣٦. وقد قدموا هذا التقرير في عام ١٥٣٧ حيث أبرزوا فيه التجاوزات التي كانت تحدث في كنيسة روما وكيف أنهم رأوا أنها كانت نتيجة أخطاء قام بها البابوات السابقون والفاسدون من الكرادلة الذين باعوا الوظائف والمهام دون تمييز.(١)

٣- وقد كانت رابطة المحبة الإلهية Oratory of Divine Love وراء تأسيس أنظمة رهبانية جديدة ساعدت على وقف انتشار البروتستانتية. أسس جياتانو دي تيان Gaetano di Tiene بمساعدة من كارافا نظامًا رهبانيًا جديدًا في عام ١٥٢٤ عرف باسم Theatine Order وقد ألزم هذا النظام الكهنة الذين لا يخدمون كنائس معينة أن يعيشوا تحت الإلتزام الثلاثي بالفقر والعفة والطاعة في مجتمع ديني. ولكن هذا النظام ترك لهم الحرية لكي يخدموا الشعب مثلهم مثل كهنة الكنائس. وقد أدى الوعظ والتعليم والخدمة الاجتماعية التي قام بها هؤلاء الكهنة إلى نوع جديد من التقدير والاحترام للكنيسة في إيطاليا، وانتشرت هذه الحركة بسرعة في كل أنحاء البلاد.

كان معظم أعضاء وقيادات الثياتينيون من الطبقة الأرستقراطية، أما حركة الرهبان الكبوشيون Capuchin، والتي أسسها ماتيو دي باسيو Matteo da Bascio (١٤٩٥-١٥٥٢) نحو عام ١٥٢٥ على اعتبار أنها فرع مصلح من حركة الفرنسيسكان، فكانت أكثر جاذبية للفلاحين بما امتازت به من روح تضحية وإنكار للذات إلى جانب الطابع الشعبي في الوعظ. وكان من السهل تمييز هؤلاء الرهبان بسبب غطاء الرأس المدبب وسيرهم بدون أحذية. وكان أسلوب حياتهم وكنائسهم أبسط بكثير من الرهبان الثياتينين. وقد اعترف البابا بنظام الرهبنة الكبوشي في عام ١٥٢٨.

وتم تأسيس الرهبنة الأورسليه Ursuline Order للنساء على يد أنجيلا ميريسي Angela Merici (١٤٧٤-١٥٤٠) في عام ١٥٣٥ وذلك بهدف رعاية المرضى وتعليم البنات، وقد اعترف البابا بهذه الحركة في عام ١٥٤٤. تم تنظيم الكثير من الرهبانيات في تلك الفترة وقد أدت هذه الحركات خدمات جليلة للكنيسة الكاثوليكية منذ ذلك الحين. وما زال الكثير منها قويًا عاملاً إلى اليوم. وأهم هذه الحركات والتي سوف نتعرض لمناقشتها فيما بعد هي، جماعة يسوع. وقد وضعت كل هذه الحركات تحت تصرف البابا عددًا وافرًا من الرجال والنساء المخلصين المطيعين المكرسين لخدمة كنيسة روما في محاولتها لخلاص النفوس وتقديم الخدمات الاجتماعية لصالح عامة الشعب.

٤- من العوامل الأخرى التي ساعدت على وقف انتشار البروتستانتية أن كثيرين من البابوات الذين جاءوا في القرن السادس عشر مخلصون غيورون يساندون قوى الإصلاح والتجديد وذلك على عكس ما كان قائمًا في أثناء عصر النهضة الذي وإن تميز بابواته بالثقافة إلا أنهم كانوا محبين للبذخ والحياة المرفهة. كان البابا بولس الثالث Paul 3rd (١٥٣٤-٤٩) مؤيدًا قويًا لقضية الإصلاح حتى إن فترة توليه ذلك المنصب تمثل نقطة هامة في حركة الإصلاح المضاد. ففي فترة توليه تم تكوين حركة الرهبان اليسوعيين (الجيزويت) Jesuit، وعقدت محاكم التفتيش Inquisition ونشر دليل الكتب Index of Books الممنوع على الكاثوليك

قراءتها، وتم افتتاح مجمع ترنت Council of Trent في عام ١٥٤٥، بل هو أيضاً الذي كلَّف لجنة التسعة بإعداد تقريرها المشهور في عام ١٥٣٧ عن تجاوزات كنيسة روما. أصبح الكاردينال كارافا Carafa البابا بولس الرابع Paul 4th (١٥٥٥-٥٩) وساند حركة الإصلاح المضاد. وكان وهو بعد كاردينال قد شجع البابا بولس الثالث على إقامة محاكم التفتيش وإصدار قائمة الكتب الممنوعة لكي يخلص الكنيسة من الهرطقة. ولكنه ما أن أصبح بابا جعل هذين السلاحين أكثر قوة وأشد تأثيراً. إلا أنه لم ينجح في تخليص البابوية من السيطرة السياسية التي مارستها أسبانيا عليها. بل إنه مارس المحاباة للأقارب في التعيين للوظائف والمناصب المختلفة.

نجح بيوس الرابع Pius 4th، وهو خليفة بولس الرابع، في القضاء على محاباة الأقارب في تنظيم وتحديد سلطات مجمع الكرادلة. واستطاع سيكستوس الخامس Sixtus 5th أن يحقق الإصلاح المالي. وما أن توافرت للكنيسة هذه الغيرة الروحية المتجددة وتلك الإصلاحات العملية، وبعد أن حققت التطهير في الرأس تمكنت الكنيسة من تنفيذ الإصلاح بين أعضائها في كل أوربا ومحاولة استعادة الكثير من البروتستانت مرة أخرى إلى رحابها. ومع عام ١٥٩٠ كانت البابوية قد حققت الكثير من المكاسب بسبب تلك الإصلاحات.

٥- إذا اعتبرنا أن القرن التاسع عشر كان العصر الذهبي للإرساليات البروتستانت فإننا يمكننا أن نقول أيضاً إنه بفضل اليسوعيين (الجيزويت) كان القرن السادس عشر هو العصر الذهبي للإرساليات الكاثوليكية Roman Catholic Missions. فقد حمل الرهبان اليسوعيون - سواء من الأسبان أو البرتغاليين أو الفرنسيين - إيمانهم إلى أمريكا اللاتينية، وكويبك وجنوب شرق آسيا. وقد هيأ استكشاف واستيطان الأوربيين لهذه البلاد الفرصة أمام التوسع الديني. وقد لاقى هذا النشاط موافقة حماسية من البابا. كانت هذه الإرساليات تتم رعايتها من قبل الدول ممثلة في حكامها إلا أن هذا الوضع تغير في عام ١٦٢٢ عندما أنشأ البابا جريجوري الخامس عشر Gregory 15th مجلساً مقدساً لنشر الإيمان المسيحي أصبح هو المسئول عن هذه المجهودات. وقد ساهم الدومنيكان والفرنسيسكان في هذه الجهود بل وصل الأمر إلى استشهاد البعض منهم.

كانت الصين قد قبلت المسيحية النسطورية Nestorianism في القرن السابع، ثم المسيحية الكاثوليكية حوالي سنة ١٣٠٠ بواسطة جون أوف مونت كورفينو John of Mont Corvino، والآن تلقت موجة جديدة من المسيحية بواسطة الجيزويت. استطاع ماتيو ريشي Matteo Ricci (١٥٥٢-١٦١٠) بما له من علم غزير في الرياضيات وعلم الفلك، وتقديم هداياه من الساعات إلى الإمبراطور واستعداده للتكيف مع الحضارة والثقافة الصينية في لبسه وعاداته عندما وصل إلى بكين في عام ١٦٠١، استطاع بسرعة أن يكون لديه ستة آلاف تابع. وفي عام ١٧٠٠ إدعى الجيزويت أن كان لهم ٣٠٠ ألف شخص في الصين. ولكن في بداية القرن الثامن عشر تحول الإمبراطور ضد الرهبان وأمر بطردهم جميعاً.

فرانسيس خافيير Francis Xavier والذي خدم في أماكن كثيرة من الشرق الأقصى، وصل إلى كاجوشيما في اليابان في عام ١٥٤٩، وفي عام ١٦١٤ كان الرهبان يقولون إن لديهم ٣٠٠ ألف





من اليابانيين دخلوا إلى المسيحية إلا أن هذه المجهودات تشتت ودمرت نتائجها بفعل الاضطهاد البشع والحرب والاستشهاد وذلك في بداية القرن السادس عشر عندما انقلب هيديوشي Hideyoshi وإياسو Ieyasu من حكام اليابان ضد الرهبان لأنهم اعتقدوا أنهم عملاء للإمبريالية الأوربية.

روبرت دي نوبيلي Robert de Nobili (١٥٧٧-١٦٥٦) الذي كان يلبس مثل أعيان الهنود ودرس ثقافتهم، كان له دور مؤثر في زرع الكنيسة الكاثوليكية في الهند. تحول شعب الفلبين إلى الإيمان الكاثوليكي في النصف الثاني من القرن السادس عشر، ومازالت الكاثوليكية تتمتع بولاء غالبية هذا الشعب. دخل الرهبان الهند الصينية واستطاعوا تأسيس كنيسة قوية هناك.

عمل الأسبان والبرتغاليون في أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية، بينما عمل الفرنسيون في كويبك في كندا ودخلت كلها في حظيرة الكنيسة الكاثوليكية. ومازالت العقيدة الكاثوليكية سائدة في تلك المناطق. سارت الإمبريالية الكنسية التي مارستها أسبانيا والبرتغال وفرنسا يداً بيد مع الإمبريالية السياسية. وكان للجزويت دور بارز في كل هذه التوسعات التبشيرية. وقد كتب الراهب الدومينكاني بارتولمي دي لاكاساس Bartolemé de Las Casas ١٤٧٤-١٥٦٦ في بداية حقبة التوسع التبشيري ينتقد سوء معاملة الهنود من قبل المستوطنين الأسبان وضد تسخير هؤلاء الهنود كعبيد لهم.

٦- أخذ الكاردينال سيزار بارونيوس Caesar Baronius (١٥٣٨-١٦٠٧) على عاتقه - بعد أن طلب منه فيليب نيري Neri (١٥١٥-٩٥)- عقب البحث والكتابة ليكمل مؤلفه الضخم الذي جاء في اثني عشر مجلداً بعنوان "الحوليات الكنسية" Ecclesiastical Annals أو سجل أحداث الكنيسة في الفترة من (١٥٨٨-١٦٠٧) وكان الهدف من هذا المؤلف هو دحض مؤلف آخر بعنوان (قرون مجدبرج) وهو عبارة عن ثلاثة عشر مجلداً كتبها ماثياس فلاسيوس "إيليريكوس" Matthias Flacius "Illyricus". وكان ذلك المؤلف الضخم يصور البابوية على أنها ضد المسيح، لكن بارونيوس ساق حجته بأن الكنيسة الكاثوليكية التابعة لروما بقيت واحدة ثابتة على عقيدتها متمسكة بالتعليم الرسولي.

٧- كان جيوفاني دي بالسترينا Giovanni da Palestrina (١٥٢٤-٩٤ تقريباً) قائداً لفريق الترنيم في كاتدرائية القديس بطرس، حيث ألَّف موسيقى متعددة الأصوات تتداخل فيها أصوات المرنمين المختلفة يرنم كل منها لحناً مختلفاً متناغماً مع الآخرين. كتب بالسترينا تسعين قداساً وحوالي خمسمائة لحناً كنسياً تعلن روح النصرة التي تميز بها الإصلاح المضاد.

٨- عبرت العمارة ذات الطراز الباروكي عن نصرة الكنيسة. فقد أظهرت الأعمدة التي صممها وبناها جيوفاني بيرنيني Giovanni Bernini (١٥٩٨-١٦٨٠) أمام كنيسة القديس بطرس في روما، وأيضاً مظلة المذبح في داخل الكنيسة، عن عظمة الكنيسة ومجدها. أيضاً من نماذج هذا الطابع المعماري كنيسة إل جيزو في روما، وكنيسة قصر ودير الإسكوريال في مدريد التي بناها الملك فيليب الثاني Philip 2nd.

## ب- رد الفعل ضد البروتستانتية

١- أصبحت أسبانيا الرائدة القومية في جهود الإصلاح المضاد وذلك بسبب توحد المشاعر الوطنية مع المشاعر الدينية في محاولة تحقيق الوحدة وتدعيم الدولة في أسبانيا لإنهاء دولة الأندلس العربية. فبمجرد زواج ايزابيلا Isabella de Castile في عام ١٤٦٩ بما عرف عنها من تدينها الشديد بفرديناند أوف أرجون Ferdinand of Aragon الذي لم يكن يقل عنها تديناً، تعاونا معاً لتوحيد أسبانيا وتدعيم ولائها لروما. كانت أسبانيا هي التي شهدت بداية محاكم التفتيش Inquisition في عام ١٤٨٠ حيث تطورت بقيادة توماس توركيمادا Thomas Torquemada إلى جهاز يهدف إلى استئصال كل أشكال الهرطقة. وقد كان هذا النمط الأسباني هو ماسعى البابا بولس الثالث Paul 3rd إلى تطبيقه عندما أمر بتكوين لجان التفتيش التابعة لروما. وأيضاً كان أحد أبناء أسبانيا وهو إغناطيوس لويولا Loyola هو الذي قام بالدور الأكبر في تأسيس جمعية يسوع. أما الكاردينال اكسيميناس Ximénes وهو أيضاً أسباني الذي أعاد إحياء الاهتمام بدراسة الكتاب المقدس بين رجال الكنيسة الذين درسوا في جامعة ألكالا وكان أول من أشرف على طباعة العهد الجديد باللغة اليونانية. وأيضاً كان له دوره القيادي في نشر النسخة المتعددة اللغات من الكتاب المقدس في عام ١٥٢٠ وهي التي عرفت باسم The Complutensian Polyglot. وقد ظهر النص في هذه النسخة من الكتاب المقدس في اللغة الأصلية التي كتب بها وإلى جانبه النص اللاتيني المأخوذ من الترجمة اللاتينية المعروفة بالفولجاتا.

كان تشارلز الخامس Charles 5th وبعده فيليب الثاني Philip 2nd ملوك أسبانيا وهولندا والإمبراطورية الرومانية المقدسة Holy Ronam Empire من المساندين الأوفياء للنظام البابوي. فقد أنفق فيليب بسخاء أموال الخزانة الأسبانية ودماء الشباب الأسباني في جهود هائلة للاحتفاظ بهولندا تحت مظلة الإيمان الكاثوليكي وفي سعيه لاستعادة انجلترا لسطوة النظام البابوي. وفي هذه الأمور كلها كانت أسبانيا هي الطاقة الفعّالة التي يمكن أن تساهم في تدعيم موقف الكنيسة في روما واستعادة المناطق التي فقدت. وكانت أسبانيا أيضاً هي التي نظمت وقادت الأسطول البحري الكبير الذي دمر القوة البحرية المعادية في ليبانتو Battle of Lepanto عام ١٥٧١. كان لكل من البرتغال وفرنسا دورهما في دعم ومساندة البابوية.

٢- قدم الرهبان الجيزويت Jesuit (اليسوعيون) أكثر الأسلحة فاعلية في الدعاية الإيجابية لصالح كنيسة روما. فإنهم كانوا يركزون على أن يقدم الوعظ والتعليم رهباناً نالوا أعلى تدريب وتعليم يؤهلهم لربح الناس مرة أخرى من البروتستانتية. ولد إغناطيوس لويولا Ignatuis Loyola (١٤٩١-١٥٥٦ تقريباً)، وهو مؤسس هذه الحركة، في عائلة واسعة الثراء من أعيان إقليم الباسك. وبعد أن نال نصيبه من القتال واللهو العبث كأي ابن من أبناء العائلات الأسبانية الكبيرة، انضم إلى الجيش ليصير جندياً فيه. وأصيبت رجله إصابة بالغة في إحدى المعارك ضد الفرنسيين في عام ١٥٢١، واحتاج أن يبقى في المستشفى لوقت طويل تعالج فيها رجله عدة مرات. وأثناء وجوده في المستشفى عكف على قراءة الكتب الدينية الأمر الذي قاده إلى اختبار روحي شخصي في عام ١٥٢٢ وأدى به إلى أن يكرس حياته لخدمة الله





والكنيسة. فقام برحلة يزور فيها الأراضي المقدسة في عام ١٥٢٣ ثم عاد منها ليطلب العلم. ودخل جامعة باريس في سنة ١٥٢٨. وفي عام ١٥٣٤ كون مع ستة من رفقائه نواة لنظام جديد للرهبنة نال موافقة البابا بولس الثالث Paul 3rd في عام ١٥٤٠. فاصبح ذلك الرجل صغير الحجم صاحب العاهة في رجله قائداً لنظام رهبنة جديد في عام ١٥٤١. ووصل عدد الرهبان الذين انضموا إلى هذه الحركة الجديدة حوالي ألف راهب في سنة ١٥٥٦.

كان لويولا قد كتب كتاباً أسماه "التدريبات الروحية" يهدف إلى قيادة المرشحين للدخول إلى الحركة إلى اختبار روحي يؤهلهم ليصبحوا أعضاء أمناء في هذا النظام الرهباني. كان على المرشح أن يقضي عدة أسابيع يتأمل في خطاياه وفي حياة المسيح وموته وقيامته. وكانت هذه الفترة الطويلة من التدريب الروحي تجعل هؤلاء الرجال فعلاً أمناء تجاه الله وتجاه قياداتهم في الخدمة.[٢] وكان على أعضاء هذه الحركة في نهاية الأمر أن يأخذوا على أنفسهم عهداً خاصاً بالطاعة الكاملة للبابا وللمرشد الذي يقود الحركة. وكان المرشد العام يعين مسئولين عن المناطق المختلفة. كانت القواعد التي وضعها لويولا لخدمة الكنيسة تستلزم الطاعة المطلقة العمياء للبابا إلى جانب نذور الرهبنة العادية بالطهارة والفقر والعفة.[٣]

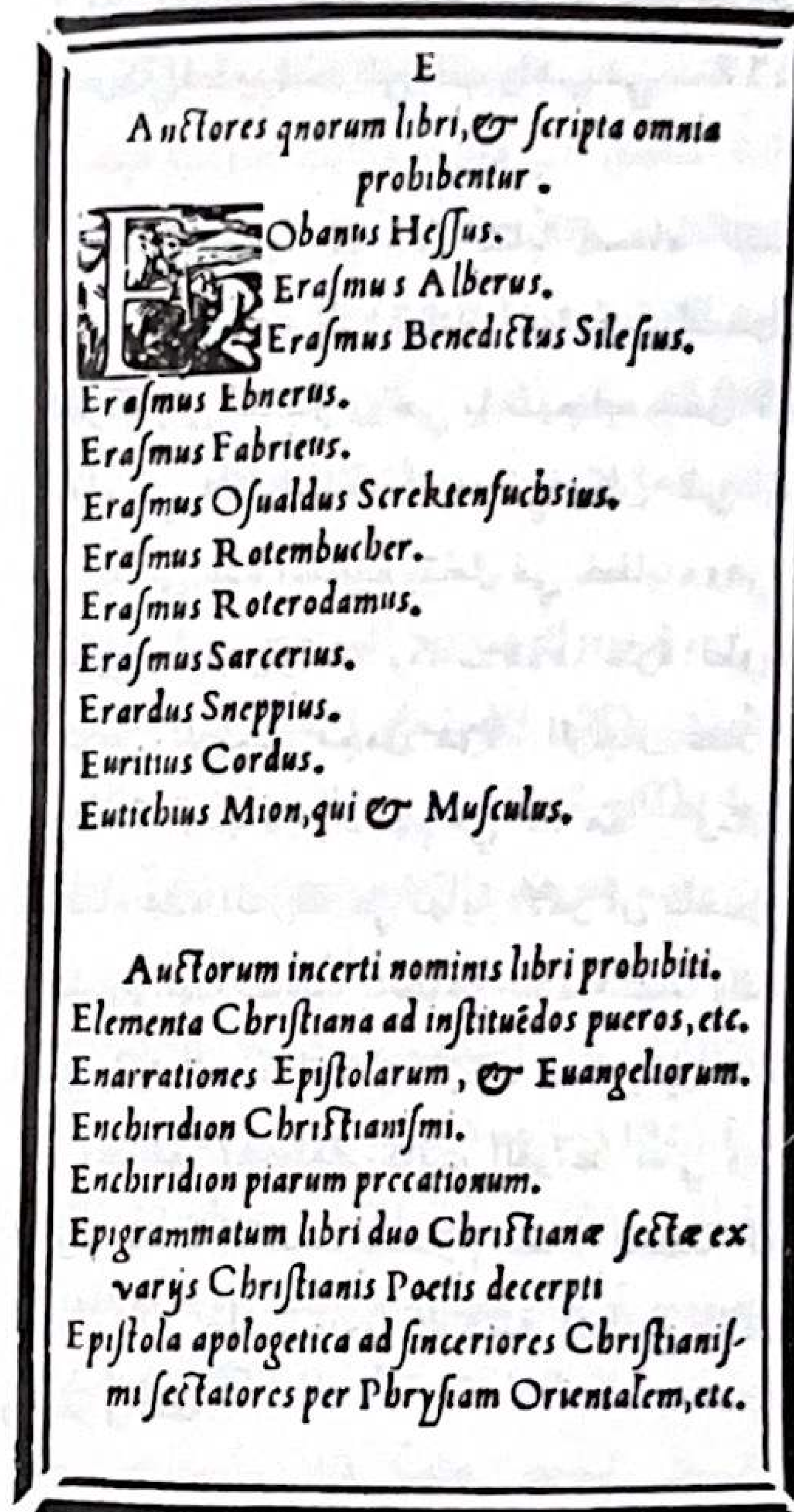
كانت المهام الرئيسية لهذه المنظمة هي الاهتمام بالتعليم، محاربة الهرطقة، والعمل المرسلي حول العالم. كانت هذه الحركة دائماً تسيطر على المؤسسات التعليمية الرئيسية في كنيسة روما. فعن طريق الوعظ نجحوا في استعادة أجزاء كبيرة من ألمانيا للكنيسة في روما. وقدمت هذه الحركة بعض المرسلين الذين قاموا بأعمال بطولية. كان فرانسيس خافيير Francis Xavier (١٥٠٦-٥٢) من بين أوائل المرسلين الأفذاذ الذين ظهروا في هذه الحركة. فقد سافر إلى الشرق الأقصى حيث خدم في الهند وجزر الهند الشرقية واليابان حيث عمّد الآلاف بعد قبولهم الإيمان المسيحي. وتمكن الجيزويت Jesuit من استعادة الأقاليم الجنوبية من البلاد الواطئة (بلجيكا) وأيضاً بولندا بالرغم من أنه كان يبدو أن اللوثرية استقرت بقوة فيها. إلا أنه في جميع هذه الصراعات خلق سعي الجيزويت للفاعلية والكفاءة منهم رجالاً بلا قلب. كان تفكيرهم من جهة الأخلاق نسبياً، مما جعلهم يبررون استخدام أي وسائل تؤدي بهم إلى تحقيق ما كانوا يرونه صالحاً من الأهداف. وأدى سعيهم لتجنيد الملوك والحكام لمقاومة الهرطقات إلى تدخل ليس له ما يبرره في السياسة وهو الأمر الذي جعل هذه الحركة في وقت لاحق تفقد شعبيتها.

٣- كانت الكنيسة في روما تمتلك سلاحين للقسر والإجبار استخدمتهما لتدعيم مجهودات الجيزويت. وهذان السلاحان هما محاكم التفتيش Inquisition وقوائم الكتب الممنوعة Index of Books. وترجع بداية محاكم التفتيش إلى صراع الكنيسة ضد الألبيين Albigenses في جنوب فرنسا في بداية القرن الثالث عشر. وقد تأسست هذه اللجان في أسبانيا بمقتضى تصريح بابوي في عام ١٤٨٠ وذلك لمواجهة مشكلة انتشار التعاليم الغريبة في البلاد. وقد قامت هذه المحاكم، بقيادة توماس توركيمادا Thomas Torquemada (١٤٢٠-٩٨)، باعدام عشرة آلاف شخص. كما تم تحت قيادة اكسيميناس Ximénes إعدام حوالي ألفين آخرين. ثم ما لبثت روما أيضاً أن كونت

محاكم تفتيش تابعة لها وذلك بعد إلحاح وطلب كارافا Caraffa، وصدر القرار البابوي بتشكيل تلك المحاكم في ١٥٤٢ أيضاً لتكون وسيلة للتعامل مع الهرطقة في أي مكان وظلت تعمل حتى صدر قرار بإلغائها في عام ١٨٥٤. وكان الذين يتهمون أمام تلك اللجان يفترض دائمًا أنهم مذنبون حتى يثبتوا براءتهم، ولم يكن يتاح لهم أبدًا مواجهة المدعين عليهم. بل وكان يمكن أن يجعلوهم يشهدون ضد أنفسهم وكانوا يتعرضون للتعذيب بهدف انتزاع الاعترافات منهم. وإذا أدينوا تصدر عليهم أحكام قاسية تتضمن نزع الملكية، السجن أو الإعدام حرقًا، ما لم يعترفوا ويتوبوا علنًا عما اتهموا به. كانت هذه العقوبات تنفذها السلطات المدنية تحت رقابة وإشراف لجان التفتيش.

٤- ساعد تطور الطباعة في منتصف القرن الخامس عشر البروتستانت على نشر أفكارهم. ولكي تقاوم الكنيسة الكاثوليكية هذا الخطر أصدرت قائمة بالكتب والمطبوعات التي يحرم على المؤمنين قراءتها. وأصدر كارافا بعد أن أصبح البابا بولس الرابع Paul 4th أول تلك القوائم بالكتب الممنوعة في عام ١٥٥٩. وكانت كتب إرازموس Erasmus وبعض الطبعات البروتستانتية للكتاب المقدس من ضمن الكتب التي تضمنتها هذه القائمة. وقد كلف البابا لجنة خاصة بإعداد هذا الدليل كونها سنة ١٥٧١، وطلب منها أن تعمل على تحديث هذه القائمة لتضم الكتب الجديدة أولاً بأول. وقد نجح إصدار هذه القائمة بالكتب الممنوعة في الحيلولة بين كثير من الكاثوليك وقراءة كتب ومطبوعات البروتستانت، وساهمت محاكم التفتيش في إجبار الكثيرين على التنصل من آرائهم المتعاطفة مع البروتستانت وظل العمل ساريًا بقائمة الكتب الممنوعة حتى تم إلغاؤها في عام ١٩٦٦.

٥- يبدو أن البابا بولس الثالث Paul 3rd كان من أكثر من رأوا وأدركوا الحاجة للإصلاح في الكنيسة الكاثوليكية التابعة لروما، وذلك لأنه هو الذي صرح بإنشاء حركة الرهبان الجيزويت Jesuit (اليسوعيين) في ١٥٤٠، وإنشاء وتكوين لجان


E
Auctores quorum libri, & ſcripta omnia prohibentur.
Obanus Heſſus.
Eraſmus Alberus.
Eraſmus Benedictus Sileſius.
Eraſmus Ebnerus.
Eraſmus Fabricius.
Eraſmus Oſualdus Screkſtenfuchſius.
Eraſmus Rotembucher.
Eraſmus Roterodamus.
Eraſmus Sarcerius.
Erardus Sneppius.
Euritius Cordus.
Eutichius Mion, qui & Muſculus.

Auctorum incerti nominis libri prohibiti.
Elementa Chriſtiana ad inſtituẽdos pueros, etc.
Enarrationes Epiſtolarum, & Euangeliorum.
Enchiridion Chriſtianiſmi.
Enchiridion piarum precationum.
Epigrammatum libri duo Chriſtianæ ſectæ ex varijs Chriſtianis Poetis decerpti
Epiſtola apologetica ad ſinceriores Chriſtianiſmi ſectatores per Phryſiam Orientalem, etc.

*تتضمن قائمة الكتب الممنوعة كتابات الكتاب الكاثوليك الذين طالبوا بالإصلاح إلى جانب الكتاب البروتستانت. وتتضمن هذه الصفحة من القائمة كتب إرازموس وكل كتاباته التي استخدم فيها اسمًا مستعارًا.*





التفتيش في عام ١٥٤٢، وأصدر مرسومًا بابويًا سنة ١٥٤٤ بدعوة مجمع ترنت Council of Trent. وقد تم افتتاح جلسات هذا المجمع في ١٣ ديسمبر ١٥٤٥ واستمر انعقاده حتى ٤ ديسمبر ١٥٦٣، وإن كان تخلل هذه الفترة فترات طويلة لم تنعقد فيها أي جلسات للمجمع. ولم يسمح لهذا المجمع بإعلان قراره بأن قراراته لها السيادة على البابا نفسه، وكان التصويت في جلسات هذا المجمع فرديًا بدلاً من تصويت الوفود الممثلة للبلاد والدول بصوت واحد، وذلك مثل ما حدث في مجمع كونستانس Council of Constance. كان عدد الإيطاليين دائمًا يمثل حوالي ثلاثة أرباع الحاضرين. لذلك كانت البابوية ورجال الكنيسة الإيطاليون يضمنون السيطرة على قرارات المجمع. كان البابا بولس Paul يريد أن يعيد النظر في عقيدة كنيسة روما، ويصلح تجاوزات رجال الكنيسة بل وأراد بحث إمكانية تنظيم حملة صليبية ضد المتمردين. ومع أن القرارات النهائية لهذا المجمع وقَّع عليها ٢٥٥ من رجال الكنيسة، إلا أنه من الثابت أن الحضور في معظم جلسات المجمع الخمس وعشرين لم يتجاوز عدده ٧٥ شخصًا فقط.

حفلت السلسلة الأولى من الجلسات فيما بين ١٥٤٥-١٥٤٧ بعدة أسئلة عقائدية. وقد أعلن المجمع أن الكتاب المقدس ليس وحده هو السلطان النهائي في أمور الإيمان، بل الأسفار القانونية مضافًا إليها أسفار الأبوكريفا التي وردت في الفولجاتا Vulgate التي أعدها جيروم Jerome، وذلك إلى جانب تقليد الكنيسة، هذه جميعها تكون السلطان النهائي.[٤] أما المناقشات حول التبرير بالإيمان فقد نتج عنها إصدار قرار بأن الإنسان يتبرر بالإيمان والأعمال التي تتبعه وليس بالإيمان وحده. وتم إعادة التأكيد على إقرار أسرار الكنيسة السبعة من قبل مجمع ترنت، وتمت صياغة بعض القرارات التي تحقق إصلاح التجاوزات التي كانت موجودة في الممارسات الكنسية.

أما خلال الدورة الثانية من جلسات المجمع في الفترة من ١٥٥١-١٥٥٢ فقد تم إعادة التأكيد على عقيدة الاستحالة Transubstantiation كما تم صياغة المزيد من قرارات الإصلاح الداخلي. أما الدورة الثالثة والأخيرة في الفترة ما بين ١٥٦٢-١٥٦٣ فقد انشغلت بمناقشات مفصلة عن أسرار الكنيسة الأخرى، والقواعد التي تحكم الزواج، وقرارات حول المطهر، وأمور متعددة خاصة بالإصلاح.[٥] وظهرت سيطرة البابا على المجلس في طلب المجمع من البابا إصدار قرار بابوي يصدق على أعمال المجمع. وقد صدر قرار بابوي آخر في عام ١٥٦٤، احتوى على ملخص للعقائد الإيمانية التي تمت صياغتها في مجمع ترنت. وقد عرفت هذه الوثيقة باسم "إقرار الإيمان التريدانتي Tridentine Profesion of Faith". وكان لزامًا على كل رجال الكنيسة الكاثوليكية ومعلميها إلى جانب العائدين إلى الإيمان الكاثوليكي من البروتستانت أن يوقع على ما يثبت قبوله هذا الاعتراف، وكان كل من يعلن قبوله هذا الإقرار يجب أن يقسم على "الطاعة الحقيقية" للبابا.[٦]

أما الإنجاز الحقيقي المهم الذي أنجزه هذا المجمع في تحويل الأفكار اللاهوتية التي صاغها توما الأكويني في العصور الوسطى إلى عقيدة لها سلطان الكنيسة وملزمة لجميع المؤمنين.[٧] ولكن هذا المجمع قضى نهائيًا على أي فرصة للمصالحة مع

البروتستانت لأن البروتستانت لا يمكن أن يقبلوا إعطاء التقليد الكنسي سلطانًا مساويًا لسلطان الكتاب المقدس. ومن إنجازات هذا المجمع أيضًا أنه أقر وروج لمستوى أخلاقي أعلى بين رجال الكنيسة بما أقره من إصلاحات داخلية. وأقر فتح معاهد دينية لتدريب رجال الكنيسة، وهيأ السبل لإنجاز شرح أصول الإيمان الكاثوليكي الذي نشر عام ١٥٦٦، وتبنى نسخة رسمية للكتاب المقدس وهو الفولجاتا Vulgate. وكان ذلك المجمع أيضًا إيذانًا بالهزيمة النهائية لسلطة المجالس وانتصار فكرة أن السلطة النهائية المطلقة هي في يد البابا ومعاونيه.

استطاعت البابوية أن توقف امتداد مكاسب البروتستانتية، فيما عدا في هولندا، وذلك بعد عام ١٥٦٠ بل واستطاعت أن تحقق استعادة بعض المناطق مثل بولندا. ويرجع ذلك إلى تسلحها بنظام متكامل من العقائد عكف على نشره المعلمون الجيزويت المخلصين من أمثال بيتر كانيسيوس Peter Canisius (١٥٢١-٩٧)، والمرسلين الذين تدعمهم قوة ونفوذ لجان ومحاكم التفتيش. وقد وصل مد الانتصارات والإصلاحات إلى ذروته في نحو عام ١٦٠٠.

لم يكن للإصلاح أو الإصلاح المضاد في الغرب تأثير كبير على الكنيسة في الشرق. درس كيرلس لوكار Cyril Lucar (١٥٧٢-١٦٣٨) في جنيف ثم انتخب بطريركًا للقسطنطينية في نحو عام ١٦٢٠، كان مهتمًا بالحركة الكالفينية في الغرب ولكنه واجه مقاومة ومعارضة من أبناء شعبه ومن الجيزويت Jesuit (اليسوعيين) الذين لم يرغبوا في أن يروا الكنيسة في الشرق تتحول إلى الإيمان البروتستانتي. نشر لوكار إقرار للإيمان في عام ١٦٢٩ وقد اصطبغ بقوة بالآراء اللاهوتية الكالفينية، وأرسل واحدة من أقدم ثلاث مخطوطات للكتاب المقدس، وهي مخطوطة الاسكندرية، إلى انجلترا في عهد الملك تشارلز الأول Charles 1st. وقد استطاع أعداؤه إقناع السلطان بإعدامه بدعوى أنه كان يشجع الشعب على التمرد على حكم القوقازيين، وانعقد سنودس في بيت لحم Synod of Bethlehem في عام ١٦٧٢ وألغى وأنكر كل جوانب الإصلاح العقائدي التي تضمنها إقرار الإيمان الذي كان قد أعده بل إنهم أنكروا حتى إنه كتب مثل هذا الإقرار من أصله. وكانت هذه النهاية المهنية هي نصيب المحاولة الفاشلة لجعل الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية بروتستانتية.

## ٢- حرب الثلاثين عاما
## Thirty Years' War

كانت معاهدة السلام التي وُقعت في أوجسبورج Peace of Augsburg تلزم أي حاكم يتحول إلى البروتستانتية أن يتنازل عن حكم بلاده، لذلك فعندما جعل الكثير من حكام ألمانيا بلادهم بروتستانتية بعد تحولهم هم شخصيًا، شعر الكاثوليك واللوثريون بعدم الرضى. فالكالفينية التي لم تشملها المفاوضات في أوجسبورج كانت قد كسبت مناطق من ألمانيا، مثل الإمارات البلاتينية Palatinate، وطالب الكالفينيون بالاعتراف القانوني بهم. لم يفوت اليسوعيون أي فرصة للتدخل في الشئون السياسية لبلاد مثل بافاريا وبوهيميا بغية استعادة تلك الأراضي التي فقدت إلى الكنيسة الكاثوليكية مرة أخرى. كان كل من الإمبراطور فرديناند الثاني Ferdinand 2nd والملك ماكسيميليان Maximilian ملك بافاريا قد نشئا





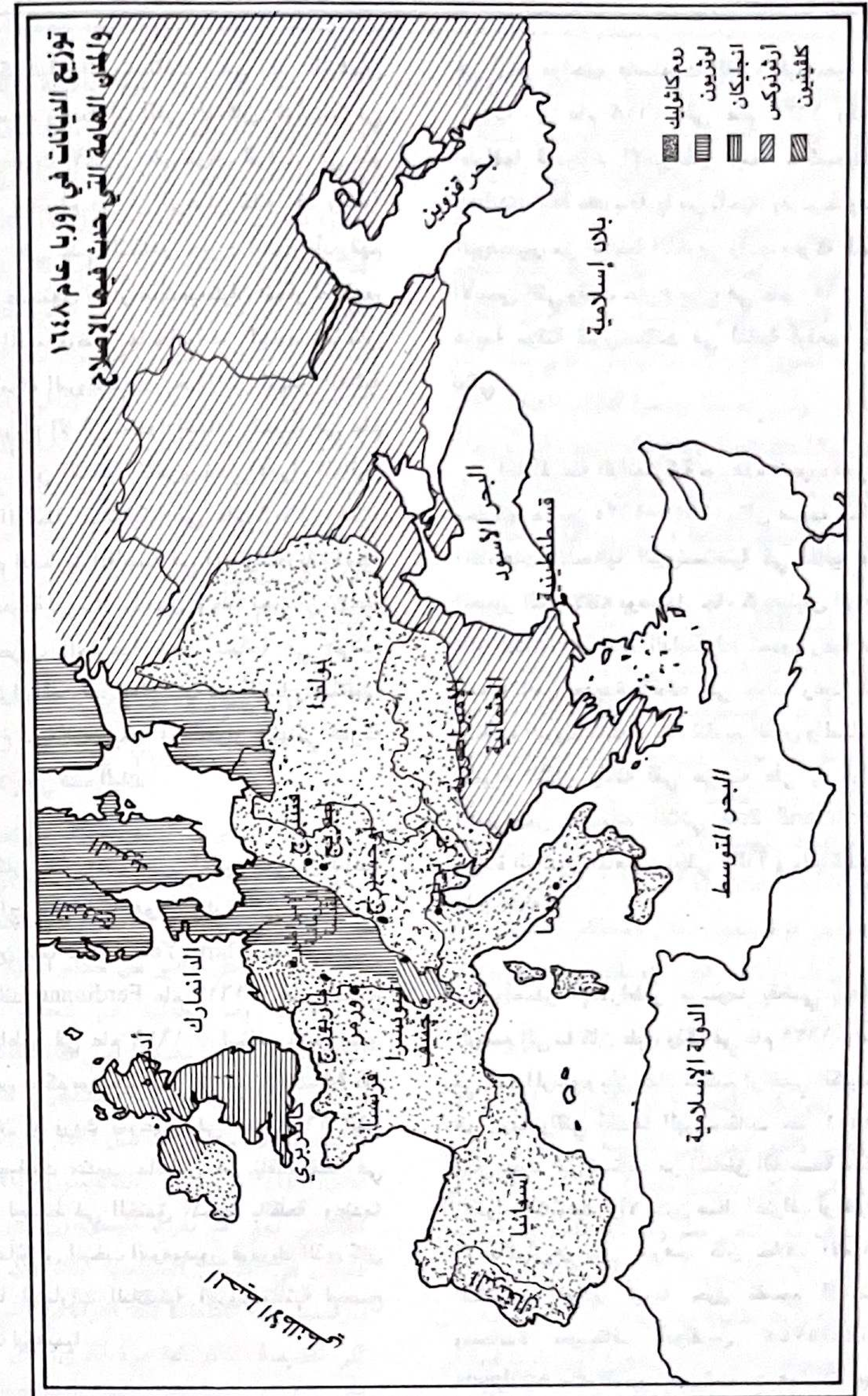
على كراهية البروتستانت على يد الرهبان اليسوعيين. وحدث أن ألقى السكان اللوثريون في بلدة دوناورث الأحجار على موكب للرهبان في عام ١٦٠٦. وبالرغم من أن الرهبان كانوا قد وافقوا مسبقًا على عدم التظاهر خارج أسوار أديرتهم لترويج عقيدتهم، إلا أن ماكسيميليان انحاز لصفهم، واحتل المدينة ووضع بها حامية من الجنود. فما كان من الأمراء البروتستانت، خوفًا من انهيار اتفاقية أوجسبورج إلا أن نظموا إتحادًا إنجيليًا في عام ١٦٠٨، ومن الناحية الأخرى نظم الأمراء الموالون للبابا الرابطة الكاثوليكية في عام ١٦٠٩. وهكذا رسمت الخطوط الفاصلة في الإمبراطورية تمهيدًا لبدء المعركة بين كلا المذهبين. ولعلنا يجب أن نلاحظ أن الحروب الخارجية ضد أسبانيا في هولندا وانجلترا والصراعات الداخلية في ألمانيا واسكتلندا وزيورخ سبقت جميعها الاستقرار النهائي لحركة الإصلاح في هذه البلاد.

كان حادث إلقاء مندوب الإمبراطور من النافذة في براج عام ١٦١٨ هو الشرارة التي بدأت حرب الثلاثين عامًا Thirty Years' War. فقد تم اختيار فرديناند Ferdinand عام ١٦١٧ - الذي أصبح الإمبراطور في عام ١٦١٩ - ليخلف الإمبراطور ماثياس حاكم بوهيميا Matthias (Bohemia) لأنه لم يكن له وريث شرعي. وفي عام ١٦١٨ ألقى البروتستانت مندوب ماثياس من نافذة قلعة في براج ليسقط في الخندق المحيط بالقلعة. وعندما مات ماثياس انتخب البوهيميون فردريك الذي كان حاكمًا للإمارات البلاتينية البروتستانتية ليصبح حاكمًا لبوهيميا.

وقد مرت الحرب التي نتجت عن هذه الحوادث في أربع مراحل، فاستمرت الفترة البوهيمية من الحرب من عام ١٦١٨ إلى عام ١٦٢٣ وكانت أطرافها فرديناند الإمبراطور ومعه ماكسيميليان Maximilian ملك بافاريا من ناحية؛ وفردريك ومعه البوهيميين من الناحية الأخرى. وأدت معركة الجبل الأبيض التي وقعت خارج براج في عام ١٦٢٠ إلى هزيمة مؤقتة للبروتستانت في ألمانيا أوقعها بهم تيللي.

أما المرحلة الدانماركية من هذه الحرب فجرت معاركها ما بين ١٦٢٥-١٦٢٩، وكان هدفها حماية المقاطعات الشمالية البروتستانتية في ألمانيا من المصير الذي لاقته بوهيميا. جاء كريستيان الرابع Christian 4th ملك الدانمارك، تحدوه رغبة في ضم مناطق جديدة لنفوذه إلى جانب رغبته في مساندة البروتستانتية، جاء لتقديم العون والمساندة للأمراء الألمان ولكنه لقي هزيمته على يد قوات الإمبراطور فرديناند الثاني Ferdinand 2nd بقيادة القائدين الماهرين تيللي Tilly و والينشتاين Walenstein.

وأصدر الإمبراطور مرسومًا يقضي بإعادة الوضع إلى ما كان عليه، وذلك في عام ١٦٢٩، وأمر في هذا المرسوم بأن يعاد تسليم أراضي الكنيسة في روما والتي أخذها البروتستانت منذ ١٥٥٢، وبأن يطرد البروتستانت من المناطق الخاضعة لحكم الأمراء الكاثوليك، وألا يكون هناك اعتراف أو قبول إلا باللوثريين دون غيرهم. كان خلاف الأمراء الكاثوليك الموالين لروما حول تقسيم الغنائم ومساندة جوستاف أدولفوس Gustavus Adolphus ملك السويد للبروتستانت هما التمهيد الذي أدى إلى دخول الحرب مرحلتها الثالثة التي






عُرفت بالمرحلة السويدية وجرت معاركها فيما بين ١٦٣٠-١٦٣٥. أراد الحاكم السويدي أن يجعل من بحر البلطيق بحيرة سويدية وذلك إلى جانب رغبته في مساندة رفاقه من البروتستانت. وفي معركة جرت في لوتزن في عام ١٦٣٢ هزم البروتستانت القوات المعتدية من جيوش الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وحصلت السويد على المناطق التي كانت تريد الحصول عليها على شواطئ بحر البلطيق، وتحرر شمال ألمانيا من سيطرة الكاثوليك. أما جنوب ألمانيا فلم يكن البروتستانت قد أتموا استعادته لسيطرتهم.

أما المرحلة النهائية من تلك الحرب والتي كانت ما بين ١٦٣٥-١٦٤٨ فقد شهدت تدخل فرنسا الكاثوليكية في صف البروتستانت حيث كان ريتشيليو يطمع في ضم أراضٍ جديدة إلى فرنسا. وكان يريد أيضاً مضايقة ملك اسبانيا الذي كان يحكم أيضاً الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وكان هذا إيذاناً بتأسيس النظام الحديث في دول أوربا.

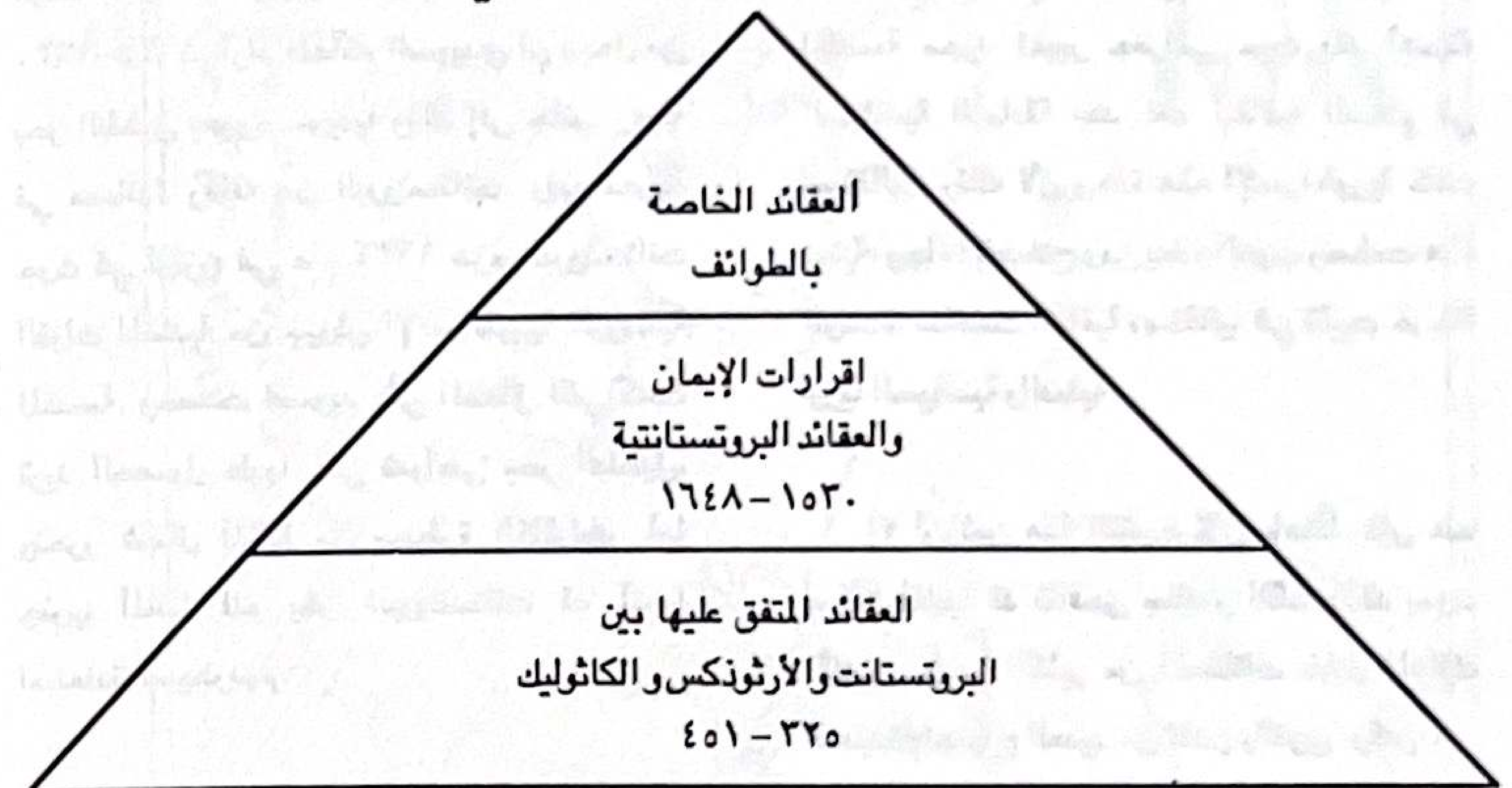
أنهت اتفاقية السلام التي وقعت في وستفاليا Peace of Westphalia هذا الصراع الدموي في عام ١٦٤٨. وتم الاعتراف بهولندا وسويسرا كدول مستقلة بروتستانتية. وحققت كل من فرنسا والسويد والدولة الصغيرة التي أصبحت بروسيا مكاسب هامة في الأراضي التي ضمت إليها، وأصبحت فرنسا هي القوة المهيمنة على أوربا. وأصبح كل من اللوثرية والكالفينية من المذاهب المعترف بها، وحصل البروتستانت على الحق في تولي الوظائف الرسمية في الدولة. والأراضي التي كانت تحت سيطرة البروتستانت في عام ١٦٢٤ سُمح لها بالاستمرار كما هي، وهو ما أنهى ظاهرة الاضطهاد الديني. وأصبح تعبير الإمبراطورية المقدسة مجرد تعبير جغرافي حيث فقد أهميته السياسية السابقة بعد عقد اتفاقية السلام في وستفاليا، وذلك لأن وحدة هذه الإمبراطورية كانت دينية، وجاء الإصلاح ومن بعده الحرب وحطمت هذه الوحدة. ساهمت اتفاقية وستفاليا في تثبيت خريطة أوربا السياسية والدينية.

إلا أن ثمن هذا التثبيت كان باهظاً. فإن عدد سكان ألمانيا قد تناقص بمقدار الثلث وذلك بموت الملايين. ودمر الكثير من الممتلكات خلال المعارك العديدة واجتياح العديد من المدن والقرى. وكان على ألمانيا أن تستفيق وتستعيد حيويتها بعد ما عانته من دمار، وضحايا وانهيار للروح المعنوية للشعب أثناء حرب الثلاثين عاماً Thirty Years' War.

## ٣- نظرة شاملة على حركة الإصلاح

أنهى الإصلاح Reformation سيادة مفهوم الكنيسة العامة أو العالمية. وتم استبدال الكنيسة الرومانية الكاثوليكية بكل شمولها بمجموعة من الكنائس البروتستانتية الرسمية أو التابعة للدولة في البلاد التي حسم فيها الأمر لصالح البروتستانتية. وسيطر اللوثريون على المشهد الديني في كل من ألمانيا واسكندنافيا. وكان للكالفينية أتباعها في سويسرا واسكتلندا وفرنسا والمجر. أما الإنجليز فقد أنشأوا الكنيسة الأنجليكانية (الأسقفية) التابعة للدولة. أما متطرفو الإصلاح، وهم جماعة إعادة المعمودية Anabaptists، فإنهم وإن لم يؤسسوا كنائس تابعة للدولة إلا أنه كان لهم حضور قوي بالأخص في هولندا وشمال ألمانيا وسويسرا. فهم

## عناصر الإيمان البروتستانتي




وحدهم من بين كل جماعات الإصلاح الذين عارضوا اتحاد الكنيسة بالدولة، وكانوا أيضًا يعارضون وبنفس القوة سيادة البابا على الكنيسة من الناحية الأخرى. كانوا يفضلون كنائس محلية مستقلة عن الدولة وتضم المؤمنين دون غيرهم.

وبالرغم من أن الإصلاح أحدث تغييرات عقائدية عظيمة، إلا أن الدارس لا ينبغي أن يظن أن الكنائس الرسمية الجديدة قد انفصلت تمامًا عن ماضيها. فإن البروتستانت والكاثوليك قبلا قوانين الإيمان التي أقرتها الكنيسة الأولى، مثل قانون الإيمان الرسولي وقانون الإيمان النيقوي وقانون الإيمان الذي صاغه أثناسيوس الرسولي وتمسك كل هؤلاء بعقائد الثالوث (فيما عدا أتباع سوسينوس) ولاهوت المسيح وقيامته، والوحي الالهي للكتاب المقدس، سقوط الإنسان، والخطية الأصلية واحتياج المؤمن المسيحي أن يعيش حياة أخلاقية ملتزمة. كان للبروتستانت موضوعات يتفقون جميعهم عليهما ألا وهي الخلاص بالإيمان وحده، سلطان كلمة الله للدستور الوحيد المعصوم للإيمان والحياة، وكهنوت جميع المؤمنين. بالإضافة إلى هذه الموضوعات كان لكل من هذه الطوائف رأيًا خاصًا معينًا يميزها عن غيرها من البروتستانت، مثل أهمية المعمودية بالتغطيس عند المعمدانيين، وأهمية الاختيار المسبق عند الكالفينين ويمكن توضيح علاقة تلك الطوائف ببعضها من خلال الشكل التوضيحي الذي يوضح الاتجاه العقائدي للبروتستانت.

ويلاحظ دارس تاريخ الكنيسة أن حركة الإصلاح تمثل الفترة العظمى الثانية لتطور وصياغة قوانين وإقرارات الإيمان المسيحي. فإن قوانين الكنيسة التي صاغتها الكنيسة الأولى تم صياغتها في الفترة ما بين ٣٢٥-٤٥١، ولكن البروتستانت أيضًا نشروا العديد من إقرارات الإيمان وقوانين الإيمان التي مازالت تستخدم في مختلف أفرع الحركة البروتستانتية إلى يومنا هذا، وقد صيغت كل هذه الإقرارات بعد تطور أفكارها في الفترة ما بين ١٥٣٠-١٦٤٨. ويرتبط تأليف





المؤلفات الكبرى في شرح أنظمة التفكير اللاهوتي البروتستانتي، مثل مؤلف كالفن Calvin المشهور Institutes، ارتباطًا وثيقًا بتطور قوانين الإيمان الكنسية.

وتعتبر الحركة البروتستانتية مسئولة أيضًا عن إبراز عدة مفاهيم عقائدية عظمى، كان لها تأثير على مصالح البشر الروحية والدنيوية. فإن التأكيد على أن التبرير هو بالإيمان وحده أدى إلى إبراز الفردية الدينية التي كانت قد فقدت خلال العصور الوسطى بسبب الرأي القائل بأن الإنسان لا يجد نفسه إلا من خلال مؤسسة الكنيسة الجامعة. أما الآن فالإنسان الفرد يمكن أن يكون له اتصال مباشر مع الله. إن تأكيد الإصلاح على أهمية الفرد لا يعني أنه أهمل الجانب الاجتماعي أو الجماعي في الحياة، لأن كل الطوائف فيما عدا جماعة إعادة المعمودية Anabaptists، نبروا تنبيرًا عظيمًا على أهمية الكنيسة التي تبرز فيها أهمية خدمة الكلمة وممارسة الفرائض. أما فيما يختص بالخلاص، فإن الإنسان لا يحتاج أن يأتي إلى الله بواسطة أسرار الكنيسة الكاثوليكية السبعة.

أما عقيدة كهنوت جميع المؤمنين فقد كانت موجهة ضد المبالغة في إبراز أهمية النظام الهرمي للكهنوت المتدرج كوساطة بين الله والناس، وذلك مثلما جعل تعليم التبرير بالإيمان من أسرار الكنيسة غير لازمة. لم يكن هناك احتياج لعمل أي وسيط بين المؤمن والله على اعتبار أن هذا المؤمن أصبح كاهنًا روحيًا يقدم لله ذبائح روحية. أما التأكيد على أن الكتاب المقدس هو السلطة النهائية، فنتج عنه التشكيك والرفض لسلطان الكنيسة. فالكتاب المقدس ذاته أصبح هو المرجع النهائي والدستور المعصوم للإيمان والأعمال بدلاً من قرارات المجامع وكتابات الآباء والمراسيم البابوية. وحيث أنهم افترضوا أن الأفراد العاديين يمكنهم أن يفسروا الكتاب المقدس بأنفسهم إذا ما التفتوا إلى القواعد النحوية والخلفيات التاريخية للنصوص الكتابية المختلفة فإنهم أكدوا على حق التفسير الخاص. ويلاحظ أن كل رجال الإصلاح تقريبًا أو على الأقل بعض زملائهم قد قاموا بترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات الشعبية المختلفة.

ساعد الإصلاح على خلق اهتمام عالمي بأهمية التعليم الابتدائي للأطفال، وذلك على اعتبار أنه إن كان كل فرد له حق تفسير الكتاب المقدس لنفسه، فيجب أن يحصل كل فرد على قدر معين من الإلمام بالقراءة. وقد أولى كل المصلحين اهتمامًا كبيرًا بتأسيس وإنشاء المدارس بمستوياتها الثلاثة الابتدائي والثانوي والتعليم الجامعي. وقد ساعد الإصلاح أيضًا على تطور العلوم التجريبية. أدى الإصرار على مساواة كل البشر روحيًا إلى الاصرار على مساواتهم في الحقوق السياسية أيضًا. وهكذا حرص الإصلاح، ولا سيما في الأماكن التي قبلت تعاليم كالفن Calvin على تدعيم الديمقراطية في الكنيسة والدولة وأعطى العلمانيين نصيبًا أكبر في إدارة الكنيسة.

ساعد الإصلاح أيضًا على نمو قوى الرأسمالية لأن معظم المصلحين قد أسقطوا المعارضة التقليدية التي سادت العصور الوسطى للربا وحل محلها الإصرار على التجارة والصناعة والدعوة للابتعاد عن البذخ والرفاهية مما ساعد على تراكم المدخرات التي يمكن لإصحابها استغلالها كرأسمال لمشاريع اقتصادية جديدة إلا

أنه قد لا يكون من العدل والإنصاف أن نقول إن أي من المصلحين كان مسئولاً عن قيام الرأسمالية وذلك لأنها كانت دائماً موجودة قبل الإصلاح بفترة طويلة. وترجع بدايات ما نراه اليوم من اتجاه الدول لتحقيق الرخاء، وحيث تأخذ الحكومات على عاتقها مسئولية تحقيق الرخاء لمواطنيها، ترجع بدايته إلى الحاجة التي واجهت الحكومات في وقت الإصلاح لمساعدة وتدبير احتياجات أولئك الذين تضرروا من مصادرة ممتلكات الكنيسة أثناء حركة الإصلاح. أدخل الإصلاح تجديداً طال انتظاره على خدمة الوعظ. فرجال مثل لوثر Luther تفوقوا كوعاظ للكلمة. وكالفن قضى معظم وقته في الوعظ وتعليم الكلمة.

وكان للإصلاح تأثيره الإيجابي على الكنيسة الرومانية الكاثوليكية وذلك من خلال ما شهدته هذه الكنيسة من إصلاحات أخلاقية كثيرة والصياغة الدقيقة للعقائد الأساسية التي كانت نتيجة حركة الإصلاح المضاد التي وصلت ذروتها في ترنت. وأصبحت حركة الرهبنة اليسوعية Jesuit رائدة للمجهودات التبشيرية الكاثوليكية Roman Catholic Missions في أسيا وفي النصف الغربي من الكرة الأرضية.

ومع عام ١٦٤٨ كانت الكنائس المسيحية الرئيسية قد خرجت إلى الوجود واستقر بها الحال. وتهتم الفترة منذ ذلك الحين إلى وقتنا الحاضر بالمصير التي آلت إليه كل تلك الأشكال المتنوعة من المسيحية وذلك في مواجهة الاتجاهات الدينوية التي بدأ تأثيرها الفعال على غرب أوربا خلال القرن السابع عشر .

## اقتراحات للقراءة


*Bangert, William H.* A History of the Society of Jesuits. *St. Louis: Institute of Jesuit Sources, 1932.*

*Brodrick, James.* The Origin of the Jesuits. *New York: Longmans, 1940. This describes the beginning of the order.*

_____ . The Progress of the Jesuits 1556-1579. *London: Longmans, 1947.*

_____ . Saint Francixs Xavier. *Garden City. N.Y.: Doubleday, 1957.*

_____ . Saint Ignatius Loyola. *New York: Farrar, Strauss, 1956.*

*Burns, Edward M.* The Counter-Reformation. *Princeton; Princeton University Press, 1964.*

*Cronin, Vincent.* The Wise Man From the West. *London: Hart-Davis, 1955. This is a popular biography of Matteo Ricci.*

*Daniel-Rops, Henry.* The Catholic Reformation. *New York: Dutton, 1962.*







*Dickens, Arthur G.* The Counter Reformation. *New York: Harcourt, Brace, 1969.*

*Dolan, John P.* History of the Reformation. *New York: Desclee, 1955. This is a helpful survey by a Roman Catholic scholar.*

*Dudon, Pere Paul.* Ignacio de Loyola, The Spiritual Exercises. *Westminster, Md.: New man, 1951. This is the author's work on Loyola.*

_____ . Saint Ignatius of Loyola. *Translated by William J. Young. Milwaukee: Bruce, 1949. This is a helpful biography.*

*Hadjiantoniau, George A.* Protestant Patriarch. *Richmond, Va.: John Knox, 1961. This is a biography of Cyril Lucar that is based on the sources.*

*Janelle, Pierre.* The Catholic Reformation. *Milwaukee: Bruce, 1949. The Catholic viewpoint is ably presented here.*

*Jedin, Hubert.* A History of the Council of Trent. *Translated by Ernest Graf. St. Louis: Herder, 1941.*

*Kamen, Henry.* The Spanish Inquisition. *London: Weidenfeld and Nicholson, 1965.*

*Kidd, Beresford J.* The Counter-Reformation, 1550-1600. *London: SPCK, 1933. This is an excellent history of the Counter Reformation.*

*Lea, H.C.* The Inquisition in Spain. *4 vols. London: Macmillan, 1906-7.*

*Olin, John.* The Catholic Reformation. *New York: Harper, 1969. This has many useful documents.*

*Polisensky, Joseph V.* The Thirty Years' War. *Translated by Robert Evans. Berkeley: University of California Press, 1971.*

*Schroeder, Henry J.* Canons and Decress of the Council of Trent. *St. Louis: Herder, 1941. This work has the original text and an English translation of the canons and decrees of the council.*

*Van Dyke, Paul.* Ignatius Loyola. *New York: Scribner, 1926. This is an able and interesting biography of the founder of the Jesuits.*

*Wedgwood, Cicely V.* The Thirty Years' War. *New Haven. Yale University Press, 1939. This is a scholarly discussion of the war.*

## الفصل الثاني والثلاثون

# تأسيس المسيحية في امريكا الشمالية

زاد ابتعاد الحضارة الحديثة عن دائرة التأثير المسيحي ودوره في تكامل الحياة. وتعتبر اتفاقية السلام التي عقدت في وستفاليا Peace of Westphalia في عام ١٦٤٨ نقطة فاصلة ما بين الأنماط الدينية التي تطورت خلال فترة الإصلاح والاتجاهات التي ظهرت في تاريخ الكنيسة منذ ذلك الوقت. فقد توالت الحركات الإحيائية وبعض مظاهر الحركة العقلانية في نفس الوقت . أدَّت العقلانية، والتي انبثقت منها الاتجاهات التحررية في الكنيسة، إلى انفصال الحركة الفكرية عن الكتاب المقدس ولاهوت الإصلاح. نمت الطائفية من عملية الفصل ما بين الكنيسة والدولة. وكان لنمو الاتجاه نحو التسامح والحرية الدينية تأثيره في إبراز أهمية الدعم الاختياري للكنيسة والمزيد من الديمقراطية وتولى العلمانيون شئون الكنيسة. وقبل الاستعماريون مبدأ عدم عصمة الإنسان وقصور المؤسسات الإنسانية وأقروا بذلك الاحتياج للحد من القوة والنفوذ بسبب الخطية. ولأن الأفراد لم ينشأوا في إطار كنيسة رسمية تابعة للدولة، زادت أهمية مجهودات الكرازة كوسيلة لربح الناس للمسيحية. إلا أنه لسوء الحظ فإن فصل الكنيسة عن الدولة غالبًا لم يؤدِ إلى مجرد رفض تفضيل مذهب على آخر لكنه نتج عنه اتجاه لا ديني في مباشرة شئون الدولة. خلق الانفصال الدولة العلمانية في القرن العشرين، والذي هدد في بعض البلدان وجود الكنيسة ذاتها.

أما الاتجاه نحو الطائفية فقد حل محله في القرن العشرين ميولاً جديدة نحو الوحدة والحركات المسكونية. فاليوم يبدو أن الاندماج والاتحاد قد حل محل موجة التشرذم التي سادت فترة ما بعد الإصلاح في الحركة البروتستانتية. تميزت المسيحية في العصر الحديث بحركة تبشيرية بروتستانتية Protestant Missions عظيمة بدأت منذ عام ١٧٩٢، وحركة عمل اجتماعي خيري لمواجهة الاحتياجات الإجتماعية. وقد واجهت الكنيسة ايضًا هجومًا من ناقدي الكتاب المقدس ومن دعاة نظرية التطور ومن بعض الحكومات الشمولية.

ولم تظهر هذه السمات المميزة لتاريخ الكنيسة الحديث في أي مكان بأوضح مما ظهرت به في أمريكا. ولا يستطيع المرء إلا أن يدهش لحقيقة أن اكتشاف كولومبوس لأمريكا وبداية الإصلاح لا يفصلهما إلا خمسة وعشرون عامًا. وقد وجدت كل واحدة تقريبًا من الكنائس البروتستانتية التي

أفرزها الإصلاح بل والكنيسة الكاثوليكية نفسها بعد ذلك من يمثلها في مجتمع أمريكا الجديد. تميزت المسيحية في أمريكا بالحيوية والإبداع وذلك لاجتماع عدد من الأسباب التي أدت إلى ذلك؛ مثل المسافة بين أمريكا وأوربا، والبداية المبكرة للخدمة التطوعية وما استتبعها من سيطرة الشعب على شئون الكنيسة. والموجات المتكررة من الانتعاش الروحي، والتأثير الإيجابي لإحساس المواطنين بفرصتهم لخلق مجتمع جديد، واتجاه معظم الجماعات التي هاجرت إلى أمريكا نحو نوع من التفكير الديني الجذري. وقد شهدت المسيحية الأمريكية عدداً من الأنشطة المبتكرة مثل المؤتمرات والحملات التبشيرية، والسخاء في العطاء، وحركة الاعتدال أو الامتناع عن الملذات، وعمل الهيئات الكنسية على توفير الدعم للاحتياجات الاجتماعية والثقافية إلى جانب الاحتياجات الدينية، العمل بين الشباب، المراكز التبشيرية في المدن، والحركة المسكونية، هذه كلها إنما تظهر هذا الجانب الابتكاري الخلاق في المسيحية الأمريكية.

## ١- بدايات المسيحية الأمريكية

اختلفت الدوافع التي دفعت الاستعمار والاستيطان الأنجلو ساكسوني للساحل الأطلنطي لأمريكا الشمالية. فالكثيرون من هؤلاء المستعمرين كانوا يرجون أن يجدوا الطريق البحري الغربي لثروات آسيا، وللمواد الأولية الرخيصة وفتح أسواق التجارة المربحة. أرسل آخرون بسبب الاعتقاد بأن هذه المستوطنات الجديدة يمكن أن تستوعب الزيادة السكانية في أوربا. وكان إنشاء المستعمرات جدير بأن يساعد على مواجهة التهديد العسكري الذي تمثله أسبانيا في العالم الجديد. ولكن الدافع الديني كان على درجة كبيرة من الأهمية في إنشاء هذه المستعمرات. فإن معظم الدساتير والمواثيق التي وقعت كانت تظهر بوضوح رغبة الموقعين عليها في تبشير السكان الأصليين للأرض وامتداد ملكوت المسيح.[1] وفي بعض حالات أخرى، مثل حالة البيوريتان من بليموث وسالم، كان المستعمرون مهتمين بأن يمارسوا العبادة بطريقتهم الخاصة. لذلك فإن نقل المستوطنين من انجلترا وفرنسا وأسبانيا والسويد وهولندا إلى أمريكا الشمالية لا يمكن فصله عن محاولات نقل وزرع معتقداتهم الدينية في بلدهم الجديد. كان لمعظم هؤلاء المستوطنين الجدد خلفيات كالفينية. أما الوسيلة التي استخدمت لتوطين هؤلاء الناس فكانت الشركات المساهمة، وهي شكل أولي من المؤسسات الكبرى الحديثة. فبهذه الطريقة أمكن توفير الأموال اللازمة لتمويل هذه العملية الضخمة.

### أ- الكنيسة الأنجليكانية (الأسقفية) في أمريكا

أعطيت شركة فيرجينيا عام ١٦٠٦ امتياز الاستيطان واستغلال الأراضي في أمريكا، وارسلت أول مستوطنيها إلى بلدة جيمس تاون في عام ١٦٠٧. نظم هذا التوطين للعمال والمزارعين على أساس جماعي، حيث تم توفير ما يلزم لتأسيس كنيسة انجليكانية Anglican (أسقفية). وكان من بين هؤلاء المستوطنين قسيس اسمه روبرت هنت Robert Hunt الذي أجرى فريضة العشاء الرباني لأول مرة للمستوطنين الأول تحت سقف من شراع قديم ليحميهم وجلسوا جميعًا على قطع خشبية من جذوع الأشجار. أما جون رولف Rolfe وزوجته بوكاهونتاس فقد وضع الأساس الذي أصبح مصدراً لثراء هذه المستوطنة وذلك عندما زرع التبغ



تراث حركة الإصلاح في الولايات المتحدة

القارة الأوربية
هولندا
السويد
ألمانيا
فرنسا
الجزر البريطانية
اسكتلندا
انجلترا
المينونايت (بنسلفانيا)
اللوثريون المصلحون
اللوثريون المصلحون
اللوثريون (بلادهم)
اللوثريون (بنسلفانيا)
الهيجونوت البروتستانت الفرنسيون (ساوث كارولينا)
المشيخيون (بنسلفانيا)
المعمدانيون
جون نوكس
فرانسيس ماكيمي
الانفصاليون
التطهيريون
الاستقلاليون (ماساتشوستس)
كويكرز (بنسلفانيا، نيوجرسي)
الكويكرز
المعمدانيون (رود آيلاند)
الكاثوليك (ميريلاند)
الأنجليكان (جورجيا، ميريلاند، نورث كارولينا، نيويورك، فيرجينيا، ساوث كارولينا)

بنجاح في عام ١٦١٢. ولم تزدهر هذه المستعمرة اقتصادياً إلا عندما أنهت تجربتها الجماعية في عام ١٦١٩، حيث منحت الشركة مستوطنيها الحق في انتخاب مجلس إدارة للمستوطنة.

زاد عدد المهاجرين من البيوريتان Puritan الأنجليكان إلى تلك المستعمرة. وأصبح الكساندر ويتيكر Alexander Whitaker، والذي كانت له ميول تطهرية، هو أبرز رعاة الكنيسة الأنجليكانية Anglican (الأسقفية) في فرجينيا في الفترة ما بين ١٦١١-١٦١٧. وقد وضع أساس نظام العبودية بعد أن اشترى المستوطنون العبيد من التجار الهولنديين في عام ١٦١٩ وذلك للعمل في زراعات التبغ. وفي عام ١٦٢٤ تم حل الشركة، وأصبحت فيرجينيا Virginia إحدى مستعمرات التاج البريطاني يحكمها حاكم ينوب عن ملك انجلترا. وبقت الكنيسة الأسقفية هي الكنيسة الأساسية في المستعمرة الجديدة. وكان خدام تلك الكنيسة ورعاتها يقومون بالخدمة فيها بفتور وعدم اهتمام، حتى جاء جيمس بلير James Blair (١٦٥٥-١٧٤٣ تقريباً)، الذي كان راعياً لكنيسة بروتن Bruton من ١٧١٠-١٧٤٣، إلى فرجينيا في عام ١٦٨٩ ليمر على الكنائس ويفحص أحوالها ويقرر الإصلاحات اللازمة لها. وقد أسس كلية ويليام أند ماري في عام ١٦٩٣.

وأصبحت الكنيسة الأنجليكانية هي أكثر الكنائس رسوخاً في ميريلاند Maryland أيضاً في عام ١٧٠٢، وذلك بالرغم من معارضة الكاثوليك الذين أعطاهم لورد بلتيمور Lord Baltimore الإذن بالاستيطان هناك. وانتهى التعايش الديني الذي كان اللورد بلتيمور ضامناً له في البداية.




*هذه الصورة للختم الرسمي الذي استخدمته جمعية نشر الإنجيل في الأقاليم الخارجية. ويظهر فيه اندفاع الوطنيين إلى الشاطئ للترحيب بخادم الإنجيل الذي يظهر واقفاً في طرف السفينة حاملاً كتاب مقدس مفتوح.*

ترسخت الكنيسة الأنجليكانية أيضاً في أجزاء من نيويورك في ١٦٩٣ برغم مقاومة الهولنديين الذين كانوا قد استوطنوا في نيويورك منذ البداية. وصدر قرار في عام ١٧١٥ بأن تكون الكنيسة الأنجليكانية هي الكنيسة الرسمية في كارولينا الشمالية حيث كانت قد ترسخت قبلاً في كارولينا الجنوبية في عام ١٧٠٦. وقبلت جورجيا تأسيس الكنيسة الانجليكانية فيها في عام ١٧٥٨. ولم يتغير هذا الوضع حتى قيام الثورة الأمريكية.

تأسست جمعية نشر الإنجيل في الأقاليم الخارجية Society for the Propagation of the





Gospel in Foreign Parts في عام ١٧٠١ حيث أسسها توماس براي Thomas Bray (١٦٥٦-١٧٣٠) الذي كان حاكماً لميريلاند. وأتاحت هذه الجمعية خدمة روحية تميزت بتكريس فائق وصلت إلى الكنائس المختلفة التي سبق تأسيسها وكانت تلك الكنائس قبل ذلك الوقت تتميز بنوع من التراخي الأخلاقي والروحي. فأرسلت هذه الجمعية ما يزيد عن ثلثمائة مرسل للعمل في المستوطنات. وهكذا أصبح في المستعمرات الجنوبية كنيسة انجليكانية Anglican رسمية.

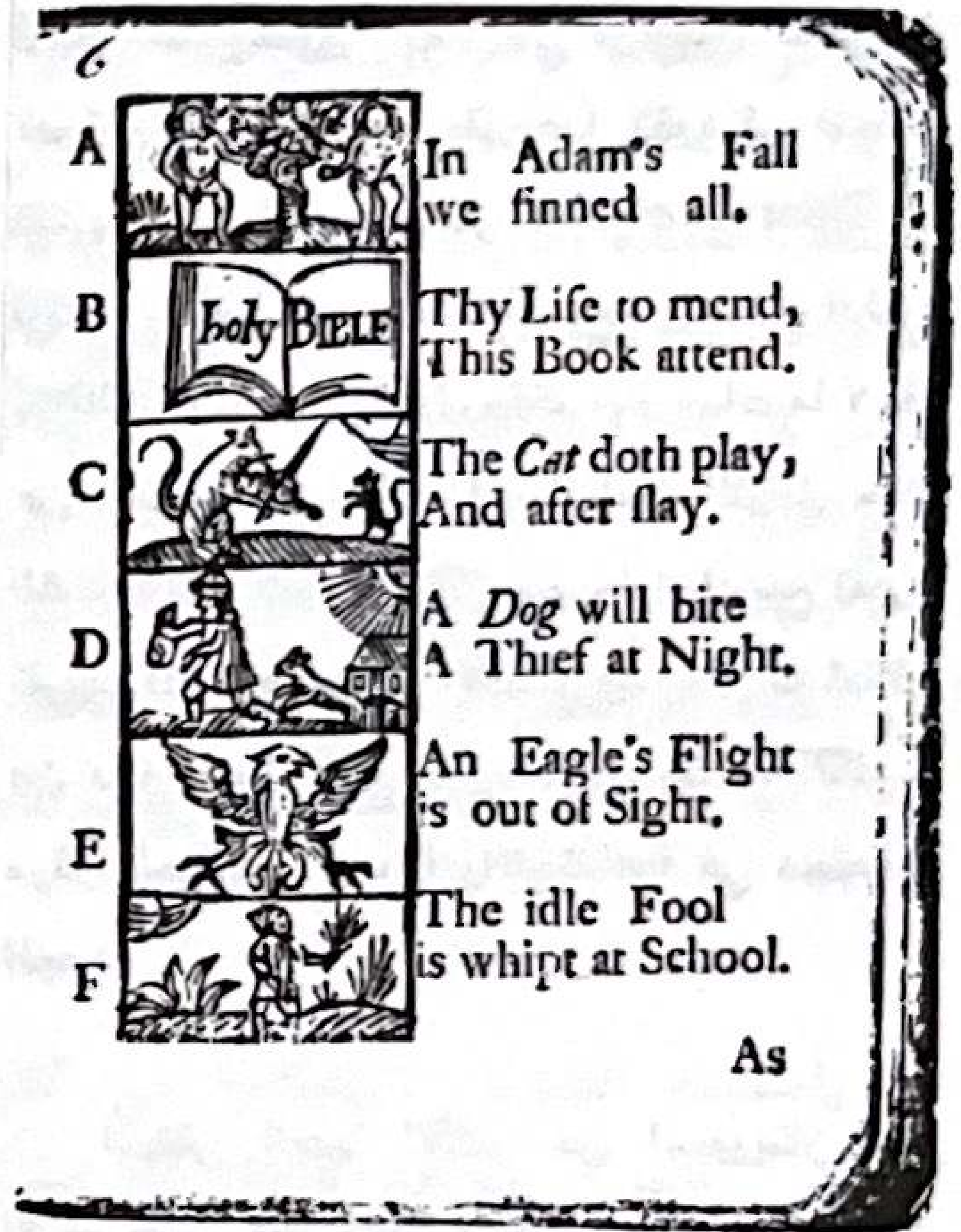
### ب-الكنائس الاستقلالية في نيو إنجلند

ترسخت الكنائس التي يديرها شعبها المحلي والتي عرفت بالكنائس الاستقلالية Congregational في مستعمرات نيوإنجلند. ففي أوائل القرن السابع عشر، هاجرت جماعة سكروبي إلى المدينة المحبة ليدين في هولندا، وذلك هرباً من الاضطهاد الذي تعرضوا له بسبب أرائهم في أهمية أن يكون للكنيسة المحلية حقها في إدارة نفسها، قررت هذه الجماعة الهجرة إلى أمريكا في محاولة منهم لمنع ذوبان هوية شبابهم في المجتمع الهولندي. وقد أقرضتهم شركة للتجار المغامرين في لندن سبعة آلاف جنيهاً لتمويل رحلتهم إلى أمريكا. وكان المهاجرون لا يمتلكون ما يمكن أن يردوا به هذا القرض إلا مجهودهم وعملهم، فاتفقوا مع التجار أن يكون رد القرض هو مساعدة هؤلاء التجار على إنشاء صناعة لتصنيع الأسماك.

وفي أغسطس ١٦٢٠ أبحر أكثر من مائة مستوطن على السفينة ماي فلاور في طريقهم من انجلترا إلى أمريكا. ولأسباب معينة رسا هؤلاء المهاجرون الأوائل في بليموث Plymouth في نيو إنجلند بدلاً من وصولهم إلى شمال فيرجينيا. فاصبح لزاماً عليهم أن يسعوا للحصول على امتيازات جديدة من الشركة التي عاشوا على أراضيها. ولكي يوفروا حماية المستوطنة الجديدة من المشاغبين وقعوا عهداً أو تحالفاً إجتماعياً وهم بعد على السفينة عرف باسم Mayflower Compact واعتبروا ذلك الاتفاق اداة يمكن أن يحكموا بها مجتمعهم الجديد.[٢] كان هذا الاتفاق في حقيقة الأمر امتداداً لفكرة عهد تأسيس الكنيسة الذي نادى به الانفصاليون Separatists أساساً للحكومة المدنية، وبقي هذا الميثاق دستوراً للمستوطنة الجديدة حتى اندمجت بليموث مع مستعمرة سالم Salem في ماساتشوستس في عام ١٦٩١. لقد كان استقرار هؤلاء المستوطنين في بليموث عملاً من أعمال العناية الألهية، لأنه لو ترك أولئك المستوطنون الجدد في فرجينيا، لكانوا قد تعرضوا لاضطهاد لا يقل عما لاقوه في انجلترا نفسها. كان إلدر بروستر Elder Brewster هو قائدهم الديني، بينما أصبح وليم برادفورد William Bradford أول حاكم لهم. ومات ما لا يقل عن خمسين من هؤلاء المستوطنين الأوائل خلال الشتاء الأول القاسي ولكن مع حلول الربيع تغيرت ظروف المستوطنين إلى الأفضل وسرعان ما تمكنوا من دفع الدين الذي كان عليهم. وكانت الكنيسة مركزاً لحياتهم الروحية والاجتماعية في مجتمعهم الجديد.

استقر العدد الاكبر من البيوريتان غير الانفصاليين Non-Separatist Puritans في كل من سالم وبوسطن فيما بعد عام ١٦٢٨. وفي عام ١٦٢٦ نظم جون وايت John White الذي كان راعياً بيوريتانياً في دونشستر بإنجلترا، رحلة

عدد قليل من الناس في سالم. وصل خمسون شخصًا من هذه الرحلة إلى سالم في خريف عام ١٦٢٨ حيث اختاروا جون إنديكوت John Endicott حاكمًا لهم. كان هؤلاء الناس إما من البيوريتان الاستقلاليين أو يحتمل أنهم كانوا أنجليكان يميلون إلى الكنائس الاستقلالية قبل تركهم لإنجلترا.[٣] كان ذلك هو الذي قاد مستعمرة سالم إلى تأسيس النظام الاستقلالي Congregational لإدارة الكنيسة على أساس التعاهد، ربما أكثر من المجهودات الطبية التي قام بها الدكتور صموئيل فولر Samuel Fuller الذي جاء من مستعمرة بليموث الانفصالية Separatists ليقدم المعونة الطبية في شتاء ١٦٢٨-١٦٢٩ لمستوطني سالم.




*كان منهج التعليم الابتدائي في نيو إنجلند يقدم عقائد البيوريتان وقيمهم إلى جانب تعليم الحروف الهجائية.*

وفي عام ١٦٢٩ انضمت مؤسسة وايت White إلى شركة خليج ماساتشوستس حيث انسحب جميع حملة أسهم هذه الشركة الذين لم يريدوا الهجرة من انجلترا منها، وأبحر نحو تسعمائة شخص إلى أمريكا ومعهم مديرين الشركة وميثاق امتيازاتها لكي يتخلصوا من الحكم الفردي المستبد لتشارلز الأول Charles 1st. في عام ١٦٣١ قصرت محكمة ماساتشوستس العامة حق التصويت على أعضاء الكنائس وبذا أصبح المذهب الاستقلالي Congregationalism هو المذهب الرسمي للأقليم. رفض المستوطنون النظام الرياسي الأسقفي لكنهم احتفظوا بمبدأ الإيمان الموحد. وعيّن جون ونثروب John Winthrop (١٥٨٨-١٦٤٩) حاكمًا على مستعمرات سالم وبوسطن. وصل أكثر من عشرين ألف من البيوريتان إلى هذه المستوطنات في الفترة ما بين ١٦٢٨-١٦٤٠. وكان خدام الكنائس التي ازداد عددها من خريجي الجامعات ، وقد تلقى معظمهم تعليمهم في كامبريدج. كانوا يفسرون الكتاب المقدس للشعب باعتباره الدستور الأساسي للإيمان والحياة، وكانوا يشرحونه حتى يستطيع الشعب تطبيقه على حياتهم الخاصة وحياتهم المدنية أيضًا. وبالرغم من كون سياسة الكنيسة استقلالية، لكن الفكر اللاهوتي لهؤلاء التطهريين كان كالفينيًا.

أدت الرغبة في شغل المناطق الخصبة المجاورة، إلى جانب تعصب قادة نيوإنجلند، إلى حدوث ما يمكن أن ندعوه "نزوح البيوريتان". تم تعيين توماس هوكر Thomas Hooker (١٥٨٦-١٦٤٧) راعيًا في نيوتون في ١٦٣٣ حيث بدأ يتضايق من اقتصار منح الحق الدستوري للإنتخاب على أعضاء الكنائس دون غيرهم. فقدم





هو ومعه شعب كنيسته طلبًا الى القاضي ليسمح لهم بالهجرة غربًا إلى وادي نهر كونيتكت الخصيب. فسمح لهم القاضي بالرحيل، وفي عام ١٦٣٦ أسسوا ثلاث مدن جديدة. وفي عام ١٦٣٨ تم صياغة اللوائح الأساسية لولاية كونيتكت حيث أصبحت دستورًا للمستعمرة الجديدة. كان هذا الدستور أكثر تحررًا من دستور المستعمرة الأم لأنه وضع شرطًا بوجوب أن يكون الحاكم فقط من بين أعضاء الكنائس.[٤] وكان أساس الحكم هو موافقة الشعب بالتصويت على المسئولين عند تولي الوظائف الرسمية.

ويمكن إرجاع الفضل في تأسيس مستعمرة أخرى إلى جون دافينبورت John Davenport (١٥٩٧-١٦٧٠) الذي كان راعيًا لكنيسة في لندن وإلى أحد أعضاء كنيسته اسمه ثيوفيلوس إيتون Theophilus Eaton الذي أبحر إلى أمريكا في عام ١٦٣٦ ومعه عدد كبير من شعب كنيسته. وقرروا فيما بينهم أنهم لن يطيب لهم العيش في بوسطون، وقرروا تأسيس مستعمرة جديدة في نيوهافن في الجزء الجنوبي من ولاية كونيتيكت الحالية. وحصلوا على بعض الأراضي من الهنود بمقتضى معاهدة وفي عام ١٦٣٩ أنشأوا رابطة مصالح مشتركة، اتخذت من الكتاب المقدس أساسًا لها وليس لغير أعضاء الكنيسة الحق في التصويت. وتم اندماج هذه المستعمرة مع المستعمرات الأخرى في عام ١٦٦٤ لتكوين مستعمرة كونيتكت.

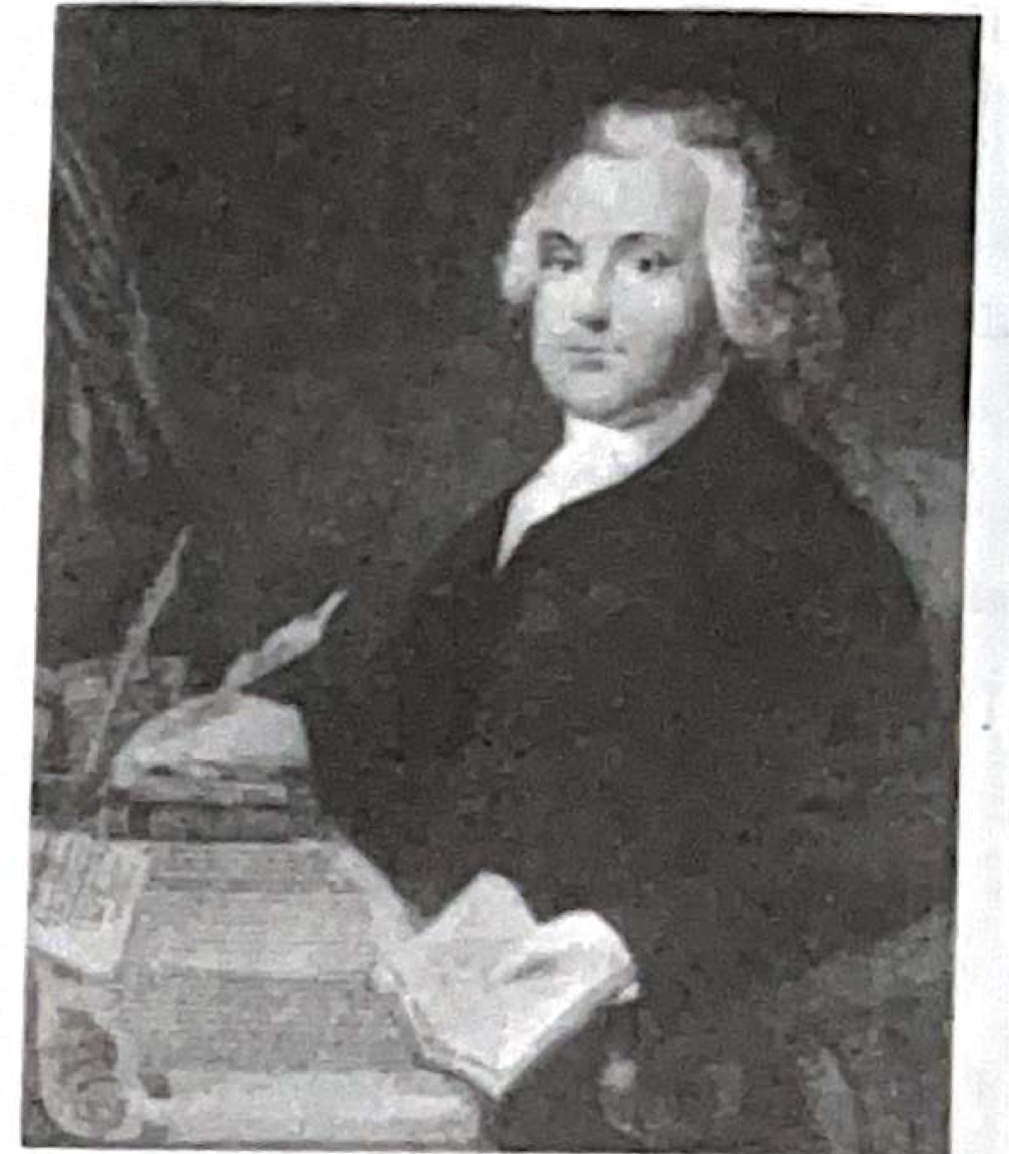
ولم تتأكد وحدة الفكر اللاهوتي ووحدة سياسة الكنيسة إلا بعد انعقاد سنودس في كامبريدج عام ١٦٤٦، حيث حضره ممثلون عن المستعمرات التطهرية الأربع وتبنوا جميعًا إقرار الإيمان الوستمنستري ليعبر عن موقفهم اللاهوتي وفي آخر الأمر صاغ الوثيقة المعروفة باسم. The Cambridge Platform[٥] في عام ١٦٤٨. وقد أعلنت هذه الوثيقة أن كل كنيسة وإن كانت مستقلة وتحكم ذاتها ولكنها ترتبط أيضًا بغيرها من الكنائس لتحقيق الشركة والتشاور. وكانت كل كنيسة تنشأ بواسطة تعاهد كنسي يربط الأعضاء معًا كما يربطهم بالمسيح رأس الكنيسة. وأصبح الرعاة والشمامسة هم أهم الشخصيات الرسمية، وكانت الكنيسة التي تريد رسامة شخص ما تدعو الرعاة الذين يخدمون في الكنائس المجاورة لعمل مراسيم الرسامة.

لم يتجاهل التطهريون Puritans الأوائل جيرانهم من الوثنيين. نظم جون إليوت John Eliot (١٦٠٤-٩٠) وكان راعي الكنيسة في روكسبري، خدمة بين الهنود في ١٦٤٦، وكان ينظم المتجددين منهم في مدن خاصة بهم. وفي عام ١٦٧٤ كان هناك أربع عشرة قرية يسكنها حوالي أربعة وعشرون ألفًا من الهنود المسيحيين وقام أيضًا بترجمة ونشر العهد القديم عام ١٦٦٣ والعهد الجديد في عام ١٦٦١ باللغة الوطنية للهنود الحمر.

### ج- بداية الكنائس المعمدانية الأمريكية

ارتبطت بداية الكنائس المعمدانية في أمريكا Baptist in America أيضًا بما عُرف بنزوح البيوريتان. تلقى روجر وليامز Roger Williams (١٦٠٣-٨٣ تقريبًا) تعليمه في كامبريدج ليصبح قسيسًا أنجليكانيًا ولكنه سرعان ما تبنى آراء الانفصاليين. وأدى به استقلال تفكيره إلى المجئ إلى بوسطن هربًا من انجلترا في عام ١٦٣١. ومن هناك ذهب إلى بليموث لأنه رأى أن الكنيسة في

بوسطن لم تكن قد طهرت نفسها بالقدر الكافي. وخدم وليامز لمدة عامين في بليموث وعندما دعته الكنيسة في سالم ليعمل راعيًا لها في عام ١٦٣٥ تدخلت المحكمة العامة بإيعاز من جون كوتون John Cotton فأمرت بطرد وليامز من منطقة نفوذها خلال ستة أسابيع بتهمة أنه ساند مطالبة الهنود بملكيتهم للأرض، وعارض الكنيسة الرسمية، وصمّم على أن القضاة ليس لهم سلطان على الحياة الدينية للأفراد. ترك ليامز زوجته وأولاده في بيت مرهون، وفرّ إلى الغابات في منتصف فصل الشتاء وظل هائمًا فيها حتى ساعده بعض الهنود المتعاطفين معه، وفي عام ١٦٣٦ اشترى بعض الأراضي من الهنود وأسس بلدة بروفيدنس.



روجر وليامز الذي كون غالبًا أول كنيسة معمدانية في شمال أمريكا في پروڤيدانس في رود أيلاند، ثم انسحب بعد ذلك من الكنيسة وأصبح "باحثًا عن الحق".

وفي العام التالي، صدر أمر من السلطات بإيقاف نشاط مسز آن هاتشينسون Anne Hutchinson (١٥٩١-١٦٤٣) لأنها كانت تعقد اجتماعات في بيتها حيث كانت تدعو إلى ما أسمته عهد النعمة. وكان عهد النعمة هذا مضادًا لعهد الأعمال وادّعت أن كل باقي الخدام ماعدا جون كوتون كانوا يعظون به. وقد سببت لها أفكارها عن الاستنارة الداخلية وعن يقين الخلاص الكامل عدة مشاكل. وقد تم نفيها من المستعمرة قبل ولادة طفلها بوقت قصير، وأجبرت على أن تقطع المسافة إلى رود أيلند سيرًا على الأقدام وكان ذلك في ذروة فصل الشتاء. وعندما استقرت ومعها أتباعها في نيوبورت وبورتسماوث، أصبح جون كلارك John Clarke الذي كان طبيبًا وواعظًا (١٦٠٩-٧٦) شيخًا معلمًا للكنيسة في نيوبورت في عام ١٦٣٨، ولكن ليس من المؤكد أن هذه الكنيسة كانت كنيسة معمدانية Baptist.

وفي عام ١٦٣٩، تأسست كنيسة في مدينة بروفيدنس، وأعيدت معمودية كل أعضائها، بما فيهم وليامز نفسه. ولم يتضح الأمر إن كان ذلك قد تم بالتغطيس، ولكن على كل الأحوال، فإنه من الثابت أن الأعضاء الاثني عشر الذين نظموا هذه الكنيسة نظموها على أساس معمداني. ويحتمل أنها كانت هي الكنيسة المعمدانية الأولى في أمريكا. ومع أنه كانت هناك كنيسة في نيوبورت في عام ١٦٣٨، إلا أن أول كنيسة معمدانية متميزة في نيوبورت بحسب ما تظهره السجلات ظهرت في عام ١٦٤٨. وما زالت الكنيستان في نيوبورت والأخرى في بروفدنس تتنازعان لقب أقدم كنيسة معمدانية في أمريكا. انسحب وليامز في وقت لاحق من الكنيسة في بروفدنس، ولكنه استمر يخدم





المستعمرات بحصوله على ميثاق مؤقت لمستعمرة رود أيلند في ١٦٤٤. وقد دُعمت هذه الوثيقة المؤقتة بأخرى دائمة منحها الملك تشارلز الثاني Charles 2nd[٦] في عام ١٦٦٣. أما إسهام وليامز الأعظم فتركز في دعوته المستمرة على فصل الكنيسة عن الدولة والحفاظ على حرية الضمير. وقد انبثقت الكنائس المعمدانية الكبرى في الزمن الحاضر من المجهود والنشاط المبكر الذي قام به وليامز Williams في رود أيلند.

### د- بدء الكاثوليكية التابعة لروما في ميريلاند Catholicism in Maryland

تلقت كل من أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية من اسبانيا والبرتغال ثقافة كاثوليكية لاتينية متجانسة، أما أمريكا الشمالية فيما عدا كيوبك ولويزيانا، فتلقت ثقافة بروتستانتية تعددية أنجلوساكسونية من شمال وغرب أوربا. وقدم الأسبان في عام ١٥٦٥ الإيمان الكاثوليكي في فلوريدا ثم بعد ذلك بقليل في كل من نيومكسيكو وأريزونا وكاليفورنيا ولكن لم يدم وجود ما زرعوه هناك طويلاً. بدأ الفرنسيون الكاثوليكية في كيوبك، ولكنها لم تتوطد في المستعمرات الثلاث عشرة إلا في ميريلاند في عام ١٦٣٤. وكان معظم الأيرلنديون والألمان الذين وصلوا إلى أمريكا بعد عام ١٨٥٠ من الكاثوليك.

نجح اللوردات بلتيمور Baltimore وجورج كالفيرت George Calvert (١٥٨٠-١٦٣٢ تقريبًا) ومن بعده ابنه سيسيل كالفيرت Cecil Calvert (١٦٠٥-٧٥) في الاهتمام بتأسيس ما يعرف الآن بولاية ميريلاند. وبعكس وليامز الذي عُرف بمثاليته ان آل كالفيرت يهتمون بتحقيق الأرباح من عملهم.

ومن بداية تأسيس تلك المستعمرة في عام ١٦٣٤، سمحوا بالتسامح والتعايش بين المذاهب حتى يضمنوا ويشجعوا استقرار كل من البروتستانت والكاثوليك في تلك المستعمرة الجديدة. وكان ذلك التسامح الديني يوازن صرامة السيطرة السياسية التي مارسها كالفيرت حتى صارت ميريلاند إحدى مستعمرات التاج البريطاني في عام ١٦٩٢، وأصبحت الأنجليكانية المذهب الرسمي في عام ١٧٠٢ عندما أقرت الحكومة الإنجليزية أخيرًا القانون الذي صدر عام ١٦٩٢ بشأن اتحاد المستعمرات.

### هـ- بنسلفانيا وحركة الكويكرز

ظهر الكويكرز Quakers في بوسطن في عام ١٦٥٦ ولكنهم سرعان ما وجدوا أنفسهم يواجهون عدم ترحيب التطهريين في نيوإنجلند وذلك بسبب فكرهم المؤيد لفصل الكنيسة عن الدولة وبسبب قلة اهتمامهم بالتعليم العقائدي. وقد قُسمت نيوجرسي في عام ١٦٧٤ إلى قسمين جرسي الشرقية وجرسي الغربية حتى عام ١٧٠٢، وأصبحت جيرسي الغربية مستوطنة خاصة بالكويكرز. ولكن بنسلفانيا Pennsylvania صارت الملجأ الأعظم للكويكرز وذلك من خلال الجهود التي بذلها وليام بن William Penn. فقد كان الملك تشارلز الثاني مدين لوالد بن بمبلغ ستة عشر ألفًا من الجنيهات فأعطى وليام بن السيادة على بنسلفانيا تسديدًا لهذا الدين. فجعل بن من هذه المستعمرة ملجأ لكل المظلومين من أي مذهب ليأتوا إليه ويجدوا الحماية. وربما يفسر لنا ذلك التنوع العظيم بين مختلف الجماعات الذي يبدو واضحًا عند دراسة التاريخ الديني لولاية بنسلفانيا. في عام ١٦٨٣ استقرت أعداد كبيرة من الألمان المينونيتس Mennonites

فيما يعرف اليوم بجيرمان تاون بالقرب من فيلادلفيا. وفي عام ١٧٤٠ استقر عدد من المورافيين في بنسلفانيا بعد إقامة قصيرة في جورجيا ما بين عام ١٧٣٥-١٧٤٠. وقد زار زينزندورف Zinzendorf، قائد المورافيين، بنسلفانيا بنفسه في عام ١٧٤١ حيث حاول دون أن ينجح في توحيد مختلف الجماعات الألمانية. أصبحت بيت لحم مركزًا رئيسيًا للمورافيين. ومع أن اللوثرية الأمريكية كان لها بدايتها في المستعمرة الهولندية في نيوأمستردام وفي المستعمرة السويدية على نهر ديلاوير، إلا أنه لم يكن لها تنظيم محدد حتى وصل هنري موهلنبرج Muhlenberg (١٧١١-٨٧) إلى أمريكا في عام ١٧٤٢. واستطاع أن يكوِّن سنودسًا لوثريًا في بنسلفانيا في عام ١٧٤٨. وعندما بدأت الثورة كان هناك ما يقرب من خمسة وسبعين ألف لوثري في بنسلفانيا وحدها. كان التنوع والاختلاف الديني هو أهم مميزات الحياة الدينية في بنسلفانيا والمستعمرات الوسطى بينما سادت الأنجليكانية المستعمرات الجنوبية والكنيسة الاستقلالية في المستعمرات الشمالية.

### و- المشيخية في أمريكا

خلال النصف الأول من القرن السابع عشر استمر تدفق المهاجرين من الأسكتلنديين المشيخيين على ايرلندا الشمالية. وقد استقدمهم الملك جيمس الأول James 1st ليحلوا محل الأيرلنديين الوطنيين. وهاجر الكثيرون من هؤلاء الأيرلنديين الأسكتلنديين إلى المستعمرات بعد عام ١٧١٠ وذلك بسبب التفرقة الإقتصادية ضد أيرلندا التي فرضتها القوانين التجارية في انجلترا. وانتقل كثيرون منهم، بعد إقامة قصيرة في نيوانجلند، إلى نيوجرسي ونيويورك، حيث سكنوا في ألستر وأورانج. وذهب عدد أكثر إلى وسط وغرب بنسلفانيا وأصبح لهم نفوذ في منطقة بيتسبرج التي أصبحت منطقة رئيسية للمشيخية Presbyterianism في أمريكا. وذهب آخرون جنوبًا إلى وادي شيناندوه في فرجينيا.

أصبح فرانسيس ماكيمي Francis Makemie (١٦٥٨-١٧٠٨) الذي كان أيرلنديًا وصل إلى المستعمرات في عام ١٦٨٣، أبًا للمشيخية الأمريكية حيث نجح عام ١٧٠٦ في تنظيم مجمع مشيخي في فيلادلفيا، وفي عام ١٧١٦ انعقد أول سنودس للمستعمرات. وفي عام ١٧٢٩ تبنى السنودس إقرار الإيمان الوستمنستري كأساس للإيمان. ويُعتبر المشيخيون والأنجليكان والاستقلاليون والمعمدانيون أكبر الكنائس في المستعمرات.

### ز- الميثودست في المستعمرات

دخلت الميثودية Methodism إلى المستعمرات الثلاث عشر عن طريق روبرت سترويبريدج Robert Strawbridge في ميريلاند وفيليب إمبوري Embury وكابتن ويب Webb في نيويورك بعد عام ١٧٦٠. أرسل جون وسلي John Wesley كل من ريتشارد بوردمان Boardman وجوزيف بيلمور Pilmoor كمرسلين مبشرين بصفة رسمية في عام ١٧٦٨. أما المبشر المتجول العظيم فرانسيس أزبوري Asbury (١٧٤٥-١٨١٦) فجاء إلى أمريكا عام ١٧٧١ ثم أصبح في عام ١٧٨٤ أول أسقف بعد تنظيم الميثودستية رسميًا في المستعمرات. وهكذا نرى كيف انتقلت كل الكنائس المختلفة التي أفرزتها حركة الإصلاح في أوربا ليعاد زرعها في المجتمع الجديد في أمريكا، وذلك بقيام انجلترا





بدور الجسر الذي عبرت منه كل هذه الكنائس. وتم هذا كله في الـ ١٥٠ سنة الأولى من تاريخ المستعمرات الأمريكية. وفيما عدا فترة قصيرة في ميريلاند والمستعمرات الوسطى، كانت هناك كنيسة منظمة لها الكلمة العليا وذلك حتى قيام الثورة الأمريكية. أما بعد الثورة الأمريكية فقد جعل انفصال الكنيسة عن الدولة الكنائس في أمريكا تعتمد على الدعم الاختياري الذي يقدمه أعضاؤها للحصول على الأموال اللازمة لتمويل مشروعاتها، وتعتمد على الكرازة لربح البعيدين عن الكنيسة أو أولاد أعضائها للانضمام إلى عضويتها والشركة فيها.

## ٢- التعليم في المستعمرات الأمريكية

بعد أن تم بناء البيوت، وإقامة الكنائس، وتنظيم السلطات المدنية، وتأمين سبل العيش للسكان، برز التعليم كأحد الاهتمامات الأولى للمستوطنين وذلك حسب ما يظهر من الكتيب المنشور بعنوان "باكورات نيوانجلند". كان هذا الاهتمام بالتعليم من ضمن تراث حركة الإصلاح وذلك لأن كالفن Calvin ولوثر Luther أبرزوا الإحتياج للتعليم لكي يتمكن كل فرد من قراءة كتابه المقدس وحتى يمكن أيضًا تدريب القادة اللازمين لقيادة الكنيسة والدولة. كان للكتاب المقدس المكانة الأولى في مناهجهم الدراسية وأيضًا في مناهج المؤسسات التعليمية في أمريكا في بداية عهدها، ثم جاء التدريب الكلاسيكي في المكان الثاني كعنصر مساعد على الفهم الكامل للكتاب المقدس. أما التعليم المهني في المستعمرات فقد دعَّمه استمرار العمل بنظام التلمذة المهنية المتبع في انجلترا. ويقتضى هذا النظام كان الطالب يتتلمذ على يد أستاذ ماهر بأن يكون مساعدًا له في أية حرفة أو صناعة معينة ويبقى تحت رعايته حتى يتقن هذه الحرفة تمامًا. كان التعليم الابتدائي إلزاميًا حيث حتم القانون أن تتولى الحكومة مسئوليته ولاسيما في المستعمرات الشمالية، أما في المستعمرات الجنوبية فكان يتم تحقيق نفس الهدف عن طريق تأجير المدرسين الخصوصيين لأولاد العائلات الغنية. كانت المدارس الثانوية، والتي عُرفت باسم المدارس اللاتينية أو Grammar Schools، فقد أنشئت لإعداد الطالب للدراسة الجامعية وذلك بتعليمه أساسًا متينًا في اللغات الكلاسيكية. أما الكليات فكان دورها هو إعداد القادة اللازمين للوظائف الدينية والوظائف المدنية.

تأسست جامعة هارفارد Harvard College في عام ١٦٣٦ "لنشر التعليم" ولضمان توفير خدام متعلمين قادرين على نقل التراث الديني والثقافي من ذلك الجيل إلى الأجيال التالية.[٧] كان الهدف الأساسي للحياة والدراسة هو معرفة الله وابنه يسوع المسيح حتى ما يصبح الله هو "الأساس الوحيد" لعملية التعلم. أوصى جون هارفارد John Harvard، الذي تسمت الجامعة باسمه، بتخصيص مبلغ ثمانمائة جنيه إلى جانب مكتبته التي حوت أربعمائة كتاب لدعم الكلية الوليدة.

أما كلية وليم أند ماري William and Mary College في وليامزبرج فقد تأسست عام ١٦٩٣ على فكرة أن أحد وظائفها الأساسية "تربية أجيال من الخدام الصالحين". ثم بعد ذلك بقليل قام التطهريون في كونتكت بافتتاح كلية ييل Yale في عام ١٧٠١ وذلك لتقديم "تعليم تحرري وديني

"الشباب" حتى لا تفتقر الكنيسة إلى قيادات فعالة. في عام ١٧٢٦ أنشأ وليم تانينت Sr.William Tennent، (١٦٧٣–١٧٤٦) وهو قسيس أيرلندي، كلية خاصة لتعليم أبنائه وغيرهم من الأولاد وإعدادهم للخدمة. ثم جاء من بعده جوناثان ديكينسون Jonathan Dickinson الذي استصدر إذنًا في عام ١٧٤٦ بإنشاء مدرسة بهدف استكمال ما بذل من جهود. وانتقلت هذه المدرسة، التي عرفت باسم كلية نيوجرسي، إلى برنستون ثم ما لبثت أن اشتهرت باسم جامعة برنستون Princeton University. ظهرت كينجز كوليج King's College (Columbia) إلى الوجود بمقتضى ميثاق ملكي صدر في ١٧٥٤. وأنشأ المعمدانيون كلية رودأيلند في عام ١٧٦٤ باعتبارها مؤسسة تعليمية تدرس العلم والدين دون النظر للإختلافات العقائدية. وهي نفس الكلية التي تطورت لتصبح جامعة براون Brown University. تأسست دار تماوث في عام ١٧٧٠ ، وجامعة روتجرز Rutgers University في عام ١٨٢٥. وتأسست كلية الكويكرز المعروفة باسم هافرفورد Haverford College في عام ١٨٣٣. سعت كل جماعة لأن تنشئ لنفسها مؤسسة للتعليم العالي لتوفير القيادات الفعالة لخدمة الكنيسة والمجتمع.[8]

## ٣- الصحوة الروحية الكبرى
## The Great Awakening

كانت النهضات التي تحدث على فترات متواترة إحدى سمات المسيحية بين الانجلو ساكسون على سواحل الاطلنطي والتيوتانيين إلى جانب المسيحية الامريكية. ويبدو أن الاحتياج إلى الوصول إلى الذين خارج نطاق الكنيسة والاحتياج إلى تحريك المؤمنين أنفسهم هما اللذان وفرا الدافع لحدوث هذه الانتعاشات الروحية. وقد حدثت هذه الانتعاشات في فترات متعددة حيث استمر كل منها عشر سنوات على الأقل ولاسيما في فترات الأزمات. كانت مثل هذه الانتعاشات تحدث بشكل تلقائي قبل عام ١٨٦٥، ولم تكن منظمة وكان لها طابع رعوي، وكان أغلبها يحدث في الريف أو القرى وفي الكنائس الاستقلالية. كان الجو الأخلاقي العام في فترة ما قبل عام ١٧٠٠ قد تعرض لتدهور في الشعور الديني والأخلاقي، وذلك بسبب عدد من العوامل منها تأثير روح الإقدام والاستكشاف، والتحركات السكانية الكبيرة، سلسلة من الحروب الوحشية، والميول التي بدت واضحة في بعض المناطق لفصل الكنيسة عن الدولة.

أما الانتعاش الكبير والذي كان له صبغة كالفينية فقد بدأ بالوعظ الذي كان يقوم به ثيودور فريلينجيوسن Theodore Frelinghuysen للكنائس الهولندية المصلحة في نيوجرسي في عام ١٧٢٦. وقد فجرت النهضة الغيرة على الحياة الروحية الأخلاقية بين الشعب. وقد أثرت خدمة هذا الواعظ على بعض الرعاة المشيخيين ومنهم جيلبرت تينانت Gilbert Tennent (١٧٠٣–٦٤) ووليام تينانت الابن Jr.William Tennent (١٧٠٥–٧٧) حتى صاروا رسلاً ملتهبين للنهضة بين الأيرلنديين الاسكتلنديين من سكان المستعمرات الوسطى. وهكذا وجد هويتفيلد Whitefield الأرض ممهدة لانتشار النهضة عندما جاء إلى المستعمرات الوسطى في عام ١٧٣٩.

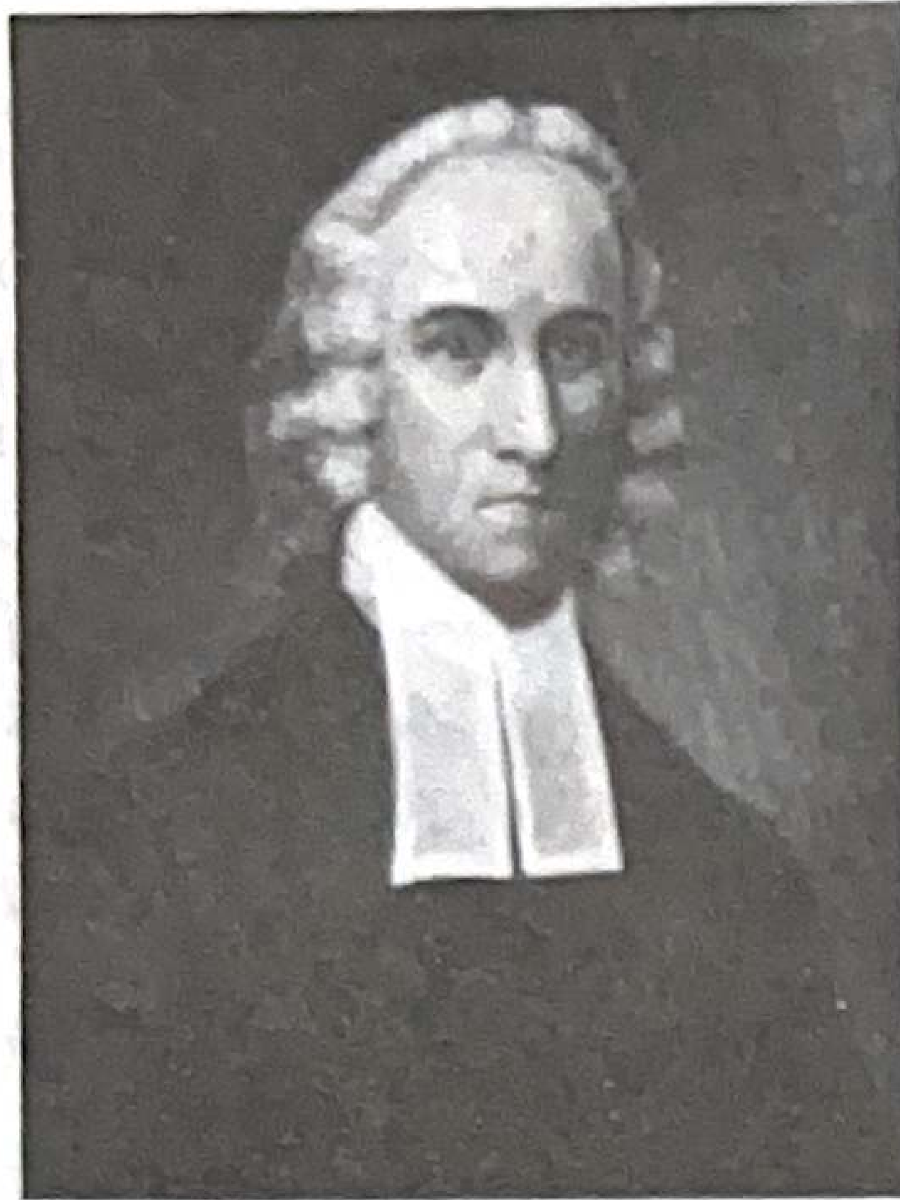
وسرعان ما انتشرت نيران النهضة التي بدأت وسط الكنائس الهولندية الكالفينية المصلحة





والمشيخيين في المستعمرات الوسطى، لتصل إلى الاستقلاليين في نيوانجلند بواسطة مجهودات جوناثان إدواردز Johnathan Edwards (١٧٠٣–٥٨). كان إدواردز من الدارسين المجتهدين الذين تخرجوا من ييل Yale في عام ١٧٢٠ وهو بعد في سن السابعة عشر، وأصبح راعيًا مساعدًا في نورثهامتون في غرب ماساشوسيتس في عام ١٧٢٧. وبالرغم أنه كان يقرأ عظاته من مذكراته مباشرة، إلا أن غيرته وصلواته كان لهما تأثير كبير على شعب كنيسته. وتظهر عظته "خطاة بين يدي إله غاضب" التي ألقاها سنة ١٧٤١ مقدار قوته على المنبر. وانتشرت النهضة التي بدأت عام ١٧٣٤ لتشمل كل أنحاء نيوانجلند حتى وصل مداها ذروته في عام ١٧٤٠.[9] وعندئذ ظهر چورج هويتفيلد Goerge Whitefield (١٧١٤–٧٠) في بوسطن، ولاقى وعظه في بوسطن وفي مختلف أنحاء نيوانجلند نجاحًا واقبالاً كبيرًا. وعندما فقد ادواردز منبره في عام ١٧٥٠، ذهب للخدمة بين الهنود حتى عام ١٧٥٨. وفي نفس ذلك العام أصبح رئيسًا لجامعة برنستون Princeton University ولكنه مات في نفس العام بمرض الجدري. وقد تمسك ادواردز بالفكر اللاهوتي الكالفيني وآمن بانه وإن كان البشر لديهم قدرة منطقية تؤهلهم للاتجاه إلى الله، إلا أنهم وبسبب فساد طبيعتهم الكامل يفتقرون إلى القدرة أو الميل الأدبي لذلك. وإن هذه الإمكانية ينبغي أن تخلقها فيهم نعمة الله. وقد نبَّر على سيادة الله وعلى محبته تجاه البشر في الكتاب الذي نشره بعنوان "حرية الإرادة". كتب يقول إن محبة الله تجذب البشر إليه وإلى خدمته بعد تجديدهم.

حمل المشيخيون من المستعمرات الوسطى نيران النهضة إلى الجنوب. أصبح صموئيل دافيز



*يوناثان إدوارد، القس المستقل، واعظ النهضات، المرسل إلى الهند، المؤلف، أول رئيس لبرنستون، وأيضًا – في رأي البعض – أعظم فيلسوف لاهوتي أنجبته أمريكا الشمالية.*

Samuel Davies (١٧٢٣–٦١) قائدًا للنهضة بين المشيخيين في مقاطعة هانوفر في فيرجينيا. وقد نما هذا العمل مما عمله صموئيل موريس الذي كان يقرأ الكتب الدينية لجيرانه في البيت الذي فتحه لذلك. أما المرحلة المعمدانية من هذا الانتعاش في جنوب البلاد فقد نما من مجهودات شوبال ستيرنز Shubal Stearns (١٧٠٦–٧١) ودانيال مارشال Daniel Marshall من نيوانجلند. كان وعظهم يتميز بالعاطفية، وربحت الكنيسة المعمدانية الكثيرين في كارولينا الشمالية. وكان للنهضات الميثودية جذور عميقة في الجنوب بواسطة جهود ديفيرو جارات Devereux Jarratt (١٧٣٣–١٨٠١) وهو راعي أسقفي وبواسطة آخرين من المبشرين العلمانيين أثناء النهضة والانتعاش.

وحدَّ هويتفيلد Whitefield جهود كل هؤلاء المبشرين وهو يتنقل بين المستعمرات في سبع زيارات قام بها في الفترة ما بين ١٧٣٨-١٧٦٩. وبالرغم من أنه كانت هناك ظواهر غير مألوفة تتبع الوعظ، إلا أن نمط تلك الاجتماعات كان أكثر اتزانًا من نهضات الانتعاش الثاني Second Awakening، والذي حدث في نهاية القرن، حيث كان ذلك الانتعاش بمثابة الصيغة الامريكية التي تقابل الحركة التقوية في أوربا والنهضة الميثودية في انجلترا.

وكان متوقعًا لمثل هذه الحركة أن يكون لها نتائج غير عادية. فقد انضم ما بين ٣٠-٤٠ ألف شخص وتأسست ١٥٠ كنيسة جديدة انضمت إلى الكنائس في نيوانجلند وحدها والتي كان مجمل عدد سكانها في ذلك الوقت ٣٠٠ ألف نسمة. وانضم آلاف آخرون للكنائس في الجنوب وفي المستعمرات الوسطى. وارتفعت نبرة الشعور الأخلاقي في البيوت وفي العمل وفي أماكن الترويح. وتأسست كليات Colleges مثل برنستون وكنجز (كولومبيا)، وهامبدن Hampden سيدني Sydney وغيرها بهدف توفير خدام للكنائس المحلية الجديدة الكثيرة. وبدأت الجهود التبشيرية في الحقل المرسلي بحيث خرج أناس مثل دافيد برايند David Brainerd (١٧١٨-٤٧) الذي خرج في عام ١٧٤٣ للخدمة بين الهنود محتملا قدرًا كبيرًا من التضحيات الشخصية. أسس هويتفيلد ملجأ للأيتام في بيت حسدا في ولاية جورجيا.

وقد تأسس العديد من المؤسسات الإنسانية كنتيجة مباشرة للنهضة والانتعاش. وقد تسببت النهضة أيضًا في حدوث انشقاقات حيث اختلف القسوس في مواقفهم من اتجاه الكنيسة من جهة هذه الحركة. فانقسم رجال الكنيسة في نيوانجلند إلى جماعة اسمها "الأنوار القديمة" Old Lights بقيادة تشارلز تشنسي Charles Chauncy الذي عارض النهضة والمبشرين المتجولين وكالفينية معظم مبشري النهضة، وجماعة أخرى اسمها "الانوار الجديدة" New Lights التي قادها إدواردز Edwards الذي أيد وساند النهضة وصيغة جديدة معدلة من الفكر الكالفيني. وقد أدى هذا الانقسام في نهاية الأمر إلى تكوين جماعة أصولية ملتزمة وجماعة أخرى متحررة. وقد خرجت جماعة التوحيديين Unitarians من عبادة جماعة تشونسي حيث انشقوا عن الكنيسة الاستقلالية في نيوانجلند في القرن التاسع عشر.

وقد قسمت النهضة المشيخيين في المستعمرات الوسطى إلى جماعتين في عام ١٧٤١. ولم تعد للاتحاد مرة أخرى إلا في عام ١٧٥٨. كان "الفريق القديم" Old Side يتألف من القسوس الأكبر سنًا في منطقة فيلادلفيا وما حولها، وكانوا يعارضون رسامة أو تصريح الأشخاص الذين لم ينالوا تدريبًا كافيًا للخدمة، كما يعارضون تطفل مبشري الانتعاش على الأبروشيات القائمة وروح الانتقاد التي كانت عند بعض المبشرين تجاه عمل القسوس وخدمتهم. أما "الفريق الجديد" New Side فكان يساند الانتعاش ويشجع تصريح الأشخاص الذين يُظهرون مواهب روحية غير عادية وتعينهم للعناية بالكنائس الجديدة. وقد انقسم الهولنديون المصلحون في نيوجرسي وأيضا المعمدانيون في الجنوب حول الموقف الذي يجب أن تتخذه الكنيسة تجاه النهضة. ولكننا لا يمكن أن ننكر أن النهضة كان لها تأثير كبير على الحياة في امريكا بل





وساعدت على تهيئة الشعب روحيًا لمواجهة مشاكل الحروب مع الفرنسيين والهنود في أعوام ١٧٥٦-٦٣.

## ٤- الكنائس الامريكية والثورة الامريكية

كانت الثورة الامريكية هي الأخرى مصدرًا لكثير من المشاكل للكنيسة في المستعمرات الامريكية. ظلت الكنيسة الأنجليكانية على ولائها لقضية الثورة في المستعمرات الجنوبية، مثل ميريلاند وفيرجينيا، أما في المستعمرات الوسطى فقد انقسم الولاء بالتساوي تقريبًا ما بين رجال الثورة والبريطانيين. وفي نيوانجلند كان هناك اتجاه عام بالولاء لانجلترا. ولأن جون وسلي John Wesley كان من الحزب المحافظ الموالي للحكومة والملك، اتهم الميثوديين بعدم الولاء لقضية المستعمرات. إلا أنهم في الواقع اتخذوا موقفًا محايدًا. كان يشعر الكويكرز والمينونايت والمورافيون في دواخلهم بالوطنية، إلا أن مبادءهم في نبذ الحرب ألزمتهم بألا يكون لهم أي دور أو مشاركة في الحرب ومعاركها. أما الاستقلاليون والمعمدانيون واللوثريون والكاثوليك والمشيخيون، فقد احتضنوا قضية الثورة، واستخدم رعاتهم ومعلموهم المواعظ لتوسيع تطبيق مبدأ العهد الذي تؤسس الكنيسة على أساسه استنادًا إلى تراضي وموافقة أعضائها ليشمل الحديث عن رابطة سياسية تؤسس على رضى الشعب واتفاقه كعنصر أساسي في تأسيس أي دولة. ولا يستطيع الحاكم أن ينقض عهده أو اتفاقه مع الشعب أو أن يتصرف بما يتعارض مع القانون الإلهي دون أن يتوقع أن يثور الشعب ضده.

كان لانتهاء الحرب في عام ١٧٨٣ نتائج هامة على الحياة الدينية. ساهم تأثير الكنيسة في تطور الأمر إلى إقرار حظر على وجود الكنيسة الرسمية وإقرار الحق في حرية ممارسة العقائد الدينية كما تمت صياغته في التعديل الأول للدستور. أيضًا أدى انتهاء الحرب إلى فصل الكنيسة عن الدولة وذلك في الولايات التي كان بها كنائس رسمية. وقد تم حل للكنائس الرسمية في ميرلاند ونيويورك أثناء الثورة. ولكن الكنيسة الأنجليكانية لم تفقد وضعها المميز في فيرجينيا إلا في عام ١٧٨٦ وذلك بفضل الجهود التي قام بها جيفرسون وقد تم فصل الكنيسة الاستقلالية عن الدولة في هامبشاير عام ١٨١٧، وفي كونيتكت في عام ١٨١٨، وفي ماساتشوستس في ١٨٣٣.

وقد اتبعت الكنائس النموذج الذي طبقته الأمة بتأسيس الحكومة المركزية في عام ١٧٨٩، وسعت كل منها إلى إقرار دستور خاص بها وتأسيس تنظيماتها على المستوى القومي. أسس الميثودستيون بقيادة كوك Coke وأزبري Asbury كنيسة قومية في عام ١٧٨٤ عُرفت باسم "الكنيسة الميثودية الأسقفية" Methodist Episcopal Church. أما الانجليكان فقد أسسوا الكنيسة الأسقفية البروتستانتية Protestant Episcopal Church في عام ١٧٨٩. وأسس المشيخيون كنيستهم القومية في عام ١٧٨٨ وعقد المحفل العام الأول في عام ١٧٨٩. وأسس المصلحون الهولنديون كنيستهم في عام ١٧٩٢، وبعدهم المصلحون الألمان في عام ١٧٩٣. لم تتأثر الكنائس في نيوانجلند كثيرا بهذا الاتجاه نحو توسيع التنظيمات لتصبح على المستوى القومي. ولعله من العوامل الايجابية أن كل هذه الكنائس أو الطوائف الجديدة قد أخذت

دفعة روحية وغيرة كبيرة نتيجة لأحداث الانتعاش الروحي الثاني Second Awakening، وقد بدأ هذا الانتعاش في نفس الوقت الذي أقرَّت فيه البلاد دستورها الجديد. لقد أُمتحنت الكنائس الامريكية بنيران الحرب مما أهلها لكي تتحمل مسئوليتها وتحمل رسالتها إلى الأمة الجديدة المتحدة.

## اقتراحات للقراءة

تغطي العناوين المميزة بـ * تاريخ الكنيسة الأمريكية بالكامل.

* *Ahlstrom, Sydney, E.* A Religious History of the American People. *New Haven: Yale University Press, 1972. This is a well-written, scholarly, and encyclopedic account of religion.*

*Albright, Raymond W.* A History of the Protestant Episcopal Church. *New York: Macmillan, 1964.*

*Alexander, Archibald.* The Log College. *1851. Reprint. London: Banner of Truth Trust, 1968. This book has short sketches of Tennent and his students.*

*Armstrong, Maurice, and Loetscher, Lefferts.* The Presbyterian Enterprise. *Philadelphia: Westminster, 1956.*

*Atkins, Gaius G., and Fagley, Frederick L.* The History of American Congregationalism. *Boston: Pilgrim, 1942. This is a standard history of the American Congregationalist churches.*

* *Beardsley, Frank G.* A History of American Revivals. *New York: American Tract Society, 1904. This may be consulted with profit.*

* *Brauer, Jerald C.* Protestantism in America. *Revised ed. Philadelphia: Westminster, 1965.*

*Bridenbaugh, Carl.* Mitre and Sceptre. *New York: Oxford University Press, 1962. The book discusses the fear of an Anglican bishop by the colonies before the Revolution.*

*Coen, C.C.* Revivalism and Separatism in New England, 1740-1800. *Nea Haven: Yale University Press, 1962.*

*Edwards, Jonathan.* Edwards on Revival. *New York: Dunning & Spalding, 1832.* A Faithful Narrative, *describing the revival at Northampton, and* Thoughts *on the Great Awakening*





*contained in this work.*

*Ellis, John T.* American Catholicism. *2nd rev. ed. Chicago: University of Chicago Press, 1969. This briefly surveys American Catholicism.*

_____ . Catholics in Colonial America. *Baltimore: Helicon, 1965. This is an excellent survey of Roman Catholic missions in America.*

_____ . Documents of American Catholic History. *2nd ed. Milwaukee: Bruce, 1962. This contains all the important documents.*

* *Ferm, Vergilius, ed.* The American Church of the Protestant Heritage. *New York: Philosophical Library, 1953. There are excellent discussions by denominational experts of the European background and history in America to the present of the leading American denomications.*

*Garrett, John.* Roger Williams. *New York: Macmillan, 1970.*

* *Gaustad, Edwin S.* A Religious History of the American People. *New York: Harper, 1966. This combines sources, pictures, and secondary accounts in one volume.*

_____ . The Great Awakening in New England. *New York: Harper, 1957.*

_____ . Historical Atlas of Religion in America. *Rev. ed. New York: Harper, 1976. This has excellent maps, charts, and graphs to illustrate American religious history.*

*Gewehr, Wesley M.* The Great Awakening in Virginia, 1740-1790. *Durham, N.C.: Duke University Press, 1930.*

*Glazer, Nathan.* American Judaism. *Rev. ed. Chicago: University of Chicago Press, 1972.*

*Grant, John W. A History of the Christian Church in Canada. 3vols. Toronto: McGraw-Hill, Ryerson, 1966-72.*

* *Handy, Robert T.* A History of the Churches in the United States and Canada. *Oxford: Clarendon University Press, 1976. This first in a series of twenty volumes on the history of Christianity artfully links American and Canadian church history.*

*Hanzsche, William T.* The Presbyterians. *Philadelphia: Westminster, 1934. The story of the Presbyterians is described in this book.*

*Heimert, Alan, and Miller, Perry, eds.* The Great Awakening. *Indianapolis: Bobbs-Merrill,*

## الفصل الثالث والثلاثون

# الحركات العقلانية والانتعاشية والكاثوليكية

تميز القرن السادس عشر بقيام البروتستانتية وتبلور أفكارها الأساسية بجهود قادتها المبدعين أمثال مارتن لوثر Martin Luther وكالفن Calvin. لكنه من المؤسف أنه خلال القرن السابع عشر صارت البروتستانتية نظامًا عقيديًا محافظًا يقبله المرء بعقله فقط. وقد أنتج هذا النظام الفكري منهجًا مدرسيًا وبالأخص بين اللوثريين في ألمانيا الذين أصبحوا أكثر اهتمامًا بالتعليم العقائدي من اهتمامهم بالتعبير عن تلك العقائد في الحياة العملية. هذا التعبير الفكري البارد عن المسيحية مع ما صاحبه من حروب دينية عنيفة ما بين ١٥٦٠-١٦٤٨ وبدء الفلسفة العقلانية والعلوم التجريبية أدَّى إلى العقلانية والتمسك بالشكل في الأمور الدينية ما بين ١٦٦٠-١٧٣٠ في انجلترا وأوربا وفي أمريكا بعد ذلك. وأدَّى أيضًا عدم استساغة الفلاسفة العقلانيين والعلماء للأفكار الأصولية الباردة الجامدة، وظهور المذهب الطبيعي في الدين، والإصرار على أن الكنيسة هي جماعة المؤمنين الذين يجمعهم عهد مع الله ومع بعضهم البعض، أدى هذا كله إلى التسامح الديني وظهور الطائفية. وخلال السنين الأخيرة من القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر تبلور نوعان من رد الفعل لهذه المدرسية البروتستانتية. كان رد الفعل الأول هو العقلانية أو المذهب العقلي* وقد وجد هذا المذهب في الألوهية.** أما رد الفعل الآخر فهو الاتجاه الانتعاشي أو الإحيائي. وقد عبَّر هذا الاتجاه عن نفسه في بعض الحالات بالتأكيد على ما يسمى بلاهوت الاستنارة الداخلية وفي حالات أخرى في التنبير على أهمية الكتاب المقدس والتقوى الشخصية. ويظهر الشكل التوضيحي في الصفحة التالية العلاقات بين كل تلك الحركات في الفترة ما بين ١٦٤٨-١٧٨٩.

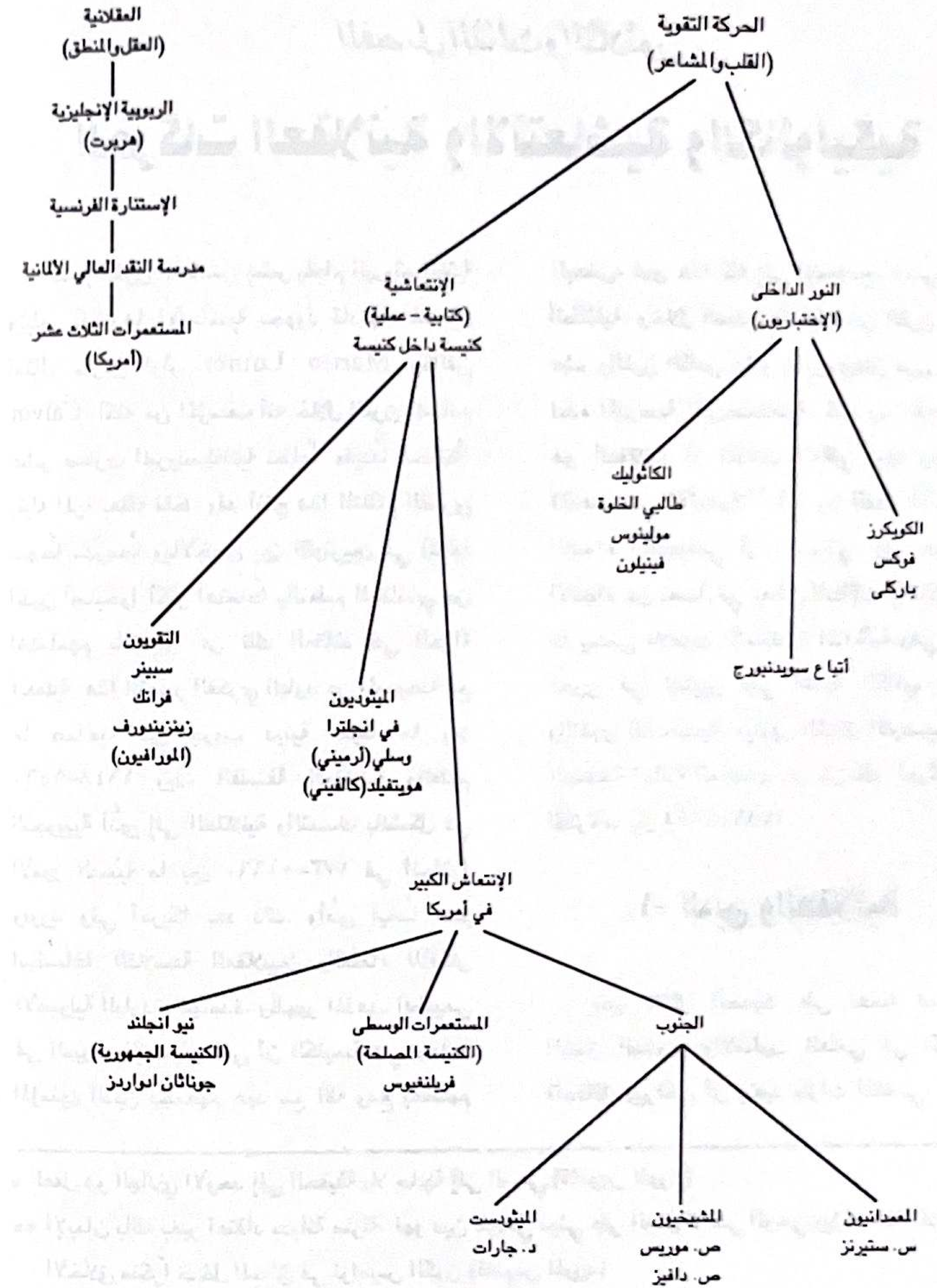
## ١- الدين والعقلانية

ينبِّر الفكر الحديث على أهمية استخدام المنطق البشري والأسلوب العلمي في اكتشاف الحقائق ويرفض أن يتقيد بتراث الماضي. وترجع

* العقل هو الهادي الأوحد إلى الحقيقة بلا حاجة إلى الوحي (قاموس المورد)

** الإيمان بالله بغير اعتقاد بديانة منزلة، فهو دين طبيعي مبني على العقل لا على الوحي ويؤكد هذا الدين على الأخلاق منكرًا تدخل الخالق في نواميس الكون (قاموس المورد)

الحركات التي نشأت كرد فعل للأرثوذكسية البروتستانتية






أصول هذه الأفكار إلى الفترة ما بين نهاية حرب الثلاثين عاماً وبداية الثورة الفرنسية ويجب أن نوجه بعض الاهتمام إلى الأسباب التي أنشأت هذه الأفكار وإلى النتائج التي ترتبت عليها وذلك بسبب تأثيرها الكبير على الفكر الديني.

## أ- منشأ مذهب الربوبية Deism

ساهمت عدة عوامل في ظهور المذهب العقلي في القرن السابع عشر. فقد اتسعت آفاق المعرفة العلمية بشكل عظيم نتيجة لمجهودات بعض العلماء البارزين الذين عاشوا في ذلك الوقت. فالنظرية القديمة القائلة بتمركز الكون حول الأرض حلت مكانها النظرية القائلة بتمركز الكون حول الشمس. وقد ساهم نيقولاس كوبرنيكوس Nicholas Copernicus (١٤٧٣-١٥٤٣) في تطوير وصياغة هذه النظرية، وقام جاليليو جاليلي Galileo Galilei (١٥٦٤-١٦٤٢) بنشرها وتعريف الناس بها. واهتم إسحق نيوتن Issac Newton (١٦٤٢-١٧٢٧) وهو بعد شاب صغير السن بالبحث عن إجابة التساؤل حول وجود مبادئ أساسية تصلح للتطبيق في أي مكان في الكون. وفي عام ١٦٨٧ كتب نيوتن كتابه المبادئ الرياضية والذي حاول فيه تطوير فكرة قانون الجاذبية. وقد وفرت الجاذبية الأرضية المفتاح الذي يوحد ظواهر علم الطبيعة، وقد ظل مبدأ القانون الطبيعي هو المبدأ الأساسي إلى أن استبدل بمفهوم داروين Darwin عن النمو البيولوجي. وكان الناس ينظرون إلى الكون على أنه آلة هائلة أو نظام آلي يتحرك بحسب قوانين طبيعية جامدة. وقد تم تطبيق مبادئ القوانين الطبيعية، التي تم الوصول إليها واكتشافها بواسطة المنطق البشري، على مجالات أخرى كثيرة من المعرفة، مثل العلوم السياسية، الاقتصاد والدين.

وتعرف الأوربيون على عدة حضارات، وذلك بسبب ذهاب التجار المغامرين إلى أقاصي الأرض لمزاولة تجارتهم، وأحضروا معهم ما تعلموه من معلومات عن الديانات الأخرى عبر المسيحية إلى أوربا، حيث بدأ الدارسون في مقارنة تلك الأديان مع المسيحية فوجدوا بعض التشابه في المبادئ العامة. وقد دفع هذا الكثيرون إلى التساؤل عن وجود دين فطري أساسي في قلوب كل البشر بعيداً عن الكتاب المقدس أو دور الكهنة. وكان هذا هو الطريق الذي قاد البعض في تفكيرهم إلى الإيمان بمذهب الربوبية، والتي تبدو أنها تقدم ديانة تجمع ما بين الطبيعي والعلمي في إطار واحد.

وقد مثلت الفلسفتان الجديدتان وهما التجريبية والعقلانية تحدياً للتقليد والتراث باسم المنطق. فقد استعانت هاتان الفلسفتان بالمنطق والحواس الإنسانية باعتبارهما الطريق الأساسي للحصول على المعرفة بدلاً من الوحي فقد ارتبطت اهتماماتهم بالأرضيات وذلك لأنهم اهتموا بطالب المعرفة وهو الإنسان بدلاً من أن يهتموا بالحق الذي يجب معرفته وهو الله ذاته.

قدمت التجريبية أسلوباً للبحث العلمي سعى البراجماتيون والوضعيون إلى تأليهه. نشر فرانسيس بيكون Francis Bacon (١٥٦١-١٦٢٦) كتابه "النظام الجديد" Novum Organum في عام ١٦٢٠، الذي طور فيه أسلوبه الاستقرائي في تفسير الطبيعة. وكان يعتقد أن هذا المنهج الاستقرائي سيحل محل المنهج الاستدلالي الذي ابتكره أرسطو والذي كان يستخدم على أوسع نطاق

بين المدرسين في العصور الوسطى. وعندما استخدم العلماء المنهج الاستقرائي، والذي يعرف أيضًا باسم المنهج العلمي في البحث، لم يعد العلماء يقبلون شيئًا على أساس سلطان مصدره وحده. فالعالم الآن يبدأ بنظرية افتراضية، ثم يلاحظ الحقائق المتصلة بفكرته قيد البحث، ويخضعها للتجريب المتكرر وعندئذ فقط يصيغها في شكل قانون عام. أما في المنهج الاستدلالي القديم فكان الإنسان يربط مبدأً عامًا يقبله على أساس سلطان مصدره، بحقيقة معينة ثم يصل إلى نتيجة دون تمحيص للمبدأ أو القانون العام الذي ابتدأ به.

أما الفلسفة التجريبية التي ابتكرها جون لوك John Locke (١٦٣٢-١٧٠٤) فقد جاءت لتؤيد وتدعم اعتقاد بيكون Bacon. ففي المقالة التي كتبها حول الفهم الإنساني في عام ١٦٩٠ أنكر لوك وجود أفكار ثابتة في فكر الإنسان، مثل الزمن أو الفراغ بل وقال إن فكر الطفل الرضيع صفحة بيضاء ليس به شئ. وإن المعرفة تتراكم لدى ذلك الطفل الرضيع بواسطة ما تقدمه حواسه من مدركات لعقله، وأن عقله عندما يتأمل المدركات الحسية تتولد المعرفة. وقد خلق هذا الربط بين المعرفة والمدركات الحسية نظرة مادية للحياة. وأدى مزج أفكار لوك مع أفكار بيكون إلى تعظيم مكانة ودور المنهج العلمي في البحث على اعتبار أنه الطريق الرئيسي للحصول على المعرفة.

وكانت مدرسة الفلسفة العقلانية قد دأبت في مرحلة سابقة على تعظيم قدرة الإنسان الذاتية على اكتشاف الحق عن طريق العقل دون الرجوع إلى الإعلان الإلهي. واعتبروا أن اللاهوت الطبيعي يجب أن يكون نقطة البداية لكل فهم لاهوتي. أنشأ رينيه ديكارت René Descartes (١٥٩٦-١٦٥٠) فلسفته متخذًا من الشك في كل شئ ماعدا ضميره وقدرته على التفكير نقطة للبداية. ومن هذا المنطلق بتوفير الدليل الذاتي للحقائق التي يتداولها، بنى نظامًا فكريًا يمكن بواسطته معرفة كل البديهيات المختلفة بنفس درجة اليقين في الرياضة. وكان يجادل بأن العقل الإنساني به مفاهيم معينة مغروسة فيه مثل الزمن أو الحيز أو الفراغ مما يتيح للعقل أن ينظم المعلومات المتاحة له من خلال الحواس. وعلى الرغم من أن ديكارت كان يؤمن بالثنائية أي بوجود عالم عقلي (فكري) وآخر مادي، إلا أنه آمن أنه يستطيع أن يقبل حقيقة وجود الله ووجود النفس البشرية على أساس العقل وحده. وقد اتجهت أفكاره لتدعيم إيمان الإنسان بقدرته الذاتية على الوصول إلى المعرفة بالمنطق وبالمنهج العلمي للبحث. وقد ساهمت الفلسفة العقلانية وقوانين نيوتن Newton العلمية في ظهور الرأي القائل بأن الإنسان يستطيع بالعقل أن يكتشف القوانين الطبيعية وأن يعيش تبعًا لتلك القوانين.

جاء مذهب الربوبية Deism كنتيجة طبيعية للاتجاه الفلسفي العلمي للمعرفة الذي وصفناه. وقد ظهر في انجلترا في القرن السابع عشر وانتشر من هناك ليصل إلى فرنسا وألمانيا وأمريكا. كان مذهبًا دينيًا طبيعيًا أو هو دين عقلي. وقد هيأ مذهب الربوبية نظامًا يعتقد في وجود إله متسام ترك خليقته بعد أن خلقها لتحكمها القوانين الطبيعية التي يمكن للعقل البشري أن يكتشفها ويفهمها. فأصبح الله بذلك "إلهًا غائبًا". ويصر أتباع هذا المذهب أن الله أعلى وأسمى من خليقته. بينما يتجه الذين يؤمنون بوحدة الوجود Pantheism للتأكيد على وجود الله في كل أشكال





خليقته. إلا أن الذين يؤمنون بوجود إله واحد يصرون دائمًا على أن الله المتسامي ليس جزءًا من خليقته ولكنه موجود فيها إما بأعمال عنايته أو بصفته الفادي المخلص في شخص المسيح.

### ب- عقائد الربوبية

لما كان مذهب الربوبية لا يستند إلى وحي إلهي مكتوب، فإنه ركز على شهادة الطبيعة من خارج والقانون الأخلاقي في داخل الإنسان. كان أتباع ذلك المذهب يجدون في قانون الدين الطبيعي الذي يمكن اكتشافه بالمنطق البشري منهجًا عقائديًا لهم. واحدة من أهم عقائد الربوبية هو الإيمان بالله المتسامي الذي هو العلة الأولى للخليقة ويتبرهن بإبداع هذه الخليقة. ويؤمن أصحاب ذلك المذهب أن الله ترك خليقته تستكمل حركتها محكومة بالقوانين الطبيعية لذلك فليس هناك مجال للمعجزات، للكتاب المقدس ليكون إعلانًا عن الله، أو للنبوة، أو للعناية الإلهية ليكون المسيح هو الله الظاهر في الجسد. كان الربوبيون يقولون إن المسيح لم يكن سوى معلم أخلاقي، وأن العبادة لا يجب أن تكون إلا لله. ومن عقائدهم الأخرى الاعتقاد بأن "الفضيلة والتقوى" هما ما يمكن أن يقدمه الإنسان إلى الله. وأن قوانين الله الأدبية الأخلاقية متضمنة في الكتاب المقدس - الذي يعتبرونه دليلاً أخلاقيًا - كما أنها موجودة أيضًا في الطبيعة البشرية، حيث يمكن استكشافها بالمنطق البشري. وعلى الشخص أن يتوب عن خطاياه ويجتهد أن تكون حياته متوافقة مع القوانين الأخلاقية، حيث أن هناك خلودًا وأن كل إنسان سوف يواجه العقاب أو الثواب بعد موته.

وقد سادت مفاهيم الربوبية Deism على تفكير الطبقة العليا في المجتمع الإنجليزي منذ أن قدم إدوارد هيربرت Edward Herbert لورد تشيربوري ١٥٨٣-١٦٤٨ لمبادئ الربوبية في عام ١٦٢٤ إلى وقت دافيد هيوم David Hume (١٧١١-١٧٧٦). ويمكن تلخيص معتقدات هيربرت في العبارة التي تقول: "يجب عبادة الله الموجود، بالتوبة والحياة الأخلاقية حتى تستطيع النفس الخالدة أن تتمتع بالحياة الأبدية وثوابها بدلاً من مواجهة العقاب". كان تشارلز بلاونت Charles Blount (١٦٥٤-١٦٩٣) من أتباع مذهب الربوبية المؤثرين. أصرّ أناس مثل جون تولاند John Toland (١٦٧٠-١٧٢٢) ولورد شافتسبري Lord Shaftesbury (١٦٧١-١٧١٣) وآخرون أن المسيحية ليست ديانة غامضة ولكن يمكن إثباتها بالمنطق. وأن ما لا يمكن إثباته بالمنطق يجب التنصل منه. هاجم دافيد هيوم المعجزات التي يتضمنها الكتاب المقدس.

وقد قام كثيرون للدفاع عن الإيمان المسيحي القويم. كتب ويليام لو William Law (١٦٨٦-١٧٦١) كتابًا ممتازًا عن الحياة المكرسة للمؤمن بعنوان "دعوة جادة للتكريس والقداسة" (١٧٢٨)، وكتب أيضًا كتابه "قضية العقل" (١٧٣٢) الذي طرح فيه رأيه في أن الإنسان لا يستطيع أن يستوعب كل الحقيقة الدينية باستخدامه العمليات العقلية وحدها لأن الله يفوق العقل. وكتب جوزيف بتلر Joseph Butler (١٦٨٢-١٧٥٢) كتابه "أطروحة الدين" (١٧٣٦) مظهرًا أن الحجج التي استخدمها الربوبيون ضد إله الكتاب المقدس يمكن أيضًا استخدامها ضد إله الطبيعة أيضًا لو أننا اعتمدنا على العقل البشري كمرجع نهائي. استخدم بتلر Butler حجة الاحتمالات ليظهر أن المسيحية السليمة تستطيع أن تقدم إجابات أفضل

للمشكلات مما تقدمه الربوبية. استخدم وليم بالي William Paley (١٧٤٣-١٨٠٥) دليل العقل الذي وقف وراء إبداع الخليقة ليثبت وجود الله الذي أعلن ذاته في الكتاب المقدس، والمسيح والمعجزات حتى ما يقود الإنسان إلى الحياة الصالحة في طاعة الله استعداد للحياة الأبدية والخلود.

### ج- انتشار مذهب الربوبية

سافر المفكرون الربوبيون الانجليز مثل هيربرت Herbert وشافتسبري Shaftesbury إلى فرنسا، كما تمت ترجمة كتابات الربوبية ونشرت خارج انجلترا. ولأن الفرنسيين: مثل چين روسو Jean Rousseau وفولتير Voltaire كانوا يذهبون إلى انجلترا، انتشرت الأفكار الربوبية في فرنسا حيث وجدت مناخاً مشجعاً لهذه الآراء من الفلاسفة الفرنسيين في القرن الثامن عشر. ظهرت أفكار فولتير الربوبية وتبلورت في روايته "إميل"، وتغلغلت ربوبية فولتير في جميع ما كتبه ضد الكنيسة مشجعاً لمبدأ التسامح الديني. أشرف ديلمبرت D'Alembert ودينيس ديديرو Denis Diederot (١٧١٣-٨٤) على تحرير دائرة معارف ضخمة للمعرفة العالمية تميل للعقلانية. كان التنافس في فرنسا بين الكاثوليكية التابعة لروما وهؤلاء المفكرين المتحررين. ولأن أيديولجيتهم الربوبية هي التي وفرت القاعدة الفكرية لرجال الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، فقد كان لهؤلاء المفكرين تأثير هام على توقيت الثورة الفرنسية التي كانت سبباً في إحداث الكثير من التغييرات الكبرى في أوربا. وقد تضافرت عوامل مثل كتابات الربوبيين، وزيارة تولاند Toland لهانوفر، وإقامة فولتير Voltaire في بلاد فريدريك الكبير لتؤدي إلى انتشار مذهب المنطق العقلي في ألمانيا، حيث وجدت بيئة صالحة للترعرع بالرغم من المجهودات الكبيرة للتقويين في ألمانيا.

ساعدت هجرة الكثير من الإنجليز الربوبيين، وكتاباتهم ووجود العديد من ضباط الجيش الإنجليزي في أمريكا من أتباع مذهب الربوبية أثناء حرب ١٧٥٦-١٧٦٣ على انتشار الربوبية في المستعمرات الأمريكية. كان من بين قادة الفكر الربوبي في أمريكا رجال من أمثال فرانكلين Benjamin Franklin وجيفرسون Thomas Jefferson وإيثان آلن Ethan Allen وتوماس بين Thomas Paine. وقد ساعد كتاب توماس بين الذي كتبه بعنوان عصر العقل Age of Reason (١٧٩٥) على توسيع قاعدة انتشار أفكار مذهب الربوبية. وبهذه الطريقة تعرضت أمريكا مثلما تعرض من قبلها انجلترا وفرنسا وألمانيا إلى التأثير الهدّام لأفكار الربوبية.

### د- نتائج انتشار مذهب الربوبية

ساعدت الربوبية Deism على تدعيم فكرة القدرة اللانهائية للدولة، لأن رجال مثل روسو كانوا يصرون على أن الدولة لها منشأ طبيعي. فهم يجادلون بأن الدولة نشأت في إطار عقد اجتماعي وسط شعب يتمتع بالسيادة ويختار حكامه بنفسه. ويكون الحكام مسئولين أمام شعبهم حتى إذا لم يتمموا واجباتهم على الوجه الأكمل كان للشعب حق تغييرهم. وبذلك تصبح الدولة الخاضعة لسلطان الشعب وحده هي المهيمنة على كل مجالات الحياة. ساعدت الربوبية أيضاً على تطور مفهوم أن الإنسان في أصل طبيعته صالح ويسعى نحو الكمال بحيث لابد وأن نتوقع استمرار سعي البشر نحو خلق نظام أكثر كمالاً على الأرض. وقد كانت





الربوبية متفائلة أكثر من اللازم في هذا الافتراض لأنها كانت تميل نحو تجاهل خطية الإنسان. وتعتبر مدرسة الفكر المتحرر الحديث بتركيزها على المنهج العقلي مدينة بالكثير لمذهب الربوبية. وقد ساعد مفكرو الربوبية أيضاً على إنشاء النظام الحديث لتفسير الكتاب المقدس والمعروف باسم مدرسة النقد العالي.

إلا أن المسيحية جنت بعض المكاسب من وراء الربوبية. فلا يستطيع أحد أن ينكر أو يدين أهمية مبدأ التسامح الديني والذي لعب أتباع الربوبية دوراً هاماً في تدعيمه وذلك لأنهم آمنوا بحرية اعتناق الأفكار الدينية التي يمكن إخضاعها للمنطق. وقد تعاون أتباع الربوبية مع المسيحيين المتمسكين بمبادئهم السليمة في مجالات عدة من الأنشطة الإنسانية لأنهم يعتقدون بشدة في كرامة الإنسان باعتباره كائناً عاملاً وقادت غيرتهم على الدراسة إلى نتائج مفيدة في مجال نقد النصوص وعلم التفسير. ساعد الدارسون على إيجاد نص موثوق به ومعتمد للكتاب المقدس، وإثبات أن هذا النص قد وصل إلينا من كتبته الأصليين في حالة ممتازة دون تزييف أو تزوير. وكانت الحركة العقلانية هي المحرك غير المباشر لمجهودات تطبيق علم التاريخ وقواعد النحو للوصول إلى منهج صحيح لتفسير الكتاب المقدس.

وقد نشأ العديد من الحركات الانتعاشية في قارة أوربا أو في انجلترا متزامنة مع تطور الفكر العقلاني. وفي بعض الحالات كانت تلك الحركات ترتكز على ما عُرف "بالاستنارة الداخلية" التي يستنير بها الإنسان روحياً سواء بواسطة الكتاب المقدس أو بدونه. وتقدم حركة الكويكرز الإنجليزية ومعها حركة التصوف Quietism الكاثوليكي مثالاً جيداً لهذه الميول. أما الانتعاشية التي ترتكز على كلمة الله فيمكن اعتبار الحركة التقوية والميثودية في الكنائس اللوثرية والكنيسة الأنجليكانية مثالاً جيداً لها.

## ٢- الدين والنسكية

### (أ) في القارة الأوربية

كانت الحركة الصوفية نوعاً من النسكية Mysticism في الكنيسة الكاثوليكية خلال القرن السابع عشر. وكانت تركز على الاتصال الحدسي المباشر مع الله عن طريق الانفتاح الروحي انتظاراً لتأثير النور أو الاستنارة الداخلية. كانت هذه الحركة بمثابة رد فعل للتركيز الزائد على محاولة تفسير العقائد بطريقة منطقية عقلانية. كان الكاردينال تشارلز بوروميو Charles Borromeo (١٥٣٨-٨٤) من أساقفة ميلانو وأغناطيوس لويولا Ignatius Loyola، وتيريزا من أسبانيا Theresa of Sapin وفرانسيس دي سال Francis of Sales (١٥٦٧-١٦٢٢) في فرنسا من رواد هذه الحركة النسكية. ويمكن أن يقرأ البروتستانت اليوم ما كتبه فرانسيس من سال في كتابه "المدخل لحياة التكريس" الذي كتبه ١٦٠٩ ويجدون فيه فائدة كبيرة. كان هؤلاء النسكيون من رواد الحركة المضادة للإصلاح، وجاء من بعدهم Quietists في القرن السابع عشر.

ركّز ميكال مولينوس Michal Molinos (١٦٤٠-١٦٩٧ تقريباً) في كتابه "المرشد الروحي" (١٦٧٥) على سلبية الروح الإنسانية كوسيلة للانفتاح وتلقي النور الإلهي. ولم يكن مطلوباً من

الإنسان في تلك الحالة حتى أن يستخدم إرادته البشرية. وقد تبنت مدام جويون Madame Guyon (١٦٤٨–١٧١٧) هذه الأفكار التي نبرت على التأمل السلبي كوسيلة للاتحاد مع الله ذاته كهدف للاختبار الصوفي أو النسكي. وقد دافع فرانسيس فينلون Francis Fenelon (١٦٥١–١٧١٥) وهو مدرس في القصر الملكي، عن مدام جويون أمام هجوم بوسيت Bossuet عليها حيث أظهر في كتابه "الكمال المسيحي" لمحة من المرح على حركة طالبي الهدوء والسكينة. وقد صار هذا الكتاب عوناً كبيراً للحياة التقوية للبروتستانت كما كان لكثيرين من الكاثوليك أيضاً.

ويمكن توضيح الأفكار النسكية Mysticism البروتستانتية بمثال من أعمال العالم السويدي العظيم إيمانويل سويدنبورج Emanuel Swedenborg (١٦٨٨–١٧٧٢) والذي وصل إلى نتيجة أنه خلف عالم الطبيعة المادي عالم روحي مواز له. وقال بأن الاتصال بين هذين العالمين ممكن عن طريق التخاطب مع الكائنات السماوية.، وكان يفسر الكتاب المقدس تفسيراً روحياً ليربطه مع الإعلانات التي كانت تأتي إليه بواسطة هؤلاء الزوار السماويين. ومع عام ١٧٨٨ نُظمت كنيسة في لندن ونمت لتصبح طائفة. ومازالت هذه الكنيسة موجودة إلى اليوم واسمها كنيسة أورشليم الجديدة.

### (ب) في انجلترا

ظهر الكويكرز Quakers in England على مسرح الحياة الدينية في انجلترا أثناء فترة الفوضى التي صاحبت الحرب الأهلية والكومنولث. فتركوا جانباً عقائد الكنيسة النظامية وعقيدة أن الكتاب المقدس هو الإعلان النهائي لمشيئة الله واستبدلوها بالاستنارة الداخلية بمعنى أن الروح القدس يمكن أن يعطي معرفة الله بصورة مباشرة للإنسان بعيداً عن الكتاب المقدس. وكانوا في ذلك يشبهون المونتانيين، إلا أن ميولهم النسكية توازنت لحسن الحظ مع غيرتهم على الأخلاق وإحساسهم الاجتماعي القوي.

ولد جورج فوكس George Fox (١٦٢٤–٩١ تقريباً) في عائلة من النساجين ولكنه تدرب على صناعة الأحذية، كما كان يتاجر في الصوف. بدأ فوكس رحلته في البحث عن الحق الروحي في عام ١٦٤٣ عندما تحداه اثنان من التطهيريين للدخول في مسابقة لشرب الخمر يدفع فيها من يتوقف أولاً عن الشراب كل حسابات المشروبات. تضايق فوكس جداً فترك الكنيسة ولم يعد إليها. وظل في بحثه حتى عام ١٦٤٧ حتى حصل على اختبار روحي يروي ظمأه وينهي بحثه عن الحقيقة. أصبحت المسيحية أسلوباً لحياته واختباراً روحياً يستطيع الإنسان من خلاله أن يكون له اتصال مباشر مع الله. بدأ فوكس في الوعظ ونظم جماعة من أتباعه أنفسهم في عام ١٦٥٢ فيما سمي "جماعة الأصدقاء" Quakers Friends وكانت تسمى أيضا "الكويكرز". وفي عام ١٦٥٢ انضمت مرجريت فيل Margaret Fell (١٦١٤–١٧٠٢) إلى جماعة الكويكرز وأصبح بيتها في سوار ثمور هول المركز غير الرسمي لحركة الكويكرز. وقد تزوجها فوكس فيما بعد عام ١٦٦٩. انتشرت حركة الكويكرز سريعاً وذلك نتيجة لغيرتهم في التبشير من ناحية ولاضطهاد السلطات لهم من ناحية أخرى مما دفع أتباع هذه الحركة للبحث عن وطن آخر خارج انجلترا.





وعندما سافر فوكس متنقلاً بين المستعمرات الأمريكية الثلاث عشرة (١٦٧٢–٧٣)، وجد العديد من مجموعات الكويكرز هناك. وفي عام ١٦٦٦ كانت تعقد اجتماعات شهرية دورية لتوفير نوع من التنظيم للحركة وإتاحة الفرصة اللازمة لمراجعة سلوك أعضاء الحركة.

أصبح روبرت باركلي Robert Barclay (١٦٤٨–٩٠) المفكر اللاهوتي لتلك الحركة. ونشر كتاب بعنوان An Apology For True Christian Divinity في عام ١٦٧٨. وأعطت أطروحاته في هذا الكتاب للاهوت حركة الكويكرز[1] جوهره. كان الروح القدس بالنسبة إلى فوكس هو مصدر الإعلان الوحيد عن الله. كما أنه مصدر للنور في داخل الإنسان ليوفر له الاستنارة الروحية. واعتبر أن الكتاب المقدس هو القانون الثانوي للإيمان، واعتبر فوكس أن وحي الروح القدس لكُتاب الكتاب المقدس عن الوحي الذي يتلقاه هو وغيره من الكويكرز من وحي، إلا أنه كان يقول أيضاً إن "ما يتلقاه أي واحد من الأصدقاء من وحي ينبغي ألا يكون متعارضاً مع كلمة الله أو مع المنطق السليم للأشياء". وعلى أساس وجود هذا النور الداخلي، فلم تعد هناك حاجة لوجود خدام متخصصين يقومون بالخدمة الروحية، وحيث أن الفرائض المقدسة كانت روحية في جوهرها وداخلية في تأثيرها لذلك فقد تم فصلها عن رموزها المادية أو طقوسها الظاهرة. لم يكن مسموحاً للكويكرز أن يشتركوا في أي حرب، كما منعوا العبودية. وكان وللمان John Woolman وهو أحد الكويكرز الأمريكيين من أوائل من تحدثوا وكتبوا مطالبين بإلغاء نظام العبودية. كما رفضوا حلف اليمين في المحاكم، وألغوا التفاخر بالألقاب مما أوقع الكويكرز في مشاكل كثيرة في المجتمع الطبقي في انجلترا حيث كانت الطبقة العليا تتوقع من الطبقات الأقل استخدام الألقاب وتقديم التحيات الواجبة برفع القبعات. وقد ألقي الكثيرون من الكويكرز في السجون، لكن الحركة ظلت تنمو بالرغم من الاضطهاد أو ربما بسببه. وفي عام ١٦٦٠ وصل عدد الكويكرز في انجلترا إلى حوالي ٥٠ ألف شخص.



*وليام بن، مؤسس بنسلفانيا، الذي اشتهر بأناقة ملبسه، وكياسة التصرف وعذوبة حديثه.*

استطاع وليام بن William Penn (١٦٤٤–١٧١٨) أن يرفع قدراً كبيراً من ضغوط الاضطهاد وذلك عندما منحه الملك تشارلز الثاني مساحة شاسعة من أراضي أمريكا في عام ١٦٨١ تسوية لمبلغ ستة عشر ألف جنيه كانت ديناً على الملك لوالد بن. وقد أنشأ بن ولاية بنسلفانيا ونظم شئونها في عام ١٦٨٢ على أسس من الحريات الدينية الكاملة ودعى إليها كل الفئات المقهورة والمظلومة في أوربا، بما فيهم الكويكرز Quakers،

ليأتوا ويتخذوا من بنسلفانيا وطنًا جديدًا لهم يوفر لهم الحماية. فجاء الكويكرز بأعداد كبيرة إلى كل من بنسلفانيا ووست جيرسي.

وقد ركز الأصدقاء Friends دائمًا على نشر إيمانهم عن طريق برنامج قوي للجهود التبشيرية تلعب فيه الخدمات الاجتماعية دورًا هامًا، ولكنهم وهم يفعلون ذلك لم يهملوا التعليم. ونجد في تميز الخدمة التعليمية التي قدموها في هافرفورد Haverford College وسوارثمور Swarthmore College ومدارس أخرى كثيرة دليلاً واضحًا على اهتمام الكويكرز بالتعليم. إلا أن هذه الحركة لم تنج من مخاطر الانقسامات الداخلية وفتور الغيرة والحماس الروحي. فكانت قلة اهتمامهم بالعقيدة، وغياب مقياس تاريخي موضوعي مثل الكتاب المقدس، سببًا في بعض الأحيان في التطرف النسكي وفي أحيان أخرى أدّى إلى صيغة باهتة في الألوهية لا ينال فيها شخص المسيح الإكرام والتقدير اللائق بشخصه الكريم.

## ٣- الدين والحركات الانتعاشية

### أ- في القارة الأوربية

تختلف الحركة التقوية Pietism في ألمانيا اختلافًا كبيرًا عن الحركة النسكية Mysticism التي تقوم على الاستنارة الداخلية كما شرحنا. وقد قامت الحركة التقوية في ألمانيا باعتبارها حركة داخلية تصحيحية إنجيلية تحاول تصحيح اتجاه الجمود العقيدي الذي ساد الكنيسة اللوثرية في القرن السابع عشر نبرت الحركة التقوية على رجوع الأفراد إلى دراسة الكتاب المقدس والصلاة على أساس شخصي ذاتي. حيث ينبغي أن تظهر الحقائق الكتابية يوميًا في حياة تقوى عملية يعيشها العلمانيون والخدام على قدم المساواة. وعلى الرغم من مساهمة عوامل أخرى متداخلة، إلا أن هذه الحركة كانت أساسًا نتيجة لجهود فيليب سبينر Philip Spener (١٦٣٥-١٧٠٥)، الذي أصبح راعيًا لوثريًا في فرانكفورت عام ١٦٦٦. وفي عام ١٦٧٠ نظم اجتماعات في بيت خصصه (لاجتماع الأتقياء) للصلاة والدراسة التطبيقية للكتاب المقدس. ثم كتب كتاب في عام ١٦٧٥ اسمه Pia Desideria حيث ركّز فيه على اجتماعات الصلاة (اجتماعات الصلاة في العلية) كعنصر مساعد لتنمية التقوى الشخصية بين اللوثريين. كما اقترح أيضًا أهمية أن يكون التعليم اللاهوتي استعدادًا للخدمة مبنيًا على الفكر الكتابي والمنهج العملي، على أن يشمل فترات من التدريب العملي للمرشحين للخدمة. وفي عام ١٦٨٦ ذهب إلى درسدن واعظًا في بلاطها. ومن هناك ذهب في عام ١٦٩١ ليصبح راعيًا في كنيسة كبيرة في برلين حيث استمر يخدم هناك حتى وفاته. وقد ازدهرت الحركة التقوي في ألمانيا وهولندا واسكندنافيا.

أسّس أوجست فرانك August Francke (١٦٦٣-١٧٢٧) مع مجموعة من أصدقائه مجموعة لدراسة الكتاب المقدس في جامعة ليبزج. وفي زيارة له إلى درسدن، تأثر فرانك بحياة سبينر الذي ساعده في الحصول على وظيفة مدرس في جامعة هال University of Halle في عام ١٦٩٢، والتي سرعان ما أصبحت مركز إشعاع للحركة التقوية. أسس فرانك مدرسة ابتدائية مستقلة لتعليم الأطفال الفقراء وذلك في عام ١٦٩٥ ثم بعد ذلك بعامين أسس مدرسة ثانوية أيضًا. وأقام أيضًا بيتًا لإيواء الأيتام، وكان له دوره المؤثر في تأسيس معهد





للدراسات الكتابية أنشأه أحد أصدقائه المقربين، حيث تخصص هذا المعهد في نشر وتوزيع نسخ من الكتاب المقدس في عام ١٧١٩.

أحدثت الحركة التقوية موجة جديدة من الاهتمام والتركيز على دراسة الكتاب المقدس ومناقشته وتطبيقه على الحياة اليومية ولتنمية حياة التقوى. وكان هناك تركيز كبير عن عمل الروح القدس في كشف معاني الكتاب المقدس للدارس. وقد تم التركيز أيضًا على الأعمال الصالحة باعتبارها نتيجة الديانة الحقة. وكانت هذه الحركة سببًا في إدخال دفعة من الحماس الروحي في الكنيسة اللوثرية. وأصبحت هال مركزًا للمجهودات التبشيرية. وبدأت بعض الجهود الرائدة في أفريقيا وأمريكا وآسيا وفي جزر المحيط الهادي والتي قام بها المرسلون الذين خرجوا من هال. وكانت الرغبة في الوصول إلى ما قصده كُتاب الكتاب المقدس ومعناه للحياة اليومية دافعًا للدراسة العلمية للغات القديمة ولتاريخ الكنيسة. وأدّى عدم اهتمام التقويين بالعقيدة بالبعض منهم إلى تبني الفلسفة المثالية.

بالإضافة إلى ما أحدثته الحركة التقوية من تجدد الغيرة الروحية في الكنيسة اللوثرية، فقد نتج عن تلك الحركة تأسس الكنيسة المورافية التي أسسها الكونت فون زينزندورف Count von Zinzendorf (١٧٠٠-٦٠) الذي كان قد درس في مدرسة فرانك في هال كما درس القانون في وتنبرج. اهتم فون زينزندورف بالتركيز على حياة تكريس شخصي للمسيح يلمس كل نواحي الحياة. وفي عام ١٧٢٢ أسس اللاجئون المورافيون مستوطنة هيرنهات على إقطاعية بيرتلسدورف التي يملكها زينزندورف، وفي عام ١٧٢٧ أصبح هو بنفسه قائدًا لهذه المنطقة. وفي عام ١٧٤٢ تم الاعتراف بالكنيسة المورافية كنيسة مستقلة قائمة بذاتها. وكان تنظيم الكنيسة الداخلي يشمل ثلاثة مستويات وهي الأسقف، والشيخ، والشماس وتم إقرار هذا النظام في عام ١٧٤٥. وكانت لتلك الحركة رؤية تبشيرية واسعة حتى إنهم أرسلوا المبشرين إلى جزر الهند الغربية، جرينلاند والهند وأفريقيا مع منتصف القرن. وبعد أن قضى المورافيون وقتًا قصيرًا في جورجيا، انتقلوا إلى بنسلفانيا حيث حاول زينزندورف أثناء زيارته لأمريكا في عام ١٧٤٣، العمل على توحيد كل البروتستانت الألمان في أمريكا تحت راية المورافيين. أما أفكار زينزندورف وتأملاته حول المسيح والتي برع في التعبير عنها في لغة شعرية متدفقة المشاعر، فقد ساعد على صياغتها في قالب لاهوتي أوجست سبانجنبرج August Spangenburg المفكر اللاهوتي لحركة المورافيين Moravians. ومن الطريف ملاحظة كيف اكتملت دائرة التأثير المورافي عندما استخدم الله أحد المورافيين في مساعدة وسلي Wesley على قبول المسيح مخلصًا شخصيًا لحياته. فكما أن تعليم ويكليف Wycliffe أثر في هس مؤسس الأخوة البوهيميين، والذين خرجت منهم الكنيسة المورافية، والتي كان لها مثل هذا التأثير الكبير على الحياة الروحية لجون وسلي الإنجليزي. ومن الأمور التي يؤسف لها أن التأثير الإنجليزي على القارة الأوربية في القرنين السابع عشر والثامن عشر ساهم في نشر تعاليم الربوبية والعقلانية.

### ب- في انجلترا

كانت النهضة الميثودستية هي الانتعاش الديني الثالث في انجلترا بعد حركة الإصلاح في

القرن السادس عشر والحركة التطهيرية في القرن السابع عشر. وقد ارتبطت الميثودستية باسم جون وسلي John Wesley (١٧٠٣-٩١)، والذي كان الشخصية الرئيسية طوال القرن فيما يتعلق بالأمور الدينية في انجلترا. ويتفق المؤرخون على أن الحركة الميثودية في انجلترا Methodism in England تقف على قدم المساواة مع الثورة الفرنسية والثورة الصناعية Industrial Revolution كإحدى الظواهر التاريخية التي ميزت القرن الثامن عشر، بل إن بعض المؤرخين يتفقون مع الفكرة التي تقول إن مواعظ جون وسلي أنقذت انجلترا من ثورة مماثلة للثورة الفرنسية. قامت الميثودية في الكنيسة الأنجليكانية بنفس الدور الذي قامت به الحركة التقوية Pietism في الكنيسة اللوثرية.

أما في ويلز فقد جاءت النهضة مبكرة عن ذلك، بواسطة هاول هاريس Howell Harris (١٧١٤-٧٣) الذي كان مدرساً في تالجارث، وأيضا جريفز جونز Griffith Jones (١٦٨٣-١٧٦١) والذي كان راعياً. وقد تأسست الكنيسة الكالفينية الميثودستية في ويلز نتيجة لهذا الانتعاش. وكان جونز هو الذي أنشأ نظام الدوائر التبشيرية.

أوضحنا قبلاً أن المذهب العقلاني لحركة الربوبية كان قد لاقى قبولاً واسعاً بين الطبقات العليا من المجتمع. كانت المواعظ في الكنائس الرسمية في معظم الأحيان عبارة عن محاضرات طويلة مليئة بالقضايا والشعارات الأخلاقية. كان رجال الكنيسة الذين يشغلون المناصب العالية يحصلون على رواتب كبيرة، بينما كان غيرهم من الخدام من رجال الكنيسة البسطاء في أكثر من خمسة آلاف كنيسة لا يتجاوز راتبهم السنوي مبلغاً ضئيلاً يتراوح ما بين ٢٠-٥٠ جنيها في السنة، ولذا لم يكونوا على درجة من الكفاءة. نتج عن ذلك أن الكثيرين منهم كانوا يعتمدون على مالك الأرض وصاروا من حاشيته يشاركونه رياضته وينادمونه على الشراب، كان المستوى العام للأخلاق منخفضاً جداً. وفي النصف الأول من القرن ارتفع معدل الوفيات بسبب إدمان الناس لأنواع الخمور الرخيصة التي تسببت في موت كثيرين كما تسببت في إرسال آخرين إلى مستشفيات الأمراض العقلية. كما انتشر لعب القمار بشكل كبير. وقيل إن تشارلز جيمس فوكس Charles James Fox، وهو أحد القادة السياسيين كان قد خسر مائة ألف جنيه وهو لم يتخط سن الأربعة والعشرين. وكانت من بين أساليب اللهو المنتشرة وقضاء الوقت الرهان على مصارعة الدببة والديكة والثعالب والثيران، بل وكانت الأسرة تعتبر الخروج لمشاهدة الإعدام الجماعي من بين نزهاتها المفضلة. كانت البلاد "مريضة" بكل معنى الكلمة، متشككة في عقيدتها وتفتقر إلى الحماس.

كان وسلي هو الطفل الخامس عشر من بين تسعة عشر طفلا رزق بهم صموئيل Samuel Wesley وسوزانا وسلي Susannah Wesley. وقد نجا من الموت بأعجوبة عندما شب حريق في بيت الأسرة في عام ١٧٠٩. وبسبب هذه الحادثة كان وسلي يشير لنفسه بقوله إنه "جمرة منتشلة من النار". التحق بالدراسة في جامعة اكسفورد في عام ١٧٢٠ بعد حصوله على منحة دراسية. وكان في الفترة من ١٧٢٦-١٧٥١ مدرساً في كلية لينكولن وتمت رسامته قساً في عام ١٧٢٨. وبعد سنتين قضاهما مساعداً لأبيه في رعاية كنيسة ملحقة بـ Epworth، عاد مرة أخرى يعمل





بالتدريس. ثم أصبح وسلي أحد القادة المحركين للجماعة التي عُرفت باسم "النادي المقدس"، والتي ضمت أخاه تشارلز Charles Wesley أيضاً. وكانت هذه الجماعة تعكف على دراسة الكتاب المقدس المنهجية، مع تنمية عادات الصلاة ومجهودات الخدمة الاجتماعية سواء في السجون أو في بيوت الفقراء مما دفع زملاؤهم من الطلبة إلى إطلاق لقب Methodists أو المنهجيين عليهم. وذهب وسلي في الفترة ما بين ١٧٣٥-١٧٣٧ إلى جورجيا ليعمل قسيساً في مستعمرة أوجلثورب(٢)، إلا أن صرامته الكنسية، وأفكاره الطقسية وبساطته وصراحته في معاملة النساء خلقت له الكثير من المتاعب مع شعب كنيسته حتى إنهم طلبوا منه الرحيل في عام ١٧٣٧.

وفي ٢٤ مايو ١٧٣٨ وبينما هو يستمع إلى قراءة مقدمة لوثر Luther لتفسير رسالة رومية، التهب قلب وسلي وهو يستمع ووضع ثقته الكاملة في المسيح لينال الخلاص من خطاياه. وكان أخوه تشارلز قد نال اختباراً مماثلاً قبله بيومين فقط. ولعل الشجاعة التي أظهرتها جماعة المورافيين في وسط عاصفة تعرضت لها السفينة التي أقلتهم ومعهم وسلي إلى جورجيا، وكلمات سبانجنبرج Spangenburg التي ألقاها في جورجيا(٣)، وأيضا مجهودات بيتر بوهلر Peter Bohler(٤). هذه جميعها اجتمعت لتؤثر تأثيراً بالغاً على وسلي وتقوده للخلاص والتجديد. لذلك ذهب وسلي لزيارة هيرنهات ليدرس الكنيسة المورافية عن قرب.

وفي عام ١٧٣٩ دعا جورج ويتفيلد George Whitefield (١٧١٤-٧٠) جون وسلي للاشتراك معه في الوعظ وفي الحقول في بريستول. كانت



*جون وسلي مؤسس الميثودست.*

هذه بداية خدمة جون وسلي في الوعظ والتبشير في الهواء الطلق والتي قطع خلالها قرابة ٢٠٠ ألف ميل على ظهر جواده في كل أنحاء انجلترا واسكتلندا وأيرلندا حيث وعظ حوالي ٤٢ ألف عظة وكتب ما يقرب من ٢٠٠ كتاب، وأسس نظاماً يجمع كل أتباعه. وجدير بالذكر أن علاقة وسلي بهويتفيليد لم تستمر طويلا لكنهما افترقا في عام ١٧٤٠ بسبب تمسك هويتفيلد بالفكر اللاهوتي الكالفيني. أسَّس وسلي جمعية ميثودستية وبنى كنيسة في بريستول عام ١٧٣٩ وفي نفس هذه السنة اشترى مبنى في لندن وخصصه ليصبح المقر الرئيسي لكل نشاطه. بدأ هويتفيلد الذي قبل الإيمان في عام ١٧٣٥ خدمته في الوعظ في الحقول في عام ١٧٣٩، وكان ينظم الذين يتجددون في خدمته في جمعيات، وكان يستخدم العديد من الوعاظ العلمانيين وكان لخدمته جانباً اجتماعياً يبرز في

الخدمة التي قدمها في ملجأ الأيتام الذي أسسه.

ألف تشارلز وسلي Charles Wesley (١٧٠٧-٨٨) العديد من الترانيم الشجية والتي كان لها أثر بالغ في الاجتماعات. حيث ألف تشارلز أكثر من ستة آلاف ترنيمة من بينها العديد من أشهر الترانيم المسيحية التي تستخدم إلى اليوم حول العالم. وقد اتبع تشارلز في جهوده الطريق التي بدأها إيزاك واتس Isaac Watts (١٦٧٤-١٧٤٨) وهو لاهوتي من الكنيسة الاستقلالية ويعتبر أب للترانيم الانجليزية الحديثة، حيث بدأ تشارلز في تأليف الشعر المسيحي وتلحين بعض المقاطع الكتابية.

لم يرغب وسلي في الانفصال عن الكنيسة الأنجليكانية، لذلك فإنه نظم المتجددين نتيجة خدمته في جمعيات تشبه (اجتماع الأنقياء) الذي أسسه سبينر Spener. وفي عام ١٧٤٢ قسمت الجمعيات إلى مجموعات صغيرة يتراوح عدد كل منها من ١٠-١٢ شخص ويشرف عليها قائد علماني. وفي عام ١٧٤٤ عقد أول مؤتمر سنوي للوعاظ الميثودست في لندن، وفي عام ١٧٤٦ قسم انجلترا إلى سبعة دوائر تبشيرية. وفي عام ١٧٨٤ رسم شخصين كقسوس وأفرز توماس كوك Thomas Coke ليكون المشرف العام على الكنيسة الميثودستية في أمريكا. وفي نفس العام، تم تسجيل إعلان التأسيس لهذه الحركة قانونياً، مما أعطى لهم حق تملك العقارات التي تشغلها كنائسهم. وفي تلك السنة أيضاً نظمت الكنيسة الميثودستية في أمريكا نفسها باعتبارها كنيسة وطنية لها خدمة على المستوى القومي. إلا أن الميثودست في انجلترا لم ينظموا كنيستهم باعتبارها كنيسة مستقلة عن الكنيسة الأنجليكانية إلا بعد موت وسلي في عام ١٧٩١. ويظهر تأثير الأنجليكانية على الكنيسة الميثودستية في اتباعها النظام الأسقفي في إدارة شئونها، وأيضاً ممارسة الركوع أمام المذبح عند التناول.

بعد انفصال وسلي Wesley عن هويتفيلد George Whitefield، تبنت الكنيسة الميثودية الفكر اللاهوتي الأرميني، إلا أن العقيدة الأساسية التي ركز عليها وسلي في تعليمه كانت هي التبرير بالإيمان في اختبار تجديد لحظي. وركّز وسلي أيضاً كثيراً على عقيدة التقديس الكامل أو المحبة الكاملة، وهي عبارة عن اعتقاد بإمكانية الحصول على الكمال المسيحي في الدوافع في هذه الحياة الحاضرة وذلك على اعتبار أن محبة الله تملأ قلب المؤمن إلى درجة أنها تطرد الخطية وتساعد على القداسة الكاملة في الحياة. وكان يقول إن هذه العملية المتدرجة تبدأ بإيمان. قد أوضح وسلي دائماً أن هذا لا يعني أن يكون الإنسان بلا خطية أو عنده كمال غير قابل للخطأ، ولكن هناك إمكانية خلو الدوافع من الخطية في القلب المشبع بمحبة الله. قد تحدث أخطاء في التقدير مما يؤدي إلى نتائج أخلاقية سيئة. لكن فكرة إمكان تحقيق المثالية تظل موجودة ونجد مثل هذه الأفكار في كتابه ورسائله(٥) بعنوان "الشرح الوافي للكمال المسيحي" A Plain Account of Christian Perfection.

أصر وسلي على أن الإنجيل يجب أن يكون له تأثير عملي على المجتمع، ولا يستطيع أحد أن ينكر تأثير النهضة الميثودستية Methodism على المجتمع الإنجليزي. عارض وسلي تجارة الخمور والعبودية والحرب. وهناك الكثير من الأسباب التي





تدفعنا للاعتقاد بأن انجلترا كان يمكن أن تشهد ثورة بين عمالها تشبه ما حدث في فرنسا لولا النهضة التي ربحتهم للمسيح. وقد تلقى معظم القيادات العمالية التي ظهرت في وقت لاحق تدريبهم في الحديث وعرض الأفكار في مجموعات درس الكتاب الميثودستية. تم وقف تجارة الخمور الرخيصة، جزئياً بسبب تأثير النهضة. كان وسلي من بين المتحمسين والمدافعين عن إلغاء نظام العبودية، وكان صديقاً للقادة الأوائل لتلك الحركة المطالبة بإلغاء نظام العبودية. كان حب وشغف وسلي بالطب كهواية وراء إنشائه أول مستوصف لتقديم الخدمة الطبية المجانية في انجلترا في عام ١٧٤٦. وكان لوسلي تأثير كبير على حياة روبرت ريكس Robert Raikes الذي نشر مبادئ حركة مدارس الأحد، وأيضاً على حياة جون هوارد John Howard، الذي قاد حركة المطالبة بإصلاح أحوال السجون. وعند وفاة وسلي كانت الكنيسة الميثودسية قد بلغت قدراً كبيراً من القوة في الولايات المتحدة. وفي انجلترا نظم ما يقرب من سبعين ألفاً من أتباعه من الكنيسة الميثودسية الإنجليزية بعد موته بوقت قصير. استطاع هذا الرجل المتأنق المنظم الصغير الجسم بنشاطه وإقباله على العمل الشاق بنعمة الله أن يغير مجرى الحياة الدينية لعمال انجلترا. وقد استطاعت النهضة الإنجيلية في داخل الكنيسة الأنجليكانية، والتي حدثت نتيجة للنهضة الميثودستية تغيير الطبقة العليا في انجلترا وساعدت انجلترا لتصبح دولة عظمى بين الأمم وضامنة للسلام العالمي طوال القرن التاسع عشر. قام هويتفيلد Whitefield بدور النبي وجون وسلي John Wesley بدور المنظم وتشارلز Charles بدور المرنم، في إحداث النهضة الميثودستية.

## ٤- الكاثوليكية التابعة لروما

لقد وصفنا فيما سبق أحداثاً هامة في تطور الكاثوليكية في أوربا وأمريكا ومنها الحركة التبشيرية المؤثرة للكنيسة الكاثوليكية في القرنين السادس عشر والسابع عشر والتي قام بها اليسوعيون والدومنيكان والفرنسيسكان، ثم الحركة التي قام بها أتباع جانسين في القرن السابع عشر، ثم ظهور الحركة النسكية في نفس القرن وقد عُرفت باسم طالبي الهدوء والسكينة Quietists وأيضاً ما حدث من طرد البروتستانت الفرنسيين من فرنسا في عام ١٦٨٥.

وقد حاول الحكام في أوربا في الفترة ما بين ١٦٤٨-١٧٨٩، وهي الفترة التي شهدت الحكم الملكي المطلق، الحد من النفوذ البابوي في بلادهم. وكانت الأحكام البراجماتية في فرنسا في عام ١٤٣٨ عبارة عن محاولة فرنسية مبكرة لتحقيق هذا الأمر. وقد عُرف هذا الاتجاه في فرنسا باسم "الغالية" Gallicanism وذلك في مواجهة ما فوق السيطرة Ultramontanism، أي امتداد النفوذ السياسي للبابا عبر الجبال ليسيطر على الرياسات الوطنية. وقد أكدت القوانين الغالية (نسبة إلى بلاد الغال، فرنسا) التي أقرت عام ١٦٨٢، والتي صاغها بوسيت Jacques Bossuet، أن الملك ليس خاضعاً للبابا في الأمور الزمنية، وأن البابا ينبغي أن يخضع لأحكام المجالس العامة، وأن نفوذه في فرنسا تحده أحكام دستور الكنيسة في فرنسا ودستور البلاد، وأنهم وإن كانوا يقبلون أحكامه فيما يختص بالأمور الإيمانية، إلا أنهم لا يحسبونه معصوماً من الخطأ والتصحيح. وكان لتلك الحركة الفرنسية حركات مشابهة مثل ما شهدته

الإمبراطورية الرومانية المقدسة في أثناء حكم جوزيف الثاني Joseph 2nd (١٧٤١–٩٠) والذي عرفت حركته بالجوزفية نسبه إلى اسمه Josephism. وفي ألمانيا ظهرت الحركة (الفبرونيانية) نسبة إلى الاسم المستعار الذي كتب به نيكولاس فون هونثايم Nikolas von Hontheim (١٧٠١–١٧٩٩) آراءه دعمًا لمثل هذا الاتجاه في ألمانيا لتدعيم سلطة ونفوذ العرش الملكي على القيادات الكنسية في نفس الوقت الذي تظل البلاد فيه على ولائها للكنيسة الكاثوليكية في الأمور الدينية. كان هذا بمثابة بدايات ظهور النفوذ المتزايد لحكام الدول الوطنية الجديدة وبدايات تنامي المشاعر الوطنية القومية في أوربا.

## ٥- الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا

أعطي لقب البطريرك لرئيس أساقفة الكنيسة في روسيا في عام ١٥٨٩، فأصبحت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية Russian Orthodox Church بذلك كنيسة وطنية مستقلة يتمتع رئيسها بدور مساوٍ للبطاركة الآخرين في الكنيسة الشرقية. وقد أدى سقوط روما في أيدي البرابرة وسقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك في عام ١٤٥٣ إلى أن يعتبر الروس أن عاصمتهم موسكو قد أصبحت "روما الثالثة".

وبعد عام ١٦٥٠ بقليل، سعى البطريرك الجديد نيكون إلى تطوير طقوس الكنيسة بإدخال بعض التغييرات الثانوية مثل عمل إشارة الصليب باستخدام ثلاثة أصابع بدلاً من اثنين كما تعود الروس من قبل. إلا أن جماعة داخل الكنيسة بقيادة راهب اسمه أفاكوم Avaakum عارضوا مثل هذه التغييرات وعرفوا باسم "المؤمنين القدماء". وعندما حكم على الراهب أفاكوم بالإعدام حرقًا في عام ١٦٨٢، تمرد أتباعه علنًا على الكنيسة وأسسوا جماعة جديدة موجودة إلى هذا اليوم.

وقد وقعت الكنيسة تحت سيطرة الدولة بشكل مباشر عندما ألغي القيصر بطرس الكبير Peter the Great في عام ١٧٢١ منصب البطريرك وجعل الكنيسة تحت سيطرة ووصاية السنودس المقدس، والذي كان يقوده موظف مدني مسئول مسئولية مباشرة أمام القيصر نفسه. فأصبحت الكنيسة مرتبطة بالدولة ارتباطًا وثيقًا، بل وأصبحت الكنيسة ديوانًا من دواوين الحكومة حتى عام ١٩١٧، عندما أعاد الشيوعيون فصل الكنيسة عن الدولة، وانتخبت الكنيسة لنفسها بطريركًا جديدًا.

## اقتراحات للقراءة

*Baker, Frank.* From Wesley to Asbury. *Durham, N.C.: Duke University Press, 1976.*

*Barbour, Hugh, and Roberts, Arthur O.* Early Quaker Writings, 1650-1700. *Grand Rapids: Eerdmans, 1973.*

*Belden, Albert D.* George Whitefield the Awakener. *New York: Macmillan, 1953. This is an able presentation of the evangelistic and humanitarian work of Whitefield with





*documentation from the sources.*

*Bennett, Richard.* The Early Life of Howell Harris. *London: Banner of Truth, 1962.*

*Brailsford, Mabel R.* A Tale of Two Brothers. *New York: Oxford University Press, 1954. This is an account of John and Charles Wesley.*

*.Braithwaite, William.* The Beginnings of Quakerism. *London: MacMillan, 1923*

_____. The Second Period of Quakerism. *2nd ed. Cambridge: Cambridge University Press, 1961. These two works provide a detailed, well-documented history of the Quakers.*

*Bready, J. Wesley.* England; Before and After Wesley. *New York: Harper, 1938. This also appeared in an American edition without footnotes under the title* This freedon Whence. *Rev. ed. New York: American Tract Society. 1943.*

*Burtner, Robert W., and Chiles, Robert E., eds. A* Compend of Wesley's Theology. *Nashville: Abingdon, 1954. The theology of Wesley is described by well-chosen documents. The student should also consult Wesley's* Journals and Letters *to grasp his spirit.*

*Cameron, Richard M.* Methodism and Society in Historical Perspective. *New York: Abingdon, 1961. This work discusses the social impact of English and American Methodism.*

_____. The Rise of Methodism, A Source Book. *New York: Philosophical Library, 1954. This tells the story of Methodism through sources.*

*Cannon, William R.* The Theology of John Wesley. *New York: Abingdon-Cokesbury, 1946. This is a well-documented account of Wesley's theological views.*

*Clark, Elmer T.* An Album of Methodist History. *Nashville: Abingdon, 1952. The story of Methodism is presented in pictures and text.*

*Cragg, Gerald R.* The Church in the Age of Reason. *Harmondsworth, Middlesex: Penguin, 1960.*

*Dallimore, Arnold A.* George Whitefield. *London: Banner of Truth, 1970.*

*Davis, Arthur P.* Issac Watts. *New York: Dryden, 1943.*

*Edwards, Maldwyn L.* After Wesley. *London: Epworth, 1935.*

## الفصل الرابع والثلاثون

# انتصارات الكاثوليكية وتقلباتها

خسرت الكنيسة الكاثوليكية التابعة لروما ممتلكاتها الزمنية والكثير من نفوذها السياسي في الفترة ما بين ١٧٨٩-١٩١٤. ويتناقض المصير المؤلم الذي تعرضت له البابوية أثناء الثورة الفرنسية مع المكاسب التي كانت قد حققتها أثناء فترة الإصلاح المضاد. وفي أثناء الفترة التالية لحروب نابليون استعادت البابوية امتيازاتها ونفوذها حتى عام ١٨٧٠. ولكن منذ ذلك الحين وحتى بداية الحرب العالمية الأولى بدأ فقد البابوية لامتيازاتها وتنامت حركة مقاومة سلطة رجال الكنيسة في الكثير من بلدان أوربا. وقد نشأت هذه الصعوبات جميعها وتزايدت في إطار مشكلة العلاقة ما بين الكنائس الوطنية والكنيسة البابوية العامة.

## ١- الثورة البابوية ١٧٨٩-١٨١٥

قبل انفجار الثورة في فرنسا، اجتمعت عدة عوامل معًا أدَّت إلى هذا الانفجار مثل سوء الأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والقانونية من ناحية، ونموذج نجاح الثورة في انجلترا عام ١٦٨٩ وفي أمريكا عام ١٧٧٦ من ناحية أخرى، وقد اتحدت هذه العوامل معًا لصياغة نظرية فكرية تبرر حق الشعب في الثورة ضد لويس السادس عشر Louis 16th. كانت تلك الأيديولوجية هي نتاج تعاليم جماعة الفلاسفة Philosophés الفرنسيين، مثل روسو Jean Rousseau و مونتيسكيو Montesquieu و ديدرو Denis Diderot و فرانسوا أرويه François Arouet الذي اشتهر باسم فولتير Voltaire. وبينما قدم روسو و مونتيسكيو الفكر السياسي للثورة، انتقد فولتير كنيسة روما ونادى بقوة مطالبًا بتطبيق سياسة التسامح الديني. ويجب أن نعترف بأن فولتير كان عنده بعض الحق في انتقاده للكنيسة الكاثوليكية في فرنسا. فقد كانت تمتلك الكثير من الأراضي، والتي كان معظم ريعها يذهب إلى جيوب كبار رجال الكنيسة. كان فولتير متحمسًا لدين يعتمد على الفكر والمنطق بدلاً من الدين الذي يمثله قادة رجال الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا. ولكن مثل هؤلاء الأشخاص كانوا في الواقع يريدون تحقيق الإصلاح الداخلي أكثر من الثورة الشعبية.

أعلنت الجمعية الوطنية الفرنسية في نوفمبر ١٧٨٩ اعتبار أملاك الكنيسة في فرنسا من ضمن الأموال العامة، وأصدرت سندات بضمان أراضي الكنيسة. وقد تم تداول هذه السندات في وقت لاحق باعتبارها عملة رسمية للتداول. وفي بداية عام

١٧٩٠ صدر قانون بإلغاء الأديرة الفرنسية وفي صيف عام ١٧٩٠ أصدرت الجمعية الوطنية الدستور المدني لرجال الكنيسة Civil Constitution of the Clergy[1] والذي خُفض بمقتضاه عدد الأساقفة ليصبح ثلاثة وثمانين، وهو مطابق لعدد الوحدات الإقليمية التي تنقسم إليها فرنسا. وأعطت هذه الوثيقة الحق للشعب أن ينتخب الأسقف مثلما ينتخب باقي الموظفين العموميين، على أن يبلغ البابا لمجرد العلم بنتيجة الإنتخاب. وكان على رجال الكنيسة أن يتلقوا رواتبهم من الدولة وذلك بعد أن يؤدوا قسم الولاء للدولة. وتم تقليص نفوذ البابا ليقتصر على صياغة العقائد الدينية للكنيسة الكاثوليكية. لم يعترض رجال الكنيسة بحماس على فقدان الكنيسة لأملاكها من الأراضي، ولكنهم رأوا أن هذا القانون الجديد ليس له معنى سوى السعي لأن تكون الكنيسة علمانية وهو الأمر الذي رفضوه بشدة حتى بلغ عدد رجال الكنيسة الذين تركوا فرنسا ما يقرب من أربعة آلاف.

حدث انفصال تام بين الكنيسة الكاثوليكية Roman Catholic Church التابعة لروما والدولة الفرنسية أثناء فترة الحكم المرعب Reign of Terror في الفترة ما بين ١٧٩٣-١٧٩٤، عندما تم إعدام الكثيرين بتهمة الأنشطة المعادية للثورة. وفي تلك الفترة أصبح التزام الأفراد بتدعيم الكنيسة ماديًا عملاً إختياريًا. بل إن بعض المتطرفين من قادة الثورة من الملحدين حاولوا لفترة ما في عام ١٧٩٣ فرض ديانة عقلانية على فرنسا واقتحموا كاتدرائية نوتردام حيث قاموا بتتويج ممثلة شابة باعتبارها إلهة للفكر. أما الآخرون الذين لم يقبلوا مثل هذا التطرف، فقد قبلوا تغيير التقويم بحيث جعلوا اليوم العاشر بدلاً من السابع يومًا للراحة. واستمر العمل بهذا التقويم الجديد الذي تم إقراره في ٧ أكتوبر ١٧٩٣ حتى عام ١٨٠٤. وكان القصد من تغيير التقويم هو التخلص من الآحاد وبالتالي من العديد من أعياد القديسين. أما روبسبير Robespierre فقد كان يفضل مذهب الربوبية الذي يؤمن بالله وحده باعتباره الكائن الأعلى مع إنكار الوحي والأنظمة الدينية. وقد تعرضت الكنيسة الكاثوليكية لمقاومة شديدة خلال هذه الفترة القصيرة. بل حتى البابا نفسه تم القبض عليه وأُخذ أسيرًا إلى فرنسا حيث بقي حتى مات.

وعندما تولى نابليون Napoleon مقاليد الحكم في عام ١٧٩٩، أدرك أن الغالبية العظمى من الفرنسيين من الكاثوليك وعرض معاهدة بين الكنيسة الكاثوليكية في روما والدولة بموجب ميثاق خاص Napoleonic Concordat عام ١٨٠١. وأقرّ نابليون في هذا الميثاق بأن المذهب الكاثوليكي هو "مذهب الغالبية العظمى من المواطنين الفرنسيين" ولكنه لم يجعل من الكاثوليكية الدين الرسمي للدولة. احتفظت الدولة لنفسها بحق تعيين الأساقفة وإن كان للبابا أن يرسمهم، وكانت الدولة أيضًا هي المسئولة عن دفع رواتب رجال الكنيسة، ولكن الأملاك التي نُزعت ملكيتها من الكنيسة في عام ١٧٩٠ لم ترجع إليها. وقد حكم هذا الميثاق العلاقات بين الكنيسة والدولة في فرنسا حتى عام ١٩٠٥. ولكن في عام ١٨٠٢ صدرت قوانين أخرى Organic Articles تمنع نشر القرارات البابوية أو انعقاد السنودس في فرنسا بدون موافقة الحكومة على ذلك. وبذلك أصبحت الكنيسة خاضعة للدولة.





## ٢- استعادة النفوذ البابوي ١٨١٥-٧٠

استطاعت البابوية حتى عام ١٨٧٠ استعادة بعض مناطق النفوذ التي كانت قد فقدتها في أوربا. وقد شجع مترنيخ Metternich مستشار النمسا تكوين تحالف بين حكام أوربا من ناحية والكنيسة في روما من ناحية أخرى يعمل على حماية الوضع القائم، وعلى منع قيام أي حركات تدعو للقومية أو الديمقراطية في أي مكان في أوربا. وانطلاقًا من هذا الموقف كان يدعم البابوية بقدر ما يستطيع. وقد أعاد المؤتمر الذي عُقد في فينا، وترأسه مترنيخ، الأملاك البابوية إلى البابا. وقد كتب مترنيخ موضحًا أهمية الدين باعتباره دعامة المجتمع في إقرار الإيمان المعروف باسمه (١٨٢٠).

وقد ساعدت النهضة الرومانسية بدورها البابوية، وذلك لأنها كانت في طبيعتها نوع من الرفض والابتعاد عن العقلانية التي سادت في القرن الثامن عشر. والتركيز على الاتجاه الحدسي في الحياة. وكان الرومانسيون يعبرون عن أفكارهم بالشعر أكثر من النثر، منبرين على المضمون أكثر من الشكل. وكانوا يمجدون الطبيعة والماضي المرتبط بالعصور الوسطى. كانوا يوجهون رسالتهم لقلب الإنسان بدلاً من عقله. ركّز وردزورث William Wordsworth على إظهار وجود الله في الطبيعة. بينما مجّد كل من والتر سكوت Walter Scott وهيو والبو Hugh Walpole الماضي المرتبط بالعصور الوسطى في رواياتهم. أما شاتوبريان فقد مجّد الكنيسة في أعماله الأدبية. وكتب روسو Jean Rousseau يقول إن الإنسان يصل إلى أقصى درجات الرضى والسعادة عندما يكون في أقرب حالاته للطبيعة. وقد عبّر عن اعتقاده أن الشعب قادر على حكم نفسه بإصراره على تأكيد حق الشعب في اختيار حكامه بناء على الانتخاب العام باعتباره تعبيرًا صادقًا عن الإرادة الشعبية. وقد بدأ صياغة "العقد الإجتماعي" بقوله: "وُلد الإنسان حرًا" ولكنني أراه حولي في كل مكان مقيدًا بالأغلال". لم يهتم الرسامون هم أيضًا بالقوالب أو القواعد في أعمالهم الفنية، لكنهم سعوا لكي لا تكون رسومهم صورة طبق الأصل من الواقع، بل وضعوا في لوحاتهم تعبيرهم عن الإنطباعات التي يُحدثها الواقع داخلهم. كانت لوحاتهم بمثابة تفسير للطبيعة أكثر من كونها تصويرًا لها. أوضحت الفلسفة المثالية الجانب الإنفعالي والإرادي في طبيعة الإنسان. وبنى كانت Kant طروحاته عن الله والروح والخلود على ما في طبيعة الإنسان من قدرة على تمييز ما هو صالح. وبدأ الناس يهتمون بالتاريخ الماضي للولايات التي عاشوا فيها. وعملت كل هذه الأشكال التعبيرية للحركة الرومانسية، والتي كان لها اليد العليا في أوربا في الفترة من حوالي عام ١٧٩٠ وحتى ١٨٥٠ على زيادة تأثير الدين على حياة الناس. وقد ساهمت الكنيسة الكاثوليكية Roman Catholic بطقسها الخلاّب وتصوير الدين بطريقة ملموسة على إعادة تنمية المشاعر والتصورات الدينية بين الشعب.

كانت حركة الرهبان اليسوعيين Jesuits قد تم حلّها عام ١٧٧٣ بأمر من البابا كليمنت الرابع عشر Clement 14th، ولكن أُعيد تأسيسها مرة أخرى بقرار بابوي أصدره البابا بيوس السابع Pius 7th في عام ١٨١٤. فبدأوا على الفور عملهم التعليمي ونشاطهم التبشيري، وإن كانوا لم يتدخلوا

في الأوضاع السياسية للحكومات كما كانوا يفعلون في تاريخهم القديم.

وفي بريطانيا تم إلغاء الحظر الذي كان يمنع الكاثوليك من التصويت أو شغل الوظائف العامة وذلك في عام ١٨٢٩ بإقرار قانون "تحرير الكاثوليك"، وكان ذلك نتيجة لجهود دانيال أوكونيل Daniel O'Connell. وفي عام ١٨٦٩ قام جلادستون Gladstone بإلغاء وضع الكنيسة الأنجليكانية باعتبارها الكنيسة الرسمية، ليصبح شعب أيرلندا غير ملتزم بدفع عشور دخله لدعم الكنيسة الأنجليكانية إلى جانب دعمهم لكنيستهم الأصلية وهي الكنيسة الكاثوليكية التي كانوا يدعمون رجالها باختيارهم. وقد تم نفس هذا الإجراء في كل من بروسيا، فرنسا والنمسا مع حلول منتصف القرن التاسع عشر.

ساعدت حركة أوكسفورد Oxford Movement التي شهدتها الكنيسة الأنجليكانية، بشكل مباشر وآخر غير مباشر في تحسين وضع الكنيسة الكاثوليكية. فقد انضم في عام ١٨٤٥ كل من هنري إدوارد مانينج Henry Edward Manning وجون هنري نيومان John Henry Newman اللذين كانا من قادة تلك الحركة إلى الكنيسة الكاثوليكية، وفي عام ١٨٦٢ انضم حوالي ٦٢٥ من الأفراد المهمين - من العسكريين وأساتذة وأعضاء البرلمان وما يقرب من ٢٥٠ من قسوس الكنيسة الأنجليكانية إلى الكنيسة الكاثوليكية. أما الدعم الغير المباشر الذي قدمته هذه الحركة لكنيسة روما فقد تمثل في استعادة ميل كبار رجال الكنيسة الأنجليكانية لتبني آراء في موضوعات مثل التناول لا تختلف كثيراً عن نظرية الاستحالة التي تؤمن بها الكنيسة الكاثوليكية، وموضوعات أخرى مثل الرهبنة، العبادة الطقسية، وأهمية الكنيسة في حياة الإنسان. وأدى ذلك إلى انتقال الكثير من كبار رجال الكنيسة الأنجليكانية إلى الكنيسة الكاثوليكية.

شغل البابا بيوس التاسع Pius 9th (١٧٩٢-١٨٧٨) الكرسي البابوي ما بين ١٨٤٦ وعام ١٨٧٨، ولم يفوت أي فرصة أتيحت له لتدعيم وتقوية الكنيسة الكاثوليكية. وفي عام ١٨٥٤ أصدر قراراً Ineffabilis Deus بعد تشاوره مع أساقفة الكنيسة، حيث أعلن فيه عقيدة "الحبل بلا دنس بالنسبة للعذراء مريم" Immaculate Conception of Mary أي أن العذراء مريم نفسها حُبل بها دون "أي أثر للخطية الأصلية". وكان على جميع أبناء الكنيسة الأوفياء أن يقبلوا هذه العقيدة الجديدة باعتبارها جزءًا من عقائد الكنيسة الكاثوليكية Catholicism الأساسية التي يحتاج الإنسان أن يؤمن بها لكي يخلص.[٢]

بعد هذا الحدث بوقت قليل ابتدأ البابا يلتفت إلى الإتجاهات القومية والتحررية السياسية التي كانت سائدة في تلك الفترة، وعمل على رصد اتجاهاتها العدائية تجاه كنيسة روما. وفي عام ١٨٦٤ أصدر قائمة بالأفكار الخاطئة Syllabus of Errors[٣] وحظّر تداولها. وفي هذه القائمة أدان الأشكال الفلسفية الجديدة مثل المثالية باتجاهاتها التي تميل نحو الإعتقاد بوحدة الوجود، والتسامح الديني، والفصل بين الكنيسة والدولة، الإشتراكية، جمعيات الكتاب المقدس، نظام التعليم المدني، وفكرة أن البابا ليس له أي سلطان على الأمور الزمنية، الزواج المدني والنقد الكتابي. وقد اعتقد البابا أن هذه الأفكار لها تأثير هدّام على مصالح الكنيسة





التي يرعاها. وفي عام ١٨٦٣ أصدر المرسوم المعروف باسم Quanta Conficiamur والذي صدر ملحقًا على Quanto Cura حيث تمسك فيه بالتعليم المعروف Unam Sanctum أي أن الخلاص في الكنيسة الكاثوليكية فقط.

وقد أصبح الإعلان عن عصمة البابا Infallibility of Papacy والذي صدر ضمن وثيقة مجمع الفاتيكان في عام ١٨٧٠ ذروة أعمال بيوس Pope Pius. وقد تم إقرار هذا الإعلان بموافقة ٥٣٣ من بين الحاضرين. وقد صوّت شخصان ضد القرار بينما امتنعت أقلية تزيد قليلاً عن ١٠٠ شخص عن حضور المجلس يوم التصويت ولم يتأثر المجلس بالرأي العام. كان جوهر هذا الإعلان الذي قبله المجمع هو أنه عندما يتكلم البابا بصفته رئيساً للكنيسة على الأرض، فإن ما يقوله بخصوص القضايا الإيمانية أو الأخلاقية يكون معصوماً من الخطأ وينبغي أن يقبله المؤمن باعتباره من العقائد التي ينبغي الإيمان بها إن أراد أن يتمتع بالخلاص.[٤] وقد جعلت هذه العقيدة الجديدة اجتماع المجامع الكنسية بعد ذلك بلا داعٍ وذلك لأن البابا أصبح بمقتضى هذا الإعلان هو السلطة النهائية في أمور الدين والأخلاق. انشقت الكنيسة الكاثوليكية في عام ١٨٧١ جماعة دعت نفسها "الكنيسة الكاثوليكية القديمة" وكانت تحت قيادة جوهان فون دولينجر Johann Von Dollinger (١٧٩٩-١٨٩٠).

## ٣- مقاومة النفوذ البابوي ١٨٧١-١٩١٤

كان الإعلان عن عصمة البابا غير بعيد زمنيًا عن فقد البابوية لنفوذها السياسي. فبمجرد نشر الإعلان في عام ١٨٧٠ بدأت البابوية تواجه أحداثًا عدائية ضد كهنتها تسبب عنها خسائر في العديد من البلدان. ففي عام ١٨٧٠ استولت الجيوش الإيطالية على مدينة روما بعد ما اضطر لويس نابليون لسحب الحامية الفرنسية التي كانت مكلفة بحماية البابا وذلك لكي يتمكن من مواجهة التهديد بالحرب ما بين فرنسا وبروسيا، مما نتج عنه فقد البابا لكل ممتلكاته من أراضي ما عدا المساحة التي يشغلها قصر الفاتيكان ذاته. وبالرغم من العرض السخي الذي قدمته الحكومة الإيطالية في شكل قانون الضمانات البابوية الذي صدر عام ١٨٧١، إلا أن البابا رفض الاتفاق مع النظام الملكي الدستوري الوطني الجديد في إيطاليا. قدّم قانون الضمانات البابوية للبابا عرضاً بمبلغ قدره ٦٤٥ ألف دولار سنويًا باعتباره راتبًا سنويًا يدفع للأبد تعويضًا للبابا عما فقده من ممتلكات، وكان ذلك القانون يسمح له بالإحتفاظ بممتلكات البابوية في الفاتيكان، كما وفّر حرية الحكم الذاتي في هذه المنطقة بدون أي تدخل من الدولة الإيطالية. رفض البابا قبول هذا الإتفاق، وأصدر أمره بمنع كل كاثوليكي من الإدلاء بصوته أو بشغل أي منصب رسمي في الحكومة الإيطالية، وفرض على نفسه تحديد إقامته داخل أسوار الفاتيكان وهو الذي ظل سارياً حتى تم الإتفاق بين أحد البابوات اللاحقين مع حكومة موسوليني Mussolini في عام ١٩٢٩.

واجهت كنيسة روما المتاعب في ألمانيا أيضاً، تحت حكم المستشار الحديدي بسمارك Bismarck. رأى بسمارك أن الوضع الدولي للكنيسة الكاثوليكية يحول دون تحقيق الوحدة الكاملة بين شعب الإمبراطورية الألمانية الجديدة، والتي كان قد أعلن

عن تأسيسها عام ١٨٧١ في قاعة المرايا في قصر فرساي. واعتقد بسمارك أن خطر المسيحية الدولية لا يقل عن خطر الإشتراكية الدولية على الوحدة الوطنية الألمانية. فطرد اليسوعيين من ألمانيا في عام ١٨٧٢ وفي عام ١٨٧٣ أقرَّ القوانين التي عُرفت باسم قوانين مايو وهي التي تقضي بإنهاء السيطرة الدينية على التعليم وجعله علمانيًا، وبوضع الإحصاءات الحيوية تحت السيطرة المباشرة للدولة، وإقرار الزواج المدني، بل وفرض على كهنة الكنيسة أن يتعلموا في الجامعات التابعة للدولة. لم ينس بسمارك ما حدث في كانوزا Canossa حيث تم إذلال الملك هنري الرابع Henry 4th وإخضاعه للبابا في عام ١٠٧٣، وكان يقول إنه لن يذهب إلى كانوزا كما فعل هنري. إلا أنه اضطر أن يتخلى عن معركته مع البابوية في نهاية ذلك العقد وأن يرفع بعض المحاذير التي كان قد فرضها على الكاثوليك التابعين لروما، وحدث ذلك لأنه عاد واكتشف أن الكنيسة الكاثوليكية كانت حليفًا ممتازًا في صراعه ضد الإشتراكية.

وقد وصلت المشاعر المضادة لكهنة الكنيسة إلى أقصى ما وصلت إليه في فرنسا في تلك الفترة. وفي عام ١٩٠١ تم بقوة القانون إقصاء كل المؤسسات الدينية الرهبانية من الأنشطة التعليمية، إلا أن اللطمة الكبرى جاءت في عام ١٩٠٥ عندما أقرَّ مجلس النواب الفرنسي قانون فصل الكنيسة عن الدولة. فلم تعد الدولة مسئولة عن دفع مرتبات كهنة الكنيسة؛ كما تؤول كل أملاك الكنيسة للدولة. وكان على رجال الكنيسة تنظيم أنفسهم في روابط حتى يحصلوا على تصاريح باستخدام أملاك الكنيسة للأغراض الدينية. ولم تكن الدولة على استعداد للنظر لأي مذهب ديني بصورة خاصة، ففقدت الكنيسة الكاثوليكية بذلك وضعها المتميز والتي نشأ عن ميثاق عام ١٨٠١. وقد رفض البابا هذا القانون الجديد، إلا أن رفضه للقانون لم يكن له أي تأثير على إجراءات تنفيذه.

كان البابا ليو الثالث عشر Pope Leo 13th (١٨١٠-١٩٠٣) والذي شغل المنصب البابوي ما بين ١٨٧٨-١٩٠٣، قد تلقى تدريبه كراهب يسوعي Jesuit وكانت له خبرة إدارية واسعة. وأصدر منشورات بابوية عامة تعارض نفوذ وسلطة الدول القومية، وبالأخص في ألمانيا بقيادة بسمارك Bismarck. ففي المنشور المعروف باسم Immortale Dei الذي صدر عام ١٨٨٥ أكَّد البابا أن الكنيسة والدولة معًا هما من الله وأن لكل منهما مهامًا عينها الله لهما، لكنه أدان فشل الدولة في معرفة سلطان الله من خلال الكنيسة بل ومحاولتها السيطرة على الكنيسة والإدعاء بسلطات غير حقيقية.

وقد دافع ليو عن حقوق الكنيسة الأخلاقية في الإقتصاد كما في السياسة وذلك بإصداره الـ Rerum Novarum في عام ١٨٩١ حيث كتب يقول إن الدولة ينبغي أن تعترف بالملكية الخاصة باعتبارها حقًا طبيعيًا للأفراد كما ينبغي أيضًا أن تعترف بشرعية وجود الطبقية في المجتمع. رأى أيضًا أن للعمال حقًا في التضامن في إطار اتحادات خاصة بهم، وأن على الدولة أن تعمل على رفع المظالم الواقعة على العمال وأن تسعى لإقرار حد أدنى مناسب للأجور. انتقد البابا المبادئ الإشتراكية وكانت له نشاطاته البارزة سابقًا في مقاومة الإشتراكية والشيوعية بالإضافة إلى كتاباته ضدهما. أصدر البابا بيوس الحادي عشر Pius





11th (١٨٥٧-١٩٣٩) منشورًا Quadragesimo Anno في عام ١٩٣١، وأكَّد فيه نفس تلك المبادئ بعد تعديلها وإعادة صياغتها لتتناسب مع متغيرات العصر والأوضاع، ونفس تلك المبادئ أعاد البابا يوحنا الثالث والعشرون John 23rd تأكيدها في مرسومه Mater et Magister.

وفي مجال الفكر اللاهوتي، أكَّد البابا ليو Leo في مرسومه Aeterni Patris الذي أصدره عام ١٨٧٩ على أهمية تدريس الفكر اللاهوتي لتوماس أكويناس (الأكويني) Thomas Aquinas في المدارس والمعاهد اللاهوتية الكاثوليكية وتمسك أيضًا بمبدأ عصمة الكتاب المقدس في مرسومه Providentissimus Deus الذي صدر عام ١٨٩٣.

استأنف بيوس العاشر Pius 10th (١٨٣٥-١٩١٤) الذي شغل المنصب البابوي في الفترة ما بين ١٩٠٣-١٩١٤ الصراع ضد التحررية في كل أشكالها. أراد ألفريد لويزي Alfred Loisy (١٨٥٧-١٩٤٠) الذي كان أستاذًا للدراسات الكتابية في فرنسا أن يطور دراساته من المقدمات الكتابية والتفسير نحو الدراسات التاريخية وارتباطها بالكتاب المقدس. فمثَّل ذلك تحديًا لمفاهيم سائدة مثل الخليقة الخاصة، والإشارات المسيانية، والقول بأن المسيح هو الذي أنشأ الكنيسة الكاثوليكية بنفسه. أما جورج تيريل George Tyrrell (١٨٦١-١٩٠٩) من انجلترا، فقد أراد أن يطبق مبادئ النقد التاريخي على نصوص الكتاب المقدس وكان يعتقد في وجود نوع من تطور الفكر اللاهوتي في الكتاب المقدس. حرَّم البابا كليهما، وأصدر قائمة بالأفكار المستحدثة وأدانها في مرسومين أصدرهما عام ١٩٠٧ وهما Lamentabili Sane Exitu و Pascendi Dominici. ولعل هذا هو السبب في أن الإتجاهات التحررية Liberalism لم تكن أبدًا مشكلة كبيرة في الكاثوليكية Roman Catholicism مثلما أصبحت في البروتستانتية.

وقد شهدت الكنيسة موجة جديدة من التكريس وجدت مناخًا مناسبًا لها في انعقاد مؤتمرات الشكر التي بدأت بالمؤتمر الذي انعقد في مدينة Lille في عام ١٨٨١. كما تجدد التركيز على مريم العذراء في Lourdes بعد عام ١٨٥٨، وفاتيما في البرتغال، وذلك عندما شاع أن العذراء مريم قد ظهرت للشعب في تلك الأماكن. وقد شجعت حركة "قلب يسوع المقدس" هذه الإتجاهات. شجعت حركة الرهبنة البندكتية الإهتمام بالليترجية حيث تم وضع النصوص الليترجية لبعض الأسرار المقدسة في اللغات التي يتكلمها الشعب.

هذه هي الأحداث التي مرت بها الكنيسة الكاثوليكية في الفترة ما بين ١٧٨٩-١٩١٤ في بلدان أوربا الرئيسية. ومنذ عام ١٩١٤ وجدت الكنيسة في روما نفسها أمام صعوبات متزايدة بسبب انتشار وتوسع الشيوعية والقلاقل التي خلقتها الحربان العالميتان اللتان شهدهما القرن العشرون.

الانتعاشية، الإرساليات والتحديث
١٧٨٩-١٩١٤

## الفصل الخامس والثلاثون

# الدين والإصلاح في بريطانيا العظمى وأوربا

تميزت الحياة الدينية الإنجليزية خلال القرن التاسع عشر باستعلان عملي لقوى الحركة الانتعاشية في الكنائس الأنجليكانية وغيرها من الكنائس غير التقليدية وذلك بالطقسية، التي سادت الكنيسة الأنجليكانية وبالحركة التحررية. العنصر الأول نتج عنه نمو حركة احتضنت الأنشطة التبشيرية والإصلاحات الاجتماعية، بينما ساهم العنصر الثاني بإيجاد حركة قوية لصياغة الليتورجية داخل الكنيسة، أما نتيجة العنصر الثالث فكانت ظهور اتجاه تحرري في كل الطوائف الرئيسية.

كان النمط الذي ساد في اسكتلندا هو إعادة توحيد الجماعات المتفرقة التي كانت قد خرجت من كنيسة اسكتلندا. أما في أيرلندا فقد تم تصحيح الوضع الظالم الذي كان يفرض على السكان الكاثوليك دعم الكنيسة الأنجليكانية الرسمية بواسطة الضرائب بينما يدعمون كنيستهم الكاثوليكية بعطاياهم الخاصة، وتم هذا التصحيح بإلغاء اعتبار الكنيسة الأنجليكانية أنها الكنيسة الرسمية في عام ١٨٦٩. هذا وقد حدثت تطورات مشابهة في أنحاء القارة الأوربية أيضاً.

## ١- الحياة الدينية في انجلترا

### أ- في الكنيسة الأنجليكانية (الأسقفية)

١- الإنجيليون: جعلت الثورة الفرنسية الحزب المحافظ في انجلترا يتخوف من حدوث ثورة مشابهة في بريطانيا. فتوقف المد المتزايد للإصلاح في الفترة ما بين ١٧٩٠-١٨٢٠، حتى استطاعت القوى الدينية والقوى الإنسانية الليبرالية تجميع قواها للتعاون على فرض العديد من الإصلاحات من خلال البرلمان في الفترة ما بين ١٨٢٠-١٨٥٢. وقد أثمرت القوى الدينية، التي ولَّدتها النهضة الوسلية وبعدها النهضة الإنجيلية Evangelical Revival، العديد من الثمار العملية في مجال الإصلاحات الاجتماعية والغيرة التبشيرية، حتى أن لاتوريت Kenneth Scott Latourette المؤرخ المعاصر العظيم لتاريخ الإرساليات، أطلق على القرن التاسع عشر "القرن العظيم" للجهود التبشيرية وقد لقيت الدعوة للتقوى الشخصية والتكريس الكامل للمسيح والإلتزام بالكتاب المقدس آذاناً صاغية في تلك الفترة نفسها.

كان للنهضة الوسلية الأرمينية التي حدثت في أوائل القرن الثامن عشر، تأثير كبير في التركيز

على الديانة الشخصية للعمال والفلاحين في انجلترا. ولم يصل هذا التأثير إلى الطبقات العليا في الكنيسة الرسمية قبل نهاية القرن، وذلك بعد أن تأثروا بالنهضة الإنجيلية ذات الطابع الكالفيني. وفيما بين ١٧٩٠و ١٨٣٠ كان تأثير النهضة محسوساً في الكنيسة الأنجليكانية وحلت التقوى الشخصية والجهود الخيرية والأنشطة الإجتماعية والاهتمام بالإنسان محل أسلوب اللامبالاة الذي ارتبط بحركة التنوير.

خدم الإنجيليون الأوائل كرعاة للكنائس والأبروشيات المتناثرة في كل أنحاء انجلترا. وكان أحد الخدام جون نيوتون John Newton (١٧٢٥-١٨٠٧)، الذي كان ملحداً في مقتبل عمره وأدّى به شره لأن يصبح عبداً لأحد تجار العبيد. لكنه تجدد بنعمة الله وبعد فترة من التدريب، تمت رسامته للخدمة. وأصبح قسيساً لكنيسة أولني في عام ١٧٦٤ وسرعان ما رأى فيه الجميع أحد القادة الروحيين البارزين، وكان كثيرون، حتى من خارج أولني، يأتون إليه طلباً لمساعدته. وكتب بعض الترانيم المشهورة التي ما زالت تستخدم إلى اليوم. وقد كان له تأثيره الإيجابي الذي دفع وليم كوبر William Cowper (١٧٣١-١٨٠٠) وكان يتميز بالخجل والحساسية كما كان ضعيفاً صحياً، إلى كتابة العديد من الترانيم الرائعة. كتب توماس سكوت Thomas Scott (١٧٤٧-١٨٢١) الذي جاء خلفاً لنيوتون، تفسيراً للكتاب المقدس استخدمه الإنجيليون على نطاق واسع.

شهدت الحركة الإنجيلية مجهودات قادة لهم باع طويل في العلم والدراسة مثل اسحق ميلنر Isaac Milner (١٧٥٠-١٨٢٠) وتشارلز سيميون Charles Simeon (١٧٥٩-١٨٣٦) اللذين جعلا من جامعة كمبريدج مركزاً للقوى الإنجيلية وقدما الفكر اللاهوتي الكالفيني الذي قاد الجماعة في حياتها وعملها.

قدمت جماعة أُطلق عليها اسم "جماعة كلافام" Clapham Sect وكانت تضم أفراداً أثرياء من بلدة كلافام، العديد من القيادات العلمانية التي عملت في مجال الإصلاح الاجتماعي من ١٧٩٢ وإلى 1813 وذلك تحت قيادة الراعي التقي جون فن (١٧٥٩-١٨٣٣). وكثيراً ما اجتمعت هذه الجماعة من العلمانيين في مكتبة هنري ثورنتون Henry Thornton (١٧٦٠-١٨١٥). أما ثورنتون فكان من رجال البنوك الأثرياء وكان يخصص الجزء الأكبر من دخله الكبير للأعمال الخيرية. ومن أعضاء هذه الجماعة أيضاً تشارلز جرانت Charles Grant رئيس شركة الهند الشرقية، و وليم ويلبرفورس William Wilberforce الذي قاد المعركة من أجل تحرير العبيد، وأيضاً جيمس ستيفان James Stephen الذي كان ابنه مديراً لإدارة المستعمرات حيث قدم قدراً كبيراً من المعاونة للمرسلين والمبشرين في مختلف المستعمرات. وعاش آخرون من القيادات الإنجيلية في هذه الضاحية الفخمة التي تبعد ثلاثة أميال فقط عن لندن.

كان للحركة الإنجيلية نفوذها الذي مارسته على الحكومة من خلال جماعة كانت تجتمع في مبنى مشهور اسمه قاعة إكستر Exeter Hall وعُرفت هذه الجماعة باسم هذا المبنى. وكانت معظم الجمعيات الإرسالية تعقد اجتماعاتها السنوية في تلك القاعة في لندن. وكان لهذه الاجتماعات تأثير كبير على الرأي العام الإنجيلي إلى درجة أن





الحكومة كانت تضطر لاتخاذ القرارات اللازمة لصالح المرسلين. كان جون فيليب John Philip (١٧٧٥-١٨٥١) يخدم باقتدار في منصب المشرف العام على إرساليات الكنائس الاستقلالية في جنوب أفريقيا من عام ١٨١٩ وحتى وفاته، وقد استخدم فيليب نفوذ جماعة إكستر هول لصدور تشريعات تقضي بحماية جماعة الهوتينتوت في مستعمرة الكاب من الاستغلال. وكان مثل هذا النفوذ يُستخدم دائماً لمنع المستوطنين البيض أو التجار من استغلال الوطنيين.

ولم يهتم الإنجيليون كثيراً بأمور إدارة الكنيسة أو صياغة العقائد بقدر اهتمامهم بالتعبير العملي عن المسيحية في حياة التقوى المبنية على نعمة المسيح المخلصة مسترشدة بدراسة الكتاب المقدس والصلاة. ويعتبر كتاب وليم ويلبرفورس الواسع الانتشار "النظرة العملية" (١٧٩٧) عن اهتمام الإنجيليين بالكفارة باعتبارها القوة الوحيدة المغيرة، وبالتبرير بالإيمان، وبقراءة الكتاب المقدس بإرشاد الروح القدس، وبالتقوى العملية التي ينتج عنها الخدمة الحقيقية للمجتمع.

أما أتباع آدم سميث Adam Smith والراديكاليون الذين كانوا يستلهمون كتابات جيرمي بنثام Jeremy Bentham وجون ستوارت ميل John Stuart Mill، فكانوا يطالبون بالإصلاح السياسي لأنهم كانوا يؤمنون بكرامة الشخصية الإنسانية العاقلة، بينما سعى الإنجيليون لتحقيق الإصلاح الإجتماعي لأنهم آمنوا أن الإنسان هو كائن روحي وهو إما ابن الله أو بإمكانه أن يكون كذلك. وكانت معظم الإصلاحات الإجتماعية التي تمت ما بين ١٧٨٧-١٨٥٠ نتيجة مباشرة لجهودات الإنجيليين لخدمة الفقراء.

أما وليم ويلبرفورس William Wilberforce (١٧٥٩-١٨٣٣) الذي عاش حياة فاسقة في رفقة أشخاص مرموقين مثل بيت Pitt، فقد تجدد بنعمة الله في عام ١٧٨٤ بواسطة جهود اسحق ميلنر Issac Milner. ثم ما لبث أن كرّس حياته لإلغاء نظام العبودية في الإمبراطورية البريطانية. وصدر في عام ١٧٧٢ حكم قضائي يجعل ملكية أي شخص للعبيد شبه مستحيلة في كل انجلترا. وفي عام ١٨٠٧ أصدر البرلمان قانوناً يمنع أي مواطن إنجليزي من الاشتراك في تجارة العبيد. واستطاع الرأي العام الإنجيلي، من خلال الوفد الإنجليزي لمؤتمر فيينا عام ١٨١٥، أن يصدر قراراً باعتبار تجارة العبيد نشاطاً غير قانوني في معظم بلدان أوربا. وقد كلّف ذلك دافعو الضرائب الإنجليز مبالغ طائلة لأن دولاً مثل أسبانيا والبرتغال لم تكن لتوافق على منع تجارة العبيد إلا بعد أن وعدتهم انجلترا بدفع مبلغ ٧٠٠ ألف جنيهاً من الخزانة الإنجليزية. وقدقُضي على العبودية تماماً في الأملاك البريطانية بواسطة قانون تم إقراره قبل موت ويلبرفورس مباشرة في عام ١٨٣٣. وقد دفع مبلغ ١٠٠ مليون دولار عند إقرار هذا القانون لاستخدامها لتعويض الملاك الذيم أطلقوا سراح ٧٠٠ ألف عبد. ومثل هذه الإنجازات كان من المحال تحقيقها بدون الجهود الكبيرة التي قام بها ولبرفورس وأصدقاؤه من الإنجيليين في البرلمان.

ومن الإنجيليين البارزين من الجيل الثاني برز لورد شافتسبري Lord Shaftesbury (١٨٠١-١٨٨٥) الذي كان ابناً لأم اشتراكية وأب سكير يعمل بالسياسة. وقد قادته المربية التي ربته

إلى المسيح، فما كان منه إلا أنه كرَّس حياته لخدمة الفقراء والمظلومين وهو ما زال في سن الرابعة عشر. كان يحسن تنظيم المعلومات والحقائق بعناية فائقة حتى يضمن أن لديه قضية لايمكن زعزعتها عندما يتوجه إلى مجلس العموم ليطلب إصدار تشريع إصلاحي. رفض تولي أعلى المناصب والوظائف لكي يستمر فيما يقوم به من عمل دون مقابل، مع العلم أن أفراداً آخرين لهم نفس المهام كانوا يتلقون الأموال من البرلمان. نجح في عام ١٨٤٠ في إصدار قانون يمنع استخدام الأطفال تحت سن ١٦ سنة من القيام بالعمل الخطر الشاق في تنظيف المداخن. وفي عام ١٨٤٢ نجح في سن تشريع يمنع تشغيل النساء والأطفال تحت سن العاشرة في المناجم. وكان من نتائج عمله أيضاً إقرار قوانين في عام ١٨٤٥ تحمي نزلاء مصحات الأمراض العقلية والتي كانت العادة في بعضها أن تفتح أبوابها للجمهور نظير رسم معين ليتفرج على نوادر المجانين. ونجح أيضاً في العمل على القضاء على المساكن الغير الصحية المكتظة بالسكان، والتي انتشرت بها الأمراض والممارسات الإجرامية وذلك بواسطة القوانين التي ساهم في إقرارها.

ومن الإنجيليين الآخرين، كان چون هـ. هوارد John H. Howard (١٧٢٦-١٧٩٠) الذي كان من الكنائس غير الرسمية وقد تأثر بالنهضة التي قادها وسلي Wesleyan Revival، وكرَّس حياته وثروته لقضية إصلاح وتحسين أحوال السجون. وقبل وفاته عام ١٧٩٠ متأثراً بحمى أصابته أثناء تفقده أحد السجون البائسة، كان هوارد قد قطع خمسين الف ميل في أسفاره وأنفق ثلاثين الف جنيه من أمواله الخاصة على إصلاح وتحسين السجون. ومن خلال جهوده أصبح السجانون يتلقون رواتب ثابتة كما خصصت لهم ميزانيات لإطعامهم حتى لم يعودوا في حاجة لابتزاز المال من المساجين. وتغيرت النظرة لعقوبة السجن فصار ينظر إليها على إنها إصلاح وليست للقصاص فقط من الجرائم التي ترتكب ضد المجتمع. وقد أكملت إليزابيث جورني فراي Elizabeth Gurney Fry (١٧٨٠-١٨٤٥) هذا العمل.

كان الإنجيليون أيضاً وراء حركة مدارس الأحد Sunday School، والتي نجح روبرت رايكس Robert Raikes في نشر فكرتها في عام ١٧٨٠، وهي تهدف إلى توفير قدر من التدريب الديني والإرشادات الأولية للقراءة والكتابة ومبادئ الحساب للأطفال. وقد تبنى الإنجيليون أهداف هذه الحركة وأدخلوها في الكنيسة الرسمية. تأسست جمعية النبذ الدينية Religious Tract Society في عام ١٧٩٩، وأيضاً جمعية الكتاب المقدس البريطانية British and Foreign Bible Society التي تأسست عام ١٨٠٤ حيث كان اللورد تاينماوث Lord Teignmouth من جماعة كلافام Clapham Sect أول رئيس لها. وتعتبر هاتان الجمعيتان نموذجاً للتعبير عن اهتمام حركة الإنجيليين بنشر الإنجيل من خلال المطبوعات وكان الإنجيليون أيضاً يساندون بحماس حركة الإرسالية القوية التي شهدها هذا القرن.

٢- حركة الكنيسة المتحررة The Broad Church Movement. إن كان الإنجيليون يمثلون القوة الروحية للنهضة، وإن كانت حركة أكسفورد Oxford Movement تمثل القطاع الطقسي، فإن حركة الكنيسة المتحررة تمثل العنصر الإجتماعي والتحرري في الكنيسة الأنجليكانية Anglican.





بدأت هذه الحركة عام ١٨٣٠ ولكنها استمرت في اجتذاب أتباع جدد حتى نهاية القرن. وهؤلاء التحرريون Latitudinarians، كما أُطلق عليهم، مدينون بالكثير لفلسفة كانت Kant المثالية التي أدخلها صموئيل تايلور كولريدج Samuel Taylor Coleridge، الذي كان شاعراً و واعظاً، إلى انجلترا في أكسفورد. وقد نبَّرت هذه الحركة على إدراك الإنسان البديهي لوجود الله، وعلى مكانة المسيح كإنسان حيث كانت تراه باعتباره ابن الله. ولكنهم تجاهلوا التعليم عن السقوط أو الكفارة أو قللوا من شأنه.

أسس قطاع من هذه الحركة جماعة اشتراكية مسيحية Christian Socialism. بقيادة فريدريك د. موريس Frederick D. Maurice (١٨٠٥-٧٢) وتشارلز كينجزلي Charles Kingsley (١٨١٩-٧٥) وأحدهم قسيس والآخر كاتب روايات. وكانوا يسعون لتحقيق ملكوت الله على الأرض عن طريق التشريعات الاشتراكية التي تحقق للشعب الديمقراطية الاقتصادية والإجتماعية إلى جانب الديمقراطية السياسية.

كانت هناك جماعة أخرى من الحركة، تبنت أفكار وآراء مشابهة لتلك التي نادي بها الأسقف چون و. كولنزو John W. Colenso (١٨١٤-١٨٨٣) أسقف ناتال في أفريقيا، والذي تشكك في أن موسى هو الذي كتب الأسفار الخمسة المنسوبة إليه وذلك عندما لم يستطع الإجابة بشكل مقنع على سؤال وجهه له أحد الوطنيين في عام ١٨٦٢. ومع أن كولينزو تعرض لإقصائه عن منصبه من قبل أسقف كيب تاون إلا أنه أُعيد تنصيبه من قبل سلطات أعلى. كان كل من توماس أرنولد Thomas Arnold (١٧٩٥-١٨٤٢) وهو الناظر المشهور لمدرسة رجبي وهي مدرسة خاصة للبنين، وهنري ميلمان Henry Milman (١٧٩١-١٨٦٨) الذي كان عميداً لسانت بول ينتميان لنفس الجماعة التي ينتمي إليها كولنزو - وهي الجماعة التي تبنت نظريات مدرسة النقد الألمانية للكتاب المقدس. وقد دعم هذين الجناحين لحركة الكنيسة المتحررة Broad Church Movement اتجاهات اللاهوت المتحرر والإنجيل الاجتماعي.

٣- حركة أكسفورد Oxford Movement

نبَّرت حركة أكسفورد (١٨٣٣-٤٥)، والتي ارتبطت بجامعة أكسفورد، على أهمية الكنيسة وطقوسها في الحياة الدينية للأفراد. وبدأ قادتها في عام ١٨٣٣ في نشر مجلة اسمها Tracts for the Times، وفيها لفتوا الأنظار إلى أهمية الخلافة الرسولية، الولادة الجديدة من خلال المعمودية، وأهمية الطقس في العبادة. وقد قبل العديد من رجال الكنيسة الأنجليكانية Anglican تلك الأفكار.

كانت هذه الحركة جزئياً نوعاً من الاحتجاج ضد سيطرة الدولة على الكنيسة. ولقد خاف كثيرون من رجال الكنيسة الأنجليكانية أن يكون مصيرها مع الوقت أن يلغي البرلمان وضعها كالكنيسة الرسمية ولا سيما أنهم رأوا أن البرلمان يسيطر عليه رجال لا يهمهم من أمر الكنيسة شيئاً. نمت هذه المخاوف بعد أن منح البرلمان حرية العبادة للكنائس المستقلة وللكاثوليك التابعين لروما في عامي ١٨٢٨ و ١٨٢٩ والامتيازات التي منحها البرلمان للطبقة الوسطى في عام ١٨٣٢. وقد ساهمت الحركة الرومانسية، باهتمامها بأمجاد الماضي القوطي،

ومحبتها الشديدة للطقوس الجميلة التي تثير مشاعر محبة الجمال في العبادة، في تدعيم الاتجاه الطقسي في هذه الحركة. وأصبح الناس أكثر اهتماماً بتاريخ الطقوس والأدوات والملابس المستخدمة ساعين إلى استعادة المزيد من أمجاد الماضي إلى خدمات العبادة. وقد شاعت تسمية الجماعة التي ترمز لهذه القوى في داخل الكنيسة الأنجليكانية Anglican باسم "حركة أكسفورد"، Oxford Movement أو حركة الكنيسة العليا، أو حركة الأنجلو كاثوليكية، أو حركة أتباع بوسي نسبة إلى أحد قادتها إدوارد بوسي Edward Pusy.

كتب جون كيبل John Keble (١٧٩٢-١٨٦٦) كتاباً في عام ١٨٢٧ أسماه " السنة المسيحية". وهو عبارة عن كتاب يتضمن ترانيم تمجد الكنيسة وأهمية التناول وقد أظهر هذا الكتاب أن كيبل يبدو هو الذي يقف وراء حركة أكسفورد. وقد أثارت العظة التي ألقاها في أكسفورد يوم ١٤ يوليو ١٨٣٣ بعنوان "الضلال القومي"[1] اهتماماً واسعاً بأفكاره. لقد نبَّر كيبل على الوجود المادي الطبيعي لجسد المسيح ودمه في عناصر التناول، وتمسك بالرأي الذي يقول إن التناول لا ينفع شيئاً إذا لم يقدمه أحد القسوس المرتسمين في خط الخلافة الرسولية.

أصبح جون هنري نيومان John Henry Newman (١٨٠١-٩٠) قائداً لتلك الحركة بعد إصداره أول نشرة من Tracts for the Times في عام ١٨٣٣. كان نيومان ابناً لأحد رجال البنوك في لندن، وقد تربى ونشأ متأثراً بالعقيدة الكالفينية، ومرَّ في فترة من الفكر التحرري قبل أن ينضم لجماعة حركة أكسفورد. ومع أن شهرته ترجع للترانيم التي كتبها إلا أنه كان القائد الفعلي لحركة أكسفورد حتى صار كاثوليكياً تابعاً لروما في عام ١٨٤٥. كتب أكثر من عشرين نشرة، كانت أخرها Number Ninety،[2] وتضمنت ملاحظات على التسعة والثلاثين بنداً Thirty Nine Articles التي يتألف منها كتاب الصلاة العامة. وفي هذه النشرة قال نيومان إن هذه الوثائق لم تكن ضد الكنيسة الكاثوليكية بل أدانت الممارسات الخاطئة والتجاوزات التي كانت تحدث في إطار تلك الكنيسة. وكان يرى أن كتاب الصلاة العامة والتسعة والثلاثين بنداً إنما تبين التواصل بين الكنيسة الأنجليكانية والكنيسة الكاثوليكية التابعة لروما. وقد تبعه صديقه هنري إدوارد ماننج Henry Edward Manning وما يقرب من ٨٧٥ آخرين كان من بينهم ما يقرب من ٢٥٠ شخصاً من القسوس والقادة من اللاهوتيين في أكسفورد وكامبريدج، تبعوه رجوعاً إلى الكنيسة الكاثوليكية التابعة لروما فيما بعد عام ١٨٤٥. إلا أن أعظم مؤلفات نيومان كان كتابه Apologia Pro Sua Vita الذي كتبه عام ١٨٦٤ وهو عبارة عن سيرة ذاتية لحياته وأعماله. وقد تم تعيينه في أواخر حياته كاردينالاً في الكنيسة الكاثوليكية. وقد جعل من أقوال وكتابات آباء الكنيسة أساساً لفكره، كما قبل فكرة الخلافة الرسولية، والولادة الجديدة في المعمودية والحضور الحي الكامل للمسيح في القداس الإلهي.

بعد عودة نيومان للكاثوليكية، أصبح إدوارد بوسي (١٨٠٠-٨٢) الذي كان أستاذاً للغة العبرية في أكسفورد، قائداً للحركة حتى وفاته. وقد اهتم رجال حركة أكسفورد بالتمسك بإعلان الطبيعة الروحية للكنيسة وحريتها الكاملة من تسلط الدولة عليها. كانوا يريدون تطوير موقف وسيط ما بين الاعتقاد بعصمة القيادات الكنسية وفوضى الفردية





في الكنيسة. وقد نبَّروا على الوجود الفعلي للمسيح في عناصر التناول وعلى حدوث الولادة الجديدة أثناء المعمودية. واقتربوا جداً من الموقف الكاثوليكي بتعظيم أهمية الأسرار المقدسة باعتبارها عوامل أساسية لنوال التبرير.

وقد أدخل رجال هذه الحركة تأكيداً مجدداً على أهمية حيوية الطقس في ليتورجية الكنيسة بدعوتهم وتشجيعهم على استخدام الصلبان والشموع في العبادة. وكانوا يرون في العمارة القوطية أيضاً عنصراً مساعداً على العبادة. أما الميول النسكية التي أفرزتها هذه الحركة فقد وجدت تعبيراً عنها في إنشاء الأديرة سواء للرجال أو السيدات الذين يرغبون في السعي نحو الحياة النسكية بالتفرغ للعبادة والخدمة. وكانت مؤسسة آباء كولي إحدى تلك المؤسسات.

وقد عمَّقت هذه الحركة الهوة بين الكنيسة الأنجليكانية والكنائس المستقلة Nonconformists وذلك بتركيزها على قضية الخلافة الرسولية والطبيعة السرية للقداس الإلهي. كما ساهمت في خلق حزب جديد داخل الكنيسة الأنجليكانية كان يختلف كل الاختلاف مع الإنجيليين. ولكن ينبغي أن ننسب لها الفضل في الخدمات التي قدمها أعضاؤها للفقراء والذين لا يحضرون إلى الكنيسة. وقد قدمت هذه الحركة حلاً وسطاً مقبولاً بين الكاثوليكية Catholic Apostolic Church والإنجيلية وبالنسبة للكثيرين بل وساعدت الأنجليكانيين على تذكر تراثهم المسيحي.

### ب- بين الكنائس المستقلة

بينما كانت تلك الحركات الثلاث تؤدي دورها في تجديد شباب الكنيسة الرسمية، كانت تحدث في نفس الوقت تطورات جديدة بين الكنائس الحرة. بدأ وليم بوث William Booth (١٨٢٩-١٩١٢) الذي كان قسيساً ميثودياً، بتأسيس جيش الخلاص Salvation Army للوصول إلى الطبقات الدنيا والمنبوذة في المجتمع عن طريق الوعظ الكرازي في الطرقات والعمل الإجتماعي عام ١٨٦٥. وقد أطلق اسم "جيش الخلاص" على المؤسسة التي أسسها بوث ونظمها في عام ١٨٧٨ على النمط العسكري برتب متدرجة وزي موحد وهذه المنظمة لها فروعها في كل أنحاء العالم اليوم.

كان جون ن. داربي John N. Darby (١٨٠٠-٨٢) محامياً ثم أصبح خادماً في كنيسة أيرلندا وهو الذي نظَّم الجماعات المعروفة بالأخوة وذلك نحو عام ١٨٣١ في دبلن. وكانت جماعة الأخوة تنبر على كهنوت جميع المؤمنين وعلى الإرشاد المباشر للروح القدس إلى الدرجة التي دفعتهم لرفض فكرة قبول خدمة قسيس مرتسم. وكانوا ومازالوا دارسين مجتهدين للكتاب المقدس ويظهرون أيضاً تقوى عملية في حياتهم. وكان من أعضاء هذه الجماعة جورج مولر George Müller (١٨٠٥-٩٨) مؤسس الملجأ الضخم في بريستول، وصموئيل تريجلز Samuel Tregelles (١٨١٣-٧٥) وهو من ابرز علماء الدراسة النقدية لنصوص العهد الجديد. وقد درجت تسمية الأخوة البليموث Plymouth Brethren على جماعة الأخوة لأن مدينة بليموث كانت أول مركز رئيسي لتلك الحركة. ومن الأعضاء البارزين لهذه الحركة توماس ج. بارناردو Thomas J. Barnardo (١٨٤٥-١٩٠٣) الذي ابتدأ من عام ١٨٧٠ يؤسس ملاجئ عديدة للأولاد الأيتام.



*شارلز هدسون سبرجن الراعي المعمداني الكالفيني والواعظ الموهوب.*

كان إدوارد إرفنج Edward Irving (١٧٩٢-١٨٣٤) وهو قسيس مشيخي من اسكتلندا يؤمن أن الكنيسة ينبغي أن تتمتع بمواهب الروح القدس التي كانت لها في زمن الرسل. وكان أتباعه يتنبرون على "التكلم بألسنة" وقرب مجئ المسيح ثانية. وقد انضم الكثيرون إلى الكنيسة الجامعة الرسولية التي تأسست عام ١٨٤٢.

وفي عام ١٨٤٤ أسَّس چورچ وليامز George Williams جمعية الشبان المسيحية Young Men's Christian Association وذلك لتلبية احتياج شباب المدينة لأماكن يمارسون فيها الرياضة والحياة الإجتماعية كما يجدون أيضاً أماكن جيدة للإقامة في بيئة مسيحية صالحة. وقد ظهرت هذه المؤسسة في أمريكا في عام ١٨٥١.

وقد تأسست الجمعية التوأم وهي جمعية الشابات المسيحيات Young Women's Christian Association في عام ١٨٥٥ لتقديم نفس نوع الخدمات لشابات المدن.

أصبح تشارلز سبرجن Charles H. Spurgeon (١٨٣٤-٩٢) أشهر وعاظ انجلترا في أواسط القرن التاسع عشر. وأدَّى تزايد الجماهير التي كانت تحضر لسماع عظاته إلى انتقال كنيسته من مبنى إلى مبنى أكبر حتى انتقلت في عام ١٨٦١ إلى المبنى الذي بناه بنفسه وهي كنيسة المترويوليتان والتي كانت تسع ٤٧٠٠ شخصاً وبلغت تكاليف إنشائها ٣١ ألف جنيهاً. ومع حلول عام ١٨٩١ كان عدد الأعضاء الذين انضموا إلى كنيسته قد بلغ حوالي ١٥ ألف شخص. وقد أنشأ كلية لتخريج الرعاة، حيث بلغ عدد الذين تدربوا فيها حتى وفاته حوالي تسعمائة واعظ.

بدأت حركة مؤتمرات الحياة المنتصرة في صورة اجتماعات صيفية تعقد في بلدة كيزيك بقيادة القس ت. د. هارفورد باترسباي T.D. Harford Battersby في عام ١٨٧٥. وقد جمعت هذه الاجتماعات المؤمنين من مختلف الطوائف. وكان التعليم الذي يقدم فيها يركز على اختبار التقديس في لحظة معينة ثم التدرج في القداسة الذي يساعد المؤمن على الانتصار على الخطية في حياته. وقد انتشر نموذج اجتماعات كيزيك Keswick Conference ليصل إلى بعض المراكز في الولايات المتحدة وكندا.

وفي عام ١٨٥٩ غمرت انجلترا حركة نهضة جديدة، ارتبطت بنهضة الصلاة التي كانت في





الولايات المتحدة ١٨٥٧-١٨٥٨، وقد أدَّت هذه النهضات إلى إحياء الكنائس ونشر الإصلاحات الإجتماعية.

أما نهضة ويلز في عام ١٩٠٤و١٩٠٥، والتي بدأت بخدمة إيفان روبرتس Evan Roberts في بلدة لوجور بالقرب من المناجم، فقد اصبحت رأس الحربة لانتشار الانتعاش في كل أنحاء العالم. وقد سجَّل إدوين أور J. Edwin Orr باقتدار في عدة كتب وصفاً للنهضات التي حدثت أعوام ١٨٥٧، ١٨٥٩، ١٩٠٤-١٩٠٧ وتأثيرها الإجتماعي الكبير. وتعتبر النهضة التي حدثت في كوريا عام ١٩٠٧ من الانتعاشات الرئيسية التي ارتبطت بالنهضة في ويلز.

## ٢- جهود البروتستانت الإنجليز في العمل المرسلي

لم تقم الكنائس البروتستانتية بالكثير من العمل المرسلي في حقبة الإصلاح لأن معظم طاقاتها كانت موجهة إلى صراعها من أجل البقاء وجهودها لتنظيم أوضاعها. أما في فترة الإصلاح المضاد فإن الجهد الأعظم في العمل المرسلي قام به الرهبان اليسوعيون (الچيزويت) Jesuit وغيرهم من الأنظمة الرهبانية للكنيسة الكاثوليكية التابعة لروما. لكن تضافر القوى الذي بدأ بعمل وليم كاري William Carey في عام ١٧٩٢، أدَّى إلى الجهود التبشيرية العظيمة التي شهدها القرن التاسع عشر حتى أطلق على هذا القرن اسم "القرن العظيم" في جهود البروتستانت التبشيرية. أما القرن العشرون فقد شهد تركيزاً على الحركة المسكونية واستعادة وحدة الكنيسة.

كانت زيادة الحماس للتبشير والعمل المرسلي نتيجة مباشرة للحركة الانتعاشية بين التقويين والميثوديين وبين الإنجيليين في إطار الكنيسة الأنجليكانية. أراد الناس تقديم الآخرين إلى نفس نوع الحياة الدينية المليئة بالفرح التي اختبروها نتيجة للنهضة. وأدَّى انتشار نفوذ البلدان البروتستانتية مثل هولندا وانجلترا وتكوين إمبراطوريات واسعة، إلى زيادة وعي الأوربيين بالاحتياج الروحي للشعوب الأخرى في مختلف البلدان. وكشف المرسلون المستكشفون من أمثال ليفنجستون Livingstone وجرينفل Grenfell وريبمان Rebmann و كراف Krapf مقدار الاحتياج الموجود في أفريقيا ونشروا هذه المعلومات في باقي أنحاء العالم. وكان المفهوم الذي قدمته حركة الإصلاح حول أهمية العلاقة الشخصية مع الله بمثابة القوة المحركة لمثل تلك الجهود. كان التركيز على ربح الأفراد للمسيح وليس فقد ربح الأمم والشعوب للنفوذ الإستعماري.

فتحت الهند أبوابها للعمل المرسلي التبشيري بعد عام ١٨١٣، عندما أجبرت شركة الهند الشرقية على السماح للمبشرين بالدخول إلى الهند. وأجبرت الصين على فتح أبوابها للمرسلين بمقتضى معاهدة عام ١٨٥٨ التي أبرمت في تيانتسين Treaty of Tientsin لإنهاء حرب الأفيون الثانية. ولعلها من المفارقات أن كان من نتائج الحرب لإرغام الصين على إدخال الأفيون إلى أراضيها فتح أبواب الصين للإرساليات التبشيرية أيضاً.

تأسست كثير من الجمعيات التبشيرية Baptist Missionary Societies بعد عام ١٧٩٢. فالجمعية المعمدانية للعمل المرسلي

Missionary Society تم تأسيسها في مدينة كاتيرنج في انجلترا برصيد يزيد قليلاً عن ثلاثة عشر جنيهاً كنتيجة لرؤية وليم كاري William Carey (١٧٦١-١٨٣٤) الإسكافي الذي علَّم نفسه عدة لغات. ذهب كاري إلى الهند حيث أدار مصنعاً لإنتاج صبغة النيلة لكي يكسب عيشه وبقي كذلك حتى انتقل في عام ١٨٠٠ إلى مقاطعة سيرامبور الدانماركية. ولكنه جعل اهتمامه الأول دائماً هو العمل المرسلي وترجمة الكتاب المقدس. كان چورچ جرينفل George Grenfel أعظم مرسلي الجمعية المعمدانية من المستكشفين. وينبغي أن يرجع الفضل إلى جرينفل (١٨٤٨-١٩٠٦) وليس إلى ستانلي في رسم خرائط نهر الكونغو وروافده في الفترة ما بين ١٨٨٤-١٨٨٦.

وكان خطاب أرسله كاري وراء تأسيس جمعية لندن للجهود الإرسالية London Missionary Society التي تتبع الكنائس الإستقلالية عام ١٧٩٥. وكان رجال مثل چون فيليب John Philip، دافيد ليفنجستون David Livingstone، روبرت موفات Robert Moffat، وچون ماكينزي John Mackenzie (وهو الرجل الذي أقنع الحكومة البريطانية بضم بتسوانا أحد اقاليم جنوب أفريقيا لحماية الوطنيين من استغلال المستعمرين من البوير)، من أعظم المرسلين الذين دعمتهم هذه الجمعية.

أما الجمعية الإرسالية الأسكتلندية Scottish Missionary Society والجمعية الإرسالية في جلاسجو Glasgow Missionary Society فقد أسسهما المشيخيون الأسكتلنديون في ١٧٩٦و ١٧٩٧ على التوالي. وأسس الإنجيليون جمعية للإرساليات Church Missionary Society في عام ١٧٩٩. وكان من أعظم المرسلين الذين دعمتهم هذه الجمعية الأخوة بيلكينجتون Pilkington (١٨٦٥-٩٧) المرسل المترجم إلى أوغندا، وچورچ ألفريد تاكر George Alfred Tucker (١٨٤٩-١٩١٤) الأسقف المرسل الذي كان المسئول الأول عن إدخال أوغندا تحت سيطرة التاج البريطاني وعن رسم السياسات التقدمية التي جعلت من أوغندا واحدة من أفضل بلدان أفريقيا لفترة من الزمن. أسس الميثوديون الجمعية الإرسالية الوسلية Wesleyan Methodist Society في عام ١٨١٧. وأسس هدسون تايلور J. Hudson Taylor (١٨٣٢-١٩٠٥) الإرسالية إلى داخل بلاد الصين China Inland Mission كإرسالية تقوم على الإيمان في عام ١٨٦٥ حيث أصبحت في عام ١٨٩٠ مسؤلة عن ٤٠ في المائة من كل المرسلين في الصين. تأسست جمعيات إرسالية أخرى عديدة في أوربا في تتابع سريع، وتم إرسال المرسلين المبشرين إلى كل أنحاء العالم.

وليم كاري الذي كان شعاره "توقع أموراً عظيمة من الله، وأشرع في تحقيق أعظم الأمور في عمل الله" ذهب إلى الهند وهناك أصبح رائداً في مجال ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات التي يتحدث بها الشعب هناك. وبعد أن فتحت الهند أبوابها للمرسلين في عام ١٨١٣ بدأ رجال مثل هنري مارتن Henry Martyn (١٧٨١-١٨١٢) عملهم المرسلي، وهو الذي تشجع للعمل المرسلي بعد أن قرأ السيرة الذاتية لدافيد برينارد David Brainerd. لحقت الجهود الأمريكية التبشيرية بالمجهودات الإنجليزية بعد أن تأسست أول جمعية إرسالية أمريكية في عام ١٨١٠. وفي تلك الفترة





أصبحت كثير من السيدات غير المتزوجات من ضمن المرسلين الذين خرجوا لخدمة الله.

اقتفت جمعية لندن للجهود الإرسالية London Missionary Society آثار خطوات المورافيين في جنوب أفريقيا وقاموا بعمل ممتاز بين الوطنيين هناك، بالرغم من الإحتكاكات الكثيرة التي شهدتها علاقتهم مع المستوطنين من البوير. دافع چون فيليب John Philip عن حقوق الوطنيين ونجح في حمايتها بإقناع الحكومة البريطانية أن تمنحهم حرياتهم المدنية. وترجم روبرت موفات Robert Moffat (١٧٩٥-١٨٨٣) كلمة الله إلى لغات ولهجات أهم قبائل جنوب أفريقيا. أما دافيد ليفنجستون David Livingstone فقد ساعد على توسيع مجال المعرفة الجغرافية عن منطقة أواسط أفريقيا وذلك في الفترة من ١٨٤١ إلى ١٨٧٣، وقد حارب ليفنجستون تجارة العبيد التي أشرف عليها التجار العرب، والتي كانت تمثل تهديداً حقيقياً ضد انتشار مراكز التبشير في القرى. وكان هدفه في كلا المجالين هو تدعيم وتوسيع الجهود التبشيرية. وتصدى المشيخيون الأسكتلنديون لتحدي إكمال الجهود التي بدأها ليفنجستون للعمل في منطقة البحيرات العظمى في أواسط أفريقيا. أما الجمعية الإرسالية للكنيسة الإنجيلية فقد أرسلت المرسلين الذين بدأوا العمل في أوغندا بل واستشهدوا على أرضها.

درس روبرت موريسون Robert Morrison (١٧٨٢-١٨٣٤) لغة الماندرين الصينية، وألَّف قاموساً للغة الصينية كما قدم ترجمة للكتاب المقدس إلى اللغة الصينية استطاع المرسلون الأوائل إلى الصين استخدامها بمجرد أن فتحت الصين أبوابها في عام ١٨٥٨. أما أدونيرام جدسون Adoniram Judson (١٧٨٨-١٨٥٠) فقد ألَّف قاموساً للغة شعب بورما كما ترجم الكتاب المقدس إلى تلك اللغة.

كانت نتائج العمل المرسلي Missions مذهلة ورائعة، ليس فقط من جهة تقديم الخلاص للوطنيين لكن أيضاً في مجالات وإنجازات حضارية أخرى عديدة. فقد كان المستكشفون من المرسلين الأوائل في كثير من الأحيان أول من أتيحت لهم الفرصة لإخبار العالم عن الظروف الجغرافية في البلاد التي خدموا فيها. وتحفل سجلات الجمعية الجغرافية الملكية في بريطانيا بأسماء العديد من المرسلين وذلك بسبب عملهم في مجال الإكتشافات الجغرافية. آخرون مثل أليكسندر ماكاي Alexander Mackay وجيمس ستيوارت James Stewart كانوا أول من بنى الطرق المرصوفة في أوغندا ونياسالاند. كما أنشأ المرسلون مدارس التدريب الأكاديمي والفني الصناعي مثل معهد لوفدال في جنوب أفريقيا، وأدخلوا محاصيل جديدة، وفتحوا مجالات التجارة لكي يتمكن الوطنيون من رفع مستوى معيشتهم. كان البعض الآخر من المرسلين من ضمن الذين ساهموا في بناء الإمبراطورية البريطانية انطلاقاً من اقتناعهم بأن الحكومة البريطانية أقدر على حماية مصالح الشعوب الوطنية في تلك البلاد من المستعمرين الذين كانت لهم أطماعهم الشخصية في خيرات الأرض.

واستخدم الله رجال مثل موفات، موريسون، بيلكنجتون Pilkington وكاري Carey لتقديم كلمة الله للشعوب الوطنية التي أرسلهم إليها وباللغة التي

تفهمها هذه الشعوب. كانت الحركة الإرسالية بصورة معينة هي الأب الشرعي للحركة المسكونية الحديثة وذلك بسبب عدم قدرة الوطنيين على استيعاب وفهم الإنقسامات الموجودة بين المسيحيين مما دفع المرسلين من طوائف عديدة للتعاون معًا. فأخذت المسيحية بذلك طابعها العالمي الجديد.

لم تحدث مثل هذه الفتوحات الروحية بدون صراعات. فقد سبقت المشاعر القومية الوطنية Nationalism في الشرق الأقصى من ناحية والإرتباط المؤسف للمرسلين بالسلطات الإمبريالية الغربية من ناحية أخرى مشاكل خطيرة في الصين وغيرها من البلدان. قاوم كل من الشيوعيين والكاثوليك الجهود التبشيرية للبروتستانت. بل إن انتشار الفكر الليبرالي Liberalism بين العديد من المرسلين أصبح اليوم من المشاكل المتزايدة. وبالرغم من كل هذه المعطلات، إلا أن أي مؤرخ منصف لابد وأن يقر بالمساهمات العظيمة التي قامت بها الكنيسة في العالم كله بواسطة جهودها التبشيرية الإرسالية.

## ٣- انقسام الكنائس الأسكتلندية ثم إعادة توحيدها

بعد أن تخلصت الكنائس الأسكتلندية Church of Scotland من نفوذ وسيطرة روما في عام ١٥٦٧، واجهت مشكلة الحفاظ على النظام المشيخي Presbyterian لإدارة الكنيسة وعلى الفكر اللاهوتي الكالفيني الذي ارتضته لنفسها. واستمر الأسكتلنديون قرابة قرن من الزمان يقاومون محاولات ملوك أسرة ستوارت والأسقف لود وغيره لفرض النظام الأسقفي عليهم. ولم تستقر الكنيسة المشيخية كالكنيسة الوطنية في اسكتلندا إلا في عام ١٦٩٠ وذلك بعد فرار الملك جيمس الثاني من انجلترا James 2nd of England واستيلاء وليم William وماري على العرش الإنجليزي.

إلا أن الكنيسة الأسكتلندية ظلت مضروبة بالإنقسامات من ١٦٩٠ وحتى ١٨٤٧ وذلك بسبب الخلاف حول حق السلطة Patronage المدنية في تعيين القسوس في كنائسهم وكان النقاش يدور حول أيهما أحق: التاج أم أصحاب الأرض في فرض اختيار القسوس على شعب الكنيسة المحلية. وكان هذا الحق قد تم إقراره رسميًا من البرلمان الإنجليزي في عام ١٧١٢. وحدثت انقسامات عديدة لأن الأسكتلنديين جاهدوا من أجل الحفاظ على حرية كنيستهم. وقد أقصى المحفل العام لكنيسة اسكتلندا إبنيزر إرسكين Ebenezer Erskine (١٦٨٠-١٧٥٤) عن منصبه وذلك لأنه تمسك بحق الكنيسة المحلية في اختيار راعيها. وفي عام ١٧٣٣ أسس إرسكين ومعه آخرين المجمع المتحد، والذي أصبح في عام ١٧٤٠ الكنيسة المنفصلة Secession Church. إلا أن هذه الكنيسة انقسمت مرة أخرى في عام ١٧٤٧ إلى جماعتين، ولكن في عام ١٨٢٠ عاد معظم هاتين الجماعتين إلى الإتحاد مرة أخرى لتكون الكنيسة المنفصلة المتحدة The United Secession Church.

وقد تسببت مشكلة حق التعيين أيضًا في تأسيس كنيسة عُرفت باسم The Relief Church والتي أسسها توماس جيلسبي Thomas Gillespie (١٧٠٨-٧٤) في عام ١٧٦١. وعادت تلك الكنيسة لتتحد مع الكنيسة المنفصلة المتحدة في





عام ١٨٤٧، بسبب تشابه موقفهم الرافض لحق التعيين، لتتأسس الكنيسة المشيخية المتحدة United Presbyterian Church.

إلا أن انشقاقًا آخر أكثر أهمية حدث عندما قاد توماس تشالمرز Thomas Chalmers (١٧٨٠-١٨٤٧) وكان عالم رياضيات وواعظًا ولاهوتيًا عظيمًا، عندما قاد جماعة لتأسيس الكنيسة الحرة The Free Church في عام ١٨٤٣ بسبب خلافه حول قضية حق شعب الكنيسة المحلية في اختيار راعيه وأيضًا بسبب نمو روح الانتعاش والنهضة التي أحدثتها النهضة الإنجيلية في اسكتلندا. وكانت اسكتلندا قد شهدت نهضة أخرى سبقت تلك التي قادها تشالمرز، بقيادة روبرت هالدين Robert Haldane (١٧٦٤-١٨٤٢) وجيمس هالدين James Haldane (١٧٦٨-١٨٥١). وانسحب أكثر من ثلث قسوس الكنيسة الرسمية من الخدمة في صفوفها حيث بلغ عددهم ٤٧٤ قسيسًا. وأصبحت الكنيسة الحرة كنيسة لها غيرة واضحة على الكرازة والعمل المرسلي. وفي عام ١٨٦٨ كان قد صار لها ٨٠٠ كنيسة وما يقرب من ألف خادم متفرغ. ثم ما لبث أن اتحدت مع الكنيسة المشيخية المتحدة في عام ١٩٠٠ لتكوين الكنيسة الحرة المتحدة The United Free Church. ولكن بقيت أقلية صغيرة رفضت ذلك الإتحاد وبقيت تحتفظ باسم كنيسة اسكتلندا الحرة Free Church of Scotland.

واتحدت الكنيسة الحرة المتحدة مع كنيسة اسكتلندا في عام ١٩٢٩ وذلك لتكوين Kirk of Scotland أو كنيسة اسكتلندا Church of Scotland الوطنية وذلك لأن قضية الحق في التعيين والتي كانت هي السبب الرئيسي في كل هذه الإنشقاقات كانت قد حسمت وذلك عندما ألغى البرلمان في عام ١٨٧٤ القانون الخاص بحق الدولة في تعيين القسوس. واليوم، تعتبر كنيسة اسكتلندا هي الكنيسة الرئيسية في اسكتلندا. كانت الليبرالية Liberalism أيضًا من مشاكل الكنيسة في اسكتلندا. وكان البروفسير وليم رويرتسون سميث William Robertson Smith، والذي طرد من مكانه في عضوية هيئة التدريس في كلية أبردين للكنيسة الحرة في عام ١٨٨١، المسئول الأول عن نشر أفكار مدرسة النقد الألمانية في اسكتلندا وعن انتشار الأفكار الليبرالية هناك.

## ٤- الكنيسة في ايرلندا

اشتد التنافر العرقي إلى جانب الكراهية الطبيعية لدى المهزوم تجاه من هزمه في زمن الإصلاح وذلك بسبب أن الإنجليز كانوا قد قبلوا البروتستانتية بينما بقي الأيرلنديون على ولائهم للكنيسة الكاثوليكية التابعة لروما. وعندما أصبح جيمس الأول James 1st ملكًا لإنجلترا، ساهم في تعميق هذا الإنقسام بتوطينه جماعات من المستوطنين الأسكتلنديين في ايرلندا الشمالية.

ومن وجهة النظر الدينية، شهدت أيرلندا حدثين رئيسين في الفترة ما بين ١٦٨٩-١٩١٤. كان أول هذين الحدثين هو هجرة ما يقرب من ٢٠٠ ألف اسكتلندي من أيرلندا الشمالية إلى أمريكا فيما بين ١٧١٠-١٧٦٠ حيث أصبحوا هناك العمود الفقري للمشيخية الأمريكية. وقد تسبب الوباء الذي أصاب محاصيل البطاطس في أربعينيات القرن التاسع عشر إلى هجرة ما يزيد عن مليون شخص،معظمهم

من الكاثوليك، من أيرلندا إلى الولايات المتحدة.

أما الحدث الرئيسي الثاني فهو إلغاء وضع الكنيسة الأنجليكانية Anglican باعتبارها الكنيسة الرسمية في أيرلندا وذلك في عام ١٨٦٩ حيث كان الأيرلنديون وحتى ذلك الوقت ملزمين بدفع ضرائب للكنيسة الأنجليكانية لدعمها ماديًا، ثم يقدمون عطايا اختيارية للكنيسة الكاثوليكية التي ينتمون إليها وذلك لدعم كهنتها الذين اعتبرهم الشعب الرعاة الفعليين له. كان الأيرلنديون قد حصلوا على حقوقهم المدنية قبل ذلك أي في عام ١٨٢٩ وذلك بمقتضى تشريع تحرير الكاثوليك الذي انفتح من خلاله الباب أمام الكاثوليك لشغل الوظائف الرسمية سواء في المحليات أو في الحكومة المركزية. شمل ذلك كل أنواع الوظائف ماعدا منصب الملك، والقائمقام الملك، ومناصب المستشار ورئيس أساقفة كانتربري. وبالرغم من أن هذه التغيرات ساعدت على التخفيف من شعور المرارة، إلا أن العداء الديني بين الإنجليز والأيرلنديين استمر وحتى القرن العشرين. كان للنهضة التي حدثت في أليستر في عام ١٨٥٩ أثرها في أحداث انتعاش روحي في أيرلندا الشمالية.

## ٥- الكنيسة في القارة الأوربية

شهدت ألمانيا حركة الإرسالية الداخلية، بينما شهدت البلاد التي تتحدث الفرنسية في غرب أوربا حركة الصحوة، وهي الحركات التي ازدهرت في الفترة ما بين ١٨٢٥-١٨٦٠ وكانت بمثابة النظير الأوربي لحركة الإنتعاش التي شهدتها انجلترا وأمريكا الشمالية. حمل روبرت هالدين Robert Haldane شعلة النهضة Revival إلى سويسرا في بداية القرن. وساهم قادة أمثال الكسندر فينت Alexandre Vinet (١٧٩٧-١٨٤٧)، سيزار مالان César Malan (١٧٨٧-١٨٦٤) وفرانسيس جوسين Francis R. Gaussen (١٧٩٠-١٨٦٣) ومؤرخ الكنيسة ميريل دوبيان Merle D'Aubigne في تطوير حركة الصحوة في سويسرا بينما كان فريدريك وأدولف مونود Frederick and Adolphe Monod قادة تلك الحركة في فرنسا.

أما انتعاش الإرسالية الداخلية في ألمانيا German Inner Mission فقد نمى من عمل جوهان ويتشيرن Johann H. Wichern (١٨٠٨-١٨٨١). وقد بدأت الإرسالية الداخلية في عام ١٨٤٨ لتشجيع ونشر التطبيقات الإجتماعية للنهضة إلى جانب العمل الكرازي. وقد بنى ويتشيرن عدداً من البيوت البسيطة مبتدئاً من هامبورج عام ١٨٣٣، وهي البيوت التي استخدمت كملاجئ للأيتام، وبيوت للمسنين، وبيوت ضيافة ومراكز خدمة في الأحياء الفقيرة ومؤسسات للعمل بين المسجونين أو البحارة. أسس ثيودور فليدنر Theodore Fliedner (١٨٠٠-٦٤) بيوتاً للشماسات تضم نساء من البروتستانت يردن تكريس حياتهن للخدمة الإجتماعية التي تقوم بها الكنيسة وذلك في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر في مدينة كايزرورث. جروين فان برينستر Groen Van Prinster قاد انتعاشاً مشابهاً في هولندا. أبراهام كويبر Abraham Kuyper (١٨٣٧-١٩٢٠) الذي اختبر عدة اختبارات روحية متميزة دفعته لكتابة العديد من المؤلفات اللاهوتية وإلى تأسيس جامعة امستردام المستقلة. أما نيقولاي جروندفيج Nicolai F.S. Grundtvig (١٧٨٣-١٨٧٢) من الدانمارك فقد ركّز على تحقيق





الانتعاش التقوي ووجه جهوده نحو تنظيم جمعيات تعاونية ومدارس شعبية. وقد حمل جورج سكوت George Scott في السويد وجيزيل جونسون Gisle Johnson في النرويج مشعل الإنتعاش الذي جرى في وقت سابق وارتبط بخدمة هانز هوج Hans n. Hauge (١٧٧١-١٨٢٤) في السويد. ويبدو أن الحركات التي شهدتها القارة الأوربية كانت أكثر ميلاً نحو العمل الإجتماعي من الحركات التي ازدهرت في الولايات المتحدة والجزر البريطانية.

وفي عام ١٩٠٧ حدث انتعاش روحي مذهل بين المشيخيين في كوريا. ذهب المرسل المشيخي جون نيفيوس John L. Nevius لزيارة كوريا وهناك اقنع المرسلين بفكرته بأن تكون الكنيسة في كوريا ذاتية الدعم المادي وذاتية الإدارة وذاتية الإنتشار، وشجعهم أن يتبنوا هذا النمط مع المبشرين الوطنيين الذين يتلمذونهم ويذهبون معهم في جولاتهم التبشيرية. ربحت النهضة التي نتجت عن هذا التوجه الآلاف بداية من عام ١٩٠٧. وفي السبعينيات من القرن العشرين شهدت كوريا انتعاشاً جديداً ونمواً مطرداً للإيمان المسيحي حتى بلغت نسبة المسيحيين في كوريا اليوم ما يقرب من ٢٠ في المائة من عدد السكان.

## اقتراحات للقراءة


*Bacon, Ernest W.* Spurgeon, Heir of the Puritans. *London: Allen & Unwin, 1967.*

*Balleine, G.R.* A History of the Evangelical Party. *London: Longmans, 1911. This is an excellent account of the evangelical revival and its results in the Church of England.*

*Battiscomb, Georgina.* Shaftesbury. *Boston: Houghton Mifflin, 1975. This is a well-balanced, documented biography.*

*Best, Geoffrey, ed.* The Oxford Movement. *Chicago: University of Chicago Press, 1970.*

*Bready, J. Wesley.* Lord Shaftesbury and Social Industrial Progress. *London: Allen & Unwin, 1926. This is a well-developed evaluation of Shaftesbury's life and work.*

*Brown, Ford K.* Fathers of the Victorians. *Cambridge: Cambridge University Press, 1961. The reforms of Wilberforce and his friends are discussed.*

*Burleigh, J.H.S.* A Church History of Scoltand. *Oxford: University Press, 1960.*

*Cairns, Earle E.* Saint And Society. *Chicago: Moody, 1960. This describes the setting, ideals, and reforms of the evangelicals in England.*

*Campbell, Reginald J.* Livingstone. *New York: Dodd, 1930.*

## الفصل السادس والثلاثون

# أعداء الإيمان

ظهرت خلال القرن التاسع عشر عدة حركات مؤثرة، هددت الإيمان الذي اجتهدت الكنيسة لتحفظه عبر الأجيال والعصور. خرجت مدرسة النقد الكتابي Biblical Criticism من مناخ الفكر الإنساني والفردي الذي انتجته ظروف عصر النهضة. وقد دعَّم هذا الاتجاه انتشار المدارس العقلانية وتزايد الفردية التي ميزت القرن الثامن عشر، كما دعَّمته النظرة التاريخية لحركة الرومانسية Romanticism والفلسفة المثالية الألمانية. وقد ساعد تزايد انشغال الناس بالرغبة في الحصول على المنتجات والسلع الجديدة التي أتاحها ارتفاع مستوى المعيشة الذي صاحب الثورة الصناعية، ساعد ذلك على انصراف تفكير الناس من كل الطبقات عن اعتبار الكتاب المقدس الدستور الوحيد المعصوم للإيمان والحياة. وكان لتطبيق مذهب النشوء والإرتقاء على نظرية التطور، على الكتاب المقدس نفسه، تأثيره في اعتبار المسيحية نتيجة تطور الفكرة الدينية. وكان إنكار سلطان الكتاب المقدس هو النتيجة المنطقية التي لابد أن يصل إليها أصحاب وجهة النظر هذه.

### ١- النقد

اتخذ الناس واحداً من ثلاثة مداخل إلى الكتاب المقدس. اقترب التقويون Pietism من الكتاب المقدس من وجهة نظر إختبارية يصبح فيها تطبيق الحق الكتابي على الحياة اليومية هو المعيار الأساسي. واعتبر آخرون أن الكتاب المقدس مرجعاً للعقائد. بينما تبنى آخرون اتجاهاً تاريخياً، حتى أصبح الكتاب المقدس مجرد كتاب مرشد للأخلاق والسلوك. وأصبح هذا الاتجاه الأخير هو المذهب الشائع في القرن التاسع عشر وذلك بسبب تأثير الفلسفة المثالية الألمانية. وعندما اجتمع الاتجاه النقدي التاريخي مع تطبيق نظرية التطور على الظاهرة الدينية اكتملت عناصر الخلفية المناسبة لنظام النقد الكتابي.

يصعب إقامة حوار أو مناقشة بين شخص يقبل الاتجاه النقدي للكتاب المقدس وشخص يؤمن بوحي وكمال الكتاب المقدس وذلك لأن كلا منهما لديه مجموعة مختلفة من الأفكار الأساسية. فالناقد المتطرف للكتاب المقدس يفترض أن الكتاب المقدس ليس سوى مجلد أدبي يمكن الحكم عليه من خلال قوانين النقد الأدبي المعتمدة مثله مثل أي عمل أدبي آخر، ويعتقد أيضاً أن هناك نوعاً من التطور تتعرض له الأفكار الدينية، وأن التفسير الطبيعي للظواهر الكتابية يجب أن يحل محل التفسير المعجزي الخارق للطبيعة. وينظر مثل هؤلاء إلى

الكتاب المقدس باعتباره كتاباً جامعاً ألّفته مجموعة من المؤلفين من البشر العاديين. وهم بذلك يتجاهلون دور وعمل الروح القدس في الوحي وقيادته للأشخاص الذين دونوا ذلك الوحي في الكتاب المقدس.

### أ- الخلفية الفلسفية واللاهوتية لحركة النقد الكتابي

عندما اجتمعت الفلسفة المثالية التي كان رائدها عمانوئيل كانط Immanuel Kant (١٧٢٤-١٨٠٤)، مع آراء شليرماخر Friedrich Schleiermacher، وهيجل George Hegel، وريتشل Albrecht Ritschl، وجدت خلفية فلسفية تتناسب مع المدخل النقدي للكتاب المقدس. قبل كانط تنبير لوك على الحس وتركيز ديكارت René Descartes على المنطق باعتبارهما مفاتيح المعرفة المتعلقة بظواهر الطبيعة، ولكنه جادل في كتاب "نقد العقل المجرد" Critique of Pure Reason (١٧٨١) بأن الإنسان لا يستطيع أن يعرف الله أو النفس عن طريق حواسه أو منطقه، وذلك لأنه اعتبر أن معرفة الله أو فهم النفس معلومات تصنف على أنها الشئ في ذاته وهو المعقول أو النومين Noumena ولاندركه بالحس لكن يمكن أن نفكر فيه بالعقل المجرد. وقد قادته خلفيته التقوية إلى التاكيد على أن حاسة الالتزام الخلقي أو الضمير في الإنسان، والتي أطلق عليها "الحتمية" Categorical Imperative، يجب أن تكون هي نقطة البداية للفكر الديني. (أي أن الأخلاق هي التي أدت إلى الدين) وطرح كانط في نفس الكتاب (نقد العقل المجرد عام ١٧٨١) فكرته بأنه لابد من وجود إله أوجد في الإنسان هذا الإحساس. وعندئذ تصبح مسلمات مثل النفس وخلود الحياة لازمة، إن كان هناك مكافأة لمن يطيعون ما تمليه عليهم ضمائرهم، وذلك لأن فعل الخير عادة لا يلقى مكافأة زمنية في هذه الحياة.

ولأن كانط أنكر أن الإنسان يقدر أن يعرف ويدرك عالم المعقولات، فإننا لا نجد مكاناً في نظامه لإعلان تاريخي أو موضوعي لله في الكتاب المقدس. كان الكتاب المقدس بالنسبة له ليس إلا كتاباً تاريخياً ألّفته مجموعة من البشر، وأن هذا الكتاب يجب إخضاعه للنقد التاريخي مثله مثل أي كتاب آخر. ولا يوجد مكان في نظام كانط الفلسفي للمسيح، الله الظاهر في الجسد. حيث أن الإنسان (في رأي كانط) بما لديه من حرية الإرادة وإحساس ملزم بما هو صواب يصبح هو الذي يخلق ديناً يطور بمقتضاه الإلتزام الأدبي الذي زُرع في داخله. ويمكننا هنا تمييز وجود خط منطقي متصل بين مثالية كانط والليبرالية الحديثة في إصرارها على وجود "قبس من الألوهية" في داخل كل منا، والذي يصر الليبراليون (اللاهوتيون المتحررون) أن كل ما يحتاجه الإنسان هو تنمية هذا القبس الإلهي ليصل إلى تحقيق السلوك الأخلاقي الجيد ويؤدي به ذلك في النهاية إلى الخلود. ساعد كانط بهذا الأسلوب على تقديم إطار فلسفي لكل من حركة النقد الكتابي Biblical Criticism والاتجاهات الحديثة للاهوت التحرري.

وعلى عكس ما وصل إليه كانط الذي وجد في الطبيعة الأخلاقية للإنسان منطلقاً للفكر الديني، جعل فريدريك شليرماخر (١٧٦٨-١٨٣٤) من المشاعر أو العواطف الإنسانية العناصر التي يتطور منها الإختبار الديني. تلقى شليرماخر تدريبه وتعليمه في مدارس المورافيين، وهو مدين لهم





بالطبيعة الذاتية التي تتميز بها فلسفته وذلك إلى جانب تأثره بالمدرسة الرومانسية أيضاً. وفي كتابه "الإيمان المسيحي" الذي كتبه حوالي سنة ١٨٢١ يقدم الدين، لا باعتباره مجموعة من المعتقدات والإلتزامات المبنية على سلطة الكنيسة، بل باعتباره نتيجة لشعور الإنسان بحاجته المطلقة لله في كون مهيب لا يمثل هو فيه إلا كياناً متناهياً في الصغر والأهمية. ورأى أن المسيحية هي أفضل ما يقود الإنسان إلى التوافق مع الله حيث يكون الإنسان سلبياً ويتحقق أن اعتماده الكامل هو على الله. ويصبح الدين بذلك مجرد إدراك ذاتي للمسيح وعمله كوسيط يصالح الإنسان مع الله الذي هو المطلق الذي يسود الكون كله. وبذلك يتحرر الإنسان من اعتماده على الإعلان التاريخي لإرادة الله ولا يحتاج سوى تنمية شعور اعتماده على الله في المسيح لكي يتمتع باختبار ديني مشبع. وكثيراً ما يشار إلى شليرماخر Schleiermacher باعتباره "أبو اللاهوت الحديث" بسبب رأيه بأن الذاتية هي جوهر الإختبار الديني.

جورج هيجل George Hegel (١٧٧٠-١٨٣١)

كان له هو أيضاً أثر بالغ على كل من الفكر اللاهوتي والمدخل النقدي لتفسير الكتاب المقدس. كان الله هو المطلق الذي يسعى إلى إعلان ذاته في التاريخ بواسطة عملية منطقية لتحقيق المصالحة بين المتناقضات، وهذه العملية سماها هيجل "الموضوع والنقيض". وينشأ عنهما ثالث هو الوسط أو التوافق أو المصالحة ويصبح هذا الوسط موضوعاً جديداً ينشأ عنه نقيض جديد ويندمجان مرة أخرى في مصالحة جديدة. فتمسك هيجل بذلك بالتطور الفلسفي باعتباره الوسيلة التي يمكن أن يعلن المطلق ذاته من خلالها. وقد تبنى ماركس Marx هذه النظرية الجدلية أو المنطق الجدلي من بعد هيجل، بل واستعار هتلر Hitler وموسوليني Mussolini تركيز ماركس على أن الدولة هي إعلان عن المطلق، واستخدما هذا المفهوم لتمجيد الدولة والدكتاتور الذي يرأسها.

تأثر ألبرت ريتشل Albrecht Ritschl (١٨٢٢-٨٩) بقبول شليرماخر للمشاعر الدينية أساساً للدين، ولكنه أصرّ على أن الدين هو الإدراك الإجتماعي للإعتماد على الله. ورأي أن المسيح التاريخي الذي نقرأ عنه في الأناجيل قدم الإعلان العملي عن الخطية وعن خلاص الفرد بالإيمان في ملكوت الإيمان. والكتاب المقدس في رأي ريتشل هو ببساطة مسجل للإدراك الإجتماعي والحس الديني للمجتمع، لذلك ينبغي أن نخضع الكتاب المقدس للبحث التاريخي مثله مثل أي كتاب آخر. فجعل ريتشل بذلك مثله مثل غيره من الفلاسفة الإختبار الديني اختباراً ذاتياً وفتح الطريق لأقصى درجات الدراسة النقدية للكتاب المقدس. كما شجع الاتجاه الاجتماعي للمحبة في معالجة المشكلات الدينية.

### ب- مدرسة النقد الكتابي

كانت العقلانية التي أفرزها عصر التنوير، إلى جانب الفلسفة المثالية التي أفرزتها الفترة الرومانسية هما الوالدان الشرعيان لمدرسة من النقد الذي يحاول تحطيم كل ما هو فوق الطبيعي في الكتاب المقدس باعتباره وحياً و إعلاناً إلهياً، ليجعله سجلاً لعملية تطور ذاتي لفكرة الدين في الضمير الإنساني. إلا أنه ينبغي القول إن مقاومة مثل هذا النقد الهدام لا ينبغي أن تقود دارس الكتاب المقدس إلى رفض كل أشكال النقد الكتابي Biblical Criticism. فالنقد التاريخي والأدبي

والذي يعرف في الأوساط العلمية "بالنقد العالي" Higher Criticism بل ويشار إليه أحيانًا أنه دراسة مقدمات الأسفار– وإن كان قد ارتبط إلى حد كبير مع تلك الآراء الهدامة– ليس إلا الدراسة الدقيقة للخلفية التاريخية لكل سفر من أسفار الكتاب المقدس. بينما النقد النصي ما هو إلا دراسة لنص الكتاب المقدس نفسه في محاولة لتحديد ما إذا كان النص الذي بين أيدينا هو نفسه النص الذي كتبه الكتاب الأصليون. وقد ساهم النقد النصي Lower Criticism في تأكيد درجة الدقة العالية للنص الكتابي الذي بين أيدينا حتى إننا نستطيع أن نجزم بأننا نملك الكتابات الأصلية لأسفار الكتاب. وتصبح بذلك تعاليم الكتاب وعقائده أمنع من أن تتعرض للشك ولو من أكثر النقاد تطرفًا. لقد زعزع النقد العالي المتطرف، وليس النقد النصي، إيمان الكثيرين في الوحي الإلهي للكتاب المقدس.

ارتبط انتشار أفكار مدرسة النقد العالي باسم طبيب فرنسي عاش في القرن الثامن عشر اسمه جان أستروك Jean Astruc (١٦٨٤–١٧٦٦)، وهو الذي قسم سفر التكوين في عام ١٧٥٣ إلى قسمين. وادَّعى أن كاتب هذا السفر استخدم وثيقتين مختلفتين كمصدر لما كتبه من معلومات وذلك على اساس أن أستروك وجد أن الاسم "الوهيم" الذي ترجمته الله قد استخدم في فقرات معينة بينما استخدم الاسم "يهوة" وترجمته الرب في مواضع أخرى. وأطلق جوهان ج. إيكهورن Johann G. Eichhorn (١٧٥٢–١٨٢٧) على هذا النوع من الدراسات اسم "النقد العالي" وهو نفسه الذي أشاع مبدأ أن الكتاب المقدس يجب قراءته على اعتبار أنه كتاب بشري وأنه يمكن إخضاعه للمقاييس البشرية في تقدير أهمية ما يحتويه من معلومات. لاحظ إيكهورن بعض الخواص الأدبية الأخرى، إلى جانب استخدام عدة أسماء للإشارة إلى الله، قادته إلى الإعتقاد بأن ليس سفر التكوين وحده بل الأسفار الستة الأولى من العهد القديم (تكوين–يشوع) تتألف جميعها من مصادر متعددة. وكان هابفلد أول من ادَّعى في عام ١٨٥٣ أن أسفار موسى الخمسة شارك في كتاباتها ما لا يقل عن شخصين بدلاً من الاعتقاد السائد بأنها سرد كتبه موسى اعتماداً على عدة مصادر مختلفة. واستطاع جراف Graf و ويلهاوسن Wellhausen تطوير نظرية متكاملة عُرفت باسميهما Graf-Welhausen Theory وتبناها معظم نقاد مدرسة النقد الكتابي العالي. وبحسب هذه النظرية فإن الأجزاء التي تستخدم اسم يهوه تمثل أقدم المصادر وجزء آخر كتبه شخص آخر أطلق عليه اسم المصدر E، وجزء آخر في سفر التثنية أطلق عليه اسم المصدر D وآخر في اللاويين يشار إليه على أنه المصدر P. وبذلك وباستخدام هذا الأسلوب ينتهي الأمر بأصحاب هذه النظرية إلى إنكار وحدة الأسفار الخمسة وإنكار نسبتها إلى موسى.

وجاء نقاد آخرون في وقت لاحق ليقسموا سفر أشعياء إلى جزءين على الأقل وقالوا إن تاريخ كتابة سفر دانيال يرجع إلى فترة حكم المكابيين مما يجعل هذا السفر يتحول من سفر نبوي تاريخي ليصبح سفرًا تاريخيًا. وفسَّر أصحاب تلك النظرية تطور العقائد في الكتاب المقدس بنفس أسلوب نظرية التطور. وركَّز النقاد على القول بأن فكرة الله قد تطورت ابتداء من الشكل البدائي الذي يرى الله الإله العاصف كما ظهر في جبل سيناء، ثم يتطور إلى أن يصل إلى الإله الواحد الصالح





القدوس الذي تحدث عنه الأنبياء في أسفارهم. إلا أن الأستكشافات الأثرية المرتبطة بالكتاب المقدس قد أجبرت الكثير من النقاد على التخلي عن مواقفهم المتطرفة السابقة، وأكَّدت الآراء المحافظة في معالجة الكتاب المقدس.

أما عن بدايات النقد العالي للعهد الجديد فهي عادة ترتبط باسم هيرمان ريماروس Herman S. Reimarus (١٦٩٤–١٧٧٨)، الذي كان أستاذًا للغات الشرقية في هامبورج. وفي كتابه Fragments الذي كتبه عام ١٧٧٨، أنكر إمكانية حدوث المعجزات الكتابية بل وتطاول بفكرته إلى حد القول إن كُتاب العهد الجديد بما أوردوه من قصص المعجزات يثبتون أنهم مزورون أتقياء. أما جوتهولد ليسنج Gotthold Lessing (١٧٢٩–١٧٨١) الذي نشر كتاب ريماروس، فكان يقول إن الكتاب المقدس يصلح لتوجيه وإرشاد الإنسان خلال المرحلة البدائية لتطور فكره الديني، إلا أن المنطق والإحساس بالواجب يكفيان لتوجيه الإنسان في المراحل الأكثر تطوراً من الدين.

وجاء فرديناند بور Ferdinand C. Baur (١٧٩٢–١٨٦٠) ليطرح في عام ١٨٣١ الفكرة بأن الكنيسة الأولى كان بها نوع من اليهودية التي تنبر على أهمية الشريعة إلى جانب المسيا. وقال إن هذا المدخل المبكر يمكن ملاحظته في كتابات الرسول بطرس. وأن بولس الرسول ساهم في صياغة نظرية مضادة في رسائل مثل رومية وغلاطية، حيث يبرز فيها دور النعمة بدلاً من الناموس. وقد قدمت الكنيسة الجامعة القديمة التي عاشت في القرن الثاني نوعاً من التوافق بين فكر بطرس وفكر بولس حول هذا الموضوع. ويقول إن هذا الرأي التوفيقي يظهر في أسفار مثل إنجيل لوقا والرسائل الرعوية. ثم شرع بور في إعداد جدول بتاريخ كتابة أسفار العهد الجديد على أساس هذا الإطار حيث كان يحكم أن هذا السفر مبكر أو متأخر على أساس توافقه إما مع فكر بطرس أو بولس أو يوحنا. ونرى بذلك كيف أن الاعتماد على المعلومات التاريخية تم استبداله بالإفتراضات الفلسفية الذاتية في تحديد التسلسل الزمني لكتابة أسفار العهد الجديد.

وخلال القرن العشرين، تركزت مجهودات الدراسات النقدية للعهد الجديد على ثلاثة مداخل مختلفة لكنها مترابطة لدراسة الأناجيل. اهتم النقد الذي يدور حول المصادر بترتيب كتابة الأناجيل الثلاثة المتوازية أو الإزائية Synoptic Gospels (متى ومرقس ولوقا) واهتموا بمحاولة تحديد درجة اعتماد الواحد منهم على الآخر كمصدر للمعلومات أو ربما اعتماد الأناجيل الثلاثة على مصادر أقدم. وفي العشرينيات والثلاثينيات من القرن قامت جهود نقدية تهتم بالشكل، وبحثت عن الدلائل التي تقدمها الأناجيل نفسها عن الشكل الذي تم به تداول الأناجيل شفاهيًا في الكنيسة الأولى قبل تدوين الأناجيل. وادعى هذا المدخل أن الأناجيل تحتوي على حقائق عن المسيح، يمكن الوصول إليها بعد أن ينزع المرء عنها ما أحاط بها من طبقات التقليد والشكل التي تختفي تحتها تلك الحقائق. أما أحدث جهود النقد فهي تعرف باسم النقد التنقيحي وهي التي تحتل المركز الرئيسي اليوم في الأوساط النقدية. وهي تقترح تحليل أسلوب ومضمون التغييرات الخفية التي يفترضون أن كُتاب الأناجيل قد أضافوها على سردهم لأحداث حياة وخدمة المسيح على الأرض.

ويعتبر بعض اللاهوتيين الذين يتبنون الآراء النقدية للعهد الجديد، أن جوهر رسالة الأناجيل الأربعة هو في تعاليم يسوع الأخلاقية وأن بولس حوَّل الدين الأخلاقي البسيط الذي قدمه يسوع إلى ديانة تقوم على مبدأ الفداء. لقد قادت مدرسة النقد العالي باتجاهاتها الهدامة الكثيرين لإنكار وحي الكتاب المقدس باعتباره إعلانًا من الله لأناس مسوقين بالروح القدس وقادتهم أيضًا إلى التقليل من أهمية لاهوت المسيح وعمله الفدائي على صليب الجلجثة بل لدرجة إنكار هذه الأمور بالكامل. وقد جمع دافيد شتراوس David F. Strauss (١٨٠٨-٧٤) كل هذه الآراء في كتاب كتبه عام ١٨٣٥-٣٦ بعنوان "حياة يسوع". وفيه أنكر شتراوس المعجزات وشكَّك في سلامة العهد الجديد ورفض لاهوت المسيح، حيث رأى في المسيح إنسانًا كان يظن أنه هو المسيا.

وأصبحت ألمانيا التي كانت يومًا موطنًا للإصلاح، أرضًا تنمو فيها مدرسة النقد الكتابي Biblical Criticism. ويبين تاريخ ألمانيا الهتلرية المدى الذي يمكن أن يصل إليه البشر عندما ينكرون الإعلان الإلهي في الكتاب المقدس وعندما يستبدلون الإعلان الإلهي بالمنطق والعلم ويعتبرونهما دستورًا للفكر والعمل.

## ٢- النظرة المادية للحياة

وقفت المادية تمثل تهديدًا لإيمان الكنيسة خلال القرن التاسع عشر، ومازالت تهدده اليوم. ربما اتخذت المادية شكلاً أكثر خداعًا من مدرسة النقد الكتابي، ويمكن تعريف المادية على أنها الممارسة التي يشهدها المجتمع الحديث بالتركيز على القيم المادية لمستوى المعيشة المرتفع، إلى الدرجة التي يتركز فيها كل انتباه الإنسان على الحياة الحاضرة، ويهمل القيم الروحية للحياة الأبدية. والوفرة التي تحققت في مختلف السلع والتي جعلت ارتفاع مستوى المعيشة ممكنًا جاءت نتيجة للثورة الصناعية والتي حدثت في انجلترا في الفترة ما بين ١٧٦٠-١٨٣٠، حيث استخدمت الطاقة الميكانيكية بدلاً من المجهود البشري للإنتاج مما أتاح الفرصة لإنتاج السلع بكميات هائلة وبأسعار أرخص كثيرًا. وقد وصل هذا التركيز على ارتفاع المستوى المادي للمعيشة أقصاه في أمريكا. وقد ركَّز كل من والتر روشينبوش Walter Rauschenbusch مؤسس حركة الإنجيل الإجتماعي في أمريكا، وكارل ماركس Karl Marx في النظرية التي صاغها على الأهمية الأساسية للسلع المادية بالنسبة لحياة البشر. وغالبًا ما ينسى أولئك الذين يضعون أهمية كبرى على قضية توزيع السلع وعدالته قول الكتاب المقدس إنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.

## ٣- تناقض نظرية الخلق مع نظرية التطور

إن كان النقد التاريخي والأدبي والفلسفي للكتاب المقدس قد حطَّم الإيمان به على أنه وحي من الله، وإن كانت المادية التي أوجدتها الثورة الصناعية خلقت نوعًا من اللامبالاة بالحياة المستقبلية، فإن آراء تشارلز ر. داروين Charles R. Darwin (١٨٠٩-٨٢) ومن جاءوا بعده خلقت الفكرة القائلة بأنه لا يوجد شئ اسمه الخطية أو أن الخطية لم تكن إلا مجرد بقايا من الغريزة الحيوانية في الإنسان. ترجع نظرية التطور Evolution





كعقيدة فلسفية إلى زمن أرسطو Aristotle، لكن داروين كان أول من وضعها على ما يبدو أنه أساس علمي.

قضى داروين بعض الوقت في دراسة الطب والعلوم اللاهوتية قبل أن يتطور ميله ليصبح عالمًا للطبيعة. وبعد أن قام برحلة بحرية حول العالم على ظهر السفينة بيجل في الفترة ما بين ١٨٣١-١٨٣٦، اقتنع داروين بأن الإختلافات التي لاحظها عند مقارنته الحيوانات الحية والحفريات التي وجدها على أرض القارات الأساسية بتلك التي وجدها على الجزر التي زارها لا يمكن تفسيرها إلا من خلال نظرية التطور البيولوجي. وقد نشر كتابه "أصل الأنواع" The Origin of the Species في عام ١٨٥٩ بعدما اكتشف أن الفريد والاس Alfred Wallace وصل وحده إلى استنتاجات مشابهة. وفي كتابه طرح داروين نظريته بأن الصراع من أجل البقاء هو الذي يحفظ تعداد الأنواع المختلفة ثابتًا، وذلك بالرغم من حقيقة أن معدل التوالد أو التكاثر يتوالى هندسيًا (أي يتضاعف) وأن العدد الناشئ عن التوالد يفوق بكثير ما يحتاجه بقاء النوع. وأنه خلال هذا الصراع من أجل البقاء يطور بعض افراد النوع خواص مميزة تؤهلها أكثر من غيرها للبقاء وذلك من خلال عملية تحور او تكيف مع البيئة. وهذه السمات أو الخواص تنتقل من جيل إلى آخر عن طريق الإنتقاء الجنسي إذ يتقابل الذكور والإناث الأقوياء للتكاثر. وبذلك لا يبقى إلا الأفضل والأقوى. وظن داروين Darwin أن وجود تشابه بين تركيب جسم الإنسان والحيوان يؤيد نظريته، لكنه نسي أن هذا التشابه وغيره من التشابهات يمكن أن يكون دليلاً على إبداع الخالق الذي وهب خلائقه تصميمًا مشابهًا لأجسامها لأن البيئة التي يعيشون فيها واحدة. وقد طبَّق داروين نظريته على الإنسان وكتب في عام ١٨٧١ كتابه "أصل الإنسان" طارحًا فكرته بأن الإنسان مرتبط بالحياة الحيوانية عن طريق أسلاف مشتركين.

وفكرة داروين عن حلقة الإتصال ما بين الإنسان والحيوان يمكن تلخيصها بعبارة "الانحدار المتصل بالتغيير" أو " النشوء والارتقاء". ويتعارض هذا الرأي مع المفهوم الكتابي عن خليقة الله الخاصة، أو عدم الاستمرارية، أي ثبات مجموعات الخلائق على ما خلقت عليه أصلاً. وفي محاولته إبراز التشابهات ما بين الإنسان والحيوان، تجاهل داروين ما يتفرد به الإنسان من ضخامة حجم مخه، وقدرته على التخاطب والكلام، وذاكرته وضميره ومفهومه عن الله وعن روحه. وقد أقَّر داروين أن الضمير ومفهوم الله والروح تعتبر مشاكل في نظريته. ولم يتم اكتشاف الحلقة المفقودة التي يمكن أن تحسم ارتباط البشر بالحيوانات، بل إنه في الواقع ثبَّت استحالة التزاوج المختلط بين الكثير من الأنواع والأجناس المختلفة. ولم تستخدم الكلمة العبرية التي ترجمتها "خلق" Bara لوصف عمل الخلق الإلهي إلا في حالة خلق السماء والأرض والحيوانات الثديية والإنسان (تك ١:١، ٢١، ٢٧) ويقول الكتاب إن الله صنع كل نوع ليتكاثر كجنسه.

ومع أن نظرية التطور تنكر أن الله خلق الإنسان مباشرة، إلا أن الضرر الأكبر جاء من تطبيق نفس النظرية على تطور الفكر الديني. حيث تم اعتبار أن الله والكتاب المقدس هما نتاج تطور الإدراك الديني للإنسان، وتم وضع تسلسل زمني لكتابة أسفار الكتاب المقدس بحسب هذا الغرض. واستبدل المفهوم الأخروي الكتابي، الذي يخبرنا

بأن الكمال سوف يتحقق في هذا العالم فقط عن طريق التدخل الإلهي المباشر بمجئ المسيح ثانية. استبدل هذا المفهوم بالقول بأن العالم سوف يستمر يتطور نحو الأفضل نتيجة لجهود البشر. ولانهم يرون أن الإنسان ليس مسئولاً عن خطية آدم الأصلية، فلا يوجد احتياج فعلي للمسيح المخلص.

وقد استخدمت نظرية التطور Evolution لتبرير فكرة سيادة جنس على غيره من الأجناس وذلك لأن هذه الفكرة تتلائم مع مفهوم داروين عن "البقاء للأصلح" بل وأيضًا استخدمت لتبرير عدم الإعتراف بوجود أساس مطلق للأخلاق. فالسلوك الصالح هو ما يتفق كل جيل على اعتباره مناسبًا موافقًا للصالح العام للمجتمع. بل تم أيضًا استخدام نظرية التطور لتمجيد الحرب باعتبارها ممارسة شرعية لمبدأ البقاء للأصلح. كل هذه الإستنتاجات تم الوصول إليها عن طريق تطبيق نظرية بيولوجية على مجالات أخرى للحياة دون ما ضابط أو قواعد لاستخدام المبدأ العام على سبيل القياس والتشبيه.

## ٤- الشيوعية

واجهت الكنيسة أيضًا عداوة الإشتراكية في القرن العشرين. وترجع جذور هذه الحركة إلى الفلسفة المادية التي صاغها كارل ماركس Karl Marx (١٨١٨-٨٣). استعار ماركس من آدم سميث Adam Smith فكرته بأن العمل وحده هو الذي يخلق القيمة، واستعار منه هيجل منهجه، ومن الأشتراكيين المثاليين (أصحاب نظرية المدينة الفاضلة) استعار ماركس هدفه المثالي. وصاغ ماركس ومعه فريدريك إنجيلز Friedrich Engels الخطوط العريضة لآرائه في النشرة التي أصدرها في عام ١٨٤٨ بعنوان المانيفستو الشيوعي أو الإعلان الشيوعي Marxian Communism. كان ماركس قد انجذب لفلسفة هيجل لكنه استبدل حديث هيجل عن الكائن المطلق بتمجيده للمادية. وقال ماركس إن الحقيقة الواقعية ليست إلا المادة في حركتها. وبنى على هذا الأساس فكرته بأن كل مؤسسات المجتمع سواء الدينية أو الإجتماعية أو السياسية يحددها الوسيلة التي يكسب بها الشعب عيشه. والصراع الطبقي ينشأ بسبب أن الرأسماليين يستأثرون بكل الفائض أو الربح. وجادل ماركس بأن الأرباح يجب أن تكون ملكًا لمن يقومون بالعمل لأنه اعتقد أن العمل وحده هو الذي يقدر على خلق القيمة. وقد رسم ماركس صورة عملية الصراع الطبقي بتطبيقه منطق هيجل. فالرأسمالية لابد وأن تنتج نظرية مضادة لها، وهي البروليتاريا التي سوف تحطم الرأسمالية وتنشئ مجتمعًا غير طبقي بعد فترة مؤقتة من ديكتاتورية الطبقة العاملة. أما لينين Lenin فقدم مجموعة من الخطط الجسورة التي يمكن من خلالها تطبيق وتنفيذ هذا النظام. وقد نبّر على فكرة أن حزبًا شيوعيًا صغيرًا عالي التنظيم وعميق الولاء يمكنه أن يخترق المؤسسات الديمقراطية، مثل اتحادات العمال والحكومة، ثم ينتهز وقت أزمة أو حرب للقفز على السلطة. وقد استخدم ستالين هذا البرنامج بنجاح ونفّذه في الدولة الروسية.

ويؤمن ماركس وأتباعه "أنه بالخبز وحده يحيا الإنسان". وهم يتجاهلون خطية الإنسان، لأنها تفسد نظامهم المثالي، إلا إذا لجأوا إلى أساليب القمع الوحشية، وهو ما مارسته كل النظم الشيوعية في كل مكان. والشيوعيون يبالغون في تبسيط





المشاكل الإنسانية. ولا يوجد لديهم مكان لله، أو الكتاب المقدس أو المقاييس المطلقة في نظامهم الإجتماعي. ويصرون على القول بأن " الدين أفيون الشعوب". وبينما كان التركيز على أهمية العامل الإقتصادي عاملاً مساعدًا للمؤرخ، إلا أن التاريخ الحديث أظهر العداء العميق عند الماركسية تجاه كل الأشكال الدينية. وبينما لا يعتمد استمرار المسيحية والكنيسة على نظام سياسي أو اقتصادي معين، فإنه ينبغي أن نلاحظ أن الإشتراكية كما يمارسها الشيوعيون تجد صعوبة كبيرة في التعايش مع الكنيسة.

اجتمعت حركات نقد الكتاب المقدس، ونظرية داروين للتطور Evolution، وقوى أخرى اجتماعية وفكرية لتخلق الليبرالية الدينية في أواخر القرن التاسع عشر. وطبّق اللاهوتيون المتحررون مبادئ التطور على الدين باعتباره المفتاح الذي يمكن من خلاله تفسير ما حدث للدين من تطورات. وأصرّوا على استمرارية اختبار الإنسان الديني إلى درجة أصبحت المسيحية معها مجرد نتاج عملية تطور دينية بدلاً من كونها إعلانًا إلهيًا من الله بواسطة الكتاب المقدس والمسيح. فكان التركيز على الإختبار المسيحي أكثر بكثير من التركيز على اللاهوت. وحاربت القوى المسيحية هذه الأفكار كما أن الحركة التي ارتبطت باسم كارل بارت Karl Barth قاومت مختلف أشكال الليبرالية التحررية والإشتراكية.

## اقتراحات للقراءة


*Bales, James D.* Communism: Its Faith and Fallacies. *Grand Rapids: Baker, 1962.*

*Daniels, Robert V.* The Nature of Communism. *New York: Random, 1962.*

*Hoover, J. Edgar.* A Study of Communism. *New York: Holt, Rinehart, and Winston, 1962.*

*Kenyon, Frederick C.* The Text of the Greek Bible. *London: Duckworth, 1937. This work describes the mass of texts of the Greek Bible and clearly presents their general confirmation of the integrity of the text of the Bible.*

*Klotz, John W.* Genes, Genesis, and Evloution. *St. Louis: Concordia, 1955. This is discussed form a Christian perspective.*

*Nash, Henry S.* The History of Higher Criticism of the New Testament. *New York: Macmillan, 1906.*

*Vincent, Marvin R.* A History of the Textual Criticism of the New Testament. *New York: Macmillan, 1903.*

*Young, Edward J.* An Introduction to the Old Testament. *Grand Rapids: Eerdmans, 1949.*

## الفصل السابع والثلاثون

# الكنيسة الأمريكية في حقبة الصحوة القومية

مع حلول عام ١٧٨٩ كان تأثير الصحوة الكبرى Great Awakening قد انحسر بدرجة كبيرة وذلك بسبب أفكار مذهب الربوبية Deism التي أدخلها ضباط الجيش الانجليزي إلى المستعمرات في أمريكا خلال الحرب الفرنسية والهندية، وذلك بما أحضروه معهم من مطبوعات، وأيضًا بتأثير الثورة الفرنسية. وتمثل جامعة ييل Yale University مدى تدهور الروح الدينية لهذه الفترة. إذ صار عدد الطلبة الذين يشهدون أنهم تجددوا قليلاً. وانتشر بين الطلبة مختلف الشرور من مقامرة وسكر وعربدة، بل وكان بعضهم يتفاخر بالشر والخلاعة. أما الصحوة الثانية Second Awakening التي حسنت من هذه الصورة المحزنة فكانت الأولى في سلسلة النهضات التي حدثت خلال القرن التاسع عشر.

فمنذ الثورة الامريكية وحتى الحرب العالمية الأولى، تشكلت الحياة الدينية في الولايات المتحدة في قالب من البروتستانتية الريفية حيث كان المذهب البروتستانتي هو مذهب الغالبية. ولكن مع انتشار الكاثوليكية بسب الهجرة بعد الحرب الأهلية أصبحت البلاد تشمل عديداً من المذاهب بل مالت الحياة الدينية فيها إلى الدنيوية. ولم تعد البروتستانتية المذهب الأوحد الذي تمتعت به لفترة طويلة.

## ١- النهضة وجمعيات العمل التطوعي

في عام ١٧٨٧ بدأت حركة نهضة روحية في كلية صغيرة في فيرجينيا اسمها هامبدن سيدني Hampden-Sidney. وانتشرت هذه النهضة التي بدأت نتيجة اهتمام ثلاثة من الطلبة بحالتهم الروحية، لتصل إلى كلية واشنطن ومنها لتشمل الكنيسة المشيخية في كل أنحاء الجنوب الامريكي.

أما المرحلة التي شهدت النهضة بين الكنائس الاستقلالية في نيوانجلند فقد بدأت في جامعة ييل عام ١٨٠٢ تحت قيادة وتوجيه رئيس الجامعة تيموثي دوايت Timothy Dwight (١٧٥٢-١٨١٧) والذي تسببت عظاته في كنيسة الكلية والتي تميزت بعمق الدراسة ومهاجمة الفسوق والشر بين الطلبة والتركيز على أهمية الكتاب المقدس، في تغيير حالة عدم الأمانة بين الطلبة. وقد تجدد ما يقرب من ثلث عدد الطلبة خلال تلك النهضة، التي امتدت في وقت لاحق إلى دارتماوث، ووليامز وغيرهما من المعاهد والكليات. ثم حدث انتعاش أخر في جامعة ييل بعد ذلك بفترة.[١] وهكذا بدأت النهضة في الشرق الأمريكي من الجامعات والكليات.

وامتدت النهضة أيضاً وانتشرت في المناطق التي اقتحمها الرواد نحو الغرب وهي المناطق التي هاجرت إليها أعداد غفيرة من الناس. فقد كان ربع عدد السكان في أمريكا يعيشون خارج حدود الولايات الثلاث عشرة الأصلية مع حلول عام ١٨٢٠. أصبح الويسكي من اللعنات التي أصابت تلك المستعمرات الجديدة، وكان السبب وراء معظم المشكلات الاجتماعية والأخلاقية التي عانت منها هذه المناطق الجديدة. كان المشيخيون هم أكثر الكنائس فاعلية في نشر النهضة الروحية بل وروادها في كثير من المناطق وشهدت حركة المؤتمرات الكرازية Camp Meeting بدايتها بين المشيخيين من خلال خدمة جيمس ماكجريدي James McGready (١٧٥٨-١٨١٧ تقريباً). ومن أشهر هذه المخيمات الكرازية ذلك الذي عقد في كان ريدج في أغسطس ١٨٠١، والذي حضره عشرة آلاف شخص بحسب بعض التقديرات.(٢) وقد تميز هذا المخيم بحدوث بعض الظواهر الجسمانية الغريبة مثل السقوط على الأرض، الاهتزازات العنيفة، والتدحرج على الأرض، والرقص والعويل. ولكن مع ذلك لا يوجد أدنى شك في النتائج المرغوبة لهذه النهضة. وقد لمس تأثير هذه النهضة مناطق مثل كنتكي وتنيسي. وقد شهدت بواكير الحركة الانتعاشية ظواهر تتسم بالحيوية والحركة أكثر من الانتعاش الروحي الهادئ الذي أحدثه الوعظ الكتابي التقليدي في نيوانجلند.

وكما كان الحال في الصحوة الكبرى Great Awakening، فإن إحدى نتائج النهضة كانت الانقسامات داخل الكنائس. حدث الانقسام بين المشيخيين عندما قام مجمع كمبرلاند Cumberland Presbyterian Church برسامة أشخاص للخدمة دون حصولهم على المؤهلات الدراسية الملائمة وذلك لسد احتياج الخدمة في الكنائس التي تزايد عددها في تلك المناطق. وقد نتج عن هذا الانقسام تأسيس الكنيسة المسيحية في كمبرلاند في عام ١٨١٠. وقد جعل اهتمامها بالمخيمات والمؤتمرات الكرازية ونظام الدوائر الكرازية ومساندتها للنهضات واحدة من أقوى الكنائس الرائدة في المناطق الجديدة.

وحدث انقسام آخر بواسطة توماس كامبل Thomas Campbell (١٧٦٣-١٨٥٤)، من أصل ايرلندي-اسكتلندي وذهب إلى أمريكا في عام ١٨٠٧. وعندما رفضت كنيسته السماح له بممارسة فريضة العشاء الرباني لغير أعضاء جماعته، قرر أن يتحرر من التزامه الطائفي ويقدم تعليماً غير عقائدي ومؤسس على الكتاب المقدس. وسرعان ما أصبح له العديد من التابعين من بين المعمدانيين، وبعد وصول ابنه ألكسندر Alexander إلى أمريكا، نظم عدداً من الكنائس الاستقلالية التي مارست المعمودية بالتغطيس وبَشّرت على مجيء المسيح ثانية. وفي عام ١٨٣٠ انفصلت هذه الكنائس عن الكنيسة المعمدانية واشتهرت باسم "التلاميذ" Disciples. وفي عام ١٨٣٢ اتخذت جماعة التلاميذ مع المؤمنين من أتباع بارتون ستون Barton Stone (١٧٧٢-١٨٤٤)، وبذلك تكونت الكنيسة التي عرفت باسم كنيسة التلاميذ أو الكنيسة المسيحية Christian Church.

وقد ساعدت الصحوة الروحية الثانية Second Awakening بطريقة غير مباشرة على اجهاض قيام كنيسة التوحيديين Unitarian في نيوانجلند. وكانت أول كنيسة للتوحيديين في أمريكا قد تكونت





في عام ١٧٨٥ عندما صوت أعضاء الكنيسة المحلية في كينجز تشابل في بوسطن بالموافقة على حذف كل ذكر للثالوث من خدماتهم. ثم في عام ١٨٠٥ تم تعيين هنري وير Henry Ware لمنصب أستاذ اللاهوت في جامعة هارفارد بالرغم من آرائه التوحيدية. وتأسست كلية أندوفر للاهوت Andover Seminary في عام ١٨٠٨ كنوع من الاحتجاج على مثل هذا التعيين من قبل الأعضاء المحافظين في الكنائس الاستقلالية. وفي عام ١٨١٩ ألقى وليم تشاننج William Channing عظة في بلتيمور حيث طوّر فيها عقيدة وتعليم التوحيديين Unitarian.(٣) وأصبحت هذه العظة أساساً لإيمان أكثر من مئة كنيسة توحيدية سرعان ما ظهرت في بوسطن وكل أنحاء نيوانجلند.

وعارضت تلك الكنائس كل من المسيحية المحافظة من ناحية والحركة الانتعاشية من ناحية أخرى. وقد أعطت محكمة ماساتشوستس العليا في حكمها الصادر في قضية ديدهام Dedham Decision في عام ١٨٢٠، أعطت الحق لكل الناخبين في أي أبروشية بغض النظر عن مدى انتظامهم في حضور الكنيسة الحق في دعوة قسيس أو راعٍ للخدمة. تأسست الرابطة الامريكية للتوحيديين American Unitarian Association في عام ١٨٢٥ وكانت تضم في عضويتها ١٢٥ كنيسة محلية، وكانت تؤمن بصلاح الإنسان والخلاص بواسطة تربية وتثقيف الشخصية، ووحدانية الله، وطبيعة المسيح البشرية وحلول الله في القلب البشري. كانت النتيجة الرئيسية الثانية للنهضة هو تحسن المستوى الأخلاقي العام في مناطق حدوثها. فانحسرت موجة السكر والعربدة ليحل مكانها السلوك الذي يتميز بالتقوى والوقار، وكان ذلك بسبب زيادة عدد الميثوديين والمعمدانيين. وبالرغم من أن النهضة بدأت بين المشيخيين، إلا أن الميثوديين والمعمدانيين، اكتسبوا أتباعاً أكثر وذلك لأنهم لم يصروا على ضرورة التمسك بمستوى أكاديمي للخدمة كما أجادوا استخدام أسلوب المخيمات الكرازية بينما توقف المشيخيون عن استخدامه. فانضم أكثر من عشرة آلاف عضو جديد للمعمدانيين في كنتاكي في فترة ثلاث سنوات.

ومنذ ذلك الحين صار اجتماع الصلاة الذي يعقد في منتصف الأسبوع من الملامح الأساسية للمسيحية الأمريكية. وبدأت حركة مدارس الأحد Sunday School الأمريكية في نحو ذلك الوقت أيضاً. ومنذ عام ١٧٨٦ كانت مدارس الأحد تعقد في بيت في فيرجينيا Virginia، وفي عام ١٧٩٠ دخلت هذه الحركة إلى الكنائس في فيلادلفيا. ومنذ ذلك الحين أصبحت جزءاً أصيلاً من الحياة الدينية في أمريكا حيث أنها تتيح للكنيسة الفرصة لتعليم النشئ الحقائق الكتابية. وقد تدعمت جهود التعليم العالي بتأسيس أكثر من اثنتي عشرة كلية في الفترة ما بين ١٧٨٠-١٨٣٠ بواسطة المشيخيين والكنائس الاستقلالية وذلك لسد الاحتياج للأعداد المتزايدة من الخدام والقسوس المدربين. تأسست كلية أندوفر للاهوت Andover Seminary في عام ١٨٠٨ لمواجهة التهديد الذي كان يمثله التوحيديين Unitarianism في هارفارد. وسرعان ما تأسست كليات لاهوت أخرى مثل برنستون Princeton Seminary (١٨١٢)، أوبورن وبانجور.

كانت الجهود التبشيرية سواء في أمريكا نفسها أو خارجها، إحدى النتائج الأخرى للنهضة.

ويرجع تأسيس المجلس الأمريكي لدعم الإرساليات الخارجية American Board of Commissioners for Foreign Missions في عام ١٨١٠ جزئياً نتيجة لاجتماع الصلاة الذي قاده صموئيل ميلز Samuel Mills (١٧٨٣-١٨١٨)، معه مجموعة أخرى من الطلبة في كلية وليامز Williams College والذي عرف باسم The Haystack Prayer Meeting وفيما بعد، تم تشكيل مجالس مشابهة في الطوائف المختلفة تباعاً حتى أصبحت الجهود التبشيرية الأمريكية موجة عارمة في عام ١٩٠٠. وتزايد عدد الجمعيات التطوعية اللاطائفية والتي عملت في مجال الإرساليات، وتوزيع الكتاب المقدس، والأغراض الاجتماعية. وتأسست الجمعية الأمريكية لنشر النبذ American Tract Society في عام ١٨٢٥ لدعم هذه الجهود في أمريكا، كما نظمت جمعية الكتاب المقدس الامريكية American Bible Society في عام ١٨١٦. وبداية من أوائل القرن التاسع عشر، بدأ العديد من الطوائف في نشر مجلات دينية أسبوعية يقرأها أعضاء هذه الطوائف.

لم ينته الانتعاش الروحي بنهاية الصحوة الثانية Second Awakening فقد عرف جماهيرياً تشارلز ج فيني Charles G. Finney (١٧٩٢-١٨٧٥)، وهو محام كان قد تجدد في عام ١٨٢١، وذاع صيته كمبشر بعد حملته في مدينة روتشستر في ولاية نيويورك في عام ١٨٣٠ ، ١٨٣١. واستحدث فيني مقاييس جديدة للانتعاش الروحي تضمنت عقد الاجتماعات الممتدة، واستخدام اللغة العامية في الوعظ، عدم التقيد بالأوقات المعتادة للخدمات، وذكر أفراد بأسمائهم في الصلاة العامة أو الوعظ وتخصيص مكان يقصده من عنده سؤال يريد الإجابة عليه. وأصبح فيني راعياً في مدينة نيويورك لبعض الوقت ثم انتقل فيما بعد إلى مدينة أوبرلين Oberlin College في ولاية أوهايو. وفي عام ١٨٥١ أصبح فيني رئيساً لكلية أوبرلين حيث ألقى محاضراته عن النهضة واللاهوت النظامي مما كان له عظيم الأثر.

كما نمت حركة اجتماعات الصلاة اللاطائفية للعلمانيين في عامي ١٨٥٧ و ١٨٥٨ نتيجة اجتماعات الصلاة ظهراً والتي بدأها إرميا لانفير Jeremiah Lanphier في ٢٣ سبتمبر ١٨٥٧ في شارع فولتون في مدينة نيويورك وكان معه في ذلك الاجتماع ستة أشخاص. وفي غضون ستة أشهر بلغ عدد الحاضرين في اجتماعات الظهيرة للصلاة



*المبشر دوايت ل. مودي، الذي وإن كان لم يرتسم للخدمة، إلا أن الكثير من معاصريه يعتبرونه أكثر الخدام تأثيراً في الربع الأخير من القرن التاسع عشر.*





في مدينة نيويورك عشرة آلاف شخص. وفي بعض التقديرات بلغ عدد الذين انضموا إلى الكنائس نتيجة لتلك النهضة من ٥٠٠ ألف إلى مليون شخص، حيث فازت الكنيسة الميثودية باكبر عدد من هؤلاء الأعضاء الجدد. كانت لتلك النهضة حركات مناظرة مشابهة لها في ألستر وفي أجزاء أخرى من العالم. وفي عامي ١٨٦٣ و ١٨٦٤ انتشرت نيران النهضة بين قوات جيش الاتحاد المرابضة أمام ريتشموند. ويقال إن ١٥٠ ألف شخص قد تجددوا في تلك النهضة وتم تأسيس كنائس في ثكنات الجيش.

إلا أن طبيعة النهضة تغيرات بعد الحرب الأهلية الأمريكية. فبعد نجاح حملة دوايت ل. مودي Dwight L. Moody في الجزر البريطانية في الفترة من ١٨٧٣-١٨٧٥، أصبحت النهضة حملات جماهيرية ينظمها متخصصون في المدن الكبيرة، وتعقد في قاعات عامة كبرى وليس في الكنائس نفسها. وقد ساعد مودي في تنظيم جمعية شيكاغو للكرازة في عام ١٨٨٦، والتي تطور منها معهد مودي للدراسات الكتابية Moody Bible Institute في خريف عام ١٨٨٩. وجاء من بعد مودي في مجال استخدام هذه الأنماط المستحدثة في الكرازة رجال مثل رأوبين توري R. A.Torrey وجيبسي سميث Gypsy Smith وبيلي صنداي Billy Sunday. ومنذ عام ١٩٤٩ أصبح بيلي جراهام Billy Graham أشهر المبشرين في العالم.

## ٢- الإصلاح الاجتماعي

اهتمت الكنيسة في امريكا أيضاً بالإصلاح الاجتماعي خلال القرن التاسع عشر. كانت الحركة الانتعاشية قد أوجدت جواً عاماً من رفض الممارسات السائدة مثل المبارزات سواء بالسيف أو بالمسدسات. وكان الموت المأسوي للألكسندر هاميلتون Alexander Hamilton في مبارزة مع أرون بور Aaron Burr، مع ما أعقبه من حملة دعاية واسعة قام بها المنبر الكنسي أدت هذه الظروف إلى إصدار قانون بوقف هذه المبارزات. وساعد اهتمام الكنيسة بالإصلاح الاجتماعي تدريجيا على الغاء عقوبة السجن بسبب عدم الوفاء بالدين كما ساهمت في تحسن الأحوال في السجون وإصلاح شئونها الداخلية.

وأثناء القرن التاسع عشر وربما قبله أيضاً، اهتمت الكنيسة بمشكلة انتشار تعاطي الخمور. وفي عام ١٧٨٤ فند بنيامين رش Benjamin Rush النظرية القائلة بأن المسكرات لها فوائد للجسم الإنساني ودعا الكنائس لدعم ومساندة حركة تدعو للامتناع الكامل عن تناولها. وألزم الميثوديون، المعروفون باهتمامهم الكبير بالمشاكل الاجتماعية، أعضاء كنائسهم بالامتناع عن بيع أو شراء أو تعاطي الخمور والمسكرات. وسرعان ما تبعهم المشيخيون والاستقلاليون في هذا الطريق. ولم يمض وقت طويل حتى تكونت العديد من جمعيات الدعوة إلى الامتناع عن المسكرات ومقاومة مصالح منتجي الخمور وتجارها. وأهم هذه الجمعيات كانت "رابطة محاربة أماكن بيع الخمر" Anti-Saloon League التي تأسست عام ١٨٩٥، وهي عبارة عن اتحاد بين وكالات وجمعيات الدعوة للامتناع عن المسكرات. وبعد الحرب العالمية الأولى تحقق الناس من أن المسكرات سبب من أسباب انتشار العنف والجريمة، كما أنها خطر كبير على العمال مع

استخدام الآلات الحديثة في الصناعة. كما أن ٣٣ ولاية من بين الولايات المتحدة ساندت مجهودات رابطة الدعوة لمنع Prohibition المسكرات. أدت هذه العوامل جميعها لتبني التعديل الثامن عشر Eighteenth Amendment في عام ١٩١٩. ومن هذا التاريخ منعت الخمور في أمريكا وحتى تم التراجع عن هذا التعديل في عام ١٩٣٣.

وفي خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، أصبح نظام العبودية مشكلة خطيرة مما جعل الكنيسة تواجهه. فمنذ عام ١٧٦٩ بدأ بعض رجال الكونجرس من رود أيلند في مهاجمة نظام العبودية في محاولة منهم لتحسين ظروف العبيد في الفترة ما بين ١٧٢٩-١٨٣٠. وتصف يوميات جون وولمان John Woolman (١٧٥٦-٧٢) الجهود المخلصة التي قام بها ذلك الكويكري التقي لإقناع الآخرين بتحرير عبيدهم. ونحو عام ١٨٣٣ أصبحت كلية لاهوت Lane Seminary في سنسناتي مركزاً لحركة مناهضة للعبودية قادها أحد الطلبة ويدعى ثيودور ويلد Theodore Weld. وقد عملت هذه الحركة جاهدة على إلغاء نظام العبودية من عام ١٨٣١ إلى عام ١٨٦٠. وعندما حاولت إدارة الكلية وقف نشاط تلك الحركة، هجرها الطلبة وذهبوا إلى كلية أوبرلين. وتأسست الجمعية الأمريكية لمناهضة العبودية The American Anti-slavery Society في عام ١٨٣٣، وقد تأثرت بأفكار أشخاص مثل وليم ل. جاريسون William L.Garrison رئيس تحرير مجلة Liberator والشاعر جون جرينليف ويتير John Greenleaf Whittier والمربي جوناثان بلانكارد Johnathan Blanchard، والروائية هارييت بيتشر ستو Harriet Beecher Stowe مؤلفة رواية "كوخ العم توم"، نمت حركة دعاة إلغاء نظام العبودية بسرعة. وفي نفس الوقت تزايد اعتماد الجنوب على العمالة التي يمثلها العبيد في عمليات زراعة وإنتاج القطن التي تزايدت جداً بسبب زيادة عدد مصانع النسيج في نيوانجلند وانجلترا.

وقد أدت محاولات إنهاء العمل بنظام العبودية بواسطة الجدل والإقناع الديني إلى حدوث الانشقاقات في العديد من الطوائف. تأسست الكنيسة الوسلية الميثودية Wesleyan Methodist Church في عام ١٨٤٣ على أساس عدم قبول أعضاء يمتلكون عبيداً ضمن عضويتها وذلك بعد انسحاب العديد من الناس من الكنيسة الميثودية الأسقفية. وتم تنظيم مجمع للمعمدانيين في الجنوب في عام ١٨٤٥ بسبب معارضة المعمدانيين في الشمال لنظام العبودية.

وفي نفس العام تأسست الكنيسة الميثودية الأسقفية Methodist Episcopal Church في الجنوب وانشق أيضاً المشيخيون الجنوبيون سواء من المدرسة الجديدة أو القديمة في عام ١٨٥٧، وعام ١٨٦١ بعد خلافهم حول العبودية وبعض القضايا اللاهوتية وعادوا ليتحدوا لتكوين الكنيسة المشيخية في الولايات المتحدة Presbyterian Church in the United States في عام ١٨٦٤. والكنائس التي تكونت نتيجة لهذا الانشقاق حول موضوع العبودية، لم ترجع كلها لتتحد مع مثيلاتها في الشمال، بالرغم من المحاولات الوحدوية الإيجابية في الفترة الأخيرة. إلا أنه وبالرغم من هذه الانشقاقات، لابد وأن نتذكر أن الكنيسة واجهت قضية العبودية بضمير حي على اعتبار أنها مشكلة اجتماعية تحتاج إلى حل. وعندما بدأت الحرب





الأهلية، قامت الكنائس في كلا الجانبين بكل جهدها لتقديم العون اللازم للمحتاجين والذين في ضيقة. نعم أدى الاحتكام إلى السلاح أثناء الحرب الأهلية، وإقرار التعديل الدستوري الثالث عشر إلى إنهاء العمل بنظام العبودية، لكن استمرت ممارسات التمييز العنصري حتى عام ١٩٦٠.

## ٣- الطوائف والشيع في المدن والمناطق الأخرى

بالإضافة إلى الطوائف الجديدة مثل مشيخيي كمبرلاند Cumberland Presbyterians والتلاميذ Disciples، ظهرت بعض الشيع المهرطقة في المناطق غير الحضرية في أمريكا وأيضاً في المدن الأمريكية خلال القرن التاسع عشر. ظهر المورمون Mormons والسبتيون Adventists في المناطق الريفية، بينما ازدهرت جماعة العلم المسيحي Christian Science في المناطق الحضرية في مدن ولاية نيو انجلند.

إدعى جوزيف سميث Joseph Smith (١٨٠٥-٤٤) أنه في عام ١٨٢٧ وجد كتاباً مكوناً من صفائح ذهبية رقيقة، بعد أن حفر الأرض على تل بالقرب من بالميرا في ولاية نيويورك. وبعد أن قضى ثلاث سنوات في ترجمة هذه الصفائح الذهبية، نشر الكتاب في عام ١٨٣٠ على اعتبار أنه كتاب المورمون Mormon.[٤] وإذا انجذب إليه العديد من الأتباع، جعل سميث من كيرتلاند في أوهايو المركز الرئيسي للمنظمة الجديدة في الفترة ما بين ١٨٣١-١٨٣٧. ثم أصبحت بلدة إندبيندانس في ولاية ميسوري هي المركز الرئيسي حتى قام أهل الولاية بطرد المورمون منها في عام ١٨٣٩. فانتقلوا إلى نوفو في ولاية إلينوي، ولكنهم واجهوا هناك معارضة شديدة لنظام تعدد الزوجات الذي ادعى سميث أنه تلقى إعلاناً إلهياً بإقراره في عام ١٨٤٣.[٥] وأدت هذه المعارضة إلى قتل سميث نفسه على يد أعدائه في عام ١٨٤٤ وإلى هجرة المورمون بقيادة بريجام يونج Brigham Young (١٨٠١-١٨٧٧) إلى يوتا ما بين عام ١٨٤٦ وعام ١٨٤٨. ولاتزال مدينة سولت ليك هي مركز أكبر تجمع للمورمون.

تميز المورمون بنشاطهم التبشيري الكبير، مما جعل جهودهم في هذا المجال تثمر بانضمام الآلاف إليهم في كل أنحاء العالم. ويعرف هذا الكيان الذي يبلغ عدده ما يقرب من ثلاثة ملايين عضو باسم "كنيسة يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة" Church of Jesus Christ of Latter-Day Saints. وهناك جماعة أخرى منهم يبلغ عدد أعضائها حوالي ١٦٠ ألفاً تنكروا لمبدأ تعدد الزوجات، وكونوا بقيادة جوزيف سميث Joseph Smith ابن المؤسس الأصلي للحركة، منظمة قوية اتخذت من إندبندانس في ولاية ميسوري مركزاً رئيسياً لها. وتدعو هذه الجماعة نفسها "كنيسة يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة بعد إعادة تنظيمها" Reorganized Church of Jesus Christ of Latter-Day Saints. ويتطلع المورمون عموماً إلى مجتمع مثالي سيتحقق في المستقبل.

ويعتبر المورمون Mormons كتابهم (كتاب المورمون) مع الكتاب المقدس وحياً مقدساً. وهم يتطلعون نحو صهيون الأرضية ولا يعطون المسيح مكانه اللائق كرب ومخلص في فكرهم اللاهوتي.[٦] ويمارس المورمون معمودية الأحياء بالنيابة عن

الموتى. وكان تعدد الزوجات من الممارسات الشائعة بين المورمون وذلك حتى صدور قانون بتجريم هذه الممارسة، وكانوا ينظرون إليها باعتبارها وسيلة لضمان زيادة عدد ذريتهم في العالم المستقبلي.

تأسست جماعة السبتيين أو الأدفنتيست Seventh-Day Adventists على يد شخص يدعى وليم ميلر William Miller (١٧٨٢-١٨٤٩) الذي كان مزارعاً ودرس الكتاب المقدس باجتهاد. وعندما درس ميلر سفر دانيال وسفر الرؤيا اقتنع بأن المسيح سوف يعود مرة ثانية إلى الأرض بعد عودة عزرا إلى أورشليم عام ٤٥٧ ق.م بمدة ٢٣٠٠ سنة (دانيال ٨:١٤). وبذلك قام ميلر بعمل حساباته ليجزم أن المسيح سيأتي ثانية في عام ١٨٤٣. وقبل عدة آلاف من الناس فكرة ميلر وبدأوا يستعدون لمجئ المسيح. وعندما لم يأت المسيح كما توقعوا في عام ١٨٤٣ أو عام ١٨٤٤، واجه أتباع ميلر الاضطهاد الشديد في كنائسهم حتى إنهم خرجوا منها وكونوا لأنفسهم طائفة الأدفنتست في عام ١٨٦٠. وظهر فيما بعد شخص منهم اسمه هيرام إدسون Hiram Edson وحاول تفسير عدم ظهور المسيح كما كان متوقعاً في عام ١٨٤٣ أو ١٨٤٤ بنظرية تقول إن المسيح نزل فعلاً في تلك السنة ولكن إلى هيكل سماوي بدلاً من الهيكل الأرضي. وخلفت إلين وايت Ellen White (١٨٢٧-١٩١٥) ميلر في قيادة الحركة. ومع أنه توجد عدة طوائف للأدفنتست، إلا أن معظمهم يؤمنون بأن اليوم السابع (السبت) هو يوم الراحة الصحيح، وأن روح الإنسان تكون في حالة سبات ما بين الموت والقيامة، وأن الأشرار سوف يتم فناؤهم بالكامل. لكن على الرغم من ذلك تجدهم لا يختلفون كثيراً عن الإيمان القديم في معظم تعاليمهم.



*كان الناس يسخرون من أتباع وليم ميلر في بداية دعوته، ويصور هذا الرسم الواسع الانتشار وقد نشر في جريدة يومية واسعة الانتشار أحد أتباع ميلر وقد أمسك كلبه بملابس الانطلاق والصعود إلى السماء.*





وقد بدأت الحركة الروحانية Spiritualism في أمريكا في تلك الفترة. ففي عام ١٨٤٨ سمع كيت ومارجريت فوكس Kate and Margaret Fox أصواتاً وطرقات غريبة في غرفة نومهما في هايدسفيل في نيويورك. وقد اعترفت كل منهما بعد ذلك بسنوات بأن هذه الأصوات لم تكن سوى نتيجة لمزحة صبيانية. ولكنهما صارا بين ليلة وضحاها أصحاب بدعة مبهرة جذبت أتباعاً عديدين نظموا أنفسهم فيما بعد فيما أسموه "كنيسة الوسطاء الروحانيين". وكان هؤلاء الوسطاء الروحانيون يدّعون القدرة على الاتصال بأرواح الأشخاص الذين ماتوا. وقد وجدت هذه الدعاوي قبولا كبيراً بين أولئك الذين فقدوا أحباءهم بالموت، ولقيت رواجاً هائلا عقب الخسائر البشرية الكبيرة للحروب. وكان من بين الأتباع الذين قبلوا الروحانية باعتبارها ديناً أصيلا، بعض الشخصيات المرموقة مثل سر آرثر كانون دويل Sir Arthur Conan Doyle وإيلا هويلر ويلكوكس Ella Wheeler Wilcox.

كانت بدعة العلم المسيحي Christian Science التي ظهرت أولاً في بوسطن في فترة ما بعد الحرب الأهلية، من الطوائف التي تركزت في المدن وهي ذات نزعة فلسفية. كانت هذه البدعة وليدة أفكار وتخيلات سيدة متقلبة الشخصية تتميز بخيال خصب وتدعى ماري بيكر Mary Baker (١٨٢١-١٩١٠). فبعد موت زوجها الأول واسمه جلوفر، أصبحت تتعرض لنوبات هستيرية متزايدة. وفي عام ١٨٥٣ تزوجت مرة أخرى من شخص اسمه باترسون وكان يعمل طبيباً للإنسان لكنها حصلت على الطلاق منه في عام ١٨٧٣. ثم ما لبثت أن تزوجت شخصاً آخر اسمه إدي Eddy في عام ١٨٧٧. وكانت خلال كل هذه الخبرات الزوجية تلتمس مساعدة الأطباء لمواجهة حالتها العصابية. وفي عام ١٨٦٢ التقت بشخص اسمه ب.ب كويمبي P.P. Quimby الذي كانت يركز على امكانية الحصول على الشفاء بواسطة الإذعان العقلي (الفكري) للحق الذي يرفض قبول حقيقة المادة أو المرض. فاذاعت ماري بيكر أنها ممارسة متخصصة في هذا "العلم الجديد" الذي يبدو أنها تعلمته من مخطوطات كويمبي، وربحت ماري بيكر لنفسها عدداً كبيراً من الأتباع، الذين كانت تقدم لهم أسرار طريقتها في سلسلة من الدروس التي كانت تلقيها عليهم. وفي عام ١٨٧٥ نشرت كتابها المشهور "العلم والصحة" واتخذ هذا الكتاب مكانة مرموقة إلى جوار الكتاب المقدس في كل كنائس العلم المسيحي. وتم تأسيس رابطة العلماء المسيحيين في عام ١٨٧٦، وفي عام ١٨٧٩ تم تسجيل طائفتهم ككنيسة اسمها " The Church of Christ, Scientist وأصبحت الكنيسة الأولى التي أسست في مدينة بوسطن هي أرقى وأهم كنائسهم على الإطلاق وقد عرف عنها أنها الكنيسة الأم منذ عام ١٨٩٢.

أنكرت مسز إدي (ماري بيكر) حقيقة المادة أو الشر أو المرض وقالت إن هذه كلها ليست سوى تهيئات خادعة للحواس البشرية. الله هو الكل في الكل، وأن على الإنسان أن يدرك هويته مع الله وفي الصلاح ليتحرر من الشر والمرض.[٧] وكان هذا التعبير على الحصول على الشفاء سبباً في جعل هذه الحركة جذابة لأعداد كبيرة من المرضى. وتتشابه حركة الفكر الجديد New Thought وحركة الوحدة Unity في نظرتهما لمشاكل الصحة

والرفاهية، مع ما قالت به حركة العلم المسيحي فهم بلاشك مدينون بالكثير لماري بيكر إدي التي تدين هي بدورها إلى ب ب كويمبي.

## ٤- مشاكل التحضر

أدى تزايد اتجاه البلاد نحو التصنيع أثناء وبعد الحرب الأهلية، مع توسع الهجرة من جنوب وشرق أوربا فيما بعد عام ١٨٩٠ لتوفير العمالة غير الماهرة للمحالج والمناجم والمصانع المتكاثرة في أنحاء أمريكا، مما أدَّى إلى نمو مذهل للمدن الكبرى مثل شيكاغو وديترويت. وقد خلق مثل هذا النمو في المجتمعات الحضرية العديد من المشاكل الجديدة التي كان على الكنيسة في أمريكا مواجهتها والتصدى لها خلال القرن التاسع عشر. ومازالت هذه المشاكل تواجه الكنيسة في القرن العشرين. ففي الفترة ما بين ١٨٤٠-١٨٧٠ هاجر ما يزيد على مليوني شخص كاثوليكي من أيرلنده إلى الولايات المتحدة وما يقرب من مليوني ألماني كاثوليكي أيضًا.

وقد نزح عدد كبير من الشباب إلى المدن، فخسرت الكنائس في الريف عددًا كبيرًا من شبابها مما هدد بقاء تلك الكنائس. وغالبًا ما كان هذا الشباب النازح إلى المدن يهمل حياته الدينية ربما لأن الحياة في المدن أفقدتهم هويتهم أو أتاحت لهم مجتمعًا واسعًا لا يعرفهم فيه أحد. واستقر العمال من المهاجرين الجدد في مناطق شديدة الازدحام، بينما انتقلت الجماعات الوطنية إلى الضواحي واصطحبت معها كنائسها. ولأن معظم المهاجرين الجدد بعد عام ١٨٩٠ كانوا من الكاثوليك، فقد أثيرت مشكلة العلاقة ما بين الكنيسة الكاثوليكية والكنائس البروتستانتية التي كانت لها السيادة في المجتمع الأمريكي. أحضر المهاجرون الجدد معهم مفاهيم متساهلة فيما يتعلق بحفظ يوم الرب. وفي كثير من الحالات أنشأ النجاح المادي نوعًا من عدم المبالاة بالحياة الروحية وهو ما لا يمكن أن نصفه إلا بأنه ميل شديد نحو الدنيوية. وقد تدعم ميل حياة المدينة نحو الدنيوية بانتشار قبول أفكار نظرية التطور وكل ما يصاحب هذه النظرية من أيديولوجيات المذهب الطبيعي.

كانت مهمة الكنيسة في فترة ما بعد الحرب الأهلية هي التصدي للتحدي الذي تمثله هذه المشكلات. فمنذ عام ١٨٥٠ بدأت الكنيسة في إنشاء مراكز إغاثة اجتماعية في المدن وهي تهدف إلى سد الاحتياجات المادية والروحية للفئات الدنيا من مجتمع المدينة. افتتحت إرسالية واتر ستريت Water Street Mission في نيويورك في عام ١٨٧٢، وأصبحت من أشهر تلك المراكز بقيادة مؤسسها جيري ماكولي Jerry Mac Auley (١٨٣٩-٨٤)، الذي كانت قد تجددت حياته الشريرة تحت تأثير وعظة وخدمة أورڤيل جاردنر Orville Gardner في سينج سينج في عام ١٨٥٧. أما إرسالية باسيفيك جاردن Pacific Garden Mission في شيكاغو فقد فتحت أبوابها عام ١٨٧٧. وقد تميزت خدمة هذه المراكز التبشيرية بتقديم المعونات للأسر المعدمة، والمقاومة العنيفة للقمار والمسكرات وأماكن الفساد؛ والعناية العملية بالمنبوذين، والكرازة النشيطة لربح النفوس. كانت تلك هي العناصر الأساسية لخدمة هذه المراكز.

وفي عام ١٨٦٤ أصبح المركز التبشيري البروتستانتي في نيويورك هو ذراع الكنيسة لإنجاز





الخدمة الاجتماعية. فأقيمت الملاجئ والمستشفيات وبيوت المسنين ومراكز التبشير وغيرها من المؤسسات لسد احتياجات الفقراء والمشردين والمرضى. وظهرت جمعية الشبان المسيحية Young Men's Christian Association أولاً في بوسطن في عام ١٨٥١ لتلبية احتياجات الشباب الاجتماعية في المدن. وقد ازدهرت الحركة ونمت نموًا سريعًا إذ قدمت أماكن للإقامة والرياضة ودرس الكتاب المقدس والأنشطة الاجتماعية للشبان. أما جمعية الشابات المسيحيات Young Women's Christian Association فقد تم تنظيمها في عام ١٨٥٥ لتوفر نفس تلك الاحتياجات للشابات أيضًا في المدن. وقد أصبحت هاتان الحركتان مكانًا يمكن للمسيحيين من كل الطوائف التعاون من خلاله لتقديم الخدمة الاجتماعية. قام نوع آخر من المؤسسات الاجتماعية عرف باسم The Social Settelment ، ويعتبر Hull House في مدينة شيكاغو أقدمها، وقد تأسس هذا البيت، بقيادة جين آدامز Jane Addams. قامت تلك المؤسسات بعمل اجتماعي مشابه لما كانت تقوم به المؤسسة الكنسية، ولكنها لم تهتم كثيرًا بالتعليم والتثقيف الديني. فقد كان الدافع المحرك وراء هذه المؤسسات نزعة إنسانية اجتماعية بينما ظل دافع الكنيسة للعمل الاجتماعي دينيًا في أساسه.

كانت المؤسسة الكنسية Institutional Church هي الأخرى من ضمن الهيئات التي تصدت لتحديات مشاكل الحياة في المدن. ففي عام ١٨٧٢ كان توماس بيتشر Thomas Beecher (١٨٢٤-١٩٠٠) من كنيسة بارك في الميرا بنيويورك أحد رواد المؤسسة الكنسية. حاولت المؤسسة الكنسية أن توفر كافة الاحتياجات اللازمة لحياة الأفراد. وقد تأسست العديد من الكنائس على هذا النمط في مختلف الطوائف في فترة ما بعد الحرب الأهلية. وكانت أبنية تلك الكنائس تشمل صالات للألعاب الرياضية ومكتبات وعيادات وقاعات محاضرات وأماكن لدروس الخياطة والتفصيل وكل المرافق اللازمة لسد الاحتياجات المادية والاجتماعية والفكرية والروحية لأعضاء هذه الكنائس. وقد أصبحت كنيسة سان چورج الأسقفية في نيويورك Saint George's Episcopal Church بقيادة راعيها ويليام رينزفورد William Rainsford والدعم المادي الذي قدمة ج. ب. مورجان J.P. Morgan، مؤسسة كنسية متكاملة في عام ١٨٨٢ لكي تخدم الشعب في المنطقة المحيطة بها. وكانت مختلف أنماط الخدمة تُقدم في المبنى الملحق بالكنيسة. كما أقيمت جامعة تمبل Temple University في فيلادلفيا بعد تطورها من Russell H. Conwells Baptist Temple، ذلك بعد تبنيها خدمة المؤسسات في عام ١٨٩١.

نشأت المؤسسة الصناعية المعروفة باسم Goodwill Industries في كنيسة إدجار هيلمز Edgar Helms (١٨٣٦-١٩٤٢) في بوسطن بعد عام ١٩٠٠ بقليل، وقد كانت بمثابة محاولة لتوفير فرص عمل للفقراء والمسنين وذلك بتدريبهم على إصلاح وتجديد بعض الأدوات القديمة وإعادة بيعها مرة أخرى بأسعار زهيدة للمحتاجين. فتسدد بذلك حاجة المحتاجين إلى العمل وحاجة الغير قادرين على شراء الأشياء الجديدة في نفس الوقت. وكان هذا المشروع يتضمن أيضًا برامج للخدمة الروحية والاجتماعية. بدأت هذه الحركة في تنظيم نفسها في عام ١٩٠٥ ونمت لتشمل العديد من المصانع والمتاجر.

كان جيش الخلاص Salvation Army أيضاً من بين الهيئات التي عملت على سد الاحتياجات الاجتماعية إلى جانب الاحتياج الروحي لسكان المدن. وقد بدأ جيش الخلاص الخدمة في أمريكا بعد وقت قصير من تأسيسه في انجلترا. وتم ابتكار العديد من الأساليب الجديدة لتلبية الاحتياجات الملحة للفقراء والمحتاجين وكان من بين تلك الأساليب المستحدثة، الاجتماعات التي تعقد في الشوارع، ومراكز الخدمة الاجتماعية، بيوت الإيواء والحضانات وغيرها.

كان الإنجيل الاجتماعي بمثابة محاولة الوصول إلى أسباب الشرور التي حاول البعض الآخر مواجهتها بالأساليب السالف ذكرها. فكان الإحساس السائد هو أن المجهودات التي كانت تهدف لمعالجة وأعراض هذه الأمراض الاجتماعية الاقتصادية لم تكن كافية، وذلك لأنها لا تلمس الأسباب الحقيقة التي تؤدي إلى تلك الأعراض. بدأ تنظيم نقابات العمال وقوانين العمل كأحد الحلول العملية لمواجهة الرأسماليين الذين لم يكن يهمهم كثيراً مصالح المستهلك أو العامل في سعيهم الدؤوب نحو تحقيق الربح. بدأ المفكرون في إعادة دراسة تعاليم المسيح الاجتماعية وذلك لاكتشاف طريقة يمكن بها إصلاح أوضاع الظلم الاجتماعي. وقد بنى هؤلاء المفكرون أعمالهم على العقائد اللاهوتية عن أبوة الله، والإخاء بين البشر فتحول انتباه الكثيرين منهم من الاهتمام بخلاص الأفراد الأبدي إلى محاولة تطبيق تعاليم المسيحية على الأوضاع الاقتصادية في الدولة في محاولة منهم لتحقيق ملكوت الله على الأرض.

كان واشنطن جلادين Washington Gladden (١٨٣٦-١٩١٨) وهو قسيس كنيسة استقلالية في ولاية أوهايو، يؤكد على الحاجة لتطبيق مبادئ المسيح على النظام الاجتماعي بالاستعانة - إذا لزم الأمر - بقوة وسلطة الدولة نفسها للتدخل لتحقيق مصالح المجتمع ككل. ويصور الكتاب المشهور الذي كتبه تشارلز شيلدون Charles Sheldon (١٨٤٧-١٩٤٦) "في إثر خطواته" In His Steps وقد كتبه عام ١٨٩٦، ما الذي يمكن أن يحدث في المجتمع لو أن كل عضو فيه حاول أن يسلك كما كان يسلك في المسيح الحياة اليومية. كان والتر رانشنبوش Walter Rauschenbusch (١٨٦١-١٩١٨) راعياً معمدانياً ألمانياً، وكان يُعلم في كلية اللاهوت في روتشستر في الفترة ما بين ١٨٩٧-١٩١٧، وأصبح أبرز المعلمين الأمريكيين الذين نادوا بالإنجيل الاجتماعي وذلك نتيجة لدراساته للأخلاقيات الاجتماعية في الكتاب المقدس وقراءاته للمؤلفات التي تتحدث عن العالم المثالي.

وقد كتب كتابين، أحدهما عن تعميد النظام الاجتماعي Christianizing the Social Order (١٩١٢) والثاني عن لاهوت الإنجيل الاجتماعي (١٩١٧) وقد لاقى كل منهما انتشاراً واسعاً وساهما في نشر تعليم الإنجيل الاجتماعي. وكان يؤكد على أهمية ممارسة الديمقراطية الاقتصادية إلى جانب الديمقراطية السياسية باعتبارها الأسلوب الكفيل بتحقيق ملكوت الله على الأرض. كان يؤيد ويساند النقابات واتحادات العمال، ومبدأ التدخل الحكومي، وتبني نوعاً معتدلاً من الاشتراكية باعتبار هذه الأساليب هي التي يمكن أن تساعد على تحقيق الهدف المنشود. وكان يجادل على أساس أن العمل ليس سلعة ويقول إنه من حق





العمال أن يتفاوضوا ويساوموا صاحب العمل لتحقيق ساعات أفضل للعمل، وأجور أفضل، وظروف عمل أفضل. ونادى بالمشاركة في الأرباح باعتباره أسلوب جيد لتحقيق عائد منصف لجهود العامل في عمله. وكان يرفض المبدأ الرأسمالي الذي يفضل المنافسة على التعاون كأساس لعمل المجتمع. كانت كل هذه الآراء مبنية على أساس فكرة أن الكنيسة يجب أن تعمل على تحقيق ملكوت الله هنا على الأرض بدلا من الحديث عن ملكوت يتحقق في ألف سنة في المستقبل. كان لمبادئ الإنجيل الاجتماعي قبول واسع بين الكنائس التحررية في أوائل القرن الحالي. وكان مجلس الكنائس الفيدرالي The Fedral Council of Churches من أكثر الجهات دعماً وترويجاً لتلك المبادئ.

## ٥- الليبرالية اللاهوتية في امريكا

دخلت الليبرالية Liberalism إلى الكنائس الأمريكية في القرن التاسع عشر نتيجة لاجتماع عدة عوامل معاً. فمن ناحية نجد ظهور نظرية داروين للتطور، ومن ناحية أخرى نجد ظهور مدرسة النقد الكتابي على المشهد الأمريكي من خلال الطلبة اللاهوتيين الذين تلقوا علومهم في ألمانيا واسكتلندا على يد رجال مثل صموئيل ر. درايفر Samuel Driver، وأيضاً استيراد أفكار الفلسفة المثالية الألمانية. وقد سبق لنا الحديث عن الإنجيل الاجتماعي الذي نادى به رانشنبوش Ranschenbusch ، ولم يكن إلا تطبيق لمبادئ اللاهوت التحرري على مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية. وينادي اللاهوت التحرري بالتركيز على رسالة المسيح الأخلاقية باعتباره معلماً إنسانياً وأيضاً على مبدأ حلول الله في قلب الإنسان، فأصبح بذلك الاختبار البشري هو المقياس وليس الكلمة المقدسة. وكان الليبراليون على درجة عالية من الالتزام بالمنهج العلمي في البحث وبالقانون الطبيعي وذلك لتفسير المعجزات التي يذكرها الكتاب المقدس، ولكنهم كانوا يعارضون العقائد التي تتحدث عن الأشياء الخارقة للطبيعة، أو الخطية الأصلية، عمل المسيح الكفاري. وعكف الكثير من الخدام الذين تلقوا مثل هذا التعليم اللاهوتي المتحرر في كليات اللاهوت على ترويج هذه الأفكار من على منابر كنائسهم.

كان لليبرالية Liberalism تأثيرها على الحركة العظيمة التي شهدها التهذيب والتربية المسيحية في الكنائس وذلك من خلال جهود هوراس بوشنل Horace Bushnell (١٨٠٢-٧٦) الذي كان قسيساً للكنيسة الاستقلالية في هارتفورد. فبعد اتمامه لدراسة القانون تحول بوشنل للدراسات اللاهوتية. وفي عام ١٨٤٧ نشر كتابه "الطبيعة المسيحية" والذي نادى فيه بفكرة أنه ليس على الطفل إلا أن ينشأ وينمو في النعمة من خلال بيئة دينية ملائمة. كان بوشنل لا يؤمن بالخطية الأصلية بل وكان يتمسك بنظرية التأثير الأخلاقي للكفارة لذا كان لا يؤمن باختبار التجديد والنمو في النعمة كما تعلم به الكنيسة الإنجيلية. كان يريد للطفل أن ينمو على اعتباره مؤمناً مسيحياً، بحيث لا يعرف أي بديل آخر لكونه مسيحياً. وكان يركز على الحب الإلهي على حساب العدالة الإلهية وكان يقاوم الحركة الانتعاشية في أيامه مقاومة مريرة.

وقد أثرت هذه الأفكار على برامج التربية المسيحية في الكنيسة. وتم تطوير نوع من دروس

مدارس الأحد النمطية في عام ١٨٧٢ نتيجة لجهود جون هـ. فينسنت John Vincent (١٨٣٢-١٩٢٠)، وقد بدأ مع لويس ميللر Lewis Miller في عام ١٨٧٤ المدرسة المعروفة باسم Chautauqua لتدريب مدرسي مدارس الأحد. وأصبح التسلسل المرحلي لهذه الدروس جزءاً من هذا العمل بعد تبني فكرة التطور التقدمي للطفل في معرفته للحق المسيحي من أفكار بوشنل Bushnell. وتم تكوين اتحاد للتعليم الديني في عام ١٩٠٣ والذي تطور منه المجلس العالمي للتعليم الديني International Council of Religious Education في عام ١٩٢٢. إلا أنه للأسف وقعت هذه الحركة المخصصة لمبادئ التربية المسيحية كما نادى بها بوشنل تحت سيطرة التحرريين. وقد لاقت مثل هذه الهيئات الليبرالية المختلفة مع قادتها مقاومة شديدة من اللاهوتيين في كلية برنستون بقيادة أ. هودج A.A. Hodge (١٨٢٣-٨٦)، وغيرهم من القادة الإنجيليين.

## ٦- التعاون بين الطوائف والنشاط اللاطائفي

كان أحد الأنشطة الأخرى التي ميزت الكنائس الامريكية خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين هي تعاونها بعضها مع بعض في مختلف الجهود اللاطائفية أو التي تجمع الطوائف معاً. كانت اتحادات الشبان والشابات المسيحية Young Men's and Women's Christian Association من ثمار التعاون ما بين أشخاص من مختلف الطوائف لمواجهة الاحتياجات الاجتماعية الملحة في المجتمع الحضري الجديد في ذلك الوقت. وتعتبر خطة الوحدة Plan of Union التي أعلنت عام ١٨٠١، وأيضاً جمعية الكتاب المقدس الأمريكية American Bible Society في عام ١٨١٦ من الأمثلة الأخرى لثمار هذا التعاون.

في عام ١٨٨١ قام فرانسيس كلارك Francis Clark الذي كان قسيساً في بورتلاند في ولاية مين، بتنظيم أول جمعية مساعي مسيحية Christian Endeavor Society. وسرعان ما أصبحت هذه الجمعية هيئة لا طائفية تضم الشباب من كل الطوائف وتعبر عن اهتمامهم. ومع عام ١٨٨٦ كان عدد تلك الجمعيات يزيد على ٨٠٠ جمعية. وقد وفرت هذه الجمعيات تدريباً أخلاقياً واجتماعياً وروحياً للشباب. وأقيمت فيما بعد هيئات طائفية تعمل على نفس هذا النمط وذلك للحفاظ على هذه الخدمة قوية وفعالة في نطاق كل طائفة. وتعتبر رابطة Epworth League للكنائس الميثودية نموذجاً لهذا النمط من الهيئات. وأصبح اندماج Organic Reunion بعض الطوائف معاً شكلاً آخر من أشكال التعاون. وتعتبر إعادة اتحاد الكنيسة المشيخية في كمبرلاند Cumberland Presbyterian Church مع الكنيسة المشيخية الأمريكية في عام ١٩٠٦ مثلا للتعاون الكنسي المسكوني، وهناك مثل آخر في اندماج اتحاد الكنائس المصلحة البروسية مع الكنائس اللوثرية إثر ضغوط من الملك في عام ١٨١٧.

أما حركة الطلبة التطوعية Student Volunteer Movement والتي بدأت تحت رعاية مودي Moody في نورثفيلد في ولاية ماساتشوستس في عام ١٨٨٦، فقد وفرت إطاراً يجمع بين الطوائف بقيادة جون ر. موت John R. Mott (١٨٦٥-١٩٥٥) وذلك لتجنيد الشبان للعمل





المرسلي باستثارة اهتمامهم بحقول الإرساليات. وكانت هذه الهيئة قد نجحت مع حلول عام ١٩٤٥ في إرسال عشرين ألف وخمسمائة مرسل مبشر. وتعاونت الطوائف أيضاً في النشاط التبشيري المرسلي في إطار تعاونها معاً بعد تأسيس مؤتمر أمريكا الشمالية للإرساليات الخارجية Foreign Missions Conference في عام ١٨٩٣. وتأسست أيضاً حركة إرسالية بين العلمانيين Laymen's Missionary Movement لزيادة اهتمام العلمانيين بالخدمة التبشيرية وذلك في عام ١٩٠٦.[٨] كان صموئيل س. شماكر Samuel Schmucker (١٧٩٩-١٨٧٣) أستاذاً في كلية اللاهوت اللوثرية في جيتيسبورج وكان من أوائل الداعين إلى تضامن الكنيسة في عام ١٨٣٥ في كتابه "النداء الأخوي للكنائس الأمريكية". تضافرت عوامل زيادة الاهتمام بالمشاكل الاجتماعية الجديدة مع الحركة الليبرالية Liberalism في الفكر اللاهوتي، والرغبة في التعاون ما بين الطوائف المختلفة Interdenominational Cooperation والاتحاد بينها، لتؤدي إلى تأسيس المجلس الفيدرالي لكنائس المسيح Fedral Council of the Churches of Christ في أمريكا. وقد هيأ هذا المجلس فرص تحقيق التعاون ما بين الطوائف من خلاله باعتباره مجلساً يتكون من ممثلين للكنائس المستقلة. وفي عام ١٩٠٥ تمت صياغة دستور المجلس الفيدرالي في اجتماع عقد في قاعة كارينجي في نيويورك. وتم قبوله وإقراره من قبل ثلاث وثلاثين طائفة مختلفة في اجتماع عقد في فيلادلفيا في عام ١٩٠٨.[٩] ويقدم هذا مثلا لجهود التضامن.

وظل المجلس الفيدرالي Federal Council يهتم على الدوام بالمشكلات الاجتماعية وبتطبيق مبادئ المسيحية الأخلاقية للوصول إلى حلول لتلك المشكلات. ولكنه للأسف وقع تحت سيطرة قيادات تحررية (ليبرالية) وبدا في بعض الأوقات أنه يؤيد المبدأ الاشتراكي القائل بسيطرة الدولة على جميع وسائل الإنتاج باعتباره الصورة المثالية للنظام الاقتصادي.

يكشف استعراض تاريخ الكنيسة في أمريكا في الفترة ما بين ١٧٨٩-١٩١٤ مقدار تنوع المشكلات وتعدد الحلول التي تبنتها الكنيسة لمواجهتها. ولعله من المؤسف أن نلاحظ أن بعض الكنائس في محاولتها مواجهة هذه المشكلات اتخذت مواقف معادية لتعاليم الكتاب المقدس.

## اقتراحات للقراءة

تغطي القراءات المقترحة للفصل الثاني والثلاثين الفترة التي نوقشت في هذا الفصل أيضاً.

*Anderson, Courtney.* Federal Street Pastor. *New York: Bookman, 1961. This is a helpful biography of W.E. Channing.*

———. To the Golden Shore. *Boston: Little, 1856. This is a biography of Judson.*

*Atkins, Gaius G.* Religion in Our Times. *New York: Round Table, 1932. Although written*

## الفصل الثامن والثلاثون

# الكنيسة والنظام الاجتماعي

يبدو القرن العشرون منذ عام ١٩١٤ في عيني شخص أوربي عاش في الفترة ما بين الثورة الفرنسية ونابليون Napoleon والحرب العالمية الأولى، وكأنه عالم فوضوي. فلابد أن ينزعج من اضطراب الشئون الدولية وعدم الأمان الذي يشعر به الناس من جهة الأمور الاقتصادية. ولابد أن تصبح الأصوات الدينية العديدة التي تصارع وتنافس المسيحية التاريخية مصدراً للقلق الديني الشديد بالنسبة لذلك الشخص.

وقد حدث كل هذا بسبب ما أحدثته الفترة ما بين ١٩١٤-١٩٤٥ من تغييرات جذرية في العالم فاقت ما واجهته أوربا في حقبة الصراع الأيديولوجي الديني في حرب الثلاثين عاماً Thirty Years' War. فقد اجتاز العالم حربين عالميتين تميزتا بكونهما شملتا كل الكرة الأرضية في صراع شامل لا ارتباط له بمصالح الشعوب أو الافراد ويغلب عليه الطابع الآلي الرهيب، مما سبب خسائر في الأرواح والممتلكات في كل أنحاء أوربا. وقد تم القضاء على الإمبراطوريات الألمانية والتركية والروسية والنمساوية واستبدلت جميعها إما بأنظمة ديمقراطية أو أخرى شمولية. وأفل نجم أوربا من على مسرح الأحداث الدولية حيث احتل مكانها القوتان العظميان، الولايات المتحدة وروسيا. بل ويمكن أيضاً أن تعتبر الصين الشيوعية والعالم العربي بما يملكه من بترول نوعاً من التهديد للتوازن ما بين تلك القوتين. وقد حل محل الديمقراطية أنظمة شمولية فيما يقرب من ثلثي شعوب العالم.

وبدت القومية السياسية وكأنها تروج للاستقلال الإقليمي الاقتصادي بدلاً من السعي لتحقيق التعاون الدولي الذي ظهرت بوادره بعد الحربين العالميتين. وكان العالم العربي بزيادته السكانية الكبيرة، وصحوته الإسلامية، وبسيطرته على ما يزيد عن ثلاثة أرباع الاحتياطي العالمي من البترول يمثل تهديداً صريحاً بكارثة اقتصادية لو أنه قرر منع البترول عن الغرب. وتزايد النفوذ الدنيوي في الدول الإقليمية الوطنية National State التي ساندت إعادة البناء في أوربا. ففي الولايات المتحدة تبنت الدولة موقفاً محايداً من الدين كما عرفه قرار المحكمة العليا، كما تبنت الدول الشمولية -سواء أكانت يمينية أم يسارية - اتجاهاً عدائياً تجاه الدين وصل في بعض الأماكن إلى حد الاضطهاد الصريح المتسم بالعنف.

كان على الكنيسة المسيحية في كل أنحاء

العالم أن تتواكب بمجهوداتها التبشيرية الممتدة مع تزايد التحرشات من قبل الدولة ضد ما اعتبرته الكنيسة قبلاً من ضمن حقوقها وامتيازاتها إلى جانب كونه من ضمن مسئولياتها تجاه العالم. وقد جاء هذا النمو في نفوذ الدولة الدنيوية واتساع مجال عملها نتيجة مباشرة لزيادة التشريعات الخاصة بالشئون الاجتماعية. وترجع بدايات مثل هذه التشريعات إلى ما حدث في انجلترا عندما اضطرت الدولة إلى تقديم العون للرهبان الذين نزعت عنهم ملكية أديرتهم عندما صدر الأمر بحل هذه الأديرة في عام ١٥٣٩م. أجبرت الدولة على رعاية أولئك الذين كانت الكنيسة تقوم على خدمتهم سابقًا من خلال الأعمال الخيرية التي كان يقوم بها الرهبان.

وقد أجبر النفوذ السياسي المتزايد للعمال البرلمان على إقرار التشريعات التي ترعى مصالحهم وتحقق لهم المكاسب، وأدّى تطبيق هذه التشريعات إلى تزايد نفوذ الدولة. وقد استلزم الدخول في حربين عالميتين تجنيد وتسخير كل الموارد البشرية والمادية التي تملكها الدول لتحقيق الانتصار في الحرب. إلا أن هذه السلطات الاستثنائية التي كانت ضرورة حتمية في وقت الحرب، امتد العمل بها في فترة ما بعد الحرب أيضًا. فلم تعد الدولة الدنيوية الشمولية التي تملك كل شئ تحت تصرفها، تحتمل وجود أي معارضة أو تسمح بأي انقسام في ولاء مواطنيها. وأصبح التهديد الذي تمثله الدولة الدنيوية للدين، والذي يصل في بعض الأحيان إلى حد الأنشطة المعادية للأديان هو أحد أكبر المشكلات الخارجية التي تواجهها الكنيسة الآن.

## ١- الكنيسة تجتاز حربين عالميتين وتواجه الثورات

قامت خلال القرن التاسع عشر وفي بداية القرن العشرين حركات عنيفة تنادي بفكرة تحقيق السلام العالمي. وقد ساعد على ترويج هذه الميول للعمل على تحقيق السلام العالمي، تأكيد حركات مثل اللاهوت المتحرر والإنجيل الاجتماعي Social Gospel على فكرة أن الله أب للجميع وأن كل البشر إخوة. كما ألقت الحركات المسالمة بثقلها خلف حركة السلام. فقد ساعدت الجمعية الامريكية للسلام American Peace Society (١٨٢٨) على توحيد العديد من جمعيات السلام التي انتشرت في الولايات المختلفة في كيان قومي أكبر يعمل لتحقيق السلام العالمي. وأدانت الجمعية أي شكل من أشكال الحرب فيما عدا حرب الدفاع عن النفس، وساندت وأيدت مفاوضات عقد المعاهدات والتحكيم حتى تتمكن الدول من حسم خلافاتها سلميًا. ومع حلول عام ١٩١٤ كانت وزارة الخارجية الأمريكية قد تفاوضت لعقد ما يقرب من خمسين معاهدة من هذا النوع. وقد انعقدت مؤتمرات دولية للسلام تدعمها الكنائس أساسًا. وظلت تعقد سنويًا منذ انعقادها لأول مرة في باريس عام ١٨٨٩ وحتى عام ١٩١٣. ومن أبرز مؤتمرات السلام التي انعقدت مؤتمر في هيج في هولندا في عام ١٨٩٩ والذي تأسست فيه محكمة دولية للتحكيم في النزاعات الدولية. ثم في عام ١٩١٠ تأسست جائزة كارينجي للسلام الدولي Carnegie Endowment for International Peace التي أسسها أندرو كارنيجي Andrew Carnegie.

ونجد عرضاً موجزًا لموقف الكنيسة كتبه





أحدهم في مقال نشر في ٧ مايو ١٨٩٨ في مجلة أوت لوك، حيث كتب يقول، إن على الكنيسة بعد أن حددت مدى مشروعية الحرب، مسئوليات تتلخص في تدعيم وتقوية الروح المعنوية في البلاد والمساعدة على تخفيف معاناة المتضررين والعمل على منع الانحدار الخلقي الذي يتفشى بعد الحروب.

إلا أن هذا التفاؤل الشديد من جهة السلام قد أصابه نوع من الإحباط عند نشوب الحرب العالمية الأولى في ١٩١٤، لكن الكنائس الأمريكية ساندت إعلان الرئيس ويلسون بأن أمريكا تقف على الحياد. وأدانوا ألمانيا وحلفاءها على اعتبار أنهم هم المسئولون عن نشوب هذه الحرب، لكنهم رأوا أيضًا وفي نفس الوقت أن الوضع العام في أوربا سواء من جهة انغماس المجتمع في الإباحية ومحبة المال أو إهمال القيم الروحية قد ساهم في التعجيل بنشوب تلك الحرب. وبالرغم من الجهود التي قدمتها أمريكا للمتضررين من ضحايا الحرب في أوربا، والتي تم تقديمها بدافع الشفقة والتعاطف من خلال مؤسسة مثل الصليب الأحمر، إلا أن أمريكا ظلت معزولة عن الحرب بل وعن السلام الذي حل بعدها.

وعندما تزايد تفسير أبواق الدعاية للحرب بتعبيرات روحية، وذلك بتصويرها حربًا مقدسة دفاعًا عن الحضارة المسيحية التي تحاول الشعوب الجرمانية تدميرها، بدأت توجهات الراي العام في الأوساط الدينية تتغير تدريجيًا. وقد أظهر استطلاع للرأي أجري بين القسوس المشيخيين الأمريكيين في عام ١٩١٦ أن الأغلبية العظمى منهم تحبذ الاتجاه نحو التسليح بهدف الدفاع عن النفس. وساد الرأي بأن أمريكا القوية ستكون أقدر على المساعدة على نشر الديمقراطية عندما يتحقق السلام. ومع بداية عام ١٩١٧ كانت الكنائس قد بدأت في وضع علم الولايات المتحدة في الكنائس جنبًا إلى جنب مع الرايات المسيحية التي تعبر عن توجهاتهم الطائفية بل كانوا يعطون لعلم الدولة مكان الصدارة والتوقير.

ساندت الكنائس إعلان الرئيس الدخول في الحرب في ربيع عام ١٩١٧ وسعت بكل وسيلة ممكنة لمساعدة الدولة على كسب الحرب. وسرعان ما تغيرت مشاعر واتجاهات رفض الحرب والحفاظ على الحياد لتصبح حماسًا وتأييدًا مطلقًا للحرب من جهة الكنائس Church in World War I، الأمر الذي جعل منها حليفًا كاملاً للدولة في هذه الحرب. بل كان بعض رجال الكنيسة البارزين يعطون بركتهم على الأسلحة التي خرج بها الجنود إلى الحرب باعتبار تلك الاسلحة الوسائل التي سوف تحقق ملكوت الله. وقدمت الكنائس من رجالها قسوسًا يخرجون لرعاية القوات المحارية التي كان يتم تجميعها في كل مكان. وكانت الكنائس تدعم الصليب الأحمر بتقدمات مالية كما اشتركت معها في بعض الأعمال مثل تجهيز الأربطة اللازمة. واشترك العديد من الوعاظ في تشجيع الشباب على الانضمام للجيش وذلك باستخدامهم المنابر لشرح الطبيعة الدينية للحرب في أوربا. بل إن بعض القسوس كانوا يبيعون سندات تدعيم الحرب في كنائسهم. وساهم البعض الآخر في نشر الدعايات المبالغ فيها حتى إن أحد القسوس المعروفين دأب على وصف الجنود الألمان بأنهم "أفاعي سامة". كما منعت حتى الموسيقى الكلاسيكية التي ألفها موسيقيون ألمان أثناء الحرب. وكان معارضو الحرب أو المدافعون عن حرية التعبير يتعرضون للهجوم

لأنهم تجرأوا على معارضة الجهود الحربية. وباختصار باركت الكنيسة الحرب Church in World War I وساندتها على اعتبار أنها حرب مقدسة.

ولكن بعد فشل الدول في إقرار السلام والحفاظ عليه بعد الحرب العالمية الأولى، ونمو التوجهات القومية، ورفض الدول الأوربية الاعتراف بديونها للولايات المتحدة وامتناعها عن ردها، هذا إلى جانب ما كشفه تقرير لجنة ناي Nye Committtee في عام ١٩٣٥ عن مبيعات السلاح أثناء الحرب، بعد هذا كله ونتيجة له شعرت الكنائس في أمريكا بالخديعة والإحباط من جهة الحرب، وأصبح الكثيرون من القسوس المتحررين ومن أعضاء الكنائس من معارضي الحروب واستخدام العنف. وفي استطلاع للرأي أجرى في عام ١٩٣١، أعلن أكثر من ١٢ ألف من بين ما يقرب من ٢٠ ألف خادم من مختلف الطوائف في أمريكا اشتركوا في هذا الاستطلاع بأن الكنيسة لا ينبغي أن تدعم أو ترعى أي حرب في المستقبل. إلا أن الكنائس الأمريكية لم تهمل مسئوليتها تجاه تقديم العون لكنائس أوربا التي تأثرت اقتصادياً بسبب الحرب، وتم تقديم مبالغ ضخمة خصصت للإغاثة وإعادة التعمير. وقد ساندت الكنائس أيضاً جهود نزع السلاح وإقرار عدم مشروعية الحرب في الفترة ما بين ١٩١٩-١٩٣٩م.

وحتى قبل الحرب العالمية الثانية أجبرت الكنائس التي عاشت تحت أنظمة شمولية في بلاد مثل ألمانيا النازية على التزام الصمت الكامل تجاه الشئون السياسية واقتصر نشاطها واهتمامها على الرسالة الروحية المسيحية، وعلى توفيق التعاليم الشمولية مع الإيمان المسيحي. وكان على الكنائس إما أن تفعل ذلك أو تختار أن تعارض الدولة الشمولية وتقبل أن تدفع الثمن فيما ستواجهه من اضطهادات. وقد اختار العديد من رجال الكنيسة الألمان بقيادة نيمولر Martim Niemöller الاحتمال الثاني وعانوا كثيراً نتيجة للموقف الذي اتخذوه. وأصبح المؤمنون في تلك البلاد في موقف يجعلهم يُقدرون بحق ما اجتازت فيه الكنيسة الأولى من اضطهادات على يد الدولة الرومانية في بداية عهد المسيحية.

وقد واجه بعض القادة المسيحيين الألمان صعوبات حقيقية بسبب معارضتهم للنظام النازي، فقد أعدم ديتريش بونهوفر Dietrich Bonhoeffer كما سُجن نيمولر. وأجبرت الكنائس في اليابان على الدخول في الاتحاد الذي عُرف باسم Kyodan في عام ١٩٤١. والتزمت الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا بمساندة الحرب وتأييدها. وعندما جاءت الحرب العالمية الثانية كانت الكنائس Church in World War II في البلدان الديمقراطية أكثر حرصاً وتحفظاً في موقفها من الحرب عما كانت عليه إبان الحرب الأولى في ١٩١٤. فلم تكن هناك أي محاولة - مثل التي جرت في عام ١٩١٤- لتصوير هذه الحرب على أنها "حرب مقدسة". وقاومت الكنيسة الدعوة لكراهية العدو والعديد من المسيحيين الذين عاشوا في بلاد مثل النرويج وهولندا التي احتلتهما قوات المحور، عانوا الصعوبات من أجل إيمانهم. ووقفت الكنائس موقفاً مؤيداً لبعض معارضي الحرب وذلك خلافاً لما حدث أثناء الحرب العالمية الأولى وكان الدعم الذي قُدم للحرب مبني على فكرة الحفاظ على وجود الأمة وليس على أي هدف مثالي آخر. وقد حافظت





الكنيسة المسيحية طوال فترة الحرب على الشعور بالوحدة الذي يجمع كل المسيحيين بغض النظر عن الجانب الذي ينتمون إليه من بين الأطراف المتحاربة. وفي نهاية الحرب تعهدت الطوائف البروتستانتية الرئيسية في أمريكا بجمع ما يزيد على مائة مليون دولار تخصص لبرامج الإغاثة وإعادة بناء الكنائس التي دمرتها الحرب في أوربا.

وعلى الرغم من أن الكنيسة خلال الحرب العالمية الثانية لم تسلم ضميرها بالكامل للدولة كما فعلت في الحرب العالمية الأولى بإقرارها أن الحرب ما هي إلا مهمة مقدسة Church in World War I، لكنها احتفظت هذه المرة لنفسها بالوحدة اللازمة بين كل المؤمنين في كل مكان وقاومت الميل الطبيعي لبغضة العدو الذي يسود المجتمع في زمن الحرب، وفي نفس الوقت أعدت الكنيسة القسوس الذين يخرجون مع الوحدات المقاتلة واستمرت بحماس في جهودها لدعم هيئة الصليب الأحمر. كما ساهمت الكنيسة Church in Past-World War II أيضاً بجهود أكبر في خدمة المحتاجين والمتضررين طوال الحرب، وأيضاً في جهود إعادة تعمير الكنائس في الفترة التي أعقبت الحرب. ساعد جون فوستر دالاس Foster Dulles في تنسيق وتجميع جهود الكنائس الأمريكية مع وزارة الخارجية الأمريكية في وضع خطة لإقرار السلام العادل. فقد كانت الكنيسة تنظر لكل من الحرب العالمية الثانية والحرب الكورية باعتبارها "مجرد" حروب. ومن المعروف أن الكثيرين من رجال الكنائس كان لهم موقف معارض لاشتراك أمريكا في حرب فيتنام.

## ٢- التوتر بين الكنيسة والدولة

### أ- في الدول الديمقراطية

بينما لم تواجه الكنيسة أي اضطهاد شديد أو استشهاد في الدول الديمقراطية، إلا أن العلاقات ما بين الكنيسة والدولة شهدت نوعاً من التوتر في كثير من الأحيان نتج عن تزايد اتجاه تلك الحكومات نحو الدنيوية، واتجاه الحكومات لفرض مزيد من الضرائب والضوابط مما يؤثر تأثيراً مباشراً على سيطرة الحكومات على الأفراد وقد تطورت أنماط من الانفصال بين الكنيسة والدولة Separation of Church and State.

١- اتبعت الولايات المتحدة نمطاً من السياسات التي تبني "الجدار الفاصل" مبنياً على قرارات المحكمة العليا حول التعديل الأول للدستور، والذي يقضي بعدم وجود ما يسمى بالكنيسة الرسمية أو أي ترتيب يمكن أن يهدد حرية الممارسة الدينية. وأيضاً البند السابع الذي يمنع عقد أي اختبارات دينية للمرشحين للوظائف أو المناصب العامة.

وقد تم صياغة مبدأ "الجدار الفاصل" وإعلانه لأول مرة في عام ١٨٧٩ في القضية التي رفعها رينولدز ضد حكومة الولايات المتحدة Reynolds v. The United States، حيث قضت المحكمة العليا به بشرط ألا تؤدي حرية الممارسة الدينية إلى أي عمل يمكن أن يعكر صفو المصلحة العامة أو يتعارض معها. وفي القضية المعروفة باسم "كانتويل ضد ولاية كونيتيكت" Cantwell v. Connecticut والتي عرضت عام ١٩٤٠، صدر الحكم بإعلان المحكمة بأن الولايات المتحدة ليست مخولة تحت

التعديل الرابع عشر للدستور لسن أي قانون يتعارض مع التعديل الأول للدستور. وفي عام ١٩٤٧ في القضية المعروفة باسم "إفرسون ضد إدارة التعليم" Everson v. Board of Eduction، قضت المحكمة العليا بأن استخدام الأموال العامة في تغطية مصاريف انتقال طلبة اللاهوت لا يعتبر نقضًا لمبدأ "جدار الفصل". وقضت أيضًا بعدم جواز استخدام مرافق مدارس الدولة أثناء ساعات الدراسة لتدريس الدين الذي يقوم به رجال الكنيسة وذلك في حكمها الصادر عام ١٩٤٨ في القضية المعروفة باسم "ماكولم ضد إدارة التعليم" McCollum v. Board of Eduction. بل إن المحكمة رفضت السماح بالقراءات الكتابية الاختيارية التي تقرها الولاية وذلك في عام ١٩٦٣ في قضية "تشمب ضد إدارة ابينجتون التعليمية" Schemp v. School District of Abington Case. وأيضًا تم منع عقد الصلوات العامة في المدارس والتي كانت الولاية قد سمحت بها وذلك في عام ١٩٦٢ في قضية "إنجل ضد فيتال" Engel v. Vitale. وإذ منعت هذه القرارات والأحكام وجود الكنيسة الرسمية إلا أنها أيضًا جعلت الولاية والإدارة التعليمية تلتزم موقف الحياد الكامل مما نتج عنه وجود فراغ أخلاقي في المؤسسات التعليمية مما فتح الطريق أمام تعاليم مخالفة بل ومعادية لتعاليم الكتاب المقدس.

٢- اتبعت الحكومات في ألمانيا وانجلترا والدول الاسكندنافية نمطًا مختلفًا اتحدت فيه الكنيسة مع الدولة باعتماد الكنيسة الرسمية واتباع سياسة التسامح مع الطوائف الأخرى المنشقة أو المستقلة. فيجب أن تقر الدولة كل تعيينات القيادات الكنسية وأي تغيير في معايير أو مقاييس الإيمان. وقد أصبح ذلك واضحًا في عام ١٩٢٨ عندما أراد قادة الكنيسة في انجلترا مراجعة وتنقيح كتاب الصلوات العامة الذي تستخدمه في العبادة لكن الحكومة رفضت الموافقة على ذلك. ومع أن كندا ليس لديها كنيسة رسمية معتمدة، إلا أنه تم تخصيص أرصدة خاصة من الأموال العامة في إقليم كيوبك الكندي لتدعيم المدارس الكاثوليكية والبروتستانتية على أساس نسبة تمثيل تلك الطوائف في عدد السكان.

### ب- في الدول الشمولية

لا ينبغي أن ننسى أن الثورات التي شهدها القرنان السابع عشر والثامن عشر سواء في انجلترا أو فرنسا أو في المستعمرات في أمريكا كانت ذات توجه ديمقراطي مسالم يهدف إلى إرجاع السلطة للشعب الذي كان يملكها فعلاً من قبل في ظل أنظمة زراعية بسيطة. وكانت الدولة محدودة بالدستور وبنظام تعدد الأحزاب يستطيع الشعب من خلاله وبواسطة الانتخاب اختيار الحزب الذي ينادي بأفضل السياسات. فكان وجود وثيقة بالحقوق الأساسية وحكومة ملتزمة بتطبيق مبدأ سيادة القانون يوفر للفرد الحرية في ممارسة معتقداته الدينية الخاصة واختيار النمط المناسب لحياته الاجتماعية.

وبينما مثلت سياسات مثل التجنيد أو التبرع الإلزامي، وتوزيع المواد الغذائية بالحصص وفرض الدفاع عن المجتمع على أعضائه، والتي تطبق في أزمنة الحرب، نوعًا من الضغوط على المواطنين حتى في الدول الديمقراطية، إلا أن الدولة في الأنظمة الشمولية Totalitarian التي ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى - سواء كانت يمينية أو





يسارية- كانت تقدم نفسها باعتبارها صاحبة السلطة الشرعية الوحيدة. كانت مثل تلك الحكومات تتطلع إلى المستقبل يحدوها أمل تحقيق مجتمع فاضل على أساس عرقي أو توسعي يكون تحت قيادة شخص واحد أو نخبة متميزة يكون لها حق سن القوانين بدون أي ضوابط. كما يحكم حزب واحد لا حدود لسلطانه، تدعمه سيطرة على الجماهير بواسطة الدعاية وأجهزة الأمن السرية، ويتخذ من تحقيق مصلحة الدولة هدفًا له. لم يكن هناك تمييز بين الحقوق العامة والحقوق الخاصة، ولم تكن هناك أي وثيقة لإعلان الحقوق الأساسية للمواطنين. بل وتم حظر حتى الملكية الإنتاجية الخاصة في الأنظمة اليسارية Left Totalitarianism. ومارست الأنظمة اليسارية مثل تلك التي حكمت الصين وروسيا وكوبا سياسات أكثر عنفًا وتصلبًا ضد الكنيسة مما مارسته الأنظمة الشمولية اليمينية Right Totalitarianism كتلك التي حكمت ألمانيا وإيطاليا حيث قل عدد من استشهدوا فيها.

ولم يقاوم العالم الديمقراطي الحر الشيوعية ذات التوجه القومي مثل تلك التي في يوغسلافيا ولا الحكومات اليمينية في أمريكا الجنوبية بقدر ما قاوم الشيوعية الدولية العدائية التي سادت روسيا، أو العنصرية اليمينية التي مارسها هتلر Adolf Hitler في ألمانيا، وذلك لأنهما تهددان السلام والاستقرار في العالم. وقد أدت مثل هذه المقاومة إلى الحرب العالمية الثانية وإلى نشوب الحرب الباردة.

وقد خسرت الكنيسة الكاثوليكية التابعة لروما خسائر فادحة في كل أنحاء العالم ما عدا في اسبانيا والبرتغال وإقليم كويبك في كندا وفي الولايات الأمريكية المتحدة. فقد تسببت الديكتاتورية النازية في ألمانيا في إضعاف الكنيسة الكاثوليكية في تلك البلاد وذلك بالرغم من توقيع الاتفاقية البابوية في عام ١٩٣٣. وقد أزالت الثورة الشيوعية التي قامت في عام ١٩١٧ أي تأثير للكنيسة الكاثوليكية Communism and Roman Catholicism في بعض أجزاء روسيا.

وقد أدى استيلاء روسيا ومنذ عام ١٩٣٩، سواء بالضم أو الإخضاع، على الدول التي أصبحت تسير في فلكها مثل أستونيا ولاتفيا وليتوانيا، وتشكوسلوفاكيا وبولندا والمجر وبلغاريا ورومانيا وكوبا، وسيادة الشيوعية الحالية على الصين، أدى هذا كله إلى وقوع اضطهادات شديدة على قيادات الكنيسة الكاثوليكية في محاولة لتخليص الشعب من سيطرة وتأثير هذه القيادات. وقد هجر المثقفون في كثير من بلدان أمريكا الجنوبية الكنيسة واصبحوا غير مهتمين بالدين ولا يبالون به. وكان العمال والفلاحون يثورون ضد الاستغلال الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الذي تعرضوا له عبر القرون. ولأن الكنيسة الكاثوليكية ارتبطت في أذهان الشعب بالحكام ورجال الدولة، فإن الشعب قد ينقلب عليها عندما تزداد ثقافته ويرى أنها انحازت ضده لصالح المستغلين الذين كانوا سبب معاناته. وإذ رغبت الحكومة الوطنية في المكسيك في تحقيق ارتفاع في المستوى الاقتصادي لحياة شعبها لجأت إلى الحد من سلطان ونفوذ الكنيسة الكاثوليكية وسعت إلى إلغاء نفوذها السياسي في المجتمع. ويبدو أن الكنيسة الكاثوليكية تفقد احتكارها المطلق للحياة الدينية والذي استمر لقرون طويلة في أمريكا اللاتينية. لكن

العديد من الكهنة صاروا يؤيدون بل وينادون بالعنف الذي عادة ما يكون ذا توجه يساري، ويطالبون بالتغيير الثوري على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي بغية رفع المعاناة والظلم.

تسعى الكنيسة الكاثوليكية على سبيل التعويض لفقدانها تابعيها التقليديين إلى تقوية موقفها في الولايات المتحدة وغيرها من البلدان الديمقراطية التي ربما تستطيع الاعتماد على مساعدتها ودعمها. فالكنيسة تعرف أن الولايات المتحدة تأخذ على عاتقها الآن مسئولية حفظ النظام والاستقرار في العالم. فإن محاولة الفاتيكان إقناع أمريكا بإرسال سفير لها إلى الفاتيكان وأيضًا زيادة عدد الكرادلة من الأمريكيين في العديد من الاجتماعات الهامة في الآونة الأخيرة يبدو أنه يهدف إلى كسب تأييد الأوساط الكاثوليكية في أمريكا.

وقد جرت محاولة في بداية الأربعينات لدفع وزارة الخارجية الأمريكية إلى الامتناع عن منح جوازات سفر للمبشرين البروتستانت الذين يسعون للذهاب إلى بلدان أمريكا الجنوبية بزعم أنهم يمثلون تهديدًا لسياسة حسن الجوار التي تنتهجها الحكومة معهم. إلا أن هذا التحرك تمت هزيمته وإيقافه بجهود مكثفة قام بها البروتستانت. وتظهر قوة ونفوذ الكنيسة الكاثوليكية في الولايات المتحدة في الطريقة التي تجنبت بها صناعة السينما في هوليود إثارة الخصومة مع الجمعية الكاثوليكية للحفاظ على القيم وذلك عندما تعترض الجمعية على أفلام إباحية أو معادية للكاثوليكية. ونادرًا ما تظهر أي دعاية مناوئة للكنيسة الكاثوليكية في الصحافة الأمريكية بل على العكس تقوم قطاعات كثيرة من الصحافة بنشر دعاية إيجابية عن الكنيسة الكاثوليكية تفوق في الواقع الثقل الذي تمثله نسبة الكاثوليك بين السكان. وتنتشر أكثر من ٢٠٠ كلية ومدرسة ومثلها من الكليات والمعاهد اللاهوتية الكاثوليكية في كل أنحاء الولايات المتحدة. وقد دأبت الكنيسة الكاثوليكية في الولايات المتحدة وفي غيرها من البلاد على دعم وتأييد القوى العاملة أكثر مما فعلت الكنائس البروتستانتية.

وقد أصرّت الكنيسة الكاثوليكية على الدوام أنها تمثل السلطة الأخيرة في أمور الدين والأخلاق من خلال الآراء التي يدلي بها بابا روما حول هذه الأمور. كما تمسكت بحقها الذي ادعته لنفسها بأن كوادر كهنوتها الذي يرأسه البابا تستطيع أن تمنح أو تمنع الخلاص بواسطة الأسرار المقدسة التي لا يقدر أحد سوى الكهنة على إتاحتها للشعب. وهذا النظام الرئاسي السلطوي الكهنوتي في صلب طبيعته له توجه شمولي فيما يطالب به أتباعه والشعب الخاضع له. فهناك الافتراض المثالي بأن الولاء للبابا ينبغي أن يسبق أي ولاء آخر، لكن الكاثوليك في بلدان مثل الولايات المتحدة قد عدّلوا مثل هذا الموقف ليتناسب مع الواقع العملي. وقد سبب الإصرار على أسبقية الولاء للكنيسة الكثير من الاضطهادات التي وقعت على الكنيسة الكاثوليكية في البلدان الشمولية. ولأن الأنظمة الشمولية تتخذ أساسًا موقفًا معاديًا للدين وبينما تتوقع روما أن تكون الدولة الأخرى صديقة على الأقل، أصبح التعايش السلمي ما بين الكنيسة الكاثوليكية وهذه الدول الشمولية مشكلة. ولهذا السبب استخدم البابا كل سلاح ممكن ومتاح له استخدامه ضد الشيوعية الشمولية Totalitarian، كما سعى أيضًا إلى الحصول على دعم ومساندة الدول الديمقراطية.





١- ينبغي أن ندرك أن معاداة الكاثوليكية للأنظمة الشمولية اليمينية Right Totalitarianism ليس عداء للشمولية في حد ذاتها، لأنه حيثما اعترفت الدولة بحقوق البابوية، تعاونت البابوية مع هذه الدولة بالرغم من كونها شمولية. ويمكن أن نتبين هذه الحقيقة من التاريخ الحديث للبابوية في إيطاليا. فبعد أن ضمت الدولة الإيطالية الأملاك البابوية ومدينة روما إلى الأمة الإيطالية في عام ١٨٧٠، حدد البابا بيوس التاسع Pope Pius 9th إقامته باختياره داخل الفاتيكان ومنع الكاثوليك من التعاون مع النظام الملكي الديمقراطي في إيطاليا سواء بالتصويت في الانتخابات أو بالترشيح للمناصب العامة. وظلت البابوية على هذه الموقف المتصلب حتى عام ١٩٢٩ عندما تم توقيع اتفاقية مع الدكتاتور موسوليني Mussolini عرفت باسم اتفاقية لاتيران Lateran Accord حيث بدأت الكنيسة في التساهل مع الدولة الإيطالية. وقد سمح موسوليني للبابا بيوس الحادي عشر Pope Pius 11th بإقامة دولة الفاتيكان الجديدة وبالحق في إرسال سفراء له لدى الدول وقبول اعتماد سفراء الدول لدى الفاتيكان، كما اعترف أيضًا بأن المذهب الكاثوليكي هو "الدين الوحيد" للدولة. وفي مقابل ذلك سمحت البابوية لرعايا الكنيسة بمساندة النظام الشمولي الحاكم. وقد أيدت البابوية أيضًا نظام الدكتاتور فرانكو Franco في أسبانيا ونظام سالازار Salazar في البرتغال. بل ووقعت ميثاق اتفاق مع هتلر Concordat with Hitler في ألمانيا في عام ١٩٣٣. ومن الثابت أن البابا انتقد ما يحدث في هذين البلدين في خطبه ومنشوراته الكنسية، ولكنه لم يعترض على محاولات الألمان إبادة الشعب اليهودي.

وقد تدخلت بعض الدكتاتوريات اليمينية الصغيرة إلى جانب الأخرى الأكبر منها في الحياة الدينية للبروتستانت. فبينما ضمن هتلر Hitler في اتفاقه مع البابا في عام ١٩٣٣ استقلالية الكنيسة وحرية الكاثوليك في ممارسة شعائرهم الدينية، إلا أنه لم يكن لديه نفس هذا الكرم تجاه البروتستانت بعد عام ١٩٣٣. فقد أقام النظام النازي في عام ١٩٣٣ الكنيسة الإنجيلية الألمانية "للمسيحيين الألمان" وعين شخصًا اسمه لودفيج مولر Ludwig Muller أسقفًا عليها فاعترضت الكنيسة الألمانية المعترفة بقيادة رجال مثل كارل بارت Karl Barth ومارتن نيمولر Martin Niemöller وديتريش بنهوفر Dietrich Bonhoeffer وأصدرت في مايو ١٩٣٤ بيانًا أو إعلانًا عرف باسم "إعلان بارمن". وكان هذا الإعلان في مجمله من تأليف كارل بارت. وأعاد هذا الإعلان تأكيد سلطان المسيح في الكنيسة وسلطان الكتاب المقدس باعتباره الدستور للإيمان والحياة وأعلن رفض قبول إدعاء الدولة بأن لها السيادة على الحياة الدينية. وقد تم سجن نيمولر إلى ما بعد نهاية الحرب. وقد اضطهد هتلر اليهود أيضًا وجعل منهم كبش فداء لكل المشاكل والصعوبات التي واجهتها ألمانيا. فشرع في تنفيذ سياسة مدبرة لإفناء هذا الجنس كله، وأقام معسكرات اعتقال لإعدام اليهود حرقًا في بولندا وأماكن أخرى حيث قتل زبانيته ما يقرب من ستة ملايين يهودي. ويمثل هذا العدد ما يقرب من ثلث تعداد اليهود في العالم. ولم يدرك العالم بشاعة تطبيق هذه السياسة إلا بعد أن اقتحمت قوات الحلفاء تلك المعسكرات.

وقد عانى البروتستانت والكاثوليك في الدول الدكتاتورية الأصغر أيضًا. فقد أجبرت الكنائس

البروتستانتية في اليابان على الاتحاد فيما يسمى كيودان Kyodan في عام ١٩٤١ بواسطة الحكومة اليابانية. وقتل رئيس أساقفة أوغندا على يد رجال عيدي أمين Idi Amin، وأصبح أساقفة من أوغندا مثل الأسقف فستو كيفنجري Festo Kivengere ومعه آخرون من اللاجئين وقد تسببت الصحوة التي حدثت في تشاد للديانة الوثنية القديمة التي تدعى "يوندو" في وقوع الاضطهاد على الكنيسة الذي استمر حتى إزاحة الدكتاتور من الحكم. واختبر مسيحيون كثيرون حول العالم ما اجتاز فيه المؤمنون الأوائل في الدولة الرومانية في أيام ديسيوس ودقلديانوس.

٢- اضطهدت الشيوعية اليسارية الشمولية Left Totalitarian الكنيسة بقدر أكبر وقد واجه الكثيرون من المؤمنين في تلك البلاد الموت والسجن والتعذيب البشع من أجل إيمانهم. وتمثل الشيوعية تهديدًا عظيمًا على المسيحية المنظمة مثلها مثل الحرب أو الوباء الحديث الذي يتخذ شكل المادية والدنيوية والذي يوصف بالحضارة في الغرب. وتكمن خطورة الشيوعية في أنها عقيدة أو دين مادي ذات منظور عالمي وتدعي بأنها تملك الحلول الوحيدة لمشكلات الحضارة الحديثة. وقد أظهر اجتياحها للصين في عام ١٩٤٩ مقدار ما تمثله من شر. وتوجد أكبر الأحزاب الشيوعية في البلاد الحرة في إيطاليا وفرنسا. وقد حكمت الشيوعية بالانتخاب لفترة قصيرة في شيلي. وتسيطر الشيوعية على ثلث سكان العالم.*

وتتخذ الشيوعية موقفها العدائي من المسيحية بسبب الإلحاد المادي الذي يقف وراء فلسفتها. فبالنسبة لأي شخص ماركسي فإن الدين لا يعدو كونه "أفيون" تدمن عليه الشعوب المظلومة المستغلة لأنه يجعلها ترضى بحياتها الحاضرة بكل قسوتها على أمل الحياة الفضلى فيما بعد الموت. وقد اتخذت الشيوعية الروسية Communism in Russia موقفها العدائي من الدين لأن الكنيسة الروسية الأرثوذكسية في أيام حكم القياصرة ارتبطت بالسياسات الظالمة للدولة. وعندما دمر الشيوعيون دولة القياصرة، حاولوا تدمير الكنيسة الأرثوذكسية أيضًا لأنهم اعتبروها جزءًا من النظام الذي كرهوه. ولأن الشيوعيين في روسيا، وعن طريق الجهاز الحكومي وجهود ما يزيد عن ثمانية ملايين عضو في الحزب الشيوعي، استطاعوا أن يسيطروا على ما يزيد عن ٢٠٠ مليون روسي لتحقيق أهدافهم الخاصة، فإن اتجاه وموقف هؤلاء الشيوعيين من الكنيسة التي تمثل النظام الديني للمجتمع يكتسب أهمية خاصة. ففي عام ١٩١٧ كان أكثر من مائة مليون شخص في روسيا ينتمون للكنيسة الأرثوذكسية والتي كان يسيطر عليها نظام كهنوتي بيروقراطي يتمتع بالثراء.

استولى الشيوعيون على السلطة في ثورة نوفمبر ١٩١٧، ومنذ ذلك الحين وحتى بداية ١٩٢٣ هاجموا الكنيسة مباشرة، وذلك على الرغم من تأكيد دستور ١٩١٨ على مبدأ حرية نشر الدعاية الدينية والدعاية المعادية للدين على قدم المساواة. وفي عام ١٩١٧ تمت مصادرة أملاك الكنيسة الأرثوذكسية وأصبحت مملوكة للدولة دون تقديم أي تعويضات للكنيسة. وسمحت الدولة باستخدام الكنائس في

* كتب المؤلف هذا الكلام قبل انحلال النظام الشيوعي الذي حدث أخيرًا (المحرر)





العبادة فقط. ففقدت الكنيسة بهذه الطريقة كل وسائل دعمها المادي. وحرمت الدولة رجال الكنيسة والرهبان من كل الامتيازات التي كانت لهم بل وحتى من امتياز وحقوق المواطن العادي الأمر الذي كان يعني استحالة حصولهم على فرص عمل أو على بطاقات التموين التي تعطي لهم حق الحصول على الطعام. وتم حظر أي نوع من التعليم الديني في المدارس، وسمح فقط بهذا النوع من التعليم في معاهد اللاهوت التي يدرس فيها البالغون الدراسات اللاهوتية فقط. وأصبح إجراء مراسم الزواج من اختصاص موظفي الدولة. لكنهم سمحوا للكنيسة أن تنتخب البطريرك الروسي بعد أن كانوا قد حرموها من ذلك أيضًا.

إلا أن الفشل الاقتصادي للتجربة الشيوعية المحضة في عام ١٩٢١ أجبر الدولة على إعادة بعض مظاهر الرأسمالية لكي تستمر عملية الانتاج. وقد ساعد ذلك أيضًا على إحداث نوع من التغيير في سياسة الدولة تجاه الدين. فاستبدلت الدولة سياسة الهجوم المباشر على الكنيسة في عام ١٩٢٣ بسياسة تعتمد على دعاية تستهدف التقليل من شأن الأديان والحط من شأنها. فكانت تنظم الكرنفالات المعادية للدين حيث يتم السخرية من الأدوات التي تستخدم في العبادة. وتم تشكيل رابطة من الملحدين المسلحين League of Militant Atheists في عام ١٩٢٥ عهد إليها بمهمة نشر وتوزيع الدعاية الإلحادية.

لم تنجح هذه السياسات التي عمدت إلى السخرية من الدين وإلى نشر الدعاية الإلحادية والتي استمرت من ١٩٢٣-١٩٢٧، فتبنت الحكومة الروسية برنامجًا تضمن محاولة خنق الثقافة المسيحية، والهجوم المباشر، والتعليم المعادي للدين. وتم تنفيذ هذه السياسة في الفترة ما بين ١٩٢٨ إلى ١٩٣٩. فالكنائس القليلة التي كانت ما زالت باقية لم يسمح لها إلا بعقد اجتماعات العبادة فقط وحظر عليها القيام بأي محاولة لممارسة حقها في التعليم أو محاولة إقناع الآخرين برسالتها. وفي عام ١٩٢٩ تم إغلاق ما يزيد عن ١٤٠٠ كنيسة حيث استخدمت الدولة مبانيها للمنفعة العامة. وفي الفترة من ١٩٢٠-١٩٤٠ جعلت الحكومة يوم الراحة كل ستة أيام ولم يكن يسمح لأي فرد أن يذهب إلى الكنيسة إلا عندما يتوافق يوم الأحد مع يوم الراحة السادس الذي فرضته الحكومة. وتم تعديل دستور الدولة في عام ١٩٢٩ لإتاحة "حرية عقد الخدمات الدينية وحرية نشر الدعاية المعادية للأديان". وكان معنى ذلك أن أي محاولة لربح آخرين للمسيحية تعتبر من الأنشطة المحظورة، وذلك في الوقت الذي أعطي الإلحاد الحق الكامل في إقناع البالغين وتدريس الإلحاد للصغار في المدارس.

فشل الإلحاد العنيف في اقتلاع المسيحية، واستمر الإصرار على الإيمان بالله الذي عبر عنه ما يقرب من نصف عدد الشعب الروسي في التعداد الذي تم في عام ١٩٣٧، هذا إلى جانب أن الوضع الدولي الذي تتهدده نذر الحرب، فرض على الحكومة الشيوعية نوعًا من الانسحاب الاستراتيجي فيما بعد عام ١٩٣٩. فأعيد فتح الكنائس، وتوقف عقد الكرنفالات المعادية للأديان، وتوقف تدريس الإلحاد في المدارس. وفي عام ١٩٤٣ تم السماح للبطريرك سرجيوس أن يستأنف القيام بمهامه كبطريرك لموسكو وكل روسيا. وأعيد العمل مرة أخرى بالأسبوع الذي يتضمن سبعة أيام، وسُمح لمعاهد اللاهوت أن يعاد فتحها، وتحررت الكنيسة

الأرثوذكسية من الكثير من المحظورات التي أرهقتها. كانت الحكومة ترى أن مثل هذه التنازلات كانت تصرفات حكيمة من قبلها عندما هبت الكنيسة لمساندة الحكومة عندما غزا الألمان أراضي روسيا في عام ١٩٤١. وبذا كان أقصى ما وصلت إليه الكنيسة في روسيا هو تحقق قدر من التعايش بينها وبين الحكومة وليس حرية دينية كاملة.

خرجت الشيوعية الروسية Russian Communism من الحرب العالمية الثانية وقد أضيف إليها إضافات ضخمة جديدة لمناطق نفوذها في أوربا واسيا. فقد دخلت جمهوريات البلطيق الثلاث وبولندا وتشكوسلوفاكيا والمجر ورومانيا وبلغاريا تحت السيطرة الشيوعية. وفي كل من هذه الدول واجهت الكنيسة اضطهادات عديدة. وكانت تلك الاضطهادات تلقي مساندة من الشعب في بعض الأحيان وذلك لأن رجال الكنيسة في تلك البلدان كانت لهم سمعة سيئة بسبب الاشتراك في الظلم الذي عانى منه الشعب. بل وحتى أنماط الشيوعية الوطنية مثل شيوعية يوغوسلافيا بقيادة المارشال تيتو اضطهدت هي الأخرى الكنيسة. وقد عانت الكنيسة في الصين من الاضطهاد الذي مارسته السلطات الشيوعية ضدها.

قاومت الكنيسة الكاثوليكية الشيوعية Communism and Roman Catholic Church بكل قوتها. انتقد البابا بيوس الحادي عشر Pope Pius 11th الشيوعية في الوثيقة البابوية المعروفة باسم Divini Redemptoris التي صدرت في عام ١٩٣٧ كما انتقد النازية أيضاً في نفس العام في وثيقة أخرى معروفة باسم Mit brennender Sorge. لكن مع مرور الزمن يبدو أن الكنيسة الكاثوليكية كيفت نفسها مع الأنظمة الشيوعية وذلك عندما سمحت للشعب في بولندا أن يصوت لصالح انتخاب جومولكا الشيوعي رئيساً للدولة التي يمثل الكاثوليك ٨٠٪ من عدد سكانها. بل إن البابا نفسه استقبل في مناسبة معينة زوج ابنة خروشوف في الفاتيكان. ولم تتضمن وثائق مؤتمر الفاتيكان الثاني Vatican 2nd أي إدانة للشيوعية. فكانت القاعدة أنه حيثما يترك القادة والحكام للكنيسة الكاثوليكية حرية العمل والخدمة بين شعبها، بدت الكنيسة مستعدة للتعاون مع هذه الدكتاتوريات سواء كانت يمينية أو يسارية.

ولم تكن أحوال البروتستانت في أي من الدول الشيوعية أحسن من غيرهم. ففي البداية سعت الأنظمة إلى ما بدا أنه سياسة تعاون مع الكنائس، مثلما حدث في الصين، وحرّضت الحكومة الكنائس على قطع روابطها مع العالم "الإمبريالي" وأدت حركة مثل حركة "مبادئ الاستقلال الثلاثة" Three Self Movement في الصين والتي بدت وكأنها تحافظ على حرية الكنيسة واستقلالها، أدّت إلى استيلاء الحكومة على ممتلكات الكنيسة وإلى حظر تداول الكتب المقدسة ومنع التعليم الديني. وظهر بعض البروتستانت مثل هرومادكا في تشيكوسلوفاكيا ينادون بأن الخضوع والتعاون مع الدولة ما هو إلا إطاعة لوصايا الإنجيل وكانوا يشجعون على عقد حوار ما بين المسيحيين والشيوعيين. إلا أن الشيوعية بكل ما مارسته من قمع لم تستطع القضاء على الدين، حيث مازال الدين هو مصدر الراحة لملايين في الصين وروسيا وبلدان أخرى خلف ما كان يُسمى بالستار الحديدي.





ويجب أن يدرك العالم المسيحي طبيعة الشيوعية باعتبارها نوعاً من العقيدة السياسية وذلك عن طريق دراسة أفكارها بحيث يتاح للشعب المسيحي تمييز الفرق ما بين الحق وأكاذيب الدعاية الشيوعية. فعلى الكنيسة أن تساند كل التدابير التي يمكن أن تؤدي إلى القضاء على الشرور التي ساعدت على خلق أفكار الشيوعية. فالشيوعية تنمو وتزدهر في المجتمعات التي يتفشى فيها الفقروالمعاناة وهنا تسرع الشيوعية بتقديم وعودها بانها قادرة على تخليص الناس منها. ويجب ألا تسمح الكنيسة لنفسها أن تصبح في يد أي جماعة معينة وتوافق أو تشجع اي ممارسات خاطئة في المجتمع الذي تعيش فيه. وبينما تدرك الكنيسة أن أفضل وضع ممكن أن تنمو فيه هو المجتمع الحر الديمقراطي، إلا أنها ينبغي أن تحرص على تقديم الإنجيل سواء بالكرازة أو الحياة العملية بدلاً من أن تسمح لنفسها أن ترتبط بأي نظام اقتصادي أو سياسي معين. وأهم من كل شئ فإن إدراك الكنيسة أن تحقيق مستوى من الالتزام الشخصي بالحياة المسيحية الحقيقية لدى أعضائها، مهما كان وضعهم في المجتمع، هو أكثر الحلول فاعلية في مواجهة خطر الشيوعية أو الدولة الدنيوية.

## ٣- القومية العرقية والدينية

ساندت الكنائس في الولايات المتحدة جهود تحرير السود من العبودية Slavery وذلك من خلال التعديل الثالث عشر للدستور الأمريكي الذي أقر في عام ١٨٦٣، ولكنهم لم يبالوا بمشكلة التفرقة العنصرية التي حدثت في القرن التالي. فقد تطور الوعي بين السود بقيام هيئة الـ NAACP of في عام ١٩٠٦م. لقد طالب السود بتحسين ظروفهم الاجتماعية والاقتصادية وبإنهاء العمل بسياسة التفرقة العنصرية. وفي عام ١٩٤٩ أصدر الرئيس ترومان قراراً بمنع التفرقة العنصرية في القوات المسلحة أو في الخدمات المدنية. وقد أعلنت المحكمة العليا في حكمها الصادر في قضية براون ضد إدارة التعليم Brown v. The Board of Education في عام ١٩٥٤ نهاية العمل لنظام المدارس المخصصة للسود أو البيض دون غيرهم وأقرت بذلك مبدأ المدارس المختلطة. وقد احتاج الرئيس ايزنهاور Dwight Eisenhower إلى إرسال القوات الفيدرالية إلى بلدة ليتل روك في ولاية أركنساس في عام ١٩٥٧ لتطبيق هذا القرار بالقوة. ثم برزت قضية التفرقة العنصرية في أتوبيسات النقل العام والتي احتاج الأمر أيضاً إلى صدور حكم من المحكمة لإنهاء هذا الوضع. فقد تحدت سيدة تُدعى روزا باركس Rosa Parks نظام تخصيص مقاعد للسود في وسائل النقل العام في عام ١٩٥٥، حيث أدّى ذلك إلى بداية حملة قومية بقيادة مارتن لوثر كنج Martin Luther King, Jr. أدّت في نهاية الأمر إلى إلغاء العمل بنظام التفرقة العنصرية في وسائل النقل بين الولايات المتحدة في عام ١٩٦١. وظلت المحاولات تتوالى حيث بدأ السماح للسود باستخدام المطاعم والمتنزهات وغيرها من المرافق العامة التي كانت مخصصة للبيض وحدهم. وفي عام ١٩٦٤ تم إصدار قانون الحقوق المدنية Civil Rights Act الذي حظر وأنهى التفرقة بين المواطنين بسبب لونهم في كل الاتحادات والهيئات. وصدر قانون آخر في عام ١٩٦٥ يحمي حق السود في التصويت. وفي عام ١٩٦٨ صدر قانون المساكن الجديد الذي أقرّ مبدأ حرية السكن في أي شارع أو حي بالنسبة للسود. وبينما ساند الكثيرون ولا سيما من أصحاب

التوجهات اللاهوتية المتحررة مثل هذه الحركات، إلا أن الكثير من الكنائس تباطأت في قبول أعضاء من السود في الكنائس التي يغلب عليها البيض. إلا أنه تحقق تقدم كبير في هذا المجال منذ عام ١٩٦٥.

واجه السود في جنوب أفريقيا معارضة ومقاومة من الكنيسة لمطالبتهم بإنهاء سياسة الفصل والتمييز العنصري أو سياسة تطوير كل جنس دون اختلاطه بالآخرين في مجتمعات السود. قدمت الحكومة في جنوب أفريقيا عدة تنازلات في هذا الأمر، لكن الكثيرين ينسون أن جنوب أفريقيا وطن مشترك بين البيض والسود وأن للسود حقوقًا كبيرة في وطنهم هناك ولكنهم لا يحصلون عليها بسبب هذه السياسة. وقد تمرد الكثيرون من الأفارقة السود ضد ما يشعرون أنه نوع من التسلط الذي يمارسه عليهم المبشرون البيض، فما كان منهم إلا أنهم أسسوا كنائسهم المستقلة التي تقتصر على السود. وتصل بعض التقديرات بعدد تلك الكنائس الوطنية إلى ما يقرب من ستة آلاف تنتشر بين ٢٩٠ قبيلة وتضم أكثر من سبعة ملايين عضو في ٣٤ مقاطعة (وذلك في عام ١٩٦٧) ومعظم هذه الكنائس كاريزماتية ولها اهتمام خاص بنبوات الأزمنة الأخيرة ويقودها وطنيون.[١]

أما الهند فقد اضطرت إلى الانقسام إلى دولتين منفصلتين هما الهند وباكستان بسبب الخصومة بين المسلمين والهندوس، والتي يمكن اعتبارها شكلاً من أشكال القومية الدينية. أيضًا يعارض اليونانيون مواطنيهم من الأتراك في جزيرة قبرص، وشهدت أيرلندا الشمالية جولات دامية من الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت.

وهناك دول جديدة كثيرة في آسيا وأفريقيا حظرت نشاط أو دخول المزيد من المبشرين أو أممت المدارس أو المستشفيات التي بناها المرسلون ودول أخرى شجعت وأيدت إحياء الديانات العرقية القديمة مثلما حدث في تشاد.

إن مشاكل العلاقات ما بين الكنيسة والدولة حول قضايا مثل الحرب، وسلطات الدولة وتأثير النزعات القومية والعرقية على الكنيسة وتدخل الدولة في الشئون الكنسية كل هذه المشكلات يبدو أنها لن تنتهي ولكنها سوف تزيد في المستقبل. وليس أمام الكنيسة إلا مزيد من الجهود والكفاح للدفاع عن استقلالها وضد كل أشكال الظلم الذي يمكن أن يقع عليها.

## اقتراحات للقراءة

*Abrams, Ray H. "The Churches and Clergy in World War II."* In The Annals of the American Academy of Political Science 256:110-19. *This discusses the role of the church in World War II.*

_____ . Preachers Present Arms. *Scottdale, Pa.: Herald, 1969. This presents much information on the role of American churches in World Wars I and II.*





*Blanshard, Paul.* American Freedom and Catholic Power. *2nd ed. Boston: Beacon, 1958. This is a well-documented survey of the activities of the Roman Catholic church in the United States.*

*Cochrane, Arthur C.* The Church's Confession Under Hitler. *Philadelphia: Westminster, 1962. The uathor claims that the church was the only social unit to oppose Hitler.*

*Curtiss, John S.* The Russian Church and Soviet State, 1917-1950. *Boston: Little, 1953. A well-documented account of the history of the church in Russia since 1917 is presented.*

*Fey, Harold E. "Can Catholicism Win America?" In* Christian Century, *29 Novermber 1944 to 7 January 1945. This series of articles presents the many ramifications of Roman Catholic ecclesiastical machinery in the United States.*

*Hoover, J. Edgar.* A Study of Communism. *New York: Holt, Rinehart, and Winston, 1962. This is an able discussion of contemporary communism.*

*Howard, G. P.* Religious Liberty in Latin America. *Philadelphia: Westminster, ca. 1944. The author presents the place of Roman Catholicism in Latin America.*

*Hutten, Kurt.* Iron Curtain Chrisitians. *Translated by Walter G. Tillma. Minneapolis: Augsburg, 1967.*

*Kolarz, Walter.* Religion in the Soviet Union. *London: Macmillan, 1967.*

*Patterson, George N.* Christianity in Communist China. *Waco: Word, 1969.*

*Pollock, John C.* The Faith of the Russian Evangelicals. *New York: McGraw-Hill, 1964.*

*Rehwinkle, Alfred M.* Communism and the Church. *St. Louis: Concordia, 1948. The author ably discusses communism and the means by which Christians can develop a positive approach and program to meet its threat.*

*Stokes, Anson D.* Church and State in the United States. *3 vols. New York: Harper, 1950.*

*Timasheff, Nicholas.* Religion in Soviet Russia. *New York: Sheed, 1942. This book develops with adequate documentation the struggle between church and state in Russia.*

التوتر ما بين الكنيسة والمجتمع
منذ عام ١٩١٤

## الفصل التاسع والثلاثون

# التغيرات اللاهوتية والتنظيمية

تعرضت المسيحية الإنجيلية لهجوم متزايد في الجزء الأخير من القرن التاسع عشر والجزء الأول من القرن العشرين. فقد واجهت مفاهيمها وأفكارها الأساسية. مثل: الطبيعة الكونية للمسيحية، الله المطلق الذي نعرفه من خلال إعلانه الخبري اللفظي المعصوم الموحى به بالروح القدس، والمصداقية العالمية للإعلان الموضوعي التاريخي الموحى به حول المسيح، تشكيكاً في صحتها. بل إنها أنكرت تماماً في وقت لاحق ليحل بدلاً منها اتجاهات ذاتية وحلولية وإنسانية لفهم الإنجيل. وبرزت قضايا جديدة في المجادلات اللاهوتية المعاصرة، مثل طبيعة الكنيسة، وحي وعصمة الكتاب المقدس، دور الروح القدس في الكنيسة اليوم، وأحداث الأزمنة الأخيرة(الأخرويات).

ظهرت الليبرالية التقليدية في القرن التاسع عشر ووصلت إلى قمتها مع نشوب الحرب العالمية الأولى، عندما سيطرت على أبرز كليات اللاهوت والجامعات والكنائس. إلا أنها انهارت بعد الحرب العالمية الأولى بسبب أهوال تلك الحرب، والكساد الاقتصادي، وظهور حركة الأرثوذكسية الجديدة. فقد كانت التعاليم المتحررة حول حلول الله في كل شئ والإعلان الذاتي والمستقبل بعد الألفي من خلال الجهود البشرية على درجة من السذاجة بحيث لا تستطيع أن تواجه تحديات مرحلة ما بعد الحرب. وقد سادت الأرثوذكسية الجديدة المشهد اللاهوتي من عام ١٩٣٠ إلى عام ١٩٥٠، ولكنها فقدت قوة دفعها في عقد الستينات. وأصبحت تميل أكثر للذاتية والوجودية كما يظهر في كتابات تيلك Paul Tillich وبولتمان Rudolf Bultmann .

أما في العقدين الأخيرين فقد استبدلت الأرثوذكسية الجديدة بالفلسفة الإنسانية المتطرفة، والنسبية ونظريات اللاهوت الدنيوية، مثل فكرة موت الله أو اللاهوت الدنيوي Secular Theology الذي يعبر عنه كوكس Harvey Cox وروبنسون Bishop John Robinson، أو لاهوت الرجاء المصبوغ بالماركسية والذي يمثله مولتمان ومدارس اللاهوت التحرري المتطرفة واتجاهات اللاهوت الأنثوي Feminist Theology الذي ينادي بتحرر المرأة واللاهوت الذي يمثل مصالح السود. ويبدو أن الخلاص الاجتماعي الذي يحققه البشر عبر الزمن بدلاً من الخلاص الأبدي الذي يقدمه الله الأزلي الأبدي بواسطة المسيح هو آخر صيحة في الفكر اللاهوتي المعاصر.

إلا أن الإنجيلية قد شهدت صحوة جديدة تنمو وتتزايد لتحل محل اللاهوت المتحرر باتجاهه المتحيز نحو المسكونية. وإلى جانب هذه المشاكل الداخلية حول مصدر وطبيعة الفكر اللاهوتي، واجهت الكنيسة مشكلة الحركة المسكونية، والتي ترمي إلى إعادة توحيد المسيحية. وقد ضحت هذه الحركة في بعض الحالات بالتزامها بالخط اللاهوتي السليم لتحقيق نوع من الدمج أو الوحدة الشكلية المبنية على القاسم المشترك الأدنى بين أطرافها.

## ١- انحدار الفكر اللاهوتي وإعادة البناء

### أ- تحلل حركات اللاهوت المتحرر والأرثوذكسية الجديدة

١- في عام ١٩٠٠ كانت الأفكار التي تنادي بأبوة الله للكون وأن جميع البشر أخوة قد انتشرت من كليات اللاهوت بين الشعب باحتلال القسوس المتحررين لمنابر الكنائس عبر البلاد. وبالرغم من محاولات البعض لتتبع جذور هذه الليبرالية وردها لأفكار الفلسفة الرواقية القديمة، إلا أنها نقلت إلى أمريكا بواسطة طلبة اللاهوت الذين درسوا الفلسفة المثالية الألمانية والنقد الكتابي في جامعات ألمانيا واسكتلندا.

كانت فلسفة كانط Immanuel Kant مصدراً أساسياً للتفكير المتحرر. فقد نادى كانط بوجود مستويين للحق وقصر الكتاب المقدس على كونه تسجيلاً لظواهر تاريخية وباعتباره سجلاً ذاتياً لما يدركه الإنسان عن الله. وكان يرى أنه يجب دراسة الكتاب المقدس على أساس أنه كتاب بشري وإخضاعه للأساليب العلمية للدراسة بدلاً من اعتباره وحياً من الله. كما نادى بأن الدين له جذوره في المستوى الأعلى للتفكير العملي بافتراض وجود إحساس فطري لدى الإنسان يؤهله إلى معرفة الصواب والخطأ، ويتطلب ذلك قبول وجود فكرة الثواب والعقاب باعتبارها أفكاراً دينية عملية. أما المدخل الحلولي للاهوت فقد طوره ورسخه شلايرماخر Friedrich Schleiermacher الذي اعتبر أن الدين هو شعور أو إدراك للاحتياج إلى الاعتماد على الله في المسيح. هذا وقد حاول البعض الآخر تطبيق نظرية داروين Charles Darwin للتطور على الدين حيث اعتبر الدين عملية تطورية ذاتية مبنية على تزايد معرفة الإنسان عن الله وتقدم الإنسان إلى أعلى.

ويتفق اللاهوتيون المتحررون في اعتقادهم بحلول الله في التاريخ وفي كل إنسان وذلك لضمان تحقيق تقدم نحو نظام إنساني مثالي على الأرض. ويرون أن الإنسان القادر على الوصول إلى الكمال يواجه أساساً مشكلة تأثير البيئة المحيطة به والتي تقوده نحو ارتكاب الخطيئة باختياره. وإذ يتخذ ذلك الإنسان من المسيح مثالاً له، فإنه على أية حال يقدر أن يُحسن من نفسه ومن نظام المجتمع من حوله. والكتاب المقدس تبعاً لرأي المتحررين، لا يحتوي أكثر من التسجيل الذاتي لما يدركه الإنسان عن الله. ويمكن للتعليم والعمل الاجتماعي اللذين تدعمهما الكنيسة أن يخلقا نظاماً اجتماعياً مثالياً يمكن أن يعود المسيح إليه بعد انقضاء فترة الملك الألفي. نادى بهذه الأفكار ودأب على نشرها الأساتذة في الكليات ومعاهد اللاهوت ورجال الصحافة الواسعة الانتشار والصحافة الدينية وأيضاً فئة كبيرة من الوعاظ. وأصبح هاري





إيمرسن فوزديك Harry Emerson Fosdick مروجاً مشهوراً لهذه الأفكار وذلك من منبر كنيسة ريفرسايد في نيويورك.

أثرت المشكلات التي تمثلت في نتائج الحرب العالمية الأولى، والكساد الكبير الذي حدث في عام ١٩٢٩، وتأثير اللاهوت الوجودي الذي نادى به سورين كيركجارد Sören Kierkegaard (١٨١٣-٥٥) على كارل بارت Karl Barth وأتباعه فحطمت داخلهم الفكرة التحررية القائلة بإمكانية تحقيق التقدم الإنساني بواسطة مجهودات الإنسان. كان الله بالنسبة لبارت إلهاً متسامياً أكثر منه موجوداً في كل شئ، وكان الإنسان بالنسبة له خاطئاً أكثر منه مولوداً وفي كيانه قبس من الطبيعة الإلهية. ومع حلول عام ١٩٣٠ لم يعد لحركة اللاهوت المتحرر تأثير كبير، حيث بدأت الطوائف التي التزمت بهذا الخط الليبرالي المتحرر من الفكر اللاهوتي تتضاءل من حيث عدد أعضائها وقدرتها على التأثير وأيضاً في عدد المرسلين الذين ترسلهم للعالم الخارجي.

وفي لقاء لعدد كبير من اللاهوتيين في كلية هارتفورد للاهوت في يناير ١٩٧٥ انتقد الحاضرون هذه الافتراضات المتحررة ونادوا بالعودة إلى بعض العقائد الأساسية التي قد درجوا هم أنفسهم – بتأثير الاتجاه التحرري – على وصفها بالمفاهيم الإنجيلية. وكان هذا بمثابة تصحيح جذري للوضع الذي كان قد نشأ عن إعلان تم نشره في عام ١٩٢٣ يعرف باسم إقرار أوبورن Auburn Affirmation والذي وقع عليه ١٣٠٠ قسيس مشيخي. وكانت هذه الوثيقة تدعي أن عصمة الكتاب المقدس، والميلاد العُذري والكفارة النيابية وقيامة المسيح ومعجزاته ليست من العقائد الأساسية.

٢- حلت الأرثوذكسية الجديدة Neoorthodoxy التي هي لاهوت الأزمة، أو كما تسمى أحياناً اللاهوت الوجودي محل الحركة التحررية التي تضاءل شأنها فيما بين ١٩٣٠-١٩٥٠. فبدلاً من تدريس كتابات شلايرماخر Friedrich Schleiermacher وريتشل Albrecht Ritschl وهارناك Adolf Harnack في كليات اللاهوت، أصبح يُدرس تفسير كارل بارت لرسالة رومية الذي كتبه عام ١٩١٩ وباقي كتاباته اللاحقة. ثم جاء من بعد بارت وبرونر Emil Brunner ورانيهولد نيبور Reinhold Niebuhr، من هو أكثر منهم تطرفاً ووجودية من أمثال بولتمان وتيلك Paul Tillich.

أصبحت الاتجاهات اللاهوتية المتحررة (الليبرالية) مع مرور الوقت لا توافق العصر، بينما صارت الأرثوذكسية الجديدة أكثر قبولاً لاهوتياً وتاريخياً. وحدث هذا كله بعدما اجتاز العالم حربين عالميتين، وعانى من الكساد الكبير، واكتشف الطبيعة الشيطانية للأنظمة الشمولية سواء أكانت يمينية أم يسارية في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى. قال والد اللاهوتي الدانماركي المعروف سورين كيركجارد إنه لعن الله وجدَّف عليه وهو صبي كما أنه (الوالد) لم يكن أميناً مخلصاً لزوجته، وعندما وقف كيركجارد موقفاً غريباً من خطيبته ريجينا أولسن Regina Olsen وأنهى علاقته بها بدون تفسير مقنع، وعندما رأى كيركجارد الإحباط الروحي الذي كان يسود الكنيسة اللوثرية الرسمية في الدانمارك، عندئذ بدأ يطور النظام اللاهوتي

الوجودي الذي عُرف باسمه، والذي كان له تأثير كبير على مفكري حركة الأرثوذكسية الجديدة. فقد دفعه اليأس البشري إلى اتخاذ قرار شخصي بالتعلق بالله المتسامي وذلك عن طريق "قفزة الإيمان" بدلاً من أي عملية تطور فكري. وقد ظهر هذا المفهوم عن الله الذي يواجه الإنسان وهو في قمة أزمته الشخصية دون أي مجهود أو منطق بشري في أوساط الأرثوذكسية الجديدة.

وُلد كارل بارت Karl Barth (١٨٨٦-١٩٦٨) في بازل في سويسرا، وهو الذي أسس حركة الأرثوذكسية الجديدة. وقد تلقى بارت تعليماً لاهوتياً متحرراً في ألمانيا. وبعد أن قضى فترة قصيرة يعمل في الكتابة لإحدى المجلات الألمانية التي تنادي باللاهوت المتحرر، أصبح راعياً في كنيسة سويسرا. وهناك وإذ واجهته احتياجات من يخدمهم، وأدرك أن ما ناله من تعليم متحرر لا يتناسب مع تلك الاحتياجات ولا يقدر أن يوفيها، دفعه ذلك إلى أن يعكف على دراسة الكتاب المقدس وكتابات جون كالفن John Calvin. ثم بعد ذلك قام بتدريس اللاهوت في عدة معاهد لاهوتية من ١٩٢١ وحتى ١٩٣٥ وأجبره رفضه لسياسة النازية تجاه الحريات الدينية على العودة إلى بازل. وهناك قام بالتدريس في جامعاتها حتى عام ١٩٦٢ عندما تقاعد لإتمام مؤلفاته اللاهوتية الضخمة.

وكانت لكارل بارت وأتباعه عدة أفكار يتفقون عليها. الله بالنسبة لهم لابد وأن يكون من طبيعة مغايرة تماماً للإنسان، فهو كائن مقدس أبدي يتسامى بعيداً عن البشر. وكان الإنسان يقف أمامه عاجزاً في محدوديته وفي خطيته. أما الكتاب المقدس فهو كتاب بشري يخضع لمبادئ النقد الكتابي مثله مثل أي كتاب آخر. إنه سجل للإعلان الإلهي وهو شاهد على الإعلان ولكنه ليس وحياً إلهياً، موضوعياً تاريخياً في ذاته. والكتاب المقدس يصبح إعلاناً للفرد في لحظة أزمة معينة، وذلك عندما يستخدمه الروح القدس في إحداث تلاقي شخصي مع الله. والواقع أن مفهومه عن الإعلان أنه تلاقي أو مقابلة مع الله أكثر من كونه مجرد توصيل كم من المعلومات. والتاريخ الإلهي، أو تاريخ الخلاص منفصل عن علم التاريخ البشري الذي يكتبه المؤرخون. ولا يهتم الله بالتاريخ البشري أو ما يقدمه من خلاص اجتماعي يمكن أن يتحقق من خلاله. والبشر في المسيح مختارون للخلاص ولا يحتاجون إلا إلى إدراك هذه الحقيقة.

رحب الإنجيليون بهذا التأكيد الجديد على حقيقة طبيعة الإنسان الخاطئة، وطبيعة الله المتسامية وتركيز بارت على اللاهوت الكتابي، لكنهم رفضوا فصله ما بين التاريخ المقدس والتاريخ الدنيوي ورفضه لكون الكتاب المقدس إعلاناً إلهياً ذا طبيعة موضوعية خبرية تاريخية. وفيما عدا راينهولد نيبور، لم يكن لدى مفكري الأرثوذكسية الجديدة Neoorthodoxy مكان للمسئولية الاجتماعية في فكرهم. وبدلاً من الفكر الذي يخاطب المنطق الدفاعي ويقدم البراهين المسيحية، استخدم مفكرو هذه الحركة وصفاً للإيمان على أنه قفزة في الظلام أو قفزة عمياء. وكانت هناك عناصر من العمومية تشوب فكرتهم عن عقيدة الخلاص، ومع أنهم كانوا يرون أن الإنسان خاطئ، لكنهم كانوا يرجعون ذلك إلى ما يقترفه من خطايا فعلية أكثر من إرجاعه إلى الخطية الأصلية التي كانوا ينظرون





إليها على أنها "أسطورة" عن وجود آدم وحواء. وقد تمسك مفكرو الأرثوذكسية الجديدة بمدرسة النقد الكتابي المتحرر القديمة.

وبالرغم من تأييد إميل برونر Emil Brunner (١٨٨٩-١٩٦٦) لمعظم هذه الأفكار، إلا أنه اختلف عن بارت Karl Barth في أنه قبل وجود بعض الإعلانات الإلهية العامة في الطبيعة، وكان له موقف أقل تمسكاً بالرأي التاريخي حول ميلاد المسيح من العذراء. أما راينهولد نيبور Reinhold Niebuhr (١٨٩٣-١٩٧١) فسرعان ما اكتشف أن الأفكار اللاهوتية المتحررة لا توافق احتياجات عمال مصانع السيارات الذين كان يخدم بينهم في ديترويت وفي كتابه "الإنسان الأخلاقي في مجتمع لا أخلاقي" (١٩٣٢) وكتابه الآخر "طبيعة الإنسان ومصيره" (١٩٤١-٤٣) أشار إلى خطية البشر وتأثيرها السلبي على السياسة والاقتصاد والمجتمع. آمن أن محبة الله في الصليب تقدم حلاً يقدر أن يصل إلى ما بعد التاريخ، لكنه أصر أيضاً على أن المحبة المخلصة في قلب الإنسان يمكن أن توفر الحلول الاجتماعية المطلوبة لاحتياجات المجتمع البشري.

كان بول تيلك Paul Tillich (١٨٨٦-١٩٦٥) لاجئاً ألمانياً وأستاذاً عمل بالتدريس لسنوات طويلة في كلية لاهوت يونيون في نيويورك. وكان تيلك أكثر ميلاً للفلسفة من بارت. وكان إلهه هو الأساس المطلق للوجود وكان يرى أن تلاقي الإنسان مع ذلك الإله يجب أن يكون اختبارياً ووجودياً في طبيعته. وقال إن الكتاب المقدس وقوانين الإيمان ما هي إلا تعبيرات ذاتية عن الفكر الإنساني وإنه ينبغي أن يتم إخضاعها للنقد التاريخي. كان الدين هو "الاهتمام المطلق" وهو بمثابة التزام من نحو الله أساس الوجود المطلق، وإذ يمارس الإنسان الدين يكتسب قدرة على التغلب على الخطية، وهي اغتراب عن أساس الوجود. وقد نشر جون "روبنسون Bishop John Robinson (١٩١٩) أسقف مدينة وولويتش، بعض أفكار تيلك عن الله في كتابه "أمين مع الله" (١٩٦٣) ولكنه تركنا بدون إله شخصي ولا إعلان أو وحي تاريخي من الله.

استخدم رودلف بولتمان Rudolf Bultmann (١٨٨٤-١٩٧٦) منهج نقد الشكل الأدبي ليستخلص خطة الإعلان الإلهي من بين تبن الأساطير والأشكال الأدبية الأخرى التي رأى أن الرسل قدموا الحق الإلهي فيها. ووصل بولتمان من خلال نقده إلى نتيجة هي أننا لا نقدر أن نعرف سوى القليل جداً عن شخص المسيح وتعاليمه أو حياته. لذا فقد حاول أن يخلص الكتاب المقدس من "طابعه الأسطوري" وجعل الاختبار والأخلاق في مرتبة أعلى من التعاليم العقائدية. وأصبحت آراؤه الناقدة أكثر تطرفاً؛ مما أوجد هوة كبيرة بين آرائه وآراء بارت. وبدأت الأرثوذكسية الجديدة في الانهيار في عقد الخمسينيات مع أنها تُعتبر في بعض جوانبها نوعاً من التطوير للأحسن للأفكار الليبرالية. ولكنها في عقد الستينات أفسحت مكانها لنظريات لاهوتية أكثر تطرفاً.

٣- شهد مسرح الدراسات اللاهوتية منذ عام ١٩٦٠ قيام وسقوط العديد من النظريات اللاهوتية المتطرفة الدنيوية Secular Theology الإنسانية. وقد برهنت كل منها عدم أهليتها أو كفايتها لمنح الإنسان احتياجاته الدينية. وحاولت كل منها أن تستبدل الله المتسامي بإله آخر موجود في التاريخ،

وبدلاً من المسيح الذي حل فيه ملء اللاهوت، تكلموا عن مسيح وإنسان ليس هو الله بأي شكل.

(أ) وساهم بعض اللاهوتيين من أمثال توماس ألتيزر Thomas Altizer، بول فان بورين Paul van Buren، وليام هاملتون William Hamilton في صياغة النظرية اللاهوتية التي ما لبثت أن انتهت وزالت بعد وقت قصير وهي أن "الله قد مات". ويدين هؤلاء الرجال لنيتشة Nietzsche الذي يمكن اعتباره مصدراً لأفكارهم اللاهوتية التي نشرت أول ما نشرت في مقالات عامودية في جريدتي النيويورك تايمز والنيويوركر في أكتوبر ١٩٦٥. وليس واضحًا ما إذا كانوا يقصدون القول بأن الله قد مات بالنسبة للكثيرين من الناحية النفسية وذلك لأنه لم يعد له دور أو وجود في حياتهم العملية، أو يقصدون أن الله قد مات تاريخيًا لأن وجوده لم يعد متوافقًا مع عالم يجتاز الحروب العالمية، ويشهد المذابح، ويعاني من الكساد الكبير. أو ربما كانوا يقولون بحسب رأي ألتايزر إن الله قد مات من الناحية الوجودية وذلك لأنه مات في موت المسيح. كانوا يرون أن تدافع الأحداث والحركة في العالم المادي تحل محل التفكير اللاهوتي. وكانوا مثلهم مثل بونهوفر Dietrich Bonhoeffer، الذي أعدمه النظام النازي، يريدون "مسيحية ليست دينًا" أي يظهر فيها المعنى الأخلاقي عاملاً. ويبدو أن هذا التركيز الشديد على الأنشطة والعمل الاجتماعي كان يتمشى مع المزاج الراديكالي المتطرف الذي ساد في الستينيات . وكان مثل هذا التوجه الجديد جديراً بأن يربط الكنيسة بالعالم بنفس القدر الذي قامت به الليبرالية القديمة عندما نادت بالإنجيل الاجتماعي.

ديتريش بونهوفر (١٩٠٦-١٩٤٥) والذي تأثر بفكر بارت Karl Barth وبولتمان Rudolf Bultmann تحدث عن كون الإنسان قد "بلغ سن الرشد" فكريًا في عالم يعاني الأزمة حيث أصبح الفكر اللاهوتي لا يتفق ولا يتناسب مع الواقع حيث يواجه الإنسان مسئولية التصرف الأخلاقي المسئول في صيغة تقدم "القداسة للعالم" في إطار التزام وولاء كامل للمسيح كرب وسيد للحياة. مثل هذه المسيحية الوجودية التي تعيش في العالم جديرة بأن تنجح في ربط ما هو مقدس بما هو دنيوي في الحياة اليومية. وكان لكتب بونهوفر ورسائله التي كتبها في الفترة من ١٩٣٠-١٩٤٠ تأثير واسع آنئذ.

عمل هارفي كوكس Harvey Cox أستاذاً للاهوت في جامعة هارفارد، وكتب كتابًا اسمه "المدينة الدنيوية" في عام ١٩٦٥ وطرح فيه أفكاره بأن التحضر والدنيوية أدّيا إلى زوال فكرة أن الله موجود بعيداً هناك وأصبح الله حالاً في العالم، وبالأخص في المجتمعات الحضرية، ويمكن للإنسان أن يجد كل شبعه في المجتمع الذي يمكن اكتشاف الله فيه.

(ب) سقطت هذه النظريات اللاهوتية الدنيوية أمام النظريات الأحدث منها التي تعرف باسم لاهوت الرجاء والتي نادى بها يورجان مولتمان Jurgen Moltmann (١٩٢٦-) و ولفهارت بانتبرج Wolfhart Pannenberg (١٩٢٨-). ركّز مولتمان على أعمال الله المستقبلية في التاريخ أكثر من إعلان الله في الماضي. فإن مشكلة الإنسان ستجد حلها في تحقق وعد الخلاص في المستقبل بواسطة إرادة الله وعمله. إلا أن هذه الأفكار والتي كتبها في





كتابه "لاهوت الرجاء" (١٩٦٧) تذيب التاريخ في المستقبل، كما يذوب المستقبل في ثورة يرتبط فيها المسيح والخلاص بالتطور والتنمية الاجتماعية في إطار نظام له نزعة وتوجه ماركسي.

أما بانتبرج Wolfhart Pannenberg فإنه يعالج التاريخ بجدية أكثر وبالأخص حادثة قيامة المسيح من الأموات. فالتاريخ يعلن ويكشف الله العامل، حيث يمكن أن ندرس نشاط الله تاريخيًا فالإعلان الإلهي يأتي إلينا في صورة عمل أو حدث أكثر منه في صورة خبر. أما المعنى النهائي والتفسير الأخير للتاريخ في المسيح فسيعلن في نهاية التاريخ.

(ج) يبدو بيير تايلهارد ديشاردين Pierre Teilhard de Chardin (١٨٨١-١٩٥٥) أنه يسير على نفس منهج للويد مورجان Lloyd Morgan الذي صاغ مفهوم نشوء التطور أو ما قاله هنري بيرجسون الذي قدم مذهب الحيوية. يفترض تايلهارد حدوث أو وجود ما يمكن تسميته أنه "عملية تطور لاهوتي" مع تدخل الله في عملية التطور الطبيعي. وقد وضع تايلهارد أساسًا لنظرية التطور اللاهوتي التي استحدثها في أن "العناصر البدائية" أي التي تبدأ منها عملية التطور وأسماها Alpha Particles تسعى باعتبارها جزءًا في عملية تطور نحو الأعلى يبرز فيها المسيح باعتباره النهاية المطلقة أو التي تجمع هده الأحداث البدائية معًا بصورة إبداعية لتكوين أنظمة أعلى وأسمى فيصبح الله ومعه العالم الذي خلقه مشتركين في تطوير نظام جديد أقرب إلى الكمال.

(د) جاءت النظرية اللاهوتية التي تقول بحدوث سلسلة من التطور التصاعدي بنزعة فلسفية أكبر من التي كانت في فكر تايلهارد وقد قامت هذه النظرية على فكر ألفريد وايتهيد Alfred Whitehead (١٨٦١-١٩٤٧) وقد طورها ووسعها تشارلز هارتشورن (١٨٩٧-) الذي يُدرس في جامعة شيكاغو، وأيضًا جون كوب John Cobb. وقد سعى هؤلاء الرجال إلى صياغة نظرية لتفسير وجود الشر في العالم مع المحافظة على صورة الله باعتباره كلي القدرة وصالح في جميع أعماله. وقالوا إن طبيعة الواقع لا تكمن في أنه كائن ولكنها تكمن في أنه قادم، ورأوا أن الله ومعه الكون الذي خلقه قادمون أكثر منهم موجودون. تتفاعل كل الموجودات الحية مع بيئتها ومع بعضها البعض في حرية كاملة للاختيار المبدع، والذي يمكن أن يؤدي إلى نوع من الألم والمعاناة. والله الذي هو أصل لكل شئ، والذي له القدرة الدائمة على الإبداع، يوجه الخليقة بمحبته لتتطور نحو مستوى أعلى يؤهلها بالتجاوب مع خالقها للتغلب على الشر وتجنب حدوث الفوضى في النظام الجديد الذي يخلقه الله.

(هـ) ترجع بداية نظرية اللاهوت التحرري Liberation Theology، والتي يمكن أيضًا إيجاد صلة بينها وبين ما يسمى بالاتجاهات اللاهوتية الأنثوية والاتجاهات الأخرى التي تعبر عن مصالح السود، ترجع بدايتها إلى كتاب اسمه ومعناه "نحو فكر لاهوتي للتحرر" كتبه أحد الكهنة الكاثوليك من بيرو في عام ١٩٧٣ واسمه جوستافو جوتيريز Gustavo Gutierrez (١٩٢٨-)، وأيضًا في كتابات رويم ألفيز Rubem Alves وفي أمريكا الشمالية في كتابات روجر شول Roger Schaull. وبحسب ما كتب كل هؤلاء، فإن الفكر اللاهوتي يجب أن يبدأ كما فعل المسيح من منطلق الالتزام

بالعمل على تحرير المظلومين من البشر وليس الاكتفاء بمجرد نظرية حول حق هؤلاء في الحرية والإنصاف. ينبع الفكر اللاهوتي من قلب الموقف الإنساني في التاريخ وليس من مجرد النظريات الفكرية. ويصدق هذا المنطق أيضاً على ما نادى به جيمس كون James Cone وأسماه لاهوت السود، وأيضاً الاتجاهات الحديثة التي تسمي نفسها اتجاهات اللاهوت الأنثوي. ويرى هؤلاء جميعاً أن التاريخ البشري هو المسرح الذي تجري فوقه أحداث الاتجاهات اللاهوتية مثلما تجري أيضاً جهود حركات التحرر والتي دأب أصحاب هذا التوجه على تبني النظرية الماركسية في تفسيرها. والخلاص الذي تقدمه مثل هذه الاتجاهات اللاهوتية الحديثة هو في صورة التحرر الاجتماعي والاقتصادي والسياسي من كل أشكال الظلم والاستغلال. ويرون أنه كما حدث عند خروج شعب إسرائيل من مصر، فإن الإعلان الإلهي كان يتعامل مع الظلم التاريخي الذي وقع عليهم ويبرز الجهود البشرية للتحرر من هذا الظلم والتي يقودها إنسان يتمثل بالمحرر الأعظم وهو المسيح، وليس كلمة الله المعلنة. وبالنسبة لهم فإن الإنجيل الأبدي لا تتم صياغته المعاصرة بمجرد ربطه بالثقافة السائدة ولكنهم يرون أنه يجب فصله تماماً عن الوحي الإلهي. إلا أن معظم هذه المحاولات التي تسعى إلى إنهاء الظلم وإلى إقامة وبناء ملكوت الله في مجتمع جديد يولد بعد تحرره، انتهى أمرها بالتزاوج مع الماركسية وتسييس المسيحية في مواقف تاريخية.

وقد توالى سقوط هذه الأنظمة قصيرة العمر من على مسرح الفكر اللاهوتي بسرعة متزايدة منذ عام ١٩٦٠. فهي عبارة عن محاولات لحل مشاكل الإنسان في التاريخ من خلال جهود الإنسان المستقل بذاته وبمساعدة الحضور الإلهي في شخص المسيح كإنسان. إلا أن هذه الاتجاهات اللاهوتية لم يكن لها موقف منصف من الله أو المسيح أو الكتاب المقدس. وهاهي الاتجاهات الإنجيلية التي أعيد بعثها من جديد تنصت إلى صوت الاحتياج في تلك الاتجاهات اللاهوتية وتعيد تأكيدها على موقفها من الإيمان بسلطان الكتاب المقدس، وبوجود الله المتسامي وبكفاية المسيح الله مخلص الإنسان. وبالرغم من إدراك الفكر الإنجيلي لاحتياجات الإنسان الشخصية والاجتماعية، إلا أنه يدرك أيضاً أن الحل النهائي لمشكلات البشر لا يمكن إلا أن يكون في شخص الله في إعلانه الكامل عن ذاته.

### ب- إحياء الفكر الإنجيلي الأصيل
### Resurgence of Evangelicalism

تزايد إدراك الكثرة العددية للإنجيليين وقوة نفوذهم في الفترة التي أعقبت إعلان جورج جالوب George Gallup نتائج استطلاع للرأي أجراه في أمريكا في عام ١٩٧٦، حيث كشف هذا الاستطلاع أن ٣٤٪ من الأمريكيين أي ما يقرب من خمسين مليون شخص صنفوا أنفسهم على أنهم إنجيليون مما دفع جالوب إلى أن يقول إن عام ١٩٧٦ هو "عام الإنجيليين في أمريكا".

وقد أظهر استطلاع آخر للرأي أجراه جالوب حديثاً لحساب مجلة واسعة الانتشار "Christianity Today"، أن ٢٠٪ من كل البالغين الذين تزيد أعمارهم عن ١٨ سنة، أي ٣١ مليون أمريكي أو ٤٤ مليون شخص لو شملنا من هم تحت ١٨ سنة أيضاً،يقولون عن أنفسهم إنهم إنجيليون. ويتحدث ما يقرب من ثلث عدد كل البالغين، أي





حوالي ٥٠ مليون أمريكي عن اختبارهم اختباراً روحياً غير حياتهم بناء على إيمانهم بالمسيح. ومن عدد ٣١ مليون الذي سبق الإشارة إليه، يقول ٤ مليون شخص منهم إنهم من الكاثوليك، ويرى ما يقرب من ١٠ مليون شخص أنفسهم من ضمن الحركة الكاريزماتية. وينظر كل هؤلاء الإنجيليين إلى الكتاب المقدس باعتباره كلمة الله، ويتمسكون بالإيمان بلاهوت المسيح وبالخلاص بالإيمان.

وبالرغم من أن هؤلاء جميعاً ترجع جذورهم لذات حركة الإصلاح، إلا أنهم أيضاً مدينون بالكثير للحركة التطهرية والحركة التقوية. كان تصنيف الإنجيليين يشمل في بداية القرن الحالي، اللاهوتيين في برنستون وآخرين من الفكر الكالفيني، وذلك إلى جانب أتباع وسلي من الأرمينيين الذين تضمهم كنيسة الناصري Church of the Nazarene ويضمهم أيضاً جيش الخلاص. ويجب أن يضاف إليهم الألفيون القائلون "بأن المجئ الثاني للمسيح سوف يسبق ملك المسيح بألف سنة وبعضهم كانوا يؤمنون بالفكر اللاهوتي الذي يقسم التاريخ إلى حقب"، والذين لا يؤمنون بالملك الألفي، وجماعات الخمسينيين التقليدية، والكاريزماتيون الذين يقعون ضمن الطوائف الأساسية، وذلك بالإضافة إلى الجماعة المعروفة باسم Jesus People. هؤلاء جميعاً يجب اعتبارهم من ضمن الإنجيليين، بعضهم ينتمون إلى كنائس مستقلة، وآخرون إلى طوائف أخرى صغيرة أو في الطوائف الأساسية القديمة.

ويشترك معظم من يطلق عليهم وصف "الإنجيليون" في التمسك ببعض الأفكار المعينة. فهم يؤمنون أن الكتاب المقدس هو كلمة الله الموحى بها والمعصومة من الخطأ وهي دستور معصوم للإيمان والأعمال. ويؤمنون أيضاً بفساد الطبيعة البشرية التي نتجت عن سقوط آدم الفعلي في الخطية ويؤمنون بالخطية الأصلية. ويؤكدون بحماس على ميلاد المسيح من عذراء، وعلى لاهوت المسيح وكفارته النيابية وقيامته من الأموات. وأن الولادة الجديدة وحياة البر والقداسة تتحقق في حياة الإنسان بواسطة الإيمان بالمسيح. ومع أنهم أصروا على إعطاء الأولوية لنشر وإعلان رسالة الإنجيل، إلا أنهم في معظم الأحيان كانت لهم الريادة والسبق في مجال العمل الاجتماعي في أمريكا. وقد عارضوا وقاوموا مدرسة النقد الكتابي، ونظرية التطور، وفكرة الإنجيل الاجتماعي التي نادى بها الليبراليون في الماضي.

١- كان الإنجيليون وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى، يقعون في إحدى مجموعتين تتعاونان في بعض مجالات النشاط الديني.

(أ) أتباع كلية برنستون للاهوت في مدينة أرشيبالد مثل أ. هودج Archibald A. Hodge (١٨٢٣-٨٦) وبنيامين وارفيلد Benjamin B. Warfield (١٨٥١-١٩٢١)، ومنهم المشيخيون مثل فرانسيس ل. باتون Francis L. Patton وروبرت ديك ويلسون Robert Dick Wilson، ومنهم المعمدانيون مثل إدجار مولينز Edgar Mullins، وعالم اللغة اليونانية المرموق أرشيبالد ت. روبرتسون Archibald T. Robertson (١٨٦٣-١٩٣٤)، هؤلاء جميعاً كانوا من الكالفينيين الذين يقعون في هذه الفئة. ويجب أيضاً أن يشمل هذا التقسيم العديد من الجماعات الأرمينية Arminianism مثل بعض طوائف المينونايت وكنيسة الناصري Church of the Nazarene. وقد

بدأت طائفة الناصريين في لوس انجلوس في عام ١٨٩٥ بقيادة شخص يدعى فينحاس بريسي Phineas F. B. Bresee. وفي عام ١٩٠٨ اتحدت العديد من الكنائس الأخرى التي لم تكن راضية عن أحوال طائفة الميثوديست، اتحدت في نهاية الأمر باسم كنيسة الناصري حيث نبّروا على وجود اختبار ثان سموه عمل النعمة الثاني لتحقيق التقديس وهم يشبهون في ذلك معظم من يتبعون تقليد جون وسلي John Wesley.

(ب) أما الفئة الثانية الكبرى في هذه الفترة فهي تتضمن أساساً الذين يؤمنون أن مجئ المسيح سيسبق ملك المسيح الألفي إلى جانب نظرائهم من الألفين التدبيريين وكان يطلق عليهم جميعاً في كثير من الأحيان وصف "الأصوليين" Fundamentalist. وقد استخدم هذا التعبير لأول مرة في أول يوليو ١٩٢٠ في مقالة كتبها C. C. Laws الذي كان رئيس تحرير المجلة المعمدانية المعروفة باسم Watchman Examiner وقد استخدم التعبير ليشير إلى أولئك الذين يتمسكون بأساسيات الإيمان المسيحي التاريخي. وقد استخدم التعبير بأسلوب ازدرائي للإشارة حتى إلى بعض "قبل الألفين" ليشير إلى الطوائف التي تتمسك بالعقائد الإنجيلية المشتركة.

وقد تعاونت كلتا الفئتين من الإنجيليين في مؤتمرات درس الكتاب المقدس Bible Conferences مثل أحد أول هذه المؤتمرات الذي عقد في يوليو ١٨٧٦ في سوامسكوت Swamscott Conference في ولاية ماساتشوستس. وأيضاً المؤتمر اللاطائفي الذي انعقد في عام ١٨٧٨ في كنيسة الثالوث الأقدس Holy Trinity Conference في نيويورك ليناقش ويدرس النبوات التي تتحدث عن مجئ المسيح الثاني. وقد استمر عقد الاجتماعات المماثلة لمناقشة هذا الموضوع نفسه بصفة دورية مرة كل عام في الفترة ما بين ١٨٩٣-١٨٩٨م في مدينة نياجارا Niagara Conferences في ولاية نيويورك.

وقد قرن البعض ما تم مناقشته في هذه الاجتماعات حول عقيدة مجئ المسيح قبل الملك الألفي بالأفكار التي نادى بها جون داربي John Darby (١٨٠٠-٨٢) بالفكر اللاهوتي التدبيري. وقد درج البعض على الإشارة إلى خمسة بنود للفكر الأصولي ويربطونها بمؤتمر نياجارا لعام ١٨٩٥، في حين أن البيان الذي أصدره ذلك المؤتمر فعلياً كان يحتوي على أربعة عشر بنداً. وقد ساهمت بعض الشخصيات البارزة التي اشتركت في تلك المؤتمرات Bible Conferences في تأسيس مدارس للكتاب المقدس Bible Schools لتوفير التدريب الكتابي لعامة الشعب. وقد بدأت الدراسة في كلية ناياك للدراسات المرسلية Nyack Missionary College في نيويورك في عام ١٨٨٢. أما معهد مودي للدراسات الكتابية Moody Bible Institute فتم افتتاحه عام ١٨٨٦ ولكنه لم يبدأ الخدمة التي نعرفها عنه اليوم حتى عام ١٨٨٩. ثم تم افتتاح كلية تورنتو للدراسات الكتابية Toronto Bible College في عام ١٨٩٤ وبعدها معهد الدراسات الكتابية في لوس أنجلوس Bible Institute of Los Angeles في عام ١٩٠٨. وقد أضيف إلى هذه الكليات غيرها الكثير حتى عام ١٩٧٦ حيث بلغ عدد الطلبة الذين يدرسون في أربعمائة معهد لدراسة الكتاب المقدس خمسين ألفاً. كان ٣٥ ألفاً منهم يدرسون في مائة كلية يعترف بها





الاتحاد الأمريكي لمعاهد دراسة الكتاب المقدس American Association of Bible Colleges. وقد ساعد سيروس سكوفيلد Cyrus I. Scofield (١٨٤٣-١٩٢١) على نشر عقيدة التدابير الإلهية للأزمنة والاعتقاد بمجئ المسيح قبل الملك الألفي في الملاحظات التي أعدها في النسخة الدراسية للكتاب المقدس التي عُرفت باسمه Scofield Bible، والتي تم نشرها في عام ١٩٠٩ بمعاونة ومساهمة سخية من بعض رجال الأعمال البارزين. وقد انتشر استخدام هذه النسخة الدراسية بين المؤمنين العلمانيين وتعتبرها الكثير من مدارس الكتاب المقدس النص المعتمد للكتاب المقدس.

وفي عظة ألقاها أ. ديكسون A. C. Dixon في أغسطس ١٩٠٩ تأثر شخصان من الأثرياء من رجال البترول وهما لايمان Lyman Stewart وميلتون ستيوارت Milton Stewart مما دفعهما إلى تخصيص مبلغ ٢٠٠ ألف دولار لإصدار المؤلف الضخم المعروف باسم "الأساسيات" The Fundamentals. وقد تكون هذا المؤلف من ٢١ مجلداً تتضمن مقالات كتبها إنجيليون سواء من المنتمين للطوائف أو آخرون من اللاطائفيين سواء في أمريكا أو في انجلترا. ومنهم James Edwin Orr, Benjamin B. Warfield, M. G. Kyle, R. A. Torrey, C. I. Scofield وغيرهم كثيرون من العلماء والدارسين الإنجيليين ساهموا بكتابة تلك المقالات التي استهدفت شرح وتوضيح المبادئ الإنجيلية. ظهر المجلد الأول في عام ١٩١٠ وصدر المجلد الثاني عشر من هذه السلسلة في عام ١٩١٥. وقد تم إرسال ٣٠٠ ألف نسخة من كل مجلد مجاناً لتوزع على أساتذة كليات اللاهوت وطلبتها وأيضاً على الرعاة والعاملين في جمعية الشبان المسيحية في الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا العظمى. هذا وقد ساعدت مجلة مثل التي أصدرها بلاكستون W. E. Blackstone (١٨٤١-١٩٣٥) بعنوان "Jesus is Coming" والمجلات الدورية Christian Periodicals مثل "The Sunday School Times", "Moody Monthly", "The Christian Herald" ساعدت هذه كلها على نشر وترويج أفكار الإنجيليين الأوائل.

تبنى مبشرون مثل بيلي صنداي William (Billy) Sunday، ر. توري ورودني سميث Rodney "Gypsy" Smith أسلوب الحملات الكرازية الواسعة في المدن والذي طوره د. ل. مودي Dwight L. Moody فيما بعد. وظهر عدد من المبشرين المحترفين يساندهم فريق عمل متكامل من أصحاب المهارات التنظيمية العالية حيث كانوا يعقدون اجتماعات كبرى خارج الكنائس في قاعات ضخمة يتم تأجيرها. وكان ينتج عن هذه الاجتماعات انضمام أعداد كبيرة من الناس إلى الكنائس الإنجيلية.

٢- استمر هذا التحالف الثنائي الذي يجمع "الأصوليين" مع الإنجيليين، والذي كان عدد كبير منهم ينتمون إلى الطوائف القديمة، استمر هذا التحالف يقوم بالدور الأكبر في مقاومة اتجاهات الفكر اللاهوتي المتحررة وذلك في الفترة ما بين ١٩١٩-١٩٤٥. إلا أن تزايد الخلافات والتوترات حول مسائل لاهوتية مثل أحداث الأزمنة الأخيرة كثيراً ما خلقت مشاكل داخلية بين صفوف هاتين الجماعتين.

(أ) قاوم الأصوليون مثل رايلي W. B. Riley

(١٨٦١–١٩٤٧) وجون ستراتون John Straton (١٨٧٤.١٩٢٩) الذي كان راعيًا لكنيسة كالفيري المعمدانية في نيويورك، وهنري أو "هاري" أيرونسايد Henry (Harry) Ironside (١٨٦٧–١٩٥١) وشيلدز T. T. Shields (١٨٧٣–١٩٥٥) من مدينة تورنتو قاوموا الليبرالية بكل قوتهم، وبالأخص جهود رايلي في مواجهة نظرية التطور.

أقام الإنجيليون الكليات اللاطائفية Christian Colleges. أنشأت كلية هويتون Wheaton College (١٨٦٠) ثم جامعة بوب جونز Bob Jones University (١٩٢٦) وكلية كولومبيا لدراسة الكتاب المقدس Columbia Bible College (١٩٢٣). وتم تأسيس كلية دالاس للاهوت Dallas Theological Seminary في عام ١٩٢٤ على يد لويس سبيري شافر Louis Sperry Chafer (١٨٧١–١٩٥٢) حيث أصبحت مركزًا لتدريس عقيدة التدابير الإلهية للأزمنة وعقيدة المجئ الثاني الذي يسبق الملك الألفي. كتب شافر سلسلة مجلدات في علم اللاهوت النظامي Systematic Theology (١٩٤٧–١٩٤٨) وتعتبر تعبيرًا صادقًا عن فكر الذين يؤمنون بتدبير الأزمنة والمجئ الذي يسبق الألف سنة، ثم كتب أيضًا أوليفر باسويل مجلدًا مشابهًا وإن كان ينحو أكثر إلى اتجاهات اللاهوت الإصلاحي.

(ب) قاوم الإنجيليون من غير المؤمنين بتدبير الأزمنة بل وفي بعض الحالات من غير المؤمنين بالمجئ الذي يسبق الألف سنة، قاوم هؤلاء أيضًا اتجاهات الفكر اللاهوتي المتحرر داخل الطوائف التي ينتمون إليها في فترة ما بين الحربين العالميتين. وقد تصدت كتابات جريشام ماخن J. Gresham Machen القيمة سواء كتابه حول مصدر تعاليم بولس الرسول (١٩٢١) أو كتابه الآخر عن ميلاد المسيح من العذراء (١٩٣٠) تصدرت هذه الكتابات باقتدار للهجوم الليبرالي على هذه العقائد الأساسية وتفوق روبرت ديك ويلسون Robert Dick Wilson في مؤلفاته في مجال علم الآثار.

وقد بنى مارك ماثيوز Mark Matthews (١٩٢٦–) الكنيسة المشيخية الأولى في مدينة سياتل، وأيضًا كلارنس ماكارتني Clarence C. Macartney (١٨٧٩–١٩٥٧) في مدينة بيتسبرج وكلاهما بنى كنيسة إنجيلية ضخمة تابعة لطائفة محددة.

وقد ساند بعض الإنجيليين المناضلين القضية الإنجيلية ودافعوا عنها أمام المحاكم الكنسية والمحاكم المدنية أيضًا. كان رد فعلهم تجاه العظة التي ألقاها القسيس المعمداني هاري إيمرسون فوزديك Harry Emerson Fosdick بعنوان "هل ينتصر الأصوليون؟" بأن نظموا تحركهم في المحفل العام للكنيسة المشيخية في الولايات المتحدة بحيث أجبروا فوزديك على ترك الكنيسة المشيخية التي كان يخدم فيها مؤقتًا بدل راعيها الأصلي. فأصبح فوزديك واعظًا ليبراليًا مشهورًا في كنيسة ريفرسايد في مدينة نيويورك، وهي الكنيسة التي ساهم جون روكفلر John D. Rockfeller في تمويل بنائها. إلا أن الأوضاع انعكست في عام ١٩٣٠ عندما تم تقديم بعض الوعاظ الإنجيليين مثل جريشام ماخن على سبيل المثال إلى المحاكمة الكنسية بناء على ضغوط من الليبراليين وأجبروا على ترك الطوائف التي كانوا يخدمون بين صفوفها.





وأنشأ هؤلاء الذين أجبروا على الخروج من الطوائف ذات الاتجاهات المتحررة، طوائف جديدة ومؤسسات تعليمية جديدة. ساعد جريشام ماخن (١٨٨١–١٩٣٧) في عام ١٩٣٦ في إقامة وتنظيم الكنيسة الأرثوذكسية المشيخية Orthodox Presbyterian Church وكان قد ساعد أيضًا في وقت سابق (١٩٢٩) في انشاء كلية ويستمنستر للاهوت Westminster Seminary في فيلادلفيا، حيث قام كل من كورنيليوس فان تيل Cornelius van Til وإدوارد يونج Edward Young بأعمالهما الفذة في البحث العلمي. اختلف كارل ماكنتاير Carl McIntire مع ماخن في عام ١٩٣٧ فأنشأ الكنيسة المشيخية الكتابية ثم أقام في وقت لاحق "كلية الإيمان" حيث كان يُدرس الاتجاه القبل ألفي في الفكر اللاهوتي. خرج منشقون من جماعة ماكنتاير ليؤسسوا الـ Convenant Seminary في مدينة سانت لويس. وقد انشق المعمدانيون أيضًا عن طوائفهم التي سادها الفكر اللاهوتي المتحرر حيث أسسوا رابطة تجمعهم أطلقوا عليها اسم General Association of Regular Baptists وذلك في عام ١٩٣٢ ثم في عام ١٩٤٧ أسسوا الاتحاد المعمداني المحافظ Conservative Baptist Association.

وقد أدت المقاومة الشديدة لتدريس نظرية التطور في المدارس العامة إلى عرض القضية أمام القضاء فيما عرف "بقضية سكوبس" Scopes Trial في عام ١٩٢٥ في مدينة دايتون في ولاية تنيسي. كان وليم جيننجز بريان William Jennings Bryan (١٨٦٠–١٩٢٥) يمثل المدعي بينما كان كلارنس دارو Charence Darrow (١٨٥٧–١٩٣٨) هو ممثل الدفاع عن جون سكوبس John Scopes الذي خسر القضية، ومن ثم قامت عدة مجالس تشريعية في الولايات الجنوبية بسن قوانين تحظر تعليم نظرية التطور في المدارس العامة.

٣- اتسع مجال تمثيل الاتجاه الإنجيلي على الساحة الأمريكية في الفترة ما بين نهاية الحرب العالمية الثانية ووقتنا الحاضر. وقد اتسع المشهد الإنجيلي بحيث أصبح يمثل ما لا يقل عن أربعة توجهات رئيسية. تتمسك هذه التوجهات جميعها بسلطان الكتاب المقدس دستورًا معصومًا للإيمان والأعمال، وبالإيمان بلاهوت المسيح وعقائد أخرى، ولكنها تختلف في رؤيتها لتلك العقائد وأيضًا في أسلوب تعامل الإنجيليين مع غيرهم من غير الإنجيليين. وهنا ينبغي أن نعتبر أن الهيئات الإنجيلية المعاونة للكنيسة، والجماعات الكاريزماتية، والحركة المعروفة باسم "حركة يسوع"، والجماعات العلمانية التي تجمع أعضاء الطوائف المختلفة جميعها من ضمن المشهد الإنجيلي وليست غريبة عنه.

(أ) التنوع الإنجيلي: تجد "الأصولية" Fundamentalism القديمة تعبيرًا عن نفسها في الحركات اليمينية الانفصالية المعاصرة، مثل تلك الجماعات التي قادها بوب جونز Bob Jones وكارل ماكنتاير وجون رايس John R. Rice وكثيرون غيرهم. وعبرت المجلات مثل مجلة Christian Beacon التي يكتبها الدكتور ماكنتاير وثانية أكثر اتجاهًا لليمين يحررها جون رايس واسمها Sword of the Lord، عبرت بوضوح عن هذه الحركات في مجال الصحافة المسيحية. ويقوم المجلس الأمريكي للكنائس المسيحية American

Council of Christian Churches (١٩٤١) والمجلس العالمي للكنائس المسيحية International Council of Christian Churches والذي أسسه ونظمه ماكنتاير في عام ١٩٤٨ في مدينة امستردام، تقوم هذه المجالس بدور هام في ربط هذا الاتجاه من المسيحيين في الولايات المتحدة بنظرائهم في البلدان الأخرى.

ويوجد في يمين الوسط أولئك الذين يُطلق عليهم اسم "المؤسسة الإنجيلية" Evangelical Establishment وهم ينبرون على الوحي اللفظي وعصمة الكتاب المقدس، وعلى أولوية المناداة بالإنجيل ولكن بدون إهمال العمل الاجتماعي الذي يمكن أن تقوم به الكنيسة. وتتضمن مثل هذه الجماعة أشخاصًا مثل كارل هنري Karl Henry وهارولد ليندسل Harold Lindsell وفرانسيس شيفر Francis Schaeffer وكليات لاهوت Evangelical Seminaries ومعاهد لدراسة الكتاب المقدس Bible Schools مثل معهد مودي للكتاب المقدس Moody Bible Institute وكليات ترينتي Trinity Theological Seminary, ودالاس للاهوت Dallas Theological Seminary وتشمل أيضًا كليات مثل كلية هويتون Wheaton College. ويمكن أيضًا أن نعتبر أن بعض الجهات والمؤسسات الأخرى تنتمي إلى هذه الفئة نذكر منها الاتحاد الوطني للإنجيليين National Association of Evangelists، والذي يضم في عضويته ١٠ مليون عضو، والجمعية الإنجيلية للدراسات اللاهوتية Evangelical Theological Society والتي تأسست عام ١٩٤٩، والمجلة المشهورة Christianity Today التي ظهرت أولاً في عام ١٩٥٦، وأيضًا مؤسسة بيلي جراهام الكرازية Billy Graham Evangelistic Association. ويمكن أن تشمل هذه الفئة أيضًا الكثيرين من الذين ينتمون إلى تجمع الكنائس المعمدانية في الولايات الجنوبية وأيضًا في سنودس الكنائس اللوثرية في ميسوري.

وهناك جماعة أخرى تقع في التقسيم إلى يسار الوسط من الفكر اللاهوتي الإنجيلي، وهذه الجماعة تنظر إلى كلية فولر للاهوت Fuller Theological Seminary باعتبارها رائدة وقائدة لهذا التيار. وهذا التيار الفكري اللاهوتي كثيرًا ما يوصف أصحابه أنهم من الإنجيليين الجدد وهو الوصف الذي صاغه هارولد أوكينجا Harold J. Ockenaga الذي كان أول رئيس لكلية فولر للاهوت. وبينما يتمسك الإنجيليون الجدد بالإيمان بكلمة الله باعتبارها دستورًا معصومًا للإيمان والأعمال، إلا أنهم يثيرون بعض التساؤلات حول الوحي اللفظي والعصمة المطلقة ويؤمنون أنه يمكن استخدام النقد الكتابي والاستفادة الإيجابية منه. ويمكن على سبيل المثال الرجوع إلى ما كتبه جاك روجرز Jack Rogers في كتابه Biblical Authority. وقد بدأ ظهور هذا الرأي منذ عام ١٩٦٦ أثناء مؤتمر وينهام الذي انعقد في كلية جوردون ليناقش قضية الوحي الإلهي. وقد قاوم هارولد ليندسل هذا الاتجاه وداوم على إعلان وتأكيد الوحي اللفظي للكتاب المقدس وعصمته الكاملة وذلك في كتابين: أولهما بعنوان Battle for the Bible الذي نشر في عام ١٩٧٦، ثم في الثاني الذي صدر بعنوان "الكتاب المقدس في الميزان" في عام ١٩٧٩.*

* قام القس الياس مقار بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية.(المحرر)





وتختلف هاتان الجماعتان أيضًا في موقفيهما من القدر الذي يمكن للإنجيليين أن يشتركوا به في حوارهم مع الليبراليين ودعاة الأرثوذكسية الجديدة من الجماعات المسكونية، كما يختلفان حول طبيعة وعمق العمل الاجتماعي الذي يقوم به الإنجيليون، وأيضًا حول احتمال المصالحة ما بين نظرية التطور والإعلان الكتابي عن الخليقة. وقد تبنى بعض القادة أشكالاً من نظرية التطور تعطي دورًا بارزًا لله فيها، ومنها على سبيل المثال ما يُعرف باسم Threshold Evolution. ونذكر جاك روجرز، ديوي بيجل Dewey Beegle، دانيال فولر Daniel Fuller، برنارد رام Bernard Ramm، وآخرين كثيرين من القيادات الإنجيلية الأصغر سنًا من الذين ساندوا واحدة أو أكثر من وجهات النظر الأقل محافظة.

وهناك مجموعة صغيرة أخرى من الإنجيليين الأصغر سنًا يتجهون بدرجة أبعد نحو اليسار في موقفهم من قضايا العمل الاجتماعي وحركة تحرر المرأة. وقد اجتمع الكثيرون من قادتهم في شيكاغو في نوفمبر ١٩٧٣ حيث أصدروا إعلانًا يعبر عن توبتهم عما فات الإنجيليين في الماضي من الاهتمام بالقضايا الاجتماعية والاقتصادية وناشدوا الكنيسة ونادوا بالمزيد من المشاركة السياسية في إيجاد الحلول المناسبة للمشكلات الاجتماعية. وينادي رونالد سايدر Ronald J. Sider بأن يعيش المؤمنون نمط حياة أبسط. بينما نادى بول هنري Paul Henry الذي يُعلم في كلية كالفن بزيادة مشاركة المؤمنين في العملية السياسية بهدف التأثير على مجريات الأمور تحقيقًا للعدالة الاجتماعية. وكانت مثل هذه الآراء والاهتمامات تجد في بعض المجلات المسيحية Christian Periodicals مثل مجلة Sojourners التي كان جيم واليس Jim Wallis رئيسًا لتحريرها، منبرًا يعبر عنها بصفة منتظمة.

عملت ليثا سكانزوني Letha Scanzoni وغيرها كثيرات من الشابات العاملات المرتبطات بالجماعة المذكورة قبلاً، عملت على صياغة نظرية لاهوتية ذات توجه أنثوي Feminist Theology وساعدت على عقد اجتماع إنجيلي للمناديات بهذا الفكر وذلك في مدينة واشنطن في عام ١٩٧٥. وقد كوَّن رابطة للسيدات الإنجيليات Evangelical Women's Caucus تعمل على رعاية مصالح النساء المسيحيات العاملات بما فيهن اللاتي يخترن الحياة بدون زواج. وهن يزعمن أن عضوية هذه الرابطة بلغت ٢٠٠٠ عضوة. وقد طبقت هذه الرابطة بعض مبادئ لاهوت التحرر وصولاً إلى صياغة فكر لاهوتي أنثوي يدافع عن حقوق المرأة ومطالبها في المجتمع.

(ب) الهيئات الإنجيلية المعاونة للكنيسة: ظلت الحدود ما بين هذه الجماعات الأربع من الإنجيليين منذ عام ١٩٤٥ غير محددة إلى حد كبير، بحيث يجد أي شخص نفسه أنه يقع في أكثر من جماعة منها فيما يختص بنقاط الاختلاف المتنوعة. إلا أنهم جميعهم يريدون أن يتم تصنيفهم باعتبارهم إنجيليين ويتعاونون مع الهيئات التي يطلق عليها وصف الهيئات المعاونة، ماعدا اليمينيين منهم فهم وحدهم الذين لا يميلون إلى التعاون مع هذه الهيئات وتتعاون هذه الهيئات مع معظم الطوائف الموجودة. وتمثل هذه الهيئات، التي تنمو مع الأيام، واحدة من أهم العناصر المؤثرة التي ظهرت في تاريخ الكنيسة، تقوم بخدمات متنوعة للمجتمع المسيحي.

وتظهر الرغبة في التعاون الإنجيلي في الهيئات والمنظمات المسكونية التي تكونت. فاليمينيون يمثلهم المجلس الأمريكي للكنائس الأمريكية American Council of Christian Churches. أما الذين يمثلون اتجاه الوسط وبعض الذين يمثلون اليسار يجمعهم في تعاونهم ما يعرف باسم الرابطة القومية للإنجيليين National Association of Evangelicals، وهو الذي يقف موازيًا لما يُعرف بالمجلس القومي للكنائس National Council of Churches والذي له اتجاهاته المتحررة.

وإذا ما استثنينا عددًا قليلاً من الأفراد من ذوي الميول اليمينية، فقد عمل الإنجيليون معًا في عدد من الأنشطة أو الأنماط الكرازية المتنوعة لتحقيق إرسالية المسيح العظمى للكنيسة. فالكثير من تلك الهيئات- بقيادة رجال خلاَّقين- تسعى جاهدة للوصول إلى جيل الشباب برسالة الإنجيل.

بدأت الهيئة المعروفة باسم الإنترفارسيتي Inter-Varsity Fellowship أول ما بدأت في انجلترا في عام ١٩٢٣، ثم نظمت خدمتها في جامعات كندا في عام ١٩٢٨ وتطورت خدمتها في الولايات المتحدة حتى تم تنظيم الخدمة فيها في عام ١٩٤١ بعد أن وصلت إلى حجم كبير. ثم نشأت حركة أخرى بين الشباب لتشجيع اهتمام الشباب بالعمل المرسلي واسمها Foreign Missions Fellowship وارتبطت هذه الحركة مع هيئة الإنترفارسيتي منذ عام ١٩٤٥. وقد قامت هذه الحركة بمسئولية تنظيم المؤتمر السنوي للطلبة الجامعيين المهتمين بالعمل المرسلي وهو الذي عُرف باسم Urbana Mission Conference، وذلك منذ انعقد أول مؤتمر من هذا النوع في تورنتو بكندا في عطلة أعياد الميلاد لعام ١٩٤٥ حيث حضره سبعمائة طالب وطالبة.

أسس بيل برايت William (Bill) Bright هيئة Campus Crusade في عام ١٩٥١ وذلك لتقديم رسالة الإنجيل للطلبة في جامعة لوس أنجلوس. كان بيل برايت في ذلك الوقت رجل أعمال يدرس اللاهوت، وقد نادى بأسلوب إيجابي للكرازة وبعملية منظمة لتلمذة الطلبة الذين يقبلون الإيمان. وقد ساعدت هذه الهيئة على تنظيم وعقد مؤتمر في مدينة دالاس في أمريكا في عام ١٩٧٢ عرف باسم Explo، حيث اجتمع ٧٠ ألف من الشباب لتلقي تدريب مكثف على الكرازة.

ظهرت هيئة Youth for Christ أول ما ظهرت في مدينة انديانابوليس في عام ١٩٤٣ وذلك في حملة كرازية أشرف عليها روجر مالزبوري Roger Malsbruy ثم أصبح توري جونسون Torrey Johnson أول رئيس لتلك الهيئة في عام ١٩٤٤، وكان بيلي جراهام Billy Graham أول ممثل متجول لها. أنشأ جيمس رايبورن James Rayburn هيئة عُرفت باسم Young Life وذلك في عام ١٩٤١ وكان هدفها الوصول إلى طلبة المدارس الثانوية عن طريق تنظيم مجموعات لدرس الكتاب بينهم.

أما هيئة Torchbearers أو "حملة المشاعل" والتي كان مركزها في انجلترا في مدينة Capernwray فقد تأسست بعد الحرب العالمية الثانية على يد إيان توماس Ian Thomas وقد ساهمت هذه الهيئة من خلال الكرازة الفردية التي يقوم بها أعضاؤها وبرامج الدراسة المكثفة للكتاب





المقدس في التأثير على حياة آلاف الأشخاص حول العالم. وقد تكونت أيضًا هيئات ومؤسسات أخرى كثيرة تهدف كل منها إلى سد احتياج معين لجماعات خاصة. فمثلاً رابطة الضباط المسيحيين Officer's Christian Fellowship والتي تم تنظيمها في الولايات المتحدة في عام ١٩٤٣، وصلت بخدمتها إلى ما يزيد عن ٣٥٠ ألف من ضباط القوات المسلحة. أنشأ دوسون تروتمان Dawson Trotman هيئة الملاحين Navigators أثناء الحرب العالمية الثانية بهدف الوصول إلى البحارة برسالة المسيح وتلمذتهم في الحياة المسيحية. وقد استعان بيلي جراهام Billy Graham بالـ Navigators لتطوير برنامج متابعة المؤمنين الجدد في خدمته الكرازية.

وفي عام ١٨٩٨ أسس مجموعة من رجال الأعمال هيئة لتوزيع الكتاب المقدس تُعرف باسم "الجدعونيين" Gideons International وقد خصص أعضاء هذه الهيئة الكثير من أموالهم ووقتهم لوضع نسخ من الكتاب المقدس في الفنادق والمدارس وغيرها. وقد وزعوا أثناء الحرب العالمية الثانية نسخًا من العهد الجديد للمجندين في مختلف أفرع القوات المسلحة الأمريكية.

بدأت اللجنة الدولية لرجال الأعمال المسيحيين Christian Businessmen's Committee International نشاطها في عام ١٩٣١ ونظمت نفسها رسميًا في عام ١٩٣٧ بهدف مساعدة رجال الأعمال في الكرازة لزملائهم وأيضًا لتشجيع وتنمية حياتهم الروحية الخاصة ويمتد نشاط هذه الهيئة اليوم ليغطي العالم كله.

وتسعى الهيئة التي تحمل اسم International Christian Leadership للوصول إلى القادة السياسيين على مختلف مستويات الإدارة الحكومية وتقديم الإنجيل لهم إلى جانب توفير الدعم الروحي والمساندة الأدبية لهذه القيادات وذلك من خلال دعوتهم لحضور حفلات للإفطار والصلاة. وتقوم هذه الهيئة بهذا النشاط منذ عام ١٩٥٤ بقيادة وتوجيه شخص اسمه أبراهام فيرايد Abraham Vereide.

نجح فرانسيس شيفر Francis Schaeffer في الوصول إلى العديد من المثقفين والطلبة والدارسين الذين تستهويهم الفلسفة، وذلك من خلال توصيله الإنجيل لهم باللقاءات الدراسية التي يعقدها في مقر إقامته في سويسرا والمعروف باسم L'Abri، وأيضًا من خلال كتاباته المتعددة والأفلام التي أشرف على إنتاج مادتها العلمية. ويقدم شيفر الإنجيل على مستوى فكري وفلسفي راقٍ وهو يعتبر من المدافعين الأقوياء عن الرأي القائل بوحي الكتاب المقدس سواء فيما يكتبه من كتب ومقالات أو في محاضراته التي يلقيها في المحافل الدولية العامة مثل مؤتمر لوزان للكرازة.

أنشأ جيمس كينيدي James Kennedy الحركة المعروفة باسم الانفجار الكرازي Evangelism Explosion وذلك من خلال الكنيسة المشيخية التي يخدم فيها في مدينة فورت لودردال في فلوريدا والمعروفة باسم كنيسة كورال ريدج. فهو يقوم من خلال هذه الحركة بتدريب شعب الكنائس من خلال التعليم والتدريب العملي على فن الزيارة الكرازية للبيوت. وقد انتشر استخدام هذا الأسلوب الذي ابتكره سواء في الولايات المتحدة أو أماكن أخرى حول العالم.

دونالد ماكجافرن Donald McGavran الذي يعمل خادمًا في طائفة الكنيسة المسيحية، ابتكر أسلوبًا يجمع ما بين الكرازة والأساليب العلمية للبحث في مجال الدراسات الاجتماعية والثقافية، وبالأخص في الحقول التبشيرية. وأصبح ماكجافرن في عام ١٩٦٥ رئيسًا لمدرسة الإرسالية العالمية School of World Mission في كلية فولر للاهوت. وقد أكمل زملاؤه العمل الذي بدأه، واستخدم الخريجون الأساليب التي ابتكرها لتحليل احتياجات الحقول التبشيرية وتطوير رسالة الكنيسة في هذه المناطق لتكون أكثر ملاءمة للظروف وتحقق النمو المطلوب للكنيسة فيها.

شهدت الولايات المتحدة الأمريكية الجهود المتخصصة للكرازة في مراكز خارج مباني الكنائس من أيام دوايت مودي Dwight L.Moody المبشر المعروف. وقد بدأت خدمة بيلي جراهام Billy Graham (١٩١٨-) بالحملة الكرازية التي كان مركزها في خيمة أقامها في مدينة لوس أنجلوس في عام ١٩٤٩. وفي حملته التي عقدها عام ١٩٥٧ في مدينة نيويورك اتخذ ما يقرب من ٥٧ ألف شخص من بين المليونين الذين حضروا هذه الاجتماعات قرارًا محددًا بقبول المسيح مخلصًا شخصيًا لهم. وفي عام ١٩٧٣ حضر ما يزيد عن ثلاثة ملايين شخص الاجتماعات التي عقدها في مدينة سول في كوريا الجنوبية لمدة خمسة أيام. ولقد ساعد البرنامج الإذاعي الذي بدأه في عام ١٩٥٠ والمعروف باسم "ساعة القرار" والذي أصبح فيما بعد برنامجًا تليفزيونيًا، ساعد على اتساع دائرة تأثير خدمة بيلي جراهام، هذا إلى جانب العديد من الأفلام التي أنتجتها هيئته التبشيرية. ولقد استطاع بيلي جراهام أن يتجنب الاتهامات بتحقيق المكاسب المادية أو التجارية وذلك بأنه دأب على تسجيل وحفظ دفاتر محاسبية دقيقة إلى جانب تحديد مرتبات شهرية معروفة له ولمساعديه.



*بيلي جراهام، من أبرز القادة الإنجيليين في منتصف القرن العشرين.*

وقد ساهم جراهام في دعم ومساندة المؤتمر العالمي للكرازة المعروف باسم World Congress on Evangelism الذي قامت بدعايته مجلة Christianity Today في خريف عام ١٩٦٦. وقد اجتمع في هذا المؤتمر ما يقرب من ١٢٠٠ من القيادات الإنجيلية من كل أنحاء العالم وذلك للمناقشة والصلاة حول المهمة التي تواجه الكنيسة لتوصيل الإنجيل للعالم كله. وقد طرحت في هذا المؤتمر كل القضايا المتعلقة بالكرازة المبنية على الكتاب المقدس من جهة ملاءمتها لاحتياجات البشر ومن جهة طبيعتها وأهميتها والمشاكل التي تواجهها.





ثم عقد بعد ذلك لقاء جمع الإنجيليين في أسيا في سنغافورة عام ١٩٦٨ وذلك لمناقشة الكرازة في أسيا. أما أكبر مؤتمر عن الكرازة فقد تم عقده في مدينة لوزان بسويسرا Lausanne Conference on Evangelization في يوليه ١٩٧٤ حيث حضره ما يزيد عن ٢٤٠٠ مندوب يمثلون ١٥٠ دولة معظمها من الدول البروتستانتية. والبيان الذي أصدره هذا المؤتمر والمعروف باسم وثيقة لوزان Lausanne Convenant يؤكد على الولاء الكامل للكتاب المقدس باعتباره وحيًا إلهيًا ودستورًا معصومًا للإيمان والحياة، وأيضًا تضمن البيان ما يفيد أن العمل الاجتماعي جزء أصيل من رسالة الإنجيل، وقد تم إقرار هذا الأمر نتيجة للضغط الذي مارسته وفود دول العالم الثالث. وفي يونيه ١٩٨٠ انعقدت في مدينة باتايا في تايلاند Thiland Conference ندوة دراسية حول الكرازة في العالم عُرفت باسم Consultation on World Evangelization اشترك فيها نحو ٦٠٠ عضو بخلاف ٣٠٠ شخص غيرهم من ٨٧ دولة، وذلك لمناقشة الوضع الحالي لجهود الكرازة في مختلف البلدان وأيضًا لبحث مختلف الأساليب اللازمة للوصول إلى ما يقرب من ثلاثة بلايين شخص من غير المسيحيين وتقديم رسالة الإنجيل لهم.

وقد نجح الإنجيليون في استخدام الإذاعة والتليفزيون في الكرازة. ومن أول البرامج الرائدة في مجال البرامج الكرازية الإذاعية يبرز برنامجان؛ أولهما قدمه تشارلز فولر Charles E. Fuller واسمه Old-Fashioned Revival Hour والثاني برنامج Lutheran Hour أو "ساعة الإصلاح" الذي يقدمه المركز اللوثري بقيادة والتر ماير Walter Maier. وقد بلغ عدد مستمعي ومشاهدي برنامج بيلي جراهام Billy Graham سواء في الإذاعة أو التليفزيون عدة ملايين.

وقد أدرك خدام آخرون مثل كاثرين كولمان Kathryn Kuhlman، ريكس همبارد Rex Humbard، أورال روبرتس Oral Roberts إمكانات التليفزيون كوسيلة إعلامية فعالة وطوروا استخدامهم له في خدماتهم. وتصل برامج مثل برنامج بات روبرتسون Pat Robertson المعروف باسم 700 Club وبرنامج جيم باكر Jim Bakker باسم PTL Club وأيضًا برنامج جيري فالويل Jerry Falwell واسمه Old Time Gospel Hour. تصل كل هذه البرامج وغيرها إلى الملايين من المشاهدين والذين يتبرعون بما يقرب من ١٥٠ مليون دولار سنويًا. وفي أمريكا يوجد ستة وثلاثون قناة تليفزيونية تبث البرامج الدينية وأيضًا ١٣٠٠ محطة إذاعية دينية تخدم ما يُقدر بخمسين مليون شخص كل أسبوع.

وقد قامت العديد من الهيئات الإنجيلية المعاونة للكنيسة بتشجيع ودفع العمل الاجتماعي. ففي عام ١٩٥١ أنشأ بوب بيرس Bob Pierce الهيئة المعروفة باسم World Vision والتي يقودها باقتدار ستانلي مونيهام Stanley Mooneyham. وقد بلغت ميزانيتها في عام ١٩٧٩ ما يقرب من ٦٨ مليون دولار تم جمع ٤٧ مليون دولار منها في الولايات المتحدة وحدها. وتشمل خدمة دعم ملاجئ الأيتام في بلاد عديدة. وقد ساعدت بتقديم الأغذية والأدوية ومعسكرات إيواء اللاجئين في مناطق الحروب والكوارث الطبيعية. ولديهم أيضًا خطة للمعونة الطبية Medical Assistance Plan ساهمت في تدبير الأدوية والمهمات الطبية

للمستشفيات الإرسالية وجموع المحتاجين في أعقاب الكوارث الطبيعية في بلاد مثل الباكستان وكمبوديا.

وتساعد الهيئة التي أنشأها دافيد ويلكرسون David Wilkerson والمعروفة باسم Teen Challenge وتعمل في مدينة نيويورك، في الوصول إلى الشباب من مدمني المخدرات. وتقول هذه الهيئة إن ٧٠٪ من مدمني المخدرات الذين قدمت الخدمة لهم قد تم شفاؤهم بالكامل، وتعتبر هذه النسبة أعلى بكثير من أي هيئة اجتماعية مماثلة. وقد ساهم الكتاب الذي كتبه ويلكرسون بعنوان "الخنجر والصليب" في توسيع دائرة الاهتمام بهذه الخدمة.

وقد ساهم الإنجيليون بدور فعال في دعم العمل المرسلي بكل أشكال الكرازة المتنوعة التي قام بها المرسلون خارج أمريكا. وقد انعقد مؤتمر عام لمناقشة دور الكنيسة في العمل المرسلي حول العالم وذلك في مدينة هويتون في ولاية إلينوي الأمريكية في أبريل ١٩٦٦ Wheaton Missions Conference. وقد ناقش هذا المؤتمر الوضع الحالي للإرساليات كما ناقش الخطط المستقبلية للعمل المرسلي. وقد اشترك فيه ٩٣٨ شخصاً يمثلون ١٥٠ جمعية أو هيئة إرسالية يمثلون ١٣ ألف مرسل يعملون في ٧١ دولة حول العالم. وقد أعلن البيان الختامي لهذا المؤتمر Wheaton Declaration موقفاً قوياً بالاعتراف بأن الكتاب المقدس هو أساس البشارة بالصليب ورسالة الكنيسة.

وكان من نتائج قتل خمسة من المرسلين على يد قبائل الأوكا في الإكوادور في عام ١٩٥٥، أن بدأت جهود لتشجيع الشباب على الانخراط في العمل المرسلي. وقد ساعدت المؤتمرات الدورية التي كانت تعقد لشباب الجامعات في مدينة إربانا Aurbana Mission Conferences في إلينوي، والتي انعقد أولها في تورنتو عام ١٩٤٥ كما أسلفنا، ساعدت هذه المؤتمرات على تطوع العديد من الشباب لهذه الخدمة. وفي المؤتمر الذي انعقد في عام ١٩٧٩ اجتمع ١٧ ألف من الطلبة ليدرسوا كلمة الله وليبحثوا موقفهم من تحدي العمل المرسلي. وقدمت الفرص للأشخاص من أصحاب التخصصات المطلوبة للذهاب إلى الخدمة في الحقل المرسلي لفترات قصيرة Short Terms Abroad تبدأ من سنة واحدة تقضى في الخدمة في إحدى البلدان الأجنبية.

وقد بدأت هيئة Wycliffe Bible Translators، وهي هيئة تشرف على إعداد الترجمات الجديدة للكتاب المقدس في اللغات المختلفة، منذ عام ١٩٤٢ في دعم المبشرين الذين لهم دراية باللغات ودراستها، والذين عملوا على تأليف أبجديات للهجات واللغات القبلية التي لم تكن تكتب من قبل، وأيضاً العمل على ترجمة أجزاء من كلمة الله لهذه القبائل. وقد كان لتوجه هذه الهيئة بقيادة كاميرون تاونسند Cameron Townsend بالابتعاد الكامل عن السياسة أثره البالغ في تشجيع العديد من الحكومات على السماح لهؤلاء المبشرين بالوصول إلى قبائل لم تكن حتى تلك الحكومات قادرة على الوصول إليها، وذلك للعمل على تدوين لغاتهم ولهجاتهم المحلية ومن ثم ترجمة الكتاب المقدس إلى تلك اللغات الجديدة.

وقد استخدمت الهيئات التبشيرية الإذاعات





بشكل جيد Missions and Radio – والتليفزيون أيضاً في بعض الأحيان – لنشر رسالة الإنجيل. وقد برزت جهود بعض المحطات الإذاعية الرائدة في هذا المجال مثل محطة HCJB في الاكوادور، ومحطة ELWA في ليبريا في أفريقيا وهي تعمل منذ عام ١٩٥٠، وأيضاً محطة FEBC في مانيلا، وقد قامت هذه المحطات كلها بجهد رائد في استخدام وسائل الاتصال الحديثة لتوصيل الإنجيل لغير المسيحيين.

وفي عام ١٩٦٠ وفي جواتيمالا، طوّر هاري ستراكان Harry Strachan الذي يعمل مع إرسالية أمريكا اللاتينية استراتيجية كرازية عُرفت باسم "الكرازة في العمق" Evangelism-in-Depth حيث تم تطبيقها لأول مرة في جواتيمالا على مستوى دولة بأكملها. وتتضمن هذه الخطة تنظيم المؤمنين المحليين في مجموعات للصلاة وتدريبهم على كيفية توصيل الإنجيل لجيرانهم من حولهم. وقد تم استخدام هذا الأسلوب في كل أنحاء العالم.

بدأ البرنامج المعروف باسم "الدراسات اللاهوتية بالمراسلة" Theological Education by Extension (TEE) في عام ١٩٦٢، وعلى يد مجموعة من المرسلين المشيخيين في جواتيمالا. ويوفر هذا البرنامج الفرصة للعلمانيين الذين يقومون بخدمة الرعاية الروحية أن يدرسوا الكتاب المقدس والموضوعات الأخرى المرتبطة به من خلال مطبوعات معدة خصيصاً، تدعمها زيارات دورية يقوم بها مدرسون مدربون، وذلك في نفس الوقت الذي يستمر فيه هذا الراعي في خدمته ووظيفته في كنيسة محلية. وقد تم استخدام هذه الطريقة في عدة بلدان في أنحاء العالم وأثبتت نجاحها.

تدعمت الجهود المرسلية بالتعاون الذي يحدث ما بين مختلف الجمعيات الإرسالية في ما يُعرف باسم الرابطة اللاطائفية للجمعيات الإرسالية Interdenominational Foreign Missions Association (وهي التي تأسست عام ١٩١٧ بواسطة الإرساليات التي ليس لها انتماء طائفي)، وأيضاً الرابطة الإنجيلية للإرساليات الخارجية Evangelical Foreign Missions Association والتي تأسست في عام ١٩٤٥ بواسطة الرابطة الوطنية للإنجيليين National Association of Evangelicals. وتقوم هذه المنظمات بخدمة ما يزيد على ثلث عدد المرسلين الذين يخرجون من أمريكا الشمالية رغم صغر ميزانياتها نسبياً، فهي توفر المعلومات، والخدمات، وتقوم أيضاً بعملية تنسيق للجهود التبشيرية.

بدأ المسيحيون في العالم الثالث في القيام بدور نشط في الخدمة المرسلية. وقد بلغ عدد المرسلين الذين خرجوا من دول العالم الثالث في عام ١٩٨٦ ما يقرب من ٢٠٠٠٠ شخص. ظهر العديد من المؤسسات التعليمية لتغطية احتياجات العديد من الطلبة لتلقي العلم تحت تأثير مسيحي. فقد تم تأسيس العديد من المدارس الابتدائية والثانوية سواء في إطار الطوائف المختلفة أو في إطار الجماعات المستقلة، وقد اجتهدت هذه المؤسسات لتطوير مناهج تعليمية مرتبطة بالكتاب المقدس وليست واقعة تحت التأثير الدنيوي الإنساني الذي يبدو أنه يسيطر على معظم مدارس التعليم العام.

وتعتبر كلية هويتون Wheaton College وكلية كالفن Calvin College على التوالي نماذج

للمعاهد اللاطائفية والطائفية التي تفتخر بتراثها الإنجيلي في نفس الوقت الذي تحتل مكانها المرموق بين المؤسسات الأكاديمية للدراسات العليا. أما كليات اللاهوت Evangelical Seminaries مثل كلية فولر Fuller Theological Seminary التي تأسست في عام ١٩٤٧، وكلية دالاس Dallas Theological Seminary، فهي تقوم بتدريب وتعليم الإنجيليين الذين يرغبون في العمل كرعاة سواء في الكنائس التي تتبع طوائف أو غيرها من الكنائس المستقلة.

وينتج الإنجيليون أيضًا العديد من المطبوعات التي تغطي احتياج العلمانيين إلى جانب احتياجات المتخصصين من الدارسين. ويصل عدد الاشتراكات في المجلات المسيحية الإنجيلية في أمريكا إلى أرقام كبيرة. فمثلاً مجلة Christianity Today لديها ٢٠٠ ألف مشترك ومجلات مثل Eternity و Moody Monthly لديها ما يقرب من ٣٠٠ ألف مشترك، ومجلات مثل United Evangelical Action وغيرها يقرأها الكثيرون من أعضاء الكنائس وخدامها. أما المجلات والدوريات المتخصصة مثل مجلة Bibliotheca Sacra وهي النشرة الدورية للجمعية اللاهوتية الإنجيلية وأيضًا النشرة الدورية التي يصدرها الاتحاد الأمريكي للعلماء، وأيضًا مجلة Fides et Historia التي تصدر عن مؤتمر الإيمان والتاريخ. هذه كلها نماذج للنشرات الدورية المتعمقة التي تخاطب القطاعات المختلفة من الدارسين الإنجيليين.

وإذا أردنا سرد بعض نماذج من العلماء الذين ساهموا في كتابة بعض المؤلفات الدراسية الأكاديمية التي لها طابع إنجيلي مميز، يمكن أن نذكر إدوارد يونج Edward Young في العهد القديم، كارل هنري Carl F. H. Henry في الدراسات اللاهوتية، كورنيليوس فان تيل Cornelius van Til في مجال الدفاعات وأيضًا جوردون كلارك في الفلسفة. ونذكر أيضًا بعض دور النشر المشهورة Evangelical Publishers مثل دار إيردمانز للنشر، وزندرفان للنشر، دار بيكر، ومطبعة تشانل وتندال وورد ومطبعة مودي. هذه كلها أيضًا ساهمت في نشر المؤلفات الدراسية إلى جانب العديد من الكتب الأخرى المفيدة والتي تباع على نطاق واسع في ٢٤٠٠ مكتبة إنجيلية. وتتعاون دور النشر هذه في إخراج وإنتاج المؤلفات الدراسية الكبرى من موسوعات ومراجع كتابية وغيرها.

وقد تعاون الإنجيليون أيضًا في ترجمة ونشر الترجمات الحديثة للكتاب المقدس التي لاقت قبولاً واسعًا. فلقد تم بيع ما يقرب من ٢٠ مليون نسخة من الترجمة التي كتبها كينيث تايلور Kenneth Taylor والمعروفة باسم Living Bible وهي ترجمة للكتاب المقدس في لغة معاصرة ميسرة. وظهرت أيضًا الترجمة المعروفة باسم New American Standard Version Bible وهي عبارة عن ترجمة دقيقة وضعت في الاعتبار أفضل ما وصلت إليه الدراسات الكتابية. وهناك أيضًا الترجمة المعروفة باسم New International Version Bible والتي نتوقع أن تأخذ في المستقبل مكان الترجمة القديمة للكتاب المقدس ويستخدمها عامة الشعب المسيحي الناطق بالإنجليزية.

(ج) الكنائس الخمسينية Classic Pentecostalism والحركات الكاريزماتية: تمثل كل من الكنائس الخمسينية التقليدية والحركات





الكاريزماتية الأحدث التي ظهرت في مختلف الطوائف الجزء الأكبر من "القوة الثالثة" وهو الوصف الذي صاغه هنري فان دوسن Henry van Dusen في عدد ٩ يونيه ١٩٥٨ من مجلة Life. يتزايد تعاون هؤلاء مع باقي الإنجيليين في أنشطة الهيئات المعاونة للكنيسة بينما ينبرون بشكل واضح على دور الروح القدس في حياة الأفراد. وجماعات الكنائس الخمسينية التقليدية تنبر على التكلم بألسنة باعتباره الدليل أو العلامة على نوال معمودية الروح القدس وذلك استنادًا إلى ما حدث في الكنيسة الأولى.

وعند بداية هذه الطوائف كان معظم أعضائها من خلفيات الكنائس الوسلية المعروفة بنهضة القداسة أو غيرها من الجماعات الإنجيلية المصلحة. وربما يمكن إرجاع بداية هذه الحركة إلى افتتاح تشارلز بارهام Charles Parham لكلية بيت إيل للدراسات الكتابية وذلك في مدينة توبيكا في ولاية كانساس في أكتوبر ١٩٠٠. ففي أول يناير من العام التالي كان الطلبة يدرسون عمل الروح القدس في سفر أعمال الرسل، حيث طلبت إحدى الطالبات وكان اسمها أجنس أوزمان Agnes Ozman من الطلبة الآخرين أن يضعوا أيديهم عليها لكي تنال عطية الروح القدس. فحدث أنها بدأت تتكلم بألسنة، وبعد ذلك ببعض الوقت تكلم طلبة آخرون أيضًا بألسنة.

افتتح بارهام مدرسة أخرى في عام ١٩٠٥ في مدينة هوستون في ولاية تكساس. وكان من بين طلابها من السود، طالب اسمه ويليام سيمور William Seymour وهو الذي أصبح فيما بعد مسئولاً أو قائدًا للاجتماع التبشيري الذي كان يعقد في ٣١٢ شارع أزوسا في مدينة لوس أنجلوس في عام ١٩٠٦. وأصبح التكلم بألسنة من الظواهر العادية الشائعة في هذه الاجتماعات التبشيرية. وكان الناس الذين يأتون لزيارة هذه الاجتماعات يختبرون مثل هذه الاختبارات ويحملون معهم هذه الرسالة إلى بلاد أخرى.

أما الكنائس الرسولية الحالية فقد تأسست في عام ١٩١٤ في أركانساس ثم انشقت عنها جماعة تؤمن بتعاليم سابيليوس وتصر على إجراء المعمودية باسم يسوع فقط، وكونت هذه الجماعة طائفة صغيرة عرفت باسم كنيسة يسوع. وقد حمل توماس بارات Thomas B. Barratt هذه الرسالة وذلك الاختبار من الكنيسة في لوس انجلوس إلى النرويج، بينما أصبح ليوي بيثروس قائدًا لتلك الحركة في السويد.

انتشرت الحركة الخمسينية في انجلترا من خلال خدمة أحد الرعاة الأسقفيين وهو ألكسندر بودي Alexander Boddy. أما في شيلي فيمثل الخمسينيون ٨٠٪ من الإنجيليين وذلك نتيجة لخدمة ويليس هوفر Willis Hoover الخادم الميثوديستي. وقد حمل الخمسينيون الأمريكان رسالتهم إلى البرازيل، حيث يبلغ عدد الخمسينيين هناك ما يزيد على ٤ مليون شخص. وقد ابتدأ الخمسينيون جهدًا لتنسيق جهودهم حول العالم وذلك بعقد أول مؤتمر لذلك في مدينة زيورخ في عام ١٩٤٧. وهم الآن يقولون إن عددهم حول العالم بلغ ٨ مليون عضو، يشترك جميعهم في شكل من أشكال الكرازة الإيجابية.

ارتاب الخمسينيون التقليديون Classic

Pentecostals في أول الأمر عندما بدأت الحركة الكاريزماتية في الطوائف القديمة وذلك في كاليفورنيا في عام ١٩٦٠. تكلم دينيس بنيت Denis Bennett بألسنة لأول مرة عام ١٩٤٩ حيث كان راعياً للكنيسة الأسقفية في فان نويز ثم ما لبث أن نال آخرون من نفس كنيسته هذا الاختبار عينه. وساعدت جين ستون Jean Stone، التي كانت عضواً في هذه الجماعة على نشر هذا التعليم من خلال مجلتها Trinity في الفترة من ١٩٦١-١٩٦٦. وكان لاري كريستنسن Larry Christensen قائداً للحركة الكاريزماتية اللوثرية.

أما الحركة الكاريزماتية الكاثوليكية Catholic Pentecostalism فقد ظهرت أولاً في مؤتمر مشترك بين الطلبة وهيئة التدريس في جامعة ديوكزن في بيتسبرج في عام ١٩٦٧. وقد حمل رالف كيفر Ralph Keifer رسالة هذه الحركة معه إلى جامعة نوتردام في فبراير ١٩٦٧، حيث تكلم العديد من أفراد هيئة التدريس ومن الطلبة بألسنة وعندما اجتمع ما يقرب من عشرة آلاف شخص في روما في عام ١٩٧٥، خاطب البابا بولس السادس هذا الاجتماع بلهجة تحمل معنى تقديره لهم. وقد برز الكاردينال ليو سوينينز Cardinal Leo Suenens من بلجيكا باعتباره من أبرز رموز هذه الحركة. وفي عام ١٩٧٦ اجتمع ما يقرب من ٣٥ الف من الكاثوليك الكاريزماتيين في جامعة نوتردام وذلك في مؤتمر خُصص لمناقشة نمو قوة ونفوذ هذه الحركة في الأوساط الكنسية.

وقد بقي معظم الكاريزماتيين Charisamtic Pentecostalism في كنائسهم وطوائفهم ولم يتركوها. وقد ساعدت رابطة رجال الأعمال التي أسسها ديموس شاكاريان Demos Shakarian في عام ١٩٥٣ وتعرف باسم Full Gospel's Businessmen's Fellowship، ومعها خدمة دافيد دوبليسيس David Duplessis من جنوب أفريقيا والمشهور بلقب "Mr. Pentecost"، ساعدت هاتان الحركتان على انتشار الحركة الكاريزماتية وتوسيع مجال قبولها. والكاريزماتيون في أغلبهم ينتمون إلى الطبقة الوسطى، ولا يميلون إلى الانفصالية ومعظمهم من سكان المدن ومسكونيين. كما يغلب عليهم الاتجاه نحو قبول التعددية في الفكر اللاهوتي. أما الكنائس الخمسينية التقليدية فقد كانت في بدايتها تجمعات عمالية في كنائس مرتبطة بمصانع أو مناطق صناعية ويغلب عليهم الطابع الصاخب في العبادة. ولكن توجههم اللاهوتي في معظمه أصولي محافظ ولديهم غيرة كبيرة على الكرازة الإيجابية.

(د) شهدت حقبة الستينيات تمرد الشباب من الطبقة الوسطى على أهلهم وعلى مجتمعهم. وقد جمعت هذه الحركة التي اشتهرت باسم Jesus People بعضاً من هؤلاء الشباب وإن كانت الكنيسة اليوم قد استوعبت هذه الحركة جزئياً. تبنى أعضاء هذه الحركة مبدأ الحياة المشتركة في مجتمعات وكانوا ينبرون على أهمية المحبة، وكانت لهم غيرة واضحة في الكرازة الإيجابية عن المسيح في الشوارع، كما كانوا يدرسون الكتاب المقدس باجتهاد. وقد بلغت هذه الحركة منتهى قوتها على الساحل الغربي للولايات المتحدة وبالأخص في ولاية كاليفورنيا. وكانت تجمعاتهم حتى عام ١٩٧٥ مازالت قادرة على اجتذاب الآلاف؛ حيث بلغ عدد المشاركين في إحدى هذه التجمعات في بنسلفانيا في عام ١٩٧٥ خمسة وثلاثين ألف شخص. كان





حماسهم مشجعاً لكنهم كانوا يفتقرون للتعليم العقائدي السليم.

(هـ) الهيئات الإنجيلية: ظهرت هذه الهيئات في الكثير من الطوائف القائمة بهدف دعوة الكنيسة للعودة إلى العقيدة الإنجيلية الأصلية وإلى نمط الحياة الذي يتفق معها. تأسست لجنة العلمانيين المشيخيين Presbyterian Lay Committee في عام ١٩٦٥، وأيضاً اتحاد المشيخيين من أجل القضايا الكتابية Presbyterian United for Biblical Concern (١٩٦٥) وتعمل هاتان الحركتان في إطار الكنيسة المشيخية المتحدة في الولايات المتحدة الأمريكية. وتقوم جماعة الخبر السار Good News التي يقع مركزها الرئيسي في ديلمور في ولاية كنتاكي بنفس الدور في إطار الكنيسة الميثودية المتحدة وذلك منذ تأسيسها في عام ١٩٦٧. وتقوم هيئة Lutherans وأيضاً Fellowship of Witness في الكنيسة الأسقفية بنفس هذا الدور. ويسعى هؤلاء الإنجيليون الغيورون على تشجيع طوائفهم Evangelicalism in Older Denominations للعودة لالتزامهم الأول بالكرازة والالتزام التعليمي الأصيل.

ومن كل ما تقدم عرضه ومناقشته تتضح لنا قوة وغيرة ونفوذ الإنجيليين إلى جانب تنوع اتجاهاتهم. والمرجو دائماً أن تعمل كل هذه الجماعات في نفس الوقت الذي تعمل فيه على الحفاظ على هويتها على توسيع مجالات التعاون فيما بينها للتقليل من خلافاتها. لأنهم إن نجحوا في ذلك لابد وأن ينجحوا في تحقيق الربط المطلوب ما بين إعلان رسالة الإنجيل والعمل الاجتماعي تحقيقاً لخير ومصلحة المجتمع ككل.

## ج- الكاثوليكية التابعة لروما
## Roman Catholicism

لقد عرضنا وناقشنا فيما سبق الدور المؤثر الذي تقوم به الحركة الكاريزماتية في الأوساط الكاثوليكية بالرغم من صغر حجمها. وناقشنا أيضاً علاقة الكنيسة الكاثوليكية بالدولة. ولقد تعرض الـ ٧٣٢ مليون كاثوليكي الذين ينتشرون حول العالم لتغيرات كبيرة وذلك منذ صدور الوثيقة الثانية للفاتيكان Vatican II. وقد تزايدت أهمية مثل هذه التغيرات نتيجة لجمود القيادة البابوية، منذ الثورة الفرنسية وما بعدها، حيث حاولت البابوية الحفاظ على المجتمع في صورة مغلقة معزولة عن التغيرات الليبرالية سواء السياسية أو الاقتصادية أو الدينية التي شهدتها أوربا.

سعى البابا بندكت الخامس عشر Benedict 15th (١٩١٤-٢٢) إلى تحقيق المزيد من التناسق في الكنيسة وذلك عن طريق الانتهاء من جمع وتنسيق القانون الأساسي للكنيسة في عام ١٩١٧. وفي عام ١٩٤٣ قام البابا بيوس الثاني عشر Pope Pius 12th (١٨٧٦-١٩٥٨) في الوثيقة المعروفة باسم Divino Afflante Spiritu بتشجيع العلماء الدارسين من الكاثوليك على زيادة استفادتهم من الاستكشافات التي يقدمها علم الآثار وأيضاً ما يقدمه علم النقد الأدبي. هذا وقد شجعت قرارات وثيقة الفاتيكان الثانية العلمانيين من الشعب الكاثوليكي على المواظبة على قراءة الكتاب المقدس.

وقد دعم بيوس الثاني عشر، والذي أصبح البابا في عام ١٩٣٩، دعم ارتباط الكنيسة بماضيها وذلك بالإعلان الذي أصدره في عام

١٩٥٠ الذي أقر فيه أن جسد السيدة العذراء قد صعد إلى السماء بعد موتها بمعجزة إلهية. وظهرت أيضًا بعض الميول والاتجاهات التي تسعى إلى ربط مريم العذراء بالمسيح في عمله الكفاري. ثم شهدت الكنيسة المزيد من التغيرات العظمى، وقد بدأت في يناير ١٩٥٩ عندما أعلن البابا يوحنا الثالث والعشرون Pope John 23rd (والذي شغل كرسي البابوية من ١٩٥٨-١٩٦٣)، أمام الكرادلة المجتمعين عزمه على الدعوة لعقد مجمع مسكوني جديد. وقد خصص هذا المجمع المسكوني الذي انعقد من عام ١٩٦٢ إلى عام ١٩٦٥ في أربعة دورات خريفية، جلساته لبحث موضوع نشر رسالة ما أطلق عليه البابا يوحنا اسم Aggioranamento أو "التجديد". فقد أعلن البابا أنه يريد أن يخرج إعلان وثيقة الفاتيكان الثانية في قالب رعوي أكثر منه عقائدي أو تنظيمي. فصدر ذلك الإعلان دون أن يقدم أي تغيير أساسي في موقف الكنيسة من العقيدة أو من سياسات إدارتها، لكنه اهتم بخلق اتجاهات جديدة كان لها عظيم الأثر في صياغة العلاقات مع الطوائف الأرثوذكسية والبروتستانتية في شكل إيجابي جديد. وقد انعكست هذه الروح الجديدة في صورة بعض الاتجاهات الفكرية التي عبرت عنها بعض القيادات بصفتها الشخصية من أمثال هانس كونج Hans Kung الذي أعاد إثارة مناقشة موضوع عصمة البابا مرة أخرى.

كان تأكيد البابا يوحنا وإصراره على أن يبقى جوهر العقيدة دون تغيير، وعلى أن تطرح الأشكال للبحث بحيث تكون قابلة للتطوير والتغيير، كان ذلك جديرًا بأن يحدث نوعًا من التطوير للأفضل في الفكر اللاهوتي العقائدي ذاته. ولقد تصادم دعاة التغيير مع غيرهم من المحافظين أثناء الجلسات التي حضرها ما يقرب من ٢٧٠٠ شخص كاثوليكي ومعهم بعض البروتستانت كمراقبين. وقد برز الاعتراف بأهمية العلمانيين وذلك من خلال الإشارات الكثيرة إليهم باعتبارهم "شعب الله" والتأكيدات المتعددة على دورهم في الكهنوت الروحي. ثم تشجيع العلمانيين على قراءة الكتاب المقدس بل وظهرت الدعوة إلى المزيد من مشاركتهم في خدمة القداس ذاتها، التي تم إقرار إجرائها باللغة التي يتحدثها الشعب في كل كنيسة محلية وفي كل بلد بحسب لغته الوطنية.

وتم ربط الكتاب المقدس مع تقليد الكنيسة بشكل جديد وذلك باعتبارهما معًا تعبيرًا صادقًا عن فكر الروح القدس. وتم وصف البروتستانت والإشارة إليهم باعتبارهم "إخوة منفصلين" بدلاً من وصفهم بالهراطقة المنشقين كما كانوا يوصفون في الماضي. وتم أيضًا تشجيع المشاركة في الحركة المسكونية Roman Catholicism and Ecumenicity وهو الأمر الذي كان ممنوعًا سابقًا. وتم قبول مبدأ حرية العبادة للجميع. وأعلن أن الأساقفة لهم دور أساسي في القيادة الجماعية مع البابا، وشكل البابا بولس مجمعًا أو مجلسًا من الأساقفة. إلا أن قرارات هذا المجلس لم تكن تسري إلا بعد اعتماد البابا لها وإعلانه إياها بنفسه. وقد عارض البابا قضيتين هما تحديد النسل وزواج الكهنة.

جاء البابا جون بول الأول John Paul 1st وبدا أنه يتبع نفس المنهج البسيط غير الرسمي الذي انتهجه البابا يوحنا الثالث والعشرون. والآن يعتبر البابا جون بول الثاني John Paul 2nd أكثر



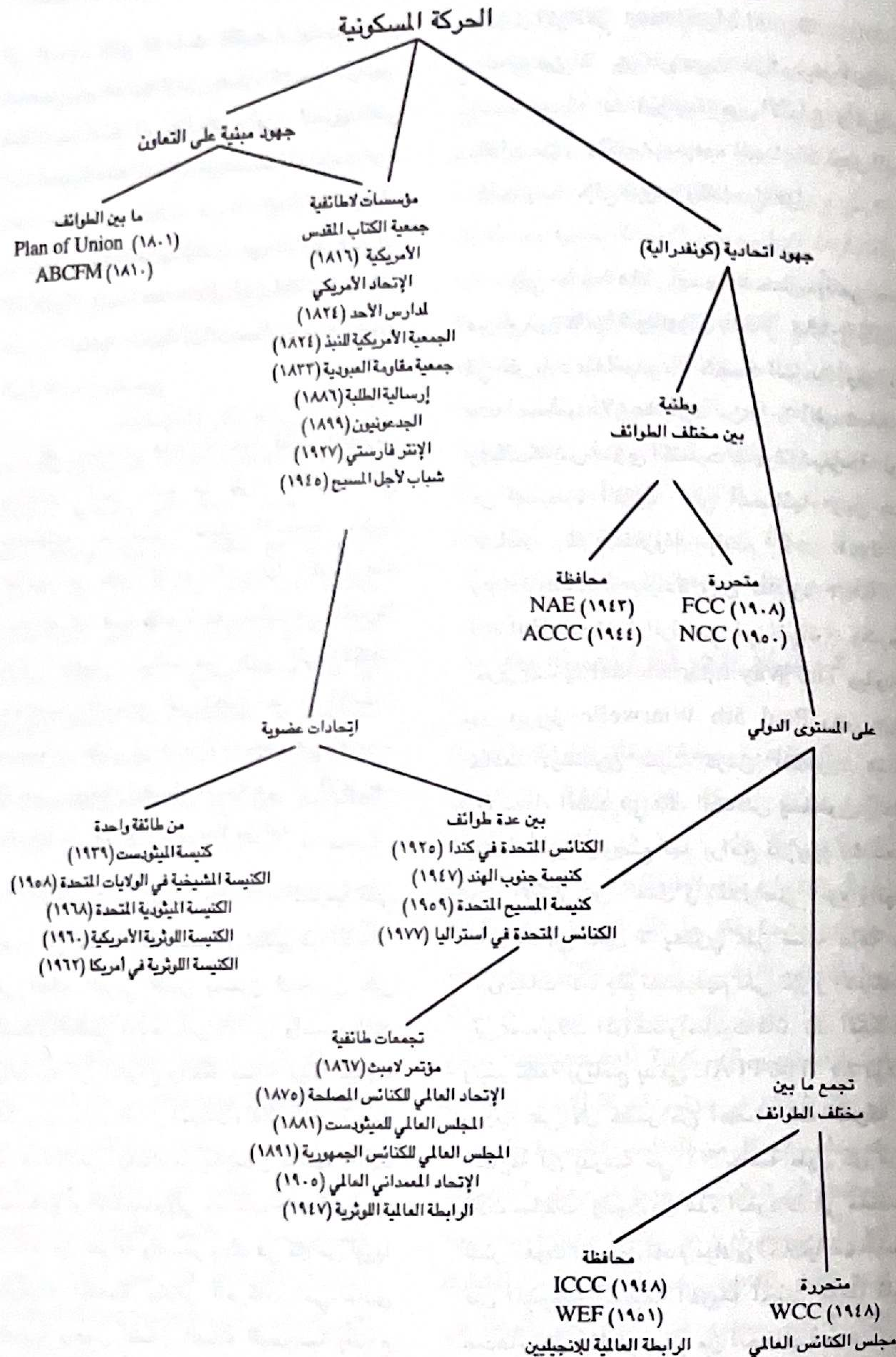


شعبية وأخف ظلاً ولديه فهم أفضل للشيوعية التي عاش تحت حكمها، ويتمسك بمواقف أكثر محافظة من الذين سبقوه في هذا المنصب الرفيع. ويواجه البابا الحالي العديد من المشكلات، مثل تناقص عدد المشاركين في صلوات القداس في الكنائس، حركات التحرر اللاهوتي التي انتشرت في أمريكا اللاتينية، والمطالبة برسامة المرأة للخدمة الكهنوتية، وأفكار بعض العلماء الذين يشككون في بعض عقائد الكنيسة. ونرى كيف تعامل البابا بنوع من الصرامة مع بعض هؤلاء من أصحاب الميول التحررية مثل هانس كونج وشيلابيكس حيث أخذ ضدهم إجراءات تأديبية.

لكن تعاون الكنيسة الكاثوليكية ومشاركتها في الجهود المسكونية مازال مستمرًا. كان البابا بيوس الثاني عشر قد حرم المشاركة في الحركة المسكونية وذلك عام ١٩٢٨ في القرار المعروف باسم Mortalium Animos والذي أعلن فيه أنه إن كانت ستحدث أي وحدة بين الكنائس، فينبغي أن تتم هذه الوحدة على أساس عودة تلك الكنائس المنشقة إلى رحاب الكنيسة الكاثوليكية التابعة لروما. وعلى العكس من ذلك، ففي عام ١٩٦٠ أنشأ البابا يوحنا سكرتارية خاصة للدعوة إلى الوحدة المسيحية وعين الكاردينال "بيا" Cardinal Bea مسئولاً عنها. وقد تم السماح لخمسة مراقبين من الكاثوليك بحضور اجتماعات مجلس الكنائس العالمي التي انعقدت في مدينة نيودلهي في ١٩٦١. وقد تكونت مجموعة عمل مشتركة تجمع الكاثوليك مع ممثلين عن مجلس الكنائس العالمي وقد اجتمعت عدة مرات منذ تكوينها في ١٩٦٥ وذلك لرسم سياسات التعاون فيما بينهم بل وربما أيضًا التمهيد للوحدة بين الكنائس في المستقبل. وتم دعوة عدد من المراقبين البروتستانت لحضور جلسات مجمع الفاتيكان الثاني Vatican 2nd. وقد التقى البابا بولس السادس في عام ١٩٦٤ مع بطريرك الكنيسة الشرقية أثيناجوراس Athenagoras وذلك في مدينة القسطنطينية. وفي ٧ ديسمبر ١٩٦٥ أعلن كل منهما في روما وفي القسطنطينية على التوالي إلغاءه لقرار القطع الذي كانت كنيسته قد اتخذته تجاه الكنيسة الأخرى وذلك في عام ١٠٥٤م. ولابد أن نلاحظ أن كل هذه المؤشرات لانفتاح الكنيسة الكاثوليكية على العالم تأتي على العكس تمامًا من سياسة الانغلاق التي عاشتها الكنيسة في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

د- شيع جديدة New Cults

التجأت أعداد كبيرة من الناس، الذين لم يرضهم افتقار الليبرالية إلى رموز السلطة، إلى الإيمان بالمطلق اللاهوتي والأخلاقي الذي تنادي به مختلف الجماعات والشيع. وقد ظهر الكثير من هذه الجماعات في الفترة التي أعقبت نهاية الحرب العالمية الأولى. وتصاغ تعاليم مثل هذه الجماعات وعقيدتها خارج إطار شرعية الكنيسة، ويسعى قادة هذه الجماعات إلى جذب تابعين جدد لأفكارهم من أعضاء الكنائس وذلك من خلال التبشير الشخصي، والاجتماعات وزيارات البيوت أو برامج الدراسة بالمراسلة. ولا تكتفي هذه الجماعات بادعاء أن لديها الحلول النهائية المطلقة للمشكلات الأساسية مثل الصحة والحزن، الشهرة والنجاح، لكنهم يمارسون نوعًا من السلطة تجد فيه النفوس الجائعة ما سبق أن افتقدته في الكنائس البروتستانتية ذات التوجه الليبرالي. وغالبًا ما اتسمت هذه الجماعات بالطابع الخداعي والانغلاق واتخاذ موقف سلبي من المجتمع أو الحضارة ككل.






وتتخذ جماعات مثل الروحانية Spiritualism أو الفلسفة الإلهية Theosophy، والفكر الجديد New Thought، الوحدة Unity والعلم المسيحي Christian Science، تتخذ هذه الحركات جميعها موقفًا معارضًا للتفسير المادي للكون ويؤكدون على الطبيعة الروحية للكون وعلى وحدته. وقد نمت الروحانية بالأخص وانتشرت بشدة بعد الحرب العالمية الأولى وذلك لأن الكثيرين الذين فقدوا أقرباءهم في الحرب كانوا يسعون للاتصال بأرواحهم من خلال الوسطاء الروحيين. أما جماعتا الوحدة والفكر الجديد فهما بمثابة تطوير للمنهج الذي ابتكره الدكتور كويمبي P. P. Quimby واستخدمته السيدة ماري بيكر إدي Mary Baker Eddy في الشفاء الذهني والذي ساهم في تعاليم جماعة العلم المسيحي. أما تشارلز فيلمور Charles Fillmore الذي أصابه الشلل منذ طفولته وزوجته ميرتل Myrthle Fillmore والتي كانت مصابة بداء السل، فقد طورا الفكرة القائلة باتحادهما بالله بحيث لا يتسلط المرض والفقر عليهما. وقد نمت جماعتهما بشكل كبير حتى إن قادة هذه الحركة أنشأوا وبنوا مدينة سموها مدينة الاتحاد Unity City بالقرب من كانساس سيتي في ولاية ميسوري.

أما أتباع راسل Russelites – أو كما يحبون أن يعرفهم الناس باسم شهود يهوه Jehovah's Witnesses منذ عام ١٩٣١، فقد تأسست هذه الجماعة في عام ١٨٧٢ بواسطة شخص يدعى تشارلز ت. راسل Charles T. Russel (١٨٥٢-١٩١٦)، الذي دفعته دراسته الخاصة للكتاب المقدس إلى اتخاذ موقف مقاوم للكنائس وللخدام على اعتبار أنهم أدوات في يد الشيطان وكان يعظ مُنبراً على عقيدة مجئ المسيح الثاني والدور الذي سيقوم به "الشهود" من أعضاء جماعته في هذا الحدث. ولأنهم يدعون أن ولاءهم الوحيد هو لله دون غيره، فإن أعضاء جماعة شهود يهوه لا يشتركون في تحية العلم ولا يؤدون الخدمة العسكرية. وفي أثناء الحرب العالمية الثانية لم تعترف الحكومة بأن قادة هذه الجماعة يعاملون معاملة القسوس. بعد وفاة راسل سنة ١٩١٦ أصبح القاضي رذرفورد Judge Rutherford (١٨٦١-١٩٤٢) الذي كان يعمل بالمحاماة في ولاية ميسوري، قائداً لهذه الحركة وقد سجلت هذه الحركة نفسها تحت اسم Zion Watch Tower Tract Society في نيويورك في عام ١٨٨٤. وهي توزع ملايين النسخ من الكتب والنبذ ويُقدر أن عدد أتباع هذه الحركة في أمريكا بلغ ٥٠٠ ألف شخص وأن عددهم حول العالم يزيد عن ٢ مليون شخص.

وهناك جماعة أخرى عرفت باسم جماعة أكسفورد Oxford Group، وهي وإن لم تحاول تنظيم نفسها في شكل هيئة أو منظمة، لكنهم يركزون خدمتهم على المشاركة في الخدمة في الكنائس المختلفة بأسلوب مشابه لخدمة التقوين الذين حاولوا إحياء الكنيسة اللوثرية في القرن السابع عشر. كان قائدهم فرانك بوكمان Frank Buchman (١٨٧٦-١٩٦١)، راعيًا لوثريًا في بنسلفانيا ولكنه لم يكن راضيًا أو مكتفيًا باختباره الروحي. وقد حاول الوصول إلى الأغنياء والمثقفين من خلال تقديم رسالة "تغيير الحياة" التي تتضمن المشاركة أو الاعتراف في وسط جماعة صغيرة، والارشاد والتوجيه، والتعليم الذي يركز على أربع قيم مطلقة وهي: الصدق، والطهارة، والمحبة، وإنكار الذات. وكان يشجع على عقد اجتماعات أو حفلات

في البيوت تتيح للأعضاء الفرصة ليشهدوا عن إيمانهم لغيرهم ويعترفوا بعمل الله في حياتهم، فأصبحت هذه الوسيلة هي أبرز الطرق التي استخدمتها هذه الجماعة في خدمتها. ونجحت هذه الجماعة في ربح العديد من الشخصيات المرموقة بل وسعت جاهدة تحت لواء اسمها الجديد "التسلح الأخلاقي" Moral Rearmament لمنع نشوب الحرب العالمية الثانية وذلك بمحاولة ربح رؤساء الدول للإيمان بالمسيح.

لقد ساعدت هذه الجماعة فئات القادرين والمثقفين الذين عادة ما تتردد الكنيسة في مواجهتهم بمتطلبات الحياة المسيحية خشية اقناعهم عن تقديم الدعم المادي لها. إلا أن هذه الجماعة كان فيها نقاط ضعف تمثلت في افتقارها للفكر اللاهوتي السليم مما يؤدي إلى الاكتفاء بأحاسيس الارتياح التي تعقب اعتراف الإنسان بخطاياه واعتبار أن هذه الأحاسيس هي التجديد الروحي . ونقطه الضعف الثانية هي أن الاعتراف بالخطية كان موجهًا للناس بدلاً من الله.

لقيت ممارسة السحر والديانات الشرقية التي وفدت من أسيا قبولاً واسعًا بين الكثير من الشباب في العالم الغربي الذين يسعون للحصول على السلام الداخلي والإحساس بالأمان. وأصبح الفلك والحديث عن الأبراج والحظ بمثابة ديانة جديدة للكثيرين، بدليل انتشار المجلات والكتب التي تتحدث عن هذه الأمور. وهناك من يكرسون حياتهم لعبادة الشيطان أو الانضمام إلى جماعات Cults تمارس أشكالاً من العرافة والسحر وذلك في كل من أوربا والولايات المتحدة. وتدعي الحركات التي تنادي بالبوذية وبعض أشكال الديانة الهندوسية وأتباع هاري كريشنا Hare Krishna، ونوادي اليوجا والتأمل الارتقائي Transcendental Meditation، والعديد من المدربين الروحيين، هؤلاء جميعًا يدعون اكتسابهم أعدادًا متزايدة من الأتباع والمريدين بالذات من بين الشباب. وهذه الجماعات تبدو اليوم وكأنها وصلت إلى ذروتها وتأهلت للأفول.

وفي عام ١٩٥٤ أسس شخص يُدعى صن ميونج مون Sun Myung Moon (١٩٢٠-) كنيسة في كوريا دعاها باسم كنيسة التوحيد وقد بلغ عدد أعضائها الآن ما يقرب من ٢٠٠ ألف شخص. وهناك كنائس أخرى اكتسبت شهرة بممارسة نوع من السيطرة الفكرية على أعضائها. ومن هذه الكنائس تلك المعروفة باسم Church of Scientology بقيادة رون هابارد L. Ron Hubard ومركزها الرئيسي في انجلترا، وكنيسة أخرى اسمها The Way International ويقودها بول ويرويل Paul 5th Wierwelle وهو خريج جامعة برنستون حيث درس اللاهوت هناك. والأعضاء الجدد في تلك الكنائس يحاطون برعاية ومحبة كثيرة وتوضع لهم برامج تدريبية تشجعهم على الإكثار من العمل والإقلال من النوم واتباع نظام غذائي معين لا يحتوي على نسبة عالية من البروتينات، كما يتم تشجيعهم على تكرار الاستماع إلى تسجيلات المواعظ وأحاديث قائد تلك الجماعة. وتبلغ تكلفة برنامج يدعى The PFAL ٨٥ دولارًا ويجب على كل عضو من أعضاء تلك الحركة أو الطريقة أن يدرسه في ٢١ جلسة طول كل منها ثلاث ساعات. وحيث إن هذه الحركات في معظمها تنكر لاهوت المسيح وتقدم مبادئ أخلاقية متناقضة، فإن المسيحية السليمة القويمة أخذت موقفًا ثابتًا ضدها، لكن هذا لم يمنع من انجذاب أعداد كبيرة من الشباب إليها.





من كل ما سبق يتكشف لنا أن الاتجاهات الثلاثة الرئيسية التي تم عرضها وتحليلها وهي الأرثوذكسية الجديدة والحركات الإنجيلية والشيع المستحدثة، تبدو جميعها وكأنها قامت لتسد الاحتياج الذي خلفته الاتجاهات الليبرالية بافتقارها لقوة وصدق الرسالة الدينية وسلطانها. فهذه الحركات تعتبر إلى حد ما محاولات لملء الفراغ الذي خلقه الإفلاس الفكري اللاهوتي للحركة الليبرالية (المتحررة) الذي يتمثل في رسالتها السطحية عن أبوة الله للجميع وأن البشر جميعًا أخوة في الإنسانية . قدم اللاهوت المتحرر تعليمًا مستفيضًا عن الأخلاق لكنه أهمل الديناميكية الدينية برسالة الصليب، القادرة على خلق حياة تتوافق مع متطلبات الحياة المسيحية الحقيقية.

## ٢- قيام الحركة المسكونية

بدأت ظاهرة وعملية انشقاق الطوائف الجديدة والتي ميزت الحركة البروتستانتية منذ عصر الإصلاح، منذ عام ١٨٠٠ في الانحسار لتفسح المجال لاندماج تلك الطوائف مرة أخرى لتكوين تجمعات جديدة. فقد حل فكر التوافق أو المسكونية محل التوسع التبشيري في ذهن الكثيرين وذلك منذ بدايته في القرن التاسع عشر. ويبدو أن بداية استخدام تعبير "المسكونية" Ecumenical ترجع إلى عام ١٩٣٦ في مؤتمر لحركة الإيمان والنظام. وقد ساهم فيه كل من العناصر المتحررة والعناصر المحافظة في الكنيسة. وحدث في بعض المناسبات أنه لكي يتحقق نوع من الإجماع بين الحاضرين، صار الفكر اللاهوتي هو القاسم الأدنى المشترك الذي له دور محدود في التأثير على الرغبة في تحقيق أشكال من الوحدة أو الاندماج التنظيمي.

وقد مرت الحركة المسكونية بثلاث مراحل. فقد بدأت الجهود المسكونية اللاطائفية وفي مجال التعاون ما بين الطوائف في بداية القرن التاسع عشر. أما الاتحاد العضوي للطوائف التي لها نفس الخلفية أو التي تنحدر من خلفيات مختلفة فقد بدأت في القرن العشرين. أما التحالفات أو التضامن على المستوى القومي وعلى الصعيد الدولي فقد تزايدت وتضاعفت في السنوات الأخيرة.

### (أ) التعاون الطائفي واللاطائفي
Interdenomina-tional Cooperation

١- ظلت الخطة التي وضعتها الكنائس الجمهورية مع الكنائس المشيخية وعُرفت باسم Plan of Union أي "خطة الاتحاد" بهدف التعاون لسد النقص في الرعاة في المناطق النائية سارية من عام ١٨٠١ وحتى ١٨٥٢، وكانت لمصلحة المشيخيين في معظمها. ثم جاء المجلس الأمريكي لمسئولي الإرساليات الخارجية American Board of Commissioners for Foreign Missions ليجمع ما بين الاستقلاليين وغيرهم من الطوائف فيما يقومون به من مجهودات مشتركة للتبشير والعمل المرسلي.

٢- كان التعاون اللاطائفي أوسع انتشارًا من غيره. فقد تأسست جمعية الكتاب المقدس الأمريكية American Bible Society في عام ١٨١٦، حيث تعاون المؤمنون من مختلف الطوائف في دعم هذه الخدمة. وتم اتباع نفس المبادئ في الاتحاد الأمريكي لمدارس الأحد American Sunday School Union في عام ١٨٢٤ والجمعية الأمريكية لنشر النبذ American Tract Society التي تأسست ١٨٢٤، وجمعية مكافحة العبودية

١٨٣٣، وحركة الطلاب المتطوعين Student Volunteer Movement التي تأسست ١٨٨٦، في حركة الجدعونيين Gideons وجهودها في توزيع الكتاب المقدس، وأيضاً مع هيئة شباب للمسيح Youth for Christ.

### (ب) الاندماجات العضوية

تحدث هذه الاندماجات العضوية عندما تتخلى الطوائف المستقلة عن وجودها التنظيمي وتندمج لتكوين طائفة جديدة. ومثل هذه الاندماجات تتم بطريقة أسهل عندما تتوافر بين أطرافها الخلفية الواحدة سواء في الفكر اللاهوتي أو نظم إدارة الكنيسة وطقوس العبادة.

١- كانت الكنائس الميثودية Methodist Churches في الشمال والجنوب قد انفصلت عن بعضها حول موضوع موقفها من العبودية، ولكن في عام ١٩٣٤ اتحدتا معاً مرة أخرى. واتحد الميثوديون الألمان الذين جمعتهم كنيسة الأخوة المتحدة United Brethren Church مع الكنيسة الإنجيلية في عام ١٩٤٦ وذلك لتأسيس "كنيسة الأخوة الإنجيلية المتحدة". ثم اتحدت هذه الكنيسة الجديدة في عام ١٩٦٨ مع الكنيسة الميثودية التي تكونت في عام ١٩٣٩ ليكونا معاً "الكنيسة الميثودية المتحدة" United Methodist Church. كونت الكنيسة المشيخية المتحدة United Presbyterian Church باتحادها مع الكنيسة المشيخية في الولايات المتحدة كنيسة جديدة عرفت باسم الكنيسة المشيخية المتحدة في الولايات المتحدة وذلك في عام ١٩٥٨. كما اندمجت عدة كيانات لوثرية لتكون كنيستين لوثريتين كبيرتين وهما الكنيسة اللوثرية الأمريكية التي تأسست عام ١٩٦٠ والكنيسة اللوثرية في أمريكا عام ١٩٦٢. وقد صارت هاتان الكنيستان من العلامات البارزة على المسرح الطائفي الأمريكي.

٢- كونت الكنائس المختلفة لاهوتياً وتنظيمياً نوعاً من الكيانات المتحدة التي عبرت حواجز الاختلاف، فقد ربطت كنيسة كندا المتحدة The United Church of Canada ما بين المشيخيين والمعمدانيين والميثودست والكنائس الاستقلالية عام ١٩٥٢. وفي عام ١٩٢٧ ضمت كنيسة المسيح في الصين Church of Christ in China المشيخيين والمعمدانيين والميثودست كما ضمت الكنيسة في جنوب الهند سنة ١٩٤٧ الأسقفيين مع الاستقلاليين والمشيخيين والميثودست رغم اختلاف نظمهم الإدارية. كما اتحد التوحيديون مع الكونيين سنة ١٩٦١ مكونين الاتحاد التوحيدي الكوني Unitarian Universalist Association. وفي عام ١٩٦٠ اقترح يوجين بليك Eugene C. Blake في عظة ألقاها في سان فرانسيسكو في كاتدرائية أسقفية عقد ندوة عن اتحاد الكنيسة. فكانت هذه بداية لواحدة من أكثر المحاولات طموحاً لتحقيق تلك الوحدة إلى يومنا هذا. وتم صياغة خطة في عام ١٩٦٦ في مدينة دالاس عرفت باسم The Plan of Union، إلا أن المشيخيين The United Presbyterian Church, USA ما لبثوا أن انسحبوا منها في عام ١٩٧٢. وهذا الاتحاد العالمي إذا قُدر له أن يتم فإنه سوف يوحد ما يقرب من ٢٥ مليون شخص ينتمون إلى عشرة اتجاهات لاهوتية مختلفة وأساليب متنوعة لإدارة الكنيسة. وفي أستراليا في عام ١٩٧٧ تم تكوين كنيسة متحدة في أستراليا United Church of Australia.



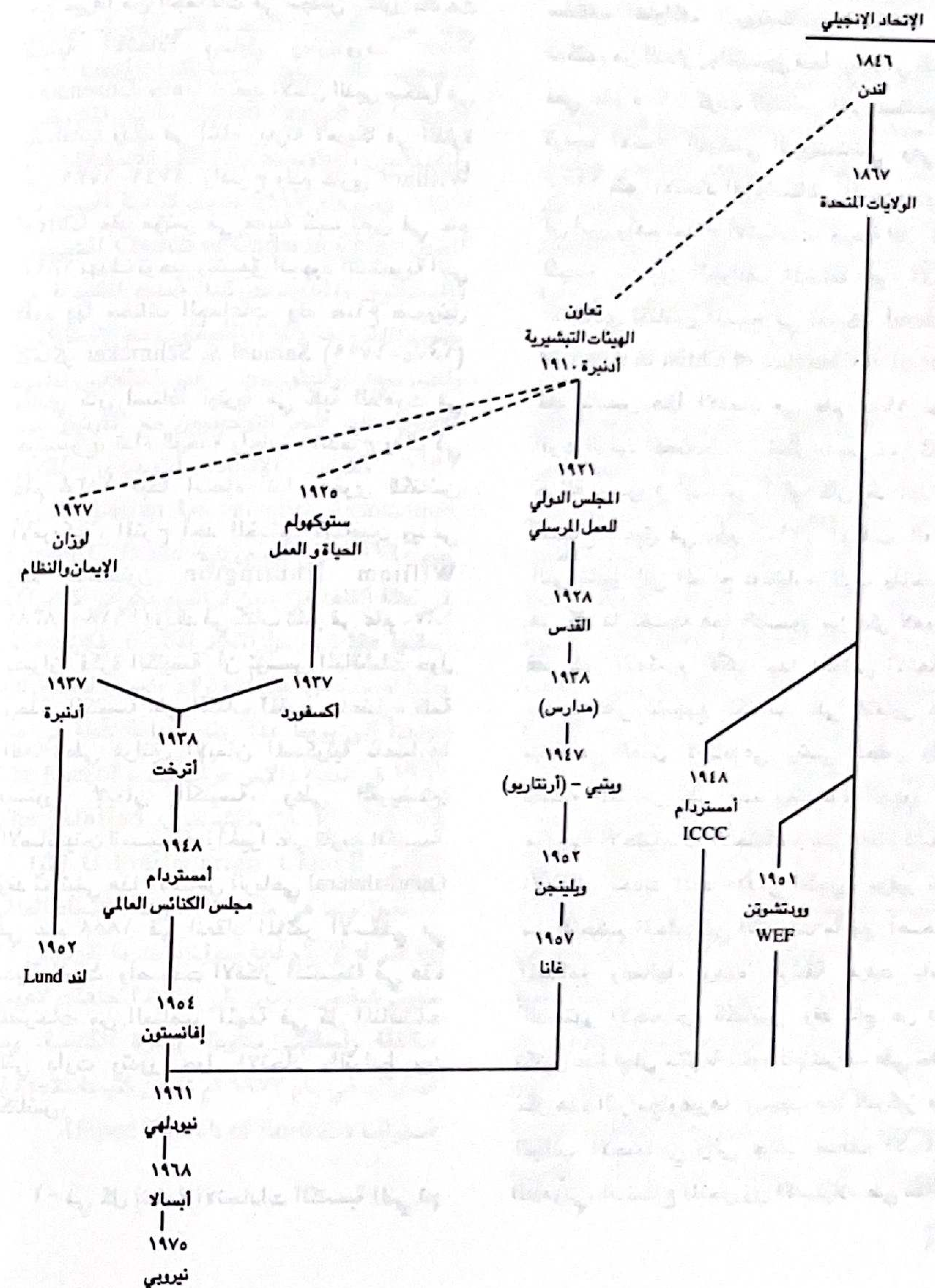


### (ج) الاتحادات الكنسية على المستوى القومي والدولي

رغب كالفن Calvin ولوثر Luther وكرانمر Cranmer أن يجمع كل منهم الجماعة التي تتبعه مع غيرها من الجماعات في مجلس يتناول بالبحث قضية الاتحاد. وحاول زينزندورف Von Zinzendorf جاهداً توحيد الألمان الذين سكنوا في بنسلفانيا وذلك في أثناء زيارته لأمريكا في الفترة من ١٧٣٩-١٧٤٢. واقترح وليم كاري William Carey عقد مؤتمر في مدينة كيب تاون في عام ١٨١٠ بهدف توحيد وتنسيق الجهود التبشيرية التي تقوم بها مختلف الجماعات. وقد صاغ صموئيل شماكر Samuel S. Schmuker (١٧٩٩-١٨٧٠) والذي كان أستاذاً لوثرياً في كلية اللاهوت في جيتسبرج، نداءً للوحدة وإعادة الاندماج وذلك في عام ١٨٣٨ فيما اسماه "نداء أخوي للكنائس الأمريكية". اقترح أحد الخدام الأسقفيين ويُدعى وليم هنتنجتون William Huntington (١٨٣٨-١٩١٨) وذلك في كتاب نشر في عام ١٨٧٠ بعنوان "فكرة الكنيسة" أن تؤسس المناقشات حول وحدة الكنيسة على الكتاب المقدس باعتباره كلمة الله، وعلى قوانين الإيمان المسكونية باعتبارها دستوراً لإيمان الكنيسة، وعلى الفريضتين الأساسيتين للمسيحية، وأخيراً على تاريخ الكنيسة. وقد تم تبني هذا الأساس الرباعي Quadrilateral في عام ١٨٨٨ في انعقاد المؤتمر الأسقفي في مدينة لامبث. وأصبحت الأفكار المتضمنة في هذه المقترحات من العناصر المهمة في كل المناقشات التي دارت وتدور حول الاتحاد والترابط بين الكنائس.

١- في كل أنظمة الاتحادات الكنسية التي تم تنظيمها حتى اليوم، تحتفظ الأطراف المتعاونة بسيادتها واستقلالها ولكنها تتعاون مع غيرها لتحقيق أهداف تعبر عن المصالح المشتركة للجماعات المشتركة في هذا الاتحاد. وقد أقامت مختلف الطوائف البروتستانتية اتحادات قومية تمكنهم من التعاون والتنسيق فيما بينهم في الخدمة. ففي عام ١٩٠٥ كونت الكنائس البروتستانتية في فرنسا الاتحاد الفرنسي البروتستانتي. وفي عام ١٩٢٠ ظهر الاتحاد البروتستانتي السويسري. إلا أن أبرز وأهم نماذج الاتحادات القومية التي قامت لتجمع ما بين الطوائف المختلفة هو "المجلس الاتحادي لكنائس المسيح في أمريكا" Ferderal Council of Churches of Christ in America فقد تأسس هذا الاتحاد في عام ١٩٠٨ عندما أقرت الوفود المجتمعة التي تمثل ما يقرب من ثلاثين طائفة مشروع الدستور الذي كان قد أعد في اجتماع سابق في عام ١٩٠٥.[1] وكانت العبارة التي تشير إلى المسيح باعتباره "الرب والمخلص" هي كل ما تضمنه هذا الدستور من فكر لاهوتي. فقد كان الاهتمام الأكبر لهذا المجلس الاتحادي ينصب على تشجيع الكنائس على التعاون فيما بينها في العمل الاجتماعي. وتبنى المجلس وثيقة تشجع الكنائس على دعم ومساندة الجهود في مواجهة الاحتياجات الاجتماعية مثل إلغاء تشغيل الأطفال، تحديد الحد الأدنى للأجور، توفير نوع من التحكيم المحايد في النزاعات ما بين أصحاب المصانع وعمالها، وهذه الوثيقة عرفت باسم "الدستور الاجتماعي للكنائس" وقد نتج عن ذلك تكوين عدة لجان متنوعة لتقوم بالإشراف على تنفيذ مثل هذه البرامج وغيرها. وبسبب هذا التركيز على الجانب الاجتماعي وإلى جانب ضعف الأساس اللاهوتي، استطاع المتحررون الاستيلاء على مقاليد

## تطور الحركة المسكونية العالمية






القيادة والسيطرة الكاملة على هذا المجلس منذ بداية أعماله.

وفي ٢٩ نوفمبر ١٩٥٠ انضم المجلس الاتحادي مع مجموعات أخرى ليصبح اسمه المجلس القومي لكنائس المسيح National Council of the Churches of Christ. وقد انضم إلى المجلس الاتحادي في هذا التنظيم الجديد العديد من الهيئات التي تجمع ما بين الطوائف مثل المجلس الدولي للتعليم الديني The International Council of Religious Education، ومؤتمر أمريكا الشمالية للإرساليات الخارجية Foreign Missions Conference of North America، ومجلس الإرساليات الداخلية (المحلية) وغيرها. وتم تنسيق الأنشطة التبشيرية والتعليمية والاجتماعية وغيرها من الأنشطة في إطار هذه المنظمة الأشمل. وانضم إلى هذا المجلس الجديد ٢٥ طائفة بروتستانتية إلى جانب أربعة طوائف أرثوذكسية. ولم ينضم إلى هذا المجلس القومي المعمدانيون الجنوبيون واللوثريون التابعون لسنودس ميسوري والخمسينيون.

وفي عام ١٩٤٢ تم تنظيم المجلس البريطاني للكنائس ولم يتخلف المحافظون بل بذلوا جهودهم للتنسيق والتعاون من خلال تكوين الاتحادات القومية. فقد تم تنظيم المجلس الأمريكي للكنائس المسيحية The American Council of Christian Churches في سبتمبر ١٩٤١ وذلك في محاولة لمواجهة إدعاء المجلس الاتحادي بأنه يتحدث باسم كل البروتستانت. والكنائس التي ترتبط بأي شكل بالمجلس القومي كانت تعتبر غير مؤهلة للعضوية. وقد تصدى كارل ماكنتاير Carl McIntire لقيادة المجلس الأمريكي وقاد حملة لمقاومة المجلس القومي على صفحات المجلة التي كان يصدرها باسم The Christian Beacon. ويدعي هذا المجلس أنه يمثل ما يقرب من مليونين من البروتستانت.

وقد عقدت الرابطة القومية للإنجيليين National Association of Evangelicals أول اجتماع سنوي لها في مدينة شيكاغو في مايو ١٩٤٣. وهذه الرابطة وإن كانت أكثر ميلاً للمسالمة عن المجلس الأمريكي إلا أنها لا تقل عنه التزاماً بالإيمان المسيحي الحق القويم. وفي الاجتماع التأسيسي الأول قبلت الوفود إقرار الدستور المؤقت الذي أعدت مسودته في اجتماع سابق عقد في مدينة سانت لويس في ابريل ١٩٤٢ وحضره ١٥٠ من القيادات الإنجيلية. ولتلك الهيئة الجديدة إقرار للإيمان ذو توجه إنجيلي ينبغي أن تقبله الطوائف والكنائس المحلية والأفراد الذين ينضمون إلى تلك الرابطة الجديدة.

وقد كونت الرابطة القومية للإنجيليين لجاناً للعمل في عدة مشروعات مختلفة تتضمن قضايا مثل التبشير، التعليم، الكرازة والعمل الاجتماعي. وقد أدى عقد الندوات السنوية للخدام وطلبة الجامعات إلى تزايد اهتمام المسيحيين العاملين في المجال الحكومي وتصدر الرابطة مجلة باسم United Evangelical Action بها تقارير منتظمة عن الأنشطة التي تهم الملايين التي تدعي الرابطة أنهم أعضاء فيها. وقد تكونت مثل هذه الروابط القومية للإنجيليين في عدة بلدان في العالم، وذلك لتوفير مجال يمكن من خلاله تحقيق التعاون ما بين الطوائف المسيحية المختلفة. بل إن معظم هذه

الروابط كانت وراء تزايد المطالبة بإنشاء مجلس مسكوني يمكن أن يضم الكنائس البروتستانتية المحافظة حول العالم.

٢- أقامت العديد من الطوائف تنظيمات دولية بحيث تتعاون الطوائف المناظرة لها في أرجاء العالم لإنجاز أهداف ومصالح تلك الطائفة. ومنذ عام ١٨٦٧ دأب الأسقفيون حول العالم على الاجتماع مرة كل عشرة أعوام فيما اشتهر باسم مؤتمر لامبث Lambeth Conference وذلك للبحث في القضايا ذات الاهتمام المشترك بين الأسقفيين. وفي عام ١٨٧٥ تم تنظيم الاتحاد المشيخي العالمي The World Presbyterian Alliance حيث عقد أول اجتماعاته في مدينة إدنبره في عام ١٨٧٧. وعقد المجلس الدولي للكنائس الاستقلالية The International Congregational Council أول اجتماعاته في عام ١٨٩١. وظهر الاتحاد المعمداني العالمي The Baptist World Alliance إلى الوجود في عام ١٩٠٥ ليرعى مصالح كل المعمدانيين. والقرارات التي تتخذها هذه المجالس في أغلبها استشارية وغير ملزمة للأعضاء. وقد تم تنظيم الاتحاد اللوثري العالمي Lutheran World Federation في مدينة لند Lund في عام ١٩٤٧ وقد اجتمع عدة مرات منذ جلساته التحضيرية في عام ١٩٢٣. والكنيسة الميثودية لها أيضاً المجلس العالمي للميثوديين الذي بدأ أعماله في عام ١٨٨١. وهذه المؤتمرات التي تجمع الوطنيين من أصحاب العقيدة الواحدة من عدة بلدان، أعطت الناس إحساساً جديداً بالوحدة في العقيدة والممارسة وساعدت على تدعيم وتقوية فكرة الاتحاد المسكوني الذي يجمع كل الطوائف معاً. لم تشهد الساحة الكنسية ما شهدته السنوات الأخيرة من الرغبة في التعاون ما بين الكنائس المختلفة وذلك منذ انعقاد المجامع المسكونية في نيقية والقسطنطينية وخلقدونية في القرنين الرابع والخامس.

في عام ١٨٤٦ وفي مدينة لندن وبحضور ما يقرب من ٨٠٠ شخص تم تأسيس الاتحاد الإنجيلي Evangelical Alliance الذي كان لديه إقرار إيمان له توجه لاهوتي محدد ويهدف إلى ربط الأفراد ببعضهم أكثر من التركيز على الكنائس إلا أن هذا الاتحاد ما لبث أن توقف نشاطه في عام ١٩٠٠ عندما ظهرت الهيئات المختلفة التي تشجع التعاون ما بين الطوائف إلى جانب تلك التي تنادي بالتعاون على النطاق الدولي. لكن هذا الاتحاد يُعتبر الخطوة الأولى على طريق تطور الحركة المسكونية الحديثة. ويوضح الشكل التوضيحي المرفق مراحل تطور مجلس الكنائس العالمي The World Council of Churches.

ومجلس الكنائس العالمي مدين بالكثير للعديد من المؤتمرات الدولية التي عقدتها الإرساليات والتي بدأت في عام ١٨٥٤ في مدينة نيويورك. كان هناك ما يقرب من ١٥٠٠ من القادة من كل أنحاء العالم يمثلون كل الطوائف الإنجيلية. أما الاجتماع الذي انعقد في أدنبره في عام ١٩١٠ فقد جمع ١٢٠٠ مندوب يمثلون ١٦٠ جمعية إرسالية تعمل في الخدمة التبشيرية. وكان التمثيل في هذه الاجتماعات تمثيلاً بحسب البلدان. وقد تأثر كل من تشارلز برنت Charles Brent (١٨٦٢-١٩٢٩)، وناثان سودربلوم Nathan Söderblom (١٨٦٦-١٩٣١)، ووليام تمبل William Temple (١٨٨١-١٩٤٤) تأثراً كبيراً بالطبيعة المسكونية لهذا الاجتماع حتى إنهم كرسوا حياتهم لإنجاز مهمة الدعوة للوحدة





المسيحية. وقد أرسى هذا الاجتماع الأساس لتكون مجلس الكنائس العالمي World Council of Churches. وكان من بين النتائج الهامة لمؤتمر أدنبره إصدار The International Review of Missions في عام ١٩١١ وتكوين المجلس المرسلي الدولي International Missionary Council في عام ١٩٢١. وقد انعقدت اجتماعات دولية أخرى جمعت بين مختلف الهيئات التبشيرية والكنائس المختلفة في القدس في ١٩٢٨ وفي مدراس (الهند) في ١٩٣٨. وفي "مدراس" ولأول مرة كان لبعض الكنائس الوطنية ممثلين لها في الاجتماعات.

أما أول اجتماع يتعرض لقضايا العقيدة اللاهوتية ونظم إدارة الكنائس فكان المؤتمر العالمي للإيمان والنظام الذي انعقد في مدينة لوزان Faith and Order Meeting at Lausanne في عام ١٩٢٧. كان الأسقف تشارلز برنت من الكنيسة الأسقفية في الولايات المتحدة، مدعوماً بتقدمة مالية كبيرة من بيرمونت مورجان Morgan، هو الشخص الذي قام بالجهد الأكبر في تحقيق اجتماع ما يزيد عن ٤٠٠ مندوب يمثلون ١٠٨ طائفة مختلفة. كان المشاركون يدركون أنهم واحد في إطار كنيسة واحدة رأسها المسيح وطالبوا بعقد اجتماع آخر مماثل. وقد عقد هذا الاجتماع في مدينة أدنبره في صيف عام ١٩٣٧ حيث ناقش موضوعات في العقيدة والنظام الكنسي وقد شارك في أعمال هذا المؤتمر ما يزيد عن ٥٠٠ شخص يمثلون ١٢٣ كنيسة من ٤٣ دولة تباحثوا معاً في القضايا اللاهوتية. ويبدو أن هؤلاء القادة كانت تلح عليهم فكرة الوحدة بالرغم من التنوع وهم يتباحثون في الإيمان المشترك والفرائض وطبيعة الكنيسة.

وشهدت تلك الفترة مجموعة أخرى من اللقاءات الدولية خصصت لبحث موضوع الحياة والعمل. وقد انعقد أول تلك اللقاءات في أغسطس ١٩٢٥ في مدينة ستوكهولم من خلال الجهد الذي قام به ناثان سودربلوم، رئيس أساقفة السويد. كان برنامج اللقاء يدور حول الوصول إلى وضع خطط لأجل نظام أفضل على الصعيد الاقتصادي والصعيد السياسي. حضر هذا الاجتماع ستمائة مندوب، يمثلون ما يزيد عن تسعين كنيسة من ٣٧ دولة، ولم يُنهِ الحاضرون اجتماعاتهم إلا بعد أن بحثوا إمكانية خلق مجلس عالمي يكون مقره في مدينة جنيف بسويسرا. وقد عقد اجتماع كبير مماثل في أكسفورد في عام ١٩٣٧ انضم إلى مؤتمر الإيمان والنظام Faith and Order الذي انعقد في إدنبره في وقت لاحق في صيف نفس العام، حيث خرجت منه الدعوة لإنشاء مجلس عالمي للكنائس يعمل على توحيد حركتي الإيمان والنظام والحياة والعمل معاً Life and Work.

وقد نتج عن اجتماع ثمانين من القيادات في مدينة أترخت في ربيع عام ١٩٣٨ صياغة مشروع دستور مؤقت،[٢] وخطة تنظيمية لمكاتب مجلس الكنائس العالمي، وإلى إنشاء لجنة مؤقتة تحضيرية تقوم على تنفيذ هذه الخطة. وفي الفترة ما بين ٢٢ أغسطس و ٤ سبتمبر ١٩٤٨، اجتمع ما يزيد عن ٣٥٠ مندوباً يمثلون ما يقرب من ١٥٠ كنيسة وينتمون إلى ٤٤ دولة وذلك في مدينة أمستردام Amsterdam. وقد أتم هذا المؤتمر مهمة تكوين مجلس مسكوني عالمي. لكن المعمدانيين الجنوبيين من الولايات المتحدة، والكنيسة الكاثوليكية التابعة لروما واللوثريين التابعين لسنودس ولاية ميسوري لم ينضموا أبداً لمجلس الكنائس العالمي. وتحقق الحلم

الذي كان يطوف بخيال وليم تمبل بإيجاد منظمة كنسية دولية وذلك عندما ناقش المندوبون والوفود شفاء "الفوضى الإنسانية والتنظيم الإلهي". كان الكثيرون من المساندين الأساسيين لهذا المشروع من الجريكيين الذين كان لهم دورهم أيضاً في المجلس الاتحادي للكنائس. وكان أبرز نتائج ذلك المؤتمر هو تكوين مجلس الكنائس العالمي وإعلان جنيف مقراً رئيسياً. ويتألف مجلس الكنائس العالمي من جمعية عمومية تنعقد مرة كل سبع سنوات، ثم لجنة مركزية تجتمع سنوياً، وسكرتارية إدارية، ثم لجان مختلفة تعمل كل منها في مجال إحدى المشكلات الرئيسية التي تواجه المنظمة ككل.[٣] وقد انضمت عدة كنائس أرثوذكسية من الدول الشيوعية إلى عضوية المجلس، وقد أضيفت عبارة "بحسب الكتب" إلى إقرار الإيمان الخاص بالمجلس في الاجتماع الذي عقد عام ١٩٦١ في مدينة نيودلهي في الهند.

ومنذ انعقاد الدورة الرابعة لمجلس الكنائس العالمي في مدينة أبساي في السويد في عام ١٩٦٨ تزايد اتجاه المجلس نحو اليسار في مواقفه من القضايا الاجتماعية والاقتصادية و أيضاً في مواقفه السياسية، مما جعل الخلاص في مفهوم المجلس أرضياً مادياً أكثر منه خلاصاً روحياً. وفي انعقاد إحدى لجان المجلس في مدينة بانكوك في تايلاند في عام ١٩٧٣ لمناقشة موضوع "الخلاص اليوم" اتجه الحاضرون إلى اعتبار الخلاص اليوم هو عملية إضفاء الجانب الإنساني على المجتمع وذلك بتحرير البشر من كل أشكال الظلم والاستغلال وخلق مجتمع جديد على الأرض. أما الدورة الخامسة للجمعية العامة التي عقدت في نيروبي في كينيا في عام ١٩٧٥ فإنها اتخذت موقفاً مسانداً "لبرامج المقاومة غير المسلحة" للثورة وتبنت ما يمكن اعتباره من ضمن اتجاهات لاهوت التحرر الذي ينزع نحو تطبيق الاشتراكية على المجتمعات المحررة.

وقد تعاون كل من المجلس الأمريكي للكنائس المسيحية American Council of Christian Churches والرابطة القومية للإنجيليين National Association of Evangelicals للرد على محاولات القوى الليبرالية التي تسعى لخلق كنيسة مسكونية. فجاء ردهم بتكوين منظمات دولية محافظة. فتأسس المجلس الدولي للكنائس المسيحية International Council of Christian Churches في أمستردام عام ١٩٤٨ قبل الاجتماع السالف ذكره في أمستردام بأسبوعين فقط وكان الهدف من تأسيس ذلك المجلس مقاومة الليبرالية وتطوير وتنمية الروح الإنجيلية حول العالم. وفي اجتماع انعقد في هولندا في أغسطس ١٩٥١، خرجت الرابطة الإنجيلية العالمية World Evangelical Fellowship إلى الوجود لتوفير مجال تتحقق فيه الشركة بين الإنجيليين والتنسيق ما بين أعمال (الرابطة القومية للإنجيليين) وجهود الإنجيليين حول العالم. وقد سبق لنا عرض محاولات التعاون بين مجلس الكنائس العالمي والكنيسة الكاثوليكية في روما.

وإذ يحاول المرء النظر إلى هذه الحركة التي استهدفت تحقيق وحدة الكنيسة المسكونية (حول العالم) بنظرة موضوعية، لا يستطيع المرء إلا أن يتساءل إن كان المسيح عندما تحدث عن وحدة الكنيسة في العالم كان يقصد هذا النوع من الوحدة التنظيمية التي تم وصفها واستعراضها في هذا الفصل؟ أو أن المسيح قصد وحدة روحية يتمتع بها





المؤمنون الذين هم أعضاء كنيسته غير المنظورة، جسد المسيح الحقيقي، والتي تتحقق فيما بينهم من خلال المسيح الذي هو الرأس. ستظل الكنيسة الحقيقية دائماً كياناً عضوياً حياً يستمد حياته من المسيح، ولا ينبغي أن يحاول البشر أبداً أن يستعيضوا عن هذه الوحدة الروحية بأي محاولات تنظيمية من صنع البشر. فإن هذه الوحدة الروحية هي التي تجعل من الكنيسة الكيان الحقيقي الدولي الوحيد في هذا العالم. ومثل هذه الوحدة الروحية لا ولن تمثل في يوم من الأيام تهديداً للإيمان القويم الذي تسلمته الكنيسة وحافظت عليه كل حياتها. الأمر الذي لم يستوعبه مجلس الكنائس العالمي عندما اتجه نحو التقليل من أهمية العقيدة سعياً وراء تحقيق الوحدة التنظيمية بين أعضائه.

## ٣- التوسع المسيحي والانتعاش الروحي

حاولت الاتجاهات اللاهوتية المتطرفة أن تربط الكنيسة بالعالم الدنيوي وذلك عن طريق النظرية الماركسية للاقتصاد والنسبية والوجودية، لكن هذه الاتجاهات قد بدأت تتعرض لعملية الاضمحلال أو الذبول مثلما حدث لليبرالية والأرثوذكسية الجديدة من قبلها في العقود السابقة. والمسكونية أيضاً تتعرض للمشاكل وذلك لأنها تجاهلت بشكل عام الدور الكرازي المنوط بالكنيسة لكي تدعم وتساند الثورات الراديكالية سواء كانت اجتماعية أو سياسية. ومن ناحية أخرى واجهت الحركة المسكونية عاملاً مثبطاً لجهودها ظهر في اللامبالاة بل وفي الروح العدائية التي تتعرض لها رسالتها من عامة الشعب الذين يفترض أنهم الجذور الأولية لتلك الحركة.

وقد أبرز دين كيلي Dean Kelley في كتابه "لماذا تنمو الكنائس المحافظة"[٤] حقيقة تناقص أعداد الكنائس التي تساند الاتجاهات اللاهوتية المتطرفة والحركة المسكونية في مواجهة الزيادة الغير متوقعة في عضوية الكنائس الإنجيلية المحافظة. وبينما لم تحدث نهضة روحية تشمل كل العالم منذ تلك التي حدثت في الفترة من ١٩٠١-١٩٠٧، إلا أن العالم قد شهد بعض الانتعاشات الروحية الإقليمية أو المحلية والتي تحدث في المجتمعات الريفية الزراعية أكثر من حدوثها في الدول التي تعتمد على الصناعة والمدن الكبرى. وقد اختبرت الكنائس الأسقفية وغيرها من الكنائس في كينيا وأوغندا انتشار النهضة الروحية والكرازة فيما بعد عام ١٩٣٠، ومازالت النهضة مستمرة في تلك المنطقة حتى اليوم. وقبائل الولامو في أثيوبيا، والتي لم يكن بها سوى عدد قليل من المؤمنين وصل عدد المؤمنين فيها عندما اضطر المرسلون أن يرحلوا ويتركوهم بسبب الحرب الأثيوبية في منتصف الثلاثينيات، إلى ما يقرب من ١٠٠ ألف في عام ١٩٦٤.

وشهدت أندونيسيا انتعاشاً روحياً بدأ في عام ١٩٦٥، وإن كان قد لقي قدراً من المبالغة في تغطيته بواسطة الإعلام المسيحي، إلا أنه من الثابت أن ما يقرب من ٢٠٠ ألف شخص قد تحولوا إلى المسيحية في الفترة من ١٩٦٥-١٩٦٧ في جزيرة تيمور. والنهضة في كوريا مازالت مستمرة حيث بلغت نسبة المسيحيين إلى عدد السكان ما يقرب من ٢٠ بالمئة.

وقد شهد العالم الغربي بدوره بعض الانتعاشات الروحية. ففي عام ١٩٥٠ شهدت كلية

هويتون Wheaton College نهضة بين طلابها وأيضًا كلية أزبري Asbury College في عام ١٩٧٠. وكان لتلك النهضة تأثير كبير على الجامعات الأخرى حيث نظَّم الطلبة فرقًا خرجت لتشهد عن عمل الله. وأيضًا في عام ١٩٧١ جرت النهضة التي عرفت باسم The Saskatchewan Revival والتي بدأت نتيجة لخدمة رالف سوتيرا وزوجته "لو" حيث خدما في كنيسة حجر المعونة المعمدانية التي يرعاها وليم ماكلود William McLeod's وقد أشعلت هذه النهضة الانتعاش في كل أقاليم البراري في كندا. وخدمة بيلي جراهام Billy Graham وغيره كثيرون من المبشرين، وأيضًا الحركة الكاريزماتية في مختلف الطوائف وحركة النهضة وسط الشباب في الستينيات، هذه كلها إنما تشهد عن استمرارية عمل الروح القدس في الكنائس.

وفي أفريقيا بلغ عدد المسيحيين ما يقرب من ٢٠٠ مليون شخص، وهو ما يقرب من نصف عدد سكانها، وهذه الأعداد مستمرة في الزيادة. وأبرز احتياجات الخدمة في أفريقيا هو تدريب القيادات المحلية وتطوير خدمة الكنائس المحلية الوطنية. ولعل أعظم إنجاز وأنفع إسهام يمكن أن يقوم به المبشرون في أفريقيا هو تدريب القيادات الوطنية في مختلف الكنائس.

وتشهد أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية نموًا في الكنائس الإنجيلية لم تشهده هذه المناطق من قبل، وبالذات في الأوساط الخمسينية سواء في شيلي أم البرازيل. وقد عقد المبشر لويس بالاو Luis Palau عدة حملات كرازية ناجحة في بعض المدن الرئيسية الناطقة بالإسبانية.

والمسيحية في أوربا الشيوعية وفي أسيا أقرب ما تكون إلى حياة الكنيسة التي يحدثنا عنها سفر أعمال الرسل. فالمسيحيون في هذه البلاد يجتمعون ويخدمون في السر، لكن نمو الكنيسة هناك منتظم ومتزايد والكنيسة المعمدانية الروسية تحتضن ما يزيد عن ٥٠٠ ألف شخص. والأبواب تنفتح كل يوم للكرازة في الصين الشيوعية في الأعوام الأخيرة.*

وبالرغم من كل هذه التوسعات، إلا أن المسيحية ليست هي دين الأغلبية في عالم اليوم. ففي عام ١٩٧٨ كان عدد المسيحيين من كل المذاهب يزيد عن ٩٥٠ مليون وعدد المسلمين ٧٠٠ مليون والهندوس ما يزيد عن ٥٠٠ مليون وذلك من إجمالي تعداد العالم في ذلك العام الذي بلغ أربعة بليون نسمة. لذلك فالمسيحيون الذين يبلغ عددهم ربع تعداد سكان العالم مازال أمامهم عمل كبير.

* هذه المعلومات عن الكنيسة في روسيا قبل انهيار الشيوعية. (المحرر)





## اقتراحات للقراءة


*Abbott, Walter M.A.* Documents of Vatican II. *New York: Herder, 1966.*

*Armerding, Carl, ed.* Evangelicals and Liberation. *Nutley, N.J.: Presbyterian and Reformed, 1977.*

*Bell, George K.A., ed.* Documents on Christian Unity. *London: Oxford University Press, 1955.*

*Berkouwer, G.C.* The Second Vatican Council and the New Catholicism. *Grand Rapids: Eerdmans, 1965. This is an optimistic description and interpretation of the new Roman Catholic spirit.*

*Betthge, Eberhard.* Deitrich Bonhoeffer. *Evanston, Ill.: Harper, 1970. This is a definitive biography.*

*Blanshard, Paul.* American Freedom and Catholic Power. *2nd rev. and enl. ed. Boston: Beacon, 1958.*

*Bloch-Hoell, Nils.* The Pentecostal Movement. *Norway: Universitetsforlaget, 1964. This is a scholarly, documentary study. Brown, Robert M. The Ecumenical Dialogue. Garden City, N.Y.: Doubleday, 1967.*

*Burton, Katherine B.* Leo the Thirteenth. *New York: Mackay, 1962.*

*Cavert, Samuel M.* The American Churches in the Ecumenical Movement, 1900-1968. *New York: Association, 1968.*

____. Church Cooperation and Unity in America, 1900-1970. *New York: Association, 1970.*

*Claybaugh, Gary.* Thunder on the Right. *Chicago: Nelson-Hall, 1974. This is an unsympathetic account of right-wing evangelicalism.*

*Cole, Stewart G.* History of Fundamentalism. *New York: Harper, 1931. This is a good account of fundamentalism, but from a liberal viewpoint.*

*Conn, Harvie M.* Contemporary World Theology. *Nutley, N.J.: Presbyterian and Reformed, 1973. Contemporary theologies are outlined and evaluated.*